



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمّة لخضر - الوادي
كلية العلوم الاجتماعية والانسانية
قسم العلوم الإنسانية



الموضوع:

دور الأقليات الدينية في المجتمع العراقي خلال العهد العثماني
(1517-1917م)

أطروحة مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة دكتوراه العلوم

تخصص: تاريخ حديث ومعاصر

إشراف الأستاذ الدكتور:

محمد عبد الرؤوف ثامر

إعداد الطالب:

عبد الحميد الأرقط

لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الصفة	الجامعة
أ.د. علي غنابزية	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة الوادي
أ.د. محمد عبد الرؤوف ثامر	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة الوادي
أ.د. مبارك جعفري	أستاذ التعليم العالي	مناقشا	جامعة أدرار
د. الجباري عثماني	أستاذ محاضر - أ-	مناقشا	جامعة الوادي
د. الطاهر سبقاق	أستاذ محاضر - أ-	مناقشا	جامعة الوادي
د. صالح حيمر	أستاذ محاضر - أ-	مناقشا	جامعة تبسة

السنة الجامعية: 1440هـ/1441هـ - 2019م/2020م

إلى من دفعاني

إلى من دفعاني لطلب العلم والدفاع عن الفضيلة والدي العزيزين أطال الله عمرهما،

والى كل إخوتي كل باسمه، وخالتي وعمي العزيزين

إلى زوجتي ورفيقة دربي، والى أبنائي البراعم.....

علاء الدين وياسمين وإسراء ومحمد فخري ...

إلى أستاذي الفاضل الدكتور ثامر محمد عبد الرؤوف والى كل أساتذة قسم العلوم

الانسانية بجامعة حمه لخضر بالوادي وإلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة والى

كل من ساعدني من قريب أو بعيد في السير على درب العلم

الى الأستاذ الفاضل المتخصص في شؤون الأقليات في العراق الدكتور سعد سلوم

رئيس تحرير مجلة مسارات للتنمية الثقافية والاعلامية .

إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع.....

عبد الحميد الأرقط

20 جوان 2020



« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا
وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

سورة الحج: الآية 17 .

الملخص

تتناول الدراسة موضوعا أسال الكثير من الحبر في ظل كثرة النزاعات والحروب في المناطق المختلفة من العالم، خاصة مع مطلع القرن الواحد والعشرون، وقد كانت هذه النزاعات غالبا ما تغذيها الاختلافات العراقية والدينية، كما اتخذت الأقليات بشكل عام ذريعة للتدخل في الشؤون الداخلية للدول، لذلك فإن المجتمع العراقي هو أنموذج حي للبلدان التي تعرف تنوعا عرقيا ودينيا كبيرا، وتأتي هذه الدراسة في هذا السياق حيث تسلط الضوء عن تاريخ وأدوار الأقليات الدينية في العراق خلال العهد العثماني (1517-1917م) مقسمة الى أربعة فصول حيث تضمن الفصل التهميدي تعريفا جغرافيا وتاريخيا ببلاد العراق خلال فترة الدراسة وكذلك مفهوم الأقليات الدينية، والفصل الأول يتطرق لتاريخ وأدوار الأقلية اليهودية سياسيا واقتصاديا وثقافيا، فيما تناول الفصل الثاني أدوار الأقلية النصرانية أيضا سياسيا واقتصاديا وثقافيا، فيما قسم الثالث الى قسمين تناول القسم الأول أدوار أقلية الصابئة المندائية في المجتمع والقسم الثاني الأقلية الأيزيدية وأدوارها أيضا سياسيا واقتصاديا وثقافيا .

Summary

The study deals with a topic that has received a lot of ink in light of the conflicts and wars frequent in different parts of the world, especially with the start of the 21st century, and these conflicts have often been fueled by ethnic differences. and religious, and minorities in general have been used to interfere in the internal affairs of countries, therefore, Iraqi society is a living model for countries that experience great ethnic and religious diversity, and this study fits in this context because it sheds light on the history and roles of ethnic minorities in Iraq during the Ottoman era (AD 1517-1917). Divided into four chapters; whose introductory chapter included geographical and historical surveys of the country of Iraq during the study period, as well as the concept of religious minorities, and the first chapter deals with the history and roles of the Jewish minority politically, economically and culturally, while the second chapter deals with the political, economic and cultural roles of the Christian minority. While the third part was divided into two parts, the first dealt with the roles of the Mandeian minority in society, and the second part dealt with the Yazidi minority and its political, economic and cultural roles.

مقدمة

المقدمة

تميزت بلاد العراق عبر تاريخها الطويل بتنوع مجتمعاتها عرقيا ودينيا، فلطالما تميز بالتنوع والتنوع نظرا لعدة عوامل مساعدة مثل الموقع الجغرافي الاستراتيجي الذي يتمتع به العراق، والذي شكل عبر التاريخ ملتقى المواصلات، وهمة الوصل بين الشرق والغرب لعدة قرون، كما كان العراق قبلة لهجرات عديدة للشعوب القديمة كالشعوب الهندو أوروبية، والشعوب الهندو إيرانية، فنشأت على أطراف دجلة والفرات حضارات انسانية عظيمة في فترتي ما قبل التاريخ والتاريخ القديم، حيث تمازجت فيها عدة عرقيات مختلفة شكلت مجتمعا متعدد الأعراق منذ قديم الزمان، كما عرفت هذه الحضارات عدة أديان كديانات البابليين، الآشوريين والسومريين وغيرهم، اضافة الى التأثير والتأثر الذي يحصل عادة مع المحيط الجغرافي الذي انتشرت وازدهرت به عدة أديان أخرى كديانات بلاد فارس والشام ومصر، ومن ثم وصلت الى العراق وانتشرت به كالزرداشتية والمناوية وكذلك الديانتين اليهودية والنصرانية، فأصبح العراق بحق مجمعا لعدة أديان تصارعت فيما بينها أحيانا وتعايشت مع بعضها أحيانا أخرى.

هذا، وقد كان من الطبيعي أن يكون من نتائج ذلك الصراع اندثار بعض الأديان تماما، لكن أديان أخرى صمدت وحافظت على معتقداتها وعلى بقائها، وعندما فتح المسلمون بلاد العراق في القرن السابع الميلادي قضوا على أغلب الأديان الوثنية هناك، فيما كانت معاملتهم لأتباع الديانات السماوية وفق ما نصت عليه الشريعة الاسلامية فحفظت لهم كرامتهم، وأموالهم، وأماكنهم، مقابل الجزية، عدا حالات فردية نادرة لبعث الحكام، وبذلك بقي العراق محافظا على ميزته التي عرفت عنه عبر مر التاريخ مجتمع متنوع ومتعدد دينيا وعرقيا بالرغم من كل العواصف التي مرت به.

ومنذ القرن السادس عشر، ومع بروز الدولة العثمانية كقوة عظمى، توسعت شرقا وغربا فضمت أغلب البلاد العربية من بينها العراق، فبدأت مصطلحات سياسية جديدة بالظهور مثل الامتيازات الأوروبية وحماية الأقليات بالظهور شيئا فشيئا، وبدأ اهتمام الباحثين والدارسين بهذه الاشكاليات يتزايد خاصة حماية الأقليات بالتزامن مع تزايد اهتمام الممالك والدول الأوروبية بالموضوع، ويمكن القول أن هذه البلدان اتخذت حجة حماية الأقليات نقطة ارتكاز لسياساتها اتجاه الدولة العثمانية، ووسيلة لتحقيق مكاسب عاجزت عن تحقيقها بالقوة العسكرية، وقد ساعد في نجاح الخطط الأوروبية تساهل بعض السلاطين العثمانيين الذين منحوا امتيازات لعدة بلدان أوروبية، سمحت ومكنت لها بمد جسور التواصل مع هذه الأقليات.

ومع تدهور أوضاع الدولة العثمانية منذ القرن السابع عشر زادت التدخلات الأوروبية بشكل سافر، وزادت مطالباتها بتحسين أوضاع الأقليات، وجردت لذلك كل أسلحتها لتحقيق أهدافها الخفية بما فيها الدعاية المغرضة وتشويه الوقائع عبر تقارير قتاصلها، وكتابات بعض الرحالة الأوروبيين الذين زاروا أراضي الدولة العثمانية، الذين كثير منهم نقلوا صورة يشوبها كثير من التجني عن معاملة الدولة العثمانية للأقليات، وهنا لسنا بصدد الدفاع عن الدولة العثمانية بل لتبين الحقيقة، وفي هذا الاطار تأتي دراستنا هذه التي تدرس واقع الأقليات الدينية في العراق وتفاعلها وأدوارها خلال تلك الحقبة من تاريخ العراق.

دواعي اختيار الموضوع: إن الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع كثيرة ومتعددة أهمها:

أولاً: نقص الدراسات التي تطرقت لتاريخ الأقليات بشكل عام في العالمين العربي والإسلامي في حدود اطلاعي، حيث لم يأخذ هذا الموضوع نصيبه من الدراسة، رغم كونه موضوعاً مهماً خاصة مع بداية القرن العشرين والاضطرابات التي عرفت بها البلدان العربية، ومحاولات القوى الغربية حشر أنفها في الشؤون الداخلية لهذه البلدان بحجة حماية الأقليات والدفاع عن حقوق الإنسان وغيرها من الذرائع التي تسوقها في هذا الصدد.

ثانياً: الهجمات الشرسة التي تقودها القوى الغربية على الدين الإسلامي، ومحاولات التشويه المستمرة لكل ما له علاقة بالإسلام، واستغلالها لأي شيء تتعرض له الأقليات الدينية وحتى العرقية وتوظيفها لتصوير الإسلام على أنه دين عنف، وأن المسلمين نشروا هذا الدين بالسيف أي بالقوة، وأن المسلمين يجبرون أتباع الأديان الأخرى على ترك أديانهم بالقوة، ويحاربون كل من يخالفونهم في الدين، وهو الأمر الذي سنتبينه من خلال هذه الدراسة ان كان صحيحاً ما روجت له دوائر الاعلام الغربية.

ثالثاً: المعلوم عند الباحثين والدارسين أن أوروبا المسيحية كانت أول من مارس التعصب الديني في العصر الحديث، أي مع أواخر القرن الخامس عشر، وبداية القرن السادس عشر عندما طرد المسلمين واليهود من ديارهم في الأندلس، عندما تم إنشاء محاكم التفتيش التي تعتبر أكبر أداة لممارسة التعصب الديني، وإجبار الناس على ترك أديانهم، واعتناق النصرانية قسراً، في حين قام العثمانيون باحتضان هؤلاء المضطهدين بما فيهم اليهود، مع هذا نسمع كل يوم أصواتاً تحاول أن تلصق التعصب الديني بالإسلام، مع العلم أن المسلمين عبر تاريخهم عاشت في أوساطهم أديان متعددة ومختلفة، ولم

يمارس ضدهم أي نوع من أنواع التعصب الديني إلا في حالات فردية ونادرة، وهو ما تجيبنا عنه هذه الدراسة ان كان المسلمون قد تعصبوا دينيا ولاحقوا مخالفاتهم، وحاربوهم أم لا.

رابعاً: الرغبة في فهم موضوع الأقليات التي طالما سمعنا عنها في وسائل الإعلام، والغوص في حثياتها وأبعادها، فاخترت هذا الموضوع الذي يمكننا من التعرف على تفاعل وأدوار الأقليات الدينية في العراق خلال العهد العثماني في مجالات الحياة العامة، وكذلك علاقات تلك الأقليات ببعضها البعض، وأيضاً يمكننا من التعرف على مدى اندماجها في المجتمع العراقي، إضافة الى معرفة وزن وأهمية كل أقلية من تلك الأقليات بالنسبة للمجتمع العراقي والمجتمع العثماني بشكل عام.

خامساً: ميلي الشخصي لبلاد العراق الشقيق الذي أجد أنه من أحب البلدان العربية والاسلامية لقلبي، فهذا البلد بتاريخه العريق، وفضل حضارات بلاد الرافدين على الانسانية جمعاء، يستحق منا كباحثين أن نساهم في الكتابة حول حقباته التاريخية المختلفة، كما أن تنوع المجتمع العراقي دينياً وعرقياً، يعتبر ميزة ايجابية جديرة بالوقوف عندها وإلقاء الضوء على كل أبعادها وحثياتها.

اشكالية الدراسة: على ضوء ما ذكرناه فان اشكالية الدراسة هي:

تفاعل وأدوار الأقليات الدينية في المجتمع العراقي على الصعيد السياسي، والاقتصادي، وكذلك الاجتماعي والثقافي خلال العهد العثماني (1517-1917م)؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية الرئيسية عدة إشكاليات فرعية هي:

التعريف بالعراق وتاريخه وأوضاعه في العهد العثماني، وكذلك التعريف بمصطلح الأقليات الدينية.

تفاعل وأدوار الأقلية اليهودية في العراق خلال العهد العثماني (1517-1917م).

تفاعل وأدوار الأقلية النصرانية في المجتمع العراقي خلال نفس الفترة.

تفاعل وأدوار أقلية الصابئة المندائيون في المجتمع العراقي خلال العهد العثماني (1517-1917م)

تفاعل وأدوار الأقلية الأيزيدية في المجتمع العراقي خلال نفس الفترة؟

مناهج الدراسة: لدراسة هذا الموضوع دراسة علمية، وللإلمام بكل جوانبه، اتبعت في ذلك عدة مناهج تتكامل فيما بينها، للوصول إلى أفضل النتائج وهي:

المنهج التاريخي النقدي والتوثيقي:

اعتمدت على هذا المنهج في أغلب فصول الدراسة، لأنه المنهج الذي يتناسب مع طبيعة الموضوع التاريخي، حيث اعتمدت **وصف** و**سرد** الأحداث والتطورات كما حدثت، قبل تحليلها أو التعليق عليها، ولأن الأحداث التي تخص الأقليات الدينية الواردة في الدراسة كثيرة ومتعددة، وجب التطرق إليها بالسرد والوصف بدقة وموضوعية، وتتبع تطوراتها بالتفصيل، بالإضافة إلى تحليل الأحداث تحليلًا موضوعيًا، لأن الاعتماد على الوصف والسرد وحدهما لا يكفيان للوصول للنتائج المرجوة من الدراسة، فتعاضد أدوار أقلية ما في مجال معين لا بد أن له أسباب ودوافع، كما لا بد أن له نتائج وانعكاسات. كذلك ابتعاد أقلية ما عن مجال معين من مجالات الحياة العامة له أيضا أسباب، كما أن له نتائج وانعكاسات، لذلك فإن هذا المنهج يمكننا من التجليل والتركيب، وتكوين صورة شبه متكاملة عن أدوار هذه الأقليات الدينية في العراق، وتفاعلها داخل المجتمع، وبالتالي يمكننا من تحقيق الأهداف من هذه الدراسة.

المنهج المقارن:

لأن الدراسة تتناول فترة زمنية محددة، كان لا بد من دراسة أحوال وأوضاع الأقليات الدينية في العراق خلال العهد العثماني مقارنة مع الفترات التاريخية السابقة، حتى نتمكن من التعرف بدقة عن أوضاع هذه الأقليات خلال فترة الحكم العثماني مقارنة بالفترات السابقة من جهة، وكذلك مقارنة أوضاعها بأوضاع مثيلاتها في بلدان أخرى عربية أو أوروبية، للتعرف على أحوال وتأثير كل أقلية على حدى، وبالتالي التعرف على مدى تأثيرها في مجالات الحياة المختلفة.

المنهج الإحصائي:

اعتمدت على المنهج الإحصائي لأنه ضروري في بحثنا هذا كوننا سنتطرق للأقليات من حيث أعدادها وتزايدها، وكذا تناقصها خلال فترة الحكم العثماني، وعليه لا بد من إدراج جداول ومنحنيات، وكذلك أعمدة بيانية تقربنا من تطور هذه الأقليات من حيث الأرقام وحتى في مجالات الحياة العامة داخل المجتمع العراقي .

الدراسات السابقة: تعددت الدراسات حول موضوع الأقليات في العراق خلال فترات تاريخية مختلفة من زوايا متعددة، لكن أغلب هذه الكتابات تتناول كل أقلية على حدى، كما أن أغلبها

ركزت على الجوانب العقائدية والعبادات والطقوس، وتاريخ هذه الأقليات، ومن أهم هذه الدراسات نذكر:

رشيد الخيون: **الأديان والمذاهب في العراق**، تعد أهم دراسة تتناول أديان العراق ومذاهبه المختلفة، بما فيها الأغلبية أو الأقليات، جاء في ثلاثة أجزاء، تناول خلالها الكاتب السنة والشيعية، وديانتى الأقليتين اليهودية والنصرانية، إضافة للصابئة والأيزيدية، وأغلب الطرق الصوفية المختلفة التي انتشرت في العراق، ورغم أن الأديان والمذاهب والطرق الصوفية كثيرة جدا إلا أن المؤلف تميز بالموضوعية والدقة والتفصيل، معتمدا على أمهات الكتب، وعلى زيارات ميدانية الى أتباع هذه الطوائف الدينية المختلفة.

الدراسات السابقة عن الأقلية اليهودية:

يوسف رزق الله غنيمه: **نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق**، يعد الكتاب من أهم المصادر التي تتناول تاريخ يهود العراق منذ أول تواجد لهم بهذه البلاد، حيث يسرد المؤلف من خلاله تاريخهم الطويل عبر العصور المختلفة بما فيها فترة الحكم العثماني، وبروي كل ما تعرضوا له من نكبات، وأيضا يتضمن ملخص أدوارهم في كل حقبة من الحقبات التاريخية.

يعقوب يوسف كورية: **يهود العراق (تاريخهم - أحوالهم - هجرتهم)**، يغطي المؤلف من خلاله كتابه فترة تمتد من أواخر القرن التاسع عشر الى غاية منتصف القرن العشرين، ويتناول انتشار وتوزيع اليهود داخل مدينة بغداد، وغيرها من المدن العراقية، إضافة الى مواقف الأقلية اليهودية من التطورات السياسية، وأنشطتهم الاقتصادية والثقافية، خصوصا سيطرتهم على دواليب الاقتصاد العراقي كالتجارة داخليا وخارجيا، والصيرفة، إضافة الى هجرتهم نحو دولة الكيان الصهيوني.

غادة حمدي عبد السلام: **اليهود في العراق (1856-1920م)**، رسالة ماجستير تخصص تاريخ حديث ومعاصر جامعة المنصورة، وتعد هذه الدراسة من بين أحسن الدراسات المعمقة حول الأقلية اليهودية في العراق أواخر العهد العثماني لاسيما في الجوانب الاقتصادية كالتجارة والزراعة والنشاط المصرفي لليهود، إضافة الى تطرقها لأهم المدارس اليهودية، وأنشطتهم الثقافية، والاجتماعية في نفس الفترة.

الدراسات السابقة عن الأقلية النصرانية:

سهيل قاشا: **تاريخ نصارى العراق في العهد العثماني**، تعد كتابات الأب سهيل قاشا حول نصارى العراق عبر التاريخ من أهم الدراسات حول هذه الأقلية، ومنها هذا الكتاب الذي يتطرق

لأوضاعهم وأدوارهم خلال العهد العثماني، وانتشارهم السكاني، وكذلك أنشطتهم، وأهم الشخصيات والأعلام النصرانية في المجالات المختلفة حتى بدايات القرن العشرين.

رفائيل بابو اسحاق: **تاريخ نصارى العراق (100-2006م)**، يعتبر الكتاب من أهم الكتب التي تناول تاريخ الأقلية النصرانية في العراق منذ عام 100م، حيث يتطرق الكاتب الى أحوال النصارى عبر العصور المختلفة معرجا على المحن التي مروا بها بين الحقب التاريخية المختلفة، كما يتناول أيضا اسهاماتهم في مختلف المجالات بما فيها آثارهم وأديرتهم والمناطق التي أقاموا بها، اضافة الى ابراز أدوار شخصيات نصرانية كانت لها آثار مهمة عبر التاريخ.

دهام محمد العزاوي: **مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)**، يتناول الكتاب تاريخ الديانة النصرانية منذ بداية تواجدها في بلاد العراق، فيذكر عوامل انتشارها، وأهم حواضرها وكنائسها، والصعوبات التي واجهتها في المنطقة، كما يتناول أيضا مساهمات النصارى الاقتصادية والثقافية والسياسية عبر تاريخهم في العراق، كم يبرز أهم التحديات التي تواجه هذه الأقلية في وقتنا الحاضر.

الدراسات السابقة حول أقلية الصابئة المندائية:

الليدي دراور: **الصابئة المندائيون** تعريب نعيم بدوي وغضبان الرومي، وهو كتاب للمستشرقة البريطانية الليدي دراور التي التحقت بزوجها الذي عين قاضيا في البصرة مع بداية الانتداب البريطاني في العراق عام 1919م، لتلتحق به عام 1920م، وتستقر بالعراق، وكانت معاشتها للصابئة لمدة أربعين عاما، كتبت خلالها عن معتقداتهم، وطقوسهم، وعباداتهم، وطبقاتهم، وتاريخهم وغيرها، لذلك اعتبرت الدراسة من أهم الكتابات التي تتحدث عن هذه الديانة في القرن العشرين.

عبد الرزاق الحسني: **الصابئون ماضيهم وحاضرهم**، يعد هذا الكتاب في طبعته الثالثة من أبرز الدراسات في التاريخ المعاصر التي تناول تاريخ هذه الأقلية ومعتقداتها، وطقوسها، وعباداتها، وأيضا بعض أنشطتهم الاقتصادية، حيث استفاد الكاتب من بعض الأخطاء التي وقع بها في الطبعتين الأولى والثانية، لذلك كانت هذه النسخة أكثر توازنا، أدق من حيث المعلومات التي تتعلق بهذه الديانة.

صادق شهيد الطائي **سحر الفضة.. سر الماء (دراسة أنثروبولوجية لطائفة الصابئة في العراق)**، تتميز هذه الدراسة عن غيرها بأنها بالاضافة الى تطرفها للعقائد والطقوس والعبادات ركزت على عدة جوانب اجتماعية كانتشارهم في البلدات والقرى، وأنشطتهم الاقتصادية بشكل مستفيض،

حيث تناول الكاتب بالتفصيل الأنشطة الاقتصادية كالصباغة، وصناعة القوارب، وبعض الحرف الأخرى.

الدراسات السابقة عن الأقلية الأيزيدية:

صديق الدمولوجي: اليزيدية، تعد الدراسة موسوعة حقيقية حول هذه الديانة وكل ما يتعلق بها من حيث المعتقدات والطقوس والعبادات، والطبقات الروحية والأمراء والكتب الدينية، ناهيك عن العادات والتقاليد، وبعض الأساطير التي يعتقدونها، بالإضافة الى ذلك فقد تناول المؤلف أهم القبائل والعشائر الأيزيدية، وأنشطتها الاقتصادية، كما أورد الكاتب في آخر الكتاب رؤيته النقدية لأغلب الدراسات التي تطرقت لديانة الصابئة المندائية من مستشرقين ومسلمين.

زهير كاظم عبود: الأيزيدية حقائق خفايا وأساطير، تدخل هذه الدراسة في اطار بحث الكاتب المستمر في كسر سرية العقيدة الأيزيدية، وقد اجتهد كثيرا للكشف عن قدم هذه الديانة بالأدلة والحجج، ويأتي ذلك في ظل صراع بين الباحثين حول أصولها، حيث يذهب كثير منهم في اتجاه أنهم فرقة اسلامية ظالة، وهو ما يرفضه الكاتب، ويؤكد في دراسته أنها من بقايا الديانات القديمة لبلاد ما بين النهرين، وأن سبب اللغط هو سرية الديانة من جهة، والخوف من البطش الذي يتعرض له الأيزيديون من جهة أخرى.

سعيد الديوه جي: اليزيدية، يتناول المؤلف في كتابه تاريخ هذه الديانة منذ عهد الشيخ عدي بن مسافر، وباقي مشايخهم، وكذلك يتطرق لمعتقداتهم وكتبهم وعباداتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، كما يحاول الكاتب أن يثبت حقيقة أن هذه الجماعة لا تعدو كونها فرقة اسلامية ضالة، كما يتطرق الى ذكر بعض القبائل العربية التي تأثرت بعقائد هذه الجماعة، وأهم أضرحتهم ومعابدهم الدينية.

خطة البحث: ارتأينا للإمام بإشكالية البحث قدر المستطاع أن نقدم فصلا تمهيدا لإشكاليات الدراسة ثم نتناول الأقليتين اليهودية والنصرانية كل أقلية منهما في فصل مستقل، ثم في الفصل الثالث ندرج الأقليتين المتبقيتين في فصل واحد، والسبب الحجم الديمغرافي الأقل للصابئة والأيزيدية مقارنة باليهود والنصارى مما ينعكس على أدوارهم، وفي حال تناول كل أقلية منهما على حدى يحدث خللا كبيرا من حيث توازن القصول، وعليه تم تقسيم الدراسة الى أربعة فصول هي:

الفصل التمهيدي: مقسم الى خمسة مباحث تناول الأول تاريخ العراق قبل العهد العثماني، وفي المبحث الثاني أوضاع العراق سياسيا وإداريا خلال فترة الدراسة، ثم أوضاع العراق الاقتصادية في المبحث الثالث، أما الرابع فيتناول الأوضاع الاجتماعية والتحديات التي واجهت المجتمع العراقي

خلال فترة الدراسة، وفي المبحث الخامس تطرقت الى مفهوم مصطلح الأقليات عموما والأقليات الدينية خصوصا.

الفصل الأول: خصصت هذا الفصل للأقلية اليهودية وأدوارها وتفاعلها داخل المجتمع العراقي خلال العهد العثماني، وبدأت بالتعريف بالديانة اليهودية ومصادر تشريعها، ثم تناولت في المبحث الثاني أهم الفرق اليهودية وعبادتهم وأعيادهم الدينية، أما المبحث الثالث فتناول تاريخ يهود العراق قبل العهد العثماني، فيما تطرقت في المبحث الرابع أوضاع يهود العراق وإحصائياتهم ومواقع انتشارهم في العهد العثماني، والمبحث الخامس تناول تفاعل وأدوار يهود العراق السياسية، والمبحث السابع أدوارهم الاقتصادية، والمبحث السابع أدوارهم في المجال الثقافي.

الفصل الثاني: يتناول هذا الفصل الأقلية النصرانية وأدوارها وتفاعلها داخل المجتمع العراقي خلال العهد العثماني، وكان المبحث الأول تعريفا بالديانة النصرانية ونشأتها وأهم عقائدها، ثم تطرق المبحث الثاني لأهم الفرق النصرانية وعبادتهم وشعائهم الدينية، أما المبحث الثالث فتناول تاريخ نصارى العراق قبل العهد العثماني، فيما خصص المبحث الرابع لأوضاع نصارى العراق وإحصائياتهم ومواقع انتشارهم في العهد العثماني، والمبحث الخامس تناول تفاعل وأدوار نصارى العراق السياسية، والمبحث السادس أدوارهم الاقتصادية، والمبحث السابع أدوارهم في المجال الثقافي.

الفصل الثالث: قسمنا هذا الفصل إلى قسمين الأول خاص بأقلية الصابئة المندائية وفيه خمسة مباحث أولهم التعريف بديانة الصابئة المندائية وكتبها وعقائدها وفرقها وعبادتها، والثاني يتطرق إلى تاريخ المندائيين وتوزيعهم السكاني خلال فترة الدراسة، والمبحث الثالث تناول تفاعل وأدوار هذه الأقلية السياسية، والرابع مخصص لأنشطتهم الاقتصادية، والمبحث الخامس أدوارهم وتأثيرهم ثقافيا. أما القسم الثاني من هذا الفصل فمقسم بدوره إلى خمسة مباحث أيضا الأول تعريف بديانة الأيزيدية وعقائدها ومبادئها وكتبها، والثاني يتناول تاريخ الأيزيدية وتوزيعهم السكاني خلال العهد العثماني، فيما كان المبحث الثالث لتفاعلهم وأدوارهم السياسية، والرابع لأدوارهم وأنشطتهم الاقتصادية، والخامس للجوانب الثقافية للأيزيدية.

صعوبات البحث: لقد واجهتني العديد من الصعوبات في انجاز هذه الدراسة، وأكتفي بذكر أهمها: **أولا:** شح ونقص المصادر والمراجع حول موضوع تاريخ الأقليات الدينية عموما والعراقية خصوصا، لاسيما في بلدي الجزائر، والتي كانت من أبرز الصعوبات التي واجهتني أثناء انجازي لهذه الدراسة، مما

كلفني مشقة السفر أكثر من مرتين، وبذل مجهودات مضاعفة للحصول على بعض المصادر والمراجع، التي لا يمكن الاستغناء عنها في تناول الموضوع.

ثانيا: تركيز أغلب الدراسات السابقة، والمصادر والمراجع على عقائد الأقليات الدينية في العراق، وعباداتها وطقوسها وفرقها، وإهمال أدوار وتفاعل هذه الأقليات داخل المجتمع، وحتى الدراسات التي تطرقت لشيء من هذا لم تهتم بالأدوار الاقتصادية والاجتماعية والثقافية إلا قليل منها. إضافة الى كون أغلب مصادر المعلومات حول الموضوع كانت تركز على القرن التاسع عشر والقرن العشرين، أي بالتزامن مع تطور التعليم وظهور المطابع، وهو ما حتم علينا مضاعفة الجهد أكثر لتغطية الفترة الأولى لتواجد العثمانيين بالعراق.

ثالثا: طبيعة وحساسية الموضوع الذي يتناول الأقليات الدينية من حيث عقائدها وأدوارها، والمعلوم عادة أن الباحث في مثل هذه المواضيع يجد صعوبة كبيرة فهو بين مطرقة الموضوعية التي تحتّم عليه التحلي بالحياد من جهة، وبين سندان المتربصين لأي خطأ في حق أي أقلية من الأقليات حتى تقوم الدنيا ولا تقعد، ومن أمثال ذلك ما حصل للباحثين السابقين نذكر منها الدعوة التي رفعها الصابئة المندائيون ضد المؤرخ العراقي الكبير عبد الرزاق الحسني بسبب مقال كتبه عن ديانتهم، وقد خسر الباحث القضية، واعتذر عما كتبه سابقا، ومثل هذه الحوادث تجعل الباحث أكثر تحفظا، لكن دون التخلي عن الموضوعية العلمية.

رابعا: صعوبة الجمع بين البحث العلمي والعمل اليومي، وهذا يعني صعوبة التوفيق بينهما. مع العلم أن البحث العلمي يحتاج إلى ساعات طويلة متواصلة، إضافة إلى التنقل باستمرار بين المكتبات المتباعدة، والعمل لم يساعدني في تخصيص الوقت الكافي للبحث، ومع هذا فإن التحديات والصعوبات زادت من عزمي وإصراري وتصميمي على إنجاز هذه الدراسة وإنهاءها، بالرغم من مشاق التنقل والسفر الكثير، مع ضغط عامل الزمن.

خامسا: الاختلاف الكبير بين الأقليات في الوزن الديمغرافي وفي التأثير داخل المجتمع فنجد الأقليتين النصرانية واليهودية أقليتين كبيرتين مقارنة بالأيزيدية والصابئة المندائية، لذلك فتأثيرهم حتما يكون أكبر وأدوارهم كذلك، وهذا الأمر صعب علينا ضبط الخطة الأفضل لتناول الموضوع بين رأيين هما تناول كل أقلية على حدى في كامل فصول الدراسة وتكون الفصول متفاوتة الحجم بشكل كبير، أم أحداث توازن بين الفصول ودمج الأقليتين الصغيرتين الصابئة والأيزيدية في فصل واحد على اعتبار

تناولنا لكل أقلية على حدى، وكما قيل المساواة بين غير المتساوين ليست عدلا، فكان التوازن بين المتساوين كالأقليتين النصرانية واليهودية من جهة، وبين الأقليتين الأيزيدية والصابئة من جهة أخرى.

أخيرا ونظرا لعدم تكامل الفرد، فهو دوما في حاجة لمساعدة الآخرين، وشكرهم من شكر الله تعالى، لذلك أشكر الأستاذ المشرف ثامر محمد عبد الرؤوف على مجهوده ونصائحه وتوجيهاته وجعلها الله في ميزان حسناته، والسيدة ديدة هالة على المساعدات التي قدمتها لي بصدر رحب. كما أشكر كل الأصدقاء في تونس تركيا والعراق كل باسمه، إضافة إلى كل المشرفين على المكتبات التي زرتها أثناء قيامي بهذا العمل وهي كثيرة خاصة المكتبة الوطنية التونسية، والسيدة سميرة مسؤولة قسم المطالعة بالشكر الجزيل على مجهوداتها، ومساعدتها لي كل ما قدمت إلى تونس. ولا يفوتني أن أشكر رفيقة دربي زوجتي العزيزة على صبرها وتحملها لي في كل هذه الفترة التي أخذت من وقتها الكثير.

ولأن لكل عمل بشري نقائصه فحتما وردت أخطاء عن سهو أو اغفال بعض العناصر أثناء انجاز هذه الدراسة، ولذلك أسأل الله أن يغفر لي كل خطأ أو تقصير، وأن ينفع به الطلاب والمهتمين بهذا الموضوع.

الفصل التمهيدي:

التعريف بالعراق وبمفهوم الأقليات ابان العهد العثماني

(1517-1917م)

المبحث الأول- تاريخ العراق قبل العهد العثماني:

أولاً-لمحة جغرافية عن بلاد العراق:

أطلق العثمانيون اسم العراق على المنطقة الجغرافية التي تشمل ايلات الموصل، وبغداد والبصرة وشهرزور في بداية الحكم العثماني قبل أن يتم الاكتفاء بالإيالات الثلاث الأوائل، وبما يدخل تحت سيادة هذه الايالات من المناطق القريبة كدير الزور ونصيبين وماردين، وامتدت سيادتها من ولاية البصرة الي بلاد نجد والكويت (كاظمة) والأحساء والقطيف التي ضمها العثمانيون عام 1550م¹ بل حتى الدوحة في قطر على الساحل الغربي من الخليج العربي².

أما الدولة العراقية الحديثة بكيانها وحدودها المعروفة اليوم ما هي الا جزء اقتطع من بلاد ما بين النهرين، واكتسبت هذه الدولة الجديدة كيانها واستقلالها بعد انخيار الدولة العثمانية عند سقوطها في الحرب العالمية الأولى.

لقد كانت بلاد الرافدين (بلاد ما بين النهرين) سواء في معناها الجغرافي الكبير أو معناها السياسي الحديث أي دولة العراق من أولى البقاع التي اتخذها الانسان القديم سكناً ومستقراً له، فظلت ومنذ عهود ما قبل التاريخ مهد الحضارات، وملتقى الثقافات، ومراكز عقائد وديانات، وميدان صراع واقتتال، تركت بصماتها واضحة في البيئة الاجتماعية والفكرية والسياسية لسكان هذه البلاد³، ومن الجدير ذكره أن الممالك والدول التي قامت وسادت في بلاد ما بين النهرين منذ عصور سحيقة خلت مثل أور وأكاد وسومر وبابل وأشور وما قام به ملوكها من غزوات، وما قام في هذه الممالك من الحضارات نشأت وازدهرت، وما أسهمت به من روافد فكرية - قانونية أمثال قوانين حمورابي وأداب بابل ونينوى، ما هي الا الخطوة الأولى في تطور الفكر الانساني وإثرائه⁴.

لقد تعرضت بلاد ما بين النهرين خلال تاريخها الطويل الي هجرات متعددة من اقوام متعددين فجاءها الاغريق والرومان من الشمال والمغول والترك والفرس من الشرق، وتصارعت على أرضها الجيوش وزحف العرب اليها من الجنوب واستوطنوا أرضها، وظلت هذه الهجرات تتعاقب على البلاد حتي في أيام عزها⁵.

¹ عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ الشعوب الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، 2007م، ص102.

² ستيفن همنسلي لونكيرك: تاريخ العراق في أربعة قرون، تعريب جعفر خياط، ط 4، مطبعة بغداد، 1958م، ص 9

³ أير.م. لايبس: تاريخ المجتمعات الإسلامية تعريب فاضل جتكر، ط 2، دار الكتاب العربي، بيروت، 2011م، ص 55.

⁴ ول ويل ديورانت: قصة الحضارة (الشرق الأدنى)، تعريب محمد بدران، ط 1، دار الجيل، بيروت، 1988م، ج 2، ص

207

⁵ أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ط 2، دار العربي للنشر والإعلان، بيروت، ب ت، ص 139.

حملت هذه الأقوام الوافدة معها أنماط معيشتها ومناحي تفكيرها وطقوس شعائرها، ومعتقداتها وتقاليدها ونظمها والاجتماعية، وحملت معها لغاتها ولهجاتها فانتشرت في البلاد اللغة البابلية والسومرية والآرامية والسريانية ثم الاغريقية والفارسية الى أن جاء العرب فنشروا لغتهم في البلاد فطغت على سواها. لقد حمل المهاجرون عقائدهم الدينية فعرفت البلاد العقائد الوثنية والبوذية والجوسية والزرادشتية والماثونية بالإضافة الى الديانتين اليهودية والمسيحية، فكانت البلاد ساحة صراع فكري ودموي بين معتنقي تلك الاديان من مختلف النحل والشيع¹.

1-الموقع والحدود الجغرافية:

يقع العراق جنوب غرب القارة الآسيوية، وأقصى الشمال الشرقي للعالم العربي، فلكيا تقع بين خطي طول 48 درجة شرقا و40 درجة غربا وما بين دائرتي عرض 37 درجة شمالا و29 درجة جنوبا. أما مساحته فتبلغ 448000 كلم، وتحده جنوبا المملكة العربية السعودية والخليج العربي، ومن الشرق جمهورية إيران الإسلامية ومن الشمال الجمهورية التركية ومن ناحية الغرب الجمهورية العربية السورية والمملكة الأردنية الهاشمية²، وله منفذ بحري وحيد على مياه الخليج العربي هو شط العرب³. أما أشهر مدن العراق فهي بغداد، الموصل، البصرة، الأنبار، النجف، وكركوك، السليمانية، الحلة كربلاء، أربيل وغيرها.

2-الخصائص الجغرافية:

إن الخصائص الجغرافية البارزة في العراق هي نهر دجلة والفرات حيث يعتبران شريان الحياة الرئيسي في هذه المنطقة، وقد أدرك الإنسان العراقي منذ القدم أهمية هذين النهرين لذا قام بتأليهما، ويذكر أن نهر الفرات أعلى من دجلة لذا فقد صنع الإنسان العراقي قديما شبكة مياه تصل بين النهرين خاصة في المنطقة الجنوبية⁴، وقد قسم الجغرافيون بلاد العراق الى قسمين :

أ-القسم الشمالي:

ويقصد به كل المناطق الواقعة شمال بغداد والتي يغلب عليها الطابع الجبلي وتكثر به المرتفعات خاصة في جزئه الشمالي الشرقي الذي تتخلله أودية نهر دجلة وفروعه وتفصله عن المنطقة الواقعة في أقصى الشمال سلسلة جبال طوروس وهضبة أرمنيا⁵، أعلى قمة جبلية في الشمال الشرقي هي جبل راوندوز ويبلغ طوله

¹ أيرام. لايبس: المرجع السابق، ص 56.

² محمد الهادي لعروق وسمير بورعة: أطلس الجزائر والعالم، ب ط، دار الهدى، عين مليلة، 1998م، ص 78.

³ يحي شامي: موسوعة المدن العربية والإسلامية، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 1993م، ص 68.

⁴ أحمد أمين سليم: تاريخ العراق- إيران- آسيا الصغرى، ب ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000م، ص 23.

⁵ محمد أبو المحاسن عصفور: تاريخ الشرق الأدنى القديم، ب ط، مطبعة المصري، القاهرة، 1968، ص 332.

3460م، وأشهرها أيضا جبل سنجار 1543م¹، وقد سميت أرض آشور نسبة الى مدينة آشور أقدم المدن الشمالية، ويقطن هذا الاقليم غالبية من العراقيين العجم كالأكرد والتركمان والأشوريون حتى أطلق عليه العرب اسم العراق العجمي، وأهم مدنه أربيل والموصل والسليمانية ودهوك وكركوك وغيرها .

ب- القسم الجنوبي :

ويضم هذا القسم بغداد وكل المناطق التي تقع جنوبها وهو حديث التكوين من الناحية الجيولوجية مقارنة بالقسم الشمالي، وتقطنه غالبية من العشائر العربية التي نزحت في فترات مختلفة من الجزيرة العربية وكان أولها في الألف السادسة قبل الميلاد وزادت هذه الهجرات بعد الفتح الاسلامي .

ومن ناحية التضاريس يعد هذا القسم أكثر تنوعا اذ يضم مناطق عديدة كمنطقة الأحراش ومنطقة الدلتا والمنطقة السهلية ومناطق صحراوية أيضا اضافة الى الغابات الكثيفة².

ونظرا لموقع العراق المميز فقد كان محطة للكثير من الهجرات البشرية القديمة في أزمنة مختلفة من تاريخ الانسان فقد استقرت به عدة عناصر بشرية سامية وغير سامية وان كان العنصر السامي قد تسيد أغلب أدوار العراق التاريخية الا ان العناصر غير السامية توغلت في أحيان كثيرة خاصة من الشمال والجنوب الشرقي وقد كان لهذه العوامل بالطبع أثرها في تاريخ العراق بشكل عام .

هذا، وشهدت منطقة وادي الرافدين أو بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات³ Mesopotamia العديد من الحضارات الإنسانية، التي ترجع الى أقدم العصور منها الحضارة السومرية والبابلية وغيرها⁴.

ثانيا-لمحة تاريخية عن العراق قبل القرن السادس عشر:

1-تاريخ العراق قبل الفتح الإسلامي: شهدت الألف السادسة قبل الميلاد نزوح عدة قبائل عربية من جزيرة العرب إلى الهلال الخصيب بشكل عام ومنطقة نهر الفرات بشكل خاص واستوطنوا تلك الأراضي منذ ذلك الحين .

أ- العراق في عهد الدولة السومرية (من 3700 إلى 2350 ق.م):

ساهم السومريون في بناء تلك الحضارة بالكتابة المسمارية، في حين شارك العرب بخبرتهم في ميدان هندسة الري والزراعة وصناعة الأدوات المختلفة والتجارة الداخلية والخارجية، وأسسوا العديد من المدن مثل

¹ يحي شامي: المرجع السابق، ص 68.

² محمد أبو المحاسن عصفور: المرجع السابق، ص 332.

³ Mesopotamia: كلمة يونانية تعني بلاد النهرين أنظر: كي لسترنج: بلدان الخلافة الإسلامية، تعريب بشير فرنسيس كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ب ت، ص 15.

³ اسماعيل أحمد ياغي ومحمود شاكرك: تاريخ العالم الاسلامي الحديث والمعاصر، ط 1، دار المريخ للنشر، الرياض، 1995، ص 181.

مدينة أوروك في نهاية الألف الرابعة¹. وقد امتد تأثير الحضارة السومرية العربية إلى العيلاميين في إيران، وبلاد الأناضول، ومصر. وخاض السومريون العديد من الحروب مع العيلاميين²، كما ازداد تأثير نفوذ ملوك كيش العرب إلى أن احتل الآكاديون العرب بلاد سومر سنة 2350 قبل الميلاد.

ب-العراق في عهد الدولة الآكادية (من 2350 إلى 2200 ق.م):

أسس القائد الآكادي سرجون الأول الدولة الآكادية على أنقاض مملكة سومر³، ويرجع أصل الآكاديين إلى العرب المهاجرين من جزيرة العرب، وامتدت دولة الآكاديين لتشمل كل منطقة الهلال الخصيب تقريبا وبلاد العيلاميين وبعض الأناضول، وتقبل الآشوريون الحضارة الآكادية لقرىها منهم من ناحية الأصول العربية، وقد اشتهر الآكاديون بصناعة البرونز، وفي سنة 2200 قبل الميلاد سقطت الدولة الآكادية إثر غارات الغوتيين والقبائل الجبلية الأخرى.

- من 2133 إلى 2003 ق.م، الانبعاث السومري ومملكة سومر وأكاد المشتركة، وفيها عاد السومريون الآكاديون إلى الاتحاد من جديد وإقامة مملكتهم المشتركة حتى أسقطها العيلاميون سكان إيران سنة 2003 قبل الميلاد.

ج-الدولة البابلية الأولى (من 1894 إلى 1594 ق.م):

استمر توافد العرب العموريين إلى بلاد ما بين النهرين بعد سقوط الدولة الآكادية السومرية المشتركة وكونوا العديد من الدويلات مثل دولة آشور وإيسن ولارسا، وبابل التي استقلوا بها⁴. وتمكن العموريون في بابل من السيطرة على كامل منطقة ما بين النهرين، واشتهر منهم الملك حمورابي صاحب شريعة حمورابي الشهيرة. وسقطت الدولة البابلية الأولى على أيدي الكاشيين سنة 1594 قبل الميلاد.

د-في عهد الحكم الكاشي (من 1595 إلى 1153 ق.م):

بعد أن وحد ملوك الكاشيين جنوب بلاد ما بين النهرين أسسوا دولتهم متأثرين بشريعة حمورابي إلى أن انتهت دولتهم على أيدي الآشوريين سنة 1153 قبل الميلاد⁵.

هـ-الدولة الآشورية (من 1153 إلى 612 ق.م):

وترجع أصول الآشوريين إلى القبائل العربية التي استقرت في منطقة نهر دجلة في الألف الرابعة قبل الميلاد، وأسست تلك القبائل مدينة آشور، واستطاع سكان المدينة أن يطوروا بعض الصناعات، وارتبطوا

¹ عبد الرزاق الحسني: تاريخ العراق السياسي الحديث، ط7، دار الرافدين، بيروت، 2008م، ص 20.

² محمد أبو المحاسن عصفور، المرجع السابق، ص 348.

³ أحمد أمين سليم: المرجع السابق، ص 192.

⁴ ول ويرل ديورانت: المصدر السابق، ج2، ص 188.

⁵ عبد الرزاق الحسني: المرجع السابق، ج1، ص 24.

بالتجارة الخارجية مع المناطق المجاورة، إضافة إلى تمسكهم في الزراعة والري¹. وقد تعرضت الدولة الآشورية لغزو الحثيين والآكاديين، ووقعت تحت سيطرة ملوك أور، ثم حكمها البابليون، وبعد سقوط الدولة البابلية الأولى تعرضت آشور إلى غزوات الكاشيين مما دفعهم إلى بناء جيش نظامي قوي، وفي القرن الثاني عشر قبل الميلاد كان العراق مقسماً بين الآشوريين في الشمال والكاشيين في الجنوب. ثم تعرضت الدولة الآشورية إلى اضطرابات داخلية وغزو خارجي وسقطت على يد البابليين بقيادة نبوبولاسر الميديني سنة 612 قبل الميلاد.

و- الدولة الكلدانية أو البابلية الثانية (من 625 إلى 539 ق.م)

خلف نبوبولاسر على حكم الدولة البابلية الثانية ابنه نبوخذ نصر الثاني (بختنصر) الذي دام حكمه من 605 إلى 562 قبل الميلاد². وقد قام نبوخذ نصر بإجلاء اليهود من فلسطين إلى العراق في السبي الأول سنة 597 ق.م، وفي السبي الثاني الذي قاده بنفسه سنة 586 ق.م³. وخلف نبوخذ نصر بعد وفاته ملوك ضعفاء إلى أن قضى كورش الإخميني الفارسي على الدولة البابلية الثانية سنة 539 ق.م.

- من 539 إلى 321 ق.م، الغزو الفارسي احتل الملك كورش الإخميني مدينة بابل واتخذها عاصمة ملكه، واستمر الفرس يسيطرون على العراق لأكثر من من قرنين حتى هزمهم الإسكندر المقدوني الكبير سنة 321 ق.م⁴.

ز- الدولة السلوقية (من 321 إلى 141 ق.م): وهم من الأسرة السلوقية المقدونية التي تفتتت بعد وفاة الاسكندر⁵، وشهدت المنطقة في عهدهم الكثير من الحروب انتهت بسقوط الدولة السلوقية على يد البارثيين سنة 141 ق.م.

ح- الدولة البارثية (من 141 ق.م إلى 224م): وقد أسس دولتهم Arsaces آرساس الأول ويعود أصلهم إلى إيران، واستقرت بلاد ما بين النهرين في عهدهم، واستمرت دولة البارثيين حتى أسقطها الساسانيون سنة 224م⁶.

¹ ول ويل دبورانت: المصدر السابق، ج2، ص 266.

² أحمد أمين سليم: المرجع السابق، ص 288.

³ أحمد سوسة: ملامح من التاريخ اليهود القديم في العراق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2001م، ص31.

⁴ ابن جرير الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج1، تحقيق أبو صيب الكرمي، دار الأفكار الدولية، ب ط، بيت الأفكار الدولية، ص227.

⁵ عبد الرحمن بن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 2، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ص 192.

⁶ عبد الرزاق الحسني: المرجع السابق، ج1، ص27.

ط- في العهد الساساني من (224 إلى 602م): عين الساسانيون ملكا عربيا من أسرة اللخمين من قبيلة تتوخ لينوب عنهم في إدارة العراق، وفي سنة 602م عين الساسانيون حاكما فارسيا استمر في حكم العراق حتى انهزم الفرس على أيدي المسلمين في معركة القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص سنة 637م/ 14ه¹، وسقطت المدائن بعدها بشهرين .

2- تاريخ العراق من الفتح الاسلامي الى غاية القرن السادس عشر:

تحولت العراق بعد الفتح الاسلامي اثر القضاء على حكم الساسانيين بعد انتصار المسلمين في معركة القادسية وما تلاها من معارك الى أحد أهم حواضر العالم خاصة في العهد العباسي الذي كانت فيه بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية .

أ-العراق في عهد الخلفاء الراشدين (من 637 إلى 661م / 14 - 40ه):

شيد عمر بن الخطاب مدينتي البصرة والكوفة، واستمرت العراق تدار من قبل الولاة الذين يعينون من قبل الخلفاء في المدينة حتى قبيل مقتل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب، إذ كان على ولاية الموصل في سنة 656م/ 36ه واليان، أحدهما من قبل علي وهو الأشتر مالك بن الحارث النخعي، وثانيهما من قبل معاوية وهو الضحاك بن قيس.

ب-العراق في العهد الأموي (من 661 إلى 749م / 41 - 132ه):

تحولت العراق إلى حكم الأمويين وصار ولائها يعينون من دمشق عاصمة الدولة الأموية، وشهد العراق إبان الحكم الأموي العديد من الحروب بين مؤيدي أبناء علي بن أبي طالب الذين احتضنتهم العراق وبين خلفاء وولاة الدولة الأموية أشهرها موقعة كربلاء التي سقط خلالها الحسين، واستمرت العراق تدين للأمويين إلى أن قامت الدولة العباسية عام 750م/ 132ه.

ج-الدولة العباسية (من 750 إلى 1258م / 132 - 656ه):

بقيامها انتقلت إدارة وعاصمة الدولة الإسلامية للعراق بعد أن كانت في دمشق²، وتألفت بغداد التي بناها العباسيون لتصبح عاصمة العلم والترجمة عن مختلف الحضارات السابقة التي كانت تتم في بيت الحكمة الذي أسسه المأمون سنة 830م. وبرزت في الدولة العباسية العديد من الأسر التي يرجع أصلها إما إلى العرب مثل بني المهلب، أو إلى الفرس مثل البرامكة، والسلاجقة الذين حكموا باسم السلطان ما بين 1055 - 1152م، وتعرضت العراق في عهد العباسيين إلى العديد من الثورات والحروب الداخلية إلى أن سقطت على

¹ ابن جرير الطبري: المصدر السابق ، ج1، ص 675.

² حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام، ج2، ط 14، دار الجيل للنشر، بيروت، 1996م، ج2، ص 23.

يد القائد المغولي هولاكو سنة 1258م/656هـ¹.

د-الدولة الايلخانية (من 656-737هـ / 1258م):

دخل المغول بقيادة هولاكو بغداد في عام 1258م بعد أن استسلم الخليفة العباسي المستعصم الذي لقي حتفه بعد خمسة أيام من دخول المغول. وتعرضت بغداد للهدم والسلب وأهلها للقتل. وقسم المغول العراق إلى منطقتين جنوبية وعاصمتها بغداد وشمالية وعاصمتها الموصل، ويدير المنطقتين حاكمان مغوليان ومساعدان من التركمان أو الأهالي المواليين².

ه-العراق في العهد الجلائري 737-798هـ:

تأسس حكم الأسرة الجلائرية³ التي تعد من أصل تركماني عام 737هـ على يد حسن الجلائري الذي استقل بحكم البلاد عن الايلخانيين ورغم نشوب عدة صراعات على سدة الحكم الا أنها استطاعت المحافظة على وحدتها الى غاية العام 798هـ⁴.

و-غزو تيمورلنك 804-807هـ:

قام تيمورلنك بتأسيس امبراطورية عظيمة أواخر القرن الثامن حيث سيطر على معظم أراضي بلاد فارس وآسيا الوسطى وامتد نفوذه الى العراق التي قام فيها بالقضاء على حكم الدولة الجلائرية عام 804هـ لكن بعد وفاته عام 807هـ استعاد حكام الأسرة الجلائرية ملكهم لمدة قصيرة لم تتجاوز الست سنوات قبل أن تسيطر أسرة القره قوينلو على البلاد وتفرض سطوتها.

ز-العراق ابان حكم أسرتي الخروف الأسود والخروف الأبيض :

سيطرت أسرة القره قوينلو(الخروف الأسود) لفترة امتدت من 813هـ الى 874هـ بعد تمكنها من قتل آخر حكام الأسرة الجلائرية أحمد بن أويس وابنه علاء الدين فبسطت سيطرتها على البلاد حتى نازعتها أسرة تركمانية أخرى تسمى الأق قوينلو (الخروف الأبيض) فدخل زعيمها حسن الطويل (معروف أيضا باسم حسن أوزون) بغداد في العام 873هـ واستلم السلطة فيها وحكم الى غاية ظهور الأسرة الصفوية وسيطرتها على العراق عم 914هـ⁵.

¹ ابن خلدون: المصدر السابق، ج3، ص 651.

² محمود شاکر: التاريخ الاسلامي (بلاد العراق)، ط 1، المكتب الاسلامي، عمان، 1992م، ص9.

³ جلاير: احدى القبائل الكبيرة المنحدرة من شرق منغوليا وكانت تسكن بالضبط قرب نهر أونن. أنظر: يناس سعدي عبد الله:

تاريخ العراق الحديث 1258-1918، ب، ط، دار عدنان للنشر، بغداد ، ب ت.

⁴ عباس عزوي: موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين، ط1، مطبعة بغداد الحديثة، بغداد، 1936م، ج2، ص 25.

⁵ محمود شاکر: المرجع السابق ، ص13.

ح-العراق ابان الحكم الصفوي:

تمكن الشاه اسماعيل الأول من تأسيس الدولة الصفوية عام 914هـ / 1501م¹ بعد انتصاره وأخذ يوسع نفوذه في اتجاهات عدة من ناحية الشمال والشرق، وبحكم أن دولته قامت على أساس مذهبي بتبنيها المذهب الشيعي الاثنا عشري مذهباً للدولة فان العتبات المقدسة المتواجدة في أرض العراق ككربلاء والنجف الأشرف كانت ضمن مخططاته وأحد أهم أهدافه واستطاع عام 1508م أن يدخل بغداد ويضم بلاد العراق لدولته².

3-الصراع الصفوي العثماني على الأراضي العراقية 1517-1639م:

يمثل العراق أهمية كبيرة بالنسبة للصفويين وزعيمهم الشاه اسماعيل لذلك كان أول أهدافه بعد بسط يده على كل أراضي إيران، وتعود أهمية العراق في سياسة الشاه للعوامل التالية:

- المكانة المقدسة للعراق لدى أتباع المذهب الشيعي، نظراً لتواجد العتبات الشيعية المقدسة فيه مثل كربلاء والنجف الأشرف... الخ³ التي كان يزورها الكثير من قوافل الحجاج والإيرانيين، حيث كانت تتعرض كل مرة لهجمات القبائل التي كانت تسكن في الطرق المؤدية إليها، فكان ضم العراق للدولة الصفوية مطلباً شيعياً لدى هؤلاء⁴.

- كان صراع الشاه إسماعيل منذ البداية مع أسرة الآق قويونلو، فبعد أن حسم الصراع معهم في إيران، كان من الطبيعي أن يطمح لضم كل الأراضي التي تخضع لهم ولو كانت خارج إيران⁵، وتمركزت أسرة الآق قويونلو خارج إيران في منطقتين، الأولى في العراق، ويتزعمها مراد بن يعقوب⁶، والثانية بالبستان في الأناضول، وكان زعيمها علاء الدولة، فبدأ الشاه إسماعيل صراعه مع علاء الدولة، ثم مراد بن يعقوب .

- الدافع السياسي المتمثل في الصراع حول مناطق النفوذ الذي بدأ يلوح في الأفق بين الصفويين والدولة العثمانية التي كانت أيضاً في مرحلة نمو مع بداية القرن السادس عشر.

- الدافع الاقتصادي المتمثل في خصوبة الأراضي العراقية التي تتوفر على نهري دجلة والفرات، مما يكفل لسكان إيران إذا انضم العراق إليها مورداً غذائياً هاماً. أما من الناحية التجارية، فإن سيطرة الشاه إسماعيل على العراق، يعني سيطرته على الطريق التجاري الذي يمر بديار بكر والموصل، والذي يقطع عمق وادي

¹ Ghulam Sarwar، **Hitory of shah Ismail**، Aligart ، university muslim، 1939، p.86.

² أحمد بن يوسف القرمانلي: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج3، دراسة وتحقيق أحمد حطيظ وفهمي سعد، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1992 م، ص 117.

³ بديع محمد جمعة: عباس الكبير، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م، ص 197.

⁴ Ghulam Sarwar، Op.Cit، p. 54.

⁵ شرف خان البديليسي: شرف نامه، تحقيق وتعريب محمد علي عوني، ب ط، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، 1958م، ص 281.

⁶ إقبال شنتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام، تعريب محمد علاء الدين منصور، ط1، دار الثقافة، القاهرة، 1989م، ص 642.

الرافدين نحو الخليج العربي عبر بغداد¹.

كانت الظروف مواتية للشاه إسماعيل، عكس كل الممالك والإمارات التي ذكرناها كي يحقق هدفه بالاستيلاء على العراق، فأعد جيشه إعداداً جيداً حتى صار على أهبة الاستعداد، ثم سار صوب بغداد، فقسّمه إلى قسمين: الأول كان بقيادته، والثاني بقيادة حسن بيك لا لا، لكن ما لم يتوقعه الشاه هو السهولة التي استولوا بها على بغداد، التي ما إن سمع عامل الآق قوينلو عليها واسمه بابر بيك بيرناك، باقتراب القوات الصفوية منها، حتى غادرها، فدخلتها القوات الصفوية دون قتال سنة 914هـ/1508م²، وخطب الشاه إسماعيل الأول على منابر المساجد، وصكّ النقود باسمه، دلالة على ضم المدينة لممتلكات الدولة الصفوية منذ ذلك التاريخ، فبدأ الشاه يصبغ العراق بالصبغة الشيعية، وقام بتعمير مزارات الأئمة الشيعية، وزار مشهد الإمام حسين في كربلاء، ومشهد الإمام علي في النجف الأشرف، تأكيداً على الالتزام بالمذهب الشيعي³، ليحقق بذلك حلمًا كبيراً تمثل في سيطرته على هذا الإقليم المهم جداً بالنسبة لدولته⁴.

لم يكتف الشاه بما حققه، بل بعد تعيينه خادماً لبيك واليا على العراق، ومنحه لقب الخلفاء غادر إلى الحوزة الواقعة بين واسط والبصرة، والتي كانت تحكم من أسرة آل المشعشع العربية منذ عام 840هـ/1436م. ويذكر أن حاكمها السلطان فياض المشعشعي قد ادعى الألوهية فاشتبك معه وقتله، وقضى بذلك على حكم هذه الأسرة سنة 915هـ/1509م. هذا وقد أرسل الشاه قبل وصوله إلى الحوزة جيشاً آخر بقيادة نجم الدين مسعود وبايرم بيك قهرماني وحسين بيك الله لتأديب ملكشاه رستم، المقيم في خرم آباد بإقليم كردستان، والذي رفض الاعتراف بسلطة الشاه، فتمكن القادة الثلاثة من القبض عليه، وإحضاره إلى مجلس الشاه، لكنه اعتذر وطلب العفو عما كان منه، فقبل الشاه اعتذاره، وعفا عنه وأبقاه في حكم كردستان. كما أمضى بعدها الشاه إسماعيل شتاءه في شیراز قبل أن يثور شيخ شاه بن فروخ يسار في شروان، حيث قام بطرد واليه من طرف الشاه المسمى حسين بيك الله، فصمم الشاه واستهدف القضاء عليه وعلى ثورته، ونجح الشاه في مهمته، واستعاد شروان وعين عليها منصور بيك حاكماً⁵، ثم اتجه إلى قراباغ⁶، ومنها إلى تبريز في أوائل العام 906هـ/1510م، بعد قضاء عشر سنوات في الحروب المستمرة والمتواصلة في إيران والعراق وديار بكر، قضى فيها على أعدائه جميعاً، كما فرض المذهب الإثني عشري في جميع أراضي دولته، ولم يكن حينها قد تجاوز

¹ محمد سهيل طقوش: تاريخ الدولة الصفوية في إيران، دار النفائس، بيروت، 2009م، ص 59.

² أحمد بن يوسف القرمانلي: المصدر السابق، ج3، ص 117.

³ Ghulam Sarwar، Op.Cit، p. 57.

⁴ إقبال شنتياني: المرجع السابق، ص 642.

⁵ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 61.

⁶ قراباغ: أو قراباخ مدينة تقع بإقليم فارس غرب إيران على الطريق بين مدينتي شيروان وتبريز.

الخامسة والعشرين من عمره¹، وبذلك نجح في توحيد معظم أنحاء وأقاليم إيران تحت راية واحدة ومذهب واحد، فوصلت الدولة الصفوية في عهده من شروان في جنوب شرق القوقاز إلى كرمان في أقصى الجنوب الغربي لصحراء لوط وامتدت في الغرب إلى منطقة ديار بكر والعراق، وبهذا ترك الشاه إسماعيل دولة قوية ذات أراضي شاسعة ومن أكبر القوى في القرن السادس عشر.

في هذه الأثناء كانت الدولة العثمانية تبرز كقوة كبيرة لم ترضها التوسعات الصفوية خاصة في بلاد العراق بقيادة السلطان العثماني آنذاك السلطان سليم الأول (1512-1520م) الذي دخل في صدام مع الدولة الصفوية بدأ بمعركة جاليندران عام 1514م² التي انتصر فيها العثمانيون على حساب الصفويين، فبدأت المناطق العربية في الدخول في حاضنة الدولة العثمانية تباعا ومن بينها العراق الذي دخلته الجيوش العثمانية عام 1517م لكن شاهات الدولة الصفوية الشاه اسماعيل الأول وابنه الشاه طهماسب لم يستسلموا وحاولوا مرات عديدة استعادته فنجحوا أحيانا وكان النجاح حليف الدولة العثمانية أحيانا أخرى الى أن استقر الوضع للعثمانيين عام 1534م³ في عهد السلطان سليمان القانوني، فأقام العثمانيون نظامهم وقسموا الولايات وصارت العراق جزء من كيان الدولة العثمانية⁴.

ورغم أن الشاه عباس الأول (1588-1629م) استطاع الانتصار على العثمانيين ومن ثم بسط سيطرته على العراق ثانية عام 1624م، إلا أن ذلك لم يدم طويلا حيث استطاع السلطان مراد الرابع استعادة العراق وضمه بصفة نهائية لحاضنة الدولة العثمانية عام 1639م بعد وفاة الشاه عباس الأول، ليستقر الوضع للعثمانيين بصفة نهائية الى غاية بداية القرن العشرين.

¹ شرف خان البديلي: المصدر السابق، ص 281.

² Sykes, **History of Persia**, Cq; bridge. London. Vol 2. 1915. p 244.

³ ستيفن همنسلي لونكريك: المصدر السابق، ص 38.

⁴ عباس عزوي: المرجع السابق، ج 4، ص 56.

المبحث الثاني-أوضاع العراق سياسيا وإداريا ابان الحكم العثماني (1534 - 1917م):

قسم المؤرخون تاريخ العراق في فترة الحكم العثماني الى فترتين فصل بينهما ما اصطلح على تسميته بعهد المماليك الذي حاول فيه الولاة الاستقلال بالبلاد وبتسيير شؤونها عن الدولة العثمانية في الفترة (1750-1831م). أما الفترة الأولى فقد واجه فيها العراق عدة تحديات تمثلت في هجمات خارجية أهمها الحملات الصفوية المتكررة في القرن الثامن عشر أبرزها ما تعرض له من هجمات على يد نادر شاه الافشاري في الفترة الواقعة ما بين (1733-1747م)، منها هجمات على مدينة الموصل عم 1743م وعلى البصرة عام 1755م لكنه فشل في السيطرة على المدينتين¹.

كما تعرض العراق إلى هجمات الوهابيين في عام 1802 و1806م الذين قاموا بتدمير ونهب بعض المدن العراقية. وقد تركت تلك الأحداث أثارها الوخيمة على الأوضاع العامة في البلاد كالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فظهر ذلك جليا في المجاعات والأوبئة الفتاكة كالطاعون الذي أودى بحياة الكثير من الأنفس خاصة في النصف الأول من القرن التاسع عشر².

أما العهد الأخير من الحكم العثماني 1831-1917م فقد شهد تدهورا ملموسا في أوضاع الدولة العثمانية عموما بسبب تكالب القوى الأوروبية وتدخلها في شؤونها الداخلية فبدأ ما يسمى بالإصلاحات أو التنظيمات العثمانية التي مست العراق على غرار باقي الايالات العثمانية، كما تركز أولوية الدولة العثمانية في تحصيل الضرائب أكثر من أي شيء آخر³.

ولأن العراق جزء من الدولة العثمانية فان أوضاعه السياسية كانت تتأثر بشكل مباشر بما يحدث في النظام السياسي العثماني الذي تدهور وأصبح بحاجة لاصلاحات جوهرية، لذلك أتى الإصلاح العثماني نتيجة للاعتقاد بأن ضعف السلطة كان ضعفا بنيويا في الدولة مقارنة مع ظاهرة تنامي القوى الأوروبية نتيجة لذلك، فكان لدى الباب العالي تصميم متزايد على إعادة بناء أسس الدولة على صعيد الإدارة والتشريع، التعليم والموارد، اقتداء بالبلدان الأوروبية.

وانعكاسا للتغيرات في النظام العثماني لتلك الاصلاحات بدأ المجتمع العراقي يتكون سياسيا في الولايات العراقية الثلاث معتمداً النظام الطبقي القائم على الثروات والمناصب المستمدة من قانون الملكية لعام 1858م، وقانون الولايات لعام 1864م، كما مست الاصلاحات ملكية الدولة للأرض والهدف من ذلك زيادة إنتاجية الزراعة واستقرارها ويستقطب الاستثمار ويعود بالأرباح على خزينة السلطة. أما التدبير الثاني فشكل بداية

¹ ايناس السعدي: تاريخ العراق الحديث (1258-1918م)، ط1، دار ومكتبة عدنان، بغداد، ب ت، ص 315.

² ستيفن هيمسلي لونكريك: المصدر السابق، ص 350-359.

³ علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ط1، المكتبة الوطنية، بغداد، 1972م، ج1، ص 260.

إعادة التنظيم الإداري للسلطة ولم يهدف الى ترسيم حدود مختلف الولايات فحسب بل الى تحديد طبيعة سلطة الدولة وشكلها تجاه سكان الولايات وتحديد المهام والمسؤوليات الدقيقة لموظفيها بدءاً من الوالي وحتى أسفل هرم في السلطة .

هذا، ويمكننا القول إن طبيعة السلطة التي كانت موضع خلاف شديد، أدت الى سلسلة من الثورات وكانت القوات العثمانية تقمع تلك الثورات، غير أنه في عدد من الحالات خاصة في المناطق الكردية وفي ولاية البصرة كان إكراه الاهالي على الإذعان يفوق قدرات قوات الوالي العثماني .

شهد العراق تحت الحكم العثماني العديد من محاولات الإصلاح والبناء، غير أن الاضطرابات التي كانت تواجهها الدولة العثمانية بسبب الصراع الدائر بين المحافظين و تيار التجديد ومن بعد ذلك تيار التغريب، حال دون إكمال مشاريع الإصلاح في العراق. كما استقل العديد من الولاة المماليك المعينين من قبل السلطان العثماني بمناطق من العراق في فترات مختلفة، واستمر الحال على نفس المنوال حتى سقط العراق بأيدي الاحتلال البريطاني سنة 1918م.

وعن تقسيم المهام فقد كان الوالي يقف على رأس الولاية ويخضع للسلطة المركزية في استانبول¹، أما اللواء فيديره المتصرف، في حين يدير كل قضاء قائم مقام، والناحية يديرها مدير ناحية، ويؤلف المختار الحلقة الأخيرة في سلسلة الإدارة الطويلة في الولاية، وكان كل من الوالي والمتصرف يعينان بمرسوم سلطاني، في حين يعين الموظفون الأدنى منهم من قبل الوالي محلياً بإصدار أوامر تسمى بيورلدات².

هذا، وقد قام العثمانيون بالعديد من الاصلاحات الادارية والتعليمية والمالية بالأخص في ولاية مدحت باشا بسنواته الثلاث التي قضاها في حكم العراق، فبعد أن كانت الفوضى ضاربة أطنابها في أنحاء العراق عاد الهدوء بعد اعتماده على الحزم والشدة لقمع ثورات العشائر، كما أدخل نظام التجنيد الحديث في بغداد وفي كل العراق وأوجد الملاحة النهرية بالاعتماد على نهري دجلة والفرات، وإصلاح الاراضي وإنشاء مدرسة وحفر الانهار ومنها شط العرب ليكون صالحاً للملاحة النهرية، وثبت حقوق الفلاحين وهو الذي أدخل نظام الملكية الصغيرة بتمليك الاراضي للمزارعين.

كما كانت اصلاحات الوالي مدحت باشا الذي اعتنى بالشرطة لاستعادة الأمن وأقام أسلاك البرق ونظم البريد، ورتب العراق ادارياً وقسمه الى وحدات متسلسلة، وأدخل النظام البلدي لأول مرة في العراق وانتخاب رئيس البلدية من أهالي البلدة ذاتها ورفض التعيين، بهذا تكون التجربة الأولى لتربية الشعب تربية حرة تؤهله لممارسة النظام النيابي، وأدخل نظام الطابو وكون دائرة خاصة بذلك، ناهيك عن بناء المدارس والمعاهد

¹ عبد العظيم عباس نصار: بلديات العراق في العهد العثماني 1534 . 1918م، ط1، المكتبة الحيدرية، بغداد، 2005م، ص 57.

² عباس الغزاوي: المرجع السابق، ج 7، ص 170.

الصناعية والمستشفيات، والملاجيء والدوائر الرسمية.

وبالرغم من حرص العثمانيون منذ تواجدهم في العراق على تنظيم سياسي يقوم على عدم تركيز السلطات بيد مسؤول واحد، وذلك تلافيا لظهور النزعات الانفصالية التي قد تراود ذلك المسؤول، الا أن الحالة السياسية في العراق بقيت تتسم بعدم الاستقرار مع اقتصار المناصب العليا على العثمانيين، أما العراقيون فكانوا يشغلون المناصب الثانوية عادة حتى عند عدم الاستقرار وفساد الادارة وسوء استعمال السلطة بشكل مفضوح وضعف الحالة الاقتصادية، وانعدام الأمن والخدمات العامة، وعدم قدرة الموظفين على جباية الضرائب من أبرز صفات الحكم العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر، مما جعل الباب العالي يعمل على إتباع سياسة مركزية أكثر فعالية من ذي قبل هدفها ربط المدن العراقية ببغداد قضائيا وعسكريا وإداريا بعد تحسين الوضع العسكري للدولة العثمانية¹.

وجدير بالذكر أن العراق ومنذ سقوط المماليك عام 1247هـ/1831م، حتى أوائل ستينيات القرن التاسع عشر الميلادي كان مقسما إلى إيالتين، ثم غدا بعد ذلك يقتصر على إيالة (ولاية) واحدة، هي إيالة بغداد، والتي كان من الصعب إدارتها لبعدها عن استانبول أولا، وبسبب النزعة الاستقلالية للقبائل العراقية ثانيا. وبعد صدور قانون الولايات العثماني في 27 جمادى الآخرة 1281هـ/8 نوفمبر 1864م، اتخذ هذا القانون تنظيم الدوائر الفرنسية نموذجا في إعادة تنظيم الولايات العثمانية، وبموجبه أعيد تقسيم الولايات العثمانية، حتى تم في 29 شوال 1287هـ/ديسمبر 1871م، صدور نظام إدارة الولايات العمومية، وعد الأساس في تقسيم الولايات العثمانية². وكان قانون الولايات هذا قد صدر لتنظيم عملية اشتراك الأهالي في إدارة شؤون بلادهم بالتعاون مع السلطات الحاكمة والهيئات الإدارية المختلفة، كما قصد به ربط الإدارة الفرعية في الولاية بمقر الوالي، وربط الولايات كلها مركزيا في الحكومة العثمانية في استانبول.

أولا- تقسيم الايالات العراقية في العهد العثماني:

منذ أن تواجد العثمانيون في العراق وهم يحاولون وضع تقسيم إداري منظم له شأنه شأن بقية ولايات الدولة، مع مراعاة بعض الأسس والأوضاع السائدة³، ورغم ذلك لم يجد العثمانيون بعد ضمهم للعراق تقسيما إداريا واضحا للبلاد، فمنذ سقوط الدولة الايلخانية في العراق سنة 376هـ/1336م زالت معظم التقسيمات الإدارية التي وضعها الايلخانيون للعراق، كما لم يقوموا بتقسيم العراق مباشرة إلى وحدات إدارية

¹ عبد العظيم عباس نصار: المرجع السابق، ص 56.

² عباس العزاوي: المرجع السابق، ج7، ص 167.

³ جعفر حسين خصبك: العراق في عهد المغول الايلخاني، ط1، مطبعة العاني، بغداد، 1968م، ص 79-80.

في بداية حكمهم بل كان أسلوبهم هو ترك البلاد مفتوحة حديثا طبقا لحدودها الإدارية السابقة¹. وعليه فقد قسم العراق بحسب التنظيم العثماني إلى وحدات إدارية كبيرة يطلق على كل منها إسم إيالة، والتي غالبا ما تستبدل بكلمة (ولاية عربية) إلى وحدات إدارية أصغر يطلق على كل منها اسم سنجق، ويعد السنجق الوحدة الأساسية في إدارة الإيالة، وغالبا ما تستبدل كلمة سنجق بكلمة لواء بالعربية التي يكثر استعمالها في الوثائق الرسمية للدولة، كما قسم كل سنجق الى وحدات أصغر يسمى كل منها قضاء، والأقضية تقسم إلى نواحي أو قرى صغيرة، وكانت النواحي تدار من قبل الكتخدا، أما الأقضية فكانت تدار من قبل القاضي والصوباشي والسباهية².

ويجدر بنا أن نشير الى أن العراق قسم في البداية إلى أربع ولايات أخذت شكلها الإداري المنتظم في أوائل القرن الحادي عشر الهجري (القرن السابع عشر ميلادي)، وهي بغداد، الموصل، والبصرة، وشهرزور (كركوك) والتي بإمكاننا انجازها على النحو التالي:

1- **بغداد:** دخلت بغداد في حوزة الدولة العثمانية بعد هرب حاكمها الصفوي محمد خان تكلو ودخول السلطان سليمان القانوني (1520. 1566م) إليها عام (941 هـ . 1534م)³، وتعد أكبر الولايات وكانت عاصمة الخلافة العباسية، يحدها من الشمال إيالة شهرزور وإيالة الموصل وجزء من إيالة الرقة، ومن الشرق منطقة لرستان والبختاري وممتلكات الدولة الصفوية، أما من الجنوب فكانت تحدها ولاية البصرة، ومن الغرب والجنوب الغربي بادية الشام أو الصحراء السورية.

وبدورها قسمت ولاية بغداد الى 12 سنجق في بادئ الأمر، لكن تغير حدودها باستمرار بسبب توسعها أضاف إليها عدة سناجق، خاصة في زمن كل من حسن باشا وابنه أحمد باشا اللذان حكما إيالة بغداد بين سنتين 1704م و1747م⁴، وقد أشارت سالنامة الدولة العثمانية لسنة 1266هـ/1849م أن إيالة بغداد مع شهرزور كانت تضم: بغداد (المركز)، كاظمين، قره اردمان، بعقوبة، جو يدور، محمودية، حارثية، خراسان، بدره وجاسان، طوربايه، خانقين، كفري، بنكدره، قزل رباط، شهربان، راشديه، ابو غريب، رحاليه، هندية، ضعارة، زنك أباد، عمراين، منصورية، نهران، سامره، الحله، محاويل، ابو كلمك، وبسيه، هاشمية، مسيب، تكريت، دلتاوة، هيت وكبيسه، عنه، ديلم، عوينه، حاجي قره، زهاويه، قوله، دكه، قزانيه، قره

¹ نوري عبد الحميد العاني: العراق في العهد الجلائري (1337-1411م)، منشورات دائرة الشؤون الثقافية، بغداد، 1986م، ص 75.

² عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا، ط1، دار الكاتب العربي للنشر، القاهرة، 1968، ص 356-358.

³ عبد العظيم عباس نصار: المرجع السابق، ص 49.

⁴ عبد العظيم عباس نصار: المرجع السابق، ص 50.

الوس، مهروود، خالص، قره تبه، عنه، رضوانية، جديدة، طهماسية، جربوعية، شامية، باشية، باره مانه، كربلاء، نجف، دجيل وزيد.

2-الموصل: وهي أولى مناطق العراق التي دخلت في حوزة الدولة العثمانية منذ عام 923هـ . 1517م، وذلك على إثر الانتصار الكبير الذي حققه السلطان سليم الأول (918 . 927 هـ/ 1512 . 1520م) على الشاه إسماعيل الصفوي في معركة جالديران عام 920هـ/ 1514م¹.

وبسبب موقعها الجغرافي على خطوط التماس مع الدولة الصفوية طبق على هذه الايالة منذ القرن السادس عشر ميلادي نظام الاقطاع الحربي العثماني، الذي كان السلطان يمنح بموجبه أرضا لأفراد من سلاح الخيالة يستقرون فيها ويشرفون على زراعتها بمساعدة الفلاحين الذين كانوا يتولون زراعتها بصفتهم متأخرين، وكانت هذه الأراضي تسمى إقطاعات (ديربلكات)، ويطلق على الفرسان الذين يحصل عليهم الجيش عن طريق الاقطاع الحربي اسم (السباهية الاقطاعية)².

وهناك ثلاث أنواع رئيسية من هذه الإقطاعات ، فالإقطاع الأصغر مساحة يسمى ب(تيمار)، وإقطاع أكبر مساحة منه يسمى (زعامت)، أما الاقطاع الأكبر مساحة يسمى ب (خاص)، وهو لا يخضع للتفتيش ، ويمنح عادة للولاة الذين يكونون في الخدمة الحكومية.

وكانت حدود ايالة الموصل محددة من الشرق بإيالة شهرزور ومن الشمال بإيالة دار بكر ومن الغرب بإيالة الرقة ومن الجنوب بإيالة بغداد، وقد قسمت هذه الايالات إلى سناجق أيضا، فسالنامه الدولة العثمانية لعام 1266هـ/ 1849م جعلت من لواء الموصل يشمل على: الموصل، عقرة، زيباري مزوري، زيري، داوديه، بروارئ روزي، زاخو، دهوك، تلعفر، سنجار، نصيبين.

واستمرت الموصل ايالة مستقلة يحكمها الوزراء والكتاب أو الباشوات المعنيين من قبل الاستانة حتى سنة 1267هـ/ 1851م، حين عين في تلك السنة متصرف وأصبحت سنجقا تابعا لايالة بغداد، وظلت على ذلك الوضع إلى ما بعد عام 1286هـ/ 1869م³.

¹ ستيفن هيمسلي لونكريك: المصدر السابق، ص 33.

² صالح محمد العابد: النظام الإداري في العراق في العهد العثماني (موسوعة حضارة العراق)، ط1، منشورات وزارة الاعلام، بغداد، 1985م، ص 19.

³ جميل موسى النجار: الإدارة العثمانية في بغداد من ولاية مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني(1869-1917م)، ط1، مطبعة مدبولي، القاهرة، 1991م، ص 59.

3-البصرة: هي آخر الولايات العراقية التي ضمها العثمانيون عام 953هـ/1546م من قبل والي بغداد، وكانت تحكم حكماً¹ وراثياً من قبل الأسرة المعروفة بأسرة افارسياب، واستمرت الأسرة تحكم بهذا الشكل حتى دخلتها القوات العثمانية مرة أخرى سنة 1079هـ/1668م، ومن ثم أصبحت البصرة تحت حكم العثمانيين مثل بقية الولايات العثمانية الأخرى، أما حدودها فهي ايالة بغداد من الشمال والكوفة والنجف والصحراء من الغرب، والاحساء من الجنوب، وبلاد فارس من الشرق.

وجدير بالذكر أن هناك اختلاف تاريخي حول تقسيم البصرة إلى وحدات إدارية، فبعض المصادر تشير إلى أن البصرة لم تقسم إلى سناجق بسبب تركيبها العشائري، وتجي ضرائبها بالالتزام، وعدت وحدة إدارية واحدة يتسلم الوالي المعين لإدارتها راتباً سنوياً على شكل ساليانه، في حين أن هناك ما يدل على أن البصرة قسمت إلى ثمانية سناجق هي: شرش، قطيف، صدر سويب، زكيه، محرز، قبان، وغالبيتها عبارة عن قلاع حربية فيها حاميات عسكرية مهيأة لمواجهة انتفاضات القبائل وتهديدات الصفويين في إيران².

واستمرت البصرة ولاية مستقلة يحكمها والي مثل غيرها من الولايات، إلا أنها ألحقت بولاية بغداد سنة (1146هـ/1723م)، حيث أصبح والي بغداد يعين عليها متسلماً ينوب عليه في حكم المدينة، وظل الوضع الإداري للبصرة على هذه الصورة حتى منتصف القرن التاسع عشر، حيث صارت ولاية شبه مستقلة تحت إدارة (باشا) وقد ضمت الأراضي الواقعة على شط العرب والفرات إلى السماوة، وعلى دجلة إلى العمارة، التي دخلت ضمن حدودها وتشمل الحي وشط الغراف³.

إن الوضع الإداري للبصرة لم يكن مستقراً كلياً، فأحياناً تلحق بولاية بغداد، ثم تنفصل عنها فيلحق بها أو تنتزع منها مناطق تقع بين المدينتين، ولكنها تتمتع بصلاحيات واسعة في إدارتها طالما هي تابعة لولاية بغداد، وقد رفعت من مرتبة لواء إلى ولاية عام 1293هـ/1875م، وفي عام 1298هـ/1880م أنزلت درجتها مرة أخرى من ولاية إلى متصرفية (لواء)، واستمرت حتى الاحتلال البريطاني عام 1333هـ/1914م⁴.

4- ولاية شهرزور (كركوك): كانت حدود ايالة شهرزور هي ايالة بغداد من الجنوب، والموصل وحكومة العمادية من الغرب، وحقاري وأذربيجان من الشمال، وبلاد فارس من الشرق، وكان حاكمها هو الأمير بكه بك الذي كان من ضمن الأمراء الذين أيدوا الولاء للدولة العثمانية، ولم تتمكن الدولة العثمانية من فرض سيطرتها على شهرزور إلا بعد حملات متعددة، بسبب النزاع بينها وبين الدولة الصفوية، حتى تم الاعتراف رسمياً بموجب معاهدة فرهاد باشا عام (998هـ/1590م) بعائدية شهرزور للدولة العثمانية.

¹ عبد العظيم عباس نصار: المرجع السابق، ص 52.

² صالح محمد العابد: المرجع السابق، ص 22.

³ عبد العظيم عباس نصار: المرجع السابق، ص 54.

⁴ صالح محمد العابد: المرجع السابق، ص 22.

وكانت سناجق ايالة شهرزور مثل سناجق ايالة البصرة من حيث كون أغليتها قلاعا على رؤوس الجبال وعند المضائق المهمة، وقد اندثر معظمها بفعل الحروب¹ المستمرة في هذه المنطقة، إما بين العثمانيين والصفويين، أو بين الأمراء الأكراد أنفسهم.

أما عدد سناجق شهرزور فهي عشرين سنجقا وفيها كتحدا ودفتر دار، وتشير سالنامه الدولة العثمانية لعام 1266هـ/ 1849م إلى تقسيم لواء شهرزور إلى : كركوك، وقرة حسنة، تاز خرماتي، بشيمر، مرجه، افتخار، قلقاتلو، كل ، كوك تشبه، شوان ، جباري.

ولعل أكثر ما واجه الباحثون في دراسة الايالات العراقية هو صعوبة وضع حدود دقيقة لولايات بغداد، والموصل، والبصرة ، وشهرزور، لعدة أسباب في مقدمتها تناقض المصادر التاريخية، وتضاربها بشأن حدود هذه الايالات وسناجقها، والتغيرات التي حصلت على حدود الايالات نفسها بسبب بعض التغيرات، ومنها نقل قسم من السناجق إلى ايالة أخرى، أو زيادة عددها في الايالة الواحدة².

وقد قسم العراق بعد صدور قانون الولايات العثماني في 27 جمادى الآخرة 1281هـ/ 8 تشرين الثاني 1864م، إلى ثلاث ولايات هي: بغداد، والبصرة، والموصل، وقسمت كل ولاية على عدد الولاية وهذه بدورها قسمت إلى وحدات إدارية أصغر دعي كل منها بالقضاء والقضاء إلى نواحي نزولا إلى القرية التي تعد أصغر وحدة إدارية في التشكيل الهرمي للولاية³.

ثانيا- المناصب الإدارية السياسية والادارية:

يسهر على تسيير شؤون البلاد جهاز اداري نوجز مجمله وهيئة الإدارة وتشكيلاتها التي كانت تشرف على ذلك بدءا من الوالي وانتهاء بأصغر الموظفين، وهم على الشكل الآتي:

1-الوالي: أعلى منصب في الولاية يحكم أنه رأس الجهاز الإداري للولاية وأرفع منصب فيها، ويتم تعيينه أو تجديد ولايته سنويا بفرمان أو مرسوم سلطاني⁴، ومنذ أواخر القرن السادس عشر الميلادي أصبح الوالي يحمل رتبة وزير ولقب باشا، وكان الولاية الأقوياء يتمتعون بصلاحيات كثيرة، بحيث كانوا يتجاوزون في كثير من الأحيان على اختصاصات الموظفين الكبار الآخرين في الولاية، ومن بين الواجبات التي يضطلع بها الوالي هي المحافظة على ضبط الأمن والنظام في الولاية وحماية الناس وممتلكاتهم والعناية بتحصين القلاع والمدن، وجباية

¹ عبد العظيم عباس نصار: المرجع السابق، ص 55.

² صالح محمد العابد: المرجع السابق، ص 23.

³ عبد العزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص 356-358.

⁴ جميل موسى النجار: المرجع السابق، ص 50.

الضرائب المقررة على الولاية إلى استانبول سنوياً¹، كما يتقاضى البكليك (الوالي) راتباً سنوياً (ساليانة) في الولايات التي خلت من التنظيمات الإقطاعية كبغداد والبصرة.

2-الكتخدا أو الكهية: هو مساعد الوالي ومعاونه في الشؤون الإدارية والعسكرية والمالية، وله مقر خاص يعرف بدار الكتخدائية، وسلطات الكتخدا ترتبط بسلطات الوالي، فإذا كان قوياً فإن سلطته تضمحل، وإذا كان ضعيفاً فإن سلطته تزداد، ومنصب الكتخدا بمثابة الدرجة الأخيرة في السلم الهرمي الإداري للوصول إلى مرتبة الوالي².

3-الدفتر دار: هو المسؤول الأول عن إدارة المالية في الولاية، ويعين مباشرة بفرمان سلطاني، وهذا يعني أن سلطته منفصلة عن الوالي أو القاضي، وتعرف الدائرة التي تضم هذا المنصب بالدفتر خانة، ولا يجوز لدفتر دار الولاية أن يتصرف بمال الجبايات بحسب ما يريد، ويضطر لأن يستأذن الديوان كلما اعترض مصروف جديد غير معتاد³، هذا ويعد الدفتر دار المرجع الأساس الذي له الدراية بكل ما يتعلق بشؤون الولاية.

4-المتسلم: وهو النائب عن الوالي وأشبه ما يكون بولي عهد مؤقت، ويقوم بتسلم مهام إدارة الولاية عند غياب واليها لأي سبب كان، ويأتي تعيينه من الوالي نفسه، من دون الرجوع إلى سلطة أعلى، وقد يعين لحكم منطقة أو يستحق نائباً عن الوالي أي بمثابة قائم مقام مثل متسلم البصرة⁴.

5-رئيس الكتاب (ديوان افنديسي): وهو بمثابة أمين سر الوالي للشؤون الكتابية أو ما يعرف بديوان الإنشاء، وهو جهاز يتبع الوالي مباشرة ويضم الجهاز مجموعة من الكتاب والمترجمين، ويختص بتحرير كتب الوالي ورسائله باللغات المتداولة وتسجيل الأوامر الحكومية الواردة للولاية⁵.

6-الخزنة دار: وهو الموكل بخزانة الوالي وضبط وارداتها ومصروفاتها، ومشرف على تسجيل الفرمانات الواردة للولاية، وتسجيل الضرائب المفروضة على القرى وتثبيت ما استحصل منها⁶.

¹ عبد العظيم عباس نصار: المرجع السابق، ص 58.

² جميل موسى النجار: المرجع السابق، ص 72.

³ عباس العزاوي: المرجع السابق، ج 7، ص 278.

⁴ صالح محمد العابد: المرجع السابق، ص 27-28.

⁵ صالح محمد العابد: المرجع السابق، ص 27.

⁶ عبد العظيم عباس نصار: المرجع السابق، ص 61.

المبحث الثالث-أوضاع العراق الاقتصادية خلال العهد العثماني:

أولاً-الزراعة: كانت الزراعة في العراق في أغلب سنوات الحكم العثماني تعاني من التدهور والكوارث الطبيعية، وكان المزارعون يعتمدون على وسائل وأساليب تقليدية، يعود بعضها إلى العصور القديمة، ويعتبر المحراث الخشبي والفأس أكثر الأدوات الزراعية انتشاراً، وكان استخدام المحراث الحديدي المثبت على سكة خشبية في نطاق محدود جداً وفي عدد قليل من المزارع، بينما كانت عملية دراسة المحصول تتم بواسطة الماشية ولم تستخدم الأدوات الزراعية التي كان الفلاحون الأوربيون يستخدمونها الا في حالات نادرة جداً كما لم تول الحكومة العثمانية اهتماماً بتطوير مشاريع الري، وهذه الأوضاع انعكس أثرها على الإنتاج الزراعي بشكل كبير. وعلى الرغم مما يعانيه الفلاح العراقي من صعوبات في عمله فان الحكومة كانت تفرض عليه ضرائب يصعب عليه تسديدها، كما كانت الفيضانات التي تتعرض لها الأراضي الزراعية من العوامل التي تركت أثارها على تردي الإنتاج الزراعي¹.

تركت التغيرات الجديدة التي شهدتها الاقتصاد العراقي أثارها على المكانة والنفوذ الذي كان يتمتع به شيوخ العشائر في الريف. وحاولت الحكومة العثمانية السير في ركاب العالم الرأسمالي وتعزيز سيطرتها المركزية على المدن لذلك تم إصدار قانون الأراضي عام 1858م، وشعر بعض شيوخ العشائر أن التغيرات الجديدة لا تصب في خدمة مصالحهم، ورأوا فيه أن الحكومة العثمانية تسعى الى القضاء على نفوذهم وتفكيك تماسك عشائرتهم ونشر الانقسامات فيما بينهم بما يحقق مصالحها. وبعد فتح قناة السويس عام 1869م وارتباط العراق بالعالم الرأسمالي تأثرت العشائر العراقية عامة ولا سيما التي كانت تقيم في القسم الأدنى من نهر دجلة وعند شط العرب²، فساعد هذا العامل على ارتباط الاقتصاد العراقي بعلاقات تجارية مع الأسواق الرأسمالية العالمية، مما هيأ إمكانيات جديدة لتطور الاقتصاد في البلاد، كما أدى ذلك الى زيادة نفوذ رأس المال الأجنبي. وعلى الرغم من الجوانب الايجابية التي تركتها عملية ارتباط العراق بالأسواق المالية العالمية إلا أنه بالمقابل كان له آثاراً سلبية فقد أخذ العراق يتحول الى ممول للسوق العالمية بالمواد الخام وهذه العملية جعلته مكبلاً بالقيود الاقتصادية والسياسية لتلك السوق³.

غطى اقتصاد السوق على كل ما كان سائداً قبل القرن التاسع عشر فأصبح الملاك وشيوخ العشائر

¹ كوتلوف ل: ثورة العشرين (الوطنية التحررية في العراق)، ترجمة عبد الواحد كرم، ط2، مكتبة اليقظة العربية، بيروت، 1975، ص 19-20.

² حنا بطاطو: العراق "الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام الجمهورية"، ترجمة عفيف الرزاز، ط2، دار الأبحاث العربية، بيروت، 1995، ج1، ص 100-103.

³ كوتلوف: المصدر السابق، ص 18.

باعتبارهم يتمتعون بملكية بعض الأراضي الزراعية بالإيجار أو الطابو ينظرون إلى أبناء عشائرتهم بطريقة جديدة، وهي كونهم أصبحوا مصدرا للربح وأصبحت للفلاح العشائري قيمة أكبر لدى الشيخ في الوقت الذي كان الفلاح فيه غير مرتبط بالأرض التي يعمل بها لذلك كان بعض الفلاحين ينتقلون للعمل من أرض إلى أخرى عندما يشعرون بعدم ارتياحهم في عملهم، وهذا أدى إلى تنافس الملاكين على استقطاب الفلاحين للعمل في أراضيهم وبذلك أصبح الفلاح غير ملتزم بالأوامر والتعليمات التي كان يفرضها عليه شيخ عشيرته فيما يتعلق بإنتاج الأرض التي يزرعها. وأصبح للفلاحين الحق في بيع حصتهم من الإنتاج وشراء احتياجاتهم من السوق المحلية بينما كانت مبادلة حصة الفلاح من الإنتاج سابقا لا تتم الا عن طريق الشيخ¹، فتحرر الفلاح من القيود التي طالما كبلته.

وعن المحاصيل الزراعية العراقية فقد اشتهرت مدن زراعة بعض المحاصيل المهمة والتي يصدر الفائض منها بكثرة الى الدول الأخرى ومنها ولاية الموصل التي اشتهرت بانتاجها من الحنطة والشعير ومما ساعد على انتشار زراعة الحنطة والشعير في أراضي الموصل هو خصوبة التربة وكان الفلاحون لا يجدون صعوبة في زراعة الأرض هناك، دون الحاجة إلى الاسمدة، لان العوامل الطبيعية اللازمة للزراعة متوفرة وكان الإنتاج يفيض عن حاجة الاستهلاك المحلي، ويصدر الفائض منه الى الخارج².

وساهم تولي مدحت باشا حكم العراق عام 1869م في ازدهار الزراعة بفضل سياساته التي تهدف لتطوير قطاع الزراعة عن طريق زراعة أكبر مساحة ممكنة من الأراضي وتوفير الأوضاع المناسبة لها. وكان ذلك يتطلب أيضا إضعاف نفوذ القبائل ونشر الأمن وتوسيع الزراعة وهذه الإجراءات سوف تضر بمصالح بعض شيوخ القبائل التي كان مدحت باشا يعمل على إضعاف نفوذهم وكان يهدف الى الحد من سيطرتهم المطلقة على أبناء عشائرتهم³.

وتغيرت علاقات الريف من حيث روابطه بالمدينة إثر التغيرات التي عكسها تطور الاقتصاد على البلد، اذ أصبح الريف يتبع المدينة، وأصبحت الروابط الريفية مع المدينة أقوى مما كانت عليه في السابق. وقد ساهم الوسطاء في عملية الإشراف على زراعة الأراضي وجي محاصيلها وإيراداتها وبيعها إلى التجار على تعزيز هذه الروابط، لاسيما وأن المدينة قد جذبت إليها بعض المتنفذين من أهل الريف ممن أصبحوا بحاجة إلى وكلاء يشرفون على مصالحهم، حالهم في ذلك حال تجار المدن الذين انتقل إليهم بدورهم جزء من أرض الريف الزراعية ليتحولوا بذلك الى نواة للفئة الجديدة، التي يعرف المنتمون إليها بـ (الملاكين الغائبين)، ومما عزز من

¹ حنا بطاطو: المصدر السابق، ج1، ص ص 100-103.

² شارل عيساوي: التاريخ الاقتصادي للهِلال الخصيب (1800-1914م)، تعريب رؤوف عباس حامد، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990، ص 300.

³ جميل موسى النجار: المرجع السابق، ص 53.

روابط المدينة بالريف هو بروز ظاهرة الهجرة من الريف إلى المدينة وكان هناك العديد من المهاجرين ممن تركوا الريف بسبب الممارسات الظالمة للاقطاعيين ليجتثوا لهم عن فرصة عمل جديدة في المدينة. الا أنهم حتى بعد استيطانهم في المدينة لم يقطعوا علاقاتهم بالريف ولم يفقدوا لمدة من الزمن روابطهم الروحية والمادية بموطنهم الأصلي¹.

هذا، ويذكر أن استقرار القبائل المتنقلة بعد الإجراءات التي اتخذتها الحكومة من أجل توطينها أدى إلى تحول النشاط الاقتصادي لتلك القبائل من تربية الحيوانات إلى الزراعة، واستحوذ رؤساء العشائر على مساحات واسعة من الأرض وحتى أوائل القرن العشرين كانت قد تركت بأيدي الشيوخ ووجهاء القبيلة مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية إضافة إلى سيطرة البعض منهم حتى على مصادر ري الأراضي الزراعية، ففي منطقة الحلة على سبيل المثال كان شيوخ العشائر يمتلكون واردات ضخمة نتيجة لاستغلال الفلاحين العاملين في أراضيهم، وكان كل شيخ يمتلك مجموعة من الأتباع الذين يقومون بخدمته ودعم مركزه كما كانوا يقومون بجمع الضرائب له من الفلاحين، وفي سبيل نضال الفلاحين من أجل الأرض لم يخضعوا للالتزامات الإقطاعية، بل واصلوا النضال ضد الملاكين الذين سلبوا حقوقهم من جهة، ووقفوا الى جانب الملاكين الذين أنصفوهم من جهة أخرى².

ثانيا-التجارة:

كانت التجارة العراقية في القرنين الأولين من العهد العثماني مماثلة لما كانت عليه قبل ذلك حيث كانت التجارة الداخلية معتمدة وسائل النقل البدائية كما كانت المبادلات التجارية الخارجية مع جيرانها مثلما كانت عليه في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، لكن شهد الاقتصاد العراقي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حدوث تقدم كبير، نسبيا، في قطاع التجارة ولا سيما في الولايات العراقية الرئيسية بغداد، والبصرة، والموصل، وذلك لأسباب عدة منها ارتباط العراق بالأسواق الرأسمالية العالمية، وظهور بعض الولاة المصلحين في العراق الذين حرصوا على تطوير وتنمية الاقتصاد كمدحت باشا³، إضافة إلى زيادة الإنتاج الناجمة عن التوسع في الزراعة اثر الطلب المتزايد من الخارج على بعض المنتجات العراقية.

وكانت صادرات الولايات العراقية الثلاث الرئيسية قبل دخول البواخر إلى دجلة والفرات وميناء البصرة ونشوء التجارة العراقية-الأوروبية في أواسط القرن التاسع عشر، لم تكن تقتصر على المنتجات الزراعية والحيوانية فحسب، بل كانت تشتمل على بعض السلع المصنوعة محليا، وكانت السلع العراقية تصدر الى سوريا واسطنبول والمدن القريبة منها، وكان العراق آنذاك يصدر بعض منتجاته المحلية، علما ان أغلب حمولة قوافله

¹ كمال مظهر أحمد: الإطار الزمني لتاريخ العراق الحديث والمعاصر، مجلة الحكمة، العدد 5، 1988، ص22.

² كوتلوف: المرجع السابق، ص ص 27-30.

³ عباس عزوي: المرجع السابق، ص 280.

المصدرة كانت تتألف من المنسوجات، والحريز، والتبغ، والنيلة والفواكه المجففة، والتمور، وباستثناء التمور، التي كانت تنتج محليا، فقد كانت معظم البضائع تأتي من الهند وإيران وشبه الجزيرة العربية وتصدر عن طريق العراق باتجاه بلاد الشام واسطنبول¹.

وقد أكدت الأرقام أن زيادة اقبال العراقيين على البضائع المصنعة في أوروبا من العوامل التي ساعدت على نشاط التجارة بين العراق وبين دول أخرى وعلى سبيل المثال نلاحظ أنه في عام 1859م ارتفعت نسبة الواردات من الهند، ولا سيما المصنوعات البريطانية، بشكل واضح، وقد تجاوزت قيمتها الإجمالية (904.499) شامي. ويعود ذلك الارتفاع الى الطلب المتزايد للولايات العراقية على الأدوات والمصنوعات الأوروبية التي تأتي عن طريق بومباي، بعد ان تصل من أوروبا الى الهند بحراً. لاسيما بعد ان انخفضت كمية البضائع المصنعة في أوروبا في أسواق الولايات العراقية بسبب المخاطر التي كانت تتعرض لها القوافل التجارية، التي تنقل مثل تلك البضائع، في الطريق بين بغداد وحلب مما أدى إلى الاعتماد على البضائع الأوروبية المستوردة عن طريق الهند. وقد ساعد ذلك على نشاط التجارة بين العراق والهند. كما كان لوفرة رأس المال المحلي، الناجم عن بيع التمور والخليل والبغال الى الدول الاخرى، اثرا كبيرا على نشاط تجارة العراق الخارجية².

وقد كان لسياسة الوالي مدحت باشا عام (1869-1872م) أثرا واضحا على تطور الاقتصاد العراقي، فقد ألغى عام 1869م العديد من الضرائب التي عدها عقبة أمام تحسن الوضع الاقتصادي في الولايات والمدن العراقية، ومنها ضريبة الاحتساب التي كانت تفرض على السلع التي تدخل المدينة لبيعها في الأسواق، و"ضريبة خمس الحطب" المفروضة على الوقود الذي يجلب الى المدينة، و"ضريبة رؤوس البقر" المفروضة على سواقي الري الخاصة بالمزارعين.

كما أن افتتاح قناة السويس عام 1869م كان عاملا رئيسيا في تنشيط التجارة العراقية الأوروبية اذ شهد العراق ظاهرة نشاط تجارة التصدير إلى أوروبا وبشكل رئيس إلى بريطانيا³. وأدى فتح قناة السويس الى تنشيط عملية النقل البحري بين الشرق والغرب وانعكس اثر ذلك على نشاط حركة التجارة البحرية في الخليج العربي وفي الفترة الواقعة ما بين (1869-1913م) زادت قيمة البضائع التي استوردتها الولايات العراقية من متوسط قدره (152.000) الى (3.264.000) جنيه إسترليني، والصادرات من (218.000) إلى (2.593.000) جنيه إسترليني. وفيما يتعلق بالتجارة البرية نلاحظ ان هناك حركة نشاط تجاري بين العراق والدول المجاورة ففي الفترة ما بين (1864-1869م) كانت قيمة متوسط الصادرات إلى إيران (5500) جنيه

¹ محمد سلمان حسن: التطور الاقتصادي في العراق 1864-1958"، ط1، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، 1965، ج1، ص87.

² شارل عيساوي : التاريخ الاقتصادي للهِلال الخصيب، ترجمة رؤوف عباس حامد، بيروت، 1990، ص 302.

³ يوسف رزق الله غنيمه: تجارة العراق قديما وحديثا، ط1، مطبعة العراق، بغداد، 1922م، ص 87.

إسترليني وأكثر من ذلك بالنسبة لقيمة الصادرات العراقية إلى سوريا والولايات العثمانية الأخرى، وفي عام 1878م بلغت قيمة الواردات من إيران (103.000) جنيه إسترليني. وفي عام 1908م بلغ متوسط قيمة الواردات من "الأناضول" (43.000) جنيه إسترليني، وقيمة واردات الخليج العربي (27.000) جنيه، بينما بلغ مجموع قيمة الصادرات إلى "الأناضول" (54.000) جنيه إسترليني¹.

وكانت هناك عوامل خارجية وداخلية عدة ساعدت على بروز ظاهرة نشاط حركة التصدير من بعض المدن العراقية الى الدول الأخرى ومنها الاوربية، ومن أهم العوامل الخارجية تطور طرق ووسائل المواصلات، وانخفاض ثمن النقل نسبياً. وإصدار الحكومة العثمانية بعض القوانين التي خفضت بموجبها التعريف الجمركية المفروضة على الصادرات. أما العوامل الداخلية فاهمها إخضاع شيوخ العشائر والأغوات لسلطة الحكومة. وتوحيد الولايات العراقية حول محور بغداد منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر، وتطبيق نظام الولايات العثماني منذ 1870م، إضافة للإصلاحات الإدارية والاقتصادية التي قامت بها الحكومة، ولاسيما نظام الطابو الذي جعل العشائر تستقر في أماكن محددة والذي اصدر في عهد الوالي مدحت باشا وهذا جعل أعداد غير قليلة من أبناء العشائر التي استقرت يعملون بالزراعة، مما أدى بدوره إلى زيادة إنتاج بعض المحاصيل الزراعية، فقام بعض التجار اثر ذلك بتصدير الفائض من الإنتاج إلى الخارج مما ساعد على نشاط تجارة التصدير².

ثالثاً- الصناعة:

على الرغم من التقدم الكبير الذي شهدته قطاع التجارة وقطاع الزراعة إلا ان الصناعة لم تتقدم كثيراً خلال العهد العثماني، فقد كان للتطور الاقتصادي آثاراً سلبية على قطاع الصناعة، وأخذت العشرات من محلات الإنتاج الحرفي تختفي من الأسواق والبيوت التي تمارس فيها، لأنه لم يكن بوسع إنتاجها المحدود منافسة البضائع الأجنبية المستوردة الأجود نوعاً والأرخص سعراً والأكثر تنوعاً التي لاقت رواجاً كبيراً في الأسواق العراقية وقد أخذت بعض المحلات الحرفية الأخرى بمظاهر التحديث وانضم إليها عدد من الحرفيين الذين كانوا خسروا أعمالهم بسبب التطورات الحديثة التي شهدتها الاقتصاد العراقي، وقد انضم الحرفيون الذين خسروا أعمالهم إلى صفوف الطبقة العاملة الوليدة التي كانت تمثل بدورها حالة جديدة في عراق ما بعد منتصف القرن التاسع عشر. وظهرت منذ ذلك الوقت النواة الأولى للمستثمرين العراقيين في مجال الصناعة ووجدت الآلات الحديثة المتصلة بحياة الفرد المعيشية طريقها الى العراق منذ العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، وتأسست في بعض المدن الرئيسة معامل الثلج والمطاحن الحديثة

¹ شارل عيساوي: المرجع السابق، ص ص 211-212.

² محمد سلمان حسن: المرجع السابق، ص ص 87-88.

ومعامل لإنتاج المياه الغازية¹، وأول معمل حديث تأسس في العراق هو الذي أسسه الوالي رشيد باشا الكوزلكي في العقد السادس من القرن التاسع عشر، ولم يكن معملا على غرار معامل أوروبا بل كان اقرب إلى ورشة لإصلاح البواخر والمكائن المستوردة، وكان يحتوي على تورنة، ومقراض، ومثقب وأدوات أخرى. وكان المعمل المذكور يقع في منطقة الكرخ ببغداد، وفي عهد مدحت باشا قام المعمل بتقديم خدمات مهمة للجيش وقد تم إصلاح العديد من البنادق القديمة في المصنع المذكور، وفي عام 1864م أسس الوالي نامق باشا أول معمل حديث للنسيج في العراق وأطلق عليه (العباخانة) وكان يدار بقوة البخار، واهتم مدحت باشا في فترة ولايته بتطويره حتى أصبح ينتج (300) متر من الأقمشة الصوفية و(400) من الأقمشة القطنية يوميا².

¹ محمد سلمان حسن: المرجع السابق ، ص 28.

² علي الوردي: المرجع السابق، ج3، ص 244.

المبحث الرابع-الأوضاع الاجتماعية في العراق خلال العهد العثماني:

تناول الباحثون أوضاع العراق الاجتماعية في العراق ابان العهد العثماني من زوايا مختلفة، ويعود ذلك لطبيعة المجتمع العراقي المعقدة مقارنة بباقي البلدان حيث يتميز المجتمع العراقي بسمات وخصائص فريدة وان توفرت في بلدان أخرى الا أن العراق كان ولازال يشكل فسيفساء اجتماعية حقيقية، مزيج يجمع العديد من الأطياف الدينية والمذهبية من جهة ومن أجناس وعرقيات عديدة من جهة أخرى عاشت وشكلت مجتمعا واحدا رغم كل التناقضات لعدة قرون¹، وفيما يلي نبرز أهم خصائص المجتمع العراقي من حيث البنية البشرية المتعددة، والأوضاع المعيشية والصحية والتعليمية التي ميزت فترة الحكم العثماني.

أولا- خصائص المجتمع العراقي: تميز المجتمع العراقي من حيث التركيبة والبنية البشرية خلال الحكم العثماني بعدة خصائص يمكننا تلخيصها في النقاط التالية:

1-التنوع الديني والمذهبي: من أبرز خصائص المجتمع العراقي منذ القدم أي حتى قبل فترة الدراسة هي تعدد الأديان والمذاهب فبالإضافة الى المسلمين الذين يشكلون أغلب سكان العراق سنة وشيعة وينتشرون في الأرياف والمدن وفي كل جهات العراق تقريبا، يضاف لهم أتباع الديانة اليهودية والنصارى الذين كان تركيزهم في الشمال لكن تغيرت خارطة تواجدهم في القرنين الأخيرين من الوجود العثماني، بالإضافة الى الأيزيديين الذين استوطنوا جبال كردستان والصابئة المندائيون الذين انتشروا في البطائح². كما ظهرت حركات وطرق صوفية في العهد العثماني أشهرها البابية والبهائية والشبك، والطريقة القادرية التي انتشرت بشكل واسع في العراق وخارجه، ويمكننا القول أن موقع العراق ساهم بشكل بارز في تشكل هذه الفسيفساء العقائدية التي ينفرد بها العراق أكثر من غيره من البلاد العربية .

2-التنوع العرقي: يتشكل المجتمع العراقي من عدة عرقيات وأجناس مختلفة، وهذا يعود لقدسم الزمان حين شهد العراق هجرات متعددة من مناطق مختلفة وتواصلت على فترات متباعدة ساهمت بشكل كبير في تشكل المجتمع العراقي بهذا التعدد العرقي، فالعرب الذين يشكلون الأكثرية وجودهم في العراق قدسم جدا في شماله ووسطه وجنوبه فيسكن كثير منهم الأرياف والبادية بسبب طبيعة أنشطتهم الزراعية وتربيتهم للمواشي، كما يقطنون المدن الحضرية لمن ينشطون في قطاعات أخرى كالصناعة والتجارة والخدمات، كذلك يشكل الأكراد جزء مهما من مكونات المجتمع العراقي بصنفيهما السوران والبهدينان، حيث يتواجدون بقوة خاصة في

¹ عبد الرزاق الحسني: المرجع السابق، ج1، ص 19.

² أحمد عبد المنعم البدوي: الصابئة منذ ظهور الاسلام حتى سقوط الدولة العباسية، ط1، دار رؤية للنشر، القاهرة، 2012م، ص 136.

الشمال لأسباب دينية وسياسية وتاريخية¹، كما يتواجد التركمان أيضا في الشمال لكنهم أقل عددا من الأكراد، كما أن الأرمن لهم تواجد ملموس في مناطق مختلفة من العراق خاصة بعد هجرتهم الى العراق أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بسبب توتر علاقاتهم مع السلطة العثمانية، فانتشروا في المدن العراقية المختلفة لاسيما بغداد بسبب أنشطتهم الاقتصادية²، أيضا تواجد الفرس الإيرانيون في العراق في هذه الفترة على قلتهم في المناطق الحدودية مع ايران بسبب القرب الجغرافي والمناطق المقدسة لأتباع المذهب الشيعي كالنجف الأشرف وكربلاء³.

3- الطابع القبلي والعشائري للمجتمع العراقي: تشكل المجتمع العراقي من عديد القبائل والعشائر التي كانت تشكل بدورها وحدات شبه مستقلة يستمد أفرادها قوتهم ومكانتهم من قوة عشائرتهم التي ينحدرون منها، ولكل عشيرة تقاليدها وعاداتها التي تميزها عن غيرها، كما كان لهذه العشائر تأثير كبير في المناطق التي يتواجدون بها فكانت السلطات في أحيان كثيرة تخضع لتأثير ونفوذ هذه العشائر، وفي أحيان أخرى تتصادم معها وهو ما جعل السلطات العثمانية تحاول أن تفكك وحدة تلك العشائر لكن أغلب محاولاتها فشلت.

ثانيا- التقسيم الطبقي للمجتمع العراقي: كأى مجتمع انساني تتفاوت فيه المستويات الاجتماعية من حيث المكانة والنفوذ، لذلك اجتهد الباحثون للفصل بين الطبقات وفق معايير موضوعية محددة أشهر هذه المعايير اعتمدت على الجانبين السياسي والاقتصادي فتم تقسيم المجتمع العراقي الى 3 طبقات هي:

1- الطبقة الحاكمة: تتكون هذه الفئة من الوالي، وحاشيته، وعائلته، والمقربين منه، وكذلك السادة، والأشراف الذين استأثروا بمناصب الحكم والإدارة، وتركزت في يدهم كل السلطات، فكان لذلك انعكاس على أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية فتسيدوا المجتمع رغم قلة عددهم .

ب- الطبقة البرجوازية: كانت تسمى الطبقة الوسطى لكن مع التحولات الاقتصادية في العراق عرفت بالطبقة البرجوازية، وتتكون من أطياف مختلفة عرقيا ودينيا ومذهبيا ذات مستوى معيشي مقبول، وهي فئة ملاك الأراضي الزراعية والعقارات، وتمارس أنشطة اقتصادية في كل القطاعات لكن تضطر في كل مرة للتقرب من السلطات المحلية لقضاء حاجياتها، وتزايد نشاط هذه الطبقة مع التطور الاقتصادي الكبير الذي شهده العراق في القرن التاسع عشر خاصة اليهود والنصارى⁴.

¹ عدنان زيان فرحان: الكرد الأيزيديون في كردستان، ط1، مركز كردستان للدراسات الإستراتيجية، السليمانية، 2004م، ص 13.

² عبد للرزاق الحسني: المرجع السابق، ج1، ص 19.

³ جميل موسى النجار: المرجع السابق، ص ص 116-117.

⁴ يوسف رزق الله غنيمه: تجارة العراق قديما وحديثا، ص 87.

ج- الطبقة الفقيرة : وهي الطبقة المعدمة التي تشكل غالبية السكان، أو ما يسمى الطبقة الكادحة التي لا تملك غير قوت يومها وأحيانا لاتجده، وكانت الفئة الأكثر عرضة للنكسات والنكبات الاقتصادية، وهم أفقر فئات المجتمع، وتضم هذه الفئة الفلاحين وأصحاب الحرف البسيطة، وسكان المناطق الجبلية والناحية¹. يذكر أن هذه الطبقات الاجتماعية تشكلت من عناصر مختلفة لم يكن هناك تمييز بين هذه العناصر من الناحية العرقية (عرب، أكراد، تركمان ...) أو من ناحية الطائفة أو الدين (سنة، شيعة، مسيحيون، يهود، أبزيدبة .. الخ).

كما يجب أن ننوه الى تقسيم آخر قام به بعض الباحثون حيث قسموا المجتمع الى قسمين وهم أولا البدو وهم سكان الأرياف والوادي والمناطق الجبلية، أما القسم الثاني فهم الحضر الذين يقطنون المدن وهذا التقسيم اعتمد على أنماط المعيشة وطبيعة الأنشطة الاقتصادية للسكان بغض النظر عن الطبقية.

ثالثا-الأوضاع الصحية والتحديات التي واجهت المجتمع العراقي:

1-انتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة:

شهدت العراق في هذه الفترة فتك العديد من الأمراض الخطيرة بالأرواح فساهمت بشكل كبير في انخفاض عدد السكان بشكل ملحوظ، ويعود سبب تفشي هذه الظاهرة الى ازدهار التجارة وكثرة الوافدين على العراق من كل بقاع الأرض²، وعلى سبيل المثال مرض الكوليرا الذي انتشر في عهد الوالي المملوكي داود باشا في بغداد عام 1820م، وقد ظهر المرض في مدينة البصرة، ومنها انتشر إلى باقي المدن العراقية، وقد فتك المرض بسكان البصرة وكاد يقضي على جميع أهالي المدينة، حتى قيل أن الجثث انتشرت في الطرق والأزقة وهرب معظم الذين لم يصابوا بالمرض إلى البادية³.

كما انتشر مرض الطاعون في بغداد أوائل عام 1831م، فأخذت الإصابات تظهر في بغداد لا سيما وأن الحكومة لم تأخذ التدابير اللازمة لإيقافه واستمرت القوافل القادمة من البلدان التي تفشى فيها كإيران وكردستان تدخل بغداد بكل حرية، وفي منتصف أبريل من العام نفسه مات سبعة آلاف شخص في مدينة بغداد بعد إصابتهم بالمرض أي خلال أسبوعين فقط من انتشاره، وقد عدد من يموتون في بغداد في كل يوم بعد ذلك بسبب الطاعون ما بين 1500-3000 شخص وتكدست جثث الموتى في الشوارع وأصبح الأحياء عاجزين حتى عن دفن موتاهم، فانخفض عدد سكان بغداد من 150.000 نسمة سوى 20.000

¹ سيار الجميل: البنية التاريخية للعراق الحديث الموصل أنموذجا، ط1، دار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1999م، ص 119.

² يوسف رزق الله غنيمه: تجارة العراق قديما وحديثا ، ص 80.

³ جعفر الخياط: صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، ط1، منشورات وزارة الإعلام بغداد، 1971م، ج1، ص 280.

شخص فقط، ومما زاد الطين بلة فيضان نهر دجلة في 26 أبريل 1831 وخلال ساعات غرق حوالي 7000 منزل¹، وأثر انخفاض عدد السكان في عموم العراق على القوة العاملة مما انعكس على الاقتصاد العراقي، ولم يتعافى العراق من تأثيرات ذلك إلا بعد عقدين من الزمان².

يذكر أن فتك الأمراض بالسكان يعكس حتما تدرج وضعف الخدمات الصحية بشكل عام في عموم البلاد خاصة في القرى والأرياف إذ لم تهتم الدولة العثمانية بهذا القطاع مطلقا وكانت مواجهة تلك الأمراض الخطيرة تتم بجهود المخلصين من أبناء المجتمع وبوسائل وطرق بدائية جدا وغير كافية اطلاقا .

2- كثرة المجاعات :

تعد من ابرز ملامح تلك الفترة من تاريخ العراق إذ لا شك أن المجاعات والأمراض متلازمان تماما، فالمجاعة ينتج عنها تفشي الأمراض والتي بدورها تؤدي الى المجاعات في غالب الأحيان، لكن المجاعات التي شهدتها العراق في فترة الحكم العثماني كانت أغلبها بسبب الأمراض الفتاكة التي أثرت على عدد السكان وعلى القوى العاملة التي تحرك الاقتصاد بكل قطاعاته بشكل مباشر، وانعكس ذلك على معيشة السكان، اضافة لأسباب أخرى كالجفاف الذي كانت تشهده البلاد بين الفينة والأخرى، وهو ما يأتي على المحاصيل الزراعية مباشرة ويأتي على المواشي المختلفة، وبصفة عامة كانت المجاعات على فترات مختلفة أبرز التحديات التي واجهها المجتمع العراقي في تلك الفترة من تاريخه .

3-أوضاع التعليم وقطاع النقل في العهد العثماني :

كان التعليم في العراق في فترة الحكم العثماني تعليما دينيا يتم في الكتاتيب والمساجد ودور العبادة للطوائف غير المسلمة، ويقتصر على العلوم الدينية وقواعد اللغة العربية لذلك نلاحظ أن نسبة الأمية بين السكان كانت مرتفعة إلى حد كبير. وكانت نسبة الأمية في المناطق الريفية أعلى مما هي عليه في المدينة، وذلك لا يعود فقط إلى قلة الاهتمام بتلك المناطق من قبل الحكومة، وسوء الأحوال العامة التي يعانيها أهالي الريف بل ويعود أيضا إلى العادات الاجتماعية الموجودة لدى بعض سكان تلك المناطق فهم يعتقدون أن عمل أبنائهم معهم في الزراعة وتربية المواشي أفضل من انشغالهم بالتعليم.

كذلك كانت التقاليد الاجتماعية السائدة في العراق لا تحبذ تعليم المرأة، وتفضل بقائها في المنزل لأداء الأعمال المنزلية لذلك نجد نسبة الأمية لدى الإناث أعلى بكثير مما هي عليه لدى الذكور³. ومن خلال ذلك

¹ علاء موسى كاظم نورس: حكم المماليك في العراق 1750-1831م، ط1، منشورات وزارة الاعلام، بغداد، 1975م، ص ص 257-258.

² لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، تعريب غنيفة البستاني، ط7، دار الفارابي، بيروت، 1971، ص 169.

³ جميل موسى النجار: التعليم الحديث في العراق (1869-1918م)، ط1، منشورات الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001م، ص 77.

نلاحظ أن التعليم في العراق ابان العهد العثماني حتى منتصف القرن التاسع عشر، كان يعاني من التخلف بسبب سياسة الحكومة من جهة، وطبيعة حياة المجتمع من جهة أخرى¹. لكن القرن الأخير شهد تطوراً ملموساً في هذا الجانب ظهر في عدد المدارس التي تم فتحها، والمناهج الحديثة في التدريس، كما بدأت القيود ترفع تدريجياً عن تعليم المرأة .

كذلك القطاع الحيوي الذي يرتبط بكل مناحي الحياة وهو قطاع المواصلات والنقل الذي عانى الإهمال هو الآخر من قبل الحكومة العثمانية، وطوال العهد العثماني كانت معظم عمليات نقل الأشخاص، والسلع التجارية، والمنتجات الزراعية تتم براً بواسطة الجمال، والخيول، والبغال، والحمير، الى غاية دخول وسائل النقل النهري الحديثة في القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من الصعوبات التي كانت تواجه القوافل التجارية والمسافرين لم تكن الطرق البرية تتسم بالأمان بل كان المسافرين وبضائعهم يتعرضون للسرقة، على يد قطاع الطرق من اللصوص، وكانت أموالهم وبضائعهم تنهب منهم في حالات عديدة دون اهتمام من قبل السلطات المناط بها توفير الأمن للقوافل التجارية².

¹ نور نعمة محمود: الفئة المثقفة العراقية دراسة تاريخية في تكوينها وتطورها الفكري والسياسي (1869-1914)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب جامعة بغداد، 2008، ص ص 11-12.

² لمى عبد العزيز مصطفى هبد الكريم: الخدمات العامة في العراق 1869-1918، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، 2003، ص 202.

المبحث الخامس - مصطلح الأقليات في العراق والدولة العثمانية:

أولاً - تحديد مفهوم الأقلية:

يعد تحديد مفهوم الأقليات من المسائل التي أثارت العديد من النقاشات والاختلافات اذ حظيت باهتمام العديد من الباحثين والدارسين في العصرين الحديث والمعاصر، إذ درست في إطار علم والاجتماع، علم النفس وعلم الأنثروبولوجيا، إضافة إلى مجالي القانون الدولي والسياسة الدولية، مما جعلها من بين الدراسات الشائكة والمعقدة . ويعد تحديد المفاهيم خطوة هامة في دراسة هذه المسألة، وعليه لابد من ضبط مفهوم مصطلح الأقلية وبالتالي فصله عن بعض المصطلحات الأخرى، التي قد تحمل دلالات مشابهة أحياناً، ومكملة له أحياناً أخرى.

1- مفهوم الأقليات لغة: تشير معاجم اللغة إلى الأقلية العددية فالفعل قل التي اشتقت منها كلمة الأقلية، القلة دون الكثرة¹. والقلة خلاف الكثرة وقوم قليلون، أقلاء، قلل، قليلون، ويكون ذلك في قلة العدد ورقة الجثة، وقوم قليل، والقليل من الرجال، والقل من الرجال الخسيس الدين. ويقال قل بن قل أي لا يعرف هو وأبوه، وقدم علينا قلل من الناس اذ كانوا من قبائل شتى متفرقين.

كذلك تشير القلة في القرآن الكريم إلى النقص كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْكُوا اللَّهَ كَمِثْلٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾².

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾³، وفي موضع آخر للتعبير عن دلالة كمية تقابل الأكثر ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾⁴ ولم يكن النقص فقط وارد في القرآن الكريم اذ ارتبط ايضا بالكثرة بقلة العلم والايان كقوله تعالى: ﴿الْمَرِيَّانَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ

¹ محمد عمارة: الاسلام والأقليات الماضي.. والحاضر. والمستقبل، ط1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2003، ص80.

² سورة البقرة، الآية 249.

³ سورة الشعراء، الآية 54.

⁴ سورة الأعراف، الآية 86.

مَنْ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾¹ وقوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾²، وقوله تعالى ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾³، ولا تعني القلة في القرآن الكريم على النقص والكثرة فقط وإنما على التميز والسبق أيضا بقوله تعالى ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾⁴، وقوله تعالى ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُونَ مِنْ مَحَبِّبٍ وَتَمْثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ﴿٢٤﴾ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٣﴾﴾⁵، وقوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٥٠﴾﴾⁶.

2- المفهوم الاصطلاحي للأقلية:

أ- التعريف الاصطلاحي للأقلية في المنظور الاسلامي:

الأقلية وفق المفهوم الاسلامي انحصرت في أهل الكتاب وهم أهل الذمة، ولم يتم الاعتراف بأقليات أخرى قبل العهد العثماني، أما أهل الذمة فقد منحهم التشريع الإسلامي الحق في ممارسة حياتهم الاجتماعية والدينية والاقتصادية والسياسية مكتفيا بأداء المكلفين منهم بالجزية، مقابل توفير الحماية لهم، وكانوا يعاملون معاملة المسلمين، فقد سمح لهم بفتح المحاكم الخاصة تبعا لأديانهم ومذاهبهم، وكان الولاة والأمراء يشاركونهم أعيادهم ومناسباتهم، ويكرمون أساقفتهم وكبرائهم⁷. وهذا امتثالا لما جاء في النص القرآني من الآيات التي تأمر المسلمين بمعاملة أهل الذمة معاملة تسامح وإخاء، وكانت هذه الأوامر القرآنية هي التي اتخذها السلاطين العثمانيون منهاجا في تعاملهم ومنها على سبيل المثال قوله تعالى ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾⁸ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ

¹ سورة الحديد، الآية 16.

² سورة البقرة، الآية 243.

³ سورة الزخرف، الآية 78.

⁴ سورة الواقعة، الآيتين 13 و14.

⁵ سورة سبأ، الآية 13.

⁶ سورة هود، الآية 40.

⁷ موفق بني المرجه: صحوة الرجل المريض، ط1، مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر، الكويت، 1984م، ص 176.

⁸ سورة الممتحنة، الآية 08.

تَأْمَنُهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾¹ وقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلْلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مَتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٧٦﴾² وفي الحديث الشريف قول الرسول ﷺ « من ظلم معاهدا، أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة»³، وجمهور العلماء مجمعون على أن قتل المسلم للذمي يعد من الكبائر، ويظهر ذلك في قوله ﷺ « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ریحها لیوجد من مسيرة أربعين عاما»⁴.

ب- مفهوم مصطلح الأقليات عند الباحثين حديثا: استخدم مصطلح الأقلية للتعبير عن التعدد الثقافي أو العرقي لجماعة من البشر في مواجهة جماعة أخرى تعبر عن الأكثرية، أو تعبير عن التميز في سلم الترابط الاجتماعي والسياسي، فالكلمة العربية تم استخدامها سواء في اللغة أو في القرآن الكريم لتعبر عن نفس الدلالة الحديثة⁵.

هذا، ويذكر أن تعريف مصطلح الأقلية كان ولا زال يشهد جدلا واختلافا كبيرين بين الدارسين والباحثين، مما شكل صعوبة في تحديد تعريف دقيق له، إذ لا يوجد تعريف شامل للأقلية يحظى بالقبول عموما، وهو ما عبر عنه بعض الباحثين أمثال بلاسرو⁶، الذي كتب أن « كلمة الأقليات تعد من بين الكلمات الحقائق، لما لها من مدلول واسع، حتى أنه في الأوساط الجامعية فإن تعريفات الباحثين للأقليات تختلف كثيرا في مضامينها ومعانيها»⁷.

¹ سورة آل عمران، الآية 75.

² سورة المائدة، الآية 5.

³ السيد سابق: *فقه السنة*، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1977م، ص 668.

⁴ صحيح البخاري (3166) وابن ماجه (2686).

⁵ كمال السعيد حبيب: *الأقليات والسياسة في الخيرة الإسلامية من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانية (1908-1922م) (1325-1326هـ)*، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2002، ص 55-56.

⁶ شغل منصب رئاسة جماعة حقوق الأقليات منذ سنة 1994، وهو من بين المدافعين عن حقوق الأقليات في أوروبا.

⁷ فورار العيادي جمال: *مشكلة حماية الأقليات في ضوء القانون الدولي*، (رسالة لنيل شهادة الماجستير في القانون الدولي والعلاقات الدولية)، جامعة الجزائر، 2001، ص 21.

1-عوائق ضبط تعريف دقيق لمصطلح الأقليات: واجه الباحثون عدة صعوبات لضبط وتحديد

تعريف موحد وواضح للأقلية إلى عدة أسباب أهمها:

-وجود اختلاف في تحديد طبيعة مسألة الأقليات، فالبعض يعتبرها مسألة "طبيعة" توجد في العديد من دول العالم، وتعرف الأقليات أوضاعا اجتماعية واقتصادية تختلف عن أوضاع الأغلبية، سواء بالسلب أو الإيجاب لكن مما يجعل منها مسألة "مرضية" حسب البعض، هي تلك المطالب الغير "اعتيادية" بالنسبة للدول، التي تتعارض مع أمنها الوطني¹.

-حساسية مصطلح الأقلية بالنسبة للدول من الناحية السياسية، ويظهر ذلك عند طرح مسألة حقوق الأقليات وحمايتها فاعتراف الدولة بالأقليات ومنحها هذه التسمية من شأنه تعزيز مبدأ حقوق الأقليات وحمايتها.

- الطابع المتغير للأقليات إذ لا يوجد استقرار لحال الأقليات على صيغة واحدة، كما أنها تتباين في أوضاعها من بلد لآخر، وذلك لأسباب تاريخية أو جغرافية أو سياسية وحتى إقتصادية وإجتماعية². رغم هذه الصعوبات، فقد طرحت العديد من التعاريف بصدد مصطلح الأقلية، وذلك من خلال المجهودات التي بذلها الباحثون وكذلك الهيئات المختصة، ميزها الاختلاف والتباين، وعليه نحاول أن نقدم من هذه التعاريف وهي كالآتي:

2-تعاريف معتمدة لدى هيئة الأمم المتحدة: اعتمدت منظمة الأمم المتحدة عدة تعاريف لأكاديميين

وباحثين متخصصين، حيث جاء في إطار اللجنة الفرعية لمنع التمييز وحماية الأقليات أكثر من تعريف نذكر منها:

-التعريف الذي تقدم به فرانكيسكو كوبوتورتى سنة 1979م، اذ تضمن ما يلي: « مجموعة تمثل أقلية عددية مع باقي سكان الدولة، يوجدون في أوضاع غير مسيطرة أعضاؤها هم من مواطني تلك الدولة، ويتمتعون من الناحية العرقية، الدينية، اللغوية بخصائص مختلفة عن تلك التي يحملها باقي السكان، ويظهرون ولو بصفة ضمنية شعورا بالتضامن اتجاه الاحتفاظ بثقافتهم تقاليدهم ودينهم أو لغتهم»³.

-أما الثاني فهو تعريف ستانيسلاف تشيرنيشنكو سنة 1997م، وتضمن: « نقصد بالأقلية مجموعة من

¹ عبد السلام إبراهيم بغدادى: الوحدة الوطنية ومشكلة الأقليات في إفريقيا، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1993م، ص 93.

² دهام محمد العزاوي: الأقليات والأمن القومي العربي، دراسة في البعد الداخلي والإقليمي والدولي، ط1، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، 2003م، ص 27.

³ Joseph yacoub.les **minorites dans le monde**. Op.cit. p 121.

الأشخاص يقطنون أساسا بصفة دائمة على إقليم الدولة، يمثلون أقلية عددية بالنسبة لعدد باقي سكان هذه الدولة، بمعنى أنهم يمثلون نسبة أقل من نصف عدد المواطنين، ويتمتعون بخصائص قومية أو عرقية، دينية أو لغوية، إضافة إلى عناصر أخرى كالثقافة والتقاليد، تختلف عن تلك التي يحملها باقي السكان، كما أنهم يظهرون إرادة في الحفاظ على وجود وهوية الجماعة»¹.

هذا، وقد غلب الطابع القانوني على كلا التعريفين، حيث أن كليهما لم يصف الأقلية بأنها شعب، واعتبارها جزء من السكان، إضافة إلى حصر رغبة هذه الأقلية في الحفاظ على هويتها، والحقيقة أن أهدافها تتجاوز ذلك بكثير. كما أنها اعتمدت على المعيار الكمي أي العددي بحيث يكون عددها أقل من عدد باقي السكان.

(3)-تعريف أكاديمية أخرى: إضافة الى ما سبق فقد برز باحثون آخرون اعتبروا هذا المعيار غير كاف، واتجهوا إلى معايير أخرى كالوضع الاجتماعي السياسي، كمعايير لتعريف الأقلية، ومن هؤلاء نذكر الأستاذ وليم سليمان قلادة الذي قال: «نحن لا نضع هذا نصب أعيننا أي الأهمية الديمغرافية للأقليات المعنية، بقدر ما نأخذ بعين الاعتبار وزنها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي»²، كما أن نيفين عبد المنعم مسعد رأت بأن المعيار العددي يؤدي إلى نتائج "مظلمة" -على حد قولها-، إذ كتبت: «... حرصت منذ البداية على أن أوضح أن معيار العدد لن يستوفي كثيرا في دراسة الأقلية والأغلبية، لأن هناك خطورة معينة تكمن في الاعتماد عليه، تتمثل في مخافاته في بعض الأحيان لما تكون عليه صورة التفاعلات السياسية بين الجماعات وبعضها البعض، بمعنى أي جعلت تحكم الجماعة أيما -كانت نسبتها في مجتمعنا- مبررا لوصفها بالأقلية. فالمعيار الذي أقيمت عليه التفريق بين كلتا الجماعتين هو معيار الموقع من السلطة السياسية وأحسبها إحدى إضافات البحث وليست إحدى مطاعنه، ... لأنه لو اعتمدنا على المعيار العددي وحده لجعلنا جماعة كالعاليين في سوريا أقلية»³.

ومن هذه القاعدة انطلقت نيفين مسعد في تعريفها للأقلية فقالت: «جماعة تشترك في واحد أو أكثر من المقومات الثقافية والطبيعية وفي عدد من المصالح التي تركزها تنظيمات وأنماط خاصة للتفاعل وينشأ لدى

¹ Ibid. p 123.

اعتبرت المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم أن 'اعتماد المعيار العددي في تعريف الأقلية هو أمر مشكوك فيه وغير مضمون العواقب، فقد تكون في بعض الأحيان أغلبية السكان في وضع أقلية اجتماعية.

² وليم سليمان قلادة: حوار علمي حول الأقليات والاستقرار السياسي في الوطن العربي، مجلة السياسة الدولية، مركز الدراسات الإستراتيجية الأهرام، القاهرة، العدد 92، 2003، ص 281.

³ وليام سليمان قلادة: المرجع السابق، ص 282.

أفرادها وعي بتمايزهم في مواجهة الآخرين، نتيجة التمييز السياسي والاجتماعي - الاقتصادي ضدهم مما يؤكد تضامنهم ويدعمهم»¹.

وفي تعريف آخر أورده أحمد يوسف يوسف جاء فيه عن الأقلية «هي جماعة اجتماعية يتم فرزها عن غيرها في المجتمع الذي تعيش فيه لصفات تختص بها: جسمية وثقافية، تحمل على معاملتها معاملة غير متساوية، فتعتبر نفسها محل تمييز جمعي، كما يتضمن وضع الأقلية استبعادها من المشاركة الكاملة في حياة المجتمع».

والملاحظ أن أغلب التعريفات تشترك في شيئين أساسيين هما أن الأقلية تعيش في مجتمعات لا تسيطر فيها أي عددياً أقل ووزناً أقل أو تكون مضطهدة ومستضعفة نتيجة التمايز ضدها. ووفق كل ما تقدم يبدو لنا أنه لا بد من توضيح بعض العناصر الهامة، التي ترتبط بمفهوم الأقلية عند التطرق لهذا المصطلح في دراستنا هذه وذلك:

- أن تبلور جماعة الأقلية كان نتيجة العديد من العوامل، كالمولد، العرق، الدين وغيرها، فأعضاء هذه الجماعة ينتمون إليها بفعل عوامل خارجية عن إرادتهم، فهم يولدون ويكتسبون صفاتها². فالأقلية هي بالأساس مسألة ثقافية، يشترك أفرادها في واحد أو أكثر من المقومات التالية: الدين، اللغة والعرق وغيرها، والتي تشكل خصائص تميزها عن الجماعات الأخرى.

- أن الخاصية العددية لمصطلح الأقلية، تعتبر مؤشراً هاماً في معرفة الحدود الفاصلة بينها وبين الأغلبية، إلا أن ذلك ليس بصفة مطلقة، فلا يمكن تناول الأقلية من جانبها العددي فقط، بل يجب تناولها كذلك من حيث وزنها داخل الدولة، وليست كجماعة صغيرة تتميز بخصائص معينة³. كما أن النظر إلى الأقلية يكون من خلال مقارنتها مع الأغلبية على المستوى الوطني وليس الإقليمي، فقد تكون الأقلية مثلة لأغلبية عددية في بعض أقاليم الدولة، ومع ذلك تبقى أقلية، إلا أن ذلك قد يمنحها عامل قوة في تحقيق أهدافها.

- يعتبر المتغير الذاتي أهم عوامل بلورة الأقلية، فلا يمكن الحديث عن أقلية دون أن يكون لدى أفرادها إدراك لذاتيتهم وتمايزهم⁴. وعادة ما يتشكل هذا الإدراك نتيجة المعاملة التمييزية التي يتعرض لها أفراد هذه الجماعة من قبل الآخرين، وبغياب هذا العامل نكون أمام جماعات تتعايش فيما بينها فقط.

¹ نيفين عبد المنعم مسعد: الأقليات والإستقرار السياسي في الوطن العربي، ط1، مركز البحوث والدراسات السياسية، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1988، ص د.

² عبد المنعم المشاط: الأمن القومي العربي أبعاده ومتطلباته، ط1، معهد البحوث والدراسات العربية، بيروت، 1995، ص266.

³ Encyclopedia universalis.op.cit. p 73.

⁴ عبد المنعم المشاط: المرجع السابق، ص 269.

- يعتبر البعض أنه لا يمكن الحديث عن أقلية إلا إذا مورس عليها نوع من "الاضطهاد" و"القهر" الأمر الذي يحدد طبيعة العلاقة بين الأقلية والأغلبية، وقد يتجسد هذا الاضطهاد في الحرمان الإقليمي من حيث الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، مع رغبة الدولة في الإبقاء عليه، مع ذلك فليست كل أقلية بالضرورة هي مضطهدة أو غير مسيطرة، بل توجد العديد من الأقليات المسيطرة في مجتمعاتنا.

ثانيا-علاقة مفهوم الأقلية ببعض المصطلحات المرتبطة به:

يرتبط مفهوم الأقلية ببعض المصطلحات، التي تستعمل عند التطرق إليه، كما تستعمل في حالات أخرى لتوضيحه أكثر، وتتمثل خاصة في كل من القومية، العرقية والطائفية، ونحاول أن نوضح مفهوم كل منها وعلاقته بالأقلية.

1-القومية: تعني القومية بمفهومها العام صلة تربط بين أفراد جماعة أو مجتمع معين، بحيث يكون لدى هؤلاء ميل وشعور بالانتماء إلى جماعة معينة، تتميز بخصائص تدفع بهم إلى الرغبة في التضامن والترابط من أجل تحقيق أهداف مشتركة، في ظل إحساس عام بوحدة المصير¹. ولقد أرجع العديد من الدارسين جملة العناصر التي تؤدي إلى قيام قومية وخلق هذا النوع من الشعور وحتى الولاء للجماعة إلى:

أ-وحدة الأصول العنصرية أو العرقية: أي الانحدار من أصل عرقي واحد، ويؤدي هذا العمل إلى قيام القومية عندما يشكل رابطة قوية بين أفراد الجماعة، تميزها عن باقي الجماعات الأخرى، وتصبح العامل المحرك والمؤثر في باقي الروابط التي تجمع بين أفراد الجماعة². ومن جهة أخرى فإن توفر الوعي بالوجود العرقي، أي أن تملك الجماعة صورة عن نفسها وعن ماضيها الجماعي، يعد عاملا هام في تكون القومية وخلق المزيد من التضامن بين أفرادها وتقوية الشعور بالانتماء إليها.

مع ذلك فإن البعض يرى بأن القومية لا ترتبط كثيرا بالجنس والسلالة، على اعتبار أنه لا توجد سلالة أصلية ونقية، إذ توجد الكثير من القوميات التي تضم أصولا مختلفة³.

ب-الروابط الإقليمية والجغرافية: تلعب دورا مهما في تبلور ونمو القوميات، على اعتبار أن الوحدة الجغرافية تعد دافعا لتلاحم وترابط الجماعة القومية⁴. مع ذلك فإن الحواجز الجغرافية لم تمنع من قيام قوميات قوية الترابط فيما بين أفرادها، كما أن الوحدة الجغرافية لم تمنع هي الأخرى من تشكل عدة قوميات بها.

¹ إسماعيل صبري مقلد: العلاقات السياسية الدولية: دراسة في الأصول والنظريات، ط4، منشورات ذات السلاسل، الكويت، 1985م، ص 97.

² شفيق الغبرا: الإثنية المسييسة (الأدبيات والحقائق)، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 3، الكويت، 1988، ص 47.

³ محمد عبد الغني سعودي: الجغرافيا والمشكلات الدولية، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1968م، ص 62.

⁴ إسماعيل صبري مقلد: المرجع السابق، ص 98-99.

ج- اللغة: لها أهميتها في تكوين القومية، فهي وسيلة التخاطب بين الأفراد وعامل تجانس داخل الجماعة. ومع هذا توجد قوميات تتعدد بها اللغات، وكذا الأمر بالنسبة للدين والتاريخ المشترك. ترتبط القومية أيضا بمفهوم "الأمة" والتي تعني شعبا تربط بين أفرادها روابط معنوية وأخرى موضوعية، فحسب مرسيل موس فإن الأمة هي : مجتمع معنوي، يسود بين أفرادها شعور بتواجد سلطة دائمة ومستقرة¹. ومنه فإن الدولة تختلف عن الأمة، إذ للدولة مدلول سياسي وهي تشكل هيكلا مستقلا، لديها نظام وقانون خاص، بينما الأمة فهي ذات مدلول نفسي ثقافي. وقد تتواجد الدولة والأمة بصفة منفصلة، بحيث تكون لدينا دولة بلا أمة، أو أمة بلا دولة، لكنه عندما تجتمع عناصر الدولة مع عناصر الأمة، نكون أمام الدولة الأمة أو الدولة القومية، أي وجود نظام سياسي واجتماعي ثقافي مستقل². كنتيجة، فإن القومية هي التي تشكل الرابطة التي تجمع بين أفراد الأقلية، وتعزز رغبتهم في الحفاظ على خصائصهم وتحقيق أهدافهم، من خلال اشتراك هؤلاء الأفراد في واحد أو بعض أو كل العناصر التي تشكل القومية، وتخلق لديهم شعورا بالانتماء للجماعة.

2- العرقية: كلمة العرقية مشتقة من الكلمة اليونانية (ETHNOS)، التي تعني شعب أو أمة أو جنس، تستخدم للإشارة إلى أي جماعة يشترك أفرادها في الأصل والملامح الجسمانية، إضافة إلى التقاليد واللغة والدين³.

الأمر الذي يجعل الأشخاص يتميزون عن بعضهم في صفاتهم وثقافتهم، مع ذلك فإن بعض الباحثين خاصة علماء الأنثروبولوجيا يستبعدون أن تكون هناك جماعة نقية، إذ أن عوامل الهجرة والتزاوج أدت إلى إحداث اختلاط بين الأجناس.

من هنا فإن العرقية تعتبر من بين أهم العناصر التي تميز شخصا عن آخر، ويتضح بأن جماعة الأقلية يكون لديها انتماء إلى أصول مشتركة، مما يجعل العرقية أحد العوامل التي تؤدي على بلورة جماعة الأقلية.

3- الطائفية: ترتبط الطائفية بالمعتقدات الدينية، أين يكون الفرد منتما إلى فئة دينية معينة، مما يجعله يختلف عن أفراد آخرين ينتمون إلى فئات دينية أخرى⁴، بغض النظر عن العدد وبعيدا عن الأقلية والأغلبية. كما أن الانتماء إلى جماعة دينية قد يكون على شكل هرمي، بحيث يكون الفرد منتما إلى جماعة دينية تشكل جزءا من جماعة أخرى أكبر منها كالمذهب من الطائفة، كأن يكون الفرد مسلما شيعيا، أو مسيحيا كاثوليكيا أو بروتستانتيا.

¹ cite dans M guy hermet et des autres.dictionnaire de la science politique. (3 eme edition paris.armand colin. 1998). P 175.

² michael smith and others. **Perspectives on world politics.** (London: the open university croom helm. 1981). Pp 37_38.

³ عبد المنعم المشاط: المرجع السابق، ص 266.

⁴ عبد الوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1993م، ج3، ص 745.

ثالثا- تصنيف الأقليات:

تختلف جماعات الأقليات عن بعضها البعض وذلك من خلال العديد من الخصائص كما ذكرنا سلفا، منها الذاتية كالعرق والدين واللغة، وأخرى مرتبطة بالوضع الاجتماعي والسياسي لهذه الجماعات، من هنا فإنه لا يمكن تصنيف الأقليات وفق معيار واحد، حتى أن الدارسين إختلفوا فيما بينهم من حيث المعايير التي تصنف من خلالها الأقليات. لكننا نحاول التطرق إلى أهم هذه المعايير، لتوضيح الفروق الموجودة بين الأقليات.

ركز العديد من الباحثين على معيار الصفات المميزة للأقلية في تصنيف الأقليات والتفرقة بينها ويسميه البعض الآخر بمعيار المقومات الذاتية للأقلية.

يقصد بهذا المعيار تلك الخصائص والصفات التي تميز جماعة أقلية عن جماعات أخرى، والتي تلازمها عند الإشارة إليها، تتمثل أساسا في الدين، اللغة والعرق... إلخ، من هنا قد يشترك أفراد أقلية ما في واحد أو أكثر من الخصائص، فنجد: أقلية عرقية، أقلية دينية، أقلية لغوية... إلخ، كما لخص باحثون آخرون هذا المعيار في: المعيار الثقافي، وأكد البعض منهم على أن المحتوى الثقافي هو أحد المداخل المتاحة لتصنيف الأقليات¹. وبمقوماته المختلفة اللغوية والدينية والعرقية والقومية².

من خلال هذا المعيار يمكن أن نعرف بعضا من أنواع الأقليات الأكثر استخداما:

1-الأقلية العرقية: ويسمى بها البعض بالأقلية السلالية، يقصد بها جماعة الأقلية التي تصل بين أفرادها رابطة الأصل المشترك، كما تعد السمات الجسمانية كلون البشرة عنصرا هاما في تمييز جماعة بشرية عن أخرى³. وتنتشر الأقليات السلالية في العديد من دول العالم كالزنج، البشتون والأوزبك... إلخ.

2-الأقلية الدينية: تعد رابطة الدين من أهم العوامل التي تؤدي إلى توحيد الشعوب، حتى وإن اختلفت سلالاتهم، الأمر الذي جعل البعض مثل نيفين مسعد تكتب: «الديانات العالمية كالإسلام تعتبر القوميات مرحلة مؤقتة على خلق الأمة الدينية التي تجمع مختلف الأقوام»⁴.

3-الأقلية اللغوية: وهي جماعة الأقلية التي تعتبر اللغة المقوم الأساسي الذي يميزها عن باقي الجماعات في مجتمعاتها، كما توجد دول تتعدد فيها اللغات كإسبانيا، تركيا وكندا... إلخ.

في مقابل معيار المقومات الذاتية للأقلية، يعتبر بعض الباحثين الآخرين أن معيار المولد وطبيعة النشأة من

¹ نيفين عبد المنعم مسعد: المرجع السابق، ص 66.

² وليم سليمان قلادة: المرجع السابق، ص 277.

³ صلاح الدين الشامي: الدولة دراسة في الجغرافيا السياسية، ب ط، منشأة المعارف، القاهرة، 2001م، ص 118.

⁴ وليم سليمان قلادة: المرجع السابق، ص 227.

المعايير الهامة في تصنيف الأقليات، ووفقا لهذا العامل توجد أقليات تمثل السكان الأصليين للدولة، وهم السكان الذين قطنوا إقليم هذه الدولة قبل قيام أي تنظيم سياسي عليه، كالهنود الحمر في أمريكا وغيرها من الجماعات الأخرى، وغالبا ما تكون هذه الجماعات قد تعرضت "للقهر" و"الاضطهاد" وحتى "الإبادة" من قبل شعوب أخرى استقرت بهذه الأقاليم التي تمثل الموطن الأصلي أو الموطن "الأم" لهذه الأقلية. مع ذلك لا تزال العديد من هذه الجماعات موجودة في العديد من الدول، تعيش وفق نمط اجتماعي خاص بها، وتعمل على المحافظة على ثقافتها وخصائصها، الأمر الذي فسره البعض بفرضية مفادها أنه كلما كانت استمرارية الأقلية من خلال السلالات المتوالدة، كلما أدى ذلك إلى صعوبة اقتلاعها نتيجة تمسكها بموطنها الأصلي¹.

في مقابل السكان الأصليين توجد الأقليات المهاجرة، سواء تلك التي هجرت بالقوة، كما فعل الاستعمار الأوروبي مع شعوب إفريقيا لاستخدامها كيد عاملة، أو تلك التي هاجرت لأسباب مختلفة: اجتماعية، سياسية، اقتصادية، أو أمنية². فالهجرة بمختلف أشكالها ومنذ بداية التنقلات الهامة للجماعات البشرية، سواء لتعمير المستعمرات أو من أجل الدفاع والحماية، كانت من بين الأسباب الهامة التي أدت إلى تشكل جماعات الأقليات وتميزها عن باقي الجماعات الأخرى.

رغم هذا فإن بعض فقهاء القانون الدولي يستبعدون اعتبار فئة الأجانب أقلية، على اعتبار أن الأقليات هي دوما وطنية، تشتمل سكان الدولة وتحمل جنسيتها.

تختلف الأقليات كذلك من حيث انتشارها وتمركزها الجغرافي، إذ توجد أقليات تتركز في جهة محددة من الدولة وذلك بصورتين: إما أن تشكل هذه الأقلية غالبية سكان هذا الإقليم كالناطقين بالفرنسية في كيبك الكندية، أو لا تمثل أهمية من حيث نسبتها العددية كاللادين لمنطقة الدولوميت³.

كما توجد أقليات موزعة على إقليم الدولة دون أن تكون لها منطقة محددة فيها، إضافة إلى تركز أقليات أخرى على حدود الدولة، كالألمان في تشيكوسلوفاكيا قبل الحرب العالمية الثانية، مع تواجد أقليات أخرى مجزأة أو مشتتة عبر العديد من الدول كالباسك في كل من اسبانيا وفرنسا.

إلى جانب هذه المعايير التي تم توضيحها، يصنف باحثون آخرون الأقليات وفق الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، بحيث توجد أقليات في وضع أفضل من غيرها من الجماعات، من حيث مستوى

¹ عماد جاد: المتغيرات السكانية والصراعات السياسية، مجلة السياسة الدولية، مركز الدراسات الإستراتيجية الأهرام، القاهرة، العدد 119، 1995، ص62.

² مثل الصينيين المتواجدين خارج الصين في كل من سنغافورة، ماليزيا، أندونيسيا والتايلاند، والذين مع مرور الزمن عجزوا أو لم يرغبوا في العودة إلى وطنهم.

³ هم سكان ضمووا إلى إيطاليا بموجب اتفاقية فرساي بعد الحرب العالمية الأولى، ولا يشكلون حاليا بها، سوى نسبة 3 إلى 4% من سكان مقاطعات أيدج العليا، ترانتو وبولزانو.

المعيشة أو المشاركة السياسية داخل مجتمعاتها، كما توجد أقليات مهيمنة وأخرى غير مهيمنة. رغم الاختلاف الذي عرفه الباحثون في تحديد المعايير التي تصنف من خلالها الأقليات، إلا أنها تعتبر ذات أهمية كبيرة من حيث كونها قد تشكل عاملاً فعالاً في توجيه سلوك الأقليات وحتى في تحديد توجهاتها وأهدافها.

الفصل الأول:

دور وتاريخ الأقلية اليهودية في العراق خلال العهد العثماني
(1517-1917م)

المبحث الأول: التعريف بالديانة اليهودية ومصادر تشريعها:

تعد الديانة اليهودية إحدى الديانات السماوية وأقدمها، ومعتنقو هذه الديانة يطلق عليهم إلى جانب النصارى والمسلمين أهل الكتاب، كما يعرفون إلى جانب النصارى في حكم الدول الإسلامية المتعاقبة عبر التاريخ بأهل الذمة ويسمون أنفسهم باليهود.

أولاً: التعريف بالديانة اليهودية:

1- اليهود لغة: أصلها من فعل هاد يهود هودا، ويعني تاب ورجع إلى الحق فهو هائد، ويقول (عمر بن علاء) سمو يهودا لأنهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوراة¹. وقيل نسبة إلى يهودا أكبر أولاد سيدنا يعقوب عليه السلام.

2- اليهود اصطلاحاً: لفظ يطلق على من اتخذ العقيدة اليهودية ديناً له، ولقد اقتبس اليهود قبيل الترحيل لمجتهم العبرية من الآرامية ودونوا التوراة بها، وهو الرجل: أدخله إلى اليهودية وهاد يهود إذا صار يهودياً². ويدخلوا الألف واللام على (يهود) للدلالة على إرادة النسب يريدون اليهوديين. وفي الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه...) ³، معناه أنهما يعلمانه دين اليهودية أو النصرانية أو المجوسية.

وقيل هم حملة التوراة وقيل هم الذين دخلوا اليهودية وصاروا يهودا ودانوا بها وقيل من قوله تعالى ﴿وَأَكْتَبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدَّنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ ⁴ أي تبنا إلى الله تعالى ورجعنا لعبادته وقيل هم الذين تابوا عن عبادة العجل.

وتتكون كلمة يهودي من قسمين (يهوه) وتعني الرب و(ودي) وتعني في الأصل السامي (الاعتراف والإقرار والجزاء)، ومنها أيضاً كلمة (دية) عند العرب وهكذا تعني الكلمة (شكر الإله) أو الاعتراف بالنعمة⁵. كما وأطلقت على بقايا جماعة يهودا الذين رحلهم نبوخذ نصر إلى بابل في القرن السادس قبل الميلاد نسبة إلى مملكة يهودا المنقرضة⁶.

¹ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ط 1، الدار العلمية، بيروت، 1975م، ج 1، ص 103.

² أبي الفتح محمد الشهرستاني: الملل والنحل، ب ط، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ص 171.

³ البخاري: الجامع الصحيح (صحيح البخاري) رواه أبو هريرة رضي الله عنه الرقم 1359.

⁴ سورة الأعراف آية 156.

⁵ عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ط 1، دار الشروق، القاهرة، م 1999، ص 102.

⁶ أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ط 2، دار العربي للإعلان والنشر، دمشق، ب ت، ص 89.

وقد ابتدع مدونو التوراة فكرة منح الرب أرض كنعان إلى إبراهيم عليه السلام وذريته وأن يهود إلههم الخاص قد أمرهم بإبادة الكنعانيين ليحلوا مكانهم، هذا هو الدين الذي جاء به كتبة التوراة ونسبوه إلى إبراهيم ويعقوب عليه السلام ظلما وزورا.¹

3- تسميات أخرى لليهود: عرف عن اليهود عدة مسميات وألقاب سموا أو لقبوا بها، أو سمو ولقبوا أنفسهم بها وتدل في جميع الأحوال عن اليهود .

أ-العبرانيون: اختلفت الآراء حول أصل التسمية، وتاريخ استخدامها للدلالة عن اليهود، وانقسمت المواقف الى رأيين هما: الرأي الأول الذي يرى أصحابه أن اليهود سمو أنفسهم بالعبرانيين نسبة إلى أحد أجداد إبراهيم الخليل عليه السلام الذي كان اسمه (عابر)². وقد وردت بهذا المعنى بألفاظ شتى (الأبري) و(الهبري) و(الخبيرو) و(العبيرو). كما جاء في المصادر المسمارية والفرعونية وكل الذي جاء من هذه التعبيرات هو ما يطلق على نبي الله إبراهيم عليه السلام فقط . وورد في التوراة: {وَأُنْجَبَ سَامٌ، أَخُو يَافَثَ الْأَكْبَرُ، أَبْنَاءً. وَمِنْهُ تَحَدَّرَ جَمِيعُ بَنِي عَابِرٍ}. {أَمَّا أَبْنَاءُ سَامٍ فَهُمْ: عِيلَامُ وَأَشُورُ وَأَرْفَكَشَادُ وَلُودُ وَأَزَامُ 23 وَأَبْنَاءُ أَرَامَ: عُوصُ، وَحُولُ، وَجَاثِرُ وَمَاشُ. 24 وَأُنْجَبَ أَرْفَكَشَادُ شَالِحَ، وَوُلِدَ شَالِحُ عَابِرَ} ³.

أما الرأي الثاني فيرى أصحابه أن كلمة «عبراني» أطلقها الكنعانيون على إبراهيم عليه السلام بعد دخوله أرض كنعان حين عبر إبراهيم وقومه نهر الفرات باتجاه أرض الكنعانيين فسماهم الكنعانيون باسم (عبريين) أو (عبيرو)، بمعنى العابرين، لأنهم عبروا النهر اليهم ومع ذلك فقد استخدم حاخامات اليهود كلمة العبري بمعنى اليهودي. هذا، وقد أورد بعض الباحثين القبائل التي كانت تحمل اسم العبيرو (العبريين) الهاييرو أو الأبيرو استوطنت الهلال الخصيب قبل خروج إبراهيم عليه السلام وأتباعه من مدينة أور وقد جاءت هذه التسمية في مكتشفات تل العمارنة لتدل على قبائل جاءت قبل موسى بحوالي قرنين، وأسست قوة عسكرية استطاعت الاستيلاء على أريحا⁴.

¹ مهنا يوسف حداد: الرؤية العربية لليهودية، ط1، منشورات دار السلاسل، الكويت، 1989م، ص352.

² أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ص 242-243.

³ سفر التكوين: الاصحاح 10، الفقرة 23-24.

⁴ مهنا يوسف: المرجع السابق، ص 36.

ب- الإسرائيليون: سُمي اليهود أنفسهم بالاسرائيليين نسبة إلى إسرائيل¹، وهو اسم لسيدنا يعقوب بن اسحاق عليه السلام، حفيد النبي إبراهيم الخليل عليه السلام، وأبناءؤه هم بنو إسرائيل، ورد ذكرهم في الأسفار² ودورهم محصور في مدينة حرّان، حيث وطنهم الأصلي الذي ولدوا فيه، أما فلسطين فهي أرض غربتهم وقد وجدوا في القرن السابع قبل الميلاد³. واستمرت هذه التسمية لمدة 1400 سنة، ولغتهم هي اللغة الآرامية وهي نفس اللغة التي يتكلم بها الكنعانيون في فلسطين .

ج- الموسويون: هو مصطلح يطلق على أتباع النبي موسى عليه السلام كما أطلقه أحمد سوسه لكونه يرى أن كثيرا من غير بني اسرائيل قد التحق معهم مؤمنا بدينه ورسالته، فهو في رأيه مصطلح يمكن أن نطلقه على جماعات خليطة من أحفاد بني اسرائيل، ولم يستخدم القرآن الكريم من قبل والباحثون هذا المصطلح (الموسويون) إطلاقا⁴. وقد بدأت هذه التسمية في القرن الثالث عشر ق.م، أي بعد زمن ابراهيم بحوالي سبعمائة عام ويعرف هذا العصر بعصر الموسويين⁵.

ثانيا- مصادر التشريع في الديانة اليهودية:

1-التوراة: هي كتاب الله الذي أنزله على سيدنا موسى عليه السلام الذي يعتبر مصدر التشريع الأساسي للديانة اليهودية. وقال القاسمي في تفسيره: (أن التوراة اسم عبراني بمعنى الشريعة)، وتعرف في العبرانية (تورا) وقد احتوت التوراة بعد عهد النبي موسى عليه السلام على الكثير من المفاهيم الخاطئة التي شاعت بمرور الزمن إلى نزول القرآن فنبهنا إليها من غير لبس وغموض.

والتوراة التي كانت في زمن النبي موسى عليه السلام هي غير التوراة الموجودة الآن، لأن الموجودة حاليا هي محرفة كُتبت حسب أهواء ورغبات أحبار اليهود⁶. وقد استغرقت كتابة التوراة مدة طويلة من الزمن قدرها المؤرخون بأربعمائة سنة ظلت التوراة بها تكتب، وأضيف لها في هذه المدة الطويلة أشياء كثيرة من الأوهام

¹ وتعني كلمة اسرائيل بالعبرية موضعا بفلسطين وهي تسمية كنعانية، وتعني أيضا بالعبرية معنى (عبد الله) لأن أسر تعني (عبد) وإبل بمعنى (الله). أنظر: محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، ب ت، ج1، ص226. أما في اللغة العربية فقد وردت على وزن مفاعيل مثل: ميكائيل وجبرائيل واسرافيل وهذه الأسماء لها معاني مثل عبد الله رسول الله، رفيق الله. أنظر: د حسن حدة: الجذور اليهودية، ط1، دار العربي للطباعة والنشر، عمان، ب ت، ص52.

² سفر الخروج: الاصحاح 1 الفقرة 1-6.

³ أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ص87.

⁴ سعدون الساموك ورشدي عليان: تاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية، ط1، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1988م، ص15.

⁵ جودت الأسعد: الشخصية اليهودية عبر التاريخ، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1985، ص31.

⁶ أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ص381-382.

والخرافات وكلام الكهنة والأخبار فليست كلها كلام الله عز وجل بل داخلها التحريف والخلط الشديد،¹ والدليل على ذلك الاختلافات بين النسخ الثلاث الموجودة وهي:

أ- **النسخة العبرية:** وهي المقبولة والمعتبرة لدى اليهود، وجمهور علماء البروتستانت النصارى، وهي مأخوذة من النسخة الماسورية وما ترجم عنها.

ب- **النسخة اليونانية:** وهي المعتبرة عند النصارى الكاثوليك، والأرثوذكس وهي التي تسمى السبعينية وما ترجم عنها.

ج- **النسخة السامرية:** وهي المعتبرة والمقبولة لدى السامريين من اليهود.

وإذا ما عقدنا مقارنة بين هذه النسخ الثلاث وجدنا بينها تباينا شديدا فيه دلالة واضحة على التحريف الذي ألم بهذا الكتاب السماوي، ومس التحريف كل جوانبه. وتتكون التوراة من خمسة كتب أو أسفار تنسب إلى سيدنا موسى عليه السلام، وتوصف بأنها أنزلت عليه من الله، وتغطي هذه الأسفار الخمسة حقبة من التاريخ تبدأ مع بدء الخليقة، وتنتهي بوفاته على جبل نبو في شرقي الأردن ما يقارب سنة 1300 ق.م² وهذه الأسفار هي:

(1) - **سفر التكوين:** ويقع في خمسين فصلا، أو إصحاحا ويتضمن خبر خلق العالم وحياة الإنسان في بدء الخليقة وآدم وباقي الأنبياء بعده إلى موت يوسف عليه السلام.

(2) - **سفر الخروج:** ويحتوي على أربعين إصحاحا³ تتناول قصة بني إسرائيل وما حدث لهم بعد سيدنا يوسف عليه السلام إلى نشأة موسى عليه السلام وقصة خروجهم من مصر وما حصل لهم بعد الخروج .

(3) - **سفر اللاويين:** هو نسبة إلى لاوي أو (ليفي) أحد أبناء يعقوب عليه السلام، ومن نسلهم جاء موسى عليه السلام وهارون وأصبح اللاويون فيما بعد سدنة الهيكل والمشرفين على شؤون المذبح والأضحية. يحتوي هذا السفر على العادات والشرائع الخاصة باللاويين والعبادة والقربان، وفيه تفصيلات عن الحلال والحرام والأعياد والصلوات والطهارة والنجاسة والأحكام والشعائر الدينية اليهودية وتعليمها للناس، ويحتوي على سبع وعشرين إصحاحا.

¹ طارق السويدان: فلسطين التاريخ المصور (دراسة تاريخية متسلسلة منذ بدء التاريخ وحتى أحداث الساعة بالصور)، ط2، مجموعة الإبداع الفكري، الكويت، 2004م، ص49.

² حسن ظاظا: أبحاث في الفكر الديني اليهودي، ط 1، دار القلم، دمشق، 1987م، ص14.

³ سفر الخروج: الإصحاح 1 - 40.

4- سفر العدد: ويحتوي على تاريخ بني إسرائيل أثناء التيه في صحراء سيناء الذي دام أربعين سنة، وهي ستة وثلاثون إصحاحاً، وسمي بهذا الاسم لبروز ظاهرة التعداد الدقيق لليهود كالإصحاح الأول، والرابع والسادس والعشرين مثلاً.¹

5- سفر التثنية: ويضم أحكام الشريعة اليهودية الخاصة بالحروب والسياسية وشؤون الاقتصاد والمعاملات والعقوبات والعبادات وغيرها، ويتضمن تكراراً لبعض ما ورد من وصايا وشرائع خاصة بالعبادات والصلوات والوصايا لذلك سمي بالتثنية وفيه وفاة سيدنا موسى وقبره عليه السلام، ويحتوي على أربع وثلاثين إصحاحاً.²

2- الكتب الملحقة بالتوراة: هي أربعة وثلاثون سفراً حسب النسخة البروتستانتية فيكون مجموعها مع التوراة تسعة وثلاثين سفراً، وهي التي تسمى العهد القديم لدى النصارى، ويمكن تقسيمها إلى خمسة أقسام كالاتي:

أ- الأسفار التاريخية: وهي في مجملها ثلاثة عشر سفراً تحكي قصة بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام إلى ما بعد العودة من السبي البابلي إلى فلسطين، وإقامتهم للهيكل مرة أخرى بعد تدميره، ما عدا سفري أخبار الأيام الأول والثاني فإنها تعيد قصة بني إسرائيل وتبتدئ بذكر مواليد آدم على سبيل الاختصار إلى السنة الأولى لملك الفرس قورش، وكذلك سفر يونان (يونس عليه السلام) الذي يحكي قصته مع أهل نينوى الذين أرسل إليهم ونذكر فيما يلي أسماء هذه الأسفار: يشوع، القضاء، راعوث، صموئيل الأول، صموئيل الثاني، الملوك الأول، الملوك الثاني، أخبار الأيام الأول، أخبار الأيام الثاني، عزرا، نحميا، إستير، يونان (يونس عليه السلام).³

ب- أسفار الأنبياء: وهي خمسة عشر سفراً يغلب عليها طابع الرؤى، والتنبؤات بما سيكون من حال بني إسرائيل، وحال الناس معهم، وأسماء هذه الأسفار كالاتي: أشعيا، أرميا، حزقيان، دانيال، هوشع، يوشيل، عاموس، عوبديا، ميخا، ناحوم، حبقوق، صفيانيا، حجي، زكريا، ملاخي.

ج- أسفار الحكمة والشعر (أو الأسفار الأدبية): وهي خمسة أسفار: سفر أيوب، الأمثال، الجامعة، نشيد الانشاد، مراثي إرميا.

¹ سعدون الساموك ورشدي عليان: المرجع السابق، ص 36.

² سعود بن عبد العزيز الخلف: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ط 1، مكتبة أضواء السلف، الرياض، 1997م، ص 66.

³ محمد ضياء عبد الرحمان الأعظمي: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية وأديان الهند، ط 2، مكتبة الرشد، الرياض، 2003م، ص 159.

د- سفر الابتهاالات والأدعية: وهو سفر واحد يسمى أيضا سفر المزامير المنسوب إلى داود عليه السلام¹. هذه أسفار النسخة العبرانية المعتمدة لدى البروتستانت من النصارى. أما النصارى الكاثوليك، والأرثوذكس فيعتمدون النسخة اليونانية، وهي تزيد على العبرانية بسبعة أسفار هي: سفر طوبيا، ويهوديت، والحكمة، ويشوع ابن سيراخ، وباروخ، والمكابيين الأول، والمكابيين الثاني.

2- التلموذ:

هو وحي شفهي أنزل على موسى عليه السلام وعلى من جاء بعده، وقد تناقله اليهود جيلا بعد جيل، وكما يقول الربانيون اليهود فقد أوحيت التعاليم الأولية للتلموذ مع الشريعة إلى موسى عليه السلام ولكن موسى لم يعلمها إلا إلى الكهنة، وعندما تحقق قادة اليهود أن هذه التعاليم مهددة بالضياع قرروا تدوينها².

أ- أنواع التلموذ:

1- التلموذ الفلسطيني: يرجع تاريخه إلى منتصف القرن الرابع للميلاد، كتب على يد الرباني يوخنان مؤسس أكاديمية طبرية، وهو يكتفي بالشرح أو التحليل لنص المشنا مع سرد مناقشة غير مطوّلة بين الأحبار ويعد المرجع الفصل في كل نظرية فقهية ومعاملة تشريعية، ويتميز بالاقتضاب مقارنة بالبابلي. ويسميه اليهود التلموذ الأورشليمي تيمنا وتبركا بالقدس أورشليم، كما أن يهود العراق أطلقوا عليهم (تلموذ أرض اسرائيل) و(تلموذ أرض الغرب) نظرا لوقوع فلسطين في الجهة الغربية من العراق³، أما لغته فكانت اللغة العبرية الممزوجة باللغة الآرامية، وبعد نشر أجزاء منه في فينيسيا عام 1523م نشر هذا التلموذ بكامله عام 1602م، وبعدها عام 1886م، وظهرت بعدها عدة طبعات⁴.

2- التلموذ البابلي: التلموذ البابلي لغته آرامية شرقية قريبة من المندائية العراقية، ويحتوى على بعض المصطلحات اليونانية واللاتينية⁵، ويسمى بالتلموذ الشرقي لوقوع العراق جغرافيا شرق فلسطين، ويسمى بالتلموذ البابلي لأن العراق منذ ذلك الوقت كان يسمى عند اليهود بابل ولأنها تذكرهم بقوة البحث الديني في السبي البابلي⁶.

¹ سعود عبد العزيز الخلف: المرجع السابق، ص 67.

² مهنا يوسف حداد: المرجع السابق، ص 228.

³ أوغست روهلنج: الكنز المرصود في قواعد التلموذ، تعريب يوسف حنا نصر الله، ط2، دار الكتب، بيروت، 1968م، ص42.

⁴ مهنا يوسف حداد: المرجع السابق، ص 106.

⁵ أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ص 53.

⁶ حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 96.

ويبلغ حجم التلمود البابلي أربعة أضعاف التلمود الفلسطيني، ويقع في 5894 صفحة ويطبع غالباً باثنتي عشر جزءاً، بدأت عملية نشر هذا التلمود عام 1484م، وظهرت النسخة الكاملة في فينيسيا سنة 1520م، وأتم هذا التلمود الرباني (جوزيه)، وكان مكتوباً باللغة المدعوة (بالعبرية الجديدة)، وأدخلت إليها كلمات إغريقية ولاينية¹. وإذا أطلق لفظ تلمود فانه يراد به التلمود البابلي لان التلمود البابلي يمتاز بالعمق المنطقي والشمول الجامع الذي يفتقر إليه التلمود الفلسطيني إضافة أن التلمود الفلسطيني كتب وسط المضايقات الشديدة من قبل الرومان الذين سيطروا على فلسطين على العكس من البابلي كتب في جو من الحرية الدينية².

والتلمود عند اليهود ليس موسوعة في التاريخ، والدين، والشعائر، والطب، والأقاصيص الشعبية فحسب بل هو رسالة في الزراعة، والصناعة، والتجارة، والمهن، والضرائب، والملك، والميراث، والرق، والقوانين الجنائية، والسرقة، والمحاکمات³. ومن أجل هذا يصبح التلمود عند اليهود موسوعة ضخمة لاغنى عنها في دراسة اليهودية، لأنها تتضمن كل شيء، وهم يقدسون التلمود ويعدونّه أهم من التوراة ويقولون فيه أن من احتقر أقوال الحاخامات استحق الموت، وأنه لا خلاص لمن ترك تعاليم التلمود والتمسك بالتوراة فقط، لأن أقوال علماء التلمود أفضل مما جاء في شريعة موسى، وأن مخافة الحاخامات هي من مخافة الله وأن من يقرأ التوراة دون التلمود ليس له اله⁴.

ويقول أشعيا في التلمود «ليس من سعادة للإنسان الذي يعتدي على أحكام التلمود وتعاليمه، ويحافظ على التوراة وان تعاليم اللاهوتيين في التلمود هي أطيب من كلام الشريعة، وبالتالي فان الخطايا ضد التلمود أعظم إنها كلام الله مهما وجد فيها من التناقض فمن لم يعتبرها أو قال إنها ليست أقوال الله فقد أخطأ في حقه تعالى. من المقترفة ضد التوراة، فضلاً عن أن شهادات الربانيين واللاهوتيين اليهود تتساوى وشهادة التلمود»⁵. وتتألف أسفار التلمود من بحوث أحبار اليهود وربانيهم وفقهائهم المنتمين إلى فرقة الفريسيين، وما إلى ذلك نحو ثلاثة وستون سفراً ألفت في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد، وأطلق عليها اسم (المشنا) بمعنى المكرر أي أنها تكرر تسجيل الشريعة⁶.

¹ مهنا يوسف حداد: المرجع السابق، ص 105.

² محمد ضياء الرحمن الأعظمي: المرجع السابق، ص 252.

³ كامل سعفان: اليهود تاريخ وعقيدة، ط 1، دار الاعتصام، الاسكندرية، 1981م، ص 196.

⁴ شوقي عبد الناصر: بروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم التلمود، ط 2، مطابع دار التعاون للطبع والنشر، ب.ت، ص 31.

⁵ بولس حنا مسعد: همجية التعاليم الصهيونية، ط 1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969م، ص 101.

⁶ علي عبد الواحد وافي: اليهودية واليهود، ط 1، دار نخضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1970م، ص 26.

ب- مراحل نشأة التلموذ: اشتركت في كتابة التلموذ أقلام كثيرة، وتعددت مراحل كتابته، فاختلقت في كل مرحلة أساليب جمعه وتصنيفه وتبويبه وتدوينه .

(1)-المرحلة الأولى: تبدأ بمجيء عزرا الكاتب من بابل، وتمتد حتى عصر المكابيين 450-100ق، وخلال هذه الحقبة جرى جمع القسم الأكبر من الكتابات وتمّ إضافتها إلى التوراة لتغطية الأوضاع والنواحي الجديدة وتكييف بعض الشرائع التوراتية وفقاً لمتطلبات الحياة، ويطلق على هذه المرحلة مرحلة الكتبة الذين انحصر نشاطهم الرئيسي في حقل نشر التعليم الديني إلى جانب بعض التشريعات والمراسيم التي كان لها أثر في ترتيب التوراة وإثبات نصّها المعياري¹ .

(2)-المرحلة الثانية: تبدأ فيما بين العصر المكابي والعصر الهيرودي، وخلال هذه الحقبة ظهر ما يعرف بالمعلمين الكبار الذين أطلقت عليهم تسمية "الأزواج" "زوجات"، وقد غطّى هؤلاء خمسة أجيال، ويمثّل كل زوج منهم المنصبين التاليين: رئيس السنهدرين أو الأمير ولقبه النَّاسِي، ونائب الرئيس أو رئيس بيت الدين(وهم حسب التسلسل :- جوزية بن يوعزر جوزية بن يوحنا- يشوع بن فراحيا نطّاي الأرييلي- يهوذا بن طباي سمعان بن شطاح- شمعيا أتاليون- هليل شمّاي² .

ج-أقسام التلموذ: يقسم إلى قسمين من حيث محتواه ومضامينه هما:

(1)-المشنا:³

هي مجموعة قوانين اليهود السياسية والحقوقية والمدنية والدينية التي تتضمّن القواعد والأحكام بغير نقاش غالباً، والمشنا أشبه ما تكون بالكتاب القانوني أو مصنّف الأحكام الشرعية والفقهية التي تدعى "هالاغا"، أي المذهب أو المسلك أو الطريق الذي يذكّر بالأحكام والفرائض والتشريعات الواردة في أسفار "الخروج واللاويين والتثنية والتكوين"، ويبقى الحلال والحرام والطهارة والنجاسة وغيرها ممّا ورد ذكره في التوراة وفسّره الفقهاء اليهود ووضّعوا له حدوداً وقيوداً تلائم حاجة العصر الذي كانوا يعيشون فيه⁴ . وتتألف المشنا من ستة أقسام رئيسة تدعى "سداريم" جمع سدر، وكل سدر يضمّ عدداً من الأسفار أو المقالات أو الكتب تضمّ عدداً من الإصحاحات أو الفصول تسمى "برقيم"، وتكوّن مجموعها 63 مقالة⁵ .

¹ حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 83.

² أسعد رزوق: المرجع السابق، ص 127-128.

³ المشنا: كلمة عبرية مشتقة من اللفظ العبري شنا أو ثنا بمعنى ردد أو كرر. أنظر: علي عبد الواحد وافي: المرجع السابق، ص 23.

⁴ بولس يوحنا مسعد: المرجع السابق، ص 96-106.

⁵ محمد ضياء الرحمن الأعظمي: المرجع السابق، ص 251-252.

أ)- الزراعة: وتعرف باسم البذور Seeds، وفي العبرية Zeraim. يتحدث هذا القسم عن النظم والقوانين المتعلقة بالزراعة في شيء من الإفاضة والتفصيل، فيبحث في الريّ والحراث والحصاد، ويتألف من 11 سفرًا، ويؤكد تطور اليهود من الرعوية إلى الزراعية وأنهم على مر التاريخ نجحوا في الميدان الزراعي، ومن أعيادهم عيد الحصاد (شفاعوت)¹.

ب)- الفصول أو المواعيد: وهي تتحدث عن تبجيل يوم السبت والعبادة فيه، وعن مواعيد الصيام، والأعياد والاحتفالات، كما يتناول التقويم اليهودي².

ج)- النساء (ناشيم): ويعرض فيه قوانين الزواج والطلاق، والجوانب الجنسية عامة، ويفصّل العلاقة بين الزوجين وحق كل منهما على الآخر وقوانين العيش، واحتقار المرأة وأكل حقها، والنذور³.

د)- الجروح والجنايات (نازكين): ويتناول فيه باستفاضة الشؤون المدنية والمسلكيات والتصرفات في الحياة العامة من التعامل والاعتداءات وجزاءات كل عدوان، ويتحدث فيه عن الآداب والأخلاق، مثل حسن التعامل ورعاية الحقوق، وحقوق الوالدين وما إلى ذلك كما إنه يعرض الوصايا والتفسيرات الشفوية من عهد موسى إلى عهد هليل وشمائي، فضلاً عن نظم التقاضي، وقوانين القضاء، مما يجب أن يفعله القاضي والمتقاضون، ونظم التجارة والإبحار والسياسة والاجتماع⁴.

ه)- المقدسات (قدا شيم): وهو مخصص لأعمال الضحايا والهيكل ومرافقه وتنصيب القسس وواجباتهم، كما يتحدث عن الذبائح والأطعمة

و)- قسم الطهارات (توهורות): ويتطرق فيه إلى الحديث عن التطهر والنجاسة والطاهر والنجس في الإنسان والحيوان، والأشياء التي تستعمل، وما يجوز أكله من الحيوان وما لا يجوز، ويتكون من 12 سفرًا، هذه بإيجاز أهم أقسام المشنا، وقد أضاف «الريانيون» و«الأخبار» إليها زيادات عرفت باسم «التصافوت» أي الإضافات، ومع هذه الإضافات لم تشمل المشنا كل المأثورات، ويرى بعض الباحثين المحدثين أن بعض أخبار المشنا مأخوذ من مصادر إسلامية في وقت متأخر للنمو والزيادة حتى العصر الحديث⁵.

¹ كامل سغفان: المرجع السابق، ص 209.

² حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 82.

³ عبد الوهاب المسيري: المرجع السابق، ص 27.

⁴ أسعد رزوق: المرجع السابق، ص 165.

⁵ أسعد رزوق: المرجع السابق، ص 172.

ويوجد في أقسام المشنا تضارب في الروايات لذلك قال بعض الباحثين بأن أشياء أضيفت في وقت متأخر لم تكن متسقة مع ما سبق، حيث تكونت من مقالات عديدة متفرقة وقد كان من تساهل الفريسيين أنهم قبلوا الشروح والروايات الكثيرة التي لم تسلم من التضارب رغم ما بذل في تحصيلها، ومهما يكن من أمر هذه الروايات الشفوية والكتابات، فقد اتخذت مكانةً تلي التوراة في قداستها، ومنذ عهد الرباي يهوذا بن سيميون كان لها المكانة الأولى في المدارس اليهودية، سواء في فلسطين أو في بابل¹.

(2)- الجمارا²:

مجموعة أخرى ضمت إلى المشنا واستقلت بهذا الاسم، وأصلها من عمل المعلمين الذين كانوا في عصر الرباي يهوذا، ولم يكونوا أعضاء في مجلسه فقد عملوا من جانبهم على جمع روايات أقل شهرة، كما جمعوا الروايات التي استبعدوا يهوذا من مشناه، ولكن هذه لم تكن قليلة الأهمية، ولا مما يليق التخلي عنه، ومنها أقوال وروايات نجمت عن مدرسة عقيبا وإسماعيل ونسجت حولها شروح وتفسير في أقوال المعلمين، فرأى الدارسون أن يجمعوا ذلك كله مع بعض الأحكام الشرعية، والإجابات عن المشاكل التي عرضت، كل ذلك جمع أخيراً وكون الجمارا، وهي بمعنى الإنهاء والإنجاز، وهي كما هو واضح وسعت المشنا، لأنها تحوي أحكاماً ومواد ليست في المشنا، منها القديم الذي لم يأخذه يهوذا، ومنها المستحدث، لم تجمع الجمارا إلا بعد 300 عام من اكتمال المشنا، وقد ثار جدال طويل بين المفسرين حول المواد التي تكوّنت منها الجمارا، مع كونها مجمعة من الروايات الشفوية والمشنا، كان يراد لها أن تكون معتمدة على نصوص التوراة³. وقد كتبت باللغة الآرامية، ومن المشنا والجمارا معاً يتألف التلمود الذي هو نتيجة تفاعل الشريعة المكتوبة مع أوضاع الحياة المتغيرة والحاجات الطارئة، فهو يعد بمثابة سجل حافل يبين خلال المناقشات والشروحات والأمثلة والردود والروايات، كيف كان اليهود يحاولون تطبيق الوصايا والفرائض التوراتية في حياتهم اليومية، وحين يصطدم التطبيق العملي بالنصوص المقدسة تبدأ المشكلة بالظهور وتكثر الاجتهادات، بينما يتصاعد البحث عن الحلول والمخارج⁴.

¹ بولس يوحنا مسعد: المرجع السابق، ص 96-98.

² الجمارا: هي كلمة آرامية تعني التتمة أو التكملة أو الدراسة أو الاضافات.

أنظر: مهنا يوسف حداد: المرجع السابق، ص 104.

³ علي عبد الواحد وافي: المرجع السابق، ص 23.

⁴ مهنا يوسف حداد: المرجع السابق، ص 104.

د- آراء الباحثين حول التلمود: قال جوزيف باركلي¹ أحد الباحثين في التلمود: «وبعض أقوال التلمود مُبالغ فيه وبعضها كرهه، وبعضها الآخر كفر، ولكنها تشكّل في صورتها المخلوطة أثراً غير عادي للجهد الإنساني وللعقل الإنساني وللحماقة الإنسانية» .

ويقول أحد الباحثين في مقدمة كتابه: «للمسيحي إنجيله يبشّر به العالم، وللمسلم قرآنه ينشره بين جميع الشعوب، أما الإسرائيلي فله كتابان: كتاب معروف وهو التوراة لا يعمل به والآخر مجهول لا يعرفه العالم وهو التلمود، يفضّله على الأول ويدرسه خفية، وهو أساس كل مصيبة، والنصارى يؤمنون بأن الله هو أبو الجميع، والمسلمين يعترفون بأن الله رب العالمين، أما الصهيونيون يريدون أن يكون الإله لهم وحدهم زد على ذلك، أن التلمود ينصّ على أن جميع خيرات الأرض ملك لبني إسرائيل، وأن النصارى والمسلمين وعبداء الأوثان خلقوا عبيدا لهم»²، ونظرة التلمود لكافة البشر هي: أن المخلوقات نوعان علوي وسفلي، العالم يسكنه سبعون شعباً بسبعين لغة وإسرائيل صفوة المخلوقات، واختارها الله لكي تكون لها السيادة العليا على بني البشر جميعاً سيادة الإنسان على الحيوان المدجّن، إن نفوس اليهود منعم عليها بأن تكون جزءاً من الله، فهي تنبثق من جوهر الله كما ينبثق الولد من جوهر أبيه، وهذا السبب يجعل نفس اليهودي أكثر قبولاً عند الله وأعظم شأنًا عند الله من نفوس سائر الشعوب، لأن هؤلاء تُشتقّ نفوسهم من الشيطان وهي مشابهة لنفوس الحيوانات والجماد³ .

ولهذا يقول التلمود: «أن زرع نطفة الرجل غير اليهودي هي زرع حيواني، وزرع الأغراب كزرع الحصان، وإن غير اليهود كلاب عند اليهود، وإن غير اليهودي لا يختلف بشيء عن الخنزير البري، وإن بيوت غير اليهود زرائب للحيوانات، وقد كُتب على شعوب الأرض لحومكم من لحوم الحمير وزرعكم من زرع الحيوانات، ولو أن الله يكتب التلمود برمته على الورق لما وسعته الأرض صحفاً مكتوباً»⁴ . وأيضاً «الفرق بين الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهودي وباقي الشعوب الاسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة فإذا ضرب أممي اسرائيليا فكأنه ضرب العزة الالهية ويستحق الموت»⁵ .

¹ جوزيف باركلي: باحث وكاتب فرنسي ولد في 20 أبريل 1894م يعد أحد أبرز وأشهر الباحثين في الأدبيات العبرية والتلمود وألف عدة كتب عن اليهود أهمها كتاب التلمود تاريخه وتعاليمه.

² بولس حنا مسعد: المرجع السابق، ص 106.

³ شوقي عبد الناصر: المرجع السابق، ص 31-34.

⁴ بولس يوحنا مسعد: المرجع السابق، ص 102.

⁵ شوقي عبد الناصر: المرجع السابق، ص 35.

ثالثاً- الفرق اليهودية:

1- الفريسيون¹: الفريسيون بالعبرية (فروشيم) ويعني (المفروزين) أي الذين امتازوا عن الجمهور وعزلوا عنه، وأصبحوا لعلمهم وورعهم واتصالهم بأسرار الشريعة من الصفوة المختارة²، وتعني المنعزلين أو المنشقين . وفريسي معناها المنشق ولعل مرجع معناه إلى أنهم انشقوا عن عامة اليهود التابعين لتعاليم التوراة³. وهم لا يوافقون على هذه التسمية لأن خصومهم يطلقون عليهم هذه التسمية فهم يكرهونها. ويطلقون على أنفسهم اسم (الأحبار) أو (الربانيين) أو (الأخوة في الله)⁴، وهذه الفرقة من أكثر الفرق اليهودية عدداً وأبقاها أمداً .

ويرى بعض الباحثين أن اسم الفريسيين يدل على طبيعة أمرهم وعقائدهم فهم لمغالاتهم بالمظاهر الكاذبة جعلوا أنفسهم كأهم جماعة مفروزة عن عامة الجمهور اليهودي أو الشعب، وقد عرف الفريسيون بهذا الاسم في عهد يوحنا هيركانوس الأول (135-104 ق.م)، وانقسموا فيما بعد إلى قسمين بيت شمائي وبيت هليل، أما أبرز عقائد الفريسيين فيما يلي :

- أن التوراة بأسفارها الخمسة خلقت منذ الأزل وكانت مدونة على ألواح مقدسة أوحى الله بها إلى موسى، وأما تدوينها من بعده فهو إعادة للتدوين⁵، كما أنها تعترف بجميع أسفار العهد القديم والأحاديث المنسوبة إلى موسى واسفار التلمود لأن ربانيهم هم من ألفوها.

- تؤمن بالبعث وبخلود النفس⁶، فتعتقد أن الصالحين من الأموات ينشرون في هذه الأرض ليشركوا في ملك المسيح المنتظر الذي يزعمون أنه سيأتي لينقذ الناس ويدخلهم في ديانة موسى.

- أكثرهم لا يتزوجون ويحافظون على وجودهم عن طريق التبنّي، ولا يقدمون القرابين إلى المعابد⁷.

- تؤمن بعصمة الحاخامات، وتمنحهم سلطة عليا، وتنظر إلى أقوالهم كأنها صادرة من الله وترى أن مخافتهم هي مخافة الله .

¹ كلمة آرامية من فرس أي صار ذا رأي وعلم بالأمر فهو فارس أي عالم بالأمر وهم فوارس أنظر: عبد المنعم الحفني: موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994م، ص 160.

² حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 210

³ ظفر الاسلام خان: المرجع السابق، ص 32.

⁷ رفيقي زاهر: قصة الأديان دراسة تاريخية، ط1، مركز الحكمة، القاهرة، ب ت، ص 35.

⁵ عبد الرزاق محمد أسود: موسوعة الأديان والمذاهب، ص 191.

⁶ محمد ضياء الرحمن الاعظمي: المرجع السابق، ص 219

⁷ علي عبد الواحد وافي: المرجع السابق، ص 84.

2- الصدوقيون

هم فرقة دينية تعود أصولها إلى قرون عدة سابقة على ظهور المسيح عليه السلام، وهم أعضاء القيادة الكهنوتية المرتبطة بالهيكل وشعائره والمدافعون عن الحلولية اليهودية الوثنية مأخوذة من الكلمة العبرية (صدوقييم)، ويقال أيضا أنهم نسبوا إلى صدوقا أحد كهنة القرن الثالث قبل الميلاد¹.

وكانت هذه الفرقة أقل كثيرا في اتباعها من فرقة الفريسيين بل أن الأغلبية الساحقة من اليهود كانوا ينفرون من تعاليمها ويكنون لها العداء. ومع كثرة الاختلاف بين هذه الفرقة وفرقة الفريسيين ومع اتجاهها الودي نحو الشعوب الأخرى، فانها كانت لاتقل عن فرقة الفريسيين في مبلغ عداوتهم للمسيح والكيد له وتعويق رسالته².

كانت للمسيح عليه السلام علاقة ودية بفرقة الصدوقيين، لأنه هاجم الفريسيين وقبل سلطان قيصر الروم على نحو ما فعل الصدوقيين، غير أن إنكارهم للبعث واليوم الآخر كان سببا في مخالفته لهم، وحاولت هذه الفرقة أن تجر المسيح إلى عقيدتها، وتضمه إليها لمعارضة الفريسيين، ولكنهم فشلوا في ذلك إذ بين لهم المسيح فساد عقيدتهم³. ويعرف عن الصدوقيين أيضا أنهم متعمقون في مسائل الدين متوسعون في أساليب المتعة والمعيشة ولا يرفضون التوسع في الحياة بمشاركة الأجانب والاندماج فيهم⁴. ومن أهم عقائد الصدوقيين:

- لا تعترف إلا بالعهد القديم، ويقتصرون على الأسفار الخمسة لموسى عليه السلام.
- ترفض الأخذ بالتلمود وبالأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى عليه السلام.
- لا تؤمن بالبعث ولا باليوم الآخر وخلود النفس عندهم باطلا.
- يقولون أن لإسرائيل ربهم الخاص (يهوه) فهو الذي اختارهم وهم شعبه⁵.

3- القراؤون:

يعود أصل التسمية من فعل قرأ أو دعا أو نادى، ويعود تاريخها إلى أن العهد القديم، أي التوراة والأنبياء والكتب، كانت تسمى عند اليهود (المقرا) أي (المقروء) أو (القرآن)⁶، ومعنى الكتاب أو المكتوب،

¹ رفقي زاهر: المرجع السابق، ص 38.

² علي عبد الواحد وافي: المرجع السابق، ص 88.

³ محمد ضياء الرحمن الاعظمي: المرجع السابق، ص 225.

⁴ صابر طعيمة: التاريخ اليهودي العام، ط 1، دار الجيل بيروت، 1975م، ص 264.

⁵ عبد الوهاب المسيري: المرجع السابق، م 2، ص 122.

⁶ حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 247.

وهي كلمة كانت تطلق عند اليهود على المتمسكين بأسفار العهد القديم، ومعنى القرائين أي المتمسكين بالكتاب وحده أي أسفار العهد القديم وحدها¹.

وقد أنشأها عنان بن داود أحد علماء اليهود في العراق وفي فارس في القرن السادس للميلاد²، ويقوم مذهبه على التمسك بما جاء في العهد القديم وحده، وعدم الاعتراف بأحكام التلمود وتعاليم الرابانيين والحاخامات، ومن ثم أطلق عليهم العنانيين نسبة إلى منشأها عنان بن داود .

وتعتبر من أحدث الفرق ولا يزال لهذه الفرقة أتباع كثيرون من اليهود في مختلف البلدان في العصر الحاضر ومنهم في إسرائيل الجزء المحتل من فلسطين³، وهي تناهض التلمود، وتدعو للاكتفاء بالتوراة، ويمثل القراءون القلة بين اليهود، وأطلق (الرابانيون) عليهم اسم الزنادقة أو الكفرة وأوصوا بالتنديد بهم في المعابد، أما القراءون فلم يقصروا من جانبهم في فضح (الرابانيين) والسخرية منهم حتى في تفسيرهم للكتاب المقدس.

ومع مرور الزمن ظهرت في مجتمع القرائين مدارس علمية قوية اهتمت بدراسة اللغة العبرية، ومن أشهرهم في القرن العاشر الميلادي أبو سليمان داود بن ابراهيم الفاسي، مؤلف قاموس التوراة الكبير الذي يشرح فيه ألفاظ الكتاب المقدس العبري باللغة العربية، واسمه كتاب (جامع الألفاظ) أو (الاجرون) فضلاً عن ذلك ظهر بينهم محققون لقراءة الكتاب المقدس، ومفسرون له تراكتت تفاسيرهم مع الزمن حتى انه يروى عن عنان أنه قال لاتباعه (اتركوا نهج المشنا والتلمود، وأنا اصنع لكم تلموداً من عندي)⁴، ومن عقائد القرائين :

- يتميزون بالتعنت والتصلب في طقوس العبادة والسبت .
- التمسك بما جاء في العهد القديم وحده .
- عدم الاعتراف بالتلمود كمصدر من مصادر التشريع اليهودي .
- التمسك بظواهر النصوص، وتحريم تأويلها⁵.

4- الحسيديم: هي جمع عبري للمفرد حسيد المشتق من الجذر (حسد)، ويدل هذا الجذر في اللغة العبرية على معنى الإحسان وعمل الخير بصورة عامة. وقد استعملت كلمة حسد ومشتقاتها في الأدبيات اليهودية بهذا المعنى .

¹ علي عبد الواحد وافي: المرجع السابق، ص 94.

² أسعد رزوق: المرجع السابق، ص 181.

³ علي عبد الواحد وافي: المرجع السابق، ص 84.

⁴ حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 255.

⁵ علي عبد الواحد وافي: المرجع السابق، ص 94.

ولكن إلى جانب هذا الاستعمال أطلق الجمع حسيديم على جماعات يهودية ظهرت في حقبة مختلفة من تاريخ اليهود، ومن هذه جماعة تزعمها حاخام اسمه (بعل شم طوب)¹ في القرن الثاني قبل الميلاد. وقد أطلق على الحركة التي قادها اسم (الحركة الحسيدية)، واستعمل الاسم (حسيد) عند هذه الحركة للدلالة على اليهودي التقي، والمخلص للدين والناذر نفسه له. وفوق هذا وذاك على من هو من اتباع هذه الحركة ومن يؤمن بأفكارها، وهؤلاء الحسيديم اتباع هذه الحركة². وتستخدم في العصر الحديث للدلالة على الحركة الدينية الصوفية الحلولية التي أسسها وتزعمها بعل شيم طوب، وبدأت الحركة في جنوب بولندا وقرى أوكرانيا في القرن الثامن عشر³، ويوجد في إسرائيل عشرات التجمعات من الحسيديم، وتعد كل جماعة عالماً مستقلاً بذاته تعني بأفرادها، وتنظم شؤونهم الحياتية منذ الميلاد إلى الوفاة، وتؤمن الحسيدية لأبنائها أحياء سكنية ودور الحضانة والتمريض ومؤسسة لرعاية الاحتفالات وللموسيقى أهمية خاصة في حياتهم.

والصديق ملك حقيقي يتربع على عرش الطائفة وله ملابس خاصة وعادات خاصة ويحيط به المستشارون والمساعدون والحجاب والخدم وتخصص له السيارات الفخمة وتوضع تحت تصرفه أموال الطائفة التي تؤمن له ولأسرته مستوى من المعيشة عالياً إضافة أن اصطبلاته كانت مليئة بالخيول النادرة ويتجول في عربة كبيرة لا يمكن بسطاء الطائفة من رؤيته وكان أبنائه وبناته يعيشون عيشة الأمراء، وبسبب هذه القداسة يحاول الاتباع إيجاد العلاقة المباشرة به، وهم يتراكمون خلف سيارته ويتدافعون لرؤيته لأنهم يرون من التقوى النظر إليه والانصياع لتوجيهاته وتقبيله يده وعدم الاقدام على أمر مهم دون اذنه حتى الالتحاق بالعمل أو إجراء عملية جراحية أو صفقة تجارية والأدمور هو الذي يقرر لمن يصوت أتباعه في الانتخابات، ويقرر الخط السياسي لطائفته⁴. ومن معتقدات الحسيديم:

- أن الله كان موجوداً قبل كل شيء، وهو الحقيقة الوحيدة قبل الخلق، وأنه أبدي وليس له نهاية وقد خلق الخلق من لا شيء وليس هناك مكان أو فضاء يخلو من وجوده وكما أن لافضاء يحيط بالأرض فإن الله يحيط بالكون، ويذكر في سفر اشعيا (قبلي لم يوجد اله وبعدي لا يكون)

- يرى الحسيديم بأن الله تعالى خلق العالم بالكلمة، وبواسطة حروف هذه الكلمة ظهر العالم إلى الوجود، وتحقق خلقه وإذا قال الله ليكن نور فكان نور.

¹ بعل شم طوب: هو مؤسس الحركة الحسيدية، واسمه إسرائيل بن اليعازر وعائلته يهودية أرثوذكسية فقيرة عمل مساعداً لمعلم وحاجباً في الكنيس ينظر جعفر هادي حسن: اليهود الحسيديم، ص 15-27.

² جعفر هادي حسن: اليهود الحسيديم (تاريخهم، نشأتهم، تاريخهم، عقائدهم، تقاليدهم)، ط1، دار الفلم، دمشق، 1994م، ص 58.

³ عبد الوهاب المسيري: المرجع السابق، ص 137.

⁴ كامل سغفان: المرجع السابق، ص 278.

- كما يرون أن الجمادات هي مخلوقات لها شكل الحياة الخاص بها وهي حياة دنيا، والجمادات لها حياتها الخاصة وهي ارفع من النباتات¹.
- يؤمنون بفكرة وحدة الوجود والتي تعني اشتمال الله على الطبيعة وأن الكل في الله.
- يؤمنون بفكرة التناسخ، وهذا مذهب اليه الديانات الشرقية الوضعية مثل الهندوسية² والكونفوشيوسية³.

5- السامريون:

هم فئة قليلة من اليهود لا تعترف بغير الاسفار الخمسة من العهد القديم اضافة إلى سفر يشوع وسفر القضاة، وتخالف نسخة توراتهم نسخة تورا اليهود⁴. وأن أسفار موسى الخمسة المتداولة بينهم تختلف عن الاسفار المدونة في نحو ستة آلاف موضع.

ينحصر اسم السامريين بمجموعة بشرية صغيرة تعيش في موضعين في فلسطين، القسم الأكبر يقيم في حي من أحياء نابلس، على منحدر جبل جرزيم، والباقيون يقيمون في إحدى ضواحي تل أبيب، وهم ليسوا عرباً ولا يهوداً، سمّاهم اليهود الكوتيين⁵، ولكن تسميتهم التقليدية في العبرية هي "شومرونيم" (أي: سكان مدينة السامرة ومنطقتها). أمّا هم فيسمّون أنفسهم "شومريم" أي الحراس أو المحافظين أو "بني إسرائيل". كما يقولون عن أنفسهم أنهم المحافظون على شريعة موسى عليه السلام، وينفي بعض اليهود عن السامريين صفة الانتساب الى اليهودية كما أنهم يعاملونهم معاملة الأغيار في أمور الزواج والموت.

وللسامرية تورا غير التورا التي بأيدي سائر اليهود يزعمون أن نسختها تعود إلى عام 656م، ولدى بعضهم نسخة يقولون أنها ترجع إلى عام 13 ق.م بعد فتح كنعان. واختلاف نسختهم عن النسخة العبرانية فيما يقرب من ستة آلاف موضع كما يقول علماء اليهود، فمثلاً تقول توراتهم أن جبل الرب هو جبل جرزيم وليس جبل عيبال لذلك عدّوا قبلتهم جبل الجرزيم دون سائر اليهود⁶. ولا يعرفون حرمة لبيت المقدس ولا يعظمونه وهم بالشام لا يستحلون الخروج منها، وافترقت السامرة إلى فرقتين الأولى: الدوستانية

¹ جعفر هادي حسن: المرجع السابق، ص 57-59.

² هي ديانة من الديانات القديمة والباقية وزعيمهم براهما ويعتقدون ان جميع الكائنات جاءت من براهما وهدف الانسان الهندوسي هو النيرفانا والتي تعني الانطلاق وانعتاق الروح من الجسد واتصالها بالاله براهما. ينظر: سعدون الساموك ورشدي عليان: المرجع السابق، ص 24.

³ هي ديانة صينية مؤسسها (كونفوشيوس) وتقوم على عبادة اله السماء وتقديس الملائكة وعبادة ارواح الاباء والاجداد. أنظر سعدون الساموك ورشدي عليان: المرجع السابق، ص 24.

⁴ كامل سغفان: المرجع السابق، ص 268.

⁵ لأنّ بعض جاء من مدينة كوت وهي مدينة تبعد 30 كلم إلى الشمال الشرقي من بابل.

⁶ عبد المنعم الحفني: المرجع السابق، ص 119.

معناها الفرقة المتفرقة الكاذبة، والثانية: الكوستانية معناها الجماعة الصادقة، وهم يقرون بالشواب والعقاب فيها، بينما تزعم الدوستانية أن الشواب والعقاب في الدنيا وبين الفريقين اختلاف بالأحكام¹، ومن أهم عقائدهم:

- الإيمان بالله روحاني بحت - الإيمان بأن موسى ﷺ رسول الله وخاتم النبيين - الإيمان بجبل جرزيم هو المكان المقدس وهو القبلة الحقيقية الوحيدة لبني اسرائيل .

- يرفضون النصوص المقدسة كالمشنا والتلمود ويعدونها عميقة في الكفر، ويضيفون أحياناً شعر يوشع بن نون وسفر القضاة إلى التوراة .

- يؤمنون بالبعث ويؤمنون بيوم القيامة، ويسمون يوم الموقف أو يوم البعث².

يذكر أن هناك عدة فرق ومذاهب أخرى لا يسعنا المجال لذكرها جميعاً كيهود الفلاشا والاصلاحيون ويهود الدوغمة والمارانوس وغير ذلك من الفرق التي ازدادت بشكل ملفت في العصر الحديث .

رابعاً- الأعياد اليهودية :

1- عيد الفطير : بمغيب شمس اليوم الرابع عشر يبدأ عيد الفطير وهو اليوم الخامس عشر من شهر

نسيان، ويشترك اسمه من الكلمة العبرية "مصوت Mazzot" ويُسمى في الكتاب "خبز المشقة"³.

يعتقد اليهود في هذا العيد أن المسيح بصليبه أسس كنيسته لتكون طاهرة لا عيب فيها، وعلمنا كمؤمنين (عن أنفسهم) مات المسيح عنا أن نقضي أيام غربتنا وقد اعتزلنا الشر وكان رمزاً. لهذا يأتي كل رجل يهودي ليلة الفصح ويفتش في منزله ويبحث عن أي قطعة خبز مختمر ليعزلها بعيداً عن منزله، ومعنى هذا أنه بعد أن ذُبِحَ المسيح لأجلي فكيف أرضى وأسمح بوجود خطية في حياتي لمدة العمر كله (7 أيام رمز للكمال، كل الحياة)، واليهود كانوا يفهمونها أنهم خرجوا من مصر وحملوا عجينهم الذي لم يختمر، وهكذا نحن (أي اليهود) إذا أردنا أن نعبر من العبودية للحرية علينا أن لا نضع أي شر في قلوبنا أو أن نعزله لو وُجِدَ ونتخلّى عنه.

2- عيد باكورة الحصاد: هذا العيد يوافق حصاد الشعير، وقد ارتبط عيد الباكورة مع عيدي الفصح

والفطير وعيد الخمسين، فعيد الباكورة يحتفل به خلال أيام عيد الفطير ويأتي عيد الخمسين بعده بخمسين يوماً، ويعتبر أول الأعياد الزراعية. وطقس العيد كان لتقديم الشكر لله واهب الخيرات. وكان ثلاث شيوخ

¹ عبد الرزاق أسود: المرجع السابق، ص 189.

² حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 248.

³ حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 219.

من مجمع السنهدريم¹ يخرجون للحقول المجاورة ليأتوا بأول حزمة من المحصول ويقدمونها للهيكل، وبتقديمها للهيكل يتقدس كل الحصاد. فبتقديم الباكورة يكون الله أولاً. وهذه الحزمة تمثل شخص السيد المسيح الذي قدّم حياته تقدمة سرور للرب لكي يبارك كل الحصاد أي الكنيسة. كان هو حبة الحنطة التي سقطت في الأرض لتأتي بثمار كثيرة.

وكما سنرى فإن المسيح صُلب فعلاً يوم الجمعة وتوافق هذا مع تقديم حروف الفصح بل هم صلبوه وتركوه في حراسة الجنود الرومان، وذهبوا ليأكلوا الفصح (14 أبريل) وفي اليوم الثالث (16 أبريل) بينما كان اليهود يتبادلون التهئة بعيد الباكورة. كان التلاميذ يتبادلون التهئة بقيامة المسيح باكورة الراقين أو باكورة القائمين من الموت. فالمسيح بقيامته أظهر أنه هو الباكورة الحقيقية فهو قام يوم عيد الباكورة. ونلاحظ أن الشعب احتفل بعيد الفصح والفطير في البرية ولكن عيد الباكورة احتفلوا به لأول مرة بعد أن دخلوا الأرض. فعيد الباكورة أي القيامة لا بُد وأن تكون في الأرض الجديدة والسماء الجديدة².

3- عيد الخمسين: يأتي بعد خمسين يوماً من عيد باكورة الحصاد، يوم تقديم حزمة التريدي أمام الرب، وتعد هذه المجموعة من الأعياد هي وحدة واحدة (فصح/ فطير/ باكورة/ خمسين) رمزاً لوحدة أخرى هي (الصلب/ القيامة/ تقديس الكنيسة/ حلول الروح القدس)، وقد سمي هذا العيد بعيد الأسابيع³، لأنه يأتي بعد 7 أسابيع من الباكورة، وقد حلت روح القدس على التلاميذ يوم الخمسين فعلاً، وهو أيضاً عيد زراعي كالباكورة ويسمى عيد الحصاد إذ يأتي في ختام موسم الحصاد بعد نضج القمح⁴.

4- عيد الأبواق أو عيد الهتاف:

هو عيد بداية السنة المدنية، وبداية الشهر السابع من السنة الدينية، وأهم ما يمتاز به هو "الهتاف"، حيث يحتفل اليهود بالهتاف في الأبواق، لهذا دُعي "عيد الهتاف" أو "عيد الأبواق"، والكلمة العبرية "تروعة"، قد تعني إما "هتاف" الشعب، وإما "قصف" البوق، أو كليهما معاً، ويسميه اليهود "روش هشنه" أي رأس السنة.

والبوق يستعمل في الإنذار أو الدعوة للحرب، والكنيسة تستخدم كلمة الله في الإنذار وللدعوة للجهاد ضد الخطية، ومن يسمع ويتوب يبدأ حياة جديدة (رمزها السنة الجديدة) فالتوبة معمودية ثانية⁵.

¹ السنهدريم: أو السنهدرين معناها الحرفي للكلمة اليونانية المترجمة الى «سنهدريم» هو: «الجالسون معاً»، وهي في المعنى العام مجلس أو اجتماع. أما في التقليد اليهودي فهي تشير عادة الى المجلس اليهودي الأعلى في اورشليم.

² كامل سعفان: المرجع السابق، ص 223.

³ حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 228.

⁴ غازي السعدي: الأعياد والمناسبات والطقوس عند اليهود، ط 1، دار الجيل للنشر، عمان، 1994م، ص 13.

⁵ غازي السعدي: المرجع السابق، ص 11.

5- عيد الفصح: كلمة فصح بالعبرية "Pesah" ومعناها "الاجتياز" أو العبور¹، وقد نُقِلَتْ بلفظها تقريباً أو بمعناها إلى معظم اللغات، فهي في القبطية واليونانية "بسخة Pascha"، وفي العربية "فصح"، وفي الإنجليزية "Pass-over". ويعني هذا العيد تذكّار عبور الملوك المهلك في أرض مصر ونجاة أبكار اليهود ثم عبورهم من أرض العبودية إلى الحرية. وكانوا يأخذون الحروف يوم 10 أبريل ويوجد تحت الحفظ حتى 14 أبريل ويذبحونه في اليوم الرابع عشر بين العشاءين (بين الساعة 3 والساعة 5 ظهراً.. أو بين الساعة 3 ووقت حلول الظلمة). وكان كثيرون من اليهود يأتون من الشتات وينصبون خيامهم على جبل الزيتون، ومن هنا ندرك احتفال الناس الهائل عند دخول المسيح إلى أورشليم. وصار شهر أبريل أول شهور السنة لأن آدم الثاني أي المسيح بصليبه قد بدأ كل شيء جديداً. (وواضح أن الفصح يشير للصليب).

يأتي عيد الفصح في الرابع عشر مساءً أي في ليلة (ونهار) اليوم الخامس عشر من شهر أبيب، ومعناه "شهر الخضر"، أو "تكوين السنابل"، الذي دُعي بعد السبي البابلي "نيسان".

6- عيد الكفارة (الغفران): هو يوم تذلل ودموع، ورمز ليوم الصليب²، اسمه في العبرانية "يوم ها - كبور"، وكان بنو إسرائيل يحتفلون بهذا العيد في اليوم العاشر من الشهر السابع من سنتهم الدينية المقدسة. وكان لأهميته أن علماء التلمود أسموه "اليوم"، وتظهر أهميته أيضاً في دعوته "سبت عطلة"، أو "سبت راحة" وكأن فيه تتحقق الراحة التامة بكونه "عيد الأعياد".

كان يوم الكفارة بالغ الأهمية عند اليهود حتى أنهم ظلوا يحتفلون به حتى بعد تدمير الهيكل في عام 70 م. وانتهاء نظام الذبائح، وغايته أن يتصالح الإنسان مع ربه إذ في هذا اليوم تغفر الخطايا ويُستَر على الإنسان بالدم الثمين. وهذه الخطايا التي تُغْفَر هي الخطايا التي بين الإنسان والله. ولعله من المفيد أن نذكر أن التقليد اليهودي يذكر أن يوم الكفارة العظيم هو اليوم الذي أخطأ فيه آدم وتاب. وهو اليوم الذي اختُتِنَ فيه إبراهيم - كعلامة للعهد مع الله بالدم - وهو اليوم الذي عاد فيه موسى من الجبل وكفّر عن خطية الشعب الذين عبدوا العجل الذهبي³.

7- عيد المظال: هو ثالث الأعياد السنوية الكبرى التي كان يجب فيها على كل ذكر في إسرائيل أن يتراءى أمام الرب في الموضع الذي يختاره، ويُعرَف بالعبرانية "سُكُوت"⁴، واشتق الاسم من عادتهم في أن يسكنوا مظالاً أثناء مدة العبادة، وكانت هذه المظال تُنصَّب بعد تشييد الهيكل في أورشليم في ساحات

¹ حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 219.

² كامل سعفان: المرجع السابق، ص 223.

³ حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 219.

⁴ حبيب سعيد: أديان العالم، ص 188.

المدينة وعلى سطوح البيوت وأفنياتها وفي دور أورشليم، وعلى الجبال المجاورة لها. وهي مصنوعة من الأشجار الخضراء الكثيفة وعلى كونه زراعياً في الأصل والجوهر، فقد اختلط بذكرى تاريخية وهي إقامة العبرانيين المظال في البرية¹.

خامساً- العبادات عند اليهود:

1- الصوم: يعتبر الصوم عند اليهود مظهراً من مظاهر الخشوع لله تعالى، والتذلل إليه²، والتكفير عن الذنوب، والصوم في الديانة اليهودية يختلف عنه في باقي الأديان ويشمل:

أ- صوم تموز (جويلية): صيام يومان الأول اليوم السابع عشر من تموز (وهو اليوم الذي دخل فيه الكلدانيون أورشليم)، والثاني يوم التاسع عشر من تموز وهو اليوم الذي دخل فيه الكلدانيون أورشليم)، وهم يعتبرون هذا الصوم حداداً على حوادث مختلفة أهمها:

- تحطيم ألواح الشريعة (التوراة).

- إبطال القران اليومي صباحاً ومساءً.

- ذكرى هجوم تيطوس على أورشليم عام (7 م)³.

ب- صوم آب (أوت): ويقع في اليوم التاسع منه، وهو يوم ذكرى سقوط أورشليم في يد تيطوس

وتخريب الهيكل الذي كان قد أقيم بعد العودة من السبي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد.

اضافة الى ذلك فان اليهود يصومون في معظم أعيادهم الدينية الأسبوعية أو الشهرية أو السنوية ونذكر منها: صيام يوم السبت أسبوعياً، وصيام ذكرى حصار نبوخذ نصر لأورشليم في 10 طيبيت، وصيام أستير في 13 آذار (وفق التقويم العبري).

2- الصلاة: تعد الصلاة لدى اليهود احد اهم أعمدة الديانة اليهودية ولا يختلفون بذلك مع

المسلمين والنصارى في أهميتها، لكنهم اختلفوا من حيث عدد الصلوات وتوقيتها وحتى طقوسها، والصلاة عندهم لا تجوز بدون طهارة.

أ- الطهارة: إن الاستعداد في الديانة اليهودية للصلاة شبيه جدا بالاستعداد لها عند المسلمين، إذ هم

بدورهم يشترطون الطهارة لإتمام الصلاة، لذلك فمعنى الطهارة عند اليهود تطلق في العبرية على كلمة طهوراه، ونقيضها كلمة طمأة أي نجاسة، وللطهارة عند اليهود معنيان، عام وخاص:

¹ غازي السعدي: المرجع السابق، ص 13.

² عبد الرزاق رحيم: العبادات في الأديان السماوية، ط1، الأوائل للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2001م، ص 101.

³ سامي عبد الله المغلوث: أطلس الأديان (تاريخ-عقائد-انتشار)، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 2007م، ص 147.

أما المعنى العام للطهارة فهو تنظيف الثياب وغسل الجسم وتنقية الأوساخ، ولهذا تعتبر الطهارة شرطاً أساسياً لصحة الصلاة إذ لا يجوز ذكر اسم الله في الصلاة أوفي غيرها مادام الإنسان غير طاهر، لذلك فالطهارة الكبرى تسمى الغطس، وأما الطهارة الصغرى عندهم هي التي تقع يومياً، تتمثل في غسل اليدين فقط قبيل كل صلاة¹.

ب-أنواع الصلاة وأوقاتها وطقوسها: لم تكن الصلاة محدودة وإجبارية عند قدامى اليهود بل كانت تقام حسب الأحوال والاحتياجات الشخصية والعمومية، ولكن بعد تخريب الهيكل وسبي اليهود إلى بابل بطل تقديم القرابين ووضعت الصلاة بدلاً عنها²، والصلاة عند اليهود نوعان:

1-أنواع الصلاة عند اليهود:

(أ)- صلاة فردية: أي شخصية، وهي صلاة ارتجالية يقوم بها الأفراد حسب الظروف والاحتياجات الشخصية، ولا علاقة لها بالطقوس والمواعيد والمواسم مثل صلاة إبراهيم من أجل خلاص سدوم، وكصلاة موسى من أجل بني إسرائيل، وهذا النوع من الصلاة يقام في أي مكان دون قيد أو شرط .

(ب)- صلاة مشتركة أو عمومية: وهي التي تؤدي باشتراك مجموعة أشخاص علناً وعموماً في أمكنة خاصة (مجامع)، وفي مواعيد معلومة حسب طقوس وقوانين مقررة³،

2-كيفية:

- قراءة " الشماع " ⁴ " اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد".

- تبدأ صلاة من فم رئيس المجمع .

- قراءة من الناموس يضاف إليها في يوم السبت وأيام الأعياد قراءة من الأنبياء

- عظة يلقيها أحد الأعضاء المقتدرين .

ولم توضع الصلاة الطقسية عند اليهود إلا بعد تأسيس أمكنة العبادة كالهيكول وخيمة الاجتماع، والصلاة تتكون في الغالب من النثر ثم النظم وتتلى بطريقة الغناء، وبالتدريج صارت تستعمل الآلات الموسيقية، وخصص المغنون لهذا القصد⁵، وفي الصلاة يحرصون على وضع الأيدي على الصدر مع حنى

¹ هدى درويش: المرجع السابق، ص 90.

² حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 168.

³ عبد الرزاق رحيم: المرجع السابق، ص 83.

⁴ الشماع: هو دعاء مأخوذ من سفر التثنية رتبته عزرا وجماعته وهو أول كلمة من آية التوحيد عند الاسرائيليين وهي من كلمة شمع بالعبرية ومعناها اسمع، وهذا الدعاء يسبق دائماً صلاتي الصبح والمساء. أنظر: هدى درويش: المرجع السابق، ص 108.

⁵ سامي عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 146.

الرأس قليلاً، وهم يتوجهون في صلاتهم إلى بيت المقدس (أورشليم) ويتجه من فيها إلى الهيكل، وفي الجامع تكون أماكن الجلوس مرتبة حسب درجات الشعب من أمام الهيكل إلى الورا.

وينسب إلى عزرا أنه رأى وجوب وضع صلاة يومية للشعب اليهودي تقوم مقام الذبائح التي أبطلت بعد خراب الهيكل، وقد وضعت باللغة العبرية ليقراها الإسرائيليون أينما وجدوا، وتوجد بعض الصلوات الخصوصية وضعت باللغة الكلدانية وترجمت إلى العربية في القرن السادس عشر.

ويعتبر (كتاب الصلاة) أقدم كتاب يشتمل على مجموع صلوات السنة، وقد وضع في بابل في الفترة بين (846 - 864 ق.م)، وهو مختلف قليلاً عن كتب الصلاة الحالية، وفي الفترة من عامي (928 - 942م) وضع كتاب صلاة آخر، ثم وضع موسى بن ميمون كتاب صلاة شهير جداً، ترجم وطبع في بطرسبورغ 1851م الروسية .

(3)-أوقاتها: ان الصلاة الواجبة على اليهودي في اليوم هي ثلاث صلوات نذكرها فيما يلي:
أ- صلاة الفجر(شحاريت): وتسمى صلاة السحر، ووقتها منذ أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود إلى ارتفاع عمود النهار.

ب- صلاة نصف النهار أو القيلولة(منحه): ووقتها من انحراف الشمس عن نقطة الزوال إلى ما قبل الغروب بقليل .

ج- صلاة المساء أو صلاة الغروب (معاريف): ووقتها من غروب الشمس وراء الأفق إلى أن تتم ظلمة الليل الكاملة¹.

(4)-طقوسها: تبدأ يوضع الشال الصغير على الكتفين، ويكون من نسيج أبيض مربع أو مستطيل، وفي كل زاوية حلية من ثمانية أهداب من الخيط الأبيض والأزرق² أما في صلاة الجماعة في المعبد يستعمل الشال الكبير، ويجب ألا تلمسه النساء، ويخصص له موضع معلوم في المنزل . ويلبسه اليهودي منذ أن يبلغ سن الثالثة عشر وهي سن التكليف بالعبادة، ويبقى عنده حتى وفاته ويكفن به عادة مع وجوب تغطية الرأس للتعبير عن الاحترام³.

ثم يلبس التفلين في وسط الجبهة ويربط بشريط من الجلد حول الرأس. وفي الكف الأيسر حول الإبهام حيث يربط بشريط حول اليد - وإذا كان الشخص أعسر فيوضع عند إبهام الكف الأيمن، والتفلين عبارة عن علبة صغيرة من الخشب أو الجلد محفوظ في داخلها رقعة من رق الغزال مكتوب عليها (قراءة الشماع).

¹ هدى درويش: المرجع السابق، ص 107.

² عبد الرزاق رحيم: المرجع السابق، ص 76.

³ حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 182.

وقد تضمنت الصلاة عند اليهود الوقوف والركوع والسجود ورفع الأيدي، ويكون وفي أيام المحن كانوا يلبسون خيشا ويذرون التراب على رؤوسهم ويمزقون ثيابهم أحياناً، ويحلقون شعر رؤوسهم، كما أنهم يحنون رؤوسهم قليلاً الى الأمام باتجاه قبلتهم أورشليم، ويضعون أيديهم على صدورهم¹.

هـ-الحج: اعتاد اليهود منذ القرن الرابع عشر (ق.م) على الحج الى المكان الذي يوجد به تابوت العهد بأورشليم، كما لم يكتفوا بحجة واحدة، وكانوا يستخدمون الآلات الموسيقية أثناء صعودهم الى مدينة القدس حتى يخفف التزم أتعابهم². ويذكر أن التوراة قد فرضت الحج ثلاث مرات على كل يهودي ذكر راشد دون النساء والقصر، لكن اليهود اكتفوا بمرتين فقط، حيث يبقى فيها الحاج اليهودي أسبوعاً في كل مرة يبدأ بيوم الجمعة كشرط .

هذا، وقد كان اليهود يحجون الى المكان الذي يوجد به الهيكل والمعبد في القدس لكنهما اختفيا (ولازال اليهود يبحثون عنهما تحت أراضي القدس حتى يومنا هذا)، فبعد ذلك صار اليهود يحجون الى حائط المبكى أو ما يسمى حائط البراق³.

و- الزكاة: لم برد في الشرائع اليهودية لفظ الزكاة لكنه ورد بلفظ صداقا وترجمت على أنها الزكاة، ويرى اليهود على أن صدقتهم مقبولة لأنهم أبناء الله، وشعب الله المختار، أما غيرهم فصدقاتهم غير مقبولة لأنها غير خالصة لوجه بل كبرياء ورياء⁴، ونصت الشرائع اليهودية على الزكاة على النحو التالي:

- ترك جزء من المحاصيل الزراعية للغرباء واليتامى والأرامل والمساكين.
- جاء في التوراة أمر باخراج عشور كل ثلاث سنوات للذين لا يملكون أرضاً في سفر التثنية (في آخر ثلاث سنين تخرج عشر محصولك في تلك السنة....)⁵.
- بعض الصدقات تعطى الى خيمة الاجتماع في القدس تنفق في الأعياد الدينية لليهود .

¹ هدى درويش: المرجع السابق، ص 104.

² عبد الرزاق رحيم: المرجع السابق، ص 118.

³ سامي عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 148.

⁴ عبد الرزاق رحيم: المرجع السابق، ص 96.

⁵ سفر التثنية: الاصحاح 14، الفقرة 288.

المبحث الثاني- تاريخ يهود العراق قبل العهد العثماني :

تناولنا فيما سبق الديانة اليهودية ومعتقداتها وفرقها، وكل ما يتعلق بها من طقوس وعبادات وأعياد، وسنتطرق في هذا المبحث الى تاريخ يهود العراق تحديدا منذ أول تواجد لهم في بلاد العراق الى غاية القرن السادس عشر ميلادي تاريخ التواجد العثماني هناك .

أولاً- تاريخ يهود العراق قبل الفتح الاسلامي:

1- جذور تواجد وانتشار الديانة اليهودية في العراق :

أ- التهجير القسري الأول في عهد الامبراطورية الآشورية: يجمع أغلب المؤرخين بأن أقدم وجود لليهود في العراق يرجع إلى عهد الامبراطورية الآشورية التي دامت حوالي ثلاثمائة عام ما بين سنة 911 و626 ق.م. وقد كان لقيامها دور كبير في تغيير وجه الشرق، فقد حكم في خلال هذه الفترة خمسة عشر ملكا بلغت الامبراطورية في عهد بعضهم أوج عظمتها واتساعها بحيث ضمت جميع أراضي منطقة الهلال الخصيب وكذلك مصر¹.

ويعد أول وجود لليهود في العراق عندما نقل الآشوريون اليهود الموجودين في أرض فلسطين القديمة إلى منطقة آشور القديمة (مناطق في العراق) في ثلاث حملات متتالية على إسرائيل ويهوذا بلغ ما يربو على أربعمئة ألف نسمة، ففي الحملة الأولى استولى الملك تجلات بلاشر الثالث على كل مدن إسرائيل عدا (السامرة)، ونقل جميع سكان هذه المدن إلى آشور، ومع أنه لم يذكر عددهم، إلا أن أغلب الظن أن الرقم كان يزيد على المائتي ألف نسمة إذا قسنا هذه الحملة بحملة سنحاريب التي نقل فيها أكثر من مائتي ألف نسمة من يهوذا وحدها، ولما كانت يهوذا تؤلف سبطين، وإسرائيل تؤلف عشرة أسباط على قول التوراة فيكون ما قدرناه عن عدد الذين نقلهم تجلات بلاشر الثالث (745 - 727 ق.م) من جميع مدن إسرائيل بمائتي ألف نسمة أو ما يزيد تقديراً معتدلاً²، ثم ينبئنا سرجون الثاني أنه نقل ما تبقى من يهود إسرائيل في مدينة السامرة التي احتلتها في الحملة الثانية ما مقداره 27.290 نسمة،³ كما أن سنحاريب يدعي في مدوناته أنه نقل من أسرى يهوذا 200.150 نسمة إلى المنطقة نفسها (أي آشور)، فمجموع هؤلاء يبلغ أكثر من أربعمئة ألف نسمة".

¹ ول وايرل ديورانت: المصدر السابق، ج2، ص 268.

² مصطفى كمال عبد العليم وسيد فرج راشد: اليهود في العالم القديم، ط1، دار القلم للنشر والتوزيع، دمشق، 1996م، ص 145-146.

³ أحمد سوسة: ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ط2، مركز دراسات البحوث العربية، بيروت، 2001م ص 28.

ب-السي البابلي الأول على يد نبوخذ نصر :

وبعد سقوط الدولة الآشورية، ومجيء الدولة البابلية، حدث السبي البابلي المشهور لليهود على يد الملك نبوخذ نصر الثاني، وهو أشهر ملوك هذه الدولة، حيث حكم البلاد 43 سنة بين سنة 605 وسنة 562 ق.م وجاء السبي البابلي لليهود في حملتين: الأولى في سنة 597 ق.م، والثانية في سنة 586 ق.م، وحصلت الأولى عندما تمرد الملك يهوياقيم ملك يهوذا (608-597 ق.م) على نبوخذ نصر، وذلك بعد أن أظهر طاعته وخضوعه إلى الملك الكلداني، فشَنَّ نبوخذ نصر سنة 597 ق.م حملة على يهوياقيم، وحاصر أورشليم إلا أن (يهوياقيم) تُوفي أثناء هذا الحصار فخلفه ابنه يهوياكين الذي اضطر إلى الاستسلام فسبى "نبوخذ نصر" كل يهود أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس وعشرة آلاف صبي وجميع الصناع والأقيان، لم يُبقَ أحداً إلا مساكين شعب الأرض، كما سبى يهوياكين وأمه ونساء ورجاله من أورشليم إلى بابل، وأخرج نبوخذ نصر جميع خزائن أورشليم وخزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب¹، ثم عَيَّنَ صدقياً عم يهوياكين الذي أكَّدَ ولاءه للملك الفاتح خلفاً لليهوياكين .

ج-السي البابلي الثاني سنة 586 ق.م²:

وقع هذا السبي على اثر نقض صدقيا لعهد الولاء إلى نبوخذ نصر إذ دخل في حوالي سنة 589 ق.م في تحالف مع المدن السورية والفلسطينية بتحريض من حوفا ملك مصر، الذي كان يطمح أن يستعيد سيطرة مصر على سورية، وهكذا فقد وضع صدقيا مصيره في مصر وحلفائها فغضب نبوخذ نصر غضباً شديداً، وجاء هذه المرة بنفسه على رأس حملة قوية إلى سورية الشمالية وعسكر في "ربلة" على نهر العاصي، وكان ذلك سنة 587 ق.م، وأرسل الملك نبوخذ نصر من حاصر أورشليم، إلا أن دخول حوفا ملك مصر إلى فلسطين اضطر البابليين إلى رفع الحصار لمحاربتهم، فظنَّ اليهود أن النصر بات حليفهم، لكن البابليين استطاعوا صد المصريين وإرجاعهم على أعقابهم ثم أعادوا بسط الحصار على أورشليم في الحال، ولم يمض وقت طويل حتى تفشت الجحاعة وربما الوباء في المدينة مما اضطر اليهود أن يرضخوا ويستسلموا، فدخلت الجيوش البابلية المدينة في اليوم الرابع من شهر تموز سنة 586 ق.م³، أما صدقيا فهرب هو وأفراد عائلته، ولكن البابليين لحقوا به في سهول أريحا حيث قبضوا عليه وحملوه إلى "ربله" حيث مقر معسكر الملك نبوخذ نصر، وهناك ذبح أولاده أمام عينيه، ثم فقئت عيناه وأُخذ مكبلاً مع الأسرى إلى بابل، أما أورشليم فخربت ودمرت تدميراً كاملاً فأُحرق (بيت الرب) وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء وسلبت

¹ مصطفى عبد العليم وسيد راشد: المرجع السابق، ص 145-146.

² يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ط1، مطبعة الفرات، بغداد، 1924م، ص52.

³ ول وايرل ديورانت: المصدر السابق، ج2، م1، ص358.

الخزائن ونقلت إلى بابل، وقد خمن عدد الأسرى الذين سيقوا إلى بابل ليلتحقوا باليهود من السبي الأول بحوالي 50.000 نسمة¹.

2- اليهود في بابل في زمن الكلدانيين (612-539 ق.م):

اعتقد الباحثون أن اليهود المسيبين إلى بابل كانوا يحيون في الأسر حياة ضيق وتعاسة تحت كابوس مظالم الكلدانيين وتعسفهم، ومصدر هذه المزاعم هو بعض الكتابات اليهودية التي كانت ترمي من وراء ذلك بث هذه المزاعم لاستدراار العطف على اليهود المسيبين الذين أُبعدوا عن ديارهم في فلسطين، وهذه المزاعم لا تستند إلى البراهين والأدلة؛ لأن أكثر المصادر التاريخية الموثوقة، ومن ضمنها مصادر يهودية تعترف بما روته المصادر الكلدانية، وهو: أن نبوخذ نصر سمح للأسرى أن يصحبوا عائلاتهم وينقلوا معهم ممتلكاتهم ومواشيهم، وتؤكد هذه المصادر أن نبوخذ نصر وهب اليهود بعد نقلهم إلى بابل أخصب مقاطعاته وأسكنهم فيها مثل منطقة "نفر" (نيبور) التي كانت تُعد من أغنى مقاطعات بابل، ومنحهم كذلك أوسع الحريات في العمل وممارسة طقوسهم الدينية، وكانت السلطات الحاكمة تعاملهم على أحسن وجه. ولقد استفاد اليهود كثيراً من الامتيازات التي منحهم إياها الكلدان²، فأصبح في صفوفهم الكثير ممن تمرسوا على أساليب الحكم والسياسة ومن أتقنوا الحرف والصناعات المختلفة، وعظم شأنهم بين البابليين "وتعترف المصادر اليهودية بأن اليهود في بابل أصبحوا في غضون مدة وجيزة أغنى أهل بابل، فبعضهم امتلك الأراضي الزراعية والبعض الآخر كان يزرع بالفعل على الأراضي التي أقطعت لهم، وقد حفروا شبكة من جداول الري والقنوات لإيصال المياه السحيحة إلى مزارعهم³، وأنشؤوا الحقول والبساتين ووجهوا عنايتهم لوقايتها من الغرق، فأقاموا السدود ونظموا أعمال الري على أحسن وجه، وقد اعتنوا عناية خاصة بتطهير الجداول والمنازل من الراسبات الغرينية، بحيث تحوّلت هذه المنطقة إلى حقول مثمرة، وكان يعمل بعضهم في حقل التجارة، ويرى البعض أنه لولا أنبياء المهجر الذين كانوا لا ينفكون عن تنبيه اليهود إلى أخطار الانصهار وحثهم على ضرورة التفكير في العودة إلى يهوذا لانصهر اليهود في الشعب الكلداني انصهاراً تاماً بسبب ما توافر لهم من رغد العيش والأمن والاستقرار⁴.

¹ كامل سعفران: المرجع السابق، ص 19.

² يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 57.

³ أحمد سوسة: ملامح من التاريخ اليهودي القديم، ص 28.

⁴ يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 58.

3- يهود العراق في زمن الفرس الأخمينيين (539-331 ق.م):

استفاد اليهود في أثناء وجودهم في بابل من حضارة البابليين وثقافتهم فاقتبسوا الكثير منها، وخاصة ما يتعلق بفنون الزراعة والري، وفي بابل مارسوا شعائرهم الدينية وواصل كهنتهم أعمالهم الدينية، وهناك من يرى أن الكنيس اليهودي كتجمع تعبدية هو من آثار المنفى، وعن هذه التجمعات نشأت الكنيس كمؤسسات دينية، ثم استمرت إلى ما بعد العودة وبناء الهيكل من جديد؛ لأنها وجدت أنها تؤدّي خدمة لا غنى لليهود عنها¹. ولما فتح كورش الأخميني الفارسي بلاد بابل (539-538 ق.م) سار في فتوحاته حتى احتل سورية وفلسطين ومن ضمنها أورشليم، فسمح لمن أراد من أسرى نبوخذ نصر الرجوع إلى فلسطين، وأعاد إليهم كنوز الهيكل التي كان قد سلبها نبوخذ نصر، وأمر بإعادة بناء الهيكل في أورشليم على نفقة بيت الملك فعاد فريق منهم بقيادة زوربايل بن شلائيل بن يهوياكين ملك يهوذا الأخير².

4- يهود العراق في زمن الإغريق (331-139 ق.م):

تبدأ هذه الحقبة منذ بداية حملة الإسكندر المقدوني (356-323 ق.م) على بلاد الشرق سنة 334 ق.م، فكان الإسكندر يرمي من حملته هذه تأسيس إمبراطورية واسعة تضم الغرب والشرق بلا حدود تفصلها، تخضع سياسياً واقتصادياً وثقافياً للنفوذ الإغريقي، وذلك بتأسيس مستوطنات إغريقية في مختلف أنحاء هذه الإمبراطورية، وإنشاء قواعد عسكرية على طول خطوط المواصلات مع إقامة مراكز ثقافية تتولى نشر الثقافة اليونانية بما في ذلك اللغة اليونانية، وقد قام الإسكندر بذلك فعلاً بعد احتلاله للشرق، فأسس سبعين مدينة يونانية جديدة بأسماء يونانية، ومع أن حلمه لم يتحقق بالشكل الذي أراد؛ لأنه لم يطل بقاؤه في البلاد، فقد سلك خلفاؤه الطريق نفسه لتطبيق منهجه في نشر الثقافة اليونانية، والدليل على رسوخها أن رسالة المسيح أذيعت بعد ثلاثة قرون باللغة اليونانية على العالم المتمدن، ولم يستثن من هذا النفوذ الشعب اليهودي ولغته³، وقد كانت حصّة يهود فلسطين كبيرة من هذه الحركة، إذ دمر الملك أنطيوخس الرابع (175-164 ق.م) الهيكل في أورشليم وأجبر اليهود على ترك ديانتهم⁴، في حين كانت حصّة يهود بابل وبين النهرين فكانت أقل وطأة. وقد ذكرت بعض المصادر أن الملك أنطيوخس الثالث الملقب بالكبير (323-187 ق.م) نقل من بابل وبين النهرين ألفي أسرة يهودية مع أجهزتها الحربية إلى ليديا وفريجيا في آسيا الصغرى لتأسيس حامية منهم هناك موالية لحكم السلوقيين.

¹ مصطفى عبد العليم وسيد راشد: المرجع السابق، ص 170.

² أحمد سوسة: أبحاث في اليهودية والصهيونية، ب ط، دار الأمل للنشر والتوزيع، اربد الأردن، 2003م، ص 28.

³ يوسف رزق الله غنيم: نزعة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 91.

⁴ أحمد سوسة: أبحاث في اليهودية والصهيونية، ص 28.

5- يهود العراق في عهد الفرثيين (126ق.م-226م):

في عهد الفرس الفرثيين تقدمت المؤسسة الدينية والثقافية اليهودية بالعراق أكثر فأكثر، وخطى اليهود في ظل تسامح عام مع تقاليدهم، حيث حظي اليهود واقعيًا باستقلال ذاتي في شؤونهم العائلية والدينية وأحوالهم الشخصية، ودونوا التلموذ البابلي¹، وأسسوا معاهد علمية ودينية مهمة أبرزها أكاديمية نهر دعا ثم أكاديمية سورا وأكاديمية بومبيدوثا الشهيرتان².

6- يهود العراق في عهد الساسانيين (226-642م):

تعرض اليهود في بداية حكم الساسانيين للقتل والتضييق والتنكيل خاصة في زمن مؤسس الدولة الساسانية الملك اردشير الذي لم يكن رحيماً باليهود مطلقاً وكان عدواً لدوداً لهم، بل أنه ضيق عليهم الخناق وأمر باضطهادهم وسمح للمجوس بتعذيبهم والتنكيل بهم لأنهم قد ساعدوا الفرثيين في حروبهم مع اردشير، ولكن الغريب في الأمر أن القصص التي تذكر عنهم تتشابه وتخلص الى ذات النتيجة، وتبدأ في اضطهاد اليهود وتعذيبهم، ثم سرعان ما يتمكن اليهود من استرضاء ود الملك وحاشيته ويصبحون من المقربين اليه.

وتذكر المصادر التاريخية بأن أسباب موقف الساسانيين المعادي لليهود في بدايات حكمهم هي وقوفهم لجانب الفرثيين في صراعهم مع أردشير، وتهربهم من دفع الضرائب في كل مرة، إضافة الى ذلك هو أن الديانة الزرداشتية كانت هي السائدة في العهد الساساني حيث اتحد الملوك مع رجال الدين ثم قاموا باضطهاد كل المخالفين لديانتهم ومنهم اليهود.

إلا أن ذلك الوضع سرعان ما تغير، وتمكن اليهود من ارضاء ملوكهم وخطب ودهم، ونالوا الواجهة من حكام البلاد، وتقربوا من السلالة المالكة، وكانت حالتهم متقلبة في زمن الساسانيين بين راحة وقلق اضطهاد وحرية، عسر ورخاء حسب الملوك ونظرتهم للطائفة اليهودية.

ثانياً- تاريخ يهود العراق بعد الفتح الاسلامي:

1- تاريخ اليهود في صدر الاسلام:

تواجد اليهود في بلاد العرب منذ القدم في اليمن والجزيرة العربية من قبل الاسلام كيهود خيبر وبنو قريظة وبنو النضير وغيرهم، وبالتالي فإن العلاقة بين العرب واليهود في تلك الحقبة كانت علاقة وثيقة بحكم التعايش والاختلاط مع بعضهم البعض فكانت بينهم علاقات تجارية قوية³، وحتى بعد البعثة النبوية

¹ يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 93.

² أحمد سوسة: ملامح من التاريخ اليهودي القديم، ص 187.

³ ابن خلدون: المصدر السابق، ج 1، ص 348.

أكدت تعاليم الإسلام على حرية العقيدة فالنبي محمد ﷺ لم يفرض على اليهود الدخول في الإسلام عنوة¹، مقابل ذلك نظم العلاقة معهم وفرض عليهم دفع الجزية قال النبي ﷺ « انما العثور على اليهود والنصارى، وليس على المسلمين عثور » والعثور هي الجزية². وعليه دخل عدد كبير من اليهود في الإسلام منهم الحبر والعالم مخيريق اليهودي من بني النضير، الذي آمن برسول الله ﷺ، وجعل ماله له فجعلها رسول الله ﷺ بدوره صدقة³.

وفي العهد الراشدي وبسبب مواقفهم ونقضهم للعهود والمواثيق مع الرسول محمد ﷺ اتخذ الخلفاء الراشدون موقفا متحفزا منهم خاصة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذ قال « لا تستعملوا اليهود والنصارى فانهم اهل ربا في دينهم، ولا يحل في دين الله الربا »⁴، مصداقا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾⁵، لكن هذا لا يعني أن الخليفة عمر بن الخطاب قد أساء معاملة اليهود والدليل ما رواه ابن سلام حيث قال « تواتر أن عمر بن الخطاب مر على باب قوم وعليه سائل يسأل، شيخ كبير ضرير البصر فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت ؟ قال: يهودي، قال: فما ألبأك إلى ما أرى ؟ فرد اليهودي: أسأل الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب إلى منزله، فرضخ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، فقال: أنظر هذا وضربائه، فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ! واستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾⁶، ثم قال: والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع الجزية عنه وعن ضربائه »⁷.

¹ ابن جرير الطبري: تفسير الطبري، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994م، ج1، ص 412.

² سلمان بن داود: سنن أبي داود، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، ط2، دار الفكر، بيروت، 2005م، ص 491.

³ أبو الحسن احمد البلاذري: فتوح البلدان، ب ط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م، ص31.

⁴ شهاب الدين بن محمد الابشهي: المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، ط1، دار القلم للطباعة، دمشق، ب ت، ص 133-134.

⁵ سورة المائدة، آية 54.

⁶ سورة التوبة، آية 60.

⁷ القاسم بن سلام أبو عبيد: الأموال، تحقيق محمد حامد الفقهي، ب ط، دار الطباعة، القاهرة، 1353هـ، ص 45.

إضافة إلى عدة أدلة ذكرها المؤرخون عن حسن العلاقة بين العرب واليهود منها مساعدة اليهود للمسلمين في حركة الفتوحات الإسلامية، مثلما نقلت المصادر منها أن فتح قيسارية¹ تم بمساهمة أحد اليهود الذي ورد في قول البلاذري: « وكان سبب فتحها أن يهوديا يقال له يوسف أتى المسلمين ليلا فدلهم على طريق في سرب فيه الماء إلى حقول الرجل على أن أمنوه وأهله »²، ويبدو أن اليهود في تلك المناطق قد استبشروا بالفتوحات الإسلامية لاسيما في أحرىات أيامه حيث كان الضعف قد تفشى في دولتهم.

ويعتبر يهود العراق منذ الفتح الإسلامي للبلاد جزءا من الدولة الإسلامية وما دأب عليه الرسول ﷺ وصحابته الخلفاء الراشدون من حسن معاملة لأهل الذمة عموما كان يسري عنهم³. وقد روي عن يهود العراق أنهم كانت لهم في ذلك الوقت مدرستان عبريتان خرج أساتذتهما ملافاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عندما زار العراق، فقطع لهم عهداً بأن يضمن لهم حرية العقيدة، وحسن المعاملة، ومنذ ذلك الحين لقب علماء تلك المدرستين "سورا وفومباديتا" بالغاوين، وأعفاهم من دفع الجزية⁴.

2- العهد الأموي:

الشيء نفسه يقال عن العصر الأموي فكان كثير ما يرجع اليهود إلى الخلفاء الأمويين لإنصافهم ورد حقوقهم ورفع الظلم عنهم، ومنهم الخليفة سليمان بن عبد الملك (96-99هـ/714-717م)، و أيضا الخليفة عمر عبد العزيز الذي أحسن معاملة اليهود، وكتب كتاب بذلك إلى عماله في الأمصار مما يدل على عدم تفرقه بين مسلم ويهودي أو نصراني ما دام يؤدي كل منهم واجباته، ويقف إلى جانب المسلمين فجاء في كتابه: « فمن اسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزية اليوم فخالط المسلمين في دارهم، وفارق داره التي كان بها، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه » لذلك قيل أن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنصف الذمي على المسلم واسترجع أرضه⁵.

¹ قيسارية: قرية فلسطينية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط بين حيفا ويافا (حاليا تقع داخل دولة الكيان الصهيوني) لعبت دورا كبيرا عبر التاريخ منذ أن بناها هيرودوس الكبير. انظر: يحيى الشامي: المرجع السابق، ص 104.

² البلاذري: فتوح البلدان، ص 192.

³ هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، ط1، دار القلم، دمشق، 2002م، ج1، ص 157.

⁴ غادة حمدي عبد السلام: اليهود في العراق (1856-1920م)، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2008م، ص 22.

⁵ أبو الفداء الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، ج9، ب ط، مكتبة المعارف، بيروت، 1990م، ص 23.

وروي عنه أيضا أنه كتب إلى زيد بن عبد الرحمن بن الخطاب عامله على الكوفة، الذي كان عنده فائض من الأموال في خزينته بعد أن وزع أعطيات وقال له عن الجزية: «... فاننا لا نريدهم لسنة ولا لستين»¹.

هذا، وقد مارس اليهود العديد من المهن في ظل الدولة الإسلامية في صدر الاسلام بكل حرية، فكان أكثرهم يمتهن الصباغة والصيرفة والدباغة، وعملوا أيضا في التجارة، وكانوا محبوبون البلاد الإسلامية من أقصاها الى أقصاها، دون قيد ودون خوف فيركبوا البحر من المغرب الى المشرق والعكس محملين بكل أنواع البضائع.

3- يهود العراق في عهد العباسيين :

عندما عمرت بغداد سنة 146هـ/763م على يد الخليفة أبو جعفر المنصور قدم إليها الناس من كل صقع وقطر للارتزاق والتجارة والأدب وبينهم المسلم والنصراني واليهودي والصابئ والسامري والمجوسي وغيرهم². وقد كانت أحوال يهود العراق في العهد العباسي في عمومها متقلبة وغير مستقرة، وكانت تتغير بتغير الحكام والسلاطين إذ لم تكن هناك قوانين محددة يتخذونها دستوراً للإدارة بل كانت إدارة سلطان الإقليم هي العامل الوحيد في تدبير شؤون البلاد³.

ف نجد أن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (136-158هـ) قد أحسن معاملة اليهود فكان عامل الموصل يهودي⁴، وقد اشتهر اليهود في هذا العهد في مجال الطب ومن أطباء يهود العراق (فراة شحناثا) خدام الحجاج بن يوسف الثقفي وعيسى بن موسى العباسي ولي العهد أيام المنصور، وكان يشاوره في كل أموره ويعجبه عقله، ومن المنجمين اليهود في خلافة المنصور وعاش إلى أيام المأمون، وهذا يعني أن الحكام العرب يستخدمون اليهود أطباء وجباة ماليين أو موظفي إدارة.

إلا إن أكثر الخلفاء العباسيين تساهلاً مع اليهود هما الخليفان هارون الرشيد والمأمون، حيث شهدت الدولة العباسية في عهديهما نخضة علمية وفكرية، مما فتح المجال أمام يهود العراق للمساهمة العلمية في معالجة مواضيع مختلفة في الرياضيات والطب والفلسفة والصرف واللغة العربية⁵.... الخ .

¹ أبو محمد بن عبد الله بن الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الامام مالك بن أنس وأصحابه، تحقيق أحمد عبيد، ط2، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ب ت، ص 79.

² يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص ص 103-104.

³ غادة حمدي عبد السلام: المرجع السابق، ص 29.

⁴ ابن جرير الطبري: تفسير الطبري، ج4، ص 171.

⁵ يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 110.

وتدهورت أوضاع اليهود من جديد أثناء الصراع الذي نشب بين الأخوين الأمين والمأمون ففي سنة 197هـ، حيث حاصر القادة طاهر وهرثمة وزهير بن المسيب الخليفة الأمين ببغداد، وكثر الخراب بالمدينة، وهدمت المنازل وأخذت أموال التجار ودام الاضطراب إلى سنة 198هـ، ونتيجة لذلك لحق اليهود من الأذى في هذه الفتن شيء كثير وتجرعوا الأمرين، كما أصابتهم انتكاسة أثناء خلافة المتوكل العباسي (234-247هـ) كالتى حدثت في خلافة عمر بن الخطاب حيث عزل جميع اليهود من الوظائف الإدارية، ولم يكتفِ المتوكل بذلك بل أصدر أوامره سنة 235هـ بأخذ أهل الذمة من اليهود والنصارى بلبس الطيالس العسلي والزنانير وركب السروج وتغيير القلائس لمن لبس قلنسوة، وتغيير زي النساء في أزهرن العسلية ليعرفن، وان دخلوا الحمام كان معهم جلاجل ليعرفوا، وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين، وكتب الى العمال في الآفاق بذلك¹.

وكذلك الحال في خلافة المتقي لله (329-333هـ)، حيث عين أبو عبد الله البريدي وزيراً سنة 330هـ فاستولى على بغداد وأخذ أصحابه في النهب والسلب، وغلت الأسعار وحبط أهل الذمة من اليهود والنصارى الذين قاسوا من إجراءات البريدي الطاغية وأتباعه².

أما في فترة خلافة المعتضد بالله (279-289هـ) فقد صارت بغداد مركزاً حيوياً للفكر اليهودي، فاشتهر من اليهود آنذاك سعديا بن يوسف الذي ذاع صيته وترقى إلى منصب الغاؤون بمدرسة سورا سنة 928م، وتبولى هذا المنصب دخلت المدرسة دوراً جديداً ازدهرت فيها العلوم، وقد خلف ابن يوسف مؤلفات أهمها ترجمته العربية للكتاب المقدس نقلاً عن العبرية.

وكان حال اليهود في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي على جانب عظيم من الحرية ورغد العيش، خاصة عندما قبض السلطان مسعود بن محمد ملكشاه على زمام الحكم في بغداد، بعد انتصاره في معركته ضد الخليفة العباسي المسترشد بالله (512-529هـ) وأسر سنة 527هـ، وبقي نفوذ السلطان ملكشاه في عهد الخليفين الراشد بن المسترشد والمقتفي بن المستظهر (530-555هـ)، وكان في هذا العهد سلطان الموصل اتابك عماد الدين زنكي، وأحسن كل من السلطانين إلى اليهود³.

¹ شهاب الدين الاشبيهي: المصدر السابق، ج1، ص133.

² أبي الحسن علي ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م، ص113.

³ يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص123.

4- أوضاع اليهود بعد سقوط بغداد:

انتهت الدولة العباسية بعد سقوط بغداد عام 1258م، وعاث التتار المغول عبثاً في العراق فقتلوا ونهبوا ودمروا، ولم يسلم اليهود من هذه الكارثة فنال المسلمون والمسيحيون وغيرهم إلا أن أوضاع اليهود تحسنت عندما نال أحدهم حظوة طيبة لدى التتار هو الطبيب سعد الدولة الذي أصبح مستشاراً للسلطان آراغون (1284-1291م)¹.

استطاع سعد الدولة أن يتقرب من السلطان حتى تمكن من كسب ثقته فاقتنع به ومكنه من العراق وعده من المخلصين لمصلحه وصار قوله الفصل فعين اخوته ولاية في بغداد والموصل، غير أنه ما لبث أن أساء إلى المسلمين، وقلص النفقات وأضر بمساجدهم وأوقفهم فتألموا منه وضاقوا ذرعاً من تعديه على مصالحهم، فثاروا عليه وكانت ردة فعله قمعهم بكل قسوة، فزادت كراهية الناس له وللإهود بصفة عامة، فلم يكتفوا بقتله بل ثاروا على كل الإهود فنهبوا أحيائهم ثلاثة أيام وقتلوا عدداً منهم .

وفي سنة (802هـ-1400م) احتل تيمور لنك العراق فهلكت قلوب سكانه وخاف الإهود بطشه و اجتمعوا في بغداد الا أن كثير منهم قتلوا مثلما قتل عدد كبير من المسلمين²، ويقال أن تيمور لنك قتل في تلك السنة نحو 10 آلاف يهودي في البصرة والموصل ودمر مدارسهم وانقطعت الرئاسة بينهم زمناً وتبددت الجماعة في المدن والأقاليم فغدت حالتهم مؤلمة³.

ونستنتج مما سبق أن الإهود عموماً ويهود العراق خصوصاً لم يجدوا الا السلام والتسامح منذ نشأة الدول الإسلامية باستثناء بعض الفترات وبعض الخلفاء، وتمتعوا بنفوذ كبير وحرية دينية واقتصادية، وكانت لهم إدارتهم المدنية، فالحاكم الإداري يمثل الإهود أمام الخليفة، كما كانت لهم محاكمهم الدينية الخاصة التي تبت في شؤونهم⁴.

¹ خلدون ناجي معروف: الأقلية اليهودية في العراق 1921-1952م، ط1، سلسلة دراسات فلسطينية-(7)، 1975م، ج1، ص 50.

² يوسف رزق الله غنيمه: نزعة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 150.

³ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 53.

⁴ غادة حمدي عبد السلام: المرجع السابق، ص 23.

المبحث الثالث- أوضاع يهود العراق واحصائياتهم ومواقع انتشارهم في العهد العثماني:

أولاً- أوضاعهم العامة:

يجمع أغلب المؤرخين أن عدد يهود العراق تناقص عددهم كثيراً بعد غزو المغول والتتار للعراق وساءت أحوالهم الأدبية والمادية ولم يبق لهم شأن في البلاد، لكن أوضاعهم تحسنت كثيراً في العهد العثماني وكان هنئاً مقارنة بنظرائهم في أوروبا¹، وهو ما أكدته بن يامين التطيلي² الذي زار العراق في القرن الخامس عشر وفضل حالهم على سائر يهود المشرق إذ ذكر أنهم يعيشون في رخاء، وأطراً في وصف أخلاقهم وآدابهم وضيافتهم، وقد بالغ كثيراً في ذلك وفي معرفتهم العالم حتى أفضى به غلوه إلى أن أنزلهم منزلة أعرق الشعوب الأوروبية في الحضارة .

بداية من عهد السلطان سليمان القانوني (1520-1566م) الذي وإن لم يغمرهم بإحسانه فإنه لم يلحق بهم أذى البتة لما عرف عنه من الرشيد والحكمة والتساهل والعدل، فقد أمر جيشه بعد فتح بغداد أن يخيموا في البرية في رضى الأعظمية وحذر الجنود من أن يتجاوزوا أسوار المدينة أو أن يؤذوا سكان المدينة بأذى³.

ولعل ما يؤكد هذا الوضع هو أن حال يهود العراق كان هنئاً على عهد السلطان سليمان الأول (1520-1566م) ما جاء عن حالة اليهود في الدولة العثمانية عموماً، حيث كتب في أواسط القرن الخامس عشر أحد اليهود المسمى اسحاق زرقاتي رسالة بعث بها إلى يهود ألمانيا والمجر دعاهم فيها إلى الهجرة إلى بلاد الأتراك، ووصف وصفاً حماسياً حال اليهود في موطنهم الجديد⁴. وما قال فيها الكاتب «إن بلاد الأتراك أرض لا يعوزكم فيها إلى شيء وإن شئتم وافتكم كل الأحوال وفق مرغوباتكم، فمنها تصلون إلى الأرض المقدسة سالمين، أو ليس الأفضل أن تسكنوا في حكم المسلمين من أن تسكنوا في حكم النصارى؟ فإنكم تتمكنون هنا من لبس أفخر الأقمشة... ويتمكن كل واحد هنا من الجلوس تحت كرمته وشجرة تينه. ومهما يكن الأمر فإنكم لا تجسرون على إلباس أولادكم في بلاد النصارية اللون الأحمر أو الأزرق إن لم يتعرضوا بهم إلى الضرب حتى يزرقوا أو تسلخ جلودهم حتى يصبغهم الدم»⁵.

¹ رفيق شاكر النشئه: السلطان عبد الحميد وفلسطين، ط5، القاهرة، 1990م، ص 26.

² بنيامين التطيلي: رحالة يهودي من الأندلس زار العراق في القرن الثاني عشر الميلادي، وألف كتاباً عن رحلته تلك تطرق فيه إلى أحوال وأوضاع اليهود هناك لكنه لم يخلو من الغلو في بعض ما ورد فيه حسب أغلب المؤرخين.

³ يعقوب يوسف كورية: يهود العراق تاريخهم وأحوالهم وهجرتهم، ط1، دار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1998م، ص 10.

⁴ يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 123.

⁵ رشيد خيون: الأديان والمذاهب بالعراق، ط1، مركز المسبار للدراسات والبحوث، دبي، 2016، ج1، ص 319.

بعث اسحق زرقاتي هذه الرسالة في عهد قامت فيه قيامة أوروبا على اليهود فطرد هؤلاء من اسبانيا، فوجدوا في بلاد الأتراك ملجأ فانصبت قوافل المهاجرين عليها انصبابا من كل أقطار أوروبا، فوجدوا فيها ميدانا واسعا لنشاطاتهم وحرية ممارسة عباداتهم، وكانت الدولة العثمانية ابان نهضتها في حاجة إلى أيد عاملة ورجال علم وفن فرحبت بهم ضيوفا ناعين فأكرمت وفادتهم، وأسندت إليهم الوظائف المختلفة في الدولة.

هذا، وقد كتب عدة رحالة أوروبيين زاروا بلاد العراق عن حال اليهود فيها من أمثال تكسيرا الذي زار العراق في مفتح القرن السابع عشر السائح تكسرا (1604-1605م) وقال عن يهود بغداد ما يأتي: «وهناك في بغداد من 200 إلى 300 بيت من يهود منهم 12 أو 15 بيتا يرقون أصلهم إلى الأسرى البابليين، وعدد من هذه الطائفة أغنياء لكن أغلبهم في فقر مدقع وجميعهم يسكنون محلة واحدة ولهم كنيس أو مصلى ويقومون بشعائر دينهم بكل حرية».

وبعد قليل ذكر في سياحته يهود عانة¹ وقال عنهم: «إن مائة وعشرين بيتا من سكانها يهود عرب وإن لم يكونوا أغنياء فإنهم يعيشون عيشا وسطا، ويراعي جانبهم أمير البلاد وموظفوه ولا بد من أن ذلك يكلفهم شيء حسب العادة ويملكون بيوتا وأراضي كما يملك العرب الذين يؤلفون بقية سكانها»².

هذا، وقد تمتعت الأقليات عموما في الدولة العثمانية على مر تاريخها بعيش يكفل لها حرية المعتقد حتى أن الإصلاحات العثمانية التي بدأت منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر والتي سنأتي على ذكرها لاحقا زادت في تحسين وضعيتهم فتمكنوا من تنظيم أنفسهم ومجتمعهم، وشاركوا وتفاعلوا مع المجتمع العثماني فأثروا فيه وتأثروا به³.

وجدير بالذكر أن بعض هؤلاء الرحالة قد خالفوا هذا الرأي عن حال يهود العراق كروسو الذي كتب عنهم في أوائل القرن التاسع عشر ما يلي اذ قال: «.... والأتراك يحتقروهم ويغضونهم في آن وحالتهم السياسية والعمرانية منحطة كل الانحطاط ومع هذا كله فانهم كانوا يتوصلون إلى دخول السراي ودار المكوس وبيوت الوجهاء حيث يجدون من يستخدمهم في خدم المختلفة،....».

ويمكن التعليق عن رأيه أن تناقضا صارخا في كلامه فكيف يحتقروهم ويسمح لهم بالدخول الى كل الأماكن حتى السراي؟ ما يؤكد أن رأيه لا يخلو من الذاتية والإجحاف والتجني على المجتمع الاسلامي عموما اذ لم يؤيده أي أحد في رأيه .

¹ عانة: مدينة عراقية في محافظة الأنبار تقع على ضفة نهر الفرات وتبعد نحو 212 كيلومترا غرب مدينة الرمادي.

² يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 157.

³ هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، ط1، ج1، ص 157.

وقد علق يوسف رزق الله غنيمة عن هذا الرأي فقال: « لم ينصف روسو اليهود بما كتبه بل أن فيه شيئاً من الإجحاف وربما كان هذا الإجحاف من الإيجاز الذي توخاه في عباراته لأننا لا نجد سبباً لتعتمده هذه الغاية ولا سيما أننا نرى في كلامه حقائق أيدها غيره من الكتبة الأوروبيين الذين هبطوا هذه الديار»¹. كما استدلل عن عدم صحة هذا الرأي بآراء العديد من الأوروبيين الذين كتبوا عن أوضاع اليهود العراقيين، وواصل قائلاً: « فهذا هود السائح الانكليزي الذي زار العراق في سنة 1817م وصف حال يهود بغداد وصفاً مجملًا وتناول بحثه موضوعين من حياتهم في هذه البلدة الأولى منهما منزلتهم الاجتماعية ووافق ما كتبه روسو فيهم والثاني أعمالهم التجارية والاقتصادية وبرهنوا للملأ أن هذه الميزة التجارية تكاد تكون مسجلة لهذا الشعب العامل حيثما هبط². إلا أن معظم المغنم الذين يجنونه من الأعمال يتسرب إلى جيوب الولاة وكبار الموظفين ولذلك لم يحصلوا على ثروة طائلة يعتمد بها. وإن لم تكن منزلتهم الاجتماعية تسر الأصدقاء على ما جاء في كتاب روسو ورحلة هود إلا أنه لا يخلو تاريخهم من شواذ في هذا العصر إذ كان ينبغ بينهم رجال ينالون الكلمة الراجحة في البلاد. ولقد يستغرب القارئ من أن أحد اليهود بغداد كان سبباً لعزل الوزير سعيد باشا بن سليمان باشا من الولاية».

تعتبر الأدلة عن حسن أوضاع اليهود وعيشهم في العراق خاصة والدولة العثمانية عموماً كثيرة وعديدة منها ما قاله عنهم الرحالة تبيهر: « إن في الموصل 150 بيتاً من اليهود، ويكسب هؤلاء القوم معيشتهم في بلاد الأتراك بحرية تفوق الحرية التي لهم في أوربا»³. كما أن العراق احتضن جماعات يهودية كثيرة اضطهدت في مواطنها كيهود إيران الذين اضطهدوا ونكل بهم أشد التنكيل في العام 1663م، في عهد الشاه عباس الثاني (1632-1666م) الذي كان شاهاً لإيران حين ظهر رجل يهودي يدعى شباني شوه ادعى أنه المسيح المنتظر وبعث بإدعائه إلى كل يهود العالم ومن بينهم يهود إيران، فأثار ادعائه غضب الإيرانيين وفتحت باب الاضطهاد على اليهود قاسوا فيه الأمرين ودام ثلاث سنوات 1663-1666م. فمنهم من دان بالإسلام ومنهم من هاجر إلى الهند والصين وإلى بلاد الأتراك ومنهم من قتل، كما دفع هذا الاضطهاد جماعات من يهود إيران للهجرة إلى العراق إذ كان هذا القطر من أملاك السلطنة العثمانية ملاذاً آمناً لهم ومكاناً يستطيعون العيش فيه بأمان وأن يمارسوا عباداتهم ومعتقداتهم بحرية⁴.

¹ يوسف رزق الله غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 166.

² حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 281.

³ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 56.

⁴ يوسف رزق الله غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 162.

وقد علق ستيفن لونكريك في كتابه أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث عن حال يهود العراق قائلاً: «.. ان النصارى واليهود عاشوا في ظل نظام كان التساهل فيه يزيد على ما كان في الولايات الأخرى، لأن بغداد كانت عالمية الى حد أنها لا تشيع التعصب. وعلى ذلك ان هذه الطوائف ذوات الأقليات من السكان كانت تسلك سلوكاً حسن، كما كان الناس قد ألفوهم نظراً لطول اقامتهم ولعدم وجود ما يمنعهم من الاختلاط بالسكان.... الخ». ولعل هذه الشهادة من لونكريك تنصف المسلمين العراقيين في حسن معاملتهم لأهل الذمة ومنهم اليهود¹.

كذلك عهد المماليك الذي لم يختلف كثيراً عما سبق في أحوال يهود العراق فقد كانت جيدة خاصة في زمن الوالي داوود باشا (1817-1831م) بالرغم من حدوث بعض الأزمات المالية لبعض كبار التجار اليهود أمثال داوود ساسون بسبب مشكلة دفع الضرائب والذين انتقم منهم هذا الوالي شر انتقام². وعلى عهد مدحت باشا عاش يهود العراق عيشاً رغداً وذلك منذ العام 1869م، حيث بث بين المواطنين كافة روح العدالة والمساواة والحرية، وبذلك اتسعت الأعمال التجارية عندهم وتحسنت أحوالهم الاجتماعية. وتطورت محاكمهم الروحية وبدأت بانتخابات اللجان المشرفة على الشؤون الدينية وغير الدينية من ثقافة وصحة خاصة لجان تأسيس المستشفيات كمستشفى مير الياش.

ثانياً: احصائيات يهود العراق وتوزيعهم وحركتهم:

1- مواقع انتشارهم وهجراتهم داخل العراق وخارجه:

أ- هجراتهم الداخلية ومناطق تركزهم:

سبق وأن ذكرنا الجذور التاريخية لتركز اليهود الأوائل في المناطق الشمالية في العراق منذ عهد الآشوريين والبابليين، وكذلك تركزت الجماعات اليهودية القليلة القادمة من شبه الجزيرة العربية في الوسط وبعض المناطق الجنوبية³، لكن مع مرور الزمن أخذت الجماعات اليهودية في التغلغل داخل المناطق والمدن العراقية الداخلية كبغداد وضواحيها وأيضاً الجنوبية كالبصرة والمناطق المحيطة بها، وازدادت حركتهم نحو الجنوب في القرن التاسع عشر، وحوالي منتصف القرن التاسع عشر اذ كانت هناك جماعتان يهوديتان فقط في البصرة والحلة، وخلال سنوات انتشر اليهود في العمارة وقلعة صالح وعلي الغربي وغيرها⁴.

¹ ستيفن همنسلي لونكريك: المصدر السابق، ص 113.

² يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 11.

³ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 73.

⁴ مأمون كيوان: تاريخ اليهود في الشرق الأوسط، ص 28.

وكانت من أوائل المناطق التي قصدها فصائل من اليهود بعد تحركهم من الشمال مناطق الجنوب العراقي في أراضي المنتفق والبصرة والعمارة ثم تواصلت حركتهم تدريجياً باتجاه بغداد وبقيّة مناطق الوسط العراقي فنجد منهم من اتخذ كربلاء وتكريت والنجف والديوانية¹ محلاً لإقامته، ومركزاً لإدارة تجارته .

ويذكر أن اليهود غالباً ما كانوا يتجمعون في أحياء معينة تسمى الجيتو، لكن هذا لم يمنع تواجدهم خارج هذا الجيتو حسب ما تقتضيه الظروف، ونتيجة لذلك أصبح تجمعهم في محل خاص يطلق عليه اسم طائفتهم فمثلاً «سوق اليهود» و«عكد اليهود» و«حارة اليهود»²، وكثير من أمثال هذه التسميات منتشرة في البصرة وبغداد والموصل مركز المدن الكبيرة، وحتى الصغيرة منها ففي سامراء مثلاً كان هناك سوقاً يسمى سوق اليهود في العشرينات من القرن التاسع عشر.

هذا ويعد أكبر تجمع سكاني لليهود العراق في مدينة بغداد اذ شكلوا ثلث عدد السكان في المدينة مع بداية القرن العشرين، موزعين فيها من شمالها الى جنوبها من قصر شعشوع³ في الأعظمية حتى سدة حضوري في الكرادة، حيث أقامت الطبقات الشعبية في محلات سوق حنون، عكد الجنائز، محلة التوراة، بني سعيد، الشورجة، شارع غازي، ساحة الأمين وغيرها.

يذكر أن بعض العائلات اليهودية الثرية اتجهوا الى جنوب بغداد فاتخذوا أولاً من منطقة السنك مقراً لبعض تجمعاتهم السكانية، ومن أبرز تلك العائلات عائلة مناحيم دانيال وعائلة ابراهيم حاييم، وبعض كبار تجارهم مثل ابراهيم عدس، وبعدها توجهوا الى الباب الشرقي والكرادة والسعدون فشيّدوا على بعض القطع فيها قصوراً فخمة، ولعل قصر حضوري لاوي من أبرز تلك القصور⁴، والذي يقع الآن في مفرق الكرادة الشرقية حيث اتخذته السفارة الفرنسية مقراً لها فيما بعد⁵. والجدول التالي يوضح تركّزهم في بغداد منذ نهاية القرن الثامن عشر .

¹ الديوانية: مدينة عراقية تقع في الجنوب تبعد عن بغداد 180 كلم، ويمر بها فرع من نهر الفرات يسمى شط الديوانية.

² يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 11.

³ قصر شعشوع: يعتبر هذا القصر من أشهر القصور في العالم في تلك الفترة ويقع ببغداد، وصار من تراث بغداد والعراق عموماً ينسب الى مالكة اليهودي شعشوع أحد أشهر أثرياء العراق.

⁴ مأمون كيوان: المرجع السابق، ص 30.

⁵ يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 15.

جدول رقم 01: يبين تزايد عدد السكان اليهود في بغداد (1794-1908م)¹

السنة	عدد سكان بغداد	عدد السكان اليهود	النسبة المئوية
1794	80000	2500	3.3%
1830	80000	10000	12.5%
1877	70000	18000	25.7%
1893	145000	51000	35.8%
1908	150000	53000	35.3%

يتضح لنا من خلال الجدول تزايد عدد السكان اليهود في بغداد بشكل كبير منذ دخول القرن 19، فبعد أن كانوا 2500 ونسبة 3.3% عام وصلوا الى 53000 وما يزيد عن ثلث سكان بغداد .

ويذكر أن هذه الأرقام التي أوردها حنا بطاطو أقرب الى الحقيقة مقارنة بما جاء في سالنامة ولاية بغداد عام 1893م مثلاً لأنها تفتقد الى الدقة التامة حيث جاء فيها أن عددهم في بغداد لنفس السنة يقارب 13000 نسمة فقط، وهذا التفاوت يدل على غياب آلية تحدد بدقة أعداد السكان .

بالإضافة الى بغداد والبصرة فقد سكنت بعض العائلات اليهودية في الأماكن الاسلامية المقدسة عند الشيعة مثل كربلاء مدينة الحسين²، ومدينة النجف. ومن ناحية أخرى فقد تأقلم اليهود في أقصى الشمال العراقي مع سكان تلك المناطق منذ أقدم العصور ففي عقرة العمادية ودهوك كانت عائلات يهودية تعيش جنباً الى جنب مع بقية أفراد الشعب العراقي سواء من العنصر العربي أو الكردي المسلمين منهم أو المسيحيين، فقد انصهروا تماماً من حيث اللباس والعادات والتقاليد وغيرها كما توطدت علاقاتهم وصلاتهم بأشهر العائلات الكردية عن طريق المصاهرة .

هذا، وتؤكد أغلب المصادر والوثائق أن اليهود توزعوا في أغلب المناطق والمدن العراقية شمالاً وجنوباً غرباً وشرقاً مثلما يوضحه الجدول التالي اعتماداً على السالنامات العثمانية³ الصادرة اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين:

¹ حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 285.

² يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 184.

³ سالنامه: أصلها فارسي تتكون من مقطعين الأول (سال) تعني السنة والحول، و(نامة) تعني الكتاب والكتيب، والكلمتين معا تعني الكتاب السنوي، وسالنامه العثمانية تعني الكتاب السنوي الذي يحتوي على أهم المعلومات والاحصائيات وأوضاع البلاد وأسماء الموظفين والعسكريين... الخ. كانت في البداية تصدر عن مركز الدولة لكن أصبحت تصدر تقريبا عن كل الولايات التابعة للدولة العثمانية للمزيد أنظر: سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، ط1، مكتبة الملك فهد، الرياض، 2000م، ص 131.

جدول رقم 02: يبين توزيع السكان اليهود في بعض المدن العراقية

المدينة	1292هـ 1875م ¹	1310هـ 1892م ²	1313هـ 1895م ³	1317هـ 1899م ⁴	1318هـ 1900م ⁵	1321هـ 1903م ⁶
خانقين	137	246	395	399		413
عانة	121	118	147	208	222	222
الكوت		6	20	20		
الدليم	50		68	68	72	72
كربلاء			22		42	42
النجف			10	38		
الديوانية		37		38	38	38
منديلي	93	96	68	66	62	62
الهندية		262	156	168	163	163
الحلة		454	398	391	457	457
بعقوبة	90	305	122	140	143	143

وقد كان لحركة اليهود داخل العراق عوامل متعددة ومختلفة ساهمت في تحديد اتجاهها داخل مناطق

ومدن معينة بالعراق خاصة العاصمة بغداد وضواحيها ويمكننا تلخيص هذه العوامل فيما يلي:

- الحروب وعدم الاستقرار في منطقة كردستان خاصة بعد سقوط بغداد في أيدي المغول عام

1258م وما تلاها من فترات لم تعرف فيها المناطق العراقية الشمالية الاستقرار فمن غزو تيمورلنك الى

التناحر بين أسرتي القره قوينلو والأق قوينلو وصولاً الى الصراع الصفوي العثماني مع مطلع القرن السادس

عشر⁷، وهو ما دفع بكثير من اليهود الى هجرة داخلية باتجاه الجنوب وإعادة التمتع في العراق .

¹ س.و.ب، 1292هـ / 1875م، ص ص 128-129.

² س.و.ب، 1310هـ / 1892م، ص ص 205-211.

³ س.و.ب، 1313هـ / 1895م، ص 322.

⁴ س.و.ب، 1317هـ / 1899م، ص 302.

⁵ س.و.ب، 1318هـ / 1900م، ص 330.

⁶ س.و.ب، 1321هـ / 1903م، ص ص 263-270.

⁷ أحمد بن يوسف القرماني: المصدر السابق، ج 3، ص 55.

- البحث عن مصدر للرزق وتحسين المعيشة فالمعلوم أن المنطقة الشمالية للعراق ذات طبيعة جبلية وعرة مما جعل الزراعة فيها عملا جد متعب وشاق، وحتى المجالات الأخرى كالصناعة والتجارة شهدت تراجعاً كبيراً بسبب حالة عدم الاستقرار مما دفع بكثير من اليهود للهجرة بحثاً عن الرزق في مناطق ومدن عراقية أخرى خاصة بعد افتتاح قناة السويس .

- الازدهار التجاري الكبير الذي عرفته بعض المدن العراقية كبغداد وسامراء، وخاصة البصرة المطلة على الخليج العربي الذي لعب في هذه الفترة دوراً بارزاً في التجارة الدولية بين الشرق والغرب¹، التي عرفت نشاطاً غير مسبوق والمعروف عن اليهود عبر التاريخ براعتهم وحبهم للتجارة ما جعلهم يتحركون باتجاه تلك المناطق².

إضافة إلى ذلك فقد شهدت هذه المناطق نشاطاً صناعياً بالتوازي مع النشاط التجاري، ويمكن القول أن هذه العوامل مجتمعة دفعت اليهود لإعادة الانتشار في العراق فلم يعد وجودهم مقتصرًا على الشمال بل تغلغلوا وتوزعوا في معظم المدن الداخلية .

ب- هجرات اليهود خارج العراق في العهد العثماني:

شهدت العراق مع بداية القرن السادس عشر الميلادي هجرة لبعض اليهود باتجاه الشرق إلى الهند وهونغ كونغ وتبريز وسنغافورة وبعض البلدان الأخرى³، وكانت هذه الهجرة بدافع الكسب المادي على اعتبار الازدهار التجاري الكبير الذي عرفته هذه المناطق خاصة بعد إنشاء الشركات التجارية الأوروبية كشركة الهند الشرقية البريطانية، وشركة الهند الشرقية الفرنسية وغيرها كما عرفت تجارة الحرير رواجاً كبيراً وأصبحت تدر أموالاً طائلة على التجار مما جعل اليهود يهاجرون إلى هذه البلدان ويستقروا بها .

1- هجرة اليهود إلى الشرق الأقصى:

لقد هاجر كثير من يهود بغداد موطنهم خاصة في القرن الثامن عشر واتجهوا إلى الشرق الأقصى من أجل التجارة وتوزعوا في كلكتا وبومباي وراغوان وسنغافورة وهونغ كونغ، ونال بعضهم جنسيات أجنبية إنجليزية وفرنسية وقدموا خدمات للدولتين⁴.

وظل هؤلاء اليهود يعتبرون بغداد المركز الروحي والديني لهم على الرغم من أنهم أصبحوا مستقلين سياسياً واقتصادياً. وقد ساعدتهم ثرواتهم التي جمعوها على إعانة يهود العراق وغيرهم من يهود الشرق فأنشؤوا المدارس والمعابد والمؤسسات الخيرية. وتشير العديد من المصادر التاريخية إلى أن اليهود العراقيين سيطروا

¹ يوسف رزق الله غنيمه: تجارة العراق قديماً وحديثاً، ص 67.

² حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 282.

³ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 57.

⁴ مأمون كيوان: المرجع السابق، ص 24.

على القطاع التجاري الخاص في القرن التاسع عشر وخاصة في الهند، وكان قسم منهم يملكون مصانع في كلكتا وبومباي وسنغافورة وغيرهم¹.

(2)- هجرتهم داخل أراضي الدولة العثمانية وخاصة فلسطين المحتلة:

في العام 1517م خضعت فلسطين للحكم العثماني فهاجر إليها اليهود واستوطنوا في القدس وطبرية وصفد والخليل²، وهاجروا إليها مرة أخرى في القرن الثامن عشر، تحت حكم الظاهر عمر الذي منحهم الأمان، وطيلة الحكم العثماني لم يتخذ أي إجراء ضدهم أو ضد حقوقهم الدينية³. وقد رصد المؤرخون أن السلاطين العثمانيون عاملوا اليهود بكرم وتسامح، وعندما هاجر بعض اليهود العراقيين إلى أراضي فلسطين لم تقم الدولة العثمانية بأي رد فعل وتعاملت مع هذه الهجرة أنها حركة لرعاياه داخل أراضيها، ولم تكن هذه الهجرة كبيرة إلا أنها مهدت لهجرة اليهود في منتصف القرن الـ 20م.

2- احصائيات السكان اليهود في العهد العثماني:

أ- أعدادهم حسب الوثائق العثمانية:

تعتبر السالنامات الصادرة عن الولايات العراقية من أهم الوثائق التي اعتمد عليها الباحثون في جمع المعلومات حول تاريخ العراق في فترة الحكم العثماني إذ تعطينا الاحصائيات مقارنة للواقع حول أعداد الطوائف وعن توزيعها في المدن والمناطق العراقية وغيرها من المعلومات المهمة، لكن هناك مأخذ عن هذه الوثائق أهمها:

- صدرت السالنامات في آخر 43 سنة من فترة الحكم العثماني في العراق إذ بدأت أول سالنامة لولاية بغداد في العام 1292هـ / 1875م، وبالتالي لم يستفد منها الباحثون في أغلب فترات التواجد العثماني التي سبقت التاريخ المذكور.

- صدرت سالنامات الولايات العراقية في فترات متقطعة يعني لم تكن منتظمة بصفة سنوية، وعلى سبيل الذكر لا الحصر فقد صدر 21 عدد فقط عن ولاية بغداد في 32 سنة في الفترة الممتدة ما بين 1292 هـ / 1875م حتى 1325 هـ / 1907م، وكذلك الموصل والبصرة.

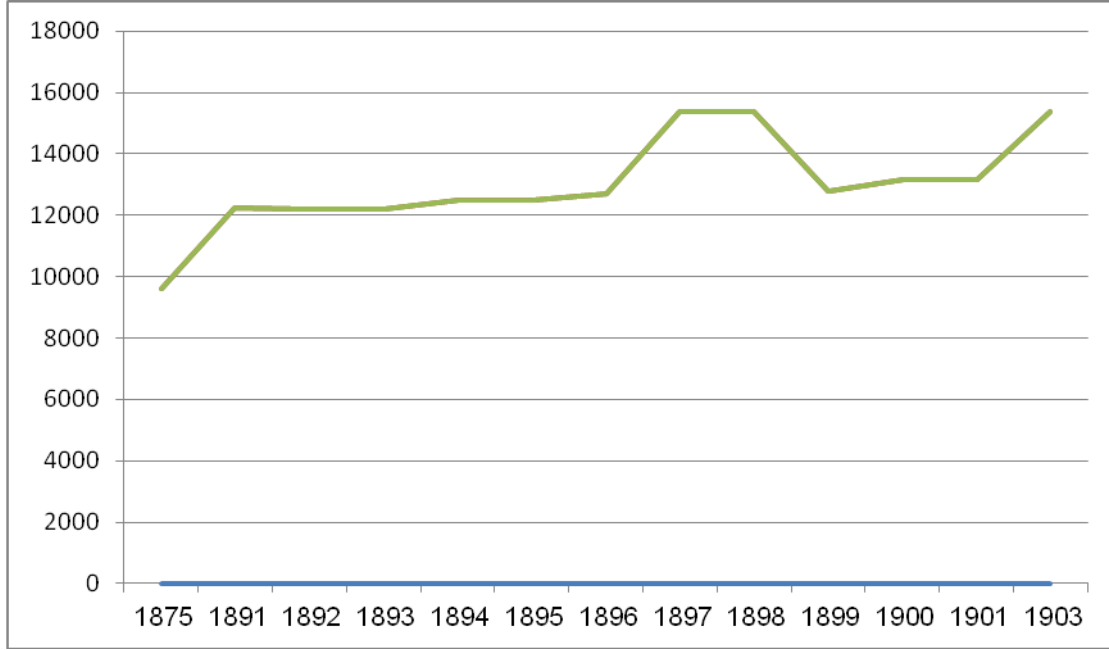
- اعتمدت احصائياتها حول عدد السكان غير المسلمين على دافعي الضرائب والبدل النقدية عن الخدمة العسكرية، وبسبب ذلك كانت تلك الطوائف تخفي الأعداد الحقيقية لأفرادها لأن ذلك يحتم عليها زيادة دفع الضرائب، وهذا يدل على أن الأرقام الواردة فيها تعتبر أقل من الواقع.

¹ عباس شبلاق: هجرة أو تهجير ملابسات وظروف هجرة يهود العراق، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2015م، ص 23.

² هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، ط1، ج1، ص 158.

³ رفيع شاكور النتشه: المرجع السابق، ص 31.

1)-عدهم في بغداد حسب سالنات الولاية: استقطبت مدينة بغداد العدد الأكبر من اليهود نظرا للمعاملة الحسنة التي حظيوا بها، والدليل أنهم لم يمنعوا من السكن في أي حي يشاءون، وكذلك تعدد الأنشطة الاقتصادية التي تدر أرباحا طائلة، فاستقر معظمهم في محلة التوراة التي أخذت في التوسع تدريجيا لتضم أغلب الأحياء المجاورة¹، وقد أصبحت بغداد مع نهاية القرن التاسع عشر المركز الرئيسي لليهود العراقيين، فقد جاءت احصائياتهم فيها حسب السالنامات العثمانية كالتالي:



الشكل رقم 01: منحني بياني يبين أعداد اليهود في بغداد من خلال السالنامات العثمانية²

من خلال المنحنى نلاحظ استقرار الأعداد نسبيا خلال فترة زمنية قاربت 30 عاما، مع صعود طفيف عامي 1897 و 1898م، ثم تراجع قبل أن يستقر عند 15000 نسمة تقريبا .

2)-احصائياتهم في الموصل وفق سالنات ولايتي بغداد والموصل: تعد من المدن التي استقر بها اليهود منذ القدم، وهذا ما يفسر توزيعهم في أقصيتها، وقد سكن اليهود في حي خاص بهم شمال المدينة عرف بحي اليهود، وكذلك سكنوا أغلب أفضية الولاية كمنطقة كردستان، وقد بلغ عددهم في الولاية عام

¹ غادة حمدي عبد السلام: المرجع السابق، ص 45.

² س.و.ب، 1292هـ / 1875م، ص ص 128-129. 1309هـ / 1891م، ص 214. 1310هـ / 1892م، ص 204. 1311هـ / 1893م، ص 221. 1312هـ / 1894م، ص 245. 1313هـ / 1895م، ص 320. 1313هـ / 1895م، ص 320. 1315هـ / 1897م، ص 190. 1317هـ / 1899م، ص 300. 1318هـ / 1900م، ص 328. 1319هـ / 1901م، ص 201. 1321هـ / 1903م، ص 181.

1875م 6846 نسمة، وفي الجدول التالي يتبين لنا عددهم وتوزعهم في الأقضية في أواخر القرن التاسع عشر:

جدول رقم 03: يوضح عدد اليهود وتوزيعهم في الموصل وأقضيتها (1892-1907م)

المدينة	1292هـ / 1875م ¹	1310هـ / 1892م ²	1312هـ / 1894م ³	1325هـ / 1907م ⁴
الموصل	911 نسمة	1303 نسمة	2388 نسمة	
عقرة	779 نسمة	459 نسمة	494 نسمة	314
دهوك	631 نسمة	238 نسمة	494 نسمة	
العمادية	516 نسمة	120 نسمة	221 نسمة	87
زاخو	436	1553	542	
تلعفر وسنجار	1	1		
كركوك	442	1084	1854	463
راوندوز	724	509		
كوسنجنق	215	163		
رانية		35		
صلاحية (كفري)	105	384		
أربيل	477	1056		
السليمانية	650	601	433	
كلعبر	250	129		
معمورية		39		
بازيان	13	13		
زيبار			76	

نلاحظ من خلال الجدول تذبذباً كبيراً في الأرقام صعوداً ونزولاً، وهذا يدل مثلما ذكرنا سلفاً على عدم دقة الأرقام الواردة في تلك الوثائق لأن مصدرها رؤساء الطوائف الذين يحاولون تقليل الأرقام بسبب الضرائب، والبدل العسكرية .

¹ س.و.ب، 1292هـ / 1875م، ص ص 128-1313.

² س.و.م، 1310هـ / 1892م، ص ص 330-333.

³ س.و.م، 1312هـ / 1894م، ص ص 276-289.

⁴ س.و.م، 1325هـ / 1907م، ص ص 176-212.

3)- إحصائياتهم في البصرة وفق سالنات ولايتي بغداد والبصرة: تعد البصرة وأقضيتهما أقل الولايات من حيث تواجد اليهود قبل النصف الثاني من القرن التاسع عشر لكن أعدادهم شهدت تزايداً كبيراً بالتوازي مع ازدياد الأنشطة الاقتصادية حتى مطلع القرن العشرين، وهو ما تؤكد الإحصائيات المتوفرة مثلما هو موضح في الجدول التالي:

جدول رقم 04: يمثل عدد السكان اليهود في مدينة البصرة (1875-1896م)

السنة	العدد
1292هـ / 1875م	97 نسمة ¹
1314هـ / 1896م	440 نسمة ²

لم ترد إحصائيات لليهود من مدينة البصرة وأقضيتهما في السالنات العثمانية سوى في الوثيقتين المذكورتين في الجدول، ويدلان يوضح عن قلة تواجد اليهود بالبصرة مقارنة ببغداد أو الموصل .

ب- إحصائياتهم حسب كتابات الرحالة الأوروبيين:

تعد كتابات الرحالة الذين زاروا بلاد العراق خلال العهد العثماني من أهم مصادر المعلومات حول تلك الحقبة خاصة الرحالة الأوروبيين الذين اهتموا بتدوين العديد من الأحداث والحكام والموظفين والإحصائيات هـ؟=جموعها، وحول تقديراتهم عن أعداد السكان اليهود في المدن العراقية فقد ذكر الرحالة الانكليزي ويلستيد الذي زار بغداد العام 1830م في أيام الوالي داود باشا الذي حكم بغداد ما بين سنة 1817-1831م أن في بغداد حوالي سبعة آلاف يهودي، ويضيف آخر أنه في مطلع القرن التاسع عشر قدر عددهم في بغداد حوالي (2500) أسرة يهودية³ .

وفي بغداد أيضاً قدر تكسيرا الذي ذكرناه سابقاً في بداية القرن السابع عشر عددهم فقال: « وهناك في بغداد من 200 إلى 300 بيت من يهود منهم 12 أو 15 بيتاً يرقون أصلهم إلى الأسرى الأولين، وعدد من هذه الطائفة أغنياء لكن أغلبهم في الفقر مدقع وجميعهم يسكنون محلة واحدة ولهم كنيس أو مصلى ويقومون بشعائر دينهم بكل حرية »⁴ .

إضافة الى ذلك فقد ذكر الرحالة بنيامين الثاني عام 1847م أن عددهم في مدينة بغداد بلغ ثلاثة آلاف بيت يهودي وتسعة من معابدهم، كما ذكر كونية أن عددهم عام 1890م كان 53000 نسمة، وذكر ألكسندر آدموف أن عددهم بلغ 40000 نسمة في بغداد عام 1901م

¹ س.و.ب، 1292هـ / 1875م، ص130.

² س.و.ب، 1314هـ / 1896م، ص163.

³ يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 16.

⁴ مأمون كيوان: المرجع السابق، ص 22.

أما عدد السكان اليهود في الموصل وأقضيتهما فقد ذكر الرحالة تبيهر: «إن في الموصل 150 بيتاً من اليهود، ويكسب هؤلاء القوم معيشتهم في بلاد الأتراك بحرية تفوق الحرية التي لهم في أوربا¹»، كما أورد بيكنغهام أن عددهم عام 1816م كان 300 عائلة²، وذكر دوفال أن عددهم عام 1889م بلغ 200 عائلة، وهو نفس الرقم الذي أورده بادجر لكن لعام 1849م. كما ذكر بنيامين الثاني أن اليهود في الموصل عام 1849م كان 450 عائلة .

أما البصرة وأقضيتهما فقد ذكر آداموف أن عددهم عام 1901م بلغ 5000 نسمة، كما ذكر بنيامين الثاني أن عددهم عام 1847م كان 50 عائلة، وذكر بيكنغهام أن يهود البصرة حوالي 100 عائلة عام 1816م .

ج- احصائيات رسمية وشبه رسمية:

هي احصائيات قامت بها هيئات مهمتها احصاء السكان ولذلك نعتقد أنها مقارنة للحقيقة حول عدد اليهود الحقيقي في العراق، ونذكر في هذا الصدد الاحصاء الذي قامت به لجنة مشاركة المدارس الاسرائيلية ونشرته جمعية الاتحاد الاسرائيلي عام 1910م حيث جاءت الأرقام أن بغداد وضواحيها يسكنها حوالي 62565 يهودي، ومدينة الموصل وأقضيتهما يتواجد بها حوالي 14835، أما البصرة وضواحيها فيقطنها حوالي 10088 يهودي³ .

أما الأرقام الثانية فقد كانت ابان حكومة الاحتلال التي قامت بإحصاء لسكان العراق عام 1920م ورغم أنها بعيد نهاية الحكم العثماني للعراق الا أنها قريبة جدا من عددهم في أواخر هذا العهد لذلك نذكرها، وقد أفادت الأرقام أن عدد اليهود بلغ 87488 نسمة موزعين على خمسة عشر مدينة عراقية أكبرها مدينة بغداد حيث كان يقطنها خمسون الف (50000) يهودي واقلها مدينة كربلاء حيث كان اليهود فيها لايتجاوزون المائة وستون (160) شخصا⁴، مقسمون كالتالي: في الديوانية 6000، الحلة 1065، الدليم 2600، ديالى 1689، البصرة 6928، الموصل 7635، أربيل 4800، العمارة 3000، السليمانية 1000، كركوك 1400، كوت الامارة 381، سامراء 300، المنتفق 160⁵ .

¹ جيمس بيكنغهام: رحلتي الى العراق 1816م، تعريب سليم طه التكريتي، ب ط، مطبعة أسعد، بغداد، 1968م، ج1، ص64.

² خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 56.

³ هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، ط1، ج1، ص 221.

⁴ مأمون كيوان: المرجع السابق، ص 31.

⁵ يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص184.

ثالثاً- تنظيم المجتمع اليهودي ومزاراتهم في العراق:

1-تنظيم المجتمع اليهودي داخل المجتمع العراقي:

حافظت الطائفة اليهودية على تنظيمها منذ القدم اذ لاجد فرقا كبيرا بين ما أورده بنيامين التطيلي في رحلته التي كانت في القرن الثالث عشر، وبين ما ذكره بنيامين الثاني في منتصف القرن التاسع عشر من حث تنظيم المجتمع اليهودي، ومما قاله بنيامين الثاني عن القضاء عندهم: «أن ثلاثة ربانيين قلدوا سلطة القضاء ويدعونهم (جانيم) رأس القضاة الرأب يعقوب بن يوسف يعقوب ومعه الرأب ايلياهو عوبديا والرأب عبد الله»، ورغم أن للمحكمة دور كبير في الأحوال الشخصية الا أنه لا يحق لها إنزال القصاص بأحد بل إنما ذلك من حقوق رئيس الحاخامين (حاخام باشي)¹، وهذا يعني أن دورها يقتصر على اقتراحه فقط، ويدل على مكانة رئيس الحاخامين داخل طائفته، واحترام اليهود لنظامهم الطائفي. ومن أبرز المناصب حسب الأهمية لدى الأقلية اليهودية في العراق نذكر:

أ-رئيس الحاخامين (حاخام باشي): يعينه الباب العالي مباشرة لهذا المنصب، ويمثل الجماعة أمام الحكومة، ويجمع لها الخراج (الجزية) من أبناء طائفته، ويعتبر ممثلاً لها أمام السلطة العثمانية، ومن أشهر الذين تولوا هذا المنصب في فترة الحكم العثماني نذكر عبد الله ابراهيم سوميخ الذي توفي في عام 1889م، والياهو عوبد المتوفي في العام 1875م، وأيضاً يعقوب مراد نوح وساسون خضروي حسيقل. ويساعد رئيس الحاخامين في إدارة شؤون الطائفة المجلس الملي² الذي يتألف من وجهاء الطائفة اليهودية³.

ب-الناسي: ويعتبر ثاني أكبر شخصية من الطائفة اليهودية بعد رئيس الحاخامين، وكان يتولى هذا المقام شخص ذا نفوذ عظيم على جماعته وحتى على غيرها من الجماعات وممن تولى هذا المنصب في العهد العثماني يوسف البرتغالي توفي 1579م، والرأب يوسف موسى روبين حتى العام 1849أو 1850م⁴.

¹ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 58.

² المجلس الملي: هو مجلس من عدة مجالس أسسها السلطان محمد الفاتح في اطار نظام كامل يسمى نظام الملل ويعني تصنيف الأقليات داخل الأراضي العثمانية على أساس المذهب الديني (الملة) الذي يدين به هؤلاء الرعايا، ولكل مجلس ملي رئيس يقوم بالنظر في المسائل الدينية ويحكم في قضايا الأحوال الشخصية وفق ملته دون تدخل الدولة العثمانية. أنظر: عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية مفتري عليها، ج1، ص 68.

³ يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 27.

⁴ يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 173.

وبشكل عام دأبت الطائفة اليهودية على تسيير شؤونها بنظام المجالس كل مجلس يشرف على مجال معين وكل هذه المجالس تكون تحت اشراف رئيس الطائفة¹ وأبرز تشكيلات هذا النظام كالتالي:

ج-تشكيلات الطائفة اليهودية:

- (1)-الرئيس الاعلى :- هو رئيس الطائفة ويمثل قمة الهرم وأعلى سلطة في الطائفة اليهودية.
- (2)-المجلس العمومي: يتألف من 60 عضوا من يهود بغداد و40 عضوا من المناطق الأخرى، مهمته الرئيسية انتخاب رئيس الطائفة كل أربع سنوات .
- (3)-المجلس الروحاني: مهمته تربية رجال الدين والاشراف على المسائل المذهبية والروحانية، ويتألف من (رئيس الحاخاميين، رئيس محكمة التميز الشرعي، أعضاء التميز الشرعي، أعضاء المحكمة الدينية، أعضاء احتياط) .
- (4)-المجلس الجسماني: مهمته الاشراف على التركات والعقارات الموقوفة لأغراض دينية والاشراف على المدارس والجمعيات الخيرية، والاشراف على حسابات المعاهد الدينية، إضافة إلى القسم الإداري الذي يشرف على المساعدة والتكفل بالمحتاجين والفقراء² .
- في الجمل فهو يشرف على كل اللجان التابعة لهذا المجلس، ويتألف من (الرئيس، نائب الرئيس، الأعضاء)، ونذكر أبرز اللجان الفرعية التابعة للمجلس الجسماني هي (-لجنة المدارس، لجنة الجمعيات الخيرية، لجنة المستشفيات، لجنة الأملاك...الخ)³.

2- المقدسات والأضرحة اليهودية ليهود العراق:

أ-مزارت داخل العراق: اعتاد يهود العراق وما يجاوره زيارة مراقد أنبيائهم وصلحاءهم وإحياء ذكراهم في أعيادهم وفي أوقات أخرى، والبعض من هذه المراقد لها قدسية لدى المسلمين أيضا وأهم هذه المقدسات هي:

- (1)-مرقد يوشع كوهين كادول: الواقع في الجانب الغربي من بغداد، ويعد من أئمة اليهود وصلحاءهم ويسمونه النبي يوشع أو ربن يوشع كوهين كادول. وهو بقرب مرقد الشيخ معروف الكرخي. كان يهود العراق يقصدونه للزيارة والتبرك⁴.

¹ مأمون كيوان: المرجع السابق، ص 31.

² مأمون كيوان: المرجع السابق، ص 32.

³ يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 22.

⁴ يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 203.

(7)-مرقد عزرا الكاتب أو العزير: يقع في قرية العزير في محافظة العمارة، على بُعد حوالي (100 كم) جنوب مدينة العمارة، وسمي على أسم عزرا الكاتب (كاتب التلموذ البابلي) المدفون فيه¹. وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في سورة التوبة قال تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ أَبْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ أَبْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْتَهُمْ اللَّهُ أَنْزَلَ يُؤَفِّكَونَ﴾².

كان يأتيه الكثير من اليهود للزيارة في كل سنة بالأخص في عيد الأسابيع. كما قصده اليهود للحج من كل الأنحاء ويتبركون به ويطعمون فيه الصلاة وأرتاده الكثير من المسلمين لإقامة الصلاة فيه وله عندهم حرمة كبيرة.

(8)-مرقد الشيخ اسحاق الغاوتي³: يقع في إحدى محلات الرصافة ببغداد، وهو عبارة عن كنيس يحوي بداخله مرقد أحد الرابانيين اليهود اسمه اسحاق الغاوتي، ويعود تاريخ هذا المرقد الى القرن السابع ميلادي⁴.

ب-المزارات القريبة من يهود العراق:

(1)-مرقد بنيامين ابن النبي يعقوب: يوجد على إحدى قمم الجبال القريبة من قصر شيرين، على الحدود العراقية-الإيرانية، ماوراء الحدود في الجانب الإيراني ويزوره أبناء القرى الذين ينتسبون إلى سبط بنيامين ويطعمون هناك صلوات وذبائح. فهم يوقرون بنيامين ويسمونه "ثمرة بنيامين" ويعني الجد بنيامين أو بنيامين المقدس.

(2)-مرقد الربى يهودا بن يتيرا: يقع في مدينة نصيبين، في تركيا حالياً. تردد يهود كردستان على زيارته في عيد الأسابيع، وقد ألف الرباني الكردي شموئيل بن شمعون مزراحي أغنية شعبية لتبجيله فكانوا ينشدونها في وقت زيارة القبر.

من خلال الاطلالة على تاريخ اليهود في العراق يتضح لنا أن اليهود تواجدوا في العراق منذ القرن الثامن ق.م، كما أن تاريخهم لم يستقر على حال وكانت أوضاعهم تخضع لطبيعة الحكام الذين تعاقبوا على حكم البلاد عبر التاريخ. وبدخول الاسلام الى العراق أصبحت هناك قواعد فرضتها الشريعة الاسلامية

¹ يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 189.

² سورة التوبة الآية: 30

³ اسحاق الغاوتي: يدعي عنه اليهود انه كان صيرفيا عند الامام علي بن أي طالب لكن لم يرد ذلك هذا عند أي من المؤرخين المسلمين ومثل هذا الخبر ما كانوا ليغفلوا عنه لو كان موجودا فعلا وهو ما يدحض الادعاء اليهودي.

⁴ يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 207. يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 63.

للتعامل مع أهل الذمة فصارت حقوقهم وممتلكاتهم محفوظة، وإن حدث لهم بعض الضيق فإن ذلك كان انعكاساً لتصرفاتهم ومؤامراتهم المغروسة في طبيعتهم .

كما أن أحوالهم في العهد العثماني سارت في تحسن ملحوظ أكدته أغلب المصادر التاريخية، وهو ما يفسر انتشارهم في أغلب المدن العراقية لاسيما بغداد مع إعطائهم حرية واستقلال في ممارسة عباداتهم وتسيير شؤونهم الداخلية من قبل السلاطين العثمانيين. وقد ساعدت هذه الظروف بل وفرت لهم مناخاً ملائماً للعب أدوار مهمة في المجتمع العراقي في هذه الفترة من تاريخ العراق .

المبحث الرابع - الدور السياسي للأقلية اليهودية في العراق:

رغم قلة عدد الطائفة اليهودية في العراق إلا أنها استطاعت أن تجد لها مكانا في سلم المجتمع العراقي خاصة في أواخر العهد العثماني، وذلك بفضل جهود نخبة من اليهود الذين اجتهدوا في مجالات عديدة خاصة في الاقتصاد والتعليم والثقافة وغيرها¹، ورغم أن اليهود في طبيعتهم عنصرية متوارثة ضد غيرهم كما عرف عنهم فساد الأخلاق، وهذا ما شهد عنه العديد من المؤرخين عبر مر التاريخ ولا سيما في العهد العثماني، إلا أنهم مثل كل الأقوام تجد من بينهم رجالا على قلتهم تميزوا بأدوار إيجابية عادت بالخير سواء على طائفتهم أو على المجتمع العراقي كله².

أولا - موقفهم من الوجود العثماني:

أكدت المصادر والكتابات التاريخية أن موقف يهود العراق من الفتح العثماني كان إيجابيا أي رحبت الطائفة اليهودية بهذا التواجد، وبغض النظر عما إن كان هذا الموقف عن قناعة منهم أو عن رغبة في التخلص من الأوضاع السائدة في تلك الفترة فإن يهود العراق كانوا مرحبين بالعثمانيين، ولعل موقفهم يرجع لعدة أسباب مختلفة منها ما يتعلق بما عاشته هذه الطائفة³، ومنها ما يتعلق بنظرتهم لمستقبلهم، ومن أهم هذه الأسباب هي :

1- فترة عدم الاستقرار الطويلة التي عاشها العراق ودامت حوالي ثلاث قرون أي منذ سقوط الدولة العباسية 1258م⁴ إلى غاية القرن السادس عشر، وكان العراق أرضا تتجاذبها الأطراف فمن الغزو المغولي إلى غزو تيمورلنك في بداية القرن الخامس عشر إلى النزاع بين أسرتي القره قوينلو والأق قوينلو⁵ فيما تبقى من هذا القرن، وقد كانت لهذه الفترة انعكاسات سلبية كبيرة على كل مكونات الشعب العراقي بما فيها الطائفة اليهودية، فكان الاستقرار هو الهدف المنشود والذي لا يمكن أن يتحقق إلا بتواجد دولة قوية كالدولة العثمانية التي بلغت أوج قوتها في القرن السادس عشر⁶.

¹ يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 81.

² رفيق شاكر النتشه: المرجع السابق، ص 26.

³ هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، ج 1، ص 162.

⁴ كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ط5، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1973م، ص 385.

⁵ الأق قوينلو والقره قوينلو: "قوينلو" تعني "الخروف" و"الأق" تعني "الأبيض" و"القره" تعني "الأسود" والكلمتين معا الأق قوينلو تعني الخروف الأبيض والقره قوينلو تعني الخروف الأسود نسبة إلى لون علم كلتا القبيلتين.

أنظر محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 18.

⁶ sykes, Op.Cit, vol 2, p. 244.

2- المعاملة السيئة التي لقيها اليهود من قبل الصفويين بعد استيلائهم على العراق في العام 1508م¹ حيث واجه اليهود التضييق والتنكيل والتعسف كغيرهم من سكان العراق المتمسكين بدينهم وعقيدتهم بسبب تعصب الصفويين للمذهب الشيعي الاثنا عشري خاصة في عهد الشاه عباس الأول² والشاه عباس الثاني.

3- احترام العثمانيين لكل الأقليات الدينية من أهل الكتاب، فعاش اليهود والنصارى وغيرهم من الأقليات جنبا الى جنب مع المسلمين في ظل التسامح الاسلامي، فمارسوا طقوسهم الدينية بكل حرية عكس ما حدث معهم ابان حكم الدولة الصفوية .

4- سيطرة العثمانيين على أغلب أراضي البلدان العربية ومنها مناطق الشام ومصر وفلسطين هذه الأخيرة كانت ولازالت لها رمزية كبيرة عند اليهود كونها أرض الميعاد التي دائما ما كان اليهود في كل أصقاع العالم يحملون بالعودة إليها³، وتحقيق الوعد الذي تتحدث عنه الكتابات اليهودية، ودخول فلسطين والعراق تحت سيطرة الدولة العثمانية يجعل التنقل والهجرة إليها من العراق أمرا يسيرا، عكس ما يكون عليه الحال لو كانت تتبع دولة أخرى .

ثانيا-علاقة السلطة العثمانية بالأقليات اليهودية:

من الجدير بالذكر الإشارة إلى أنه حتى نهاية القرن التاسع عشر لم يكابد النصارى واليهود وغيرهم أي اضطهاد من الدولة العثمانية، وقد عامل السلاطين العثمانيون اليهود بكل كرم وتسامح حتى قبل توسعها في القرن السادس عشر، فتذكر الكتابات التاريخية أن عهد الأمير اورخان بن عثمان (1326-1359م) سمح لليهود بإقامة خاصة، ومعبد خاص بهم في مدينة بورصة استمرت بممارسة نشاطهم حتى أربعينيات القرن الماضي، وفي عهد السلطان مراد الثاني (1421-1451م) منح اليهود حق تملك الأراضي حين تقدم إليه مجموعة من حاخامات اليهود في أوروبا بطلب للسماح لهم بالهجرة إلى الدولة العثمانية فسمح لهم دون قيد أو شرط ولقبه اليهود بالرجل الإنساني الكبير⁴ .

وفي عهد السلطان محمد الفاتح (1451-1481م) عندما فتح القسطنطينية 1453م رحب به اليهود وزادت امتيازاتهم، اذ فتح المجال للتواجد اليهودي في الدولة، وسمح لهم بالهجرة إلى مناطق سكوب

¹ Ghulam Sarwar, **Op.Cit**, p. 57.

² بديع محمد جمعة: الشاه عباس الكبير، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م، ص 109.

³ هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، ج1، ص 162.

⁴ نايف عبد نايف نجم الجبوري: موقف نصارى الشام من الاصلاحات العثمانية (1893-1914م) أطروحة دكتوراه غير منشورة، مقدمة لكلية الآداب، جامعة الموصل، 2007م، 265.

وسلانيك¹، وأسكنهم بحج خاص في استانبول اذ كان بحاجة إلى زيادة السكان في هذه المنطقة. ومنحهم امتيازات كإقامة المعابد وممارسة طقوسهم الدينية وسمح لهم بقراءة التوراة بشكل علني. أما السلطان بايزيد الثاني (1481-1512م) فقد شجع الوجود اليهودي في الدولة دون قيد أو شرط وأسكن قسماً منهم في سلانيك وقسماً آخر في جزيرة ساقيز. وكذلك السلطان سليم الأول (1512-1520م) عندما فتح مصر أقر لزعماء اليهود الدينيين كافة الصلاحيات وربطهم بالعاصمة استانبول، وأعطى لكل جماعة يهودية حق حكم نفسها تحت سلطة حاخامها المحلي².

هذا، ويذكر أن السلاطين العثمانيين تزوجوا من نساء غير مسلمات، وكان ولاء البعض منهن لأقوامهن، فمثلاً السلطان سليمان القانوني (1520-1566م) تزوج من فتاة يهودية أوكرانية تدعى روكسيلانة³ (حرم سلطان) التي كان لها نفوذ كبير في القصر السلطاني حيث تمكنت بنفوذها من قتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا وتنصيب صهرها رستم باشا بدلاً عنه، كما دبرت خنق ولي العهد مصطفى من زوجة سليمان الأولى من أجل تنصيب ابنها سليم الثاني ولياً للعهد بدلاً عنه، وأصبح سلطاناً في الفترة ما بين (1566-1574).

وعندما فتحت بودابست⁴ تم تخصيص سفن لنقل اليهود من ذوي الإمكانيات الضعيفة في بودين وبودابست وارجوت، وتم نقل حوالي ألف أسرة منهم إلى الدولة العثمانية، وكذلك فعل عندما فتح المجر⁵، ومنح السلطان سليم الثاني بعض اليهود ألقاباً جعلتهم يتمتعون بمكانة عالية في بلاطه ومنهم إبراهيم كاسترو وزير المالية في عهده عام 1553م، ولليهودية نوريانو زوجة السلطان سليم الثاني ووالدة مراد الثالث دور كبير في فسح المجال للتغلغل اليهودي في القصر السلطاني⁶.

كما تخبرنا الروايات التاريخية عن معاملة السلطان مراد الرابع الحسنة لليهود اذ لم يمسهم بأذى وسمح لهم بممارسة كل طقوسهم، واستعان ببعضهم لبعض المهام. كما أن اليهود استفادوا من ظروف أحاطت بالدولة العثمانية داخلياً وخارجياً صبت في مصلحتهم، خاصة في عهد هؤلاء السلاطين.

¹ سيلانيك: مدينة من أهم وأكبر المدن اليونانية حالياً، اذ كانت تتبع الدولة العثمانية آنذاك.

² هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، ج1، ص 164.

³ روكسيلانة: في بعض المصادر والمراجع الأخرى تذكر على أنها نصرانية.

⁴ بودابست: عاصمة المجر حالياً ومن أكبر المدن في البلاد.

⁵ هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، ج1، ص 166.

⁶ أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، ط1، دار الفكر، بيروت، 1997م، ص 35.

هذا، ويمكن القول أن الأقليات اليهودية احتفظت بأحققتها الدينية في الدولة العثمانية، فعاشت مع المسلمين جنباً إلى جنب في ظل التسامح الإسلامي. ويمكن القول أن السلطان العثماني أضحى الرئيس الديني لجميع الرعايا المسلمين وغير المسلمين، وكان رجال الدين من الطوائف الأخرى يمثلون الأقليات الدينية أمام الحكومة وكانت مدارسهم تتمتع بالاستقلال الثقافي، وقضاياهم ينظر فيها أمام المحاكم وفق شرائعهم¹.

ورغم ذلك تمكنت الدولة من استثمارها وإدارتها بشكل جيد، فاحدى الاستراتيجيات التي تبنتها الدولة العثمانية في إدارة مؤسساتها هي الاعتراف بالولاءات لكل جماعة والقبول بخصوصيتها العرقية والمرجعية والحقوقية، فلم تتبنى الدولة أي ممارسة قهرية أو عنصرية لصهر هذا التمايز أو الغائه، وكان هذا ملمحاً واضحاً في جميع الأقاليم العثمانية لاسيما النصرانية منها، وقد ساعد ذلك على بناء الهويات الاثنية والعرقية في الدولة العثمانية، فكان ينظر إلى المواطنين في جميع الأقاليم على أنهم رعايا السلطان².

ثالثاً- العوامل المساعدة على توسيع دور ونفوذ اليهود في الدولة:

1- **انفتاح المؤسسات العثمانية:** يعتبر القرن التاسع عشر أفضل الفترات بالنسبة لكل يهود الدولة العثمانية، ومنهم يهود العراق من حيث الحقوق والامتيازات التي نالوها، لكن هذا لا يعني أن حقوقهم كانت مهضومة قبل ذلك حيث كانت المؤسسات العثمانية مفتوحة لكل مواطني الدولة بغض النظر عن المعايير العرقية أو القومية أو الاثنية، لكن هناك شروط الانضمام إلى المؤسسات يجب أن تتوفر في الشخص الذي ينضم إليها مهما كان وهي:

- قبول الدين الإسلامي عقيدة وممارسة بلا فصل بينهما، وهذا مستلهما من الدين الإسلامي الذي يشترط العدالة في الولاية العامة والخاصة- أن يكون موالياً للدولة والسلطان- أن يكون عالماً وممارساً لنظام العادات واللغة والسلوك التي تمثل نمط الحياة العثمانية³.

ويبدو مما تقدم من الشروط التي وضعتها الدولة العثمانية للانضمام إلى مؤسساتها أن يكون معيار الولاء للدولة والسلطان أساس الالتحاق بمؤسسات الدولة، ويبدو أن هذا الهامش الكبير من الحرية والعدالة سمح للكثير من المنتسبين للأقليات الدينية من شغل مناصب عليا في الدولة خصوصاً اليهود والنصارى، فلم يتخذ أي إجراء ضدهم أو ضد حقوقهم الدينية⁴.

¹ رفيق شاكراً النتشه: المرجع السابق، ص 31.

² هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، ج 1، ص 160.

³ Stanford Shaw and Ezel Kural Shaw, **History of Ottoman Empire and Modern Turkey**, vol1, New York, 1978, p13.

⁴ رفيق شاكراً النتشه: المرجع السابق، ص 31.

2- الإصلاحات العثمانية:

بدأت الإصلاحات في وقت مبكر من حياة الدولة لكن في عهد السلطان سليم الثالث (1789-1807م) شكلت الإصلاحات نقلة نوعية اذ مثلت بداية من نوع جديد في التاريخ العثماني لاعتمادها على النموذج الأوروبي في التحديث¹، وتواصلت خلال حكم السلطان محمود الثاني الذي أصدر في عام 1836م مرسومين خاصين بمعاملة أهل الذمة وهم اليهود والنصارى: الأول: تبعا لأصول الشريعة الإسلامية صدر تصريح يقضي بالمساواة في الحرية الدينية لكل مواطني الدولة العثمانية الذين يتبعون الديانات الثلاث.

أما الثاني: جاء فيه ولكي تستطيع كل جماعة دينية أن تمارس في حرية كاملة تعاليم دينها دون تدخل، نصح بأن لكل مواطن أن يعبد الله تبعا لأوامر دينه، والا يجبر أي شخص على ترك دينه ومعتقد². لكن يمكن القول أن هذه الإصلاحات بلغت ذروتها في عهد السلطان عبد المجيد (1839-1861م) الذي ارتبط عهده بصدر خطي شريف كلخانة 1839م، والخط الهمايوني 1856م³، وهي أشهر الإصلاحات في تاريخ الدولة العثمانية، ويمكن تمييز مرحلتين من تلك الإصلاحات هي:

أ- المرحلة الأولى: التنظيمات العثمانية الخيرية المعروفة بخط شريف كلخانة أعلنها السلطان عبد المجيد في عام 1255هـ/1839م والقاضية بتغيير مؤسسات الدولة بشكل جوهري، وعدم التمييز بين المواطنين في الحقوق والواجبات على أساس مذهبي أو قومي، كما أكد على حرية ممارسة الشعائر الدينية لجميع الأديان⁴. وفي هذا المرسوم نلمس التغيير الذي طرأ على سياسة الدولة العثمانية التي اعترفت بأنها في مرحلة ضعف ووهن، ورضخت الى الضغوط الأوروبية، واعتقدت أن بمثل هذه الإجراءات يمكن أن تعيد للدولة قوتها وصيانة حقوق رعاياها برفع المعاناة عنهم في مختلف الميادين.

ب- المرحلة الثانية: الإصلاحات المعروفة بخط همايون، وأعلنها السلطان عبد المجيد في 11 جمادى الآخرة عام 1272هـ الموافق 18 فيفري 1856م، وأكد فيها المبادئ الإصلاحية الواردة في مرسوم كلخانة القاضي بتأمين رعايا الدولة على أرواحهم وممتلكاتهم والمساواة في دفع الضرائب، وتمثيل الطوائف غير

¹ نايف عبد نايف نجم الجبوري: المرجع السابق، ص 42.

² أحمد نوري النعيمي: أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية اتجاه فلسطين، ب ط، مطبعة الجامعة، بغداد، 1982م، ص 18.

³ سلوى سعد الغالي: العلاقات العثمانية الأمريكية (1831-1918م) (1246-1337هـ)، ط 1، مطبعة مدبولي، القاهرة، 2002م، ص 87.

⁴ سليمان البستاني: عبوة وذكرى، الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، تحقيق خالدة زيادة، ط 1، بيروت، 1978م، ص 29.

الإسلامية في المجالس المحلية في القرى والأقاليم، ورفع الجزية عنهم، ومشاركة أبنائهم في المدارس الحكومية، والتعهد بالقضاء على الفساد الموجود في المؤسسات الحكومية كالرشوة والمحسوبية، كما استمدت هذه التنظيمات مبادئ عديدة أخرى من الأنظمة الأوروبية¹.

رابعاً-أدوار اليهود السياسية في الدولة العثمانية:

بما أن يهود العراق هم جزء من يهود الدولة العثمانية ككل، وجب أن نذكر بعض الشخصيات التي كانت لها أدوار متباينة في دوائر القرار العثمانية منذ نشأة الدولة، وعلى كثرتهم على مدار تاريخها نكتفي بذكر بعض منها :

1-الناسي يوسف البرتغالي المولد (دون جوان ميغيز):

عاصر الناسي يوسف ثلاث سلاطين وهم سليمان القانون وخليفته سليم الثاني وأيضاً السلطان مراد الثالث، اذ تقلد في هذه الفترة عدة مناصب مرموقة في الدولة ما جعله بين رجال الدولة العظام² وبين مشاهير المالميين في الحكومة العثمانية، وكان مستشاراً يحضر اجتماعات الديوان، وقد منحه السلطان طبرية ومعها سبع قرى مجاورة، وقد استغل ذلك فقدم خدمات جليلة لليهود، وقام في فلسطين باستقبال اليهود الفارين من اسبانيا³. كما قام بتحريض السلطان سليم الثاني على محاربة البندقية لرفضها التخلي عن قبرص، وقيامه بتمويل الحملة، وذلك بهدف جعلها قاعدة لاستقبال اليهود المهاجرين من أوروبا. ورغم أن السلطان وعده بمنحه حكم قبرص في حال فتحها، إلا أنه تراجع عن ذلك وأخلف وعده واكتفى بمنحه لقب الدوق تكسوس Duke of Naxos.

وأشرف الناسي يوسف على صياغة وكتابة اتفاقية الدولة العثمانية مع فرنسا في العام 1569م، وهذا دليل على مكانته عند السلطان العثماني. كما حافظ الناسي يوسف على معظم نفوذه السياسي بموت السلطان سليم الثاني وتولي السلطان مراد الثالث سدة الحكم الذي خلف والده وثبت له كل ألقابه ومناصبه، حتى وافته المنية سنة 1579م .

2-سلمان اشكنازي أو ابن ناتان:

هو أحد أكبر الشخصيات اليهودية مكانة في الدولة، وهو من اليهود الذين كان لهم دور سياسي كبير ابان العهد العثماني، شغل مناصب سياسية عديدة، ثم بعثته الحكومة العثمانية سفيراً إلى حكومة البندقية، وأعطته سلطات واسعة وحرية اتخاذ القرارات المناسبة حتى يتمكن من تنفيذ مهمته الدبلوماسية.

¹ سلوى الغالي: المرجع السابق، ص 88.

² هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، ج1، ص ص 165-166.

³ أحمد نوري النعيمي: اليهود والدولة العثمانية، ص 35.

وكانت درايته بالأمور السياسية واسعة أهله لتدبير السلطنة العثمانية السياسية مع الدول النصرانية نحو ثلاثين سنة¹.

3-ابراهيم كاسترو: وهو أيضا من الشخصيات اليهودية النافذة في الدولة العثمانية، حيث تولى وزارة المالية في عهد السلطان سليم الثاني، وأوكلت له عديد المسؤوليات المتعلقة بالشؤون المالية، وكان قبل ذلك مسؤولا عن سك العملة في مصر، وظل المسؤول الأول على السياسة المالية للدولة العثمانية لعدة سنوات².

خامسا-علاقات يهود العراق بالولاة العثمانيين:

مثلما ذكرنا سلفا فان أوضاع اليهود شهدت تحسنا كبيرا في العهد العثماني فمارسوا أغلب الأنشطة الاقتصادية التي مكنتهم من جمع أموال طائلة خاصة في القرن التاسع عشر، وللحفاظ عن ممتلكاتهم ومكتسباتهم كان لزاما عليهم التقرب من الولاة ومخاطبة ودهم فكان من هؤلاء الولاة من استجاب فقرهم ويمكن لهم، ومنهم من لم يستجب، ومن هؤلاء الولاة الذين كانوا على علاقة طيبة بيهود العراق نذكر:

1-داوود باشا (1817-1831م):

تولى ولاية بغداد في أعقاب مؤامرة قام بها اليهود عزل بموجبها والي بغداد سعيد باشا (1813-1816م)³، وبدأت هذه المؤامرة عندما رفض الوالي سعيد باشا تعيين عزرا اليهودي رئيسا لصيارفة بغداد رغم طلب حالت أفندي حامل أختام السلطان محمود الثاني (1808-1839م)، فتحين حالت أفندي الفرصة للايقاع به، وتحقق له ذلك حين طلب السلطان من الوالي سعيد باشا سك مقدار من النقود في بغداد، واتفق مع عزرا الذي استطاع بدوره اغراء المسؤولين أو غافلهم وبصم على بعض القطع النقدية اسم سعيد باشا، ثم أرسلها الى الاستانة فاستلمها حالت أفندي، وقدمها للسلطان محمود مع الوشاية بأن سعيد باشا عزم على الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية، فقرر السلطان عزله ونجحت المؤامرة⁴.

وكان لعزرا اليهودي نفوذ عظيم وسلطة كبيرة على قومه وقد زادت بعد تولي داود باشا ولاية بغداد فكان يسجن منهم من أراد سجنه ويجلد من شاء جلده، مستغلا منصبه كناسي . ويحكى عن عزرا صراف باشي أنه أمر بجلد ثلاثمائة جلدة ليهودي اسمه نسيم، ومثلها لشريك نسيم المذكور وذلك على عهد ولاية داود باشا، مما يدل على أنه يأمر وينهى باسم الحكومة، وبعد أن استقر داود باشا على منصة الحكم وتولى شؤون الولاية أراد أن يبعث بالهدايا المقررة إلى الباب العالي وإذ كانت الطرق غير آمنة ليسير فيها النقود

¹ يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 158.

² هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، ج 1، ص 167

³ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 69.

⁴ يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 167.

طلب من صيارفة اليهود أن يأخذ منهم كمبيالات على عمالهم في العاصمة الاستانة فامتنعوا وقدموا له الأعذار والتجؤوا إلى بعض أصحابهم الأتراك من ذوي النفوذ لينقذوهم من هذه الورطة¹.

سعى داود باشا لايجاد حل سلمي للمشكلة فعين أحد الموظفين للمفاوضة بهذا الشأن فلم يفلح في مسعاه، فعين موظفا غيره بمكانه لكنه أيضا أخفق في مهمته، فجاء ثالث وترأس اجتماعهم إذ كانوا معتقلين منذ نحو ثلاثة أيام بلا أكل وشرب وبعد الجهد الجهد تأكد لديهم أن لامناص لهم من هذا الأمر فاستسلموا للأمر الواقع .

كما اشتهر في عهد داود باشا اسحاق اليهودي رئيس الصيارفة الذي كانت له مكانة خاصة عند الوالي، وكان يستشيريه في أغلب القضايا الهامة، لكن أواخر عهد هذا الوالي شهد انقلابا على اليهود وصل لحد سلب ممتلكاتهم وأموالهم والتنكيل بهم.

2- محمد رشيد الكوزلكلي (1850-1856م): من الولاة الذين تقربوا كثيرا من أبناء الطائفة اليهودية في العراق خاصة عائلة آل دانيال، فقد كانت صلته وثيقة بهذه الأسرة، وقد انتفعت هذه الأسرة اليهودية كثيرا من هذه العلاقة، فزاد نفوذهم وتوسعت ممتلكاتهم للعقارات والأراضي الزراعية حتى أصبحت العائلة من أثرى العائلات العراقية، ومع أن الوالي كان يستفيد من هذه العلاقة فكان الوالي يشركهم في تسيير شؤون البلاد. ولم يكتفوا بذلك بل استغلوا العلاقة الى أقصى حد ممكن، ففرضوا الرسوم والضرائب باسم الحكومة دون علم الوالي، مثال على ذلك ما ابتدعوه في بعض المناطق العراقية ويعرف بالجباية المروية بثمان محدد حتى يضمنوا سلامة القوافل باسم الحكومة، وهو ما كان يدر عليهم أموالا طائلة لا يصل منها الى الوالي الا القليل جدا². كما كان اليهود يحتكرون زراعة الأرز في بعض المناطق ويشاركهم الوالي في الربح الوفير نتيجة منعه لهذه الزراعة بقرار حكومي، بل ويشترى كل المنتج من حنطة وشعير وأرز الذي كان ينتج في العراق الأوسط لحساب شركات اليهود المقربين مثل شركة صالح دانيال وإخوته فيتحكمون بذلك في الأسعار³.

ومن الولاة الذين يذكرهم يهود العراق بالخير نظرا لمعاملتهم الطيبة اتجاه أبناء هذه الطائفة نجد رجب باشا الذي حزن اليهود كثيرا لانتهاء ولايته، وأيضا نجد الوالي ناظم باشا الذي شهد اليهود أنفسهم عن حسن المعاملة التي لمسوها منه⁴.

¹ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 69.

² عباس العزاوي: المصدر السابق، ج 7، ص 112-114.

³ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 69.

⁴ يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 12.

3-مدحت باشا ودوره في العراق:

وصف مدحت باشا الذي حكم العراق ما بين (1869-1876م) بأنه مصلح العراق فقد قام بمحاولة جريئة للإصلاح، حيث أحدث تنظيماً جديداً للتقسيم الإداري للبلاد، فالتنظيم القديم الذي صدر سنة 1846م (قانون الولايات) أصبح غير مجد في ظل التطورات والتعديلات¹.

وبموجب التنظيم الإداري شكلت ولايتان فقط هما ولايتا بغداد والموصل شملت الأولى ولايتي بغداد والبصرة القديمتين. وشملت الموصل على ولايتي الموصل وشهرزور، كما نص القانون على اشتراك السكان في توجيه أمور البلاد مع الموظفين، ولهذا الغرض أنشئت المجالس وجعل لكل ولاية مجلس، ولكل لواء مجلس، وكذلك بالنسبة للقضاء والناحية، وهو تشكيل هرمي قاعدته مجالس الاختيارية وقمته المجلس الكبير²، وكذلك بالنسبة لمجلس إدارة الأخير يتألف من:

1- متصرف اللواء (المحافظ) .

2- حاكم القضاء.

3- مفتي البلدة.

4- رؤساء الأهالي غير المسلمين.

5- أعضاء دائمين ثلاثة من الأهالي المسلمين وثلاثة من غير المسلمين.

وبهذه الإصلاحات ضمنت الأقليات الدينية، ومنها الأقلية اليهودية تمثيلاً دائماً في مجالس إدارة الولايات، وكذلك المجالس المحلية فشارك اليهود بممثلهم في إدارة شؤون ولاياتهم وبلدياتهم بصفة قانونية، ومن بين هؤلاء نذكر يوسف كرجي الذي انتخب عام 1871م، ويوسف شمطوب الذي انتخب عام 1888م، واللدان شاركا في مجلس إدارة ولاية بغداد³.

وعند إعلان الحكم بالدستور لسنة 1876م تم انتخاب نواب عن بغداد حضروا البرلمان العثماني في الأستانة، وقد مثل بغداد عبد الرحمن الباجه جي وعبد الرزاق آل شيخ قادر، ومناحيم دانيال ممثلاً عن اليهود، وقد حضروا جلساته وعادوا بعد أشهر على أثر غلق البرلمان وتعطيل الدستور⁴.

¹ ستيفن همنسلي لونكريك: المصدر السابق، ص 359.

² خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 69.

³ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 72.

⁴ يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 12.

سادسا- دور اليهود في الحياة السياسية العراقية خلال العهد العثماني:

تناول عديد المؤرخين أحداثا تاريخية كان لليهود العراقيين دور كبير في افتعالها أو توجيهها أو الاستفادة منها على أقل تقدير، ولم تقتصر على أدوارا ثانوية بل كانت في أحيان كثيرة مؤثرة جدا من الناحية السياسية وحتى العسكرية، وقد مكنت هذه الأدوار اليهود من الوصول الى أعلى المراتب لكن ديدهم دوما يقودهم الى التآمر والتغول والدخول في مآمرات تدفع الطائفة اليهودية ككل ثمنها مثلما حصل في عهد المغول عندما تمكن الطبيب سعد الدولة الذي أصبح مستشارا للسلطان آرغون (1284-1291م)¹.

واستطاع سعد الدولة أن يتقرب من السلطان وكسب ثقته فافتنع به ومكنه من العراق وجعله من المخلصين لمصالحه وصار قوله الفصل، فعين اخوته ولاية في بغداد والموصل، غير أنه ما لبث أن أساء إلى المسلمين، وقلص النفقات وأضر بمساجدهم وأوقفهم فتألموا منه وضاقوا ذرعا من تعديه على مصالحهم، فثاروا عليه وكانت ردة فعله قمعهم بكل قسوة ولم يرضي تصرفه الأمراء المغول وزادت من كراهية الناس له ولليهود بصفة عامة، و سعد الدولة، وثارَت العامة على اليهود ونهبوا أحيائهم ثلاثة أيام وقتلوا عددا منهم وحدث مثل ذلك وحبس جماعة منهم وقتل شخصين فسكت الفتنة².

وتكررت مثل هذه الأحداث عدة مرات في العهد العثماني ومن تلك القصص ما فعله اليهود بوالي العراق سعيد باشا الذي راح ضحية مآمرة يهودية دنيئة، وبدأت هذه المؤامرة عندما رفض الوالي سعيد باشا تعيين عزرا اليهودي رئيسا لصيارفة بغداد رغم طلب حالت أفندي حامل أختام السلطان محمود الثاني (1808-1839م)، فتحين حالت أفندي الفرصة للإيقاع به، وتحقق له ذلك حين طلب السلطان من الوالي سعيد باشا سك مقدار من النقود في بغداد، واتفق مع عزرا الذي استطاع بدوره اغراء المسؤولين أو غافلهم وبصم على بعض القطع النقدية اسم الوالي سعيد باشا، ثم أرسلها الى الاستانة فاستلمها حالت أفندي، وقدمها للسلطان محمود مع الوشاية بأن سعيد باشا عزم على الاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية، فقرر السلطان عزله ونجحت المؤامرة³.

ورغم تحزب طائفة من البغداديين له رافضين عزله، ولكنهم أخفقوا في مسعاهم، ودخل داود باشا بغداد بموكب حافل في 5 ربيع الثاني 1233 هـ (22 فيفري 1817م)، وبعد أيام قلائل بعث رجالا قتلوا سعيد باشا في بيته⁴، خوفا من نفوذه الكبير.

¹ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 50.

² يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 142-143.

³ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 63.

⁴ علي الوردي: المرجع السابق، ج 1، ص 232.

ويذكر أن السلطان مراد الرابع أثناء حملته على العراق وعند وجوده في مدينة بغداد أو على أسوارها دخل متنكرا بيت أحد اليهود ونزل ضيفا على صاحبة البيت فأكرمته وأحسنّت إليه، ولما غادر البيت سألتها هل لها حاجة أو لقومها فطلبت إليه أن ينعم عليهم بأرض تكون مقبرة لجماعتها فأجاب طلبها وأعطاهم الأرض المنشودة، وتؤكد كل الكتابات التاريخية أن السلطان مراد الرابع أحسن إليهم.

كما ذكرت بعض المصادر أن الجيش العثماني بقيادة السلطان مراد الرابع الذي توجه لاستعادة العراق من الصفويين في عام 1638م بلغ عدده 150000 رجل بمشاركة فعالة من اليهود الذين بلغ عددهم عشرة آلاف يهودي من كتبة وسعاة ورؤساء الجيش¹.

وكذلك مساهمة أحد أبناء الطائفة اليهودية في العراق المسمى الخواجه يعقوب وكان من الأثرياء اذ ساعد الجيش العثماني بماله في حصار البصرة مساعدة كبيرة، ومدهم بالمال والمؤونة في تلك الحرب التي شنّها نادر شاه حاكم إيران في (1181-1190 هـ) (1775-1776م)، ونجحت البصرة في التصدي للحملة.

ومن الأدوار التي لعبها بعض أبناء الطائفة اليهودية في العراق خلال هذه لفترة تعاونهم مع القنصل البريطاني ريج (Rich) (1808-1860م) الذي اعتمد اعتمادا كاملا على شخصيات يهودية وأخرى مسيحية كمصدر للمعلومات السياسية والاقتصادية المتعلقة بالتجارة والشؤون المالية، وقد عرف عنه شخصيته القوية التي تتجاوز الوالي في كثير من الأحيان²، وكانت سياسة بريطانيا في العراق ترتكز على المعلومات التي ينقلها اليهم هؤلاء الأشخاص، فكانوا سببا مباشرا للتمكين للبريطانيين في العراق³.

سابعا- نماذج لشخصيات يهودية عراقية في المجال السياسي: كان دور يهود العراق محتشما في القرون الأولى للتواجد العثماني في العراق بسبب طبيعتهم وانغلاقهم، وسطوة الحاخامات على المجتمع اليهودي العراقي لكن شيئا فشيئا بدأ اليهود يتقدمون لأخذ مكانة لهم في المجتمع العراقي حتى وصلوا الى أعلى المناصب ومن أمثال هؤلاء:

1- اسحاق اليهودي (رئيس الصيارفة):

من اليهود ذوي الشهرة في العهد العثماني على عهد داود باشا (1817-1831م) إسحق اليهودي رئيس الصيارفة في بغداد، الذي كان يحظى بمكانة مرموقة لدى الوالي المذكور، وكثيرا ما كان يستشير في

¹ يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 163.

² علي الوردى: المرجع السابق، ج 1، ص 232.

³ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص ص 63-64.

أموره وأمور البلاد. وكذلك فعل واستشاره عندما أرسل الباب العالي صادق أفندي ليصلح العراق، وينظم شؤونه بعد انقراض الانكشارية، وينصح الوالي داود باشا بطاعة السلطان وحثه على تقديم الضرائب العراقية المتأخرة إلى الباب العالي¹.

ولما وصل صادق أفندي بغداد وفاوض داود باشا في المهمة التي بعث من أجلها وعرف ما وراء الأكمة فكر في إيجاد وسيلة للتخلص من وفد الباب العالي فاستدعى للحال ثلاثة من معتمديه وهم سليمان أغا، ومصرف محمد أغا أحد الأشراف والصراف الباشي اسحق اليهودي وعقدوا اجتماعا تأمروا فيه على صادق أفندي فاقترح سليمان أغا أن لا سلام إلا بقتل صادق أفندي، وأيد هذا الرأي محمد مصرف أفندي.

فوافق اسحق على اقتراحهم وأيد رأيهم بما قصه عليهم من الأنباء التي هبطت عليه من أبيه الذي كان يومئذ في الأستانة، وكان رأيه مبجلا عند الوالي، ودبروا في اجتماعهم هذا طريقة اغتياله واخفاء جثته، وبالفعل تم القضاء على مبعوث السلطان صادق أفندي ودفن سرا، فكانت هذه الحادثة سببا في أن قطع دواود باشا علاقته بالباب العالي عام 1829م، واستقل بالعراق تماما حتى العام 1831م، فكانت استشارة اسحاق اليهودي مؤثرة في علاقة الوالي بالسلطان محمود الثاني².

2- ساسون حسيقل:

ولد في بغداد سنة 1860م، متحصل على شهادة الحقوق، كما تحصل أيضا على شهادة المحاماة من الدرجة الأولى من وزارة العدل بالأستانة³، استطاع ساسون بفضل مؤهلاته وعبقريته من جهة، واخلاصه وتفانيه في المهام التي شغلها من جهة ثانية أن يرتقي إلى مكانة مرموقة في قلوب العراقيين جميعا، أهلته أن يشغل العديد من المناصب السامية. كما مثل العراق في مجلس المبعوثان بالأستانة لدورتين منذ العام 1908م⁴، وكان قبل ذلك قد شغل عدة مناصب سامية إذ كان مستشارا لوزارة التجارة العثمانية، كما لعب دورا بارزا في تاريخ العراق ما بعد الحكم العثماني فقد كان أحد العراقيين إلى جانب جعفر العسكري اللذان حضرا مؤتمر القاهرة عام 1921م الذي مهد لانتخاب الأمير فيصل بن الحسين ملكا على العراق، وبعد تأسيس الحكم الوطني في العراق تولى منصب وزير المالية لخمس مرات⁵، توفي عام 1932م، وقد كان

¹ يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 167.

² خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 73.

³ يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 89.

⁴ هدى درويش: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، ج 1، ص 220.

⁵ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 108.

شخصية تحقق اجماعا في شرائح المجتمع العراقي المختلفة لذلك رثاه الشاعر العراقي الشهير معروف الرصافي فقال:

لقد كان في الأوطان يرأب صدعها فيسعى الى الاصلاح فيها ويدأب فأصغى لشكواها وزيرا ونائبا
وعالجها منه الطبيب المجرب وأبعد مرمى حبها في شبابه وجتهد غي اسعادها وهو أشيب لأن كان يا
ساسون غيبك الردى لذكراك بالعلياء لا تتغيب¹

3-مناحيم صالح دانيال: ولد سنة 1848م أول يهودي يمثل يهود العراق في أول برلمان عثماني بعد اعلان دستور عام 1876م، وقد بذل هذا الرجل جهودا كبيرة في سبيل مساعدة أبناء طائفته، وانتشالهم من الفاقة والعوز ومحاربه الجهل والمرض، ونبغ بشكل كبير في العمل الخيري مما أهله كما ذكرنا لتمثيل مدينة بغداد عن أبناء طائفته في مجلس المبعوثان العثماني في الأستانة عام 1878م².

ومن الأعمال التي قام بها منحيم دانيال لأبناء طائفته مساهمته في تأسيس المدارس كمدرسة منحيم صالح دانيال الابتدائية للبنات، وأوقف قسما من أملاكه الخاصة لصرف وارداتها في تسيير شؤون المدرسة، كما ساهم بقدر كبير في رفع المستوى التعليمي للمرأة اليهودية في العراق. ومن أعماله أيضا مساهمته المعتبرة في صندوق المجلس الخاص بالطائفة اليهودية بتخصيصه اعتمادات مالية لمساعدة الفقراء والمعوزين، وهو ما جعله يحظى بمكانة مرموقة عند أبناء طائفته بصفة خاصة والمجتمع والحكومة العراقية بشكل عام³.

¹ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج1، ص ص 241-242

² يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 180.

³ يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 89.

المبحث الخامس: دور يهود العراق في الحياة الاقتصادية:

كما سبق وأن ذكرنا في الفصل التمهيدي بأن الاقتصاد العراقي شهد تحولات كبرى في العهد العثماني خاصة في القرن التاسع عشر نتيجة عوامل خارجية كالثورة الصناعية الأوروبية، وفتح المجال للشركات الأجنبية، وافتتاح قناة السويس 1869م¹، وهو ما انعكس على قطاعات الاقتصاد العثماني الثلاث، وعلى فئات وطبقات المجتمع العراقي جميعها ومنها الطائفة اليهودية التي استفادت كثيرا من هذه التحولات التي صبت في مصلحتها، بفضل سرعة تأقلمها مع الوضع الجديد وكذا مساعدة المتعاملين الأجانب وتفضيلهم لليهود على حساب المسلمين²، وعموما فإن أدوار يهود العراق الاقتصادية شملت كل المجالات الاقتصادية كالصيرفة، والزراعة والصناعة وكذلك التجارة ومن أدوارهم نذكر:

أولا- دور يهود العراق في الزراعة:

منذ أن وطأت أقدام اليهود لأول مرة أرض العراق اتجهوا مباشرة للزراعة بحكم ما منحهم اياه نبوخذ نصر من أراض صالحة لهذا الغرض³، اضافة لتوفر المناخ الملائم، كما أن توفر مياه الأنهار سهل مهمتهم وشجعهم على ذلك، فارتبط اليهود منذ ذلك التاريخ بالأرض والزراعة حتى أن قسم من التلموذ كان مخصصا للمجال الزراعي .

لكن يجب التنويه الى أن العهد العثماني شكل تغيرا كبيرا في نشاط الأقلية اليهودية في الميدان الزراعي حيث كان اليهود يمارسون الزراعة مثلهم مثل باقي أبناء المجتمع العراقي في المناطق التي كانوا يقطنونها خاصة في كردستان ومنذ قديم الزمان، لكن منذ القرن التاسع عشر تحول كثير منهم الى رجال أعمال وملاك للأراضي الزراعية في أغلب المناطق العراقية خاصة الواقعة بجاني نهر الفرات⁴، بفضل عدة عوامل سنأتي على ذكرها ساعدت على تنامي هذه الظاهرة بشكل كبير، وتواصلت حتى مع بداية القرن التاسع عشر، لذلك قسمنا أدوارهم في مجال الزراعة الى عنصرين هما:

¹ عباس شبلق: المرجع السابق، ص 23.

² حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 286.

³ أحمد سوسة: أبحاث في تاريخ اليهود واليهودية، ص 117.

⁴ غادة حمدي عبد السلام: المرجع السابق، ص 61.

1- يهود العراق وملكية الأراضي الزراعية:

أكدت الكتابات التاريخية أن يهود العراق في العهد العثماني اشتهر عنهم امتلاكهم للأراضي الزراعية والبساتين والحقول مستغلين كل الظروف التي ساعدتهم لبسط نفوذهم واستغلال طفرتهم الاقتصادية، وتحسن أوضاعهم المالية لشراء أكبر قدر من الأراضي الزراعية، وقد سخروا لذلك كل امكانياتهم واستخدموا عدة أساليب منها :

- اغراق الفلاحين بالديون عن طريق الربا مستغلين في ذلك حاجتهم لشراء المبيدات والاسمدة وكل مستلزمات الزراعة وعندما يعجز الفلاح المسلم عن تسديد ديونه يقوم اليهودي بمشاركته أحيانا ويقوم بشراء الأرض بكاملها أحيانا أخرى، وقد حصل اليهود على كثير من الأراضي في الديوانية والحلة والدليم والشامية والكفل بهذه الطريقة¹.

- اغراء كبار موظفي الدولة من أصحاب القرار للحصول على الأراضي الأميرية بمزايدات وهمية لم يطلع عنها العامة خاصة شاغليها من القبائل العربية، وبالتالي مفاجئة أصحاب تلك الأراضي بسندات ملكية لأراضيهم بملكيتها لليهود .

البداية كانت مع بداية القرن التاسع عشر وتنامت بشكل كبير منذ فترة حكم الوالي محمد رشيد الكلوزلكي (1850-1856م)، والذي استطاع في عهده اليهود أن يملكوا العديد من الأراضي الزراعية بحكم التحالف الذي عقده مع أسرة آل دانيال لاحتكار المحاصيل الزراعية الأساسية الأرز والقمح والشعير وتخزينها في مخازنهم ووصل الأمر الى منع زراعة هذه المحاصيل حتى يتحكموا في أسعارها، وهو ما أدى لشراء هذه الأسرة ثراء فاحشاً².

يذكر أن هذه العائلة امتلكت العديد من الأراضي الزراعية في مناطق الحلة والناصرية وعلى الغراف حيث قدرت الأراضي التي امتلكوها عام 1910 ب 400000 ليرة تركية³، وقد استقدم مناحيم دانيال عام 1908م مهندسا زراعيًا نمساويًا، واستورد أحدث الوسائل والآلات الزراعية الحديثة وأنشأ مزرعة نموذجية في أراضيهم بقضاء الهندية بلواء الحلة، وكانت تلك أول محاولة في العراق لادخال الطرق الحديثة في الزراعة⁴.

¹ غادة حمدي عبد السلام: المرجع السابق، ص 63.

² خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 67.

³ حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 298.

⁴ غادة حمدي عبد السلام: المرجع السابق، ص 60.

ومن الأسر اليهودية التي امتلكت أراض زراعية في منطقة الديوانية نجد عائلة إسحاق موسى التي اشتهت الزراعة الى جانب بيع القماش (البزاة)، وقد اشتهر من أبناء هذه العائلة ساسون سلمان الذي اشتهر بتجارة الحبوب، وتجهيز الأراضي بمضخات ماء السقي، كذلك عرف ابنه حضوري بتجارة المواد الزراعية ونقل المحاصيل الزراعية، وعرف بقصره الفخم طارق حضوري الذي ما زال قائما لحد الآن في بداية شارع العلاوي ضمن محلة الجديدة في مركز المدينة. وفي الديوانية نجد أيضا عائلة بيت جبران اليهودية التي استقرت في الديوانية عام 1878م، وامتتهت الزراعة الى جانب مهنة صياغة الذهب، ولكنها هاجرت العراق عام 1940م إلى فلسطين، ودخلت ميدان الزراعة والتجارة أيضا عائلة خلاصجي، وأشهر أبنائها الياهو خلاصجي الذي لقب بملك الديوانية، واشتهروا بزراعة الأرز أكثر من غيرها .

كذلك نجد عائلة شاهين التي انتقلت من مدينة الحلة إلى الديوانية، وقد سكنت قرية أبو الفضل عام 1858م حيث اشتهت هذه العائلة الزراعة الى جانب (البزاة)، ومن العائلات اليهودية عائلة ساسون معلّم المصاهرة لعائلة خلاصجي المقيمة في الشامية، وقد مارست هذه العائلة الزراعة وتجارة الحبوب وتجهيز المدينة بمادة طابوق البناء، وقد اشتهر من أبنائها الياهو معلّم وابنه ساسون معلّم وأحفاده صالح وعزت¹. ومن هذه العائلات اليهودية نذكر أيضا في الموصل عائلة ناحوم، وسلمان نجمو، وإسحاق موشيه التي امتلكت أراضي شاسعة ناحية الحمدانية، كما امتلكت عائلات حسقيل عزرا وإسحاق الياهو ودادو إسحاق أراض زراعية في مناطق خانقين ومندي².

وقد أكدت بعض الدراسات أن عائلة عقيرب اليهودية تأتي في المرتبة الأولى من حيث امتلاكها للأراضي الزراعية في لواء الحلة وأقصيته، كالمحاويل والهندية والمسيب، وتأتي عائلة يهوذا في المرتبة الثانية، في حين تحتل عائلة دانيال ذائعة الصيت المرتبة السادسة رغم شهرتها الكبيرة والواسعة في العراق وخارجه. وقد أورد حنا بطاطو أرقاما بالروية للأراضي الزراعية المباعة في قطاع البصرة والمشترون لها من المسلمين ومن الأقليتين اليهودية والمسيحية كنموذج عن تنامي هذه الظاهرة وتواصلها حتى نهاية الحكم العثماني وبداية الاحتلال البريطاني.

¹ حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 289.

² غادة حمدي عبد السلام: المرجع السابق، ص 61.

جدول رقم 05: يبين أراضي البصرة التي تم بيعها عامي 1917 و1918م ومن اشتراها

سنة البيع	للمسلمين	لليهود	للمسيحيين
أراضي زراعية بيعت عام 1917م	2692510	107561	13956
أراضي زراعية بيعت عام 1918م	1527899	763525	667177
عدد السكان	154902	6928	¹ 2221

2- دور يهود كردستان في مجال الزراعة:

اتاحت الفرص لليهود كردستان العراق ليمدوا جذورهم عميقا في أرض هذه البلاد كفلاحين ولم تكن العقبات الخارجية التي تعترض استقلال الفرد اليهودي أكبر من التي واجهها النساطرة مثلاً، والذين تمكنوا رغم ذلك من تثبيت أنفسهم كفلاحين في المجتمع العراقي عامة والكردية خاصة².

ورغم ذلك لا نجد بين اليهود الشرقيين من هم أكثر إظهاراً للميزات الفلاحية القوية، من اليهود الكرد، فكيان اليهودي الكردي بالكامل من الخارج ومن الداخل كيان فلاح، وكثرت المرات التي تبرز فيها العناصر الفلاحية فجأة بين يهود الحضر إنما تدفعنا مباشرة إلى الافتراض المسبق القائل بأن الحركة نحو المدن إنما هي ظاهرة اقتصر على العقود القليلة الماضية³.

أ- أنشطتهم الزراعية والرعية:

منذ أول تواجد لليهود بأرض كردستان حتى بدأت علاقتهم بالأرض فمارسوا الأنشطة الرعية والزراعية⁴، وصارت مصدر الرزق الرئيسي لهم مستغلين بذلك الأراضي السهلية الواسعة، وما توفره الأنهار من مياه للري، ثم استفادوا لاحقاً من تطور وسائل وطرق الري في البلاد.

هذا، وتعتبر المناطق التي يقطنها اليهود في الشمال خاصة سهلي الموصل وأربيل من أهم المناطق في العراق التي تنتج الحبوب (القمح والشعير)⁵، وتعتمد زراعة الحبوب بالمنطقة على مياه الأمطار مائة بالمائة، ويشترك العرب والأكراد واليهود في زراعتها، وكذلك يشتركون في تربية المواشي من أبقار واغنام وماعز⁶ حيث تعتبر الخزان الرئيسي للدباغة وصناعة الجلود بالمنطقة، وأيضاً المصدر الأول للألبان واللحوم وغيره.

¹ حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 299.

² إيريك براور: يهود كردستان، تعريب، شاخوان كركوكي وعبد الرزاق بوتاني، ط1، مطبعة وزارة التربية، أربيل، 2002م، ص 244.

³ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 88.

⁴ أحمد سوسة: أبحاث في تاريخ اليهود واليهودية، ص 117.

⁵ سيار الحميل: المرجع السابق، ص 121.

⁶ الكسندر آداموف: المصدر السابق، ص 184.

إضافة إلى إنتاج الحبوب وتربية الماشية يمارس بعض اليهود الذين يسكنون قرب الأنهار بعض الزراعات السقوية كالخضروات والفواكه والكروم والبقول يضاف إليها بعض المنتجات المتنوعة كالجوز واللوز والبندق والقسطل والحبة الخضراء والتوت والزعرور... الخ.

ويذكر أن الفلاحين اليهود تخصصوا بإنتاج التبغ، واحتكروا زراعته بحكم أن العراق بلد إسلامي ويمنع الدين الإسلامي زراعة التبغ لأنه محرم، ما فتح المجال أمام غير المسلمين لزراعته واحتكار تجارته وهو ما در عليهم أموالاً طائلة¹.

ومن مميزات يهود كردستان العراق في الميدان الزراعي وجود قرى يهودية خالصة تماماً، ومثلها مسيحية بالكامل مثل القرى الموجودة في المنطقة الواقعة شمال العمادية²، ومن بين تلك القرى نذكر مثلاً: تل كَبَّار قرب زاخو-سندور قرب دهوك-شندوخه قرب دهوك-بيتنوره قرب العمادية-سوندور قرب ريكان إحدى أقرب المستوطنات اليهودية في كردستان، تسكنها 70 عائلة .

وهناك أيضاً قرى فيها مزيج من السكان، وكل اليهود الموجودين فيها أو على الأقل معظمهم من الفلاحين، وتقع مثل تلك القرى في أطراف باشقلا (مثلاً قردا والعائلات الثمانون فيها جميعها عائلات فلاحية)، وأطراف العمادية (مثلاً قرى برشه، هويرا، هير، هركي، ميزه، شوخو)، وتقع شوخو على مسافة يوم ونصف اليوم من العمادية وقد ذكرها (الحبر ديفيد ديب) بأنها قرية صغيرة تتألف من ثلاثين عائلة يهودية جميعها عائلات فلاحية³.

ب- عاداتهم المتوارثة في الزراعة:

من العادات المتوارثة عند المزارعين اليهود في إقليم كردستان أن يتولى الحراثة أكبر أفراد العائلة سناً عند بداية عملية الحرث، وذلك لاعتقادهم بأن ذلك يجلب الخير، ثم يتم بعد الحراثة تقسيم الحقل إلى ألواح مستطيلة تغمر بالمياه وتترك على تلك الحال عدة أيام . وعندما يحين موعد البذر لابد أن يقوم ثانية أكبر أفراد العائلة سناً بحمل الأرز المخصص لعملية البذر من الدار إلى الحقل مشياً لينثره في الحقل، حيث تبدأ بعد ذلك عملية التعشيب، ويترك قسم من الحقل غير مزروع، لكن يمر فيه الماء، ويخصص لرعي ثيران الفلاح.

¹ إيريك براور: المرجع السابق، ص 247.

² خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 88.

³ إيريك براور: المرجع السابق، ص 247.

ج- النشاط الزراعي الجماعي:

يعتبر الأرز من أهم المحاصيل الزراعية في كردستان لأنه يباع بأسعار ممتازة، ويعتبر حقل الأرز المروي جيداً من أغلى الأراضي الزراعية¹، هذا وفي موسم حصاد الأرز يجتمع الفلاحون في عمل جماعي يسمونه (زبارة)، وهي كلمة تعني تجمع المزارعين المسلمين واليهود للعمل الطوعي الجماعي لصالح أحد رجال الاقطاع في القرية أو لاحدى عائلاتها الغنية يهودية كانت أو كردية، ولا تكون الزبارة عملاً إجبارياً بل هي نوع من العمل التطوعي لصالح أناس يمتلكون مزارع كبيرة، وطلب الخدمة من شخص ما أمر له أهميته، وهناك من الزبارة أنواع في قرية برشه قرب العمادية: حراثة بساتين الكروم - حصاد الرز - جمع الحطب للشتاء.

وبما أن عائلات عدة تشترك في الزبارة، فإن خادماً المختار ينادي قبل يوم من العمل الجماعي من على سطح أعلى بيوت القرية بأن الزبارة لفلان ستجري في اليوم التالي، وفي صباح اليوم الموعود يجتمع الرجال أمام بيت من تقام له الزبارة في وقت مبكر ليتوجهوا بعدها على أنغام ال(دولا وزرنا) للعمل في الحقل. أما عدد المشاركين في هذا العمل الجماعي فيعتمد اضافة إلى حجم القرية وعدد سكانها على مركز العائلة ونفوذها في القرية. وقد يصل عدد المشتركين في هذا العمل الجماعي أحياناً إلى 150 رجلاً².

3- مشاكل الزراعة عند يهود العراق: تراجع دور يهود العراق في الانتاج الزراعي خاصة بعد القرن

الثامن عشر، وذلك يعود الى عدة عوامل أهمها:

- ظاهرة النزوح الريفي التي عانت منها الأوساط الريفية عامة في العراق وفئة اليهود خاصة وذلك بسبب التطور الكبير الذي عرفته المدن العراقية بعد ظهور الثورة الصناعية في أوروبا وتدايعات تلك التطورات على أساليب العيش والرفاهية التي صار يتمتع بها سكان المدن .

- حالة عدم الاستقرار السياسي التي عرفها العراق منذ القرن 16م بسبب ظهور الصراع الصفوي العثماني الذي ألقى بظلاله على السكان خاصة في المناطق الشمالية التي يتركز فيها النشاط الزراعي لليهود وعانت أكثر من غيرها من المناطق منذ معركة جاليندران 1514م مروراً بالحروب التي دارت بين الطرفين في عهد السلطان سليمان القانوني (1520-1566م)، وعهد الشاه عباس الأول (1588-1629م) وخلفائه كعباس الثاني وغيره، وصولاً الى حروب نادر شاه في القرن 18م، وقد كانت تلك الحروب وبالا على الزراعة بشكل عام في العراق³.

¹ غادة حمدي عبد السلام: المرجع السابق، ص 66.

² ايريك براور: المرجع السابق، ص 247.

³ بديع محمد جمعة: المرجع السابق، ص 282.

- الظروف الطبيعية التي كانت تتحكم بشكل مباشر في الانتاج الزراعي الذي يعتمد على مياه الأمطار مثل الحبوب فكان الجفاف أكبر التحديات التي تصيب المحاصيل الزراعية في العراق، إضافة الى موجات الجراد التي ضربت العراق عدة مرات ابان العهد العثماني قادمة من هضاب نجد، وكانت تأتي وتآكل الأخضر واليابس، كما أن الزلازل والفيضانات والسيول في المناطق الجبلية أعاقت الزراعة بشكل كبير .

- الصراعات القبلية بين القبائل والعشائر العراقية والتي كانت سمة بارزة في العهد العثماني ولم تعرف عدة مناطق كإقليم كردستان الهدوء الا فترات قليلة، وهو الأمر الذي انعكس سلبا على القطاع الزراعي وعرقل الانتاج بل وساهم في المجاعات التي أصابت العراق في العهد العثماني .

- تحول طبقة المزارعين اليهود تدريجيا الى قطاعات أخرى خاصة التجارة، بسبب تراجع عائدات الفلاح مقابل الازدهار التجاري الكبير في العراق لاسيما بعد استفادة الأقليات بشكل عام من الإصلاحات العثمانية، والتحولت الاقتصادية الكبرى التي شهدتها العالم في العصر الحديث فكانت فئة اليهود العراقيون من أكثر الفئات استفادة في مجال التجارة فبسطوا نفوذهم على تجارة المدن العراقية وحتى خارجها، وكان ذلك على حساب القطاع الزراعي¹ .

- الضرائب المفروضة على المزارعين عموما والجزية المفروضة عن اليهود وأهل الذمة خصوصا أثقلت كاهل المزارعين اليهود مع تراجع العائدات، أرغمهم على تغيير نشاطهم² . بالرغم من تلك العوائق الا أن يهود العراق خصوصا الأكراد حافظوا على ارتباطهم بالأرض والزراعة، وساهموا مع باقي فئات المجتمع العراقي في الانتاج الزراعي في تلك الحقبة.

ثانيا- دور يهود العراق في مجال الصناعة:

لايمكننا بأي حال من الأحوال أن نقارن بين القطاع الصناعي في أوروبا ونظيره في العالم العربي عموما والعراق خصوصا في العصر الحديث، وذلك لما حققته أوروبا من نقلة كبيرة ونوعية في مجال الصناعات فيما سمي عصر النهضة الأوروبية والثورة الصناعية، فانتشرت المصانع والمعامل وتعددت الصناعات ومجالاتها خاصة في بريطانيا وفرنسا. في حين أن الصناعة في البلدان العربية كانت تسير بخطوات متثاقلة حتى أن الدارس لها من باحثين وأكاديميين لا يرون وجود لقطاع يمكن تسميته بالقطاع الصناعي، وهذا الكلام ينطبق على بلاد العراق اذ لم تكن هناك صناعة بمفهومها الحقيقي مثلما هو الحال عليه في أوروبا، بل

¹ عباس شبلان: المرجع السابق، ص 27.

² حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 283.

كانت عبارة عن حرف تقليدية ومهن بسيطة اقتصر على النجارة والحدادة وبعض معامل النسيج والمطابع القليلة¹، والتي لم تسلم من التحولات الكبرى.

شهدت الأسواق العراقية في القرن التاسع عشر احتكاراً كبيراً من قبل الجاليات الأجنبية، أو من يرتبط بمصالحها كالأرمن واليهود، وبعض الأسر النصرانية الحلبية، ففتحت بذلك الأسواق المحلية على مصراعيها، أمام البضائع الصناعية الأوروبية الرخيصة، وهكذا فقد احتلت تلك البضائع الأسواق منافسة الإنتاج المحلي على نحو خطير²، وانخفض في الوقت نفسه استيراد الخامات نصف المصنوعة التي يحتاجها الحرفيون عادة في أعمالهم، وخاصة منها الغزول والأصباغ .

وقد أدى هذا إلى ركود ملحوظ في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للحرفيين عمومًا، فانخفض مثلاً عدد ورش النسيج في بغداد من 12000 معمل في منتصف القرن التاسع عشر إلى بضعة مئات في بداية القرن العشرين، وكذلك ما حدث في البصرة حيث اختفت تقريباً صناعة أنواع من النسيج المحلي التي كثيراً ما اشتهرت بها³ .

وبازدياد استيراد الأواني المعدنية المطلية، تقلصت صناعة النحاس المحلية إلى حد كبير، بعد أن وصفت في القرن الثامن عشر بأنها تفوق المصنوعات الأوروبية اتقناً وجودة، وقد أضر هذا الوضع بمصالح طبقة الحرفيين بشكل عام، وأضعف من تنظيماتها كثيراً.

وشهد أواخر القرن التاسع عشر ضموراً بالغاً في دور الأصناف، وفي أوائل القرن العشرين قامت بعض الأصناف بإضرابات عامة مطالبة بزيادات في الأجور، وكمثال على ذلك ما حدث في بغداد أواخر العام 1912م، حين اجتمع دباغو الأعظمية قرب بغداد في أحد الردهات مطالبين بزيادة في الأجور، مما دل على أن حالة من التفجر أخذت تعمل على تدمير ما تبقى من نظام الأصناف التقليدي، متراجعة أمام تنظيمات جديدة، أكثر تمثيلاً لظروف المرحلة التالية وحاجاتها، لتحل محلها في قيادة حركة العمل في العراق الحديث .

¹ علاء موسى نورس ومجموعة من الأساتذة: حضارة العراق (العصور الحديثة)، ج10، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1958م، ص78.

² حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 283.

³ غادة حمدي عبد السلام: المرجع السابق، ص 70.

عرف عن يهود العراق منذ زمن بعيد ممارستهم العديد من الحرف، التي توارثتها الأجيال جيلا بعد جيل، وقد زاول اليهود نشاطاتهم الحرفية في كثير من المدن العراقية كبغداد والموصل والبصرة وغيرها من المدن التي تسكنها طائفة من اليهود¹ جنبا الى جنب مع اخوانهم العراقيين، ومن الصناعات الحرفية التي مارسها يهود العراق نذكر: .

1-الصناعات النسيجية:

من الصناعات التي اشتهر بها يهود العراق منذ ازدهارها في العهود الاسلامية الأولى نجد الصناعات النسيجية والتي تمتعت في المدن العراقية الكبيرة بمركز متميز خلال فترة الحكم العثماني فقد حافظت بغداد عن شهرتها في نسيج الحرير الموشى بالذهب والفضة، وكذلك الموصل التي اشتهرت بالأقمشة الحريرية المذهبة وكذلك الأقمشة القطنية الناعمة المسماة بالشاش الموصلية²، وقد ساهمت الأقلية اليهودية مع باقي أبناء المجتمع في المحافظة عن هذا الإرث . كانت هذه الأقمشة تلاقي رواجا كبيرا في الخارج حيث كانت تصدر الى أوروبا وإيران ومصر وشمال أفريقيا، وكانت هذه الأقمشة العراقية من الأنواع غالية الثمن لأنها ملابس الهيئة الحاكمة والطبقة الغنية، لكنها شهدت تراجعا كبيرا بعد افتتاح قناة السويس حيث قال عنها حنا بطاطو: « وقوى افتتاح قناة السويس في العام 1869م تأثيرات الاتصالات النهرية الجديدة، وازداد تدفق المنتجات الصناعية البريطانية، وازدادت واردات العراق من الصناعات القطنية والصوفية عبر ميناء البصرة من 51000 ألف جنيه استرليني في الفترة 1868-1870م الى 1178000 جنيه في الفترة 1897-1899م ثم ارتفعت الى 3066000 جنيه في الفترة 1907-1909م،.. وما يمكن تصوره هو أن الأرض كانت تنزلق -في الوقت نفسه- أكثر فأكثر تحت أقدام حائكي الأنوال اليدوية العراقيين »³.

2-صناعة السجاد والأكسية:

مثل كل الصناعات التي عرف بها العراق وساهم فيها اليهود نجد صناعة الأكسية والبسط والسجاد المنتشرة في كل أنحاء العراق من الصوف والقطن ولا تقل جودة بعض السجاد الكردي المصنوع في العراق عن السجاد الإيراني، لكن منسوجات الفرش الأخرى تحاك بوسائل بدائية تحتاج الى تحسين ودقة، وقد شرع معمل السجون ببغداد في صنع السجاد اليدوي المشابه للسجاد الإيراني في منتصف ثلاثينات القرن العشرين، ولم تدخل أساليب الإنتاج الميكانيكية للعراق الا بعد الحرب العالمية الثانية فقط⁴ .

¹ غادة حمدي عبد السلام: المرجع السابق، ص 78.

² حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 266.

³ حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 267.

⁴ صباح اصطيغان كاجه جي: الصناعة في تاريخ وادي الرافدين، ط1، دار الفرات، بغداد، 2002م، ص 129.

3- صناعة الفخار والخزف:

من الصناعات التي عمل بها يهود العراق أيضا نجد صناعة الفخار، وهي صناعات يدوية متوسطة وصغيرة الحجم، من أهم منتجاتها الشرايية والخواوي والجوار والأزبار على اختلاف أنواعها، وقد اشتهرت في العهد العثماني مدينتا بغداد والعمادية بصناعة الفخار، وانفردت العمادية بصناعة الخواوي والأزبار الرقيقة بأشكال منتظمة رقيقة كما اشتهرت بغداد بتلوين الفخار بالطلاء الخزفي الأخضر والأزرق والأبيض. ومن اليهود الذين عملوا بهذه المهنة نجد: داود سلمان معلم وروبين حسقيل هاللي، وساسون عزرا موشي، وسليم عزرا موشي، وكرجي عزرا موشي¹.

4- صناعة الأواني والتحف المعدنية:

رغم منافسة الحلبيين إلا أن يهود العراق ساهموا في هذه الصناعة المنتشرة في عدة مناطق عراقية، وتعتبر هذه الصناعة يدوية تقليدية تتضمن تصنيع بعض المستلزمات المنزلية كالقدور والأواني على اختلاف أنواعها²، إضافة إلى المراحل وأغراض الحمامات وأدواتها والركابا وما يتبعها من المناقل وعدد التقطير والزخرفة والزينة، وأيضا صناعة البرونز التي تقوم بصنع أسرة النوم المعدنية، واشتهرت بغداد والموصل والسليمانية بشكل خاص في صناعة البرونز والنحاس.

5- الصياغة:

وهي مهنة صناعة المعادن النفيسة من الذهب والفضة، وقد عرف بها اليهود العراقيين والصابئة والمندائيون منذ القدم، ونذكر من العائلات اليهودية في بغداد عائلة باروخ الصائغ، وعائلة منشي، وعائلة موشي ابراهيم، وعائلة شوع اسحاق، وفي البصرة عائلة خضوري نسيم شهرباني وكرجي ابراهيم، وفي مدينة الديوانية نجد عائلة بيت جبران التي استقرت في الديوانية عام 1878م³.

كذلك عمل اليهود في النجارة والخياطة وبعض الحرف الأخرى، مع الإشارة إلى أن اليهود كانوا سابقين لإقامة مصانع حديثة مع بداية القرن العشرين، لكن عموما لم يكن النشاط الحرفي مهنة مفضلة لدى أبناء الطائفة بل غالبا ما كانوا يرققون معه نشاطا آخرًا كالتجارة أو الصيرفة أو حتى النشاط الزراعي بالنسبة للعائلات التي تمتلك أراض زراعية.

¹ يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 263.

² حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 297.

³ صباح اصطيغان كاجه جي: المرجع السابق، ص 137.

ثالثاً- دور اليهود في المجال التجاري:

برز اهتمام يهود العراق بالتجارة بعد استقرار الأوضاع السياسية في القرن التاسع عشر، خاصة بعد ان تولى مدحت باشا ولاية العراق عام 1869م، واتساع دور البصرة كميناء تجاري مهم بعد افتتاح قناة السويس، وتغيير طرق المواصلات التجارية، فلم يعد دورهم مقتصرًا على السوق العراقية بل تعدى ذلك الى بلدان الشرق الاقصى من أجل التجارة كالهند وهونغ كونغ وسنغافورة التي بدأت تدر عليهم ارباحاً وفيرة فاصبح كثير منهم اصحاب ثروات طائلة¹.

ولم يترك اليهود باباً من أبواب النشاط التجاري الا وطرقوه فمارسوا التجارة داخليا عن طريق التجول في الأرياف والأقضية العراقية، يبيعون المنتجات الأوروبية ويشتررون المنتجات الزراعية، وأحياناً يتعاملون بنظام المقايضة، ثم يبعونها في المدن، التي أسسوا بها، الشركات والوكالات التجارية والمحلات، وعملوا في الصيرفة وتبادل العملة والربا والرهنات وبيع وشراء السندات، واحتكار تجارة الكثير من البضائع . وكان التجار اليهود ببغداد في أواخر العهد العثماني هم الممولين الرئيسيين للتجار في المحافظات العراقية، سواء كانوا من المسلمين أو غير المسلمين، وكذلك حالة التجار الصغار في بغداد، حيث كان مصدر تمويلهم كبار التجار اليهود والوكلاء الذين كانوا يقدمون لهم الدعم والاسناد والقروض والبيع بالآجل، وبالتصريف لتمشية أمورهم، لكي يستطيعوا أن يقفوا على اقدامهم وتكون لهم أسماء تجارية في الأسواق العراقية².

1-أسباب وعوامل سيطرة اليهود على التجارة العراقية:

اجتمعت وتوفرت عديد العوامل التي ساعدت وسهلت لليهود السيطرة على الأسواق التجارية الداخلية وحتى شركات الاستيراد والتصدير نذكر أهمها في ما يلي:

- امتلاك اليهود رأس المال ووفرة أرصدهم في البنوك، وقدرتهم على الاقتراض وفتح اعتمادات بنكية أتاحت للتجار منهم كسب موطاً قدم في التجارة مع بريطانيا، وهو ما يؤكد سيطرتهم على مهنة الصرافين الذين يقرضون المال³.

¹ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 57. حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 290.

² خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 121.

³ غادة حمدي عبد السلام: المرجع السابق، ص 111.

- تعامل اليهود بالربا في معاملاتهم التجارية اذ لا تحرم معتقداتهم اليهودية الربا الا فيما بينهم، وذلك ما مكنهم من ممارسة كل ما هو مشروع وغير مشروع من أجل كسب المال والربح، وهذا لم يكن مباحا بالنسبة للمسلمين العراقيين بحكم تحريم الدين الاسلامي للربا¹.

- الخبرة التي اكتسبوها في علاقاتهم التجارية وامساكهم بالحلقات الأساسية للتجارة العراقية من خلال العمل الجدي، ومعرفتهم بكيفية تسيير الأمور، وهو ما مكنهم من العمل ممثلين ووكلاء للشركات التجارية الأجنبية، وصعودهم التجاري، والارتقاء فوق التجار المحليين من غير اليهود.

- دعم الشركات التي يملكها اليهود في الهند وأوروبا في اسنادهم واقراضهم بالمال عند حاجتهم له، وتبادل المعلومات والخبرات معهم في ميدان التجارة والمال والأعمال حتى أصبحوا مستوردين للبضائع من الهند وبريطانيا مباشرة دون وساطة التجار الانجليز².

- إلغاء ضريبة الجزية المفروضة وفق شرائع الدين الإسلامي، وهي الضريبة التي كانت مفروضة عليهم، علاوة على إعفاء اليهود من الخدمة العسكرية، والضريبة الجماعية، وتم ذلك في سياق ما يسمى بالإصلاحات التي احتوتها القرارات التي صدرت تحت بند المرسوم الثاني المعروف بخط همايون في 18 فيفري 1856م، أي بما يسمى الإصلاحات الدستورية، وتكرر فيه التأكيد على حقوق المواطنة والمساواة في مجال الالتحاق بالوظائف العامة، وحرية العبادة، وإنشاء المحاكم الخاصة بهم.

وبتدبير محكم وتنسيق تام مع أبناء جلدتهم من اليهود، وخصوصاً في مانشيستر البريطانية وبومباي الهندية، وكرمنشاه الإيرانية، وغيرهم من المدن التي تواجد فيها اليهود واحتلوا فيها مواقع إقتصادية مهمة، تمكن اليهود العراقيون من إيجاد روابط مهمة مع الخارج ييسر وسهولة عبر الإتصال بالوكلاء والبنوك المصرفية وتأسيس البنوك والشركات داخل العراق³، لا سيما بعد فتح قناة السويس عام 1869م حيث شهد نموهم التجاري طفرات مهمة.

توسعت نشاطات اليهود العراقيين في المجالات التجارية والإقتصادية المتاحة⁴، ومن الناحية الجغرافية فقد غطت عمليات إنتشارهم المدن العراقية الهامة، مما وسع فرص الإستثمار المالي في الأسواق، وتمكن قسم منهم من فتح شركات ومصارف أو إقامة وكالات عنهما في لندن العاصمة البريطانية، في الهند وبلدان أوروبية وآسيوية أخرى.

¹ حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 287.

² عباس شبلاق: المرجع السابق، ص 23.

³ حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 290.

⁴ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 61.

وامتدت سيطرة يهود العراق على الحياة التجارية الى سيطرتهم على غرفة تجارة بغداد منذ نشأتها العام 1910م اذ شكل فيها التجار اليهود ثلثي الأعضاء، أي ستة أعضاء من أصل تسعة كانوا من اليهود، وهذا ان دل على شيء فانه يدل على عدد وقيمة التجار اليهود وسيطرتهم المطلقة على دواليب التجارة العراقية .

هذا، والملاحظ أنه كلما زادت الامبراطورية العثمانية ضعفا، انعكس ذلك الضعف على اليهود قوة في الوضع الإقتصادي والتجاري العراقي، ولعل ذلك بسبب الضغوط الأوربية المفروضة على الإمبراطورية العثمانية السائرة الى الانهيار، وبالتالي يتم من خلالها منح اليهود العراقيين الحقوق المتساوية المعطاة لرعايا الدول الأجنبية من الأوربيين¹.

2- أشهر العائلات اليهودية المسيطرة على التجارة مطلع القرن العشرين:

ان سيطرة يهود العراق على التجارة ادى الى ظهور عائلات تجارية ذات مكانة رفيعة في عالم التجارة في العراق مثل آل شعشوع الذين سيطروا على استيراد وتصدير التمور²، واشتهرت هذه العائلة بقصرها الكبير المسمى قصر شعشوع على أطراف الأعظمية الذي اتخذه الملك فيصل منزله الأول . وآل دانيال وعميدهم مناحيم دانيال الذي اتخذ الملك فيصل الاول من بيتهم الكبير في منطقة السنك³ سكناً له بعد غرق قصر شعشوع، ولعل سوق دانيال الموجود حتى الآن من أشهر أسواق البزازين في بغداد. وآل ساسون الذين كانت وما زالت لهم شهرة واسعة⁴، أشهرهم ساسون حسيقل أول وزير مالية في أول حكومة عراقية، ولم يقتصر نشاط عائلة ساسون التجاري على العراق ومنطقتي المحيط الهندي وبلدان الشرق الأقصى، إنما شملت البلدان الأوروبية عامة وإنجلترا خاصة، وقد اشتهرت عائلة ساسون التجارية في لندن باسم شركة ساسون، ثم توسعت هذه الشركة بواسطة دافيد بن داوود ساسون فقد شملت الشركة العراق وإيران ووسط آسيا واحتكرت المنسوجات الانكليزية وتجارة الأفيون، وقد "نبغ منهم رجال في السياسة والأدب كالسير (فيليب ساسون) الذي أصبح عام (1839-1888م) وكيل وزارة الطيران ووزير الأشغال العامة في انكلترا⁵ ونذكر أيضا آل عدس الذين سيطروا على الاستيراد والتصدير في البصرة وبغداد أشهرهم الأخوين ابراهيم عدس وشقيقه شفيق عدس من كبار تجار البصرة ووكيلاً لعدة شركات بريطانية وأمريكية، هذا الأخير الذي

¹ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 69.

² يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 29.

³ يوسف روق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 189.

⁴ حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 290.

⁵ يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 37.

اتهم بالتجسس لصالح إسرائيل وأعدم في 23 سبتمبر 1948م¹، وأحدث اعدامه استياء كبيراً لدى اليهود.

لقد أدرك اليهود أكثر من غيرهم أن الاقتصاد هو عصب الحياة، وأن سيطرتهم على هذا الجانب يعني سيطرتهم على شريان مهم في البلاد. وعلى الرغم من هيمنتهم على تجارة العراق و ثرائهم الفاحش، إلا أنهم لم يخدموا الاقتصاد العراقي، ولم يسهموا في انشاء قاعدة صناعية في العراق بينما نرى منهم من ساهم في تمويل النشاط الصهيوني المعادي للعراق وفلسطين وللعرب².

وقد كان لسيطرة اليهود على التجارة العراقية آثارها الواضحة منها ممارسة نفوذها على الحياة السياسية، كما أدى توسيع أولئك التجار نشاطهم متعاونين مع الجاليات الأجنبية، أو من يرتبط بمصالحهم، عن طريق فتحهم الأسواق المحلية على مصراعيها أمام البضائع الصناعية الأوروبية الرخيصة، وهكذا احتلت تلك البضائع الأسواق منافسة الإنتاج المحلي على نحو خطير أضر بالصناعات المحلية اضراراً بالغاً، وأثر سلباً على الميزان التجاري للعراق إذ فاقت نسبة الاستيراد نسبة الصادرات بأضعاف مضاعفة.

وقد كان تركيز التجار اليهود المسيطرين سيطرة كاملة على الاقتصاد العراقي منصباً بشكل كبير على الاستيراد الذي كان يدر عليهم أرباحاً طائلة، وكانوا غير مباليين بما يشكله ذلك التوجه من خطر على نمو الاقتصاد العراقي³، وبغض النظر عن تعمدهم الاضرار بالعراق أو جشعهم وحبهم للمال أعمى بصيرتهم عن النتائج السلبية المنعكسة عن تلك السياسة التجارية فان النتيجة كانت تراجع القطاع الصناعي والحرفي تراجعاً مخيفاً، بل وانقرضت عدة نشاطات جراء ذلك.

هذا ما أكدته الدكتور محمد سلمان حسن في كتابه الهام الذي يبحث الوضع الإقتصادي العراقي خلال قرن كامل تقريباً، والمعنون بالتطورات الإقتصادية في العراق (1864-1958م)، من خلال المقارنة ما بين مؤشرات حالات التصدير والإستيراد ليستخلص بأن عدم التناسب بين ظاهري الإستيراد والتصدير، الذي كان أهم سبب في انهيار القطاع الصناعي في النصف الأول من القرن العشرين، وأرجع السبب في ذلك يعود إلى الأعضاء اليهود في الهيئة الإدارية للغرف التجارية الذين شجعوا الإستيراد على حساب التصدير وأغرقوا الأسواق العراقية بالمواد الكمالية والمصنعة الجاهزة التي لا تخدم تطور الصناعة العراقية في أي من المجالات الممكنة آنذاك⁴.

¹ عباس شبلق: المرجع السابق، ص 84.

² محمد حسن سليمان: المرجع السابق، ص 33.

³ حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 290.

⁴ محمد حسن سليمان: المرجع السابق، ص 33.

رابعاً- دور اليهود في النشاط المصرفي (الصيرفي):

كان ليهود العراق الدور الفعال والكبير في النشاط المصرفي في العراق منذ القدم، فقد كانت الدولة العثمانية وولاتها في العراق يعتمدون اعتماداً كلياً في الوظائف الحساسة المتعلقة بالشؤون المالية على أبناء الطائفة اليهودية¹. وفي العراق كان الدور الكبير لأثرياء اليهود لتولي مهمة الإشراف على الشؤون المالية، وهذا لما عرف عنهم من خبرة في هذا المجال، فقد كان منصب الصراف باشي وهو منصب يعادل منصب وزير المالية في الوقت الحالي يشغله غالباً أحد رجال العائلات اليهودية الثرية في العراق، وأغلب الأحيان كان يمثل هذا المنصب رئيس الطائفة اليهودية. ومثال على ذلك فقد تولى هذا المنصب في عهد الوالي سعيد باشا (1813-1816م) صالح ساسون مع العلم أن هذه العائلة ورثت، هذا المنصب لمدة 40 عاماً². وقد كان صيارفة اليهود على شيء كبير من الواجهة يأتهم كبار رجال الدولة على أموالهم ويقدمون إليهم المساعدات ويتعاملون معهم بكل احترام، كما كانت لهم كلمة مسموعة، ومن أقدم وأشهر الصيارفة اليهود في العراق حسيقل الياهو واسحاق اليهودي وعزرا وغيرهم³.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر سيطر يهود العراق سيطرة مطلقة على النشاط المصرفي في العراق فحققوا أرباحاً ضخمة وجمعوا أموالاً وثروات طائلة، حيث استحوذوا على أغلب رؤوس الأموال المحركة للاقتصاد العراقي في القطاعات الثلاث، وتذكر المصادر التاريخية أن فوائد القروض في نهاية القرن التاسع عشر تصل إلى 58% وأحياناً إلى 100%، ويذكر ألكسندر آداموف عن البصرة قائلاً «ان اليهود المحليون قبل أن يفتح البنك العثماني فروعا له في العراق الجنوبي يهيمنون على جميع الشؤون المصرفية تقريباً»⁴، وهذا يدل على أن هيمنة اليهود تعدت بغداد إلى أغلب المدن العراقية، ومن العوامل التي ساعدتهم على ذلك :

- تحريم الدين الاسلامي العمل بالربا واعتماد النشاط المصرفي في قوله تعالى ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ^ط وَإِنْ تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ

¹ يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 35.

² خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 59.

³ يوسف روق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 169.

⁴ ألكسندر آداموف: المصدر السابق، ص 234.

⁵ سورة البقرة: الآية 276.

وهو الأمر الذي فسح المجال لغير المسلمين للعمل في هذا المجال دون منافسة، خاصة اليهود الذين يجرمون الربا فيما بينهم لكنهم يخللون في تعاملاتهم مع غير اليهود¹.

- مساهمة الشركات الأجنبية برؤوس أموالها الكبيرة في مجالات التجارة والاستيراد والتصدير، وقد قامت هذه الشركات بفتح الوكالات التجارية في بعض محافظات العراق مما ساهم في التعامل بكميات كبيرة بالسيولة النقدية، وتفضيلهم للمتعاملين اليهود أو المسيحيين.

- امتلاكهم رأس المال الدهاء والحنكة في هذا المجال نتيجة لخبرتهم الكبيرة التي اكتسبوها أثناء عملهم في النشاط المصرفي لعدة قرون منها معرفتهم لأسعار العملات الأجنبية، والعمليات البنكية وكذلك استغلالهم للظروف والأوضاع الاقتصادية لتحقيق أكبر مكسب ممكن.

- إيداع المسلمين أموالهم عند اليهود من دون فائدة لكن اليهود يقترضونها بالفائدة فيستفيدون من ذلك، كما أن الشركات الأجنبية تودع أموالها لدى الصيرافة اليهود وتقترض منهم عند الحاجة.

- تواصل الصيرافة اليهود مع أشقائهم في الخارج كالهند وبريطانيا وباقي مناطق العالم لمعرفة تطورات أسواق المال العالمية، ومعرفة أسعار العملات العالمية وهذا ما ساعدهم على تحقيق مكاسب مالية ضخمة².

- ضعف وقلة معرفة التجار وأصحاب المحلات في العراق من المسلمين خاصة لأهمية المصارف وكيفية الإيداع والسحب والتعامل بالأوراق والحوالات المالية.

كما ظهرت في الأسواق العراقية لأول مرة العملات الأجنبية في نهاية القرن التاسع عشر، حيث كان وكلاء الشركات الأجنبية هم اليهود العراقيين ذوي الخبرة في العملات وأسعار الصرف، واشتهر في تلك الفترة الصيرفي العراقي حضوري زلخة، فقد فاق نشاطه نشاط البنوك، كما عمل الكثير من أبناء الطائفة اليهودية في العهد العثماني في محلات الصيرفة وتحويل العملات، فقد كان بعضهم يرسل عماله إلى الأسواق وأماكن تواجد الزوار الأجانب يرتدون زي خاص بهم ويحملون في أيديهم كمية من النقود المعدنية يحركها الواحد منهم من يد لأخرى لجذب انتباه المارة، وعند انتهاء عملهم بعد الظهر يذهبون إلى مكاتب الصيرفة ليتحاسبوا على الإيراد اليومي مع الصرافين الأصليين.

ويعود الفضل لليهود في البدايات الحقيقية والصحيحة لتأسيس المصارف الأهلية في العراق، مع ازدياد وزخم الأنشطة المالية والحاجة لفتح البنوك في العراق لذلك تم تأسيس أول بنك في بغداد عام 1889م وهو فرع فقط من البنك العثماني، وبعد ذلك قام العراقي اليهودي حضوري زلخة بتأسيس أول مصرف

¹ حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 287.

² عباس شبلاق: المرجع السابق، ص 84.

يهودي أهلي عراقي ببغداد عام 1899م¹، كما أسس خضوري زلخة شبكة مالية في لندن وبيروت ودمشق والقاهرة . وفي العام 1909م قام يعقوب حسقيل ساسون بفتح البنك الشرقي (Eastern Bank) في لندن وقام في عام 1912م بفتح فرع له في بغداد، ثم فتح فروعاً له في البصرة والموصل وكركوك وغيرها من المدن العراقية² .

¹ غادة حمدي عبد السلام: المرجع السابق، ص 112.

² حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 291.

المبحث السادس-تفاعل ودور اليهود ثقافيا واجتماعيا في العراق:

منذ أول تواجد لليهود بأرض العراق بعد تهجيرهم استطاعوا المحافظة على هويتهم وخصوصياتهم بما جلبوه معهم من عادات وتقاليد وثقافة خاصة بهم، وقد برز منهم في بلاد ما بين النهرين مثقفون بابليون أو عراقيون لكن بخلفية دينية يهودية، إلى جانب جمهرة من المثقفين من شعوب أخرى قطنت المنطقة، ومن خلفيات دينية ولغات أخرى، نشطوا في مجالات مختلفة بما فيها الفكر، والفكر الديني والتقاليد والعادات والاقتصاد والتجارة والمال والتعليم والآداب والفنون، ومنها النحت والمسرح والموسيقى والغناء. وما كتابة يهود بابل للتلمود¹ بشكل خاص إلا دليلا واضحا عن ذلك النشاط والحيوية في الفكر الديني اليهودي لأولئك الأوائل الذين أسروا واقتيدوا عنوة وأجبروا على السكن والعيش في مناطق بكرديستان وعلى ضفاف نكري دجلة والفرات، وأصبحت بمرور الزمن وطنهم الأول²، كما أصبحت اللغة العربية اللغة الأم.

وعلى مر تاريخ اليهود في العراق كونوا جزء من ثقافة هذا البلد، كما ساهموا في فترات تاريخية متباينة مساهمة ثقافية فعالة، وكمثال على ذلك مساهمة اليهود في مختلف العلوم والطب والترجمة في العهد العباسي. لكن كلما تدهورت أوضاع العراق السياسية أثر ذلك مباشرة على مختلف المجالات والمجتمع اليهودي كجزء من المجتمع العراقي يتأثر بما يؤثر على المجتمع العراقي ايجابا وسلبا .

والمعلوم عن تاريخ العراق الثقافي في العهد العثماني مر بمرحلتين الأولى قبل القرن التاسع عشر، وهي فترة ركود ثقافي واضح لها أسبابها الموضوعية لمرتبطة بباقي الأوضاع السياسية والاقتصادية وغيرها، والمرحلة الثانية ما بعد القرن التاسع عشر التي شهد فيها العراق نهضة ثقافية وفكرية انعكست على جميع المجالات الثقافية والاجتماعية كالتعليم والتأليف والترجمة الخ، وظهرت وبرزت معالمها بشكل أكثر وضوحا مع بداية القرن العشرين.

هذا، وفي خضم هذا التحول برز مثقفون يهود في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كما برز مثقفون عرب في كل من بغداد والموصل والنجف والبصرة والحلة على نحو خاص، وكذلك مثقفون كرد وغيرهم خلال تلك الفترة³، وما يخص دراستنا هذه هو تسليط الضوء على أهم مظاهر ومساهمة الأقلية اليهودية ثقافيا واجتماعيا في العراق خلال تلك الفترة .

¹ حسن ظاظا: المرجع السابق، ص 97.

² أحمد سوسة: ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ص 33.

³ عصام جمعة أحمد المعاضيدي: الصحافة اليهودية في العراق، ط1، الدار الدولية للاستثمارات، القاهرة، ص 31.

أولاً- دور اليهود في الصحافة والطباعة العراقية خلال العهد العثماني:

1- الصحافة:

لعب الصحفيون اليهود دوراً مهماً في المجتمع العراقي والصحافة العراقية على حد سواء كونهم صحفيون امتهنوا الصحافة منذ وقت مبكر، وأصدروا العديد من الصحف العراقية، وعملوا في صحف عراقية كـ مترجمين ومصححين ومراسلين وكتبوا الافتتاحيات بتوقيع مستعار أو نسبوه الى المحرر¹. وساهمت الصحافة اليهودية في ابراز الجانب الثقافي والاجتماعي لليهود العراق منذ صدور أول صحيفة « هادوير » عام 1863م، وقد ترأس تحرير الصحف أسماء يهودية معروفة في المجتمع العراقي، وقد وصف مؤرخون يهود أن نهضتهم تلك كانت محاولة لاصلاح المجتمع العراقي وعاداته وأخلاقه وتقاليده الضارة لكي يتبوأ العراق مكانته اللائقة به كدولة مستقلة ذات مستوى ثقافي لا يقل عن سائر البلدان العربية بل عن دول أوروبا، وفي ما يلي سنحاول تسليط الضوء عن الصحافة اليهودية في العراق أواخر العهد العثماني ليتبين دور الطائفة في هذا المجال وهي كالتالي:

أ- الصحف اليهودية قبل اعلان الدستور 1908م:

(1)- هادوير: يعتبرها الكثير أول صحيفة يهودية صدرت في العراق باللغة العبرية عام 1863م، لكن هناك من يخالف هذا الرأي ويرى أن أول صحيفة يهودية كانت هماجيد وتعني الواعظ، وذلك عام 1863م²، أما اهتماماتها ومواضيعها فقد غلب عليها الجانب الديني الارشادي .

(2)- هامجيد: يرى البعض أنها ثاني صحيفة يهودية صدرت عام 1864م، لكن كما ذكرنا فهناك لغط واختلاف حول تاريخ صدور أول صحيفة لليهود العراق، وكما يرى عصام جمعة أحمد المعاضيدي أن لا دليل عن صحة هذه المعلومات واستدل على ذلك بعدم وجود أي نسخة من هذه الصحف، وعدم تكلم أي من الذين عايشوا تلك الفترة عن هذا الموضوع، كما أن الجميع يتفق على أن صحيفة الزوراء التي صدرت في عهد مدحت باشا في 15 جوان 1869م هي الأولى في العراق³.

ب- الصحف اليهودية بعد اعلان الدستور 1908م:

(1)- تفكر: كانت أول صحيفة لليهود العراق بعد اعلان الدستور في العام 1908م، وصدرت باللغتين العربية والتركية، ومديرها المسؤول سلمان عنبر، أما مواضيعها فقد كانت متعددة ومتنوعة⁴.

¹ عباس شيبلاق: المرجع السابق، ص 21.

² غادة حمدي عبد السلام: المرجع السابق، ص 221.

³ علي الوردي: المرجع السابق، ج3، ص 247.

³ عصام جمعة أحمد المعاضيدي: المرجع السابق، ص 32.

(2)- **صدى بابل**: ظهرت العام 1909م وتصدر صباح كل خميس، وكانت تدافع عن حقوق العرب في الدولة العثمانية بالتزامن مع ظهور حركة التتريك في الدولة العثمانية لكن عديد مقالات هذه الصحيفة كانت تدعو لعودة اليهود الى فلسطين لكن لم ينتبه لها أحد .

(3)- **الزهور**: وهي جريدة سياسية صدرت عام 1909 أسسها نسيم يوسف عزرا سوميخ بعد عودته من رحلته الدراسية في حلب وبيروت بالاشتراك مع رشيد الصفار، وهما من الصحفيين المبدعين، وتعد من أولى الصحف اليهودية التي صدرت باللغة العربية آنذاك .

(4)- **صحيفة ما بين النهرين**: صدرت نهاية العام 1909م لمؤسسها حسيقل مناحيم عاني¹. وفي عام 1912م أصدرت الدولة العثمانية تعديلات على قانون المطبوعات الصادر بعد اعلان الدستور، وقضت هذه التعديلات على الكثير من الامتيازات التي كانت قد منحت لاصدار المطبوعات، وبعد لندلاع الحرب العالمية الأولى تحولت هذه الصحف الى أبواق لكلا الطرفين المتحاربين، وكان دخول القوات البريطانية الى بغداد هو المحرك الذي دفع بالكثير من اليهود الى النهوض مجددا مستبشرين بالمحتلين الجدد².

2- الطباعة:

يعد تاريخ طباعة الصحف اليهودية في العراق من المواضيع التي مازال فيها الكثير من الغموض والاجتهادات والآراء التي لم تحسم لحد الان، والسبب هو أن تاريخ الطباعة والصحافة بالعراق بأكمله يلفه الكثير من الغموض، وما عقد الأمور أكثر عدم وجود أرشفة ولا توثيق ولا وثائق ولا مذكرات ولا دفاتر ولا سجلات لأوائل العاملين في هذا المجال اضافة الى ضياع وفقدان الكثير من المطبوعات التي هي الدليل المادي لما كان موجود وما تم انتاجه وطبعه في تلك الفترة من صحف.

واذا ثبت بالدليل مصداقية الاخبار التي تناقلتها كتابات الرحالة الاوربيون بصدد قيام الوالي العثماني لبغداد داود باشا الذي حكم ولاية بغداد للفترة من 1818م ولغاية 1831م بانشائه مطبعة لطباعة صحيفة «جورنال العراق» ضمن المشاريع الكثيرة والكبيرة الصناعية والزراعية التي قام بها في بداية حكمه³، كونه من الولاة ذو النزعة الاستقلالية عن الدولة العثمانية، والذي كان قد استعان بالخبراء الاوربيين وخاصة الفرنسيين في تدريب جيشه وبناء القناطر والمصانع فان العراق ربما يعتبر أول بلد عربي دخلت الطباعة اليه

¹ عباس شيبلاق: المرجع السابق، ص 21.

² خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 80.

³ علي الوردي: المرجع السابق، ج 1، ص 250.

وتكون جريدة «جورنال عراق» أول صحيفة في العراق والوطن العربي وربما المنطقة وآسيا، وفيما يلي أبرز مطابع الطائفة اليهودية في العراق:

أ- **مطبعة رحمايم**: أنشأت عام 1869م، وتعد من أشهر المطابع في العراق وقد طبع فيها حوالي مائتان وخمسة وأربعون كتاب في شتى المجالات .

ب- **مطبعة يهوذا بيخور**: ذكرها الدكتور علي الوردي على أنها أول مطبعة يهودية أنشأت في العام 1884م، وكان فيها حروف عبرية لطبع الكتب الدينية، لكن اذا افترضنا صحة هذا الكلام فان المعلومات التي تفيد بظهور أول صحيفة يهودية عام 1863م غير صحيحة¹ .

ج- **مطبعة إيشاع**: لصاحبها إيشاع شوحيط، ومن الكتب المشهورة التي اصدرتها هذه المطبعة، (شرح التوراة باللغة العبرية في مواعظ ايام السبت والاعياد) لمؤلفه الحاخام مير رحيم ابراهام، وكذلك طبع كتب الحاخام عزرا دنكور وغيرهما².

د- **مطبعة دنكور**: وهي من أشهر وأقدم المطابع في العراق تأسست عام 1904، أسسها الحاخام عزرا بن روبين بن موشي بن حايم دنكور (1848-1930) ولاحقاً استلم المطبعة (الياهو عزرا دنكور) وهو تاجر معروف حيث تعد عائلة دنكور من العوائل اليهودية البغدادية العريقة والمعروفة برجال الدين والتجارة، حيث ذاع صيت افرادها في انشاء احدث المطابع وادخال احدث التقنيات التي كانت تستخدم في انتاج المطبوعات على مختلف انواعها اضافة لنشاطها في استيراد الورق من السويد، الأمر الذي جعلهم يحتكرون هذا القطاع بالرغم من المنافسة التي كانت قائمة آنذاك³ .

طبعت في هذه المطبعة العديد من الكتب المهمة، منها (الدليل الرسمي للمملكة العراقية) لسنة 1936م وبالطبعتين الانكليزية والعربية، ومئات من الكتب العربية واكثر من 100 كتاب للصلاة وكذلك كتب وزارة المعارف العراقية من كتب مدرسية لمختلف مراحل الدراسة والعديد من الصحف والمجلات منها صحيفة (تفكر) الناطقة باسم جمعية الاتحاد العثماني الاسرائيلي وعدد من مجلات لغة العرب عام 1912م.

¹ غادة حمدي عبد السلام: المرجع السابق، ص 227.

² عصام جمعة أحمد المعاضيدي: المرجع السابق، ص 39.

³ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 78.

ثانياً- التعليم اليهودي في العراق خلال العهد العثماني:

كانت أوضاع التعليم تعاني من الركود وضعف المستوى إلى حين قدوم الوالي مدحت باشا (1869-1871م) الذي حرك الأوضاع من خلال الحركة الإصلاحية التي نشطت بها جميع مرافق الحياة، وقد أنشأت المدارس العسكرية، رشيدية وإعدادية¹، وفي عام 1881م تخرجت في بغداد الدفعة الأولى من تلاميذ الإعدادية العسكرية وكان عددهم ثلاثة عشر².

مثلهم مثل باقي العراقيين عاش يهود العراق قبل القرن 19م في جهل كبير بحكم تعاليم حاخاماتهم الذين يمنعون التعليم غير الديني على أبناء طائفتهم لكن مع بداية القرن 19م بدأ اهتمام الطائفة بالتعليم، ولذلك أسسوا المدارس في مختلف الولايات لكن غلب على مناهج هذه المدارس التعليم الديني لكن النقلة النوعية في مجال التعليم بالنسبة لهذه الطائفة حدثت بعد منتصف هذا القرن بعد تأسيس جمعية الأليانس العالمية (الاتحاد الاسرائيلي)، حيث أولت هذه الجمعية تعليم اليهود والنهوض بأوضاعهم الثقافية أهمية قصوى فبدأت بفتح مدارس التعليم الحديث في كل البلدان التي يتواجد بها يهود ومن بينها العراق، وقد قدمت هذه المدارس خدمة كبيرة للأقلية اليهودية في العراق³.

وقد أكدت المصادر التاريخية أن هذه الجمعية جاجت منذ تأسيس أول مدرسة للأليانس في سنة 1864م⁴ تحديات من الهيئة الدينية ومدارس المدارس احتجاجاً على البرامج العلمية التي أعتبرت بدعة تضعف تمسك الطلاب بتعاليم دينهم وتضعف سطوة رجال الدين، وأخذت الجهات الدينية تعارض المدرسة بكل قوة، وقد أثار ذلك صراعاً حاداً بين التيار التقليدي والتيار المستنير وأصدر الحاخام يوسف حليم فتوة دينية دعمها أكثر الحاخامين اليهود تمنع الأسر الدينية من إرسال أولادهم للدراسة في المدرسة مما أدى إلى إغلاق المدرسة وعودة مديرها إلى فرنسا .

وبعد محاولات فاشلة لافتتاح المدرسة ثانية حصلت القوى اليهودية المستنيرة على دعم غير متوقع من الحاخام عبد الله سوميخ الذي أعلن تأييده لموقف جمعية الأليانس، وعزز قراره بالحاق ابنه بالمدرسة التي افتتحت ثانية في العام 1865م⁵، وعين المسيو ماركس مديراً لها وافتتحها بحضور عبد الله سوميخ الذي كان موقفه هو الحافز الأول في التحاق اليهود بالمدرسة.

¹ علي الوردي: المرجع السابق، ج3، ص 235.

² عباس عزوي: المصدر السابق، ج8، ص 79.

³ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 76.

⁴ فاضل البراك: المرجع السابق، ص 27.

⁵ يوسف رزق الله غنيمه: المصدر السابق، ص 177.

ومنذ ذلك الحين عملت مدارس الأليانس أولاً على تخصيص حصص دراسية لتعليم الكتب الدينية عند اليهود، والتبشير بمفاهيمها خاصة التلمود، كما خصصت حصص أخرى لتدريس التوراة ارضاء للتيار المعارض، وأخذت تجلب المعلمين، لأجل ذلك من كل أطراف الدنيا، وخاصة من فلسطين وكانت تدرس اللغة العبرية، ثم أخذت تضيف للمنهاج العام العلوم الأخرى تدريجياً كالتاريخ والجغرافيا العلوم، الطبيعيات... وغيرها، وكانت تدعم من قبل الجمعيات اليهودية في فرنسا، والجمعية الانكليزية اليهودية في لندن، وقد دعمها من العراقيين اليهود السيد ألبرت ساسون، ومناحيم دنيال، وقد سمح لغير اليهود الانضمام اليها، فدخلها شباب من المسلمين والمسيحيين وتخرجوا منها.

وقد تخرج من هذه المدارس فئة من الشباب المثقف، وكان لأكثرهم دور بارز في المجتمع العراقي بصورة عامة، والأقلية اليهودية بصورة خاصة، وكان لهذه المدارس فروع في كل من الموصل، والبصرة، والعمارة ومناطق أخرى.¹

1-مدارس اليهود في ولاية بغداد :

شكلت بغداد منذ النصف الثاني من القرن التاسع مركز السكان اليهود نظرا للأسباب التي ذكرناها سلفا لذلك ضمت الولاية أكبر عدد من المدارس اليهودية في العراق ومنها:

أ-مدارس المدراس:

هي مجموعة من المدارس الدينية تشبه الكتاتيب عند المسلمين، وتبلغ 30 مدرسة مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وهي لا تختلف كثيراً عن الحيدر² لكنها أكثر تنظيماً، وفتحت أولها في بغداد تحت مسمى مدرسة مدراس تلمود وتوراة في العام 1832م³، وتم تأسيسها من قبل الراي موشي لاوي أحد أجداد الحاخام الربائي حسيقل الوكيل، وكانت تهتم بالتعليم الديني لذا تراها قد خصصت نصف ساعات تعليمها الأسبوعي للدروس الدينية، والتي شملت تعليم التوراه والتلمود وفقرات مختارة من دوواوين الشعر العبري، وبلغ عدد طلابها سنة 1913 م نحو 2700 طالباً⁴.

¹ يعقوب يوسف كورية: المرجع السابق، ص 65.

² الحيدر: قسم قدم الديانة اليهودية وهو عبارة عن مكان صغير يشبه الكتاب عند المسلمين يتلقى فيه الأطفال اليهود التعليم الديني الأول.

³ عبد الرزاق الهلالي: تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني (1638-1917م)، ط1، شركة الطبع والنشر الأهلية، بغداد، 1959م، ص 209.

⁴ فاضل بيات: المرجع السابق، 439.

ب-مدرسة جمعية الأليانس للبنين: تعتبر أول مدرسة للأليانس أنشأت العام 1864م¹، وجاءت فوراً تحديات من الهيئة الدينية ومدارس المدارس احتجاجاً على البرامج العلمية التي أعتبرت بدعة تضعف تمسك الطلاب بتعاليم دينهم وتضعف سطوة رجال الدين وأخذت الجهات الدينية تعارض المدرسة بكل قوة مما أدى إلى اغلاقها. وبعد محاولات فاشلة لافتتاح المدرسة ثانية حصلت القوى المستنيرة بدعم غير متوقع من الحاخام عبد الله سوميخ الذي أعلن تأييده لموقف جمعية الأليانس، وعزز قراره بالحاق ابنه بالمدرسة التي افتتحت ثانية في العام 1865م²، وعين المسيو ماركس مديراً لها وافتتحها بحضور عبد الله سوميخ الذي كان موقفه هو الحافز الأول في التحاق اليهود بالمدرسة .

وعملت أولاً على تخصيص حصص دراسية لتعليم الكتب الدينية عند اليهود، والتبشير بمفاهيمها خاصة التلمود، كما خصصت حصص أخرى لتدريس التوراة، وأخذت تجلب المعلمين، لأجل ذلك من كل أطراف الدنيا، وخاصة من فلسطين وكانت تدرس اللغة العبرية، إضافة إلى المنهاج العام التاريخ والجغرافيا العلوم، الطبيعيات... وغيرها، وكانت تدعم من قبل الجمعيات اليهودية في فرنسا، والجمعية الانكليزية اليهودية في لندن، وقد دعمها من العراقيين اليهود السيد ألبرت ساسون، ومناحيم دنيال، وقد سمح لغير اليهود الانضمام إليها، فدخلها شباب من المسلمين والمسيحيين، وتخرجوا منها³.

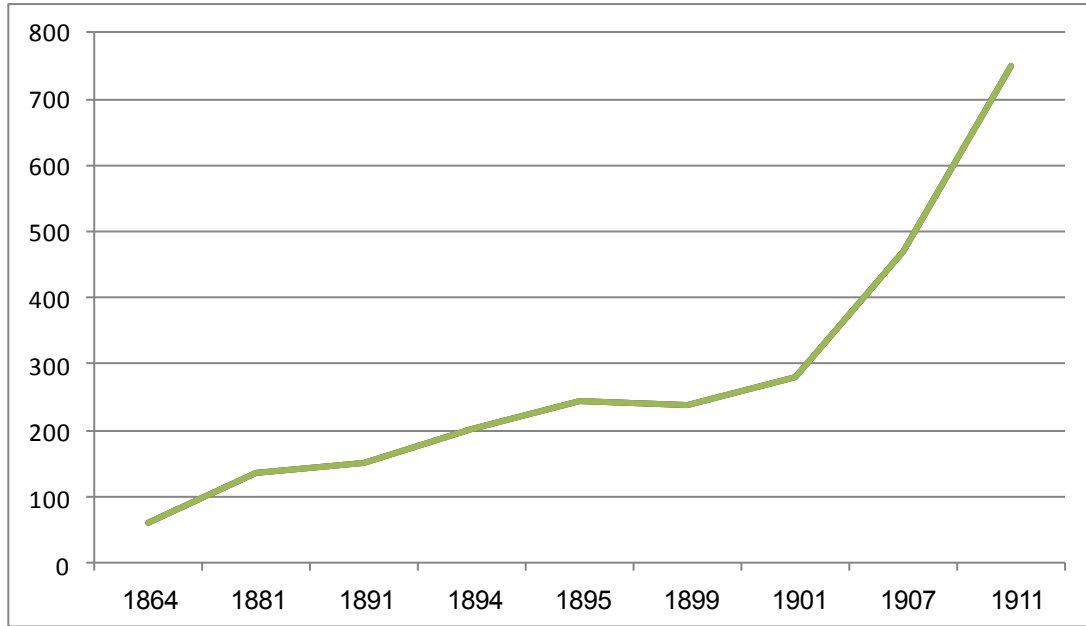
جدول رقم 06: يبين عدد طلاب مدرسة الأليانس للبنين في بغداد (1864-1911م)

العام	1864	1881	1891	1894	1895	1899	1901	1907	1911
عدد الطلاب	75-43	135	150	201	245	238	281	469	750

¹ فاضل البراك: المرجع السابق، ص 27.

² يوسف رزق الله غنيمه: المصدر السابق، ص 177.

³ جميل موسى النجار: التعليم في العراق خلال العهد العثماني الأخير (1869-1918م)، ص 292.



الشكل رقم 02: منحنى بياني يوضح تزايد عدد الطلاب في المدرسة منذ تأسيسها

ج-مدرسة جامعة للبنين: تأسست عام 1886م، وبلغ عدد طلابها 125 طالب عام 1901م، توقفت بعد صدور الدستور العثماني عام 1908م¹.

د- مدرسة الأليانس للبنات: تأسست عام 1893م كأول مدرسة للبنات اليهوديات في العراق، اعتبرتها الحكومة بمستوى المدارس الرشدية، وتدرس الفرنسية والعربية والعبرية، وبعض الدروس العملية كالنقش والطرز وغيرها. أما عدد طالباتها كان في زيادة ملحوظة حيث بلغ في العام 1907م 257 طالبة²، و400 طالبة عام 1911م³.

هـ-مدرسة رفقه نورئيل: أسست في سنة 1902م، وبلغ عدد طلابها عام 1910م 255⁴، وبلغ عدد معلميها ثمانية، وكانت تابعة لمدرسة الاتحاد الاسرائيلي يديرها مدير واحد.

و-مدرسة راحيل شمعون: أسستها جمعية التعاون سنة 1909م، باسم مدرسة التعاون، وعين لإدارتها شخص يدعى شمعون معلم نسيم، وفي سنة 1922م شيد اليهودي الثري ايليا شمعون بناية خصص طابقها الأسفل للكنيس، وطابقها الأعلى للمدرسة، وأطلق عليهما اسم ابنته راحيل، كان عدد طلابها في سنة 1909م 180 طالبا.

¹ س.و.ب، 1319/1901م، ص ص 478-479.

² س.و.ب، 1325هـ/1907م، ص 336.

³ س.و.ب، 1329هـ/1911م، ص 330.

⁴ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 77.

ح-مدرسة الأطفال المختلطة: أسسها أحد وجهاء اليهود، ويدعى (مناحيم دانيال) سنة 1910م، وقد التحق بها 248 طالبا، وطالبة في سنة 1913 م.

ط- مدرسة الوطن: وهي مدرسة مسائية لتدريس العلوم، واللغات، أفتتحت في سنة 1911م، أسسها يهود بغداد للطلبة الذين يريدون أن يدرسوا العلوم، واللغات بعد غروب الشمس .

ي-مدرسة هارون صالح: تأسست سنة 1912م وكانت مدرسة ابتدائية مختلطة، والتحق بها عند افتتاحها 116 طالبا، و120 طالبة¹.

كما أسست جمعية الأليانس مدارس خارج مركز الولاية منها مدرسة الأليانس في الحلة وافتتحت عام 1907م، وبلغ عدد طلابها في 1910م 175 طالبا. ومدرسة في خانقين افتتحت عام 1913م، وبلغ عدد طلابها وقتها 70 طالبا².

2-مدارس ولاية الموصل:

أ-مدارس القرن 19م:

1)-مدرسة الموصل الأولى: أنشأت هذه المدرسة عام 1839م، وتشير الاحصائيات أن عدد طلابها بلغ 40 طالب عام 1892م، ثم انخفض العدد قليلا بين (1899-1901م) الى 35 طالبا، و30 طالب عام 1903م.

2)-مدرسة الموصل الثانية: تأسست أيضا في العام 1839م، وبلغ عدد طلابها عام 1903م 95 طالبا، أي أكثر من عدد طلاب المدرسة الأولى ثلاث مرات في نفس العام .

3)-مدرسة كركوك: وهي أقدم مدارس المنطقة والعراق حيث أنشأت عام 1814م، وبلغ عدد طلابها 60 طالبا في عام 1903 م .

4)-مدرسة السليمانية: أنشأت العام 1819م وهي أيضا من أقدم المدارس اليهودية في العراق، بلغ عدد طلابها في عام 1903م 25 طالبا .

5)-مدرسة أربيل: أنشأت عام 1824م وبلغ عدد طلابها 35 طالبا عام 1903م، وتعد هذه المدرسة ثالث مدرسة يهودية خارج مركز ولاية الموصل³ .

¹ فاضل بيات: المرجع السابق، ص 439.

² جميل موسى النجار: التعليم في العراق خلال العهد العثماني الأخير(1869-1918م)، ص 300.

³ جميل موسى النجار: التعليم في العراق خلال العهد العثماني الأخير(1869-1918م)، ص 301.

ب-مدارس جمعية الأليانس:

1-مدرسة الأليانس الابتدائية للبنين في الموصل: افتتحت عام 1907م، وبلغ عدد طلابها 204 طالب في عام 1910م، وتعتبر أول مدرسة حديثة في ولاية الموصل، كما استعملت المناهج والوسائل الحديثة في التدريس¹.

2-مدرسة دهوك: كان عدد طلابها 20 طالبا سنة 1903.

3-مدرسة زاخو: بلغ عدد طلابها 30 طالبا سنة 1903م².

هذا وقد فتحت الجمعية مدرسة أخرى في مدينة كركوك عام 1913م.

3-المدارس اليهودية في ولاية البصرة:

أ-مدرسة البصرة المختلطة: أنشأت هذه المدرسة عام 1889م، ومنحت الترخيص الرسمي للعمل عام 1892م، وكانت تضم البنات والبنين عدد طلابها في عام 1893م 25 طالبا، وازداد العدد تدريجيا حتى بلغ 150 عام 1898م منهم تسع بنات، وفي العام 1903م بلغ عدد طلابها 168 منهم 19 طالبة.

ب-مدارس الأليانس في البصرة: أولها مدرسة البنين أنشأتها جمعية الأليانس عام 1903م، وبلغ عدد طلابها في 1910م 285 طالبا³، كما أنشأت الجمعية مدرسة في العمارة عام 1910م، وبلغ عدد طلابها آنذاك 178 طلاب، وكذلك تم فتح مدرسة للبنات عام 1912م⁴.

د-دور مدارس الأليانس في الاهتمام بالتعليم النسوي: بدأ مدير الأليانس مسيو ماركس بالتفكير عن فتح مدرسة للبنات خاصة وأن الأرساليات التبشيرية قد وجدت رواجاً بين البنات اليهود في بغداد. لكن هذه كانت خطوة جريئة تحتاج الى مساندة مالية ومعنوية من الأغنياء والقوى المستنيرة. بعد بعض التلكؤ أفتتحت مدرسة مهنية للبنات سنة 1890م لتعليم الخياطة والتطريز وغيرها من الأعمال المنزلية، وكان التدريب يجري وفق مناهج اوروبية بواسطة معلمات أجنبيات. وفي عام 1886م أفتتحت مدرسة الراهبات التقدمية الأمريكية في بغداد مشغلا ملحقا يعلم البنات التفصيل والخياطة.

¹ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، ص 78.

² س.ن.م.ع، 1321هـ/1903م، ص 959.

³ فاضل البراك: المرجع السابق، ص 30.

⁴ جميل موسى النجار: التعليم في العراق خلال العهد العثماني الأخير (1869-1918م)، ص 297.

في مطلع 1893م¹ أفتتحت كما ذكرنا مدرسة الأليانس لتعليم البنات على طراز مدرسة البنين وتولت ادارة المدرسة زوجة مدير الأليانس مدام دانون، والتحق بها عدد من المعلمات من فرنسا وبعد أنتهاء المرحلة الأولى وظفت بعض الخريجات لتدريس اللغة العربية واللغة العبرية . بقيت هذه المدرسة لمدة عقدين على أساس مدرسة ابتدائية ولكنها شهدت توسعا في عملها ففتح السير ايلي خضوري سنة 1911م ببناء مبنى كبير في محلة التوراة وسميت مدرسة لورا خضوري على اسم زوجته، كانت البناية كبيرة تضم 29 صفا إضافة الى الغرف الإدارية ومستوصف ومختبرات علمية، وجرى افتتاح هذه البناية في نوفمبر 1911م.² ويمكن القول أن مدارس الأليانس قد رفعت كثيرا المستوى التعليمي والثقافي للطائفة اليهودية وجعلتها مواكبة لكل تطور حضاري³، واشتهرت بمستواها الراقي الذي طغى على باقي المدارس الحكومية والأجنبية مما حفز بعض الأسر البغدادية غير اليهودية للالتحاق بها وتخرج منها شخصيات عراقية صار لها لاحقا دورا فعالا في الحقل السياسي والاجتماعي مثل رئيس الوزراء توفيق السويدي ووزير المالية يوسف رزق الله غنيمه والوزير العلامة محمد بهجت الأثري إضافة الى الشخصيات اليهودية مثل ساسون حسقيل وأنور شأوول ومير بصري.

ثالثا-دورهم في حركة التأليف والترجمة والأدب :

اهتمت العائلات اليهودية المدنية سواء كانت غنية أم فقيرة، بتعليم الأولاد والبنات في آن واحد، ويعد إتقان اللغات الأجنبية من جانب المثقفين والخريجين اليهود، وخاصة الانكليزية والفرنسية، عاملا مهما اذ لعب دورا كبيرا في تيسير أمر إطلاعهم على الكثير من الكتب العلمية والثقافية والأدبية وعلى الصحافة والمجلات الأجنبية التي ساهمت في رفع مستواهم الثقافي من جهة، ومشاركتهم في تحديث الثقافة العراقية وادخال مفاهيم جديدة في الحركة الفكرية الثقافية العراقية، إضافة إلى مشاركتهم في الترجمة والتأليف.

برز في تاريخ العراق خلال القرن العشرين العديد من الشخصيات الثقافية اليهودية أغلبها شخصيات مهمة ولامعة، وذات أثر فعال في المجتمع العراقي والثقافة العراقية. ولا عجب أن نجد اليوم قائمة بأسماء عراقية يهودية تكتب بالعربية في إسرائيل وبروح الثقافة العراقية والمزاج الثقافي العراقي، واستنادا إلى التراث الثقافي العراقي الذي حملوه معهم، ويستخدمونه بحوية كبيرة وفاعلية رائعة⁴، لذلك فان كثير من المثقفين اليهود مارسوا الكتابة والصحافة والسياسة والاقتصاد والأدب والفن، وخاصة الموسيقى والغناء، عندما كانوا بالعراق.

¹ يوسف رزق الله غنيمه: المصدر السابق، ص 178.

² عبد الرزاق الهلالي: المرجع السابق، ص 29.

³ جميل موسى النجار: التعليم في العراق في العهد العثماني الأخير (1869-1918م)، ص 292.

⁴ يوسف يعقوب كورية: المرجع السابق، ص 93.

هذا، وقد ذهب بعض الباحثين بأن العراق شهد مثل باقي البلدان العربية ركوداً ثقافياً انعكس بشكل مباشر على الأدب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولم يتعافى منه إلا مع بداية القرن العشرين كما أشار إلى ذلك مير بصري في كتابه أعلام الأدب في العراق الحديث¹، وحتى ممن ذكرت أسمائهم من الأدباء والشعراء قبل ذلك فقد عبرت كتاباتهم بوضوح عن حالة الانحطاط التي سادت تلك الفترة، لذلك غابت الإبداعات الأدبية تماماً ويهود العراق لم يكونوا استثناء فكانت إبداعاتهم لا تتعدى بعض الكتابات الدينية مثل ما يوضحه الجدول التالي:

جدول رقم 7: يبين المطبوعات والمؤلفات اليهودية في بغداد للفترة: (1891-1905م)

اسم الكتاب	اسم المؤلف	سنة الطبع	م-المطبعة
الحياة الطيبة	إصدار الطائفة الإسرائيلية	1892	مطبعة بيخور
صلاح العصر والمغرب	موشي رحيم اللاوي	بلا سنة	مطبعة بيخور
أقوال ساسون	مردخاي موشي	1891	مطبعة بيخور
سفر المزامير لداود	ساسون مردخاي موشي	1892	مطبعة بيخور
أشجار الغابة	الحاخام عزرا دنكور	1905	مطبعة دنكور
قرايين العدل	عبد الله إبراهيم	1904	مطبعة دنكور
الأزمة	يعقوب شور	1902	مطبعة دنكور
مراسيم ليلة نزول التوراة	إصدار الطائفة الإسرائيلية	بلا سنة	مطبعة دنكور
دعاة الجماعة	الحاخام عزرا دنكور	1905	مطبعة دنكور
الأناشيد	الحاخام عزرا دنكور	1906	مطبعة دنكور ²

ومن خلال الجدول يتبين أن اهتمام الكتاب اليهود في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قد تركز على إصدار الكتب الدينية وبعض القضايا الاجتماعية الخاصة باليهود، كما يلاحظ نهضة واضحة في استخدام اللغة العربية بدلاً عن الآرامية والعبرية، منذ مطلع القرن العشرين، فاتجه الشباب اليهودي للتأليف باللغة العربية ممثلين بذلك انتصاراً للتيارات العلمانية التي سادت الطائفة في ذلك الوقت وكان أول كتاب صدر عن الطائفة اليهودية باللغة العربية بعنوان الثورة العثمانية لسليم اسحاق في العام 1909م³.

¹ مير بصري: أعلام الأدب في العراق الحديث، ط1، دار الحكمة، لندن، 1994م، ج1، ص 28.

² عصام جمعة أحمد المعاضيدي: المرجع السابق، ص 39.

³ محمد جلاء ادريس: مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الإسرائيلي المعاصر، ط1، دار الثقافة العربية، القاهرة، 2009م، ص5.

والجدير بالذكر في مجال الأدب هو أنه في أواسط القرن 19 كتبت بعض المخطوطات في بغداد عرفت باسم مخطوطات ساسون، وقد شملت ست مخطوطات في الأغاني العربية وعدد من مخطوطات القصص الشعبية تحتوي على حكايات من ألف ليلة وليلة، ومخطوطة أمثال عربية تدل على تطور في الفكر اليهودي المنحصر في الفكر الديني فقط .

ومن الملاحظ أن الحقبة الأخيرة للحكم العثماني في العراق وفرت أرضية خصبة بما وفرت من فرص التعليم وانتعاش الحياة الثقافية فنبغ عدة شعراء وكتاب يهود انفجرت موهبتهم مع انتهاء التواجد العثماني من أمثال أنور شأوول ومير بصري وغيرهم، وهذا يدل على أن بروز المتزايد للأدباء اليهود في العراق تبلور من جديد مع بداية بناء الدولة العراقية الملكية الحديثة في العام 1921م¹.

رابعا- دورهم في الفنون:

1- دور اليهود في السينما والمسرح :

رغم أن بعض الآراء تؤكد أن أول عرض سينمائي كان في العام 1909م، حيث كان في دار الشفاء بمنطقة الكرخ في 26 جويلية سنة 1909م، إلا أن تاريخ السينما العراقية يحفظ بأن أول دار للسينما في بغداد كانت سنة 1911م، والمكان كان بستان «أم الواوية» باللهجة الشعبية البغدادية تعني أبناء آوى، أما صاحب هذا المشروع الكبير أو صاحب أول دار سينما في العراق فهو السيد بلوكي التاجر العراقي اليهودي².

وكانت إقامة هذا المشروع وافتتاحه برعاية والي بغداد السيد جمال باشا الذي القى بجمال بيك، فالسيد بلوكي اليهودي كان تاجراً متخصصاً باستيراد مكائن الخياطة، ولكن حبه للفن والثقافة والمعرفة، وقبول الجديد دفعته الى المغامرة باستيراد فلم سينمائي وعرضه في بغداد لأول مرة في تاريخ هذه المدينة وكان فلم تشيع جنازة ملك إنكلترا (ادوارد) .

وكانت السينما آنذاك صامتة وتعرض الترجمة أو الايضاحات على شاشة بيضاء بجوار شاشة العرض الرئيسية، وبشكل متزامن وازداد انشاء الدور السينمائية في بغداد بوتيرة عالية وتزايد عددها حتى وصل الى أكثر من 90 دار عرض في منتصف الستينات، وكذلك الحال في المحافظات العراقية الأخرى³، وبالتالي فليهود سبق في نشأة دور السينما العراقية .

¹ خلدون ناجي معروف: المرجع السابق، 84.

² مازن لطيف علي: دور السينما في بغداد تاريخ فني كبير، صحيفة الحوار المتمدن، العدد 30، 1992، أبريل 2007م.

³ عبد الكريم الحسني: بغداد أيام الزمن الجميل، مجلة الكاردينيا، العدد 18.

أما عن المسرح فقد أفاد عدد من الكتاب المهتمين بالحياة الثقافية في العراق أن أول مسرح أنشأ في بغداد كان في العام 1913م، واستمر حتى عام 1914م، وعند اعلان الحرب العالمية الأولى تم اغلاقه، أما عن المسرح عند الطائفة اليهودية فقد وثقت جريدة صدى العرب في عددها الصادر في أكتوبر 1918م العرض المسرحي الذي قامت به مجموعة من البنات اليهوديات بعنوان «زواج الفراشة» بمناسبة الحفل التكريمي الذي قامت به الطائفة اليهودية للكولونيل ويلسون القائم بأعمال الحاكم الملكي لمدارس الأليانس. ويمكننا القول أن المسرح عند يهود العراق كانت بداياته في المدارس التابعة للأليانس تأثرا بالمدارس المسيحية في العراق، ويقوم بالتمثيل فيه التلاميذ، لكن بعد اعلان الدستور العثماني العام 1908م أطلقت الحريات العامة وشهدت العراق انفتاحا كبيرا انعكس على جميع المجالات وكان المسرح اليهودي خصوصا بعد الاحتلال البريطاني للعراق قد شهد تطورا كبيرا خاصة بعد انشاء أماكن مخصصة لهذا الغرض وتسمى المسارح .

2- دورهم في الموسيقى والملاهي:

أكد المتابعون للشأن الفني في العراق أنه خلال الثلث الأول من القرن العشرين، كان كل الموسيقيين الذين يعزفون على آلات موسيقية يهودا، وكان هناك العديد من المطربين والملحنين اليهود الكبار. وقد كان لليهود في بغداد أغاني خاصة بهم يؤدونها في أفراحهم ومناسباتهم، وكانت هناك فرقة نسائية يهودية تسمى فرقة الدقائق ويستعملن آلة الدنبك، وآلة الدف، والنقارة، وقد كانت أشهر مغنية في فرقة الدقائق تسمى مسعودة بمبيلية نسبة الى مدينة بومباي¹.

وقد كان الملحن الأكبر للموسيقى الحديثة في بدايات القرن العشرين اليهودي صالح الكويتي الذي لحن معظم الأغاني للمطربات أمثال سليمة باشا، زكية جورج، نرجس شوقي، عفيفة إسكندر وأخريات. وكان هناك ملحنون يهود آخرون مثل شقيقه داوود الكويتي، سليم داوود، سليم زبلي، داوود أكرم، يعقوب العماري، عزرا هارون وآخرون².

ولم يكن هناك في كل الفرق الموسيقية التي تنشط بالملاهي الليلية في بغداد سوى إثنان فقط من العازفين على آلات موسيقية من غير اليهود، وهما حسين عبدالله، عازف الايقاع في فرقة الإذاعة، وعازف العود في فرقة سليمة باشا، والذي كان يُدعى صليبا القطريب، وهو سوري الأصل. ويرجع السبب حسب الأخصائيين هو أن العائلات المسلمة كانت لا تسمح لابنائها أن يعزفوا على الآلات الموسيقية، لأنهم يعتبرون عزف الموسيقى ضرباً من المهن الوضيعة، لكنهم تعاملوا مع الغناء على أنه حرام في الدين الاسلامي

¹ عبد الكريم العلاف: بغداد القديمة، ط1، مطبعة المعارف، بغداد، 1960م، ص 119.

² يوسف يعقوب كورية: المرجع السابق، ص 70.

مما أتاح المجال لغير المسلمين خاصة اليهود كي يتسيدوا الساحة. هذا، ولم يكن في الموسيقى التقليدية الخاصة بالعراق والتي تُدعى المقام العراقي أي عازف موسيقي معروف من غير اليهود، كل العازفين على آلي المقام الموسيقيتين وهما الجوزة والسنطور كانوا يهوداً¹. والدليل على سطوة اليهود على الساحة الموسيقية هو أنه حينما أرادت الحكومة العراقية أن تشارك في المؤتمر العالمي الأول للموسيقى العربية عام 1932م بالقاهرة كان عليها أن ترسل فرقة عازفين، فكان كل أعضائها يهود، وكان الشخص الوحيد غير اليهودي في الفرقة هو مطرب المقام الكبير محمد القبانجي².

ويذكر أن هذا المقام التقليدي لم يكن معروفاً في بقية الأقطار العربية أو حتى لدى الموسيقيين المستشرقين الأوروبيين، لذلك، كان مفاجأة بالنسبة لهم، وأعتبرت فرقتهم الفرقة الموسيقية الأفضل في المؤتمر من بين الوفود الموسيقية المشاركة.

كل العراقيين أحبوا الموسيقى وإستمتعوا بالإصغاء الى الموسيقيين اليهود، لا يشعر المرء بأي تمييز بين اليهود والمسلمين أو المسيحيين في حقل الموسيقى. أما بعد الهجرة فقد ترك اليهود فراغاً كبيراً في الحقل الموسيقي في العراق، في البداية كان على الحكومة أن تستعير موسيقيين من أقطار عربية أخرى، وقبل هجرة عازفي المقام العراقي صالح شميل، عازف الجوزة، ويوسف بتو، عازف السنطور ألزهما نوري السعيد بتعليم اثنين من الموسيقيين المسلمين العزف على آلي المقام، فتعلم قارئ المقام هاشم الرجب عزف السنطور، وتعلم الموسيقي شعوبي إبراهيم عزف الجوزة. وكان هذان الموسيقيان هما الأساس في تعليم الطلبة الجدد العزف على هاتين الآلتين الموسيقيتين. وتعد موسيقى المقام تقليد موسيقي عراقي وستبقى كذلك طالما بقي الشعب العراقي.

كان عشق يهود العراق للموسيقى والفن واللهو كفيلاً بأن يهتموا باقامة دور للهو، وفي أوائل القرن العشرين ظهر نوع ساذج من الملاهي في بغداد في بعض المقاهي الواقعة حول ساحة الميدان أو قريباً منها، ومما يجدر ذكره أن ساحة الميدان كانت بمثابة منتزه للأهالي.

كان في الجانب الغربي من ساحة الميدان مقهى يعرف باسم صاحبه سبع، وكان سبع هذا كما وصفه عبد الكريم في كتابه بغداد القديمة طيب الأخلاق والسريّة، يعرف المعوزين رواد مقهاه، فلا يطالبهم باجور المقهى³، ويعتبر هذا الرجل أول مؤسس للملاهي، وكان سبع في أول أمره قد جعل في مقهاه جوقاً موسيقياً محلياً من النوع الذي يسمى « الجالغي البغدادي »، وله مغنيان يتناوبان على قراءة المقامات البغدادية، ثم

¹ عبد الكريم العلاف: المرجع السابق، ص 107-108.

² يوسف يعقوب كورية: المرجع السابق، ص 71.

³ علي الوردي: المرجع السابق، ج3، ص 252.

طور سبع مقهاه فاستحضر له راقصين وراقصات، وفي عام 1907م بلغت شهرة هذا المقهى الملهى الى كل أنحاء بغداد تقريباً¹.

وهكذا يمكننا القول أنه في العراق بدأ الطرب في المقاهي ثم تطور الحال الى أن أصبحت ملاهي تقام فيها الحفلات الغنائية والرقص، واشتهرت عديد من الملاهي اليهودية في العراق، والتي كان يرتادها كبار الشخصيات والمسؤولين من جميع الطوائف العراقية.

وفي العقد الثاني من القرن 20 انتشرت ظاهرة فتح الملاهي في المدينة لدرجة أن بغداد صارت من أكبر البلدان العربية في اللهو والمجون، وانتقد الوضع من قبل أهل العراق خاصة رجال الدين والمصلحين، وكان لليهود النصيب الأكبر من النقد، ومن هذه الملاهي:

ملهى ماجستك 1917م وبدلت تسميته لاحقاً الى (الهلال)، ملهى الشورجه 1917م - ملهى سبع صاحب المقهى المشهور في الميدان قد قام بتحويل منتزه الميدان الى ملهى وسقف الحوض الوسطي وجعله مسرحاً وكانت ترقص فيه وتغني الراقصه (رحلو جرده). - ملهى الشط 1916 - 1917م، وكان بإدارة الاختين (روزه نامه، ليلو نامه)².

في الأخير يتضح لنا أن الوضع السياسي لليهود منذ بداية العهد العثماني كان جيداً فقد تمت معاملتهم من قبل السلاطين العثمانيين معاملة جيدة ضمنت لهم حقوقهم وحريتهم الدينية، كما أن أوضاعهم تحسنت أكثر منذ القرن التاسع عشر خاصة بعد الإصلاحات العثمانية التي ساوهم مع المسلمين في الحقوق والواجبات.

كما نلاحظ أيضاً أن اليهود لم تكن لهم أدوار كبيرة في المجال السياسي مقارنة بالمجالات الأخرى كالإقتصاد والثقافة وغيرها، وربما يعود ذلك لعاملين رئيسيين: أولهما خارج عن نطاقهم أي متعلق بأغلب الولاة الذين لم يضعوا ثقتهم في اليهود، وثانيهما متعلق بهم يتمثل في تخوف اليهود من تقلبات السياسة التي تعد ميداناً مخفوفاً بالمخاطر، والخوض فيه يعد مغامرة غير آمنة العواقب، فبين اللحظة والأخرى قد تنقلب الأمور رأساً على عقب، فينقلب السحر على الساحر مثلما حدث مع سعد الدولة في القرن 13م، لذلك تجنبوا في كثير من الأحيان الخوض في مثل هذه التجارب.

هذا، وقد اتضح لنا أن الطائفة اليهودية في العراق سيطرت تماماً على الإقتصاد العراقي في العهد العثماني الأخير، وقد تضافرت عدة عوامل ساعدت اليهود على وضع يدهم على التجارة العراقية، أهمها على الإطلاق هو هيمنة بريطانيا عن طريق شركاتها وممثليها في العراق على دوايب الإقتصاد العراقي،

¹ عبد الكريم العلاف: المرجع السابق، ص 58.

² عبد الكريم الحسني: بغداد أيام الزمن الجميل، مجلة الكاردينيا، العدد 18.

وتقديمها تسهيلات كبرى لليهود والمسيحيين على حد سواء، كما أن دهاء اليهود، وحنكتهم في هذا المجال مكنتهم من تلقف الفرصة، وشيئا فشيئا صاروا المتحكمين في أسعار أهم البضائع الأساسية، وقد أضرت هذه السيطرة ضررا كبيرا بالاقتصاد العراقي، فلم يستطع التخلص من تبعاتها الا بعد هجرتهم بسنوات عديدة.

كما كان لليهود دور أقل في الجانبين الزراعي والصناعي حيث مارس بعضهم أنشطة فلاحية كترية المواشي وزراعة الأرز والتبغ وغيرها مثل يهود كردستان والحلة والبصرة والديوانية وبعض المناطق الأخرى لكن التجارة كانت عاملا جاذبا لليهود بشكل عام كما أن تراجع عائدات الزراعة ساهمت في هجرتهم الى المدن الكبرى . كما مارسوا بعض الصناعات التقليدية كالنسيج و الفخار والمواد المعدنية لكنهم لم يبرزوا مثلما برزوا في التجارة .

أما عن الجانبين الثقافي والاجتماعي يمكن القول أن يهود العراق شكلوا جزء مهما من ثقافة المجتمع العراقي، فآثروا وتأثروا، وكانت لهم بصماتهم في الفنون كالموسيقى والسينما والمسرح وغيرها، كما أنهم استطاعوا بفضل مدارس الأليانس أن يحققوا ثورة تعليمية كبيرة نتج عنها مجتمع يهودي علماني وأكثر ثقافة، وهو ما أهلهم للعب أدوار بارزة ومهمة في المجتمع، كما أن نهضة العراق في مجال الطباعة والنشر والصحافة المكتوبة أوائل القرن العشرين كانت بمساهمة فعالة من الأقلية اليهودية .

لكن من سلبيات التطور الثقافي للأقلية اليهودية في العراق هو تسهيل عمل الحركة الصهيونية العالمية في ايصال أفكارها المسمومة عن طريق الصحف والكتب والاذاعات وغيرها، فاستطاعت استمالة كثير من شباب يهود العراق الى مشروعها الأساسي، وهو الاستيلاء على فلسطين، بل وأقنعت كثير منهم في ضرورة التفكير في الهجرة الى أرض الميعاد، لذلك فان هذا التطور الثقافي وان استفاد منه المجتمع العراقي الا أنه أضر بوحدة وتماسك المجتمع العراقي .

الفصل الثاني:

دور وتاريخ الأقلية النصرانية في العراق خلال العهد العثماني
(1517-1917م)

المبحث الأول- التعريف بالنصرانية (نشأتها وعقائدها وفرقها وعباداتها):

تعتبر الديانة النصرانية إحدى الديانات السماوية، والديانة الأكثر انتشاراً في العالم حالياً، بالنظر إلى عدد معتنقيها، كما تعتبر أكثر الديانات السماوية تعقيداً على الإطلاق، لما فيها من اختلافات جوهرية بين فرقها ومذاهبها. ويعتبر المعتنقين لهذه الديانة من أهل الكتاب، كما يعرفون إلى جانب اليهود في حكم الدول الإسلامية المتعاقبة عبر التاريخ بأهل الذمة.

أولاً: تعريف النصرانية والسيد المسيح عليه السلام:

1- النصرانية لغة:

أصلها من الفعل نصر ينصر نسبة إلى النصر، وقيل إنها نسبة إلى الناصرة الفلسطينية، وهي قرية المسيح عيسى عليه السلام، وتسمى هذه القرية ناصرة ونصورية، والنسبة إلى الديانة نصراني، وجمعها نصارى¹.

2- النصرانية اصطلاحاً:

تطلق على الذين يتبعون ديانة المسيح عيسى عليه السلام، وكتابهم التوراة والإنجيل. وقد أطلق على أتباع الديانة النصرانية في القرآن الكريم نصارى، وقد ذكر اسمهم في سورة البقرة ثماني مرات، وفي سورة المائدة خمس مرات، ومرة واحدة في سورتي التوبة والحج. وأطلق عليهم أيضاً أهل الكتاب، وأهل الإنجيل، وهم يسمون أنفسهم بالمسيحيين نسبة إلى المسيح عليه السلام، ويسمون ديانتهم المسيحية².

والنصرانية هي الديانة التي جاء بها المسيح ابن مريم عليه السلام الذي أرسله الله إلى بني إسرائيل وأنزل عليه كتاب الإنجيل مشتمل على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، الذي جاء بها في ذلك من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق³. وهي واحدة من رسالات الأنبياء، التي جاءوا بها إلى الناس، ليعبدوا ربهم الذي خلقهم وعافاهم ورزقهم ولا يشركوا به أحد، لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ۖ أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ﴾⁴.

وعن تسمية أنفسهم بالمسيحيين فهي نسبة إلى المسيح عيسى عليه السلام، والمسيح سُمي كذلك لأنه مفرز ومكرس للخدمة والفداء ناشر الخير والعدل، وهم يفضلون هذا الاسم، لما يوحي به من محبتهم لعيسى واتباعهم له. ولم ترد تسمية النصرانية بالمسيحية في القرآن الكريم، ولا في السنة النبوية، كما أن المسيح

¹ ابن منظور: المصدر السابق، ج 14، ص 270.

² سعود الخلف: المرجع السابق، ص 163.

³ داود فياض: أصول المسيحية كما يصورها الإسلام، دط، مكتبة المعارف، دت، ص 19.

⁴ رؤوف شلي: أضواء على المسيحية، دط، المكتبة العصرية، بيروت، دت، ص 15.

حسب الإنجيل لم يسم أصحابه وأتباعه بالمسيحيين وهي تسمية لا توافق واقع النصارى لتحريفهم دين المسيح عليه السلام. فالحق والصواب أن يطلق عليهم نصارى، أو أهل الكتاب، لأن في نسبتهم للمسيح عليه السلام خطأ، إذ يلزم من ذلك عزو كل انحراف إلى المسيح عليه السلام وهو منه برئ¹.

3- المسيح² عيسى عليه السلام في القرآن والأنجيل:

هو المسيح عيسى عليه السلام ابن مريم، رسول الله وكلمته، وهو المبعوث الحق بعد موسى عليه السلام، المبشر به في التوراة، وكانت له آيات ظاهرة، ودلائل باهرة مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه، وذلك حصوله على غير نطفة، ومن غير تعليم سالف، وجميع الأنبياء بلاغ وحيهم أربعين سنة، وقد أوحى الله إليه بلاغاً عند الثلاثين وكانت مدة دعوته ثلاثة سنين وثلاثة أشهر³.

1- المسيح عيسى بن مريم في القرآن الكريم:

ذكر المسيح عليه السلام مرات عديدة في القرآن الكريم عن حياته ومبعثه وصفاته، ومكانته العظيمة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ١٥ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ١٦﴾⁴.
وقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ٧٠ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ٧١ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ٧٢﴾⁵.

كما ذكر أنه أرسل إلى بني إسرائيل خاصة قال تعالى ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُم مِّنَ الطَّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ٦٠﴾⁶.
وأنه جاء للدعوة إلى عبادة الله وحده قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ٣٦﴾⁷.

¹ ابن قيم الجوزية: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ص 67.

² قيل سمي مسيحاً لكثرة سياحته في الأرض، وقيل لأنه كان إذا مسح على ذوي العاهات برئ، وقيل لأنه خرج من بطن أمه مسحاً بالدهن، والنصارى يقولون: سمي مسيحاً لأنه جاء للخدمة والفداء: سعود الخلف: المرجع السابق، ص 163.

³ الشهرستاني: المصدر السابق، ج 2، ص 220.

⁴ سورة آل عمران: الآيات 45-46.

⁵ سورة المائدة: الآية 75.

⁶ سورة آل عمران: الآية 49.

⁷ سورة مريم: الآية 36.

كما قد بين القرآن الكريم أنه جاء متبع لشريعة موسى ﷺ، ومكمل لها فقال تعالى ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِرِجَالٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾¹.

(2)-المسيح في الإنجيل:

في أنه رسول الله (الطبيعة البشرية للمسيح)، وذلك ورد في إنجيل متى (من يقبلكم يقبلني ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني)². وقد ورد في إنجيل متى أن امرأة من كنعان لحقت المسيح ﷺ تطلب منه شفاء ابنتها المريضة فقال لها: (لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة)³. فهذا مما يدل على أن دعوته كانت خاصة لبني إسرائيل. ومن ذلك أيضاً في إنجيل متى أن المسيح أرسل تلاميذه إلى القرى اليهودية، وقال لهم: (إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة).

ومما يدل على أن دعوته كانت لعبادة الله وحده لا شريك له ما ورد في إنجيل مرقس أن المسيح أجاب من سألته عن أول الوصايا والواجبات بقوله: (إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد وتحب إلهك من كل قلبك)⁴. كما ورد أيضاً في إنجيل متى ما يدل على أنه متبع لشريعة موسى ﷺ، ومكمل لها فقال: (لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل)⁵.

فهذه النصوص يظهر منها بشرية المسيح ﷺ، وأنه رسول دعى بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا يتفق مع ما ذكره الله عز وجل في القرآن الكريم عنه، ويتفق مع دعوة الأنبياء السابقين الذين ورد ذكرهم بالقرآن الكريم⁶.

والنصارى بحواريتهم وفرقهم مختلفون في كيفية رفعه إلى السماء، واختلافهم هذا يعود إلى أمرين هما: **أولهما:** حول نزوله وتجسد روحه اذ أنهم قضوا بتجسد الكلمة ولهم في كيفية الاتحاد والتجسد كلام فممنهم من قال أشرق على الجسد إشراق النور على الجسم المشف، ومنهم من قال انطبع فيه انطباع النقش في الشمع، ومنهم من قال ظهر به ظهور الروحاني بالجسماني، ومنهم من قال تدرع اللاهوت بالناسوت،

¹ سورة آل عمران: الآية 50.

² إنجيل متى: الاصحاح 10، الفقرة 40.

³ إنجيل متى: الاصحاح 15: الفقرة 24.

⁴ إنجيل مرقس: الاصحاح 12، الفقرة 29.

⁵ إنجيل متى: الاصحاح 5، الفقرة 17.

⁶ سعود الخلف، المرجع السابق، ص ص 165-170.

ومنهم من قال مازجت الكلمة جسد المسيح ممزوجة اللبن بالماء والماء اللبن، واثبتوا لله تعالى أقانيم ثلاثة، قالوا الباري- تعالى عما يقولون- جوهر واحد يعنون به القائم بالنفس لا التحيز والحجمية فهو واحد بالجوهرية ثلاثة بالأقنومية، ويعنون بالأقانيم الصفات كالوجود والحياة والعلم وسموها الأب والابن وروح القدس، وإنما العلم تدرع وتجسد دون سائر الأقانيم.

ثانيهما: حول الصلب والصعود حيث قالوا أنه قتل وصلب قتله اليهود حسداً وبغياً وإنكاراً لنبوته ودرجته، وقالوا كمال الشخص الإنساني في ثلاثة أمور نبوة وإمامة وملك، وغيره من الأنبياء كانوا موصفين بهذه الصفات الثلاثة أو بعضها، والمسيح عليه السلام درجته فوق ذلك لأنه الإبن الوحيد فلا نظير له ولا قياس له إلى الأنبياء، وهو الذي يحاسب الخلق.

ولهم في النزول خلاف فمنهم من يقول ينزل قبل يوم القيامة كما قال أهل الإسلام، ومنهم من يقول لا نزول له إلا يوم الحساب¹.

والحق في عيسى عليه السلام ما قاله الله تعالى في كتابه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾².

وقال تعالى في ما هم مختلفون فيه من قتله ورفعته إلى السماء: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾³ بل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا⁴.

ثانياً- تاريخ نشأة وتطور الديانة النصرانية:

ان الديانة النصرانية التي نعرفها الآن لم تكن كذلك في القرون الأولى لبعث المسيح عليه السلام⁴، لأن تغيرات جوهرية حدثت في فترات تاريخية متفاوتة حول طبيعة المسيح وعلاقته بربه وحول بعثه وقضايا أخرى فتحت باب الاجتهادات للآباء لذلك حدثت تطورات حتى وصلت الديانة لما هي عليه في عصرنا الحالي. وقد مرت النصرانية بأطوار عديدة مختلفة، تعرضت فيها للاضطهاد من قبل اليهود والضياع، وضياع الانجيل الحقيقي وتخطط في عقائدها الخ، ويمكن تقسيم تطورها إلى أربعة مراحل:

¹ الشهرستاني: المصدر السابق، ص 222.

² سورة النساء: الآية 171.

³ سورة النساء: الآيات 157-158.

⁴ سامي بن عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 173.

1- المرحلة الأولى: تتمثل في عهد عيسى عليه السلام، وكانت فيه النصرانية دين الله الحق، وهي العقيدة الصحيحة السليمة، والتي ينبغي أن يكون عليها كل من أراد فعلاً أن يكون من أتباع المسيح ليدخل حقيقة تحت قول الله عز وجل في كتابه الكريم ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٥٥﴾¹. ولما رفع الله تعالى عيسى عليه السلام، بقي عدد من أتباعه وأنصاره على الحق مدة يسيرة. وقد كان اليهود الذين لم يؤمنوا بعيسى عليه السلام يطاردونه وأتباعه ويقتلونه، ويثشون بهم عند السلطات والحكام لما رأوا فيهم من خطر على يهوديتهم.

2- المرحلة الثانية: استمر فيها المؤمنون النصارى في نشر النصرانية وتحملوا اضطهاد اليهود وغيرهم قرابة نصف قرن، كما شهدت هذه الفترة ظهور بولس الذي كانت أفكاره ومعتقداته هي حجر الأساس، والتي جاء المسيحيون فيما بعد وأكملوا البناء، ليصلوا إلى المسيحية كما نعرفها اليوم، لكن بولس لم يكن يؤمن بالتثليث، ولم يكن يؤمن بالتجسد ولا بالهوية المسيح عليه السلام، ولكن مع ذلك قام بولس بالإضافة والتبديل في دين المسيح عليه السلام.

3- المرحلة الثالثة: وتبدأ في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي وهو عهد كتابة الأناجيل، التي يرى الكثير أنها عبارة عن اجتهادات لم تسمع من عيسى عليه السلام مشافهة، بل ويرى البعض أن أجزاء كثيرة منها من دس اليهود، واستمر هذا الطور ما يزيد على ثلاثة قرون، عاشت فيه النصرانية في تحبط وافتراق، وتأثرت بالفلسفات والآراء والطقوس الوثنية السائدة، إضافة إلى مالعبة اليهود خلال هذه الفترة من الدس والتحريف وإشاعة الفرقة والاختلاف العقائدي والمذهبي بين صفوف أتباع النصرانية². كما أنه خلال هذه الفترة فقد النص الصحيح للإنجيل وكثرت الأناجيل إلى حد لا يمكن الاهتداء إلى نص الإنجيل الثابت.

كما أن هذه المرحلة الزمنية التي نمت فيها عقائد المسيحية، فبدأت بعبادة المسيح الإنسان عليه السلام، وانتهت بعصر المجاميع التي ساوت بين الله عز وجل والمسيح عليه السلام، ويرى باحثون غير نصارى أن المسيحية في عهد المسيح عليه السلام كانت توحيداً، وفي عهد بولس اقتربت من الوثنية مع الحفاظ على عبادة إله واحد، وفي عهد آباء ما قبل نقية 325م زاد الغلو وأصبحت أقرب إلى الوثنية، وفي مجمع نقية 325م أصبحت المسيحية عقيدة واضحة بين التوحيد والوثنية كما قال الله تعالى: ﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ١١٣﴾³.

¹ سورة آل عمران: الآية 55.

² سامي بن عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 173.

³ سورة النساء، 143.

4- المرحلة الرابعة: تبدأ بالتجمع النصراني الكبير الذي عقده قسطنطين ملك الرومان في نيقية سنة 325م¹، وهو تجمع حاسم قرر فيه مبتدعة النصارى الاتجاه نحو النصرانية الضالة، والتي هي مزيج من الوثنية الرومانية السائدة آنذاك، ومن اليهودية المنحرفة وبقايا النصرانية المشوشة، والديانات الوثنية الهندية، وفي هذا التجمع رسخت عند النصارى عقيدة التثليث الوثنية وهو اعتقاد أن الله ثالث ثلاثة².

هي مرحلة نُضُوْج المسيحية، وُضُوْهها إلى العقيدة التي نعرفها في أيامنا الحالية، مرحلة تحرير المُصطلحات اللاهوتية، مرحلة شرح العقائد و وضع قوانين الإيمان، مرحلة رفع المسيح ﷺ إلى مرتبة مُساوية لخالق السموات والأرض، مرحلة إضافة إله ثالث بجانب الآب والابن ليصبحوا ثلاثة جنباً إلى جنب، مرحلة وصول صراعات الطوائف المسيحية إلى أعلى درجة، إلى درجة المجاميع المسكونية، وتدخل الإمبراطور الروماني لحل النزاعات.

ومما يجدر ذكره في نشأة الديانة النصرانية أنها تأثرت ببولس (شاول) اليهودي الذي اعتنق المسيحية عام 38م أي بعد رفع المسيح لإفسادها فاستطاع أن يغير اتجاهها، ويسير بها إلى التثليث، وكان عدواً لدوداً للمسيحيين ويضطهدهم باستمرار، وقد حكى ذلك عن نفسه في سفر أعمال الرسل³.

وقد قال تعالى في ذم عقيدتهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَنْ إِلَهٌ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾⁴.

ثالثاً- مصادر التشريع وعقائد النصرانية:

1- مصادر التشريع النصرانية:

أ- الكتاب المقدس: النصارى يقدسون كلاً من العهد القديم (التوراة)، والعهد الجديد (الإنجيل)، ويضمونها معاً في كتاب واحد ويطلقون عليهما اسم (الكتاب المقدس)، ويراد بكلمة العهد في هاتين التسميتين ما يرادف معنى الميثاق، أي أنه ميثاق أخذه الله على الناس، وارتبطوا به معه فأولهما يمثل ميثاقاً قديماً من عهد موسى ﷺ، والآخر يمثل ميثاقاً جديداً من عهد عيسى ﷺ⁵.

¹ سامي بن عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 177.

² ناصر القفاري وناصر العقل: الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، ط1، دار الصميعي، الرياض، 1413هـ، 1992م، ص(69-70).

³ محمد ضياء الرحمان الأعظمي: اليهودية والمسيحية، ص 293.

⁴ سورة المائدة: الآية 73.

⁵ علي الوائلي: المرجع السابق، ص 10.

(1)-العهد القديم عند النصارى:¹

(2)-العهد الجديد: المقصود به الإنجيل، وهو كلمة يونانية تعني الخبر الطيب (البشارة).²

ويعرفونه بأنه يتكون من 27 سفرًا مقسمة على خمسة أقسام وهي: القسم الأول: الأناجيل الأربعة، القسم الثاني: أعمال الرُّسل، القسم الثالث: رسائل بولس، القسم الرابع: الرسائل الجامعة، القسم الخامس: رؤيا يوحنا اللاهوتي. وإليكم نبذة سريعة عن كل قسم من هذه الأقسام الخمسة.

(أ)-القسم الأول- الأناجيل الأربعة

وتعني كلمة "إنجيل" عند المسيحيين لا تعني كتاب أنزل على المسيح ﷺ، بل تعني "اصطلاحاً": أخبار أو أقوال أو أحداث لها علاقة بـ ﷺ، سواء كانت عن أحداث قبل ولادته ولكن لها علاقة بولادته، أو كانت عن ولادته هو شخصياً وكيف نشأ وهو طفل صغير، أو كانت عن حياته وتعاليمه وأعماله ومُعجزاته. فهناك - كما ذكرنا سابقاً - أنواع كثيرة من الأناجيل، أما بخصوص الأناجيل الأربعة التي نجدّها في العهد الجديد، فهي أناجيل قصصية روائية تحكي عن حياة المسيح ﷺ وتعاليمه وأعماله.

أما الإنجيل عند المسلمين فهو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على عيسى ﷺ هدى ونور حيث قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾³.

وهذا الإنجيل فقدّه النصارى، وصار عندهم بدل الإنجيل الواحد أربعة أناجيل يجعلونها في مقدمة كتابهم العهد الجديد، ولا ينسبون أيّاً منها إلى المسيح ﷺ وإنما هي منسوبة إلى متى ومرقس ولوقا ويوحنا، وتحتوي شيئاً من تاريخ عيسى ﷺ حيث ذكر فيها ولادته ثم تنقلاته في الدعوة، ثم نهايته بصلبه وقيامته في زعمهم، ثم صعوده إلى السماء.

كما تحوي مواعظ منسوبة إليه، وخطب ومجادلات مع اليهود ومُعجزاته، وهذه الأناجيل أشبه ما تكون بكتب السيرة عند المسلمين، كما بينها من الاختلاف والتناقض الذي لا يمكن التوفيق والجمع بينها.⁴ كما تمثل هذه الأناجيل الأربعة مصدر النصارى الأول والأساسي للمعلومات بخصوص حياة المسيح ﷺ وتلاميذه وأتباعه، وهي على التوالي:

¹ سبق وأن تناولته في الفصل السابق الخاص بالديانة اليهودية.

² سعود الخلف: المرجع السابق، ص 197.

³ سورة المائدة: الآية 46.

⁴ سعود الخلف، المرجع السابق، ص 197.

- إنجيل القديس متى: كتب حوالي سنة 45 م، ويعتقد آخرون أنه كتب نحو 60م، وعدد إصحاحاته 28، وعدد فقراته 1071 مكونة من 13508 كلمة.

- إنجيل القديس مرقس: كتب حوالي سنة 16 م، وعدد إصحاحاته 16 مكونة من 671 فقرة تحوي 8614 كلمة، وكتب للرومان ليعين لهم قوة المسيح.

- إنجيل القديس لوقا: كتب نحو سنة 63م، وعدد إصحاحاته 24 مكونة من 1153 فقرة تحوي 14461 كلمة، وكتب لليونان ليعين خدمة المسيح.

- الإنجيل للقديس يوحنا: كتب نحو سنة 98م، وعدد إصحاحاته 21 مكونة من 876 فقرة، وتحوي 12211 كلمة وكتب للجميع ليعين لاهوت السيد المسيح.

(ب)-القسم الثاني: أعمال الرُّسل: وينسب إلى لوقا، وهو كتاب تاريخي في غاية الأهمية، يبدأ سرد الأحداث التي وقعت بعد رفع المسيح ﷺ مباشرة، النصف الأول من الكتاب يتكلم عن أحوال تلاميذ المسيح ﷺ، وتاريخ حياة الحواريين¹، والنصف الآخر يتكلم عن بولس رسول المسيحية وعن رحلاته التبشيرية. هذا الكتاب يُعتبر من المصادر الرئيسية للمعلومات بخصوص تلاميذ المسيح ﷺ وحياة بولس أيضاً، وتُعطينا معلومات قيّمة جداً بخصوص كيفية نشر المسيحية في بدايتها.

(ج)-القسم الثالث: رسائل القديس بولس الرسول: عددها 14 رسالة كتبت في الفترة ما بين سنة 50-60م وتتكون من 106 اصحاح، وتشمل 2323 فقرة، وتحوي 31347 كلمة. وهي عبارة عن مجموعة الرسائل التي أرسلها بولس إلى الكنائس التي قام بتأسيسها أثناء رحلاته التبشيرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، هذه الرسائل تحتوي على تعاليمه وأفكاره ومعتقداته، وأيضاً تحتوي على معلومات كثيرة جداً بخصوص المُجتمعات المسيحية الأولى، هذا الكتاب يُعتبر المصدر الرئيسي للمعلومات بخصوص تعاليم وعقائد بولس رسول المسيحية وتلاميذه.

(د)-القسم الرابع: الرسائل الجامعة²: عددها 7 رسائل هي (رسالة ليعقوب، رسالتان لبطرس، ثلاث رسائل ليوحنا، رسالة ليهوذا)، وجميعها كتبت فيما بين 60-65م، وهي مكونة من 21 اصحاح وتشمل 432 فقرة تحتوي على 9371 كلمة. وهي عبارة عن مجموعة رسائل لبعض القادة المسيحيين الأوائل، هذه الرسائل تحتوي على معلومات كثيرة جداً بخصوص المُجتمعات المسيحية الأولى، وتحتوي أيضاً على معلومات كثيرة بخصوص العقائد المسيحية الأولى المُختلفة، هذه الرسائل تُعتبر من المصادر الرئيسية للمعلومات بخصوص العقائد المُجتمعات المسيحية الأولى.

¹ محمد ضياء الرحمن الأعظمي: المرجع السابق، ص 392.

² سعود الخلف: المرجع السابق، ص 134.

هـ)-القسم الخامس: رؤيا يوحنا اللاهوتي: ويسميه النصارى أيضا السفر النبوي أو سفر الرؤيا، وهو كتاب يحوي رؤية منامية ادعاها القديس يوحنا الحبيب¹، وقد كتبه ما بين 80-96م قبل نياحته وتركه للعالم سنة 100م².

ويحتوي الكتاب على نبوءات بحسب الفكر المسيحي، يحكي أحداث النهاية، والتي ستحدث عند عودة المسيح عليه السلام مرة أخرى، هذا الكتاب ليس له أهمية تاريخية كبيرة عند العلماء، ولكنه يُلقي الضوء على بعض الاضطهادات التي عانتها المجتمعات المسيحية الأولى وصمودها لنشر النصرانية.

2- المجاميع:

يعرفها النصارى بأنها هيئات شورية في الكنيسة تبحث في الأمور المتعلقة بالديانة النصرانية وأحوال الكنيسة. وهي في حقيقتها هيئات إلزامية، يجب أن توحد قراراتها لتجنيب النصارى الانقسام، لكن الناظر في تلك المجامع يجد أنها تنتهي ولم يتفق المجتمعون على الأمور التي بحثت، فيكون هناك جبر وموافقة قسرية على قول من تلك الأقوال أو إذا لم يمكن الجبر والقسر يحدث الانقسام بأن تذهب كل مجموعة بقولها التي جاءت به³، والمجاميع النصرانية نوعان:

أ- مجاميع محلية: وهي التي تبحث في الشؤون المحلية للكنائس التي تنعقد فيها.

ب- مجاميع مسكونية(عالمية): وهي التي تبحث في العقيدة النصرانية ومواجهة بعض الأقوال التي يرى غرابتها ومخالفتها للديانة، كمجمع نيقية 325م مثلاً، ومن أهم تلك المجاميع المسكونية، وأهم قراراتها نذكر:

1)-مجمع نيقية 325م (المجمع المسكوني): جمع علماء المسيحية من كل أنحاء العالم، لحضور اجتماع كبير جداً لمناقشة أمر في غاية الأهمية يخص الإيمان المسيحي، ويعتبر مجمع نيقية 325م بالنسبة للمسيحية مثل هجرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالنسبة لنا كمسلمين، فكما أن "الهجرة" علامة مُميّزة في تاريخنا الإسلامي، ونقول: فترة ما قبل الهجرة، وفترة ما بعد الهجرة، أيضاً بالنسبة للمسيحيين مجمع نيقية 325م علامة مُميّزة في التاريخ المسيحي، ويُقسّم التاريخ المسيحي إلى فترتين الأولى: قبل مجمع نيقية 325م، أما الثانية: مجمع نيقية 325م وما بعدها.

¹ محمد ضياء الرحمن الأعظمي: المرجع السابق، ص 393.

² القس مرقس عزيز خليل: المرجع السابق، ص 29-30.

³ سعود الخلف: المرجع السابق، ص 249.

عقد هذا المجمع للخلاف حول ألوهية السيد المسيح، فقد نادى البعض بألوهية السيد المسيح "أثناسيوس وأتباعه"، ورفضها البعض "آريوس وأتباعه"؛ مما دعا الإمبراطور قسطنطين لدعوة جميع كنائس العالم للاجتماع¹، وكانت قراراتها كالاتي:

- القول بألوهية المسيح ونزوله ليُصَلَّب تكفيراً عن خطيئة البشر -

- اختار المجمع الكتب وبعض الرسائل لتكوين الكتاب المقدس، وتدمير ما عداها من رسائل وأناجيل

- إصدار قانون الإيمان النيقاوي .

(2)-مجمع القسطنطينية 381م: عقد لمناقشة وبحث ألوهية الروح القدس، حيث لم يكن الروح القدس جزءاً من الأقانيم الثلاثة طيلة القرون السابقة، وكانت أهم قرارات المجمع:

- اعتبار الروح القدس إلهًا.

- إضافة الجزء الثاني من الايمان الذي بدؤوه بقولهم: «نعم نؤمن بروح القدس الرب المحي من الآب...» وبذلك اكتمل الثالوث بألوهية الابن في مجمع نيقية، وألوهية الروح القدس في مجمع القسطنطينية. وتقرر فيه طرد ومعاينة كل مخالف لذلك.

(3)-مجمع أفسس الأول 431 م : قرروا فيه أن المسيح إله وإنسان ذو طبيعة واحدة وأقنوم واحد وأن مريم أم إلههم².

وتبعه مجمع افسيس الثاني عام 449م، الذي كان مجمع خلقيدونية رد فعل عليه.

(4)- مجمع خلقيدونية 451م: يعتبره النصارى رابع مجمع مسكوني نظرا لقراراته، ولعل أهمها هو:

- رفض فكرة واصطلاح لفظ طبيعتين التي نتجت عن مجمع افسيس الثاني، واعتبروها تعني شخصين وأكدوا على طبيعة واحدة للرب ممزوجة بين بشرية والهيية.

- انشقاق كنسي تدريجي لكنائس المشرق (القبطية والسريانية والأرمنية) عن الكنيستين الرومانية والبيزنطية³.

إلى غير ذلك من المجمع المسكونية والمحلية التي كان نتيجتها توحيد العقيدة النصرانية من وجهة نظرهم، وتحريف لها وصنع دين آخر جديد، في نظر مخالفينهم فلم تبقَ على هيئتها التي أنزلها الله على عبده ورسوله عيسى - عليه السلام - بل تحولت الديانة السماوية إلى ديانة وثنية، فقدت أصولها ومعانيها، وحلت محلها أصول أخرى.

¹ سامي بن عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 257.

² سعود الخلف: المرجع السابق، ص 249.

³ سامي بن عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 257.

وبالنظر الى أهم مجاميعهم، نجدهم اتفقوا جميعاً على تأليههم المسيح عليه السلام، وأنه ابن الله تعالى فقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخَرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۖ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ﴾¹.

3- عقائد النصارى:

أ- عقيدة التثليث:

يقصد بالتثليث عند النصارى كما يُذكر في قاموس الكتاب المقدس هو: إله واحد الأب والابن والروح القدس إله واحد، جوهر واحد متساوين في القدرة والمجد.² ويرى النصارى أن طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية: الله الأب، والله الابن، والله روح القدس، فياى الأب ينتمي الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفداء، وإلى روح القدس التطهير.³ فمن أقوالهم في بيان عقيدة التثليث أن تعاليم الثالوث تتضمن أمور منها:

- وحدانية الله.

- لاهوت الأب والابن والروح القدس.

- أن الأب والابن والروح القدس أقانيم يمتاز كل منهم عن الآخر منذ الأزل وإلى الأبد.

- أنهم واحد في الجوهر متساوون في القدرة والمجد.⁴

والبعض منهم يرى أن الابن لا يعني به الولادة البشرية عندهم، ويوضح ذلك محمد أبو زهرة نقلاً عن كتبهم فيقول: إن عبارة الابن لا تشير إلى الولادة البشرية، ولكن تصف محبة سرية فائقة بين أقنوم وآخر في اللاهوت الواحد، وإذا أراد الله أن يفهمنا تلك النسبة لم تكن عبارة أنسب من الابن للدلالة على المحبة والوحدة في الذات، والأمانة للمشورة الإلهية، وأما من حيث الولادة البشرية فالله منزّه عنها.⁵

ب- عقيدة الصلب والفداء:

ويقصد بعقيدة الصلب أولاً هو التعليق على خشبة الصليب، إلا أن اليهود والنصارى يختلفون في سبب صلبه، فاليهود يزعمون أن المسيح كفر بالله لهذا حملوا عليه وطالبوا بدمه وزعموا أنه مات مصلوباً، والموت على الصليب يستلزم اللعنة عندهم.

¹ سورة مريم: الآيات 90-93.

² محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص 91.

³ سعود الخلف: المرجع السابق، ص 270.

⁴ سامي بن عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 283.

⁵ محمد أبو زهرة: المرجع السابق، ص 93.

ولقد ورد في سفر التثنية بيان ذلك: (وإذا كان على إنسان خطيئة حقها الموت فقتل وعلقتة على خشبة فلا تبت جثته على الخشبة بل تدفنها في ذلك اليوم، لأن المعلق ملعون من الله).¹

أما النصارى يعللون ذلك بأنه صلب فداء للبشر لتخليصهم من خطيئة أبيهم آدم عليه السلام، عندما أكل من الشجرة التي نهي عنها، فانتقلت تلك الخطيئة إلى أبنائه، وأغضبت الله عليهم، فكان لابد من وسيط يتحمل هذا الإثم ويرضى بأن يموت على الصليب.

أما الفداء فهو اعتقاد النصارى أن موت المسيح كان كفارة لخطيئة آدم التي انتقلت إلى أبنائه بالوراثة، ودليلهم ما ورد في إنجيل يوحنا: (لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية).²

وكذلك في رسالة يوحنا الأولى: (بهذا أظهرت المحبة أن ذاك وضع نفسه لأجلنا).³ ويقولون: أن الرب دبّر خطة تقول إن مخلصاً سيأتي إلى الأرض ليفدنا من خطايانا ومن الموت، ولضعف أجسادنا الفانية وخطايانا لا يمكننا فداء أنفسنا، والذي يكون مخلصنا يحتاج أن يكون بلا خطية وله سلطان على الموت.

ج- اعتقادهم محاسبة المسيح للناس:

لم يمكث المسيح بعد قيامته هذه التي يعتقدونها المسيحيون إلا أربعين يوماً ثم ارتفع بعدها إلى السماء، وجلس بجوار الرب في معتقدتهم، وسيأتي ليدين الناس يوم القيامة، يحاسب كل إنسان على ما فعل وقال إن خير فخير وإن شر فشر، وله بهذا الملك الأبدي، فلا فناء لملكه، فهم يقولون: إن الله قد أقام سيدين في مكان الأرض ييسوع المسيح، لأنه الأب في زعمهم لا يدين أحد، بل قد أعطى ذلك للابن، فأعطاه سلطان أن يدين الإنسان، لأنه ابن الإنسان أيضاً ولا بد أن يظهر الناس جميعاً أمام كرسي المسيح لينال كل واحد جزاءه خيراً أو شراً.⁴ ومن ذلك ما ورد في إنجيل يوحنا: (كما أن الأب له حياة في ذاته كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته، وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان).⁵

وأما ما يعتقدونه المسلمون في هذا الصدد أن الله عز وجل هو الذي يتولى حساب الناس يوم القيامة، ويكون الرسل شهداء وشفعاء فقط على أقوامهم.⁶

¹ سفر التثنية: الاصحاح 21، الفقرة 22.

² انجيل يوحنا: الاصحاح 16، الفقرات 1-3.

³ رسالة يوحنا: الاصحاح، الفقرة 09.

⁴ محمد ضياء الرحمن الأعظمي: المرجع السابق، ص 100.

⁵ انجيل يوحنا: الاصحاح 5، الفقرة 26.

⁶ سعود الخلف: المرجع السابق، ص 246.

د- قول النصارى في البعث والجنة والنار:

يعتقد النصارى بالنعيم الجسدي، كما أنهم يؤمنون بالنعيم الأبدي في الجنة والعذاب الأبدي في النار، إلا أنهم يزعمون أن الجنة ليس فيها أكل وشرب ولا نكاح ولا شيء من المتع الحسية، وإنما يعتقدون أن المتعة برؤية الله فقط. وإنكارهم هذا يعود إلى أنهم يرون أن الأجساد يوم القيامة ستكون أجساداً روحانياً لا تحتاج إلى الطعام والشراب.

ويستدلون لذلك بما ورد في إنجيل متى، وفيه يقول المسيح: (لأنهم في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء)¹. وهذا يتناقض حقيقة مع ما ورد في إنجيل لوقا من أن للأجساد نعيم في الآخرة إذ قال المسيح لتلاميذه الذين يؤمنون به: (وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً لتأكلوا وتشربوا على مائدتي وتجلسوا على كراسي تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر)². وكذلك ما ورد في إنجيل متى نفسه أن المسيح قال لتلاميذه بعد آخر شراب شربه معهم: (وأقول لكم: إني من الآن لا أشرب إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي)³.

فهذه النصوص تتعارض مع نصوصهم التي تنفي النعيم الحسي، وهو ما يعتقد المسلمون بأن الحق أن أهل الجنة يتنعمون فيها نعيماً كاملاً ذكره الله عز وجل في كتابه.⁴

رابعاً- فرق النصارى:

1- فرق النصارى القديمة: يقصد بالفرق القديمة هي التي اختلفت وافترت منذ بدايات المسيحية حتى عهد الجامع المسكونية في القرنين الخامس والسادس والسبب خلافات لاهوتية، وقد قال صلى الله عليه وسلم في اختلافها وافتراقها: (إن اليهود اختلفت على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى على مثل ذلك، وتفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة). إلا أنها من أشدها افتراق واختلاف ما اختلفت فيه حول توحيد الله تعالى الذي هو أساس الخلق: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ﴾⁵.

إن المتأمل في فرق النصارى بعد تلك الجامع، يجد أنهم اتفقوا حول تأليه عيسى عليه السلام، والقول بالتثليث، لكنهم مختلفون في ماهية ذلك، أما أكبر وأشهر فرقهم القديمة هي:

¹ إنجيل متى: الاصحاح 22، الفقرة 30.

² إنجيل لوقا: الاصحاح 22، الفقرة 29.

³ إنجيل متى: الاصحاح 26، الفقرة 29.

⁴ سعاد الخلف: المرجع السابق، ص 250.

⁵ سورة الذاريات: الآية 56.

أ- **فرقة الملكانية:** أصل الكلمة سريانية ملكابي أو ملكوي، وتعني أتباع الملك وسموا كذلك لأنهم اتبعوا أباطرة بيزنطة، وأغلب من تطلق عليهم هذه التسمية هم الروم الأرثوذكس والكاثوليك الذين يتبعون الطقس البيزنطي. ويقال أيضا أنهم نسبة الى ملكا الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها¹، وهي مذهب جميع ملوك النصارى، وعامة ممالك النصارى عدا الحبشة والنوبة، ومذهب جميع نصارى أفريقيا وصقلية والأندلس وجمهور الشام²، أما أهم عقائدها فهي:

- أن الله تعالى عبارة عن ثلاث أسباب (ابن، أب، روح القدس) كلها لم تزل، وأن عيسى عليه السلام إله تام كله وإنسان تام كله ليس لأحدهما دون الآخر، وأن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل، وأن الإله منه لم ينله ذلك، وأن مريم هي التي ولدت الإله والإنسان، وأنهما معاً شيء واحد.

- كما قالوا أن الكلمة اتحدت بجسده، وتدرعت بناسوته، ويعنون بالكلمة أقنوم العلم ويعنون بروح القدس أقنوم الحياة، ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابنا بل المسيح مع ما تدرع به ابن، فقال بعضهم: أن الكلمة مازجت المسيح كما يمازج الخمر أو الماء اللبن.

- وصرحت الملكانية أن الجوهر غير الأقانيم، وذلك كالموصوف والصفة، وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث.

ب- **فرقة النسطورية:** تنسب هذه الفرقة الى نسطور الحكيم (نسطوريوس) بطريرك أنطاكية الذي ظهر معارضا لقرارات مجمع أفسيس 431م³، حيث تبني موقفاً مخالفاً مفاده أن مريم العذراء أم المسيح وليست أم الإله ففصل من منصبه وتم نفيه لكن كثير من أهل الشرق اتبعوه فسميوا وعرفوا بالنساطرة، وأغلبهم من نصارى الموصل والعراق وفارس وخراسان، أما أهم عقائدها فهي:

- يقولون أن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاث (الوجود، العلم، والحياة) وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات ولا هي صور، واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام لا على طريق الامتزاج كما قالت الملكانية، ولا على طريق الظهور كما قالت اليعقوبية، ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة، وكظهور النقش في الشمع.

- أما قولهم في القتل والصلب فيخالف قول الملكانية واليعقوبية فقالوا أن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته لأن الإله لا تحله الآلام. وذكر ابن حزم-رحمه الله- أنه لا فرق بين

¹ الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص 222.

² ابن حزم: الفصل في الملل والنحل، ج1، مكتبة السلام العالمية، ص 48.

³ سامي بن عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 269.

الملكانية والنسطورية في القول بالقتل والصلب إلا أنهم قالوا أن مريم ولدت الإنسان ولم تلد الإله، وإنما ولده الإله¹.

ج- فرقة اليعقوبية: هم أتباع يعقوب البرادعي كان راهبا في القسطنطينية²، وهم الذين يقولون بأن المسيح ذو طبيعة واحدة، قد امتزج فيه عنصر الإله بعنصر الإنسان، وتكون من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت والناسوت، ونسبة ذلك المذهب إلى يعقوب البرادعي لأنه من أنشط الدعاة إليه، لا لأنه مبتدعه ومنشئه، فإن ذلك المذهب أسبق من يعقوب هذا، فإن أول من أعلنه بطريك الاسكندرية في منتصف القرن الخامس الميلادي، لكن يعقوب رتبها وحافظ عليها فسموا باليعاقبة، أغلب اتباعها في العراق وسوريا وفلسطين، أما أهم عقائدهم فهي:

- قالوا بالأقانيم الثلاثة، إلا أنهم قالوا انقلبت الكلمة لحماً ودما فصار الإله هو المسيح.
- وقالوا أنه مات وصلب وقتل، وأن العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر، ثم قام ورجع كما كان وأن الله تعالى عاد محدثاً وأن المحدث عاد قديماً.
- كما يعتقدون أن الله كان في بطن مريم محمولاً.

2- فرق النصارى الحديثة: كما هو معلوم أن الديانة النصرانية منذ نشأتها تعرف بكثرة الفرق والطوائف، مقارنة بسائر الأديان في العالم، فقد نشر في إحدى الدراسات أن أفريقيا وحدها توجد فيها أكثر من ألف وأربعمئة طائفة، ومن أشهر الفرق الحديثة التي انبثقت منها الفرق الأخرى هي:

أ- فرقة الكاثوليك: أصلها من كلمة (katholkos) اليونانية بمعنى العام أو العالمي أي أن الكاثوليكية هي الديانة المسيحية العالمية، وينسب إلى هذه الفرقة عامة المسيحيين في الغرب، لذا تسمى كنيتها الكنيسة الغربية أو اللاتينية ويسمى أتباعها بالكاثوليك، وتتبع هذه الفرقة النظام البابوي³، والبابا عندهم هو المشرع بعد عيسى عليه السلام، وجميع بابوات روما خلفاؤه، والبابا في نظر الكاثوليكين معصوم لا يصدر عنه الخطأ، بإرادته وإرادة إلهية يجب اتباعها بدون مناقشة وجدل.

¹ ابن حزم: المصدر السابق، ص 49.

² الشهرستاني: المصدر السابق، ج 1، ص 256.

³ - النظام البابوي: المقصود به النظام الهرمي الذي أسسته الكنيسة بحيث يكون البابا أعلى رأس الهرم وتتدرج الألقاب الكهنوتية على النحو التالي: شماس، قسيس، أسقف، مطران، بطريك، بابا، والبابا هو صاحب السلطة العليا. أنظر: محمد ضياء الرحمان الأعظمي: المرجع السابق، ص 399.

كما يعتبرون البابا التلميذ الأكبر للمسيح في الأرض، وكأن المسيح بعد رفعه جعله في مقامه لتوضيح وتفسير العقيدة والشريعة النصرانية، ومن أهم أعماله إصدار صكوك الغفران من الذنوب، ما مضى منها وما هو آت، دون الحاجة إلى توبة، أو رد المظالم إلى أهلها¹. ومن أهم عقائدهم نذكر:

- تعتقد هذه الكنيسة بالمساواة الكاملة بين الإله الأب والإله الابن.
- تؤمن بأن روح القدس نشأ من الله الأب والابن معاً.
- تعتقد هذه الكنيسة بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين-يعني اللاهوتية والناسوتية.
- يعتقد هؤلاء بوجود جحيم صغير بمكان في قلب الأرض، تحترق فيه الأنفس التي ارتكبت في حياتها خطيئة حتى تنتقي من أوزارها وتصبح أهلاً للدخول في الفردوس السماوي.
- إن صلوات كهنة الكنيسة ترفع العذاب عن النفوس المتألمة، ومن هنا نشأت عقيدة الغفران وهي أن ممثلي الكنيسة قادرون على تخليص الأرواح المالكة في العذاب بالدعاء والصلاة عليها.
- الاعتراف للقسيس بما فعل من آثام ليصدر له صك الغفران، والعشاء الرباني والتعميد.
- تحرم الكنيسة الكاثوليكية الطلاق تحريماً باتاً، ولا تبيح فسخ الزواج لأي سبب مهما عظم شأنه حتى الخيانة الزوجية لا تعد مبرراً للطلاق.

ب- فرقة الأرثوذكس: وهي أيضاً كلمة يونانية مركبة من كلمتين إحداهما (orthos) بمعنى الحق، والثانية (doxa) بمعنى المذهب واللفظين معا تعني المذهب الحق²، وتسمى كنيستهم الكنيسة الشرقية أو اليونانية، لأن أكثر أتباعهم من الروم الشرقيين ومن البلاد الشرقية، وأغلب أتباع هذه الفرقة منتشرون في الشرق وفي بلاد اليونان وتركيا وروسيا. وقد انفصلت هذه الكنيسة عن الكنيسة الكاثوليكية في عام 1054م لأمر اختلفتا عليها، ومن أهم عقائدها هي:

- تذهب هذه الكنيسة إلى أن روح القدس منبثق عن الأب وحده.
- تبيح الكنيسة الأرثوذكسية الفصل بين الزوجين في حالة الخيانة الزوجية، مع تحريمها الزواج بين المطلق والمطلقة.
- كل كنيسة مستقلة بذاتها أي لا يجتمعون تحت لواء رئيس واحد³.

ج- فرقة البروستانت: أصل الكلمة (protest) وتعني المحتجون أو المعارضون لرجال الكنيسة وفسادهم، وواقع الكنيسة الذي بلغ أقصى درجات الانحلال، والابتعاد عن الزهد والورع، كما يسمون أيضاً

¹ سعود الخلف: المرجع السابق، ص 276.

² محمد ضياء الرحمان الأعظمي: المرجع السابق، ص 473.

³ سعود الخلف: المرجع السابق، ص 277.

بالإنجلييون أي المتمسكون بالإنجيل. وقد بدأت محاولات اصلاح الكنيسة منذ القرن الثاني عشر لكن استبداد الكنيسة حال دون نجاح تلك المحاولات الى أن ظهر مارتن لوثر الذي في أوائل القرن السادس عشر الميلادي في ألمانيا، مال لدراسة اللاهوت، وكان ذو نزعة دينية، شديد الورع، أخذه رجال الكنيسة ووضعوه تحت رعايتهم إلى أن عين مدرساً للفلسفة، وقد دفعته نزعته الدينية لأن يذهب إلى روما للحج، وليتبرك بلقاء رجال الدين، ولكنه صدم حينما وجد مدينة روما المقدسة غارقة في اللهو، ورجالها منغمسون في الرذيلة، زاعمين أن بيدهم مفاتيح الملكوت في السماوات والأرض، وأنهم يملكون قبول التوبة ببغفرون لمن يشاءون، فبدأ يعلن براءته من تصرفات رجال الكنيسة، ويدعو إلى إنكار عصمة البابا، وحقه في إصدار صكوك الغفران¹.

بدأ العامة والخاصة يتأثرون بدعوته لأنه أوتي من الحجج والبراهين ما لم يؤت أحد الأقاوسة في زمانه، فلم يجد البابا بُدّاً من إصدار قرار بجرمانه من جميع المناصب الدينية، وكذلك أصدر الإمبراطور قراراً بجرمانه من جميع حقوقه المدنية، فاشتد غضب لوثر وبدأ ينادي بالجهاد ضد استبداد الكنيسة علناً. ومن هنا سميت هذه الفرقة البروتستانت أي المحتجين على تصرفات البابا، أما أهم عقائدها :

- الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد للنصرانية.
- ليس للكنيسة حق الغفران إذ هذا من اختصاص الخالق.
- ليس للكنيسة البروتستانية سلطان على كنيسة أخرى، فكل كنيسة حرة في رئاستها وتصرفاتها وربطها بالكنيسة المركزية هو بمثابة ربط الإدارات بالوزارات.
- يجوز لكل نصراني أن يدرس الكتاب المقدس، ويفهم معانيه بعد الحصول على القواعد الأساسية لمعرفة الكتاب المقدس، فقد ترجم الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية ليقرأه كل ألماني بعد أن كان هذا الأمر محظوراً².

- أنكر أن المسيح يحل في بدن كل من يأكل العشاء الرباني، كما أنكر استحالة تحول الخبز إلى عظام المسيح، والخمر إلى دمه، واكتفى بكون العشاء الرباني تذكيراً لما قام به المسيح من فداء للخليقة.
- تنكر هذه الكنيسة جميع ما تقيمه الكنائس الأخرى للسيدة مريم أو المسيح من طقوس واحتفالات وعبادات وأعياد، وترى ذلك الأمور المحدثات.
- عدم اتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس، إذ هي من مظاهر الوثنية.

¹ محمد ضياء الرحمان الأعظمي: المرجع السابق، ص 475.

² سعود الخلف: المرجع السابق، ص 278.

- لا تختلف هذه الفرقة عن غيرها في عقيدة التثليث، وألوهية المسيح وبنوته وصلبه وقيامه وتكفيره عن خطيئة البشر الأزلية التي ارتكبها آدم.

وقد انتشرت الفرقة البروتستانتية في كثير من البلاد الأوروبية التي منها إنجلترا، وألمانيا، الدنمارك، سويسرا، هولندا، النرويج، أمريكا. كما انتشرت أيضا بكثرة في أفريقيا والصين واليابان، ولهم مبشرون في البلاد الإسلامية.¹

خامسا- العبادات:

أ- الصلاة: هي سبع صلوات في اليوم واللييلة، عدا البرتستانت الذين لا يحددون عددا معيناً وهي صلاة البكورة وصلاة الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة والحادية عشر والثانية عشر ومنتصف الليل. وليس لها كيفية محددة وإنما هي دعاء يختارونه في الغالب من الأدعية المنسوبة إلى داود عليه السلام كما ذكروها في المزامير من العهد القديم، ولا يشترط الوضوء أو الطهارة الجسدية من النجاسة عند النصارى كاليهود والمسلمين بل أنها تجوز عندهم حتى عند الجنابة، ويرون أن ذلك أفضل حتى لا يتشبهون باليهود والمسلمين، وذلك بحكم فهمهم للطهارة على أنها طهارة القلب والروح لا الجسد، وللصلاة عندهم شرطان:

أولهما أن تقدم الصلاة باسم المسيح لأنه الواسطة، وهذا أصرح ما يكون في عباداتهم له. وثانيهما أن يتقدم الصلاة بالإيمان الكامل بالتثليث وغيره من العقيدة.²

والصلاة عند النصارى أنواع منها صلاة فردية التي ذكرناها، وصلاة جماعية تؤدي في الكنيسة كل يوم أحد، حيث يقرأ عليهم الكاهن شيئاً من المزامير أو من غيرها من الكتاب المقدس، والجميع وقوف يستمعون وعند نهاية كل مقطع يقول المصلون آمين³، وتستعمل كل الطوائف النصرانية الموسيقى في الترانيم عدا فرقة الأرثوذكس.

ومما يلاحظ أن المسيح حين صلى كان يقع على وجهه على الأرض كما يقول إنجيل متى: (ثم تقدم المسيح قليلاً وخر على وجهه وكان يصلي)⁴، وهذا يفهم منه أن المسيح كان يسجد في صلاته⁵، لكن النصارى اليوم يؤدون الصلاة قعوداً أو وقوفاً، ولا يسجدون ولا يركعون، وهذا يعني أن صلاتهم اختلفت عن صلاة المسيح.

1 محمد ضياء الرحمن الأعظمي: المرجع السابق، ص 489.

2 سعود الخلف: المرجع السابق، ص 268.

3 هدى درويش: الصلاة في الشرائع القديمة والأديان السماوية، ص ص 257-258.

4 إنجيل متى: الاصحاح 26، الفقرة 39.

5 هدى درويش: الصلاة في الشرائع القديمة والأديان السماوية، ص 268.

ب- الصوم: يرى الكثير أن الصيام عند النصارى ليس ثابتاً ومحدداً بل يصوم الإنسان وقت الحاجة للصيام، ويعتبر كل صيام محدد بدعة غير مشروعة. والصيام عند النصارى هو الامتناع عن الطعام حتى بعد منتصف النهار، ثم تناول طعام خال من الدسم عند بعض الفرق، وبعض الفرق الأخرى منهم ترى الصوم امتناع عن الأكل والشرب من الصباح إلى المساء، أما عن أوقات الصيام عندهم فهي يوم الأربعاء لأنه يوم المشاورة على موت المسيح عندهم، ويوم الجمعة لأنه صلب فيه المسيح، وصوم الميلاد، وعدد أيامه 43 يوماً تنتهي بالميلاد، والصوم المقدس الذي صامه المسيح مدته 55 يوماً، وصيام الرسل من 15 إلى 49 يوماً تختلف من فرقة لأخرى، وصيام مريم العذراء مدة 15 يوماً¹، وأيام أخرى غيرها، وضعوها لمناسبات خاصة تختلف من كنيسة إلى أخرى.

ج- الحج: يطلق لفظ الحج عند المسيحيين على زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، تلك الأماكن التي شرفها السيد المسيح بولادته، موته وقيامته، في القدس والناصرة وبيت لحم وغيرها. هذا، ولا يوجد أي نصوص في الإنجيل، الكتاب المقدس عند المسيحيين، تنص على أي نوع من الزيارة إلى أمكنة مقدسة، بل على العكس من ذلك، إذ يوصي المسيح تلاميذه في حادثة التحلي الشهيرة، ألا تقام مزارات أو صروح باسمه.

وتشير الروايات التاريخية إلى أن أول حج للقدس كان في أوائل القرن الثاني الميلادي، ثم تكررت هذه الزيارات وتتابعت منذ القرن الرابع الميلادي، حينما اعتنق الامبراطور قسطنطين المسيحية (306-337م)²، وجعلها من الديانات الرسمية للدولة الرومانية. واستمرت حركة الحج إلى فلسطين بعد الفتح الإسلامي، وشهدت تطوراً كبيراً حتى احتلال الصليبيين القدس سنة 1099م³ وما بعدها، ولم تتوقف بعد استعادة المسلمين الأراضي المقدسة، وتواصل قدوم الحجاج والكهنة المسيحيين إلى فلسطين طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين لخدمة الأماكن المقدسة وزيارتها.

وتبدأ رحلة الحج لدى المسيحي عند وصوله إلى المدينة المقدسة بالصوم والصلاة ثم زيارة القبر، حيث يطرح عليه ملحفة يحتفظ بها لتكون كفناً له عند موته. ثم يزور جبل صهيون وجبل الزيتون ووادي يهوشافاط وبيت لحم وجبل تابور وغيرها من الأماكن المقدسة التي تتعلق بمعجزات السيد المسيح. وبعد أن

¹ سامي بن عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 288.

² سامي بن عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 262.

³ حبيب بدر وآخرون: المسيحية عبر تاريخها في المشرق، ط1، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، 2002م، ص 546.

يستحم في نهر الأردن يأخذ من أريحا غصناً من النخل ليقدمه عند رجوعه إلى الخوري لوضعه على المذبح علامة لتكميل زيارته.

ولم يقتصر المسيحيون في حجهم على زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، بل يحجون الى مدينة روما ثاني الأراضي المقدسة حيث يقصد المسيحيون فيها ضريحي القديس بطرس والقديس بولس، وكذلك حضور اليوبيل المبارك الذي كان يقام سابقاً آخر سنة من كل قرن، ثم جعله البابا اكليمنس السادس في آخر كل 33 سنة، وجعله البابا بولس الثاني في آخر كل 25 سنة.

د- الزكاة لم تأتي لفظة الزكاة في العهد الجديد للنصارى (الأنجيل) بل جاءت بمعنى الصدقة، ومثال ذلك: (احترزوا من أن تصنعوا صَدَقَتِكُمْ قُدَّامَ النَّاسِ، لكي ينظروكم، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات. فمتى صنعت صدقة فلا تُصَوِّتْ قُدَّامَكَ بالبوق، كما يفعل المراءون في المجامع وفي الأزقة، لكي يُمَجِّدُوا من الناس). وأيضاً: (وأما أنت فمتى صنعت صدقةً فلا تعرّف شمالك ما تفعل يمينك. لكي تكون صدقتك في الخفاء، فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يُجَازِيكَ علانية)¹. وكذلك: (بيعوا ما لكم واعطوا صدقة...)².

وجاءت لفظة الزكاة صريحة في الكتاب المقدس في العهد القديم (التوراة) وبالتفصيل في سفر العدد مثل: (وَالْبَقَرُ سِتَّةَ وَثَلَاثِينَ أَلْفًا، وَزَكَاتُهَا لِلرَّبِّ اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ)، وأيضاً: (وَالْحَمِيرُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا وَخَمْسَ مِئَةٍ، وَزَكَاتُهَا لِلرَّبِّ وَاحِدًا وَسِتِّينَ) إضافة الى: (وَنُفُوسُ النَّاسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفًا، وَزَكَاتُهَا لِلرَّبِّ اثْنَيْنِ وَثَلَاثِينَ نَفْسًا).

(وَارْفَعْ زَكَاةً لِلرَّبِّ. مِنْ رِجَالِ الْحَرْبِ الْخَارِجِينَ إِلَى الْقِتَالِ وَاحِدَةً. نَفْسًا مِنْ كُلِّ خَمْسِ مِئَةٍ مِنَ النَّاسِ وَالْبَقَرِ وَالْحَمِيرِ وَالْعَنَمِ). ووردت أيضاً: (وَكَانَتِ الزَّكَاةُ لِلرَّبِّ مِنَ الْعَنَمِ سِتِّ مِئَةٍ وَخَمْسَةَ وَسَبْعِينَ)، وذكرت أيضاً: (فَأَعْطَى مُوسَى الزَّكَاةَ رَفِيعَةَ الرَّبِّ لِأَلْعَازَارَ الْكَاهِنِ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ مُوسَى)³.

سادساً- الشعائر عند النصارى:

منذ القرون الأولى للنصرانية التزم أتباعها بشعائر يقولون أنها فرائض مقدسة وضعها المسيح للنصارى، وهي شعائر يجب القيام بها لا يصح التخلي عنها، وهي أعمال جلييلة تشير إلى بركات روحية غير منظورة عنهم، أشهرها الأسرار السبع إضافة الى حمل الصليب وتقديسه، ومن شعائريهم الواجب اعتقادها والعمل بها⁴:

¹ انجيل متى: الاصحاح 6، الفقرات 1-6.

² انجيل لوقا: الاصحاح 12، الفقرة 33.

³ سفر العدد: الاصحاح 31، الفقرات 28-41.

⁴ محمد ضياء الرحمن الأعظمي: المرجع السابق، ص 105.

1- التعميد (سر المعمودية): يقصد به أن يكون الإنسان طاهراً مبرئاً من الذنوب، وهو مفتاح الدخول للنصرانية، فمن لم يعمد ليس نصرانياً عندهم، ولو كان من أبوين نصرانيين، ويمكن أن يعمد الشخص وهو طفل أو في أي وقت من حياته، كما يمكن تعميده وهو على فراش الموت. وطريقته عندهم رش الماء على الجبهة، أو غمس أي جزء من الجسم في الماء، أو غمس الشخص كله في الماء، ولا يكون إلا في الكنيسة وعلى يد الكاهن، ورد في إنجيل متى عن التعميد: (تقدم يسوع وكلمهم قائلاً: دفع إلى كل سلطان في السماء وعلى الأرض، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس، وعلموهم جميع ما أوصيكم به)¹.

2- سر الميرون المقدس: هو مسحة نصرانية مقدسة بها يختم الكاهن ويمسح أعضاء جسد المعمد بالمسيح ظاهرياً حال خروجه من جرن المعمودية ليكتسي بالنعمة باطنياً أي ينال نعمة الروح القدس حسب اعتقادهم.

3- العشاء الرباني: وهو قطع الخبز مع كأس من الخمر، يتناوله النصارى في الكنيسة رمزاً وتذكيراً لصلب المسيح عندهم. وعند الكاثوليك من النصارى أن من أكل هذا الخبز وشرب الخمر فقد أكل لحم المسيح، وشرب دمه، لأنه عندهم يتحول حقيقة إلى لحم المسيح ودمه. بينما يرى غير الكاثوليك أن هذا رمز لما حل بالمسيح، أو أن المسيح يحضر روحياً هذا العشاء، وليس له وقت محدد وإنما يرون ممارسته مراراً عديدة في العام. وقد جاء بالنسبة للعشاء الرباني في رسالة بولس لأهل كورنثوس ما نصه: (إن الرب يسوع في الليلة التي أسلم فيها نفسه أخذ خبزاً، فكسر وقال: خذوا وكلوا، هذا هو جسدي المكسور لأجلكم، اصنعوا هذا للذكرى)².

4- الاعتراف للقس وصكوك الغفران: التوبة عند النصارى لا تتم إلا بالاعتراف بالذنوب والخطايا أمام القس أو الكاهن في الكنيسة، ثم يمسه هذا الكاهن فتغفر ذنوبه، ثم إن ذلك تطور حيث قرر في الجمع الثاني عشر من مجاميعهم التي يقررون فيها عقائدهم ويعتمدونها سنة 1215م أن الكنيسة الكاثوليكية تملك حق الغفران للذنوب لمن تشاء³.

5- سر الكهنوت: يعتقد النصارى أنه موهبة إلهية يُنعم الله بها على أناس يختارهم من بين المؤمنين، ويدعوهم فيلبّون الدعوة ويكرّسون حياتهم لخدمته تعالى ويأخذون الرسامة الشرعية القانونية بعمل وقوة الروح القدس، وبذلك ينالون سلطاناً يميّزهم عن غيرهم في أمر الولاية على كنيسته بحسب سلطة الدرجة

¹ انجيل متى: الاصحاح 28، الفقرة 18.

² محمد ضياء الرحمن الاعظمي: المرجع السابق، ص 405.

³ سامي بن عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 289.

التي ينالونها، ومنح أسرارها الإلهية لمن يستحقونها بانتظام من تعميد وتقدیس وحلّ التائبين، وعزل الخبثاء الشاذين والمجرمين غير التائبين، وإقامة الصلوات العامة وإرشاد المؤمنين ورعايتهم¹.

6- سر الزواج: هو سر مقدس، يعقده الكاهن الشرعي بين الرجل والمرأة المسيحيين برضاها فينالان النعمة الإلهية الضرورية لقيام الزواج المسيحي وتقديسه حسب اعتقادهم. والزواج عامة هو ناموس طبيعي أسسه الله منذ البدء، عدا القسيسين والرهبان اقتداءً بالسيد المسيح²، وعندهم الذي يستطيع أن يضبط نفسه عن الزنا فالأفضل أن لا يتزوج، ولا يجوز عندهم الزواج بأكثر من واحدة، ولا طلاق مهما كان السبب عند الكاثوليك، وعند الأرثوذكس إلا في حالة الزنا، وإذ طلق أحدهما الآخر فلا يتزوج مرة أخرى، ويجوز الطلاق عندهم في حالة اختلاف الدين بين الرجل والمرأة إذ لم يتم التوافق بينهما.

7- سر مسحة المرضى: يعد من الأسرار السبع التي يعتقدونها النصارى يتمثل في مسح الكاهن الشرعي المريض بزيت سبق تقديسه على يد الأسقف بنعمة الروح القدس حسب اعتقادهم، كما يطلب الكاهن من الله تعالى ليمنّ على المريض بالشفاء من أمراضه الجسدية والروحية.

8- حمل الصليب وتقديسه: ومن الشعائر المفروضة على النصارى بالإضافة إلى الأسرار السبع نجد حمل الصليب وتقديسه، وقد جاء في إنجيل لوقا: (وقال للجميع إن أراد أحد أن يأتي ورائي، فلينكر نفسه، ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني).³ فالنصارى بذلك يرمزون بالصليب الذي يحملونه إلى صلب المسيح عليه السلام عندهم، ويزعمون أن حمله يشعروهم بإنكار النفس واقتفاء أثر المسيح، والسير وراء مخلصهم وفاديتهم⁴.

¹ سامي بن عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 289.

² محمد ضياء الرحمن الاعظمي: المرجع السابق، ص 384.

³ إنجيل لوقا: الاصحاح 9، الفقرة 23.

⁴ سعود الخلف: المرجع السابق، ص 272.

المبحث الثاني - تاريخ النصرانية في العراق قبل الوجود العثماني:

ارتبطت ثقافة أبناء الرافدين بجذور الحضارات التي نشأت في وادي دجلة والفرات، وهي الحضارات السومرية والبابلية والآشورية التي تناوبت على الحكم في العراق القديم، ومما لا شك فيه أن غالبية نصارى العراق هم من أصول تلك الأقوام والشعوب التي سكنت هذه البلاد منذ أقدم العصور وانتشار المسيحية في صفوفهم وبقائهم على أصولهم منذ القرن الأول للميلاد والقرون اللاحقة. وقد تعاقب أقوام كثيرون، واندس أقوام آخرون في هذه البلاد وما حولها، كما كان ثمة اختلاط بين هؤلاء الأقوام عبر الزواج والتجارة وامتزاج بالفكر واللغة والعادات والتقاليد - والمذاهب نتيجة ذلك كله.

أولاً - تاريخ نصارى العراق قبل الوجود العثماني:

1- جذور تواجد النصرانية في العراق:

لقد اختلفت الروايات بشأن التاريخ الحقيقي لدخول المسيحية في العراق وعموم الشرق، ويكاد الاختلاف بشأن الانتشار المسيحي في هذه البلاد أن يكون محل إجماع بين مؤرخي المسيحية، سواء من الكتاب المسيحيين العراقيين العرب أو المستشرقين، بل وحتى الكتاب المسلمين، إذ لا يوجد حسب تعبير الأب ألبير أبونا¹ نص كتابي موثق يؤكد حقيقة دخول المسيحية إلى بلاد ما بين النهرين، ولهذا فإن التقليد الجاري في الكنائس الشرقية يؤكد أن دخول الرسل الذين بشروا بالمسيحية في هذه المنطقة في القرن الأول للميلاد يشكل بداية معتبرة بين المؤرخين لتاريخ دخول المسيحية إلى العراق القديم، فقد جاء هؤلاء الرسل وهم سمعان بطرس الذي كتب رسالته الجامعة من بابل، ومارتوما الرسول، ومار ادي، وتلميذاه مار أجاي ومار ماري، في القرن الأول ونشروا الإيمان بين أهل العراق الوثنيين في أربيل ونينوى وبابل والجزيرة وغيرها². وكانت أولى الأقوام التي اعتنقها هم الآراميون، ولم يتخلف السريان والكلدان العراقيون عن إعتناق المسيحية بعد أن كانت الوثنية الآشورية والبابلية هي السائدة بينهم، إذ بعد سقوط نينوى وبابل لم يبق لديانتهم ما يبرر وجودهما بعد أن كانت ديانة دولة عظمى لها معابدها وطقوسها الرسمية، ولهذا لم تجد النصرانية محلاً أخصب من المجتمع السرياني والكلداني للتبشير بدعوتها. ولعل الذي قام لاحقاً بالعمل الأكبر في الدعوة والتبشير هو القديس مار ماري الذي واجه في بداية دعوته جفوة وقسوة من أهل العراق لقبول الديانة النصرانية الجديدة، وذلك بسبب تغلغل الوثنية في نفوسهم، ولكن بعد محاولات عديدة أثمرت جهوده عن هداية ملك أربل (حالياً أربيل) إلى المسيحية، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب المسيحية من بعض الكرامات والمعجزات في تبني المسيحية من قبل الأمراء، والحكام المحليين في العراق القديم.

¹ دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، الدار العربية للعلوم، الدوحة، 2012م، ص 23.

² الأب ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة الشرقية، ج 1، ط 2، مطبعة بغداد، بغداد، 1958م، ص 5.

وقد روي في هذا الصدد عن بعض المؤرخين بأن ملك أربل كان مصابا بداء الجرب، ومخلع اليد، وبعد حوار جرى بينهما يشفي مار ماري الملك من علته، وكان قائد جيشه حاضرا هناك، فلما عاين شفاء مولاه، اعتزته الدهشة والذهول، فطلب من ماري أن يشفي ابنه الوحيد المدعو دادي الممسوس فبرئه وشفي أيضا هو الآخر.

وكانت هاتان الحادثتان سببا بأن آمن الملك وقائد جيشه والأشراف والكثير من الأهالي بالديانة النصرانية¹، وتشير الروايات المسيحية إلى أنه وبعد تنصر أربل وأهلها، اتجهت الدعوة النصرانية إلى الموصل أو إلى نينوى، وهي بلاد الآشوريين، وتم تنصير أهلها على يد الرسل بطرس، وتوما وبرتلماوس، وآدي وماري وسمعان وبنيامين، ثم اتجه الرسل إلى جنوب العراق، إذ تقول أخبار السريانية أن القديس مار ماري كان قد واجه صعوبات في تنصير أهل ساليق (بابل) بسبب قساوة قلوبهم وتأصل جذور الوثنية فيهم، فكتب رسالة لإخوانه الرسل في الرها قائلا: «إن الأرض التي أرسلتموني إليها أرض الخطيئة، وهي ممتلئة بالشوك والقرطب، أهلها قساة متمردون، وليس لي من سبيل لأزرع في قلوبهم الغليظة بذرة الحياة، فاسمحوا لي أن آتيكم أو أنطلق إلى بلد آخر»²، غير أن الرسل الآخرين لم يستحسنوا ذلك منه، وطالبوه بالبقاء على دعوته والاستمرار بها.

وبعد محاولات متعددة أثمرت جهوده في ساليق (بابل) وقطيسفون (المدائن) عن اقناع رئيس مجلس الشيوخ فيها بالنصرانية بعد شفاؤه من مرض عضال، ومن ثم اقناع أمير ساليق أفراط لاحقا، وكذلك أمير قطيسفون أرتبان. وبعد أن بنى أول كنيسة (كنيسة كوشي) اتجه إلى البلاد الواقعة اليوم بين بغداد وواسط، وطاف كل بلاد كسكر، أو كشكر وتلمذ أهلها وأقام الأديرة والكنائس، ثم اتجه إلى ميشان (ميسان حاليا) والأهواز، وبلاد فارس فأدخل للنصرانية خلقا كثيرا، ثم عاد إلى قطيسفون وأصدر أمرا يقضي بأن المدبر لكنيسة كوشي يكون رئيس أساقفة لجميع المشرق، أي بلاد ما بين النهرين³.

2- عوامل انتشار النصرانية في العراق.

تعد العوامل المساعدة على انتشار النصرانية في العراق محل خلاف أيضا فرغم أن تلك الآراء متوافقة مع المنهج الدعوي والتبشيري الذي اعتاده رسل النصرانية، إلا أن البعض ينفي أن يكون العراق قد امتدت إليه النصرانية عبر الرسل والمبشرين فقط، بل أن أحداثا تاريخية كانت قريبة من العراق أو على اتصال به ساعدت في انتشارها هناك ومنها:

¹ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج1، ص 379.

² دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص 24.

³ دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص 25.

أ- الهجرة اليهودية في أعقاب تدمير الهيكل وسقوط أورشليم عام 70م:

أيد المطران لويس ساكو¹ دعوات المبشرين الأوائل، إلا أنه يرى أن التبشير المسيحي في العراق قد أسهم فيه أيضا المهاجرون الأوائل من فلسطين على اثر انتفاضة اليهود بقيادة بركوبا عام 67م، وخراب مدينة القدس (أورشليم) على يد القائد الروماني طيطس عام 70م، وحرق الهيكل تماما. ويستدل ساكو على ذلك بوجود ثلاثة من رؤساء كنيسة المشرق ينسبون إلى عائلة يسوع (يوسف النجار)، وكانوا من المحافظين على خط يعقوب رئيس كنيسة القدس، كما يبين تأثير كنيسة القدس في الكثير من الطقوس الكنسية لمسيحي العراق².

ب- سبايا الرومان في حروبهم مع الدولة الساسانية:

وتذهب بعض الروايات الأخرى إلى أن المسيحية انتشرت في بلاد ما بين النهرين، لاسيما في جنوبه عن طريق سبايا الرومان الذين جلبهم الملك الساساني شابور الأول (240-272م) في حروبه الكثيرة ضد الرومان³، فقد غزا أنطاكية مرتين، وجلا العديد من سكانها إلى البلاد البابلية، وإلى سائر المناطق الفارسية، وكان من بين الأسرى ديمتريانس مطران أنطاكية نفسه الذي نفى إلى الأحواز سنة 257م⁴. وقد تكرر الأمر في عهد الملك كسرى الأول حينما جلب سنة 573م ما يزيد على 290 ألف أسير نصراي من أنطاكية إلى قطيسفون (المدائن) وجعلهم يستقرون في مختلف المدن الفارسية، وهذا ليس ببعيد إذا ما علمنا أن مركز كنيسة الشرق كان بأنطاكية، حتى القرن الخامس الميلادي، ففي بداية ذلك القرن عقد مجمع سلوقيا وانتخب الجاثليق مار إسحق على كرسي سلوقيا-قطيسفون، وبحضور مار ماروثا ممثل فرفيروس بطريك أنطاكية والآباء الغربيين، وبقيت سلوقيا مركز الكرسي البطريركي لكنيسة ما بين النهرين حتى العام 779م.

¹ المطران لويس ساكو: ولد في مدينة زاخو في 1948م، وسمي كاهنا في أبرشية الموصل الكلدانية في عام 1974م. حصل على شهادة الدكتوراه من الجامعة البابوية في روما عام 1983م، وماجستير في الفقه الإسلامي سنة 1984م، كما حاز لاحقا على شهادة دكتوراه من جامعة السوربون سنة 1986م. انتخب مطرانا على أبرشية كركوك في عام 2002م، وسيم على هذا المنصب العام التالي. وتم انتخابه بطريكا على الكنيسة الكلدانية في سينودس الكنيسة بروما خلفا للبطريك المستقبل عمانوئيل الثالث دلي في 1 فبراير 2013م.

² دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص 25.

³ سلوى بالحاج صالح: العربية المسيحية تطوراتها (من نشأتها الى القرن الرابع هجري العاشر ميلادي)، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1997م، ص 50.

⁴ الأب ألبير أبونا: المرجع السابق، ج1، ص 27.

ج-هجرات القبائل النصرانية العربية:

كما تشير روايات أخرى أن أحد عوامل تنصر أهل العراق جاء بتأثير هجرة القبائل العربية النصرانية في مدينة نجران اليمنية المعروفة بكثرة كنائسها، وبعض المدن اليمنية التي انتشرت بها الديانة النصرانية وذلك لسبيين ذكرهما المؤرخون هما:

1)-الاضطهاد اليهودي لنصارى نجران: حيث سعى ملك حمير اليهودي ذو النواس¹ إلى إجبار القبائل العربية المنتصرة على اعتناق اليهودية، وكانت اليهودية قد تسربت إلى اليمن من جراء خراب القدس (أورشليم) فنمت وصار لها شأن، وكان ذو نواس يرى في النصرانية ما يذكره بالأحباش ومطامعهم في اليمن، فأوقع في النصارى مذبحة شنيعة العام 523م، ثم جمع من نجا منهم وخيرهم بين اليهودية والقتل، فاختاروا الموت إيماناً منهم بعقيدتهم، فخذ لهم أخدوداً وأشعله ناراً، وبدأ يسوقهم إليه سوقاً، وقد فسر بعض علماء الاسلام بأن ما جاء في سورة البروج يشير إلى تلك الواقعة بقوله تعالى « قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد»²، وأشار إلى النصارى الأوائل بالمؤمنين دلالة على التوحيد والربوبية التي كانوا يؤمنوا بها آنذاك، وقد ذهب ضحية لتلك المذبحة حوالي 20000 عشرون ألفاً أو أكثر³.

يذكر أن كثير من النصارى نجوا من تلك المذبحة، فبعضهم ذهب إلى إمبراطور الروم يستنصره، والبعض الآخر استنجد بملك الحبشة النجاشي الذي شن حربين على ذي نواس فانتصر عليه مرتين متواليتين في سنة 523م وسنة 525م، في حين هاجر الكثير من النصارى إلى بوادي العراق وحواضره، بعد أن ضاقت بهم السبل في أرض اليمن.

2)-انهيار سد مأرب: وتروي مصادر كنسية أخرى أن اعتناق أهل العراق للنصرانية أو انتشارها فيه جاء في أعقاب انهيار سد مأرب في اليمن أواخر القرن الأول ميلادي⁴، ونزوح أبناء الكثير من القبائل العربية القحطانية، وأشهرها حمير وسبأ وكهلان وقضاعة إلى المناطق الشمالية الشرقية من بلاد الرافدين،

¹ ذو النواس يوسف اسار يثار ملك حميري في اليمن القديم (468-527م) وكان يهودياً تصدى الغزو الحبشي على الديدة ونجران والمخا وجزيرة الفرسان وباب المندب فنصرته كل قبائل اليمن. لقب بذي النواس لذؤابة كانت تنوئ أي تنذبذب على ظهره. عاش في بلاد نجران، وهي اليوم جزء من مملكة السعودية تقع في أقصى الجنوب الغربي على حدود اليمن.

² سورة البروج: الآيات 1، 4، 5، 8.

³ حسين العودات: العرب النصارى، ط1، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، 1992م، ص 34. دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص ص 26-27.

⁴ حسن العودات: المرجع السابق، ص 35.

فكان من النازحين رهط من أولاد معن بن عدنان الذين وصلوا العراق وكان معهم أبناء من قبيلة قضاة وكان أغلبهم قد اعتنقوا النصرانية.

وتذكر المصادر أن تلك القبائل تحالفت مع قبائل عربية أخرى من بني أسد وسمي ذلك التحالف بتنوخ، ثم تبعها قبائل عربية يمنية أخرى من الأزدي وأيد ولحم وتغلب وبنو الحارث بن كعب وربيعة والمناذرة، فاستقرت في الأنبار والحيرة وبابل والسواد وعاقولا (الكوفة حاليا) والجزيرة والموصل والمناطق الواقعة بين بادية الشام والعراق كجزيرة بن عمر وديار بكر بن وائل، حيث عثر على كتابات ورموز ونقوش عربية نصرانية منحوتة تعود إلى القرن الأول الميلادي¹.

هذا وقد اجتهد المؤرخون حول تواجد وانتشار الديانة النصرانية في العراق إلا أنه يمكننا القول أن هذه العوامل مجتمعة كملت بعضها البعض حتى تنتشر المسيحية في العراق ويشد عودها في هذه البلاد ولم تنتهي ولم تمحى منذ ذلك الزمان إلى غاية أيامنا هذه رغم ما مرت به من محن في حق تاريخية متفاوتة.

3- آثار انتشار النصرانية في العراق:

مع استقواء عود المسيحية في العراق في القرن الثالث الميلادي، بدأ نجم الكثير من الحواضر والمدن المسيحية بالظهور، سواء بسبب كونها مستقرا رئيسا لكنيسة المشرق مثل قطيسفون (المدائن)، أو لكونها مركزا تجاريا أو حاضرة ثقافية وعلمية مثل الحيرة وتكريت.

مهما كانت أسباب التأثير والانتشار للديانة النصرانية في العراق، إلا أنه لم يكد يمضي القرن الثاني للميلاد حتى حققت الديانة الجديدة انتشارا بينا تمثل في عدد الأديرة والكنائس التي انتشرت في أربل ونيوى وساليق وكشكر وميشان وطيسفون وغيرها من مدن العراق القديم، إذ يؤرخ الكثير من الكتاب النصارى والمسلمين لحواضر كان لها أثر مهم في توطيد دعائم المسيحية في العراق القديم عبر رجال الدين والكتاب والشعراء الذين أنتجهم، وعبر الكنائس والأديرة العريقة التي ساهمت في الحفاظ على المسيحية ونشرها في العراق.

هذا، ويفتخر العديد من الكتاب المسيحيين بمدينة قطيسفون أو المدائن لاحقا، باعتبارها كانت المنطلق الرئيس لرسل المسيحية الأوائل الذين بشروا بدعوة عيسى بين أهل العراق، وفيها بنيت أول كنيسة في تاريخ العراق، وهي كنيسة كوخى، حيث ظلت سبعة قرون مقرا لكنيسة المشرق وتسلم رئاستها كبار العلماء والمفكرين ورجال الدين المسيحيين، وقد سماها العرب طيسفون وطيسفونج، وتقع على الضفة الشرقية لنهر

¹ رافائيل بابو اسحاق: تاريخ نصارى العراق (منذ انتشار المسيحية في الأقطار العراقية الى أيامنا)، ط1، مطبعة المنصور، بغداد، 1948م، ص 52-53.

دجلة¹، ولا يعرف تاريخ تأسيسها، ولكن يذكر الدينوري في الأخبار الطوال أن الإسكندر الكبير وافي العراق فنزل المدينة العتيقة التي تسمى طيسفون، وتشير المصادر إلى أنها فرثية المنشأ، فالأقوام الفرثية التي حكمت العراق وفارس اتخذتها عاصمة لها وظلت بعد ذلك عاصمة للساسانيين وسميت بالمداين، وفيها قصور كسرى إلى أن افتتحها سعد بن أبي وقاص بعد معركة القادسية سنة 637م. ولم يخرّبها المسلمون بل حافظوا عليها واتخذوها مقرا لجيوشهم حتى أسسوا الكوفة فيما بعد، وهناك مدينة ساليق أو سلوقيا وهي بنيت على الضفة الغربية لدجلة في مقابل قطيسفون، وبنائها الروم البيزنطيون حين دخولهم العراق، وقد ازدهرت في مطلع العهد المسيحي الأول، وبنيت فيها الكنائس والأديرة وظهرت فيها شخصيات دينية وعلمية وأدبية كبيرة.

ومن المدن المسيحية الأخرى هي كشكر أو كسكر وتقع في محافظة واسط اليوم، وتعد أقدم أبرشية في المنطقة ويرجح أنها مدينة آرامية اشتهرت بمنتجاتها من الحبوب والفواكه، وكانت أول مدينة في بلاد الرافدين تستجيب لدعوة مار ماري، تلميذ مار آدي رسول المسيح، فاهتدى أهلها إلى المسيحية، ونظرا لأهميتها أصبحت مركزا مشعا للمسيحية وبنى فيها عدة أديرة، ومن شخصيات كشكر في أواخر القرن الثالث ميلادي عبد يشوع الذي يعرفه اليونانيون بمار اخيلاوس الكشكري الذي كان أول أسقف عليها². ومن أعلام كشكر مار إبراهيم الكشكري الأول الذي أصبح حاثليق كنيسة المشرق سنة 98م، واستطاع بمكانته وعلمه وإيمانه أن يقنع الملك الفرثي بوقف الاضطهادات على النصارى بعد أن تمكن من شفاء ابن الملك الفرثي الذي ابتلي بداء أعجز الأطباء³.

ولا شك أن من العوامل التي ساهمت في تلك الاستقلالية وحدة اللغة التي بات يتكلم بها مسيحيو العراق، فكما وحدتهم الديانة النصرانية، ساهمت اللغة السريانية في توحيدهم ثقافيا، فقد حلت هذه اللغة تدريجيا محل الآرامية التي كانت لغة السيد المسيح والمسيحيين الأوائل، إلا أنها تدرجت أمام تقدم السريانية التي باتت منذ القرن الأول الميلادي اللغة الفصحى لجميع الكنائس المسيحية والمناوية والبابلية في جميع منطقة الشرق من خليج البصرة حتى سيناء⁴، بل إن هذه اللغة كانت لغة القبائل العربية التي اعتنقت المسيحية، واستقرت في الحيرة وامتزجت بالسكان الأصليين الناطقين بالآرامية وفي الحضر وبصرى وتدمر⁵ ومنطقة الخليج المعروفة بالبحرين وقطرايا أي قطر الحالية، وتمكنت هذه اللغة من أن تصبح لغة الثقافة الأولى

¹ دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص 38.

² رافائيل بابو اسحاق: المرجع السابق، ص 5.

³ دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص 39.

⁴ عرفات عبد الحميد فتاح: النصرانية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها، ط1، دار عمار للنشر، عمان 2000م، ص 92.

⁵ تدمر: مدينة من بلاد الشام سورية حاليا. أنظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج 2، ص 18.

في الإمبراطورية الفارسية الساسانية، ومنحت أبجديتها إلى اللغة البهلوية الفارسية وغيرها من الإمبراطوريات في مناطق آسيا المختلفة.

عموما ساهمت الاستقلالية التي تميزت بها كنيسة المشرق في استقرار علاقتها بالكراسي الأربعة الموجودة في أنطاكية وأفسس وروما والإسكندرية، حيث تميزت علاقتها مع تلك الكراسي بالتآلف والتعاون فيما بينها حتى القرن الخامس الميلادي وبالتحديد في سنة 431م¹، حيث انعقد مجمع افسس بأمر من الإمبراطور البيزنطي (ثيودسيوس) للنظر في النزاع أو الجدل الذي ظهر بين قورلس بطريرك الإسكندرية ومارنسطوريوس²، وقد رفضت كنيسة المشرق تجريم نسطوريوس عندما طلب منها ذلك، فألصق أعداء نسطوريوس تسمية النساطرة على أتباع كنيسة المشرق³، وهي تسمية خاطئة، لأن كنيسة المشرق كانت قد تأسست في القرن الأول الميلادي على يد الرسل الذين ذكرناهم آنفا.

4- تاريخهم في عهد الفرثيين (126ق.م-226م):

عاشت كنيسة المشرق وأتباعها قرنها الأول الميلادي تحت الحكم الفارسي الذي خضع له العراق قرونا طويلة، ونتيجة الصراع المستمر بين الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية شهد انتشار المسيحية بين قبائل العراق مدا وجزرا حسب شدة وتسامح ملوك الفرس حيال الديانة الجديدة، ولكن عموما لم يتعرض مسيحيو العراق طيلة قرنين لأي مضايقات دينية كبيرة كتلك التي حصلت لاحقا في عهد الساسانيين، حيث سمح الفرثيون لهم بممارسة عقائدهم وبناء وترميم كنائسهم، وأديرهم والتبشير بدعوتهم رغم التعصب الديني الذي عرف به الجحوس⁴. وقد انتشرت المسيحية بين القبائل العربية في العراق بفضل المبشرين من الرسل والرهبان الذين كانوا يعيشون بين أحياء العرب في العراق، ويتجولون في البراري، ويقتاتون من النباتات، والذين استطاعوا بحياتهم النسكية أن يدخلوا كثيرا من العرب والعجم إلى الديانة المسيحية⁵.

¹ نهاد خياطة: المذاهب والفرق المسيحية قبل الاسلام، ط1، دار الأوائل، ب ت، ص 97.

² عزيز سوريال عطية: تاريخ الكنيسة الشرقية، تعريب اسحاق عبيد، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م، ص 54-55.

³ حسن العويدات: المرجع السابق، ص 29.

⁴ دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص 32.

⁵ ألبير أبونا: المرجع السابق، ج1، ص 17.

5- نصارى العراق في عهد الساسانيين (226-642م):

بعد سقوط المملكة الفارسية الفرثية استطاع الملك الساساني أردشير بن بابك (226-241م) أن يوسع حدود مملكته حتى شملت كل إيران وأواسط آسيا إلى حدود الهند والصين، كما بسط سلطانه على العراق واتخذ له مدينة قطيسفون (المدائن) عاصمة لإمبراطوريته¹.

وطيلة أربعة قرون (القرن الثالث إلى القرن السابع) خضع العراق للسيادة الفارسية الساسانية، وكان جزء من إمبراطوريتها، واستمد من قوتها الحماية في وجه الاعتداءات الرومانية أو البيزنطية، وتأثر بإدارتها الحكومية والمالية وقوانينها الرسمية. وكان خاضعا على الأقل في المدن إلى المقتضيات القومية الفارسية الزرادشية، ومع ذلك بقي المجتمع العراقي محتفظا ببيئته الخاصة المميزة والمختلفة، وبمزيجه العرقي ووسائل عيشه وتاريخه العريق وتقاليد الدين والسياسة².

وشهدت القرون الأربعة من الحكم الساساني تغيرات كبرى في المجتمع العراقي، لعل أهمها انتقال القبائل العربية العراقية من الصحاري إلى الداخل وهيمنتها على كل البلاد غربي الفرات، وقد احتلت القبائل العربية التي لا تزال بدوية في حياتها، وسلوكها أراضي شاسعة بين النهرين، أما نسبتهم ولغتهم فقد تأثرا بالآرامية التي يتكلمها أهل المدن، فضلا عن تأثرهم الكبير بالمسيحية التي تغلغت بين نسبة كبيرة منهم.

أ- أوضاعهم في عهد الملوك الساسانيين الأوائل:

لم تشهد العهود الأولى لحكم الساسانيين اضطهادا كبيرا حيال المسيحيين في العراق، ولعل ذلك يعود في الأصل إلى عدم قدرتهم على إثارة مشكلات داخلية تخلخل وضعهم السياسي والعسكري حيال الإمبراطورية الرومانية، فضلا عن أن المسيحية ومع مجيء الحكم الساساني قد توطدت أركانها وآمن بها حشد كبير من الناس³، فقد فوجئ الساسانيون بتغلغل المسيحية في شتى أركان بلادهم وفي مختلف ميادين الحياة، ولهذا اضطروا لاتخاذ موقف من الديانة الجديدة التي أخذت تهدد في الصميم ديانتهم المغلقة. ويتابع الأب ألبير أبونا، وبتفاصيل وافية شرح السياسة التي تبناها الأكاسرة الساسانيون حيال المسيحيين في العراق القديم، فقد كان مؤسس السلالة الساسانية أردشير الأول (226-241م) متسامحا حيال المسيحيين، إذ كان يحترم كنيسة كوخى في قطيسفون (المدائن)، وقد ضمها إلى مدينته الجديدة التي شيدها قرب الكنيسة وسماها (فيه أرداشير)، وتابع خلفه شابور الأول (241-272م) سياسة التسامح مع المسيحية، فكان

¹ رافائيل بابو اسحاق: المرجع السابق، ص 10.

² عزيز سوربال عطية: المرجع السابق، ص 235.

³ ألبير أبونا: المرجع السابق، ج 1، ص 25.

يعطف على المسيحيين، نظرا للتعسف والاضطهادات التي كانوا يتعرضون لها من قبل رجال الدين الزرادشت الذين بدا نفوذهم يتصاعد مع ما يضمرونه من حقد حيال المسيحيين¹.

ولم يمنع تسامح شابور الأول من قتل إحدى زوجاته (أسطاسا) حينما علم باعتناقها المسيحية، ونفى زوجته الأخرى (شيراران) إلى منطقة مرو، حينما علم بميلها إلى المسيحية، ومن ثم تزويجها إلى شخص من السلالة الحاكمة، وفي عهد شابور الأول، ترسخت من حيث لا يعلم أقدام المسيحية كما ذكرنا سابقا على يد السبايا الرومان الذين جاء بهم من أنطاكية مرتين، وجلا العديد من سكانها إلى العراق الجنوبي وسائر البلاد الفارسية²، وفي زمن هرمز الأول (272-273م) وبهرام الأول (273-276م)، تصاعد جبروت عدو المسيحية، رجل الدين كرتير، وتأثير زوجته قندية تعلم الملك بهرام الثاني (276-293م) على يد معلمين مسيحيين، لكنه سرعان ما انقلب تحت تأثير كرتير، الذي حصل من الملك على مرسوم يتيح له ملاحقة المسيحيين، وكل الذين يدينون مذاهب مناوئة للزرداشية، وقد طال الاضطهاد زوجة الملك قندية نفسها، وبعد وفاة بهرام الثاني والثالث تسلم الملك نرسي (293-303م)، فخفض الاضطهاد حيال المسيحيين، لاسيما بعد أن أعفى الملك رجل الدين المجوسي كرتير من مهامه، وسمح ببناء الكنائس وتعميرها، وبحرية إقامة الشعائر الدينية. أما خليفته هرمز الثاني (303-309م) فقد ترك المسيحيين وانشغل باضطهاد المانويين³.

ب- مآسي النصارى في عهد شابور الثاني (309-379م):

سرعان ما عاد الاضطهاد، وبشكل أشد في عهد الملك شابور الثاني، الذي يعد أطول حاكم في بلاد فارس، إذ حكم سبعة عقود (309-379م)، وعامل النصارى في دولته معاملة قاسية لاسيما بعد أن أعلن الإمبراطور الروماني قسطنطين قبوله النصرانية دينا لإمبراطوريته سنة 313م⁴، حيث ظن شابور الثاني أن هؤلاء النصارى متحزون لنصارى الغرب ميالون إلى قياصرتهم ومنذ ذلك التاريخ بات المسيحيون يعاملون رعايا دولة مناوئة⁵.

¹ دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص 34.

² رشيد الخيون: المرجع السابق، ج 1، ص 386.

³ رافائيل بابو اسحاق: المرجع السابق، ص 10.

⁴ حبيب بدر وآخرون: المرجع السابق، ص 77.

⁵ دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص 32.

وفي عهد شابور الثاني حدث ما يسمى في كتب التاريخ بالاضطهاد الأربعيني سنة (341م)، وكان أول المقتولين فيه الجاثليق مار شمعون برصباي و 130 قسا وكاهنا، واستمر الاضطهاد أربعين عاما، تعرض فيه الآلاف للقتل بتهمة أنهم عملاء للرومان أو متعاطفين معهم¹.

وتشير الروايات المسيحية إلى أن شابور الثاني قتل حتى نهاية حكمه في سنة (379م) ما يزيد على (160) ألف مسيحي، ويذكر الأب سهيل قاشا أن القبائل العربية المسيحية في الجزيرة العربية لم تسلم هي الأخرى من اضطهاد شابور الثاني، الذي أوقع بهم القتل في البحرين، وهجر وتميم وبكر بن وائل وعبد القيس، فقتل منهم خلقا كثيرا، وقيل أنه غزا عبد القيس وأباد أهلها، وقصد اليمامة فأكثر في أهلها القتل، كما غزا بكرًا وتغلب فيها بين الشام والعراق، وقتل وسبى منهم خلقا كثيرا، وكان ينزع أكتاف رؤساء العرب ويقتلهم، فسماه العرب بشابور ذي الأكتاف، ثم غار على الحيرة فقاتله أهلها فكان شعار المسيحيين فيها يومئذ آل عباد الله، فسموه ب (العباد)².

ج- تاريخهم في العهود الأخيرة من الحكم الساساني:

مع وصول يزيدجرد الأول (399-420م)، تحسن وضع المسيحيين في العراق بعض الشيء، فقد أحسن الظن بالعرب وكون معهم صداقات، وتعاون معهم إلى حد أن جعل النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي على كتيبتين، الأولى الدوسر وهي لتنوخ، والثانية الشهباء وهي لفارس، كما عهد بتربية ابنه بهرام وحضنته إلى المنذر بن نعمان الذي بات ملكا على العرب في الحيرة، حيث أمر يزيدجرد بكسوة له وأمره أن يسير ببهرام إلى بلاد العرب³.

كانت العهود التي تلت حكم يزيدجرد الأول تتفاوت بين الشدة واللين حسب الظروف السياسية الداخلية المحيطة بالملك، وحسب العلاقة مع الدولة البيزنطية، فلما منيت الجيوش الفارسية بالهزيمة مثلا على يد القيصر البيزنطي (هرقل)، ثارت ثائرة كسرى الثاني واشتد حنقه على النصاري، فأمر باضطهاد نصارى مملكته على اختلاف مذاهبهم، فتكبدوا من العسف والشدة ألوانا كثيرة⁴. وكان استغلال الخلافات المذهبية بين النصاري أحد الأساليب التي استخدمها الأكاسرة الفرس لفرض سيطرتهم على المسيحيين وضمهم ولائهم، فقد شجعوا الخلافات المذهبية وساندوا نشر النسطورية في العراق بالصد من الأرثوذكسية الرومية، وصارت ساليق وقطيسفون، وبتشجيع فارسي من أهم معالق النسطورية والتبشير بها في جميع أنحاء

¹ ألبير أبونا: المرجع السابق، ج1، ص 25.

² رافائيل بابو اسحاق: المرجع السابق، ص 11.

³ دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص 36.

⁴ ألبير أبونا: المرجع السابق، ج1، ص 60.

الإمبراطورية الفارسية، وأصبح أغلب نصارى العراق يعتنقون المذهب النسطوري، وهو مذهب مخالف لمذهب بيزنطة الأرثوذكسي، ولهذا وجد الكثير من أتباع الكنيسة البيزنطية اضطهاداً من قبل أكاسرة الفرس¹. لقد كانت الظروف التي عاشها المسيحيون تحت الحكم الساساني قاسية وشديدة الوطأة، ولهذا يرى المستشرق بارتولد أن من عوامل ضعف الإمبراطورية الساسانية هو اضطهادها للوثنيين والنصارى، فصار هؤلاء جميعاً حلفاء للعرب عند الفتح، ولهذا لا عجب وكما يؤكد ألبير أبونا أن يتسم موقف المسيحيين بالارتياح لبحي العرب، بعد أن ملوا الظلم الذي تعرضوا له في فترات عديدة من العهود الساسانية، فلعل الفاتحين الجدد يكونون أكثر إنسانية ورحمة تجاههم.

ثانياً- نصارى العراق بعد الفتح الاسلامي:

أجمع الباحثون المسلمون وغير المسلمون أن النبي محمد ﷺ قد وضع أسس وقواعد للتعامل مع أهل الكتاب أو أهل الذمة، وقد أصدر ﷺ وثيقة المدينة لنصارى نجران والتي حفظت لهم حقوقهم الدينية كممارسة معتقداتهم وطقوسهم بكل حرية على أن يدفعوا الجزية فلا يجبرهم أحد على ترك دينهم²، كما سمح لهم ببناء المعابد والكنائس.

وتعد سماحة الدين الاسلامي في معاملة أهل الذمة شيئاً جديداً خاصة أن المسلمين يقدسون العهود ولا يخلفونها فبهذا تمتع المسيحيون في ظل دولة الاسلام بحرية فاقت ما سبقها من عهود وهذا ما أقر به المسيحيون أنفسهم كما قال البطريق أيشوعابة: «ان العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون، انهم ليسوا بأعداء للنصرانية، بل يمتدحون ملتنا وبوقرون قسيسينا وقديسينا ويمدون يد العون لكنائسنا وأديرتنا»³.

1-موقفهم من الفتوحات الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين:

استقبل مسيحيو بلاد الرافدين الفاتحين العرب المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين بايجابية لا بل ساعدوهم على الانتصار بسبب معاناتهم لقرون من تعسف العهود الفارسية الساسانية على مدى خمسة قرون، وقد شارك في صفوف جيوش الفتح الإسلامي قبائل عربية نصرانية من الحيرة ومن مناطق أخرى حقداً على إجرام الفرس الساسانيين⁴.

¹ عزيز سوربال عطية: المرجع السابق، ص 307.

² سلوى بالحاج صالح: المرجع السابق، ص 201.

³ سعيد عبد الحكيم زيد: نصارى العرب وأقباط مصر، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 2008م، ص 176.

⁴ ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية (منذ مجيء الاسلام الى نهاية العصر العباسي)، ط2، دار المشرق، بيروت، 2002م، ج2، ص52.

والدليل على مظاهر الترحيب المسيحي بقدم العرب المسلمين هو المدد الذي قدمته الكثير من القبائل العربية المسيحية في العراق لجيوش الفاتحين بقيادة خالد بن الوليد وأبي عبيدة عامر بن الجراح، والمثنى بن حارثة الشيباني، وسعد بن أبي وقاص، الذي استطاع أن يهزم جيوش الفرس في معركة القادسية في سنة 15 هجرية، ثم انتصار المسلمين في معركة نهاوند¹، وبالتالي القضاء تماما على الإمبراطورية الفارسية، وقد كان التقارب اللغوي بين العربية والسريانية، والأمل المسيحي بعهد جديد مليء بالأمان والاستقرار سببا مؤثرا في الانحياز المسيحي إلى جانب المسلمين.

بعد استتباب الأمور للفاثين العرب المسلمين في العراق خيروا النصارى بين قبول الإسلام أو دفع الجزية، وقد دفع مسيحيو العراق الذين تمسكوا بديانتهم الجزية، وعفي عن الذين أسلموا، ومما لا شك فيه من لم يكن له قدرة أو من لا يريد دفع الجزية قد أسلم.

تعايش المسيحيون مع المسلمين في عصر الخلافة الراشدية على مبدأ وعهد النبي محمد ﷺ، فكان الخلفاء يسيرون على نهجه فأصدر أبي بكر الصديق عند توليه الخلافة عهدا لنصارى نجران بالحفاظ على أملكهم وأنفسهم وملتهم وديانتهم، كما سار أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي فتحت في عهده أغلب بلاد العراق على نفس المنهج فقطع عهدا لأهل ايلياء بأن لا يغير رهبانا ولا قسيسا وأن يحفظ لهم كنائسهم وأديرتهم وهو ما دفع بالكثير منهم للدخول في دين الاسلام بدون اكراه².

2-أوضاعهم في العهد الأموي:

لا يختلف الأمر كثيرا في هذا العهد عن عهد الخلفاء الراشدين من حيث معاملة النصارى عموما ومنهم نصارى العراق علما أن معاملة الأمويين لغير المسلمين كانت مميزة كما وصفها ديورانت في كتابه قصة الحضارة: «لقد كان أهل الذمة المسيحيين والزرداشتيون واليهود والصابئون يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرا في البلاد المسيحية هذه الايام، فلقد كانوا أحرارا في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكناسهم ومعابدهم... وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي يخضعون فيه لعلمائهم وقضااتهم وقوانينهم»³.

وهناك شواهد تاريخية تدل على تنامي دور المسيحيين في العهد الأموي ومنها استعانة عدة خلفاء أمويين بأطباء نصارى كالخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي كان طبيبه نصرانيا كما كان شعراء بني أمية الكبار جرير والفرزدق والأخطل ثلوث الشعر في العصر الأموي وكان الأخطل وهو أعظمهم نصرانيا. وقد

¹ ابن جرير الطبري: المصدر السابق، ص 675.

² سعيد عبد الحكيم زيد: المرجع السابق، ص 176.

³ ويليام وويل ديورانت: المصدر السابق، ج 13، ص 84.

تمتع أهل الكتاب أي النصارى واليهود والصابئة في العصر الأموي بوافر الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج وارتبطت قضاياهم في الأمور الدينية والمدنية برؤسائهم الروحانيين ولم تطبق عليهم الشريعة الإسلامية، ومع هذا التسامح لم يمنع حدوث حالات استثنائية كتلك الحادثة التي أمر فيها الوليد بن عبد الملك (705 - 715م) بقتل زعيم بني تغلب القبيلة العربية المسيحية لأنه أبا أن يعتنق الإسلام¹.

كما شكل الخليفة عمر بن عبد العزيز استثناء حيث فرض قيوداً صعبة بمنعه رعاياه المسيحيين من بناء كنائس وأديرة من أجل دفعهم لاعتناق الإسلام²، إلا أن هذه القوانين لم يعمل بها طويلاً حيث أمر خالد بن عبد الله العزي عامل هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي الرابع على العراق ببناء كنيسة لأمه المسيحية تتعبد بها، كما أنه منح النصارى واليهود حق بناء المعابد والكنائس.

3- أحوالهم في العهد العباسي:

حول العهد العباسي بوصلة العالم الإسلامي إلى بلاد العراق كبف لا وقد صارت بغداد عاصمة الدولة الإسلامية منذ العام 758م، وتعتبر الكنيسة الشرقية أن بناء مدينة بغداد يعني أنها ستسعيد مركزها التقليدي في الأرض الآرامية (بيت ماري)، وأنها ستكون عامرة وزاهرة بالأديرة والكنائس³.

منذ مجئ المنصور لسدة الخلافة ومروا بهارون الرشيد وأبنائه الأمين والمأمون، وباستثناء المرحلة الانتقالية بين ابني الرشيد التي كانت صعبة على النصارى شأهم شأن المسلمين⁴، فقد كانت الحياة الفكرية بشكل عام مزدهرة خاصة الدينية، حيث شهدت تلك الحقبة الذهبية جدلاً فكرياً واسعاً بين أهل السنة والشيعة والمعتزلة، فظهر الأئمة أبي حنيفة النعمان (توفي 767م) وابن حنبل (توفي 855م)، ثم البخاري الذي توفي في البصرة (878م)، واستنبط كل منهم طريقته الخاصة بتفسير القرآن والشريعة فانبثقت المذاهب الأربعة المعترف بها، وغير المعترف بها كالمعتزلة والشيعة، وكان أشهر هذه المذاهب هو مذهب المعتزلة الذي يؤمن بالعقل ويقول بأن القرآن مكتوب وغير منزل وكل شيء في القرآن لا يفقهه العقل لا يعترف به. وفي هذه البيئة، استفادت الفئات غير المسلمة من هذه الحرية الفكرية إذ شكلت مناخاً مناسباً للاختلاف، وقد كان المسيحيون يمتازون في ذلك الوقت بمستوى ثقافي ملحوظ، وكانوا من أهل العلوم والحرف وحسن التكلم باللغات غير العربية كالسريانية والآرامية واللاتينية، وكان منهم الفلاسفة الأطباء والفلكيين وعديد العلماء في شتى المجالات⁵.

¹ ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية، ج2، ص76.

² سلوى بالحاج صالح: المرجع السابق، ص 201.

³ رفائيل بابو اسحاق: المرجع السابق، ص 66.

⁴ جان موريس فييه: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ط1، دار المشرق، بيروت، 1990م، ص 110.

⁵ سلوى بالحاج صالح: المرجع السابق، ص 169.

وبهذا يمكن القول أن النصرانية في الشرق عموماً والعراق خصوصاً دخلت عصراً جديداً بمجيئ العباسيين للحكم، وقد استعان الخلفاء والأمراء المسلمون بالنصارى، ويعتبر المؤرخون النصارى بأن العصر الذهبي العباسي كان عصراً ذهبياً للنصارى إذ كان أحد أهم أدوارهم هو نقل وتعريب الثقافة والفلسفة الإغريقية والعلوم الغربية إلى المجتمع العباسي آنذاك برعاية الخلفاء العباسيين الذين حرصوا على ترجمة الكتابات غير العربية، وقد روي عن البرامكة أنهم جمعوا حولهم العديد من المترجمين النصارى وفي عهدهم تأسست خزانة الحكمة التي أصبحت في عهد المأمون نواة لأكاديمية الترجمة التي عرفت بدار الحكمة.¹

لم يقتصر نشاط النصارى على الترجمة فقط بل كان الدور البارز لنصارى العراق في مجال الطب ومن أشهر أطباء العهد العباسي جبريل بن بختيشوع وماسويه الذي عالج هارون الرشيد من مرضه وأصبح أول مدير لأول مستشفى في بغداد وصار ابنه يوحنا ماسويه (أبو زكريا) رئيس المترجمين في عهد المأمون، وسعى الرشيد لجمع المخطوطات وشراءها من المنطقة البيزنطية وكان للمسيحيين الدور البارز في شراء هذه المخطوطات وترجمتها إلى العربية وكان أشهر المترجمين هو حنين بن اسحق (810-873م) الذي يعتبر أهم من نقل العلوم الإغريقية إلى العربية.

وكانت كتب جالينوس الإغريقي تشكل أساساً للمنهج الطبي²، وقد ترجم حنين بن اسحق الكثير من الكتب الطبية من السريانية إلى العربية في دار الحكمة وكانت شهرة الطب المسيحي المنبثق من مدرسة جند بسابور من السعة بحيث أصبح عامة الناس تعتقد بأن مسلماً لا يستطيع أن يصبح طبيباً ماهراً، وهذا ما قاله الجاحظ في كتابه البخلاء «سأل أحدهم الطبيب المسلم أسعد بن جاني في هذه السنة الأويثة والأمراض متفشية، وأنت عالم ولك بيان ومعرفة، فمن أين يأتي هذا الوباء ولا تستطيع إيقافه. قال: واحدة فاني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطب لا بل قبل أن أخلق أن المسلمين لا يفلحون بالطب، واسمي أسعد، وكان ينبغي أن يكون صليبا....»³.

وقد عرفت أسر مسيحية وسلاسل متوارثة امتهنت الطب مثل سلالة جرجس بن جبريل وابنه بختيشوع بن جرجس وأولاده وأحفاده العشرة إذ اعتبروا أشهر أطباء العصر الذهبي العباسي إضافة إلى أطباء كثر لا يسمح المجال لذكر أسمائهم ولابد من الإشارة إلى أن المسيحيون في العهد العباسي كانوا أيضاً في مد وجزر ولعل أخطر جزر عايشوه هو عهد الخليفة المتوكل⁴، وهو الخليفة العباسي العاشر (747-861 م) إذ كان متعصباً لمذهب أهل السنة حيث أصدر أمراً بهدم ضريح الحسين في كربلاء عام 850م، ثم أقام قاضياً

¹ المسعودي: المصدر السابق، ج3، صفحة 379.

² الحسن بن طلال: المسيحية في العالم العربي، ط1، مكتبة عمان، الأردن، 1995م، ص 93.

³ أبو عثمان الجاحظ: البخلاء، ب ط، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1998م، ص 72.

⁴ روائيل بابو اسحاق: المرجع السابق، ص 73.

سنيا ومنع دراسة علم الكلام وتعليمه، وقد اشتهر بموجات غضبه التي كانت تنصب على المسيحيين والمسلمين، ولقي أهل الذمة منه الكثير من القسوة بل وحتى الأذى ويقول المسعودي في مروج الذهب بان الخليفة المتوكل أصدر أمرا بتأثير من المعمم الفتح بن خاقان التركي الأصل من شقين يقضي الأول بمعاقبة المسيحي والذمي الذي يخرق العهود إذا تهجم بالأقوال على المسلمين أو على القرآن أو على النبي محمد ﷺ أو مارس أي ظلم على أي مسلم سواء عليه كشخص أو على ممتلكاته أو أمواله وممارسة أي صلة بامرأة مسلمة سواء للزواج أو الفجور ومساعدة أعداء المسلمين¹.

أما الثاني فهو منع قرع النواقيس وعدم عرض الخمر والخنازير والصلبان أمام الأنظار ومنع ركوب الخيل واستمال السرج إلى ركوب البغال والحمير ومنع استخدام أسماء وألقاب إسلامية، ونتيجة إلى هذه القوانين اعتنق الإسلام الكثير من المسيحيين وغيرهم من أهل الذمة تخلصا من الظلم والتعسف.

وقد شهد العهد العباسي في أواخره بروز عدة صراعات ونزعات لم تكن موجودة من قبل كالحلاف بين العرب المسلمين والمسلمين غير العرب الذين أطلق عليهم الشعوبيين وأهل الذمة، كما ظهر صراع بين الشمال والجنوب، ولم يكن هناك انسجاما بين مكونات المجتمع العباسي فكان هنالك صراعا بين الفرس والأتراك الطورانيين والبربر الحاميين والعرب الساميين، وظهر ضمن الدين الإسلامي نفسه نزاعات طائفية أدت إلى تمزيق الأواصر العامة التي تجمعهم ومن هذه النزاعات فكان بروز الشيعة والقرامطة وجماعة الحشاشين، واجتاحت البلاد ثورات مثل ثورة الزنج والثورة المزدكية ذات الطابع الاجتماعي.

4- نصارى العراق بعد سقوط بغداد:

سقطت بغداد في عام 1258م في عهد الخليفة المستعصم وبعد دخول هولاكو بغداد وخسر الخليفة المستعصم المعركة الأساسية وحاول أن يصل إلى حل سلمي بعد فوات الأوان فأرسل وزيره ابن العلقمي مع رئيس الطائفة المسيحية النسطورية للمفاوضة والصلح، ولعل سبب اختياره لرئيس الطائفة النسطورية هو أن زوجة هولاكو كانت مسيحية وتدعى دقوز خاتون إلا إن هولاكو رفض مقابلتهم وأمر بانتهاك مدينة بغداد مما اضطر الخليفة المستعصم إلى تسليم نفسه إلى هولاكو دون قيد أو شرط ولكن هولاكو أمر بقتل الخليفة ومن استسلم معه.

¹ جان موريس فييه: المرجع السابق، ص 380.

وكان هولاء وثنياً ولكن نكايه بالإسلام وارضاء لزوجته المسيحية دوقوز خاتون وبدوافع سياسية وأمنية أظهر بعض العطف على المسيحيين واليهود¹، وبالرغم من حماية زوجة هولاء لمسيحيي العراق في ذلك الزمان إلا أنهم لم يكونوا في وضع مستقر بل غالباً ما شاطروا إخوانهم المسلمين نفس المصير، وتعرضوا إلى القتل والنهب من قبل السلطات المغولية².

عاش العراق طيلة قرون ثلاثة أوضاعاً سياسية واجتماعية واقتصادية مختلفة ومضطربة إلى حد بعيد منذ سقوط بغداد سنة (656هـ-1258م) وحتى مجيء العثمانيين سنة 1534م، فبعد الدمار والخراب الذي ألحقه هولاء المغولي ببغداد، بدأت بعد ثلاثة عقود المرحلة الثالثة من الاحتلال المغولي بتولي غازان خان وابنه محمد خدابنده³ الملك وإسلامهما، حيث ذاق النصارى لعقود ألواناً من الشقاء بسبب تشددهم حيال أهل الذمة عموماً، فضلاً عن بروز حالة من الصراع والتنافس بين الأسر المغولية الحاكمة نفسها، وهو ما ولد حالة من عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي⁴، وفي خضم هذه الاضطرابات والصراعات تمكن الأمراء الجلائريون، وهم أيضاً مغول متفردون، بحلول العام 1340م، من السيطرة على الجزء الأعظم من إمبراطورية جنكيز خان ومنها العراق، ولمدة نصف قرن⁵.

ورغم أنهم تمكنوا، حسب وصف لونكريك، من إعطاء العراق جرعة من الاستقرار والسلام، بدعمهم الفقراء والمحتاجين، ونشر أعمال البر والإحسان، وإحياء الفنون، شهد العقد التاسع للقرن الرابع عشر انهيار حكم الجلائريين، بسبب تفشي الخلافات والصراعات بين أمرائهم⁶، ومن ثم تمكن تيمورلنك من اجتياح واحتلال بغداد سنة 1400م. ومع الدمار الذي ألحقه تيمورلنك بأهل بغداد، وقتل غالبية سكانها، فإن النصارى عانوا من ذلك معاناة شديدة.

ورغم استعادة الجلائريين للحكم بعد وفاة تيمورلنك إلا أن قوة صاعدة للتركمانيين هي القرة قويونلو تمكنت من دخول واحتلال بغداد سنة 1410م، وأقاموا حكماً استمر لستين عاماً، انتهى بانتهيار وسقوطه على يد قوة تركمانية منافسة أخرى هي الأق قويونلو التي لم تحقق طيلة 35 عاماً من حكمها سوى الحروب والاقتتال بين المتنافسين على الحكم⁷، وقد فقد العراق خلالها الكثير من سكانه فانهار

¹ جان موريس فييه: المرجع السابق، ص 380.

² القس سليمان الصايغ: تاريخ الموصل، ج1، ص 234.

³ خدابنده: هو لقب مركب من كلمتين "خدا" تعني باللغة الفارسية "الله"، و"بنده" تعني "غلام" أو "عبد"، وخابنده كلمة تعني "عبد الله". انظر: ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 137.

⁴ عزيز سوريال عطية: المرجع السابق، ص 255.

⁵ عباس العزاوي: المصدر السابق، ج2، ص 25.

⁶ دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص 98.

⁷ Ghulam Sarwar.O.p-Cit,p. 26.

اقتصاده، وبات غير محصن عسكريا لمطامع دولتين جديدتين متنافستين في الشمال والشرق هما الدولة الصفوية التي ترسخت بحلول سنة 1501م بقيادة إسماعيل الصفوي¹، والدولة التركية العثمانية التي باتت منذ ذلك التاريخ قوة متنامية ومنافسة للصفويين.

ويمكن وصف حال نصارى العراق طيلة القرون التي تلت سقوط بغداد على يد المغول بأنها حال غير مستقرة لاقوا فيها كل أنواع الضيق والاضطهاد، وقد لخص حالهم ما أورده يوسف رزق الله غنيمه في قوله « ولم يضطروا لمغادرة أوطانهم (يتحدث عن اليهود) مثل ما فعل النساطرة الذين هجروا بغداد والبصرة وكل مدن العراق ماعدا الموصل وتوابعها والتجؤوا لقمم جبال كردستان وبلاد الفرس حتى انقطع ذكرهم من عاصمة العباسيين عهدا، وخرت بيعهم، وهدمت معابدهم، وباتت أديرتهم قاعا بلقعا يعيش فيها البوم والغربان، وباد كل معبد لهم، ولم تعد فئة من النصارى الى مدينة السلام الا بعد مرور قرن على نزوح أجدادهم عنها² ».

¹ شرف خان البديسي: شرف نامه، تحقيق وتعريب محمد علي عوني، ب ط، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، 1958م، ص316.

² يوسف رزق الله غنيمه: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 151-152.

المبحث الثالث- أوضاع نصارى العراق في عهد الحكم العثماني:

أولاً- أوضاعهم العامة في العهد العثماني:

بعد تمكن العثمانيين من ضم بلاد العراق الى حاضنة الدولة العثمانية عام 1534م¹ استقرت كذلك أوضاع العراقيين، ولاسيما المسيحيين في ظل مبدأ التسامح والانفتاح الذي تبنته الدولة العثمانية مع الجماعات غير الإسلامية، حيث منحوا حقوقهم الثقافية، وأمنت مصادر عيشهم من الناحية الاقتصادية والتجارية، وفتحت أمام أبنائهم أبواب المناصب الإدارية حتى وصل الكثير منهم إلى مواقع هامة من المسؤولية، وقد اتبع العثمانيون ما يسمى بنظام الملل مع الأقليات غير المسلمة فحددوا بذلك أسسا وقواعد تحكم وضعية الأقليات وطبيعة علاقتها بالسلطة.

وتعرف الملة على أنها جماعة تتألف من المواطنين المحليين خاضعة للباب العالي، لها ديانة محددة، ولا تنتمي إلى أصل عرقي واحد، وتكون وحدة سياسية اجتماعية مستقلة، وفي نظام الملل نمت سلطة البطارقة والحاخامات الدينية والمدنية. ويعد نظام الملة استمرارا تاريخيا وقانونيا لمصطلح أهل الذمة، إلا أن الأخير تعبير عن الخبرة العربية الإسلامية، بينما الملة تعبير عن الخبرة العثمانية².

أما مؤسسة الملة فهي التي تنظم شؤون غير المسلمين في الدولة، وذلك بمنحهم حقوق تجعلهم مستقلين في أحوالهم الاجتماعية كالحق بانتخاب رؤسائهم الدينيين، وحق ممارسة شؤونهم الخاصة في التعليم والقضاء والضرائب تحت اشراف رؤسائهم. ومؤسسة الملة وسيطة بين الدولة والنصارى، اذ يقوم رئيس الملة باستقبال فرمانات والأوامر السلطانية ويبلغ بها جماعته ويتابع تنفيذها، وفي المقابل فان أتباع الملة يبلغون رؤسائهم الدينيين بمطالبهم وفق موافقة سلطانية، وفي الحقيقة أن السلطان محمد الثاني (الفتاح) هو الذي جعل من مؤسسة الملة جزء من بنية الدولة ووضع لها القواعد والأسس التي لم يسبق لها مثيل في الدولة الإسلامية.

وبهذا النظام احترمت الديانة النصرانية كما اليهودية، ومنح النصارى حرية كبيرة في ادارة شؤونهم وممارسة عباداتهم بكل حرية في اطار الولاء للسلطان³، وقد شهد عدة مؤرخون عن أوضاع النصارى ومنهم نذكر لونكريك الذي قال: «أن النصارى عاشوا في ظل نظام كان التساهل فيه يزيد على ما كان في الولايات العثمانية الأخرى، ولاسيما دمشق والقاهرة، إذ إن بغداد كانت عالمية... إلى حد أنها لا تشجع

¹ أحمد بن يوسف القرماني: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج3، دراسة وتحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1992 م، ص 55.

² حبيب بدر وآخرون: المرجع السابق، ص 656.

³ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج1، ص 453.

شيوخ التعصب، يضاف لذلك أن هذه الأقليات كانت تسلك سلوكاً حسناً، كما كان الناس قد ألفوهم، نظراً لطول إقامتهم ولعدم وجود ما يمنع اختلاطهم ببقية السكان، إلا أنه كان من المنتظر أن يكون بينهم ما يفرقهم عن غيرهم، كما كان الأمر في دمشق والقاهرة، فربما كان من المحذور عليهم أن يمتلكوا الرقيق الأبيض، أو يركبوا الخيل، لأن حصتهم في هذه الأصناف كانت العبيد الزوج والحمبر، على أن التحقير الأعظم الذي كان يقضي بعدم الركوب مطلقاً، أو النزول عند مرور سيد من السادة كان لا يؤتى إلا قليلاً¹.

كما قال الرحالة الميجر سون² عن الموصل أثناء زيارته لها متنكراً أواخر القرن التاسع عشر «.... ومن بين جميع مدن سوريا وبلاد ما بين النهرين، يتمتع النصارى فيها بحرية وهم بمنجاة عن الاضطهاد على الوجه الذي يتمتع به أبناء جلدتهم الذين اضطروا للسكن مع المسلمين جنباً إلى جنب انهم يردون هذه المزية، والحال المستحبة إلى أن المسلمين والنصارى عرب في الاحساس واللغة....»³

يكتب الرحالة الدنماركي نيبور الذي زار الموصل العام 1766م عن نصارى العراق «..... وحالة نصارى الموصل أفضل بكثير من نصارى بقية نصارى بلدان الامبراطورية العثمانية فانهم يعيشون سعداء وعلى وئام تام مع المسلمين، ولهم الحق في أن يلبسوا كما يلبس المسلمون، وكثير منهم يعمل في خدمة الباشا...»⁴.

وهكذا عاشت الطوائف المسيحية في ظل الدولة العثمانية خلافاً لأسطورة الصراع التي روج لها بعض الكتاب الغربيين في جو من التسامح والحرية التي لم تكن متوفرة لهم قبل ذلك العهد، ولهذا احتفظت الطوائف النصرانية بكل مؤسساتها وهيكلها الدينية، فقد كان للنسطوريين كنيسة خاصة بهم، ومثلهم مثل باقي الطوائف النصرانية الأخرى، ولم يتدخل الأتراك في تردهم إلى الكنيسة، ولا في إقامتهم للشعائر النصرانية⁵، كما أن الدولة العثمانية زادت من مساحة الحرية الدينية للنصارى حينما أعطت سلطات واسعة لرؤساء الأقليات الدينية الروحيين، فكانوا يرجعون إلى بطاركتهم في القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية،

¹ ستيفن همنسلي لونكريك: المصدر السابق، ص 113.

² الميجر سون: انكليزي اسمه ايلي بانستر سون ولد في 1881/08/16م، عمل مدة طويلة في مصرف بايران ثم غادر منصبه، لكنه تعلق بالشرق وقام بزيارة كردستان متنكراً باسم ميرزا حسين شيرازي في بداية القرن 20م، له عدة مؤلفات عن الأكراد والعراق.

³ الميجر سون: رحلة متنكر الى بلاد ما بين النهرين وكردستان، ب ط، مطبعة التامس، بغداد، 1971م، ج2، ص 124.

⁴ كارستن نيبور: رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر، تعريب محمود حسين الأمين، ب ط، وزارة الثقافة والارشاد، بغداد، 1965م، ص 113.

⁵ دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص 100.

وتركت الحرية للكثيرين منهم للتقاضي وفق الشريعة الإسلامية، ومساواتهم في التقاضي بينهم وبين المسلمين من جميع الوجوه.

هذا، وقد تركت الدولة العثمانية، وبلا أي تدخل لرؤساء الطوائف المسيحية حرية تنظيم أنفسهم في جميع الأمور التي تخص أوقاف الكنائس، وشؤون المدارس، والمؤسسات الخيرية الخاصة بالطوائف. ولقطع الطريق أمام الاتهامات التي أخذت توجهها الدول الأوروبية المتدخلة في الشأن العثماني حول التفرقة بين المسلمين والمسيحيين، ورغبة تلك الدول بالتدخل في شؤون الدولة العثمانية بحجة حماية المسيحيين، فقد صدرت الكثير من المراسيم والقوانين التي تعزز مفهوم المساواة بين رعايا الدولة، وكان مرسوم كلخانة الذي صدر سنة 1839م فاتحة لتلك المراسم الإصلاحية، وقد تضمن وعوداً من السلطان بإصدار قوانين تتحسن فيها كفاءة الإدارة الحكومية وبما يضمن حماية رعايا الدولة من مسلمين ومسيحيين في أرواحهم وأعراضهم وأموالهم¹.

أيضاً أردفت الحكومة مرسوم كلخانة بمرسوم آخر سنة 1856م، تناول موضوع الأقليات الدينية وفي مقدمتها الأقلية المسيحية، فأقر جميع الامتيازات السابقة التي منحت لها، وأكد على أن تضمن الدولة حرية الأديان والمذاهب، وإجراء الطقوس الخاصة بهم، وسماحها ببناء الكنائس والمعابد، والمستشفيات الأهلية الطائفية، وترميمها بعد موافقة الباب العالي، وأن الدولة تأخذ بعين الاعتبار كفاءة الأشخاص في إشغال الوظائف الحكومية دون النظر إلى انتمائهم الديني أو المذهبي، ولا تمنع في تقاضي الأفراد غير المسلمين أمام رؤسائهم الروحيين، ولهم أن يرشحوا أنفسهم لعضوية مجالس البلديات، وأنهم متساوون مع المسلمين في أداء واجب الخدمة العسكرية، وفي الضرائب وفي جميع الواجبات الأخرى².

ويبدو أن مراسيم الدولة وقوانينها كانت عاملاً ساعداً في التقدم الفكري والثقافي للمسيحيين في العراق، حيث استفاد هؤلاء من التعليم الطائفي الذي اتخذ شكله المتميز بعد مرسوم كلخانة المشار إليه، وقبل أن تقوم الدولة العثمانية بفتح وتأسيس المدارس في ولايات العراق بربع قرن، ذلك أن هذه الوعود التي تحقق بعض منها زادت من ترابط الجماعات المسيحية بسبب تنظيم شؤون البطريركيات والمجالس الروحانية التي اضطلعت بمهمة تأسيس المدارس لأبنائها، ولعل مما ساعد في دفع عملية التعليم إلى الأمام لدى مسيحيي العراق انتشار المدارس التي بدأت الإرساليات التبشيرية الغربية بتأسيسها في ولايتي الموصل وبغداد، خاصة في السنوات التي أعقبت مرسوم سنة 1856م.

¹ احمد عبد الرحيم مصطفى: أصول التاريخ العثماني، ط 3، دار الشروق، القاهرة، 2003 ص 201.

² حبيب بدر وآخرون: المرجع السابق، ص 765.

وتجدر بنا الإشارة الى أن مجهود الإرساليات التنصيرية التي نشطت في العهد العثماني وبمختلف أشكاله لم يكن يلقي ترحيباً من قبل بعض الطوائف المسيحية، نظراً لطبيعته السياسية وبسبب التشاحن والخلافات المذهبية بين المسيحيين أنفسهم¹.

وبشكل عام، عاش مسيحيو العراق في ظل نظام من التساهل يزيد على ما كانت عليه أوضاع أقرانهم في ولايات ومناطق أخرى من الدولة العثمانية، ونتيجة لذلك فتحت أبواب الحياة الاقتصادية والتجارية والإجتماعية أمام الكثير من المسيحيين، حيث ظهرت أسماء لعائلات مسيحية كان لها اسهاماتها المباشرة في المجتمع العراقي، وهذا ما جعل المسيحيين يستحوذون على التجارة في العراق.

لكن هذا الحال لم يخلو من بعض الاستثناءات كعهد السلطان مراد الرابع (1623-1640م) الذي قام بإصلاح واسع النطاق وكان من القرارات المثيرة غلق المقاهي، ومنع التدخين وإغلاق أماكن شرب وبيع الخمر، وهو ما فهمه البعض على أنه تستهدف النصارى. كما أصدر فرماناً خاصاً يقضي على الفئات غير المسلمة بلبس الغبار وهو لباس خاص يميز الذمي عن المسلم. إضافة الى بعض الحوادث الفردية خاصة في كردستان.

وخلال هذه القرون الطويلة كانت الأقلية المسيحية بمختلف كنائسها تبحث دوماً عن الطرق الكفيلة التي تحفظ كيانها واستمرارية حيويتها ونشاطها، وبالرغم من تعرضها لبعض الانتهاكات من جراء التغيرات المستمرة على الأنظمة السياسية، إلا أنها عاشت أوضاعاً مريحة في مرحلة الحكم العثماني عموماً مقارنة بالعهود السابقة².

2- أعداد النصارى في العراق في العهد العثماني وتوزيعهم الجغرافي:

يتواجد المسيحيون في العراق في جميع المحافظات تقريباً، لكن وجودهم يتركز في العاصمة بغداد، حيث يوجد أكبر تجمع سكاني لهم³، وفي المدن الكبرى كالموصل، وكركوك، والبصرة والسليمانية، وأربيل، والعمارة، والحلة، وبعقوبة، وبالشمال في منطقة كردستان حيث يعيشون في حوالي 120 قرية، وفي منطقة سهل نينوى قرب الموصل، في مناطق تل كيف، وقرقوش، وشيخان حيث توجد كنائس لهم في هذه المدن والقرى⁴.

ويتوزع مسيحيو العراق على كنائس تنتمي إلى عدة طوائف تتبع طقوساً مختلفة، وغالبية مسيحيي العراق هم من أتباع الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية، فيما يتوزع الآخرون على الطوائف التالية: الطائفة

¹ دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص 102.

² ستيفن همنسلي لونكريك: المصدر السابق، ص 113.

³ جميل موسى النجار: التعليم في العراق خلال العهد العثماني الأخير (1869-1918م)، ص ص 27-28.

⁴ كارستن نيبور: المصدر السابق، ص 111.

السريانية الأرثوذكسية، والطائفة السريانية الكاثوليكية، والكنيسة الأرمنية الكاثوليكية، والكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية (وهم غالبية أرمن العراق)، وكنيسة المشرق القديمة، وكنيسة المشرق الآشورية أو الكنيسة الآشورية، والروم الكاثوليك، والروم الأرثوذكس، والطائفة البروتستانتية الإنجيلية الوطنية، والطائفة الإنجيلية البروتستانتية الآشورية، وطائفة الأدفنتست السبتيين، وطائفة اللاتين الكاثوليك، وطائفة الأقباط الأرثوذكس (وهم من الجالية المصرية في العراق). ويتوزعون حالياً بحسب النسب المئوية على الشكل الآتي: 65 % كلدان (كاثوليك)، و 14 % سريان (كاثوليك وأرثوذكس)، و 16 % آشوريون (من طوائف ثلاثة)، و 4 % أرمن (من طوائف عدة)، و 1 % من طوائف بروتستانتية.

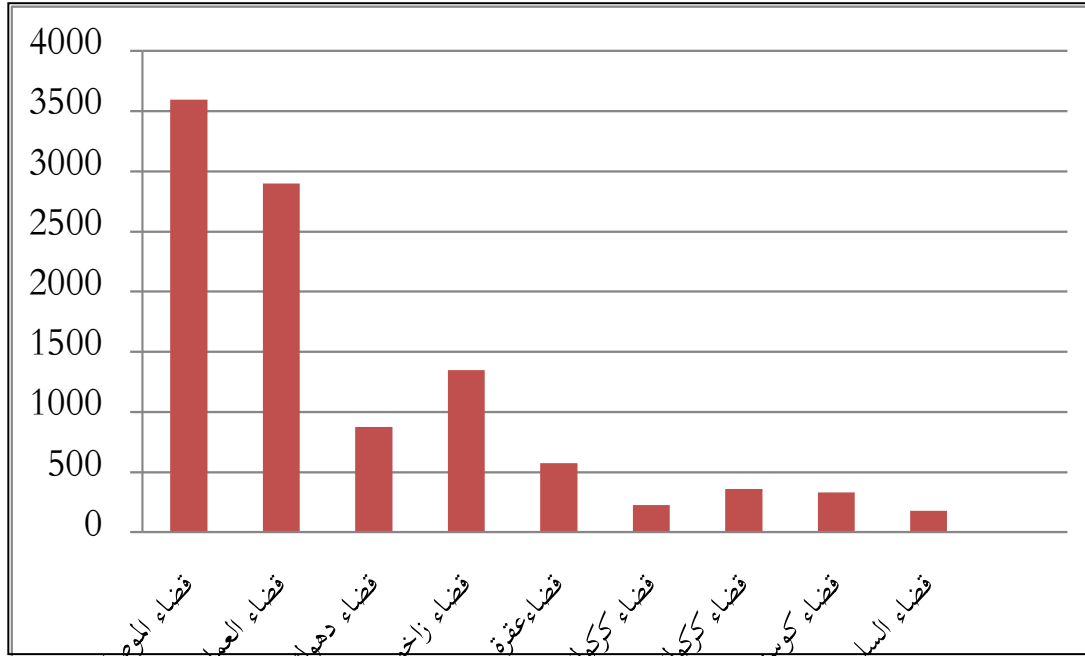
أما فيما يخص أعدادهم فمع بداية الاحتلال البريطاني للعراق قامت السلطات بأول احصاء رسمي العام 1920م فقدر عدد المسيحيين بـ 5% من عدد سكان العراق الذين كانوا يبلغون خمسة ملايين نسمة أي يعني 250 ألف، وبالرغم من كون الاحصاء بعد نهاية العهد العثماني إلا أنه يعد أقرب احصاء لعدد النصارى بالعراق أواخر هذا العهد. أما أعدادهم في فترة دراستنا فقد اختلفت من فترة لأخرى ومن مصدر لآخر فهناك احصائيات صادرة عن تقارير كنسية قام بها بعض القساوسة في فترات متباعدة، وهناك احصائيات تقريبية أفادنا بها الرحالة الذين زاروا العراق خلال تلك الفترة اضافة الى الوثائق العثمانية الصادرة عن الدوائر الرسمية المتمثلة في السالنامات لولايات العراق وفيما يلي نورد تلك الاحصائيات:

أ- احصائياتهم في السالنامات العثمانية أواخر القرن التاسع عشر¹: رغم أنها تقرنا من أعداد الطوائف المسيحية إلا أنها تفتقد الى الدقة، وذلك يعود لعدة أسباب سبق وذكرناها في الفصل السابق، ولكن مهما يكن فقد كشفت هذه الوثائق العثمانية عن أرقام واحصائيات لعدد النصارى والطوائف وتوزيعها جغرافياً ونورد أهمها في مايلي:

1- أعدادهم في ولاية الموصل: تعد الموصل من أقدم المدن التي انتشرت بها النصرانية، كما تعتبر المسيحية ثاني ديانة في الولاية بعد الاسلام، وقد ساهم النصارى في بناء الشخصية الحضارية للمدينة منذ أقدم العصور، وقد تركز النصارى داخل المدينة في محلة تسمى محلة النصارى، وفي خارجها في عدة أفضية نذكرها في الشكل التالي: (1292 هـ / 1875م)²

¹ أول سالنامة عثمانية حول العراق كانت عام 1875م، لذلك كانت الاحصائيات المعتمدة عنها فقط أواخر القرن 19م.

² س.و.ب، 1292هـ / 1875م، ص ص 128-131.



الشكل رقم 3: أعمدة بيانية توضح توزيع السكان النصارى بولاية الموصل حسب الأفضية عام 1875م

من خلال الشكل يتضح لنا تركز أغلب السكان النصارى في قضاءي الموصل والعمادية يليها قضاء زاخو فقضاء دهوك، وباقي النصارى موزعين على الأفضية الأخرى الواردة في الشكل.

جدول رقم 8: يبين عدد وتوزيع نصارى الموصل وأقضيتها حسب الطوائف (1310 هـ - 1892م)¹

اسم المدينة	كلدان	سريان	يعاقبة	بروتستانت	أرمن	روم
1 الموصل وأطرافها	6881 ن	4337 ن	2847	142 نسمة	93	42
2 عقرة	171	-	-	-	-	-
3 دهوك	533	-	-	-	-	-
4 العمادية	-	554	-	-	-	-
5 زاخو	564	148	-	-	68	-
6 تلعفر وسنجار	-	16	-	-	-	-
7 كركوك	885	-	-	-	-	-
8 راوندوز	218	-	-	-	-	-
9 كوسنجق	402	-	-	-	-	-
10 رانية	53	-	-	-	-	-

¹ س.و.م، 1310هـ / 1892م، ص ص 330-333.

11	الصالحية	-	19	-	-	-	-
12	أربيل	620	-	-	-	-	-
13	السليمانية	69	-	-	-	-	-
14	المجموع	10396	5074	2847	142	161	42

والملاحظ من خلال الجدول أن طائفة الكلدان تشكل أكثر من نصف نصارى الموصل في حين يمثل السريان الثلث تقريبا، كما مثل اليعاقبة ما يقارب 3000 نسمة، ولم تمثل الطوائف الأخرى إلا نسبة ضئيلة جدا لا تتعدى 200 نسمة فقط.

2- أعدادهم في ولاية بغداد: ضمت بغداد في أواخر العهد العثماني أكبر نسبة لنصارى العراق، لأنها كانت المدينة الأكثر أمانا من غيرها، وقد شهدت بغداد اقبالا واسعا من نصارى العراق من مختلف المناطق، وحتى النصارى الأرمن بعد نكباتهم في الأناطول استقر كثير منهم ببغداد، وقد سكنوا أحياء خاصة بهم وغير معزولة، مثل منطقة الميدان وأكثر سكانها من الأرمن، ومحلة سوق الغزل، ومنطقة الرأس الغربي في جنوب المدينة، وجاءت احصائياتهم على النحو التالي:

جدول رقم 9: يبين عدد وتوزيع نصارى بغداد حسب الطوائف (1892-1900م)¹

السنة	السريان (الكاثوليك)	أرمن قديم (أرثوذكس)	أرمن كاثوليك	بروتستانت	لاتين	كلدان	المجموع
1310هـ/1892م ²	320	369	713	35	48	—	1485
1311هـ/1893م ³	305	289	142	39	44	517	1336
1312هـ/1894م ⁴	304	263	139	28	46	522	1303
1313هـ/1895م ⁵	302	280	145	28	46	520	1323
1314هـ/1896م ⁶	299	283	142	34	48	517	1326
1315هـ/1897م ⁷	299	330	139	34	61	645	1508
1317هـ/1899م ⁸	299	273	141	35	51	503	1302

¹ س.و.ب، 1292هـ / 1875م، ص ص 128-129.

² س.و.ب، 1310هـ / 1892م، ص 204.

³ س.و.ب، 1311هـ / 1893م، ص 228.

⁴ س.و.ب، 1312هـ / 1894م، ص 252.

⁵ س.و.ب، 1313هـ / 1895م، ص 323.

⁶ س.و.ب، 1314هـ / 1896م، ص 325.

⁷ س.و.ب، 1315هـ / 1897م، ص 381.

⁸ س.و.ب، 1317هـ / 1899م، ص 303.

1508	645	61	34	139	330	299	1318هـ/1900م ¹

نلاحظ من خلال الجدول أن طائفة الكلدان تمثل النسبة الأكبر من السكان النصارى في بغداد أيضاً، فيما تمثل طوائف السريان الكاثوليك والأرمن الأرثوذكس والأرمن الكاثوليك المراتب الثانية والثالثة والرابعة على التوالي، ولم تمثل باقي الطوائف سوى نسب قليلة فقط ابان الفترة المذكورة.

3)- أعدادهم في ولاية البصرة: رغم تواجدهم فيها إلا أنهم قليلون مقارنة ببغداد والموصل لذلك لا توجد كثير من الإحصائيات حول أعدادهم إذ أوردت سالنامة ولاية بغداد عام (1292هـ-1875م) أن عددهم 74 نسمة في البصرة و50 نسمة في العمارة كما أوردت سالنامة ولاية البصرة عام (1314هـ-1896م) أن عددهم بلغ 112 نسمة من الكاثوليك و36 نسمة من الأرمن.

ب)- أعدادهم في التقارير الكنسية: اعتاد رجال الكنائس من مختلف الطوائف على كتابة تقارير دورية حول أعداد وأحوال النصارى في العراق، وقد تعد هذه التقارير مصدراً مهماً للمعلومات للباحثين، ورغم أنها تفقد الدقة إلا أنها تعد قريبة جداً من الواقع ومنها:

1)- عدد النساطرة واليعاقبة:

أ)- في الموصل ونواحيها: حسب تقويم الكنيسة الكلدانية النسطورية² ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر فقد بلغ عدد النساطرة في الموصل سنة 1408م سبعة عشرة ألف 17000 بيت، مقسمة داخل المدينة تسعة آلاف 9000 بيت، وفي خارجها ثمانية آلاف (8000 بيت، وفي مدينة كركوك ومحيطها ألفا 2000 بيت.

ب)- عددهم في بغداد ونواحيها: في سنة 1500 كان في داخل مدينة بغداد وخارجها ستة عشر ألف 16000 بيت، يقع على الشمال منها دير النبي دانيال والفتية الثلاثة يقطنه مائتا راهب عدا الخدم ويملكون أوقافاً كثيرة من رحي وبساتين ولهم مدرسة واسعة الأرجاء يتعلم بين جدرانها رجال الدين الفلسفة واللاهوت والمنطق والهندسة.

ج)- عددهم في المناطق الأخرى: وكان للنساطرة في أربيل سنة 1600م مائتين وألف 1200 بيت. وكان عددهم في السليمانية ثمانمائة 800 بيت. وذكر التقرير أن عدد المسيحيين في المدائن مقر كرسي بطريرك المشرق ونواحيها بلغ ثمانمائة وسبعة عشر ألف 17800 بيت، ولهم واحد وثمانون كنيسة. كما بلغ عدد النساطرة في البصرة سنة 1610م ثلاثة آلاف 3000 بيت، ولهم ثلاث كنائس، وقدر عددهم في الحلة سنة 1615م مئتان وألف 1200 بيت ولهم كنيسة، وفي الكوفة سنة 1680م ثمانمائة وألف

¹ س.و.ب، 1318هـ / 1900م، ص 331.

² نشر هذا التقويم المطران بطرس عزيز في بيروت سنة 1919م. وهو لمؤلف نسطوري مجهول الإسم عاش في أواخر القرن الثامن عشر لأن أكثر أخباره تقع في عام (1000-1700).

1800 بيت، ولهم ثلاث كنائس. أما العمادية ونواحيها فقد كان عددهم العام 1630م مائتان وأربعة آلاف 4200 بيت، ولهم ثمانية عشر كنيسة، وكان عددهم في زاخو مائتين وخمسة آلاف 520 بيت. وفي عقرة سبعمائة 700 بيت¹.

2- عدد الكاثوليك حسب تقرير المطران بابيه عمانويل:

أورد الدكتور رشيد الخيون تقرير المطران بابيه عمانويل، أسقف بغداد (1742م) المرسل إلى البابوية بروما الذي أعطى صورة عن وضع المسيحيين، وبالأخص الكاثوليك منهم في تلك المرحلة. وصاحب التقرير ولد بفرنسا، أرسل إلى العراق عام 1728م، وأصبح أسقفا للكاثوليك ببغداد، وظل في منصبه الديني حتى وفاته بمرض الطاعون، الذي اجتاح العراق العام 1773م.

أشار التقرير الى أن عدد ناري الموصل ألف 1000 عائلة، نصفهم من النساطرة والنصف الآخر من السريان، ولا يزيد الكاثوليك فيها على عشر عائلات، وفي قرية تلكيف مائة وخمسون 150 عائلة. وكان في قرية باطنية مائتا 200 عائلة، وفي قرية القوش مائة 100 عائلة. وفي دهوك ثلاثون 30 عائلة. وفي زاخو أربعون 40 عائلة، وكان في البصرة ثمان 8 عائلات كاثوليكية²، وأربع من طائفة أخرى، ارتفع عددها سريعا إلى 200 عائلة، أغلبها من الأرثوذكس، وذلك بسبب هجرة الأرمن من ايران إلى البصرة أيام نادر شاه. أما بغداد فكان مجموع مسيحييها 130 عائلة من أرمن وسريان ونساطرة وكاثوليك، مقسمة على محلة الميدان قرب كنيسة الشهيدة مسكنتا ومحلة الشورجة في جوار كنيسة الآباء الكرملين³، وعائلات أخرى متفرقة بالقرى والأطراف لم يتمكن من زيارتها وإحصائها⁴.

ج- احصائيات الرحالة الأجانب:

1- ولاية الموصل: أورد الرحالة بيكنغهام الذي زار الموصل العام 1816م أن عدد السريان الكاثوليك بلغ 500 عائلة، واليعاقبة 300 عائلة أما الكلدان فبلغت عائلاتهم 1000، وفي الاجمالي 1800 عائلة⁵. أما بادجر الذي زارها العام 1849 فقد أورد أن الكلدان حوالي 350 عائلة في السريان الكاثوليك 300 عائلة واليعاقبة بلغوا 450 عائلة المجموع 1100 عائلة في حين أهمل باقي الطوائف ربما لقلتهم أو لم يصل اليهم.

¹ رفايل بابو اسحق: المرجع السابق، ص 131.

² بطرس نصري: ذخيرة الأذهان في تاريخ المشاركة والمغاربة السريان، ط1، دار الآباء الدومينيكان، الموصل، 1905م، م2، ص ص 261-262.

³ رفايل بابو اسحق: المرجع السابق، ص 130.

⁴ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج1، ص 450.

⁵ جيمس بيكنغهام: المصدر السابق، ج1، ص 64.

كما أفاد القس الفرنسي دوفال عضو الارسالية التبشيرية الفرنسية أن اجمالي عدد النصارى عام 1857م بلغ 9400 نسمة منهم 2150 نسمة من السريان الكاثوليك و1300 نسمة من اليعاقبة و1200 من الكلدان، 200 من النساطرة و250 نسمة من البروتستانت والباقي من الطوائف الأخرى. وتعد هذه الأرقام أكثر دقة من مثيلاتها رغم اهماله لعدد الأرمن بحكم أنها كانت بالنسمة ومنطقية الى حد بعيد تخلو من المبالغة الواردة في احصائيات الذين سبقوه.

2- ولاية بغداد: أورد محمد بن أحمد المنشي البغدادي أن عدد النصارى في بغداد العام 1816م يبلغ 4000 نسمة¹ مع العلم أن مرض الطاعون الذي ضرب المدينة العام 1830م خفض من العدد كثيرا ف جاء حسب بترمان أن عدد سكانها العام 1854م بلغ 1340 نسمة أي حوالي 290 عائلة مسيحية مقسمة 300 نسمة من السريان الكاثوليك و900 نسمة بين الأرمن الأرثوذكس والأرمن الكاثوليك، والباقي من الطوائف الأخرى لاتين وكلدان وغيرهم. وذكر كونييه أن ما بين العام 1892 و العام 1895م كان عددهم اجمالا 7000 نسمة.

3- ولاية البصرة: بحكم أن البصرة لا تتواجد بها أعداد كبيرة من النصارى خاصة قبل القرن التاسع عشر فان أعدادهم في كتابات الرحالة كانت شحيحة مقارنة بالموصل وبغداد لكن بيكنغهام أورد أن عددهم فيها بلغ 50 عائلة أغلبهم من الأرمن في عام 1816م. كما أورد الكسندر آدموف أن عددهم العام 1901م كان 1200 نسمة من اليعاقبة وحوالي 600 نسمة من الكاثوليك². وقد قدم ممثلو طائفة السريان الكاثوليك للسلطات طلبا لبناء كنيسة لهم في العام 1908م ذكرو فيه أن عدد عائلاتهم بلغ 135 عائلة.

3- حركة السكان النصارى داخل العراق وخارجه:

أ- هجرهم وحركتهم داخل العراق:

كما ذكرنا سلفا فان نصارى العراق منذ القدم تركزوا في شمال العراق خاصة منطقة كردستان سواء المدن كالسليمانية، وأربيل، والموصل التي تعد معقلا تاريخيا لهم، أو في القرى والأقضية المحيطة بتلك المدن³، مع تواجد قليل جدا في المناطق والمدن الداخلية كبغداد والكوفة وأيضا تواجد جد قليل في البصرة ومحيطها. لكن هذا التوزيع الجغرافي للطوائف المسيحية العراقية بدأ في التغير تدريجيا منذ القرن السادس عشر، وزاد بشكل واضح مع حلول القرن التاسع عشر الذي شهد هجرة مسيحية باتجاه الجنوب خاصة بغداد⁴،

¹ أحمد المنشي البغدادي: رحلة المنشي البغدادي، تعريب عباس العزاوي، ب ط، شركة التجارة والطباعة، بغداد، 1948م، ص 36.

² الكسندر آدموف: المصدر السابق، ص 213.

³ ألبير أبونا: تاريخ الكنيسة الشرقية، ج1، ص 25.

⁴ رفائيل أبو اسحق: المرجع السابق، ص 137.

وقد كان وراء هذه الحركة عدة أسباب منها رغبتهم في تحسين حياتهم المعيشية، خاصة مع التطور الاقتصادي للمناطق الداخلية والجنوبية للعراق منذ القرن التاسع عشر الذي شهد ازدهارا تجاريا كبيرا خاصة مع تواجد عدة شركات أوروبية كشركتي الهند الشرقية ونظيرتها الفرنسية في الشرق¹، ما جعل البضائع الأوروبية تتدفق على الأسواق الآسيوية، ومنها العراق، الأمر الذي أدى الى تطور الملاحة البحرية والنهرية، وازدهار التجارة في هذه المناطق العراقية بحكم تواجد مكاتب لهذه الشركات هناك²، وهو الأمر الذي جعل هذه المناطق تشهد تطورا صناعيا ونشاطا تجاريا ملحوظين.

ومنذ ذلك الحين ارتبط العديد من المسيحيين العراقيين بالشركات التجارية الأوروبية وانخرطهم في أنشطتها الاقتصادية سواء عمال أو مترجمين، وتفضيل هذه الشركات للمسيحيين العراقيين على حساب الطوائف الأخرى لعدة أسباب منها اتقانهم للغات الانكليزية والفرنسية اضافة الى وحدة الدين مع تلك الطوائف³، وهو ما جعل عديد من المسيحيين يهاجرون الى بغداد والبصرة وغيرهما والاستقرار بالقرب من عملهم.

يضاف الى ذلك التواجد الدائم لقناصل الدول الأوروبية، وممثلي الشركات التجارية في بغداد والبصرة الذي يعد عاملا شجع المسيحيين للتفرب من تلك المناطق والاحتفاء بهذه البعثات ضد أي ظلم أو اضطهاد قد يلحق بهم سواء من السلطات أو حتى من العامة.

وبهذه الحركة والهجرة المسيحية أصبح التواجد المسيحي في وسط وجنوب العراق يعادل تواجدهم في الشمال بل أن بغداد أصبحت مع مطلع القرن العشرين أكبر مدينة يتواجد بها النصارى في كامل بلاد العراق، كما أصبح التوزع الجغرافي للنصارى في كل ربوع العراق.

ب- هجرتهم وحركتهم خارج العراق:

1- داخل أراضي الدولة العثمانية:

أ- الهجرة من العراق: كانت هذه الهجرة محدودة وفي اتجاهات مختلفة حيث أن الشام استقطبت أعدادا من مسيحيي العراق خاصة حلب ودمشق أين مارسوا التجارة وبعض الحرف. وأيضا مصر مثل مدينتي القاهرة والاسكندرية، اضافة الى بعض المدن التركية كالاستانة⁴. والملاحظ أن أسباب هذه الهجرات كان في المقام الأول اقتصادي بسبب ازدياد النشاط التجاري لهؤلاء المهاجرين، كما أن احتضان المناطق

¹ عبد العزيز سليمان نوار: المرجع السابق، ص 295.

² يوسف رزق الله غنيمه: تجارة العراق قديما وحديثا، ص 67.

³ حسن العويدات: المرجع السابق، ص 165.

⁴ رفايل أبو اسحاق: المرجع السابق، ص 137.

والمدن التي تواجدوا بها للمسيحيين كان منذ القدم كالأقباط في مصر، وهو العامل الذي شجعهم على الاستقرار بهذه المناطق فمنهم من عاد ومنهم من لم يعد واستقر هناك.

(ب)- **الهجرة الى العراق:** اقتضت هذه الهجرة على أعداد قليلة من المسيحيين الذين قدموا الى العراق في القرنين الأولين للتواجد العثماني في العراق لأسباب مختلفة، فمنهم من جاء في مهام عسكرية، واستقر هناك مثل أسرة آل قجماقچيان التي استقرت بالموصل منذ حصار نادر شاه للموصل¹، وبعد ذلك الهجرات الأرمنية كالقادمين من ايران الذين ذكرهم نيور: «...وقد دفعت القلاقل والاضطرابات الداخلية في بلاد فارس عددا كبيرا من الأرمن للنزوح الى بغداد والبصرة وضواحيها، وأنشأوا معامل للصناعات المختلفة...»²، يضاف اليهم الهجرة الأرمنية المعروفة في أواخر القرن 19م بسبب نزاعهم مع العثمانيين³.

(2)- هجرتهم خارج الأراضي العثمانية:

(1)- **هجرة باتجاه الشرق :** لم تكن هجرة كبيرة للمسيحيين العراقيين لأراض خارج مناطق النفوذ العثماني لكنها موجودة، فكانت هناك هجرة باتجاه شبه الجزيرة الهندية والمناطق القريبة منها والسبب في ذلك النشاط الاقتصادي الذي عرفته المنطقة منذ تأسيس شركتي الهند الشرقية البريطانية وأيضا الفرنسية ثم الاحتلال البريطاني للهند⁴، فاستقر بعض من مسيحيي العراق هناك، ومنهم من كان استقراره مؤقتا لأنه عاد الى العراق ومنهم من بقي هناك فكانت اقامته دائمة. وكذلك هجرة باتجاه ايران والسبب أيضا تجاري حيث عمل عدد كبير من مسيحيي العراق في تجارة الحرير التي كانت مزدهرة في عهد الدولة الصفوية، وتدر أرباحا طائلة كما أن التسهيلات والامتيازات التي منحها بعض شاهات ايران مثل الشاه عباس الأول (1588-1629م)⁵ للمسيحيين شجعت عدد من مسيحيي العراق على هذه الهجرة.

(2)- **هجرة باتجاه الغرب:** هذه الهجرة أيضا لم تكن بأعداد كبيرة حيث اتجه بعض من نصارى العراق الى أوروبا كبريطانيا وفرنسا، وحتى بعض بلدان شبه الجزيرة الاسكندنافية كالسويد، وأيضا الى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، وأسباب هذه الهجرة مختلفة فأغلب المسيحيين العراقيين الذين استقروا في الغرب كان سبب ذهابهم اتمام دراسته، لكنهم مكثوا هناك بسبب العمل أو بسبب زواجهم من نساء من تلك البلدان، اضافة الى الارساليات التبشيرية التي كانت سببا ثانيا في ذهابهم الى بلدان تلك الارساليات

¹ عباس العزاوي: المصدر السابق، ج5، ص 310.

² نيور: المصدر السابق، ص 45.

³ الحسن بن طلال: المرجع السابق، ص 123.

⁴ عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ الشعوب الاسلامية، ص 295.

⁵ محمد سهيل طقوش: المرجع السابق، ص 150.

الأصلية، فاختاروا الاستقرار هناك بسبب ظروف العيش الحسنة فبقي عدد منهم هناك ولم يعودوا الى العراق.

يمكننا أن نستخلص في الأخير أن نصارى العراق قد عاشوا في وضع حسن في هذا العهد بشهادة الرحالة الأوربيين¹، مع بعض الاستثناءات، كما نلاحظ أن نظام الملل كفل لهم حرية العبادة والاستقلال في تسيير شؤونهم الاجتماعية. كما نستنتج أيضا أن توزيعهم الجغرافي تغير بسبب تحول الاقتصاد العراقي السائد الى اقتصاد السوق، فانتشر المسيحيون في كل المدن والمناطق العراقية لكن تركيزهم كان في بغداد وبالتالي تحول ثقلهم من الشمال الى العاصمة والوسط.

¹ ستيفن همنسلي لونكريك: المصدر السابق، ص 119.

المبحث الرابع- دور النصارى السياسي والإداري في العراق والدولة العثمانية:

يعد مسيحيو العراق جزءاً من المسيحيين ككل في الدولة العثمانية لذلك وجب القاء نظرة مختصرة عن مكانة وأدوار المسيحيين في الدولة العثمانية بشكل عام حتى تكون الصورة أكثر وضوحاً، وتساعد على فهم أدوار مسيحيي العراق، وعلاقتهم بالسلطة العثمانية سواء السلطة المركزية أو ممثلة في ولايتها بالعراق.

أولاً- الأدوار السياسية والإدارية للنصارى في أعلى هرم السلطة العثمانية:

يمكن القول أن نصارى الدولة العثمانية بشكل عام تسللوا إلى مواقع، ومناصب مرموقة أكثرها مناصب إدارية أهلتهم للعب أدوار بارزة وصلت أحياناً إلى أعلى هرم السلطة¹، فاثروا في دوائر القرار، وشاركوا في سياسات الدولة، وهذا راجع إلى عدة عوامل ساعدت في توفير المناخ والبيئة التي سنحت بارتقائهم إلى تلك الدرجات.

1- العوامل المساعدة على اتساع نفوذ النصارى في الدولة العثمانية وفي العراق:

أ- الامتيازات الأوروبية: بدأت منذ عهد السلطان سليمان القانوني (1520-1566م) عندما أبرم مع ملك فرنسا فرنسوا الأول معاهدة سنة 941هـ-1535م² وعرفت باسم معاهدة صداقة وتجارة بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا، وتقرر فيها منح فرنسا وسائر رعاياها الذين يذهبون إلى أقاليم الدولة العثمانية شتى الامتيازات في مقابل منح الرعايا العثمانيين امتيازات مماثلة لها تقريباً في فرنسا. لكن هذه الامتيازات أخذت تتزايد بشكل شمل معظم الدول الأوروبية، وهو ما سمح لهذه البلدان أن تتدخل في الشؤون العثمانية الداخلية كما حتمت على الدولة العثمانية تحسين وضع الأقليات عامة والمسيحيين خاصة.

ب- ظهور ما يسمى بحماية الأقليات: ظهر المفهوم عقب تلقيب ملك فرنسوا الأول بحامي الكاثوليك بعد معاهدته مع الدولة العثمانية العام 1535م ثم بعد معاهدة 1774م مع الروس لقب القيصر الروسي بحامي الأرثوذكس³، وتعني حماية الأقليات قيام إحدى الدول الكبرى بإعلان مسؤوليتها عن أقلية تعيش داخل حدود دولة أخرى فتضعها تحت حمايتها، أي تتدخل في شؤون الدولة التي تعيش الأقلية في كنفها بحجة الدفاع عن مصالح تلك الأقلية، وبهذه الطريقة استطاعت الدول الأوروبية أن تقيم جسور تواصل مع الأقليات المسيحية في أراضي الدولة العثمانية، وساهمت في اتساع نفوذ وأدوار تلك الطوائف.

¹ حبيب بدر وآخرون: المرجع السابق، ص 666.

² إبراهيم بيك حليم: المصدر السابق، ص 90.

³ ألكسندر آدموف: المصدر السابق، ص 207.

ج-الارساليات التصيرية: هي الارساليات التي تبنتها الدول الأوروبية لنشر مذهبها الديني في أوساط الأقليات الدينية داخل الدولة العثمانية، وقد جرى تسابق بين بريطانيا وفرنسا وحتى الولايات المتحدة الأمريكية في هذا الجانب، وكانت الأقليات الدينية في العراق أبرز أهداف تلك الارساليات، وقد استفادت الطوائف من خيرات تلك الارساليات على صعيد التعليم والنشاط الطبي، وأنشطة اجتماعية أخرى ساهمت في نخضة علمية وفكرية انعكست على مكانة ودور المسيحيين في العراق والدولة العثمانية عموماً¹.

د-طبيعة التنظيم الاجتماعي للمسيحيين: بظهور نظام الملل الذي اتبعته الدولة العثمانية بمفهومه الحديث أصبحت الأقليات الدينية أكثر حرية واستقلالا، وكأنها تحكم نفسها بنفسها كما أضحت تسير كل شؤونها بالتنسيق مع الدول الأوروبية، فلم يعد للدولة العثمانية أي تدخل فسمى البعض نظام الملة بدولة داخل الدولة العثمانية، فوطدت الطوائف المسيحية علاقتها بالدول الأوروبية²، واستفادت من تطور تلك البلدان للنهوض بمجتمعاتها، فساعدتها تلك الظروف للعب أدوار مهمة في مواطنها داخل الأراضي العثمانية.

هـ-الارث الحضاري والتاريخي لمسيحي العراق: لنصارى العراق تاريخ وتقاليد في المشاركة السياسية في الحكم سواء مستشارين أو حتى حكاما مثلما حدث في الموصل في حقب تاريخية مختلفة، كما كان للمسيحيين دور بارز أثناء حكم الدولة العباسية، وشاركوا باسهاب في الترجمة والطب والتأليف وغيرها³. وكل هذا الارث العلمي والحضاري ساعد المسيحيين وأهلهم لشغل مناصب عالية سياسية وعلمية في العهد العثماني.

و-التنظيمات العثمانية: اضافة الى كل تلك العوامل هناك عامل أكثر أهمية وهو الاصلاحات التي تبنتها السلطة العثمانية بداية بخط شريف كلخانة العام 1839م والخط الهمايوني العام 1856م، ثم تبعها دستور سنة 1876م، وكل هذه الاصلاحات كانت بالأساس لمنح مزيد من الحرية والمشاركة السياسية الفعالة للأقليات بشكل عام والمسيحيين بصفة خاصة⁴.

2- دور النساء المسيحيات في سياسة الدولة العثمانية:

أكدت أغلب الدراسات حول تاريخ الدولة العثمانية أن النساء النصرانيات بمختلف صفاتهن وألقابهن قد لعبن أدوارا بارزة في المجال السياسي، وهذا راجع لقرهمن من دائرة صنع القرار وهو السلطان أعلى هرم السلطة في الامبراطورية العثمانية، وقد كان القصر العثماني يعج بالنساء والحواري اللاتي كان أغلبهن من

¹ حبيب بدر وآخرون: المرجع السابق، ص 689.

² جيمس بيكنغهام: المصدر السابق، ج2، ص 269.

³ جان موريس فييه: المرجع السابق، ص 69.

⁴ أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص 202.

الأجنبيات وصلن اليه بطرق مختلفة سواء عن طريق الزواج بالسلطين العثمانيين أو عن طريق السبي أثناء فتوحات العثمانيين بأوروبا أو عن طريق الشراء أو الاهداء من قبل الحاشية أو الرعية...الخ. وقد اختلفت مكانة ودور المرأة المسيحية حسب صفتها وجمالها ومدى تعلق السلطان بها، وفيما يلي نتعرف بإيجاز عن صفات حريم السلطان وأبرز أدوارهن:

أ-السلطانة: زوجة السلطان والتي لها تأثير كبير على السلطان ومنهن نذكر أمارا خديجة أو حليلة خاتون زوجة مراد الثاني (1421-1451م)، وروكسيلانة زوجة سليمان القانوني (1520-1566م) الخ... وكذلك السلطانة والدة أي أم السلطان الذي يكون صغيرا وغير قادر على ادارة شؤون الحكم فتقوم هي بتدبير شؤون الدولة حتي يبلغ، ويعد هذا المنصب أشد خطرا لأن كل مقاليد الدولة تكون بيد السلطانة والدة ومن أبرزهن نذكر قوسم أم السلطان مراد الرابع والسلطان ابراهيم الأول ابنة قسيس يوناني، وطورخان سلطانة ام السلطان محمد الرابع (1648-1687م) من أصل سلافي.¹

ب-قادين وباش قادين: يطلق لقب قادين أفندي على الجارية التي تقوم بالاستفراس للسلطان، وترقى الى رتبة باش قادين اذا تم تكليفها بمسؤولية الاشراف عن باقي جواري السلطان وتبقى تلقب بهذا اللقب حتى وان تزوجها السلطان، ويمكن أن تصل الى رتبة والدة السلطان اذا أنجبت صبيا، وتولى الحكم، ومن النساء اللاتي تدرجن من رتبة قادين حتى وصلن الى رتبة والدة السلطان نذكر خورم سلطان التي كان لها تأثير كبير في الدولة العثمانية حتى أنها تعزل، وتعين الصدر الأعظم، وتتدخل في ولاية العهد وغيرها من الأمور²، اضافة الى قوسم التي ذكرناها سلفا أيضا تدرجت من رتبة قادين حتى اصبحت السيدة الأولى في الدولة العثمانية³.

3-المناصب السياسية والادارية التي تقلدها مسيحيون في الدولة العثمانية:

عكس القرون الأولى للامبراطورية العثمانية فقد غير العثمانيون من نهجهم في التعامل مع الأقليات، فأصبح متاحا لأهل الذمة تقلد أعلى المناصب بسبب الضعف الذي أصابها، ومحاولات الاصلاح التي تبنتها وحثمت عليها الاستعانة بالخبرات حتى الخارجية من أوروبا خاصة⁴، حينها استطاعت بعض الشخصيات المسيحية أن تكسب ثقة السلطين العثمانيين بفضل ما قدموه من خدمات، مستغلين

¹ محمد أحمد محمد الثقفي: زواج السلطين العثمانيين من الأجنيبات وأثره في اضعاف الدولة العثمانية (رسالة ماجستير في التاريخ الحديث بجامعة أم القرى (1431-1432هـ)، ص 110.

² ماجد بن صالح المضيان: أثر أهل الذمة الفكري في الدولة العثمانية 1520-1924م، (رسالة ماجستير غير منشورة بجامعة ام القرى)، 1994-1995م، ص 51.

³ محمد أحمد محمد الثقفي: المرجع السابق، ص 39.

⁴ كمال السعيد حبيب: المرجع السابق، ص 315.

المؤهلات العلمية والمهنية التي تمكنهم من اعتلاء مناصب سامية وحساسة في أجهزة الدولة، لكن هناك قلة منهم استغلوا مناصبهم لخدمة أعداء الدولة ومن هذه المناصب نذكر:

أ-منصب الوزير: هو أعلى منصب يصل اليه الذمي في الدولة العثمانية وقد شغله نصارى أثبتوا كفاءة عالية في خدمة الدولة، فقد أشارت بعض الاحصائيات التاريخية الى تقلد حوالي اثنان وعشرون مسيحيا لمنصب وزير أغلبهم من الأرمن¹.

ب-الريس أفندي: يوازي هذا المنصب منصب وزير الخارجية قي عصرنا الحالي، كان دوره استشاريا، لكن تعاضم مع مضي السنين فأصبح الرئيس أفندي المشرف الأول على السياسة الخارجية للدولة العثمانية فيستقبل الوفود الدبلوماسية ويفاوض، ويرم الاتفاقيات والمعاهدات ويوضع تحت تصرفه جهاز كامل من المستشارين والمترجمين الذين غالبا مايكونون من الأرمن واليونان، كما يشرف على القنصليات وينوب الصدر الأعظم في حال غيابه، ومن هؤلاء الذين كان لهم نفوذ عظيم نذكر ألكسندر مافروكيرداتو²، وعموما لم يكن جميعهم أوفياء للدولة فمنهم من خان الثقة وباع نفسه لأعدائها³.

ج-وكيل وزارة: يعد هذا المنصب تقريبا المنصب الأعلى في الوزارة بعد الوزير نفسه، وقد كان وكلاء الوزارات النصارى في وزارات متعددة ومختلفة، ومن مواقعهم لعبوا أدوارا على شاكلة المنصب السابق بين الايجاب والسلب.

د-منصب القنصل: من المناصب التي سيطر عليها المسيحيون، وذلك بسبب تعليمهم العالي واتقانهم للغات الأجنبية في ظل عدم تفتن الدولة العثمانية لأهمية تعليم اللغات الى غاية منتصف القرن الثامن عشر تقريبا، وقد كان بعض المسيحيين يتظاهرون باسلامهم من أجل الحصول على هذا مثل هذه المناصب⁴.

هـ-الاستشارة والترجمة: تعد الاستشارة والترجمة من الوظائف الحكومية التي اختصت بها الطوائف المسيحية أو المنحدرين من أصول مسيحية، فقد اعتمد السلاطين العثمانيون عليهم كمستشارين ومترجمين

¹ محمد رفعت الامام: القضية الأرمنية في الدولة العثمانية 1878-1923م، ط1، دار نوبار للطباعة، القاهرة، 2002م، ص 19.

² ألكسندر مافروكيرداتو: من أصل يوناني ينتمي لطائفة الروم الأرثوذكس، درس في المعهد الأرثوذكسي بروما وجامعتي بولونيا وبادوا، ثم تقلد ألكسندر العديد من المناصب الادارية المهمة قبل أن يصبح الترجمان الكبير للديوان، وهو منصب يوازي منصب وزير الخارجية العثماني. أنظر: ثريا شاهين: المرجع السابق، ص 17.

³ ماجد بن صالح المضيان: المرجع السابق، ص 40.

⁴ كمال السعيد حبيب: المرجع السابق، ص 316.

في الديوان الهمايوني، وقد مكنهم ذلك من الارتقاء الى وظائف أعلى ولعب أدوار سياسية مختلفة عبر تاريخ الدولة العثمانية¹.

ثانيا- علاقة نصارى العراق مع العثمانيين:

1- موقفهم من التواجد العثماني:

لم يكن موقف نصارى العراق واضحا في بداية التواجد العثماني في البلاد بل كان غامضا ومترددا، فما أن تواجد العثمانيون في العراق حتى تملكهم الخوف من الدولة الجديدة، ويعود ذلك الارتباك والموقف المتحفظ لعدة أسباب أهمها:

- أن الدولة العثمانية قامت على أنقاض الدولة البيزنطية حين قضت عليها وفتحت عاصمتها القسطنطينية العام 1453م²، وقد كانت رمزا للنصرانية في الشرق وهو الأمر الذي ولد الخوف لدى أتباع هذه الديانة في الشرق عموما والعراق خصوصا، حيث ظنوا أن العثمانيين سيحاربون ديانتهم في كل الأراضي التابعة لهم.

- تجارب نصارى العراق مع الغزاة السابقون للبلاد وما تكبدوه من مصائب حيث عانت هذه الطائفة مثل غيرها بل أكثر من الوحشية والتككيل وتدمير لدور عبادتها، وهو الأمر الذي جعلهم متخوفين خاصة كونهم لا يعرفون العثمانيين وسياستهم تجاه أتباع الديانات الأخرى.

- عدم وجود قوة مسيحية في المنطقة قريبة من العراق قادرة على توفير الحماية لهم في حال تعرضهم لأي معاملة سيئة من قبل العثمانيين، على اعتبار سقوط الدولة البيزنطية وبعدهم جغرافيا عن القوى المسيحية في أوروبا.

لكن هذا الموقف لم يستمر طويلا فما أن ثبت العثمانيون أقدامهم في العراق حتى تغيرت نظرة المسيحيون اتجاههم، وزال الخوف الذي كان يملكهم بفعل المعاملة الحسنة للعثمانيين اتجاه أهل الكتاب³، وهو ما أكدته أغلب المؤرخين فأصبح المسيحيون على علاقة طيبة معهم، وفي تطور ايجابي مع مرور الزمن بدأت بالامتيازات الأوروبية وصولا الى خط شريف كلخانة والخط الهمايوني في 1839م و1856م⁴.

¹ ماجد بن صالح المضيان: المرجع السابق، ص 41-42.

² ابراهيم بيك حليم: المصدر السابق، ص 65.

³ ستيفن همنسلس لونكريك: المصدر السابق، ص 113.

⁴ أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص 202.

2- علاقة السلطة العثمانية بالطوائف النصرانية بالعراق:

صدرت في العهد العثماني فرمانات نظمت العلاقة مع المسيحيين في العراق وغيره من أقطار الدولة، فكانت البداية في حكم السلطان محمد الفاتح (1451-1481م)، الذي فتح القسطنطينية قلعة المسيحية الرسمية منذ القرن الرابع الميلادي وحتى سقوطها في القرن الخامس عشر الميلادي 1453م¹، فقام السلطان الفاتح بتعيين البطريرك الأرثوذكسي اليوناني كينادوس وسيطا بين الرعية المسيحية وبينه، وبذلك أصبح مسؤولا عن إخوانه المسيحيين وعن إخلاصهم للفتح وعن دفعهم للجزية.

كما عين هذا البطريرك بمنصب ملة باشي (أي رئيس الطائفة)، ومنح صلاحيات واسعة لإدارة شؤون الكنيسة، مثل تعيين الأساقفة وعزلهم، والنظر في قضايا الأحوال الشخصية، وتوزيع ضريبة الجزية، التي كان العثمانيون يضعون لها مبلغا إجماليا على المسيحيين كافة. ثم عين بطريرك الأرمن بمنصب رئيس الطائفة المسيحية غير السلافية، وعلى اليهود أيضا، إلى أن حصل كبير الحاخامين على لقب حاخام باشي. كانت الدولة العثمانية تعترف فقط بالأرثوذكس والأرمن واليهود إلى غاية القرن السابع عشر، أما البطارقة الآخرون من الأرثوذكس، والكاثوليك فإنهم وإن منحهم السلاطين البراءة التي أقرت لهم بلقب رئيس طائفة، إلا أنهم لم يخولوا السلطة الزمنية بل كانوا يحتمون بالبطريركيتين آنفتي الذكر، وكانت أسماءهم مدرجة في فرامينهم.

وبتأثير الدولة الغربية اعترفت الحكومة العثمانية بالطوائف المسيحية الأخرى، إذ حصل الأرمن الكاثوليك عام 1830م على اعتراف بهم كطائفة مستقلة، كما اعترف لبطريرك الأرمن الكاثوليك العام 1857م بتمثيل مصالح طوائف الكنائس الشرقية المتحدة مع الكنيسة الكاثوليكية، مثل الكلدان والسريان، والملكيين (الروم الكاثوليك)².

وما زاد في تحسين وضع المسيحيين عموما في أرجاء الدولة العثمانية كافة هو اعلان المرسوم المعروف بخط شريف كلخانة 1839م³ من قبل السلطان عبد المجيد الأول (1839-1861م)، لاسيما في مساواة الطوائف المسيحية أمام الدولة بالحقوق والواجبات، إذ تقرر صون أرواحهم وأعراضهم وأموالهم. ثم تبع ذلك اصدار الخط الهمايوني 1856م، الذي أكد صراحة معاملة جميع رعايا الدولة العثمانية معاملة متساوية مهما كانت أديانهم ومذاهبهم، مع الإبقاء على سلطات رؤساء الدين بشرط إعادة تنظيمها.

¹ ابراهيم بيك حليم: المصدر السابق، ص 65.

² الكسندر آداموف: المصدر السابق، ص 185.

³ ابراهيم بيك حليم: المصدر السابق، ص 213.

كما قامت الدولة العثمانية بالاعتراف بأغلب الطوائف المسيحية في العراق كالتوائفة الكلدانية والنسطورية، بل نبح البطريك (زيعا) العام 1844م أثناء زيارته إلى الأستانة من استصدار فرمان يلقبه ببطريك الكلدان ببغداد والموصل. وقد تم أيضا الاعتراف بالسريان الكاثوليك وبالروم الكاثوليك (الملكيون)، والسريان الأرثوذكس (اليعاقبة)، والطائفة البروتستانتية، المدعومة من قبل انكلترا¹.

ورغم أنه علق بعد فترة وجيزة إلا أن الدستور العثماني الصادر في 23 ديسمبر 1876م أيام الصدر الأعظم مدحت باشا، قد أعطى حقوقا ومزايا كثيرة للطوائف غير المسلمة، فقد أطلق لقب عثماني بدون استثناء على كافة رعايا الدولة العثمانية من أي دين أو مذهب كانوا، مع تأكيده على أن الإسلام دين الدولة الرسمي، وضمن الحرية لجميع الأديان بشرط عدم إخلالها لراحة الخلق والآداب العمومية².

كما حافظ الدستور الجديد على الامتيازات الممنوحة للجماعات المختلفة، ونص على أن جميع العثمانيين سواسية أمام القانون، ولهم حق التوظيف في الدولة كل حسب أهليته واستحقاقه، وأن الضرائب تفرض على الرعايا حسب اقتدارهم، وتجي وفقا لأحكام القانون، وأن لكل ملة أن تنتخب في كل قضاء أعضاء مجلسها لإدارة أوقافها، وأموال اليتامى من أبناء طائفتها، ولتمثيل مصالح الطائفة أمام الحكومات المحلية، ومجالس الولايات العمومية، واعتبر ذلك نقلة نوعية في علاقة تلك الأقليات بالسلطة العثمانية.

بالجمل يمكننا القول أن الدولة العثمانية كانت مضطرة بسبب التدهور الكبير الذي عرفته خاصة في القرن التاسع عشر والهزائم العسكرية التي منيت بها إلى ارضاء الغرب من جهة ومحاوله احتواء الطوائف النصرانية من جهة أخرى، وقطع الطريق أمام تدخل الدول الأوروبية في شؤونها الداخلية بحجة حماية الأقليات، فكان الهدف الرئيسي للاصلاحات هو منح النصارى مزيد من الحقوق والامتيازات لاحتوائهم ولضمان ولائهم للدولة³، ومنعها من الارتقاء في أحضان الغرب، رغم أن الثمن كان باهضا باعتماد القوانين الوضعية بالغاء الحزبة وتمثيل الأقليات في المجالس القضائية والمحلية، والزامها بالخدمة العسكرية أو دفع البدل⁴ عنها، ومنه استفادت الأقليات الدينية الأخرى من هذه التنظيمات التي حسنت من أوضاعها.

¹ الكسندر آداموف: المصدر السابق، ص 185.

² أحمد عبد الرحيم مصطفى: المرجع السابق، ص 285.

³ رفائيل بابو اسحاق: المرجع السابق، ص ص 140-141.

⁴ البدل العسكرية: مبلغ مالي يدفعه طالب الاعفاء من الخدمة العسكرية في شكل ضريبة وقد عمدت الدولة العثمانية إلى تقسيطه على هؤلاء تقسيطا مريحا حتى لا تضيق عليهم.

3- علاقة نصارى العراق بولاية العراق العثمانيين:

أ-العوامل المؤثرة في طبيعة العلاقة:

لم تكن علاقة النصارى في العراق مع ولايتهم من قبل العثمانيين ثابتة ومستقرة بل كانت تحكمها الظروف والمتغيرات المختلفة، فتكون مميزة وحسنة تارة، وتكون مضطربة ومتوترة تارة أخرى¹، نتيجة عوامل تداخلت وتحكمت في طبيعة العلاقة لعل أهمها:

-المصالح الشخصية للولاية، والذين كانوا في الغالب يفضلون مصالحهم الشخصية على مصلحة البلاد العامة، كما ذكر ذلك عديد المؤرخين حيث استغل بعض الولاة الاختلافات المذهبية بين الطوائف المسيحية ليتنزوا ما أمكنهم ذلك مثلما حدث عندما تنازعت الطوائف المسيحية في الموصل حول ملكية بعض الكنائس بسبب حركة التبشير التي زادت من خلافات المذاهب فيما بينها، حيث استغل بعض الولاة الفاسدين الخلاف لكسب المال من كل الأطراف المتنازعة، يضاف الى ذلك التنافس في دفع الرشاوي للوصول الى المناصب العليا للطائفة المسيحية كمنصب المطران مثلاً².

- مدى تطبيق الولاية لفرمانات الدولة العثمانية التي تختلف من وال الى آخر، فرغم أنها نصت وحثت في مجملها على عدم التفريق بين الطوائف خاصة في القرن التاسع عشر الا أن ذلك لم يطبق من قبل عدة ولاية سواء في العراق أو حتى الولايات العثمانية الأخرى ليبقى حال المسيحيين رهن علاقتهم بالوالي شخصيا لا بقوانين الدولة.

-يضاف الى ذلك سيرة وسلوك الطوائف المسيحية فكثير من هؤلاء كانت علاقتهم طيبة مع كثير من الولاة وهذا ناتج عما يقدمونه من خدمة للبلاد والمجتمع مثل ما حدث أثناء حصار الموصل عام 1743م³ من قبل نادر شاه اذ كان لحنا جقماقچيان دور مهم في صمود المدينة في وجه الغازي وهو ما جعل الوالي يطلب منه البقاء فيها.

- عمليات الجباية وتحصيل الضرائب التي يقوم بها الولاة سنويا، والتي تسببت في كثير من الأحيان في توتر العلاقة بين الطوائف المسيحية والولاية، فكثيرا ما عجزت هذه الطوائف عن دفع الجزية والضرائب المستحقة عليها بسبب ضيق وعسر الحال مما يدفع الولاة الى استعمال القوة فيكون الصدام وهو ما ينعكس سلبا على العلاقة بين الطرفين⁴.

¹ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج1، ص 451.

² عزيز سوريال عطية: المرجع السابق، ص 255.

³ عباس العزاوي: المصدر السابق، ج5، ص 310. ستيفن همنسلي لونكريك: المصدر السابق، ص 184.

⁴ رفائيل بابو اسحاق: المرجع السابق، ص 128.

ب- بعض الولاة المقربين للطوائف المسيحية:

(1)- ولاية الأسرة الجليلية¹ في الموصل: حكمت هذه الأسرة الموصل في الفترة الممتدة بين 1726-1834م²، حيث اعتبرها المؤرخون فترة ذهبية نظرا لحالة الاستقرار، والأمن، والتعايش بين الطوائف، والمذاهب الذين توحدوا حول باشوات هذه الأسرة، التي قامت بمصاهرة مع عائلة كاثوليكية تسمى بيت بسام³، زادت من تحسين علاقتهم بالطوائف النصرانية. ويذكر نصارى الموصل وأقضيتهما فضل الولاة الجليليين الذين تدخلوا لحماية نصارى قرقوش بطنايا، وقدموا لهم المؤن والأسلحة ابان حملة نادر شاه 1743م، واحتضنهم في الموصل، وقدم المسيحيون بدورهم أقصى ما يستطيعون لخدمة البلاد، وتطويرها، ونشر الأمن، والعدل بين الرعايا، وقد ظهر ذلك جليا في عدة مواقف، أبرزها مساهمتهم الفعالة في الدفاع عن الموصل أثناء حصار الصفويين 1743م، حيث أبلوا البلاء الحسن في الذود عن مدينتهم، وقد لاقى ذلك تقدير الحاج حسين باشا الجليلي (1731-1758م) الذي بدوره أكرمهم فسمح بترميم الكنائس التي هدمت كما قام ببناء ثمان كنائس على نفقته الخاصة، وهذا يدل على حسن العلاقة بين الطرفين⁴.

(2)- الوالي مدحت باشا: من الولاة المصلحين الذين يذكرهم العراقيون والنصاري بالأخص بالخير نجد الوالي مدحت باشا الذي حكم ولاية بغداد (1872-1969م)⁵، اذ قام باصلاحات واسعة في ادارة شؤون الولاية، وطبق العديد من القوانين الاصلاحية منها القانون الانتخابي للمجالس المحلية الذي مكن الأقليات خاصة المسيحية في المشاركة في تسير شؤون نواحيهم وأقضيتهم عندما حدد مقاعد مخصصة لغير المسلمين بلغت النصف.

وكان النظام الذي اعتمده هرميا يبدأ من القرية أصغر وحدة ادارية ليصل الى مركز السلطة في الاستانة، ونص على أن كل قرية يقل عدد بيوتها عن 20 بيتا يكون لها مختارا، والتي تزيد عن 20 بيتا لها مختاران يساعدهما مجلس لا يتعدى 12 عضوا والى جانبهم رجال الدين مسلمين وغير مسلمين. كذلك الناحية يكون الى جانب مدير الناحية مجلس اداري يتكون من أربع أعضاء مناصفة بين المسلمين وغير المسلمين، واللواء أيضا يكون الى جانب حاكم اللواء، ومجلس اللواء الذي يتكون من المفتي ورؤساء الأقليات الدينية الى جانب 6 أعضاء دائمين مناصفة بين المسلمين وغير المسلمين.

¹ الجليلية: نسبة الى جددهم عبد الجليل وهو مسيحي عمل في خدمة الوالي العثماني، وقد أسلم ولده اسماعيل فتال مركزا عند العثمانيين، وحكم أبناؤه وأحفاده الموصل لأكثر من مئة عام.

² سهيل قاشا: الموصل في كتابات الرحالة الأجانب، ص 12.

³ بطرس نصري: المصدر السابق، ج2، ص 358.

⁴ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج1، ص 451.

⁵ كمال السعيد حبيب: المرجع السابق، ص 445.

هذا، وقد ذكرت تقارير السالنامة أن النصارى كان لهم ممثل واحد في المجالس البلدية لبغداد والبصرة ما بين 1875 الى 1906م، في حين الموصل التي بها كثافة مسيحية كان لهم اثنان في بعض الفترات¹. كما أن اصلاحات مدحت باشا شملت القضاء حيث مكنت الأقليات من التمثيل في المجلس القضائي الذي تألف من 6 أعضاء نصفهم مسلمين ونصفهم من الأقليات.

نلاحظ أن الأقليات بصفة عامة والنصارى بصفة خاصة قد أصبحوا شركاء حقيقيين في المجالين السياسي ومجال القضاء بقوة القانون، واتسعت دائرة مشاركتهم في ادارة شؤون البلاد وبذلك لاقت اصلاحات مدحت باشا ترحيبا كبيرا وارتياحا واسعا لدى الأقليات الدينية رغم أن النصارى كانوا أكثر الطوائف استفادة منها ما جعله محببا في أوساطهم ومقربا لهم.

ثالثا- شخصيات وأدوار نصارى العراق السياسية والادارية والعسكرية:

بفضل كفاءتها وإخلاصها استطاعت شخصيات مسيحية عراقية أن تتولى مناصب هامة، وقد ذكر ألكسندر آداموف أن ولاية البصرة لكثرة معاملاتها التجارية اضطرت السلطان العثماني لاستحداث منصب معاون دفتر دار أو وزير المالية في الولاية، وكان المفترض أن لا يشغل هذا المنصب الا نصراني². كما تذكر المصادر عن فترة حكم الأسرة الجليلية في الموصل أن إلياس الحلبي الكاثوليكي كان صرافا للوالي الحاج حسين باشا الجليلي، كما كان زكريا الصائغ موظفا هاما لدى الوالي نفسه، ووصف بأنه مسموع الكلمة عند الباشا. اضافة الى ذلك نجد الأرمني يوسف كيفورك الذي شغل منصب رئيس الصيارفة، وستراك بوغوصيان الذي شغل منصب المفتش العام للبنك العثماني³، وفيما يلي نذكر شخصيات مسيحية أخرى كانت لها أدوار مختلفة منها :

ب- حنا جقماقجيان وعائلته: مما يروى في قصة حصار الموصل من قبل نادر شاه التي أشرنا لها سابقا أن الحاج حسين باشا الجليلي قد استخدم رجلا مسيحيا يسمى حنا جقماقجيان، وهو من مدينة سعرت في تركيا اليوم، وكان ماهرا بصنع الأسلحة ليستعين به في تجهيز الرجال لمواجهة هجوم نادر شاه في عام 1743م، وبعد انتهاء الحصار الذي دام 40 يوما طلب منه الوالي البقاء في المدينة ليعمل فيها هو وأسرته، فاشتغل في تجارة السجاد والأخشاب والخيول واشتهر فيها زمنا، وحاز أبنائه وأحفاده شهرة واسعة في الموصل والعراق ككل بفضل نشاطهم في تجارة السجاد الأخشاب⁴، والخيول وأيضا أنشطتهم

¹ جميل موسي النجار: الادارة العثمانية في العراق، ص 228.

² ألكسندر آداموف: المصدر السابق، ص 76.

³ عماد عبد السلام رؤوف: الحياة الاجتماعية في العراق في عهد المماليك (1749-1831م)، ط1، مطبعة القاهرة، ب ت، ص 369.

⁴ دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص 106.

الاجتماعية، مثلما فعل ميناكس جماقجيان وأخوه سركيس حين جمعوا شتات المهجرين الأرمن واحتضنهم وقاموا بتوطينهم وحمايتهم ابان محنتهم العام 1895م وأيضاً العام 1915م في موقف انساني لازال العراقيون يتذكرونه حتى يومنا هذا.

2-الأرمني فوسكان مارديكيان (أوسكان أفندي): قد كان وزيراً للبريد والبرق في الدولة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر، وقبلها تقلد العديد من المناصب المرموقة في أجهزة الدولة أهله للوصول الى منصب وزير، وبناء على دعوة وجهتها له الحكومة العراقية في عشرينيات القرن العشرين، أصبح خبيراً مالياً في وزارة المالية العراقية، وطور النظام المالي في العراق وترجم عدة نصوص قانونية من اللغة العثمانية إلى اللغة العربية.

3-داوود يوسفاني: هو سياسي مسيحي عراقي ولد عام 1879م بالموصل، عمل عضواً في محكمة الاستئناف، يعد من الشخصيات التي كان لها دوراً سياسياً بارزاً في تاريخ العراق الحديث، حيث كان أول مسيحي عراقي يفوز في انتخابات مجلس المبعوثان (النواب) العثماني التي جرت سنة 1908م، وأصبح نائباً عن الموصل برفقة محمد علي فاضل آل عبد الحافظ¹.

كانت له نشاطات سياسية ووطنية كثيرة سواء أيام الحكم العثماني أو في حكم الاحتلال والانتداب البريطانيين أو أيام الدولة العراقية الحديثة، ومن اسهاماته دوره مع النواب العرب في تشكيل تكتل برلماني عربي يقف ضد محاولات الاتحاديين طمس الهوية العربية القومية في البرلمان العثماني، وقد ظل نائباً عن الموصل في كل المجالس النيابية التي تشكلت بين سنتي 1908 و1914م.

كما أسهم الرجل في تأسيس الحزب الحر المعتدل سنة 1909م، وضم الحزب الى جانبه مجموعة من النواب العرب كان ابرزهم سليمان البستاني مبعوث دمشق ونافع الجابري مبعوث حلب، وكان لهذا الحزب فرع في الموصل أسسه يوسفاني ومحمد علي فاضل آل عبد الحافظ وقد نشرت جريدة النجاح في عددها الصادر يوم 15 سبتمبر 1911 مقالا حيث فيه النواب العرب على دورهم.

4-يوسف رزق الله غنيمه: يوسف رزق الله غنيمه (1885-1950): ولد في بغداد، أنهى دروسه عام 1906م، وأسس له محلاً تجارياً ، وفي عام 1919 أسس مع جماعة من رفاقه مكتبة السلام، وهي نواة المكتبة الوطنية حالياً، وفي عام 1922 انتخب عضواً في مجلس إدارة محافظة بغداد وفي عام 1923 عين محاضراً لتدريس مادة تاريخ مدن العراق في دار المعلمين العالية، وفي عام 1925 انتخب نائباً عن محافظة بغداد، وفي عام 1928 عين وزيراً للمالية وتكرر استيزاره للمالية أكثر من مرة، وفي عام 1941 عين مديراً

¹ سهيل قاشا: الموصل خلال القرن التاسع عشر (دراسة سياسية 1834-1909م)، ص 114.

عاماً للآثار القديمة، وفي عام 1944 عين وزيراً للتموين، وفي عام 1945 عين عضواً في مجلس الأعيان، كان يتقن اللغة التركية والفرنسية، والانكليزية والكلدانية.¹

5- سيروب أسكندريان وسراييون سيفيان: كان الأول مديراً للإدارة النهرية في بغداد عام 1910م، كما شغل الثاني ذات المنصب بعده مباشرة قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى إبان العهد العثماني، ومن الشخصيات الأرمنية أيضاً، مركوريان مدير شعبة المصرف العثماني الذي عين في العام 1910م رئيساً لأول غرفة للتجارة في بغداد، وقد بات في زمنه مرجعاً للأموال المالية.²

نستنتج أخيراً أن دور نصارى العراق قليل في المجال السياسي مقارنة بالمجالات الأخرى التي برعوا فيها خاصة في اداة الشؤون المالية، لكن دورهم السياسي يتناسب مع حجمهم السكاني ومع وصول مدحت باشا أصبح لهم مشاركة فعالة في ادارة شؤون البلاد عن طريق ممثليهم في المجالس المحلية المختلفة.

¹ حميد المطيعي: موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، ج1، بغداد، وزارة الثقافة والاعلام، دار الشؤون العامة، 1995، ص233.

² دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (محنة الماضي وقلق المستقبل)، ص 105.

المبحث الخامس- الأنشطة الاقتصادية لنصارى العراق خلال العهد العثماني:

شارك نصارى العراق من كل المذاهب والطوائف خلال العهد العثماني في جميع الأنشطة الاقتصادية، اذ كان منهم المزارعين وملاك الأراضي، ومنهم الصناع وأصحاب المعامل، كما احترفوا التجارة، وسيطروا عليها الى جانب اليهود كما عملوا في النشاط المصرفي ولو بدرجة أقل من اليهود، ونتلخص أبرز أدوارهم كما يلي:

أولاً- النشاط الزراعي:

امتنع مسيحيو العراق حرف مختلفة، فزاولوا الأعمال الحرة واشتغلوا على غرار آبائهم الآشوريين والكلدانين بزراعة الأرض، وتربية الحيوانات الداجنة، وبرعوا مثل أجدادهم الآراميين في التجارة، كما تميزوا في فنون الصياغة والحياكة والتجارة والحدادة¹.

تركزت الأنشطة الزراعية لنصارى العراق في المناطق الشمالية التي كانت المعقل التاريخي لهم، فكانت الزراعة ولا زالت أهم مهنة يزاولها أهل القرى المسيحية في تلك المناطق²، وكان الفلاح يعتمد في عمله على آلات بدائية كالحراث الذي تجره الحيوانات، والمسحاة، والمنجل، وبعض المكملات الأخرى، وهذه مجموعها مقيدة بالمحدودية التي تتيحها الطاقة العضلية للإنسان والحيوان، والإنتاج بدوره يكون محصوراً في أطر هذه الطاقة المحدودة، وهو بمجمله يطمح إلى تحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي، ومن أجل زيادة الإنتاج كان الفلاح يقحم أيادي عاملة جديدة ويضاعف من أعداد الحيوانات المستخدمة.

1- أصناف المزارعين النصارى: صنف نصارى العراق الذين يزاولون الزراعة وأغلبهم من الكلدان والسريان الى أصناف مختلفة حسب ما يمتلكون من أرض وهم ثلاث أصناف هي:

أ- ملاك الأراضي الصغيرة: يشكل ملاك الأراضي الصغيرة نسبة كبيرة من المزارعين النصارى، وهم كل من له قطعة أرض صغيرة، ويملك زوجاً من الحمير يستعين بها في أعماله الزراعية، يقوم بزراعتها مع أفراد عائلته، إلا أن إنتاج أرضه لا يتناسب دوماً مع حاجات عائلته المعيشية، وفي مثل هذه الحالة كان الفلاح يلجأ مع أفراد عائلته القادرين على العمل إلى مزاولة أعمال أخرى تساعدهم على توفير أسباب المعيشة خلال العام سيما أيام الشتاء القاسية كالعمل في أعمال البناء المختلفة، أو جلب الخشب من أعالي الجبال وبيعه، أو غيرها من الأنشطة الأخرى.

¹ رفائيل بابو اسحاق: المرجع السابق، ص 7.

² قسطنطين بيتروفيتش ماتيفيف بارميتي: الآشوريون والمسألة الآشورية في العصر الحديث، تعريب ح.د.أ، ط1، دار الأهالي للطباعة والنشر، دمشق 2000م، ص 55-56.

ب- ملاك الأراضي الشاسعة: رغم قلة عددهم الا أنهم يسيطرون على أكثر من نصف الأراضي الزراعية، وقد تزايد عددهم في القرن التاسع عشر بشكل كبير، وكوّنهم يملكون أراضٍ شاسعة فهم لا يزرعونها بأنفسهم، بل يلجؤون إلى استخدام مزارعين يقومون بهذا العمل سيما في موسم الحصاد مقابل أجره يومية، كما أن بعضهم يقومون بتأجير جزء من أراضيهم مقابل مبلغاً من المال لمدة معينة يتفق عليه.

ج- الفلاحون الذين لا يملكون أرضاً (مزارعون بالجهد): وهم كل من يشتغل بالزراعة عند غيره لأنه لا يملك أرضاً، وقد تم استغلال هؤلاء المزارعين أسوأ استغلال، فكانوا يتعرضون لمعاملة قاسية من قبل القبائل الكردية، وعوملوا معاملة العبيد حتى سماهم بارمقي بالأقنان¹، وهم صنفان الصنف الأول يزرع أراضي ملاك آخرين مقابل ربح يتفق عليه مع صاحب الأرض أو بأجرة محددة²، والصنف الثاني كان يؤجر أرضاً عن مالكيها مقابل مبلغ معين، ويقوم باستغلالها لفترة محدودة ومتفق عليها، ثم تعود للمالكها، وعليه فهذا الصنف سميناهم مزارعين بالجهد الذي يبذلونه لا بالأرض التي يملكونها.

هذا، وقد تباينت شروط استغلال الأرض بالنسبة للفلاحين المسيحيين، ففي المناطق الجبلية (كردستان) يطبق عليهم ما يطبق على الفلاحين الأكراد، أي على أساس مشاركة مالك الأرض والفلاح في تقديم البذور واقتسام الحاصل بالتساوي، إذ كانت الأرض تعود لرئيس القرية، أو أحد الوجهاء من النصارى أو الأمراء الأكراد، وأدوات الزراعة للفلاح على أن يقوم الفلاح بنقل السماد إلى الحقل والمحصول إلى بيت المالك، وإن لم يكن للفلاح أدوات زراعية فإنه يأخذ ثلث المحصول، والحال ذاته في بقية القرى المسيحية في سهل الموصل، أما فيما يتعلق بالأدوات والآلات التي كان يستخدمها الفلاح المسيحي فهي ذاتها آلات الفلاح في كل ربوع العراق، آلات قديمة ورثها عن أجداده مستعملاً المحراث التي تجره الحيوانات والمسحاة، وأدوات أخرى³.

2- أهم المنتجات الزراعية للقرى المسيحية في شمال العراق:

تعددت المنتجات الزراعية لمسيحيي شمال العراق كالحنطة، والشعير، والرز، والسمسم، والعدس، والطماطم، والخضروات، والتبغ، وزراعة البساتين، والكروم بتنوع فواكهها وجودتها، لكن الملاحظ ميل

¹ ق ب م بارمقي: المرجع السابق، ص 51.

² محمد محمود بدرشلباية: المسيحيون العرب ودورهم في الحركة الوطنية الفلسطينية 1917-1948م، دار أبجد للنشر والتوزيع، عمان، 2015م، ص 116.

³ نصير محمود شاكر الجبوري: السياسة الخارجية العراقية في ضوء مقررات مجلس الوزراء "1958-1963"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة تكريت، 2005، ص ص 117-118.

الفلاحون المسيحيون لزراعة محصول الحنطة¹، وهي من أهم صادرات العراق أواخر القرن 19م والنصف الأول من القرن 20، إذ احتلت زراعتها أغلبية الأراضي المزروعة لديهم، لاعتماد مياه الأمطار في سقيها كما استغلت المرتفعات الموجودة في المنطقة لزراعتها، وأهم أنواع الحنطة التي يزرعونها هي: الخمر، والايطالية والكارونية بنوعيهما البيضاء والحمراء، والقندهارية، والشقراء، ومثل هذه الأصناف هي التي تصلح لصنع الخبز².

وبالإضافة الى ذلك كانوا يزرعون العدس والحمص، وتعد قرية الداودية من أبرز القرى المسيحية العريقة المتناثرة في العمادية، التي كانت أغلبية بيوتها مبنية بالحجر والجص، أما مواردها الزراعية فكانت قديما زراعة الكروم، وتحول أهلها إلى زراعة البساتين والحقول على الرغم من شح المياه في القرية إلا أن سكانها عمدوا لاستسقاء ماء الشرب من (رووا)، وهو اسم نبع ماء زلال وبارد يجري قرب القرية، كما اشتهرت القرية برحائها لطحن الحنطة ومشتقاتها مما أدى إلى انتعاش اقتصادها³.

إضافة الى تلك المزروعات فقد مارس المسيحيون في المناطق الجبلية شمال العراق، زراعة العنب، وقد اهتم الفلاحون بزراعته من أجل صنع أفضل أنواع الخمور في الشرق، أما في مجال زراعة الخضراوات فقد كانوا ينتجون البطيخ، والرقي، ومن الأشجار المثمرة الجوز، التين، التفاح، المشمش، الكرز، والرمان، وغيرها. كما زرعوا الذرة الصفراء، والقمح، والشعير، والذرة البيضاء، والعدس، والحمص، وفي الجبال كانت الزراعة بشكل رئيسي على مصاطب حيث كانوا ينقلون التربة إليها بواسطة الأكياس من الوديان وهنا كانت الأرض تفلح جيدا وتسمد بالأسمدة العضوية لذلك كانت المحاصيل كبيرة، فقد زرعوا الخضراوات كالبطيخ، والثوم، والبصل، والبطاطا، والخيار، وكذلك المحاصيل الصناعية والبنجر كالتبغ والقطن⁴.

3-توزيع بعض الزراعات على المناطق المسيحية: كان البنجر السكري من المحاصيل التي زرعها المسيحيون ولاسيما في قضائي تلكيف والحمدانية لذلك تأسس مصنع السكر في منتصف القرن العشرين بالموصل لقرىها من تلك المناطق، كما يزرعون أيضا (الجت) كعلف الحيوانات في قضاء الحمدانية لاشتهاره بتربية المواشي على نطاق واسع ولاسيما الأغنام التي تستعمل جلودها وأصوافها في الصناعات المحلية⁵، وتعد قرية هيش التابعة للعمادية واحدة من أبرز القرى المسيحية، إذ اهتم سكانها المسيحيون بزراعة الحنطة والرز

¹ أحمد المنشي البغدادي: المصدر السابق، ص 123.

² ق ب م بارمقي: المرجع السابق، ص ص 55-56.

³ يوسف توما: المرجع السابق، ص 77.

⁴ ق ب ت برمقي: المرجع السابق، ص ص 55-56.

⁵ ن م ش الجبوري: المرجع السابق، ص 119.

والسمسم والماش والذرة وينتشر فيها الجوز وأنواع الفاكهة والكروم وترعى في مروجها قطعان الأغنام، والماعز والأبقار¹.

عرف الفلاحون المسيحيون زراعة الفواكه ولاسيما الزيتون والعنب بنوعيه الأحمر والأخضر، والذي تكثر زراعته في قرية كرمليس، وكانت له شهرة خاصة آنذاك تحتل الصدارة في العنب، ويستعمل كمادة أولية في صناعة الخمر، وتعد قرية اينشكي في شمال العراق من أبرز القرى المسيحية، وهي مليئة بالبساتين، والكروم ومزارع الرز، وكان سكانها من المسيحيين غالبا ما يتعرضون إلى ضغوط شديدة من شيوخ الأكراد الذين كانوا يأخذون ربع محاصيلهم، كما كان أهل القرية يزاولون تربية الدواجن، والمواشي، إلى جانب استثمار الزيتون، وأصناف الفاكهة، وزراعة الحنطة، والشعير، والرز، وكان فيها سبع مطاحن تعمل بقوة الماء، وقد سعى أبناؤها إلى العيش بالاكثفاء الذاتي، فكانوا يستخرجون الصابون من زيت الزيتون وينتجون الزبيب والتين المجفف ويقايضون منتجاتهم بما يحتاجون إليه من ملابس وضرورات العيش.

4- تربية المواشي والدواجن :

تذكر المصادر التاريخية أن ثمة مورد آخر يعتمد عليه أبناء القرى المسيحية الشمالية إلى جانب الزراعة هو تربية المواشي بكل أنواعها الأبقار والأغنام والماعز للاستفادة من لحومها وحليبها²، وساعدهم على ذلك سفوح الجبال الغنية بالمراعي الطبيعية، وكثرة ينابيع وعيون المياه فضلا عن بعض الأنهار والجداول، هذه الظروف المناسبة أتاحت اقتناء ثروة حيوانية مريحة، فصاحب القطعان الكثيرة من الماشية غالبا ما يكون لها راع يرعاها مقابل أجر محدد من المال، كما كان البعض يقوم بتربية الأغنام للاستفادة منها تجاريا بعد أن يقوم بعلفها وتنظيفها لعدة أشهر حتى يزداد وزنها، ومن ثم يقوم بتسويقها إلى المدن لغرض بيعها بأضعاف سعرها الأصلي.

وقد كان بعض أفراد الطائفة أصحاب قطعان الماشية والأغنام يقومون بتنقلات منتظمة في فصلي الصيف والشتاء إلى المرتفعات والوديان والسهول، ففي فصل الصيف كانوا يتوجهون إلى المرتفعات الجبلية في أقصى الشمال من أجل رعي أغنامهم وفي نهاية الخريف يتوجهون إلى السهول الغنية بالعشب³، ويعد قضاء زاخو من أهم المناطق الزراعية التي ينتشر فيها المسيحيون، حيث يعد سهل السندي فيها بين جبل

¹ يوسف توما: المرجع السابق، ص 90.

² ق. ب. بارماتي: المرجع السابق، ص 56.

³ عصام ابراهيم محمد: طائفة الكلدان في العراق (دراسة انثروبولوجية)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2007، ص 114.

بيخير وجبال جياي الحدودية من أخصب سهول العراق التي يمر فيها نهر الخابور، ويقسم المدينة إلى قسمين ثم يعود ليتوحد فيها من جديد¹.

كما عرف مربو الماشية المسيحيون تربيتهم للخيول والبغال التي كانوا يستعملونها في كل شؤون حياتهم، وحتى لأغراض تجارية، كما ساعدت تضاريس المنطقة ومناخها على تربية النحل، والاهتمام بجمع وتعليب العسل فكانوا يسوقون منتجاتهم إلى مدينة وان² والموصل ومدن أخرى إضافة إلى تربية الدواجن التي لا يمكن الاستغناء عنها عند المزارعين.

يذكر أن نصارى العراق في المناطق الأخرى من العراق لم تكن الزراعة أولوية بالنسبة لهم لأنهم أثناء حركتهم من الشمال باتجاه الجنوب كان هدفهم العمل في قطاعات أخرى خاصة التجارة، وبعض الحرف في المدن، لكن تخبرنا المصادر التاريخية أن حركة شراء وتملك الأراضي الزراعية بالنسبة للمسيحيين واليهود شهدت تزايداً كبيراً خاصة في النصف الثاني من التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وهذا نظراً لظهور طبقة برجوازية جمعت ثروات طائلة من أنشطتها التجارية، واتجهت لشراء الأراضي والاستثمار في مجال الزراعة³، فقامت باستغلال تلك الأراضي وحولتها إلى حقول وبساتين، ومثال على ذلك نذكر نعوم سركيس في البصرة، الذي كانت له ملكيات زراعية كبيرة وقطعان للماشية⁴، وكان ابنه يعقوب لمدة أربعين عاماً يخرج كل عام إلى نواحي الشطرة والحي وقلعة سكر ليعيش أشهراً في الخيام متعهداً أملاكه وزراعته، فحازت هذه العائلة شهرة واسعة في هذا المجال⁵.

في الأخير نستنتج أن النشاط الزراعي كان أهم الأنشطة الاقتصادية لنصارى العراق رغم تراجعهم التدريجي منذ النصف الأول من القرن العشرين، كما نستنتج أن لهم مساهمة فعالة في الانتاج الوطني العراقي خلال فترة الدراسة، أما عن منتوجاتهم فقد تنوعت بين الحبوب والخضر والفواكه كما اشتغلوا في تربية الماشية. إضافة إلى ذلك نلاحظ أن الأثرياء من المسيحيين اتجهوا إلى تملك الأراضي الزراعية واستغلالها.

ثانياً: النشاط الصناعي للأقلية المسيحية في العراق:

مارس نصارى العراق أنشطة صناعية متعددة، وكما ذكرنا في الفصلين السابقين فهي امتداد للصناعات التقليدية التي عرفتها البلاد قبل التواجد العثماني ولأن الموصل تعد معقل النصارى التاريخي فقد

¹ يوسف توما: المرجع السابق، ص 31.

² وان: مدينة تركية تقع على الجهة الشرقية للأناتول، من أفضل القبلات السياحية التركية حالياً.

³ لمزيد من المعلومات أنظر: الفصل الأول، الجدول رقم 6، ص 134.

⁴ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج 1، ص 449.

⁵ مير بصري: أعلام الأدب في العراق الحديث، ج 1، ص 270.

قال عنها الرحالة البريطاني الشهير جاكسون في رحلته عام 1797م: «...وقد بدا على السكان أنهم أكثر اهتماما بالصناعة من أي قوم آخرين رأيتهم مذ غادرت الهند. فهناك عدة مصانع يجري تشغيلها وبعض مصنوعاتا تتفوق على المصنوعات الأوروبية فسروج الخيول وأحزماتها تظهر جد أنيقة بوجه خاص، وهم يصنعون سجاد الحرير ويطرزونه بالأزهار فيظهر أحسن وأمتن من السجاد الذي نصنعه نحن، وهم مميزون في صنع المطرقات الثمينة المدهشة للرجال وللنساء معا ولديهم العديد من مصانع الحديد والنحاس...»¹.

كما أشار الرحالة نيبور الذي زارها عام 1796م الى الصناعة في الموصل خصوصا عند النصارى فقال: «... وفي الموصل مصانع كثيرة للنسيج والحياكة، والصباغة وطباعة النقوش على المنسوجات، والمهنتان الأخيرتان بيد النصارى...»². وعن بغداد والبصرة فقد أشار نيبور الى مصانع الأرمن دون أن يفصل في نشاطها بقوله: «...وقد دفعت القلاقل والاضطرابات الداخلية في بلاد فارس عددا كبيرا من الأرمن للتزوح الى بغداد والبصرة وضواحيها، وأنشأوا معامل للصناعات المختلفة...»³.

ويمكننا القول عموما أن نصارى العراق المنتشرين في كل المناطق قد اشتغلوا بالحياكة والحدادة والدباغة⁴، فألموا بأطراف هذه الصناعات، وأتقنوا أحكامها وتفننوا في أساليبها، وتوسعوا في ضروب زخارفها، فقد نحت نجارهم الرماح والقسي والسهام لسلحهم، والهوارج لضعافهم والأوتاد لخييمهم، هذا فضلا عما نجروا من المنابر والمقاصير لكنائسهم وأديرتهم، وكانت الحدادة رائجة بينهم فبرعوا في صناعة الأبواب الحديدية، والسيوف والدروع والخوذ، والجواشن ونصل الرماح، وعالجوا صياغة الحلبي الذهبية والفضية وهم يرصعونها بالجواهر. وأما الحياكة فقد كانت شائعة بينهم، فنسجوا القز والكتان والصوف، وحاكوا البرود المصبغة والحلل المخططة، وكان القماش أحيانا موشى بالقصب أو مطرزا بخيوط الذهب، كما احترف مسيحيو العراق جانبا من الصناعات المحلية مثل النجارة والنسيج وصناعة المواد الغذائية والخمور وصناعة البارود والذخائر⁵، وقد أسهمت تلك الصناعات في سد جانب من الحاجة المحلية في العراق، وتصدير الفائض منها إلى الدول المجاورة.

¹ جاكسون: مشاهدات بريطاني عن العراق 1797م، تعريب خالد فاروق عمر، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2000م، ص 120.

² نيبور: المصدر السابق، ص 114.

³ نيبور: المصدر السابق، ص 45.

⁴ رفائيل بابو اسحاق: المرجع السابق، ص 135.

⁵ ق. ب. بارماتي: المرجع السابق، ص 56.

1- أبرز المهن والحرف التي زاولها المسيحيون خلال العهد العثماني:

أ- صناعة الفخار: هي واحدة من أهم الصناعات عند المسيحيين، وكان الآشوريون أول من استخدم هذه الصناعة ثم انتقلت إلى الأحفاد، علما أن أغلب من مارسها من النساء وليس للرجال يد فيها على الإطلاق¹، ومن أبرز الأواني الفخارية التي صنعها المسيحيون التحف، والكوز، والشربة، وأواني الطعام، وكانت تلك الأواني الفخارية تباع بأسعار جيدة إلى أبناء مدينة الموصل والقرى المجاورة حتى تطور الأمر إلى استيرادها من لدن تجار بغداد².

ب- الحياكة والصناعات النسيجية: تعد مهنة الحياكة من أقدم وأنفع المهن التي كانت تزاولها الكثير من العائلات المسيحية شمال العراق، وهي مهنة زاولها الإنسان منذ القدم، فكان الحائك ينسج من شعر الماعز وصوف الأغنام أقمشة جميلة يصبغها حسب الذوق أحيانا، وهي تتطلب الكثير من الفن والمهارة³، فهي تستقطب قطاعا كبيرا من العاملين على نطاق العائلة التي كان يشتغل بها معظم أفراد الأسرة من الذكور والإناث، كما كانت هناك أعمالا مكملة للحياكة كالخياطة والصياغة، إضافة إلى من يقوم بجلب نبات الكلخ من الجبل والذي يستخدم في عملية الأنسجة الصوفية المحاكاة محليا.

انحصر مجال انتاج الحياكة في القرى المسيحية على الملابس الرجالية كالشال والشبوك وأصواب أخرى، وكذلك الملابس النسائية مثل المئزر النسائي، والذي يكون على شكل المعطف وتلبسه المرأة فوق كل ملابسها، كما كان الحائك يقوم بإنتاج الخيم، وأكياس خزن ونقل الحبوب⁴، والبسط الصوفية، والمفروشات، والحقائب، والقبعات، بعض من قطع الزينة الملونة والمنقوشة ومن أشهر القرى في حياكة الثوب الأبيض نجد تلكيف التي اشتهرت به⁵.

ج- النجارة: هي إحدى الصناعات والحرف التي مارسها النصارى منذ القدم، لأن الحاجة إليها كانت في كل بيت وعمل، فالفلاح والحائك والتاجر ورجل الدين وغيرهم يحتاجون النجار ليعد لهم لوازم بيوتهم، وأدوات عملهم كالأبواب، والشبابيك، والتخوت، ومقاعد المدارس، وطاولاتها، ولوازم المطاعم وغيرها. وعلى الرغم من بساطة مهنة النجارة وسهولة تعلمها إلا أنها مهنة خطيرة تتطلب من صاحبها جهدا كبيرا وجرأة، فالنجار يجب عليه الذهاب إلى أعالي الجبال والغابات، والمكوث هناك عدة أيام لقطع الأخشاب، وتهيئتها ومن ثم جلبها إلى القرية حتى يتم استعمالها في أعمال النجارة، ولكن رغم ذلك كان الكثير من

¹ عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص 368.

² ن م ش الجبوري: المرجع السابق، ص 136.

³ سهيل قاشا: الموصل في القرن التاسع عشر (دراسة سياسية 1834-1909م) ص 185.

⁴ ق ب بارميتي: المرجع السابق، ص 57.

⁵ ميخائيل ججي بزي: بلدة تلكيف ماضيها وحاضرها، ط1، مطبعة الجمهورية، الموصل، 1969م، ص 71.

أهالي القرى المسيحية يمارسون هذه المهنة ويتفننون في زخرفتها بالنقوش الهندسية، والمسامير النحاسية ذات الشكل المهيّب، وتطورت آلات النجارة المستعملة بشكل كبير في القرن التاسع عشر بسبب الانفتاح عن أوروبا.

د-صناعة الطابوق: ازدهرت هذه الصناعة بشكل كبير أواخر العهد العثماني ومع ظهور الحكم الملكي في العراق رغم أن ظهورها كان منذ القدم لكن تطورها في هذه الفترة كان لافتاً بسبب الازدياد الكبير والتوسع في حركة البناء، والتشييد التي شهدتها العراق في تلك الحقبة، وقد كانت معظم معامل هذه الصناعة بيد المسيحيين، وقد تزامن تطورها مع ظهور طبقة برجوازية ليس فقط من المسيحيين بل من اليهود أيضاً، وقد شجعت عدة عوامل على تطور تلك الصناعة لدى المسيحيين وزيادة إنتاج الطابوق، منها تزايد الطلب، وتوفر المواد الأولية التي أهمها الطين الذي يعد المادة الأساسية.

هـ-صناعة البارود والذخيرة: بعد اكتشافه بدأ سكان القرى المسيحية في شمال العراق، يستخرجون الرصاص الذي تصنع منه القذائف، والكبريت الذي يستعمل في صناعة البارود¹، وقد كانوا يستعملونه لتفجير الأحجار الموجودة بكثرة في تلك المناطق، والتي استعملوها في تشييد بيوتهم، وكانوا يصدّرون كميات كبيرة من البارود إلى مدينة الموصل، وكان الخبير في تلك الصناعة يفحص التربة بلسانه فإذا كان مذاق التراب باردا ورطباً كان يستفيد منه، أما إذا كان مالحاً فهو لا يصلح لعمله، وتزايد نشاط هذه الصناعة أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فأصبحت تدر أموالاً طائلة على أصحابها².

و-الصناعات الغذائية: تعددت الصناعات المرتبطة بغذاء الإنسان عند نصارى العراق منها صناعات مشتقات الحليب والألبان وتعليب العسل لكن أكثر هذه الصناعات شهرة عندهم هي صناعة الراشي التي زاوها المسيحيون في بيوتهم، وعرفت قريتي تلكيف وبعشيقه بهذه الصناعة³، حيث يتم تنظيف السمسم ثم يقلّى ويدق في رحي خاصة، ويجلب تجار المواد الغذائية، وبعض الأهالي كميات من السمسم يوميا من مختلف أنحاء العراق لتحويله إلى راشي، يشترك جميع أفراد الأسرة في العمل، ولأن الراشي يعد مادة غذائية مهمة مع وجبات الطعام، ويزود الجسم بسرعات حرارية، كان من الأغذية المفضلة لدى المسيحيين، كما تباع منه كميات إلى مختلف مدن العراق والبلدان المجاورة، وهو ما جعل الكثير من النصارى ينشئون معامل لصناعة الراشي في باقي المدن العراقية خاصة بغداد.

¹ ق ب بارمقي: المرجع السابق، ص 57.

² ن م ش الجبوري: المرجع السابق، ص 134.

³ ميخائيل ججي بزي: المرجع السابق، ص 73.

ي- صناعة الخمر: المعروف أن الخمر مباح عند المسيحيين عامة وليس فقط مسيحيي العراق في حين أنها محرمة لدى باقي الأديان، لذلك يتحرج أتباع الأديان الأخرى من العمل في بيع الخمر، كما أن العرف الاجتماعي لم يشجع على ممارسة هذه الحرف من قبل غير المسيحيين في العراق، لذلك كانت هذه الحرفة مقتصرة على المسيحيين¹، ويعد شرب الخمر في حد ذاته ليس حراما عندهم، وقد يكون مرافقا مؤنسا وحافزا للألفة، وإنما الإفراط فيه محظور للنتائج التي يفرزها، فإذا قاد هذا الإفراط حتى السكر وكان ذلك سببا للخروج عن الوعي والإساءة إلى الآخرين أصبح أمرا مشينا وضارا، ثم دخل بعض المسلمين في مجال العمل في هذه الحرفة، وذلك بسبب تساهل العرف الاجتماعي، خاصة بعد أن أصبح الكثير من غير المسيحيين يقبلون على شرب الخمر، ولكن على الرغم من ذلك بقيت نسبة العاملين المسيحيين أعلى في هذه الحرفة، ويتسع حجم هذه الحرفة باتساع حجم المدينة، ولا نذكر تأثير هذه الحرفة على إستيظان المسيحيين في المدن واستقرارهم فيها².

ومن أبرز مناطق صنع الخمر نجد المناطق الشمالية³ والموصل⁴ وبغداد، أما عن أماكن بيعه في بغداد مثلا فهي الكرادة الشرقية، والمنصور، والمأمون لذلك نجد أن نسب المسيحيين مرتفعة في هذه المناطق، في حين نجد أن بقية نواحي بغداد محرم فيها بيع الخمر، لذلك نجد أن نسب المسيحيين منخفضة فيها مثلا قضاء الكاظمية محرم بيع الخمر في جميع أنحائه لكونه يضم مدينة إسلامية مقدسة، وكذلك انخفاض نسبة المسيحيين فيه.

2- عوامل ساعدت النصارى على الانخراط في مجال الصناعة: رغم أن المسيحيين كانوا عنصرا حيويا في مجال الصناعة عبر التاريخ إلا أن العهد العثماني تميز بعدة عوامل مستجدة ساعدت المسيحيين في زيادة دورهم حيث طور المسيحيون مهنتهم البدائية باستخدام المكائن والآلات الحديدية في ورشهم ومعاملهم الصغيرة، وذلك بعد التطور الذي شهده العراق، ومع مرور الوقت، وبعد انتقالهم إلى مدينة بغداد أصبحوا أصحاب المعامل، ومصانع الأجهزة الكهربائية، وأصحاب المحلات التجارية، وبمكنا تلخيص أهم تلك العوامل المساعدة في مايلي :

أ- حركة وهجرة السكان المسيحيين: ساعدت هجرة المسيحيين من القرى إلى المدن في احتكاكهم بغيرهم من الطوائف العراقية الأخرى في تعلمهم لصناعات، وحرف أخرى لم يزاووها من قبل بل وبرعوا فيها بشكل لافت مثل صناعة الطابوق على سبيل الذكر، كما أن المدن كبغداد والبصرة وغيرها توفر

¹ سهيل قاشا: الموصل في القرن التاسع عشر (دراسة سياسية 1834-1909م)، ص 183.

² صادق شامي: المسيحية والخمر، مجلة الفكر المسيحي، السنة الخامسة والعشرون، العدد 242، فبراير 1989، ص 51.

³ ق ب بارميتي: المرجع السابق، ص 56.

⁴ سهيل قاشا: الموصل في كتابات الرحالة الأجانب خلال الحكم التركي، ص 47.

الاحتكاك مع الصناع والحرفيين وتفتح أبواب المنافسة بينهم، وهو ما يصب في مصلحة الجميع الصناع والمستهلك.

ب- احتكاكهم بالأوروبيين: نظرا لعوامل معينة كوحدة الدين واتقان اللغات الأجنبية فان المسيحيين كانوا أكبر الطوائف احتكاكا بالأوروبيين، والاستفادة من خبراتهم في مجال الصناعة فتعلموا منهم، وساعد الأوروبيون بدورهم الطائفة المسيحية على اكتساب مهارات وخبرات في مجالات صناعية مختلفة، ووفروا لهم كل سبل النجاح.

ج- الخبرات الصناعية للمهاجرين الأرمن الى العراق: كما كان لهجرة المسيحيين للعراق من البلدان المجاورة دور كبير في جلب صناعات جديدة لم تكن معروفة¹، ومثال عن ذلك ما قام به مهاجر أرمني من حلب في بداية القرن التاسع عشر حين استقر ببغداد، وزاول صناعة الخبز الفرنجي المعمول بالفرن الذي لم يكن معروفا في العراق، وكان ولاية بغداد والقناصل الأجانب لا يشترون الا خبزه، ونقل مهارته وخبرته الى نصارى بغداد². وعليه فقد كان لهجرات الأرمن المختلفة الى العراق دور كبير في نقل خبراتهم الحرفية والصناعية في مجالات مختلفة الى العراق، ومن تلك المهجرات هجرتهم من ايران بسبب الاضطرابات الداخلية في القرن الثامن عشر التي أشار لها الرحالة نيبور، وهجرتهم أواخر القرن التاسع عشر من الأناطول وأرمينيا عقب الحرب مع العثمانيين، فاستقرار هؤلاء الأرمن بما يملكونه من خبرات سمح للمجتمع العراقي من الاستفادة منهم.

د- التطور الصناعي في العراق: رغم اختلاف الباحثين حول هذا التطور لكن بالمقارنة بالفترات السابقة من تاريخ العراق فان الصناعة شهدت تطورا ملحوظا، اذ أن البلاد اتجهت للتمدن والتحضر مثل باقي الدول، فزادت متطلبات المجتمع العراقي، وبدأت تنعكس حياة الرفاهية في أوروبا على المجتمعات العربية، ومنها المجتمع العراقي، فحرك ذلك الصناعة في مجال صناعة السفن، والتأثيث المنزلي، والأواني المستعملة، والصناعات الغذائية، واللباس وغيرها، فساعد ذلك في تحريك النشاط الصناعي والتجاري العراقي عموما، ولدى الطائفة المسيحية بطبيعة الحال.

تجدر بنا الإشارة الى أن كثير من شباب القرى والمناطق المسيحية قد عملوا في شركات الملاحة والبواخر حيث اعتمدت على شباب تلكيف وتلسقف وقوش، كما كما اشتغلوا في شركات المناجم التي انتشرت في

¹ عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص 367.

² سهيل قاشا: تاريخ نصارى العراق، ص 628.

مناطق مختلفة من اقليم كردستان ابتداء من نهاية القرن الثامن عشر التي تنشط في استخراج المعادن كالنحاس والحديد وغيرها، في وظائف متعددة ومختلفة¹.

في الأخير نستنتج أن نصارى العراق وان لم يسيطروا على قطاع الصناعة في البلاد الا أن مساهمتهم فيه كانت ملحوظة، وفي العديد من الصناعات المختلفة، لا سيما في القرن التاسع عشر، وأن الحرفيين والصناع كان أغلبهم من المناطق الشمالية، أما أصحاب المعامل والمصانع فكان أغلبهم من أرمن بغداد ومناطق أخرى².

ثالثاً: النشاط التجاري للمسيحيين:

تحدثت أغلب المصادر التاريخية التي تناولت دور المسيحيين في مجال التجارة على أن الدور الأبرز كان لطائفة الأرمن التي تميز أبنائها عن باقي الطوائف المسيحية الأخرى في هذا المجال³، كما أشار الرحالة الأجانب وقناصل الدول الأوروبية، من بينهم جان باتست روتسو قنصل فرنسا في بغداد الذي قال: « إن نصارى بغداد سواء كانوا كاثوليكاً أو غير كاثوليك يعيشون عيشة عديمة الرفاه وهم يتعاطون البيع والشراء الداخلي ويزاولون مهنة الطباعة على الأقمشة (البصم) وغيرها من المهن اليدوية، وأما العدد اليسير من التجار ذوي اليسر فيهم فمعظمهم أرمن من استانبول قد اغتنوا بمعاونة التجارة بالأحجار الكريمة والشال مع إيران والهند»، كما قال السائح الفرنسي بيتون دي تورنيفور: « ليسوا أسياد تجارة الشرق فحسب، بل لهم شطر وافر في تجارة أعظم مدن أوروبا ».

أشار أيضاً الرحالة الانكليزي جاكسون أن الأرمن هم الذين يتحكمون في الاقتصاد والتجارة في بغداد، وأن النحاس الذي كان يبعث من قبل التجار الأرمن من الموصل الى بغداد والبصرة كان من النوع نفسه الذي يجري صنعه في انكلترا، ويتحدث عن مشاهداته في المدينة بالقول: «وتوجد فيها سوق واسعة مزودة بمختلف أنواع المواد... والأرمن هنا يؤلفون التجار الرئيسيين والمعامل المستعملة في بغداد قليلة وهي محدودة.. ويبعث الأرمن الموجودون في الموصل عن طريق دجلة بكميات كبيرة من النحاس تنقل في أرمات من الأخشاب التي تشد إلى بعضها بعضاً ومتى وصل الرمث إلى بغداد يبعث أخشابه فيها لأنها جد نادرة هناك»⁴.

¹ ق ب بارميتي: المرجع السابق، ص 57.

² نيور: المصدر السابق، ص 45.

³ عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص 369.

⁴ جاكسون: المصدر السابق، ص ص 84-85.

1- أصناف التجار النصارى:

بحكم أن العراق مثل باقي البلدان يتكون من مدن وقرى، وقد مارس السكان القرويون وسكان المدن التجارة، وحتما تختلف خصائص كل منهما عن الآخر من حيث الكم والكيف، وعليه قسمنا التجار النصارى لصنفين هما:

أ- تجار القرى: اعتمد العديد من أبناء القرى المسيحية في معيشتهم على التجارة، وكانت التجارة المحلية تشتمل على بيع وشراء المواد المعيشية والبيئية والأدوات المهنية والزراعية ومواد البناء ومعدات المعامل الصغيرة الموجودة في القرى وغيرها. ومعظم تلك المواد كانت تعد في القرية أو القرى المتجاورة ومنها تشتري المدن المجاورة، أما التجارة بين القرى والمدن فكانت بالتبادل بين تجار القرى المسيحية وتجار الموصل أو بين تجار القرى وبغداد، أو أبناء العشائر الكردية الذين كانوا يجلبون الفواكه والحطب والفحم إلى القرى الكلدانية ويشتررون بأثمانها الحبوب والسكر والزيت والملابس القطنية والصوفية.

وقد كانت أنشطتهم التجارية بسيطة، إذ عملوا بمبدأ المقايضة مع فلاحي القرى الجبلية القريبة من مركز مدينة الموصل والأقضية التابعة لها، إذ كانت التجارة في أحيان معينة تعتمد على مبدأ المقايضة، حيث كان التاجر المسيحي يعطي بضاعته كالصابون والأواني المنزلية والملابس الصوفية مقابل الحصول على بضاعة يستوردها كالفاكهة والمكسرات وغيرها من المنتجات الزراعية¹.

ب- تجار المدن: كما ذكرنا سلفا فقد توافد الأرمن من اسطنبول وغيرها منذ بدء الربع الأخير من القرن الثامن عشر، بفعل الحراك الاقتصادي وقوة الأسواق الدولية التي ازدهرت بالعراق خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فأحكموا سيطرتهم على المجال التجاري وعلى أغلب المعامل²، نافسوا اليهود منافسة كبيرة وتغلبوا عليهم أحيانا، إلا أن الأرمن كانوا أكثر الطوائف المسيحية نجاحا فيه دون شك.

وكان النشاط التجاري للمسيحيين عموما بمختلف المواد والسلع الصناعية والتجارية إذ كانت الأسواق في المدن تعج بالدكاكين والمحلات التي تعرض مختلف البضائع والسلع، وهو ما خلق نوعا من المنافسة في الجودة والأسعار ومعاملة الزبائن، وقد برع التجار النصارى في هذا بشكل كبير خصوصا التجار الأرمن الذين يملكون تقاليد وثقافة كبيرة في هذا المجال مكنهم من التفوق على نظرائهم في أغلب المدن التي تواجدوا بها.

¹ ن م ش الجبوري: المرجع السابق، ص 103.

² جاكسون: المصدر السابق، ص 84.

والملاحظ عن تجار المدن تعدد أنشطتهم وتجارهم فهم يتعاملون مع تجار القرى، ومع تجار الاستيراد والتصدير، كما كانت لهم محلات قارة في المدن، وكان منهم أيضا تجار الاستيراد والتصدير، لذلك يمكن القول أنهم صنفان صنف ينشط في التجارة الداخلية والصنف الآخر ينشط في التجارة الخارجية.

3- النشاط التجاري في المدن العراقية: ازدهر النشاط التجاري في العراق خلال القرون الثلاثة الأخيرة للعهد العثماني في الموصل وبغداد والبصرة وباقي المناطق العراقية، وفي هذه المدن كان للمسيحيين دور بارز في هذا المجال نتاوله في مايلي:

أ- النشاط التجاري للمسيحيين في بغداد: كان نشاط نصارى بغداد التجاري يأتي بالدرجة الثانية بعد اليهود، حيث يؤلف الأرمن الأغلبية من النصارى التي تعمل في التجارة في ولاية بغداد حسبما يذكر ولستيد الذي زار بغداد في سنة 1830م، حيث روى «...إنهم عنصر مدبر لأمواره وغني في ثرواته، ولذلك يكون أشخاصهم وأموالهم محترمة، إلا في الأوقات التي يشتد فيها الاضطراب كثيرا»¹.

اشتغل التجار الأرمن في التجارة مستغلين كل مميزاتهم كحسن تعاملهم ولباقتهم، وتمتعهم بإدراك عالٍ ونشاط منقطع النظير في التأكد من طلبات الزبائن وتزويدهم بها²، كما أن الدولة العثمانية أيضا اعتمدت على البعض منهم في تعيينهم بالمناصب الرفيعة بمختلف الاختصاصات التي يتميزون بها عن غيرهم من أبناء الدولة العلية³.

ومن العائلات البغدادية التي اشتهرت في مجال التجارة نذكر عائلات آل مرادي، وآل هوفيال، وآل مراديان، أصحاب الثروات الكبيرة⁴، إضافة الى بيت جناس، بيت كزير خان، بيت يوسف جبرا، بيت جبره أصغر، بيت إلياس عيسى، بيت إسكندر، بيت حنا باشا.

ب- النشاط التجاري للمسيحيين في البصرة: لأن البصرة من أكثر المدن العراقية تطورا من الناحية التجارية في هذه الفترة لم يتأخر التجار النصارى للتواجد بها بل احتكر أرمن البصرة تجارة اللؤلؤ الصافي دون باقي التجار العراقيين من باقي الطوائف الأخرى، كما اشتغل بعض من الكاثوليك في الأعمال التجارية لكن بدرجة أقل من الأرمن.

¹ جيمس ريموند ولستيد: رحلتي الى بغداد في عهد الوالي داوود باشا، تعريب سليم طه التكريتي، ط1، مكتبة النهضة العربية، بغداد، 1984م، ص 94.

² جيمس بيلى فريزر: رحلة فريزر الى بغداد سنة 1834م تعريب جعفر الخياط، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2006م، ص 90.

³ جيمس ريموند ولستيد: المصدر السابق، ص 94.

⁴ عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص 369.

وقد لخص الرحالة بكنغهام عام 1816م حال التجار النصارى في المدينة بالقول: «... وجود عدد ليس بقليل من الأرمن، وهم نشطاء حال أرمن الإمبراطورية العثمانية، ومثقفون أذكاء نالوا ثقة الجميع جراء أعمالهم التجارية أو كوسطاء في التجارة، كما أنهم يتكلمون مختلف اللغات العربية والعثمانية والفارسية والانكليزية والبرتغالية والهندية، مما انعكس بطبيعة الحال على تحقيق فوائد كبيرة من جراء ذلك في نشاطهم التجاري، كذلك يوجد في المدينة عدد النصارى الكاثوليك لكنهم أقل من الأرمن، قدم بعض منهم من حلب وبغداد وقسم آخر منهم من سكان البصرة القدماء وجميعهم استقروا في المدينة من أجل ممارسة الأعمال التجارية¹».

ارتبط الأرمن ببريطانيا من خلال مؤسساتها الاقتصادية والتجارية فأصبحوا بذلك وكلاء للشركات البريطانية في الهند وأوروبا²، وكان الأرمن يسعون من جراء ذلك للحصول على الحماية البريطانية التي توفرها لهم قنصلياتها في العراق، وبذلك يستطيعون العمل بظروف أفضل، ويحافظون على أرواحهم وممتلكاتهم أثناء الاضطرابات التي قد تحدث بين القبائل والسلطة العثمانية. أما عن أشهر العائلات التجارية من المسيحيين في البصرة نذكر عائلة بغداد سار التي اشتهرت بتجارة الحبوب والتمور، كما سيطروا على مجال النقل النهري من البصرة الى كل من بغداد والموصل أواخر القرن التاسع عشر والعشرين.

ج- النشاط التجاري للمسيحيين في الموصل: مع ازدياد النشاط التجاري البريطاني في العراق أخذ التجار النصارى الذين كانوا يعملون مع الأسرة الجليلية في الارتباط مع النشاط التجاري البريطاني، ولاحقاً بالنشاط التجاري الأوروبي بشكل عام، حيث اعتمدت بريطانيا على بعض هذه العائلات المسيحية الموصلية من أمثال عائلة رسام التي تولى أحد أبنائها المسمى كرستيان رسام أول وكالة بريطانية فتحت بالموصل العام 1839م³.

هذا، وقد زاد عهد التنظيمات بما منحه من حرية أوسع للأقليات الدينية في جميع الجوانب خاصة الاقتصادية، من توسع ومساهمة بعض الأسر الأرمنية في النشاط الاقتصادي والتجاري في العراق بشكل ملموس، حيث لاحظ الرحالة البريطاني جون آشر الذي زار الموصل في العام 1864م اذ قال « إن معظم تجار الولاية من الأرمن الذين تفوقوا في هذا الجانب مما أدى بهم أن ينتشروا في سائر البلاد حتى في أبعد القرى وأوعرها مسلوكا⁴». ومن أشهر الأسر المسيحية الموصلية التي نالت شهرة واسعة في الموصل نذكر عائلة موسى شكر وعائلة بيؤون وعائلة رسام التي عرفت بروز دور تجاري للمرأة فاشتهرت منها السيدة

¹ جيمس بكنغهام: المصدر السابق، ج2، ص ص 269-270.

² الكسندر آداموف: المصدر السابق، ص 529.

³ غسان وليد مصطفى الجوّاري: المرجع السابق، ص 69.

⁴ جون آشر: مشاهدات جون آشر في العراق، ت: جعفر الخياط، مجلة سومر، م 21، ج 1-2، بغداد، 1965م، ص 94.

شفائي عبد الأحد رسام التي عملت بالاستيراد والتصدير، واعتمدت عن نفسها في سابقة في البلاد بشكل عام.

كما أن معظم البواخر التي أصبحت تمخر مياه دجلة والفرات والتي تعود لبريطانيا تعتمد في قيادتها على نصارى العراق، حيث أشار كوبر إلى أن قيادتها أنيطت بعدد من النصارى الكلدان الذين يستقرون بالقرب من الموصل¹. كذلك لم يقتصر النشاط التجاري لنصارى الموصل مع بريطانيا بل شمل العديد من الدول الأوروبية وخاصة فرنسا التي كان ارتباطها التجاري واسعاً معهم، بسبب الدور الذي كان لفرنسا في تحويل هؤلاء إلى المذهب الكاثوليكي بالاعتماد على الإرساليات الدومينيكانية².

ومن الجدير بالذكر أنه بازدياد الطلب الأجنبي على المواد الأولية في العراق بعد النصف الثاني من القرن التاسع عشر أصبح معظم التجار يعملون كوسطاء للشركات التجارية الخارجية العاملة في العراق، وأصبح للبيوتات التجارية المحلية المختلفة ولاسيما اليهودية والمسيحية وكالات في لندن ومرسيليا واصبحوا وسطاء بين التجار العراقيين وتجار الجملة في أوروبا.

4-تجار الاستيراد والتصدير (التجارة الخارجية): شهد العراق في القرن التاسع عشر ازدهاراً كبيراً

في حركة الاستيراد والتصدير خاصة بعد افتتاح قناة السويس 1869م، وانتشار شركات الملاحة والنقل البحري والنهري، إضافة الى دخول خدمة البرق الى العراق³. والأقليتين اليهودية والمسيحية كانتا أكثر فئات المجتمع العراقي انخراطاً واستفادة من هذا التطور وذلك راجع كما ذكرنا سلفاً لتفضيل الشركات التجارية الأجنبية لأبناء هاتين الأقليتين. فكان للتجار النصارى خاصة الأرمن شركات للاستيراد والتصدير حيث تقوم بتصدير معظم المنتجات العراقية كالمنتجات الزراعية الحنطة والشعير والأرز والعفص والتمور، وبعض منتجات الثروات الحيوانية كالأصواف وشعر الماعز والجلود والخيول وغيرها الى الأسواق العالمية كالهند وحلب وبلدان أوروبا خاصة مارسيليا ومانشستر، وكانت لهم مكاتب في هذه البلدان خاصة الأوروبية تسهل عمليات النقل والتوزيع.

أما البضائع التي كانوا يستوردونها فهي كثيرة ومتنوعة لا سيما مع تزايد الطلب في الأسواق العراقية على المنتجات الأوروبية ومن هذه المنتجات التي شارك التجار النصارى في استيرادها للأسواق العراقية من الهند وإيران وحلب والبلدان الأوروبية نذكر الألبسة والأحذية والتوابل والصابون والزجاج، والآلات الكهربائية

¹ ق ب بارمقي: المرجع السابق، ص 57.

² يوسف رزق الله غنيمه: تجارة العراق قديماً وحديثاً، ص 75.

³ علي الورددي: المرجع السابق، ص ص 241-242.

وبعض المكائن وغيرها¹. وبذلك استطاع التجار المسيحيون أن يجمعوا أموالاً طائلة، وأصبحوا من أثرياء البلاد بل وتعددت أنشطتهم واتجهوا إلى امتلاك العقارات، وإنشاء المعامل والمصانع وغيرها من الأنشطة.

5- النشاط المصرفي: سيطر على هذا النشاط يهود العراق فهيمنوا عليه هيمنة تامة لكن النصارى شاركهم في ذلك على فترات ومناطق معينة، ومن الأمثلة على ذلك اعتماد آل الجليلي (1726-1834م) في الموصل طوال فترة حكمهم على النصارى في كافة الشؤون المالية، مستثمرين في العلاقة الحميمة التي جمعت الطرفين، والنصارى بدورهم أثبتوا كفاءتهم وبراعتهم في هذا الجانب. كذلك لعب الأرمن في بغداد دوراً بارزاً في إدارة الشؤون المالية وفي القطاع المصرفي ونالوا ثقة السلطات العثمانية لفترات طويلة فكان أرمني من مدينة كركوك رئيساً للمصرفيين في نظارة المالية العثمانية في الاستانة كما تولى عدد من الأرمن منصب مفتش في البنك العثماني.

¹ الكسندر آداموف: المصدر السابق، ص 559.

المبحث السادس- الدور الثقافي والاجتماعي لنصارى العراق:

عرفت الأقلية المسيحية في العراق نهضة علمية وفكرية كبيرة في العهد العثماني خصوصا في القرنين الأخيرين، وقد ساهمت في ذلك عدة عوامل منها القوانين العثمانية التي سمحت بالحصول على التراخيص بانشاء المدارس والمطابع والكنائس وغيرها دون اشكال، وكذلك دور الارشاليات التبشيرية منذ منتصف القرن الثامن عشر في هذا المجال اذ ساهمت بشكل كبير في هذه النهضة الثقافية بأدوارها المختلفة كانشائها للعديد من المدارس¹، ونشاطها في الجوانب الاجتماعية كالطب وانشاء دور رعاية الأيتام وغيرها. أما مظاهر هذه النهضة فقد كانت متعددة بين التعليم والصحافة، والمسرح، والموسيقى وغيرها ونلخص أهم أدوار الأقلية المسيحية في الحياة الثقافية والاجتماعية فيما يلي:

أولا-المدارس والتعليم عند الطوائف المسيحية:

كان التعليم من أهم مظاهر النهضة العلمية لنصارى العراق وأحد أبرز أدوارهم في الحياة الثقافية العراقية حيث انتشرت مدارسهم في كل المناطق من الشمال الى الجنوب، وقد كانت متطورة من حيث مناهجها وكوادرها التربوية. وننوه الى أن المدارس المسيحية قسمين مدارس أسسها أبناء الطوائف المسيحية العراقية، ومدارس أجنبية أسستها الارشالات التبشيرية التي نشطت أواخر العهد العثماني في اطار مشروعها التبشيري الموجه للعراق²، وأهم تلك المدارس حسب الولايات هي:

1-المدارس المسيحية في ولاية الموصل:

تعد ولاية الموصل قبل وابان العهد العثماني حاضرة حقيقية لنصارى العراق، ومعقلا تاريخيا للديانة المسيحية في المشرق حيث تركزت فيها غالبية الطوائف المسيحية حتى العهد القريب لذا فقد كان تأسيس المدارس فيها منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر³، وفيما يلي نذكر أهم تلك المدارس:

أ-المدارس المسيحية الأهلية:

1)-مدارس السريان:

كانت الطائفة السريانية أولى الطوائف تأسيسا لمدارس التعليم الحديث في الموصل أي قبيل الكلدان واليعاقبة ، فقد أنشأ هؤلاء المدارس الخاصة بهم منذ سنة 1800م⁴، واستمروا في ذلك لفترات متفرقة

¹ سليمان الصايغ: المصدر السابق، ج1، ص 323.

² جميل موسى النجار: التعليم في العراق أواخر العهد العثماني (1869-1918م)، ص 253.

³ سهيل قاشا: الموصل في مذكرات الرحالة الأجانب، ص 43.

⁴ س.و.م، 1321هـ/1903م، ص 684.

ومتباعدة طوال القرن التاسع عشر حتى بلغ عددها في أواخر ذلك القرن عشر مدارس¹، أربع مدارس منها رشيديّة، والباقية ابتدائية. وقد أنشئت المدارس الرشيديّة هذه مع مدرسة ابتدائية واحدة في مدينة الموصل، أما المدارس الابتدائية الخمس الأخرى فكانت تتوزع في بعض مدن وقرى الولاية التي يقطنها السريان. ومن ناحية أخرى فإن ثلاث مدارس رشيديّة من تلك المدارس، ومدرسة ابتدائية واحدة قام بتأسيسها السريان الكاثوليك، أما بقية مدارس السريان فقد أنشئت من قبل الأرثوذكس².

وقد ضمت هذه المدارس أكبر عدد من المتدربين عام 1901م، وكانت أكبر مدرسة من حيث عدد الطلاب بالنسبة للدراسة الرشيديّة هي مدرسة الطاهرة المختلطة للسريان الكاثوليك التي بلغت 225 طالبا و350 طالبة، وأقل عدد في مدرسة مارتوما الرشيديّة للسريان الكاثوليك التي كان يدرس فيها 60 طالبا. وبالنسبة لطلاب مدارس الابتدائية فإن أكبر عدد لهم في تلك السنة كان موجودا في مدرسة مارتوما المختلطة للسريان الأرثوذكس التي احتوت 65 طالبا و70 طالبة، وأقل عدد في مدرسة الشاطية المختلطة للسريان الكاثوليك التي ضمت 30 طالبا و30 طالبة فقط³.

(2)-مدارس الكلدان:

كانت أول مدارس الكلدان الكاثوليك في الموصل عام 1805م، ثم أسسوا عددا آخر من المدارس في قرى ولاية الموصل، وفي مدنها الكبرى كمدينة كركوك والسليمانية وأربيل وكويسنجق ومار يوسف والقوش وتلكبف وبطناية وكرمليس وغيرها، وقد بلغ عدد مدارس الكلدان في أنحاء ولاية الموصل 17 مدرسة في سنة 1892م⁴، ثم ارتفع إلى 20 مدرسة أوائل القرن العشرين⁵، وكان من بين تلك المدارس عدد من المدارس الخاصة بالبنات.

وقد كان معدل عدد طلاب المدرسة الابتدائية أعلى في المدارس المختلطة تليها مدارس البنين ثم مدارس البنات، فقد كان معدل عدد طلاب المدارس المختلطة 61 طالبا وطالبة تقريبا في المدرسة الواحدة، وحوالي 40 طالبا في مدرسة البنين، و33 طالبة في مدرسة البنات⁶، وعن بعض إحصائيات عدد الطلاب

¹ Cuinet, op. cit., tome2 , p.781

² أسماء مدارس الكاثوليك هي: مارتوما والطاهرة والطاهرة المختلطة وجميعها مدارس رشيديّة، والشاطية الابتدائية المختلطة. أما مدارس الأرثوذكس فهي مارتوما المختلطة الرشيديّة، وخمس مدارس ابتدائية هي: الطاهرة المختلطة ومارتوما المختلطة وبعشيقه والقوش وباطناية، أنظر: Cuinet, op. cit., tome2 , p.781

³ س ن م ع، 1319هـ / 1901م، ص 918-919.

⁴ Cuinet, op. cit., tome 2, p.781.

⁵ س ن م ع، 1317هـ/1899م، ص ص 1414-1415. 1319هـ/1901م، ص ص 916-917. 1321هـ/1901م، ص 684.

⁶ جميل موسى النجار: التعليم في العراق أواخر العهد العثماني (1869-1918م)، ص 249.

نذكر أن العام 1903م بلغ عدد طلاب مدرسة القوش الاعدادية للرهبان 30 طالبا، و20 طالبا في مدرسة شمعون الصفا الاعدادية للرهبان، أما مدرسة شمعون الصفا الرشدية المختلطة فكان العدد 95 طالبا و45 طالبة.

وعن مدارس الكلدان التي بلغت 20 أوائل القرن العشرين فقد كانت 16 منها ابتدائية أما بقية مدارسهم التي شكلت أربع مدارس فقط فكانت اثنتان منها إعداديتان دينيتان، أنشئت إحدهما في مدينة الموصل وكانت مواد الدراسة فيها سنة 1862م الفلسفة، اللاهوت، الهندسة، الجبر، المنطق، النحو، الحساب، البيان، الجغرافية، اللغة العربية، وأسست الثانية في مدينة القوش القريبة من مركز الولاية وعدد طلابها العام 1903م 20 طالبا. أما المدرسة الثالثة فكانت مدرسة رشدية مختلطة، حيث تحولت سنة 1903م مدرسة شمعون الصفا الابتدائية للبنين في مدينة الموصل إلى مدرسة رشدية للبنين والبنات وبلغ عدد طلابها 95 طالبا و45 طالبة¹. والمدرسة الرابعة كانت مدرسة رشدية أيضا، وهي مدرسة الشمس روفائيل مازجي التي أسست سنة 1863م. أما باقي المدارس فتواجدت في القرى والمدن الأخرى كالسليمانية وكركوك ومار يوسف والقوش وتلكيف وبطناية وكرمليس وغيرها².

3-مدارس اليعاقبة

لم يزد عدد مدارس اليعاقبة في ولاية الموصل حتى أوائل القرن العشرين عن ثلاث مدارس كلها ابتدائية، وذلك على الرغم من أن نشاط اليعاقبة في هذا المجال كان متزامنا في بدايته مع الطوائف المسيحية الأخرى أوائل القرن التاسع عشر، اثنتان من المدارس الثلاث كانتا في مدينة الموصل، الأولى هي مدرسة مارتوما المختلطة، وقد ضمت سنة 1903م 30 طالبا و40 طالبة. أما الثانية فهي مدرسة الطاهرة، وكانت للبنين فقط وقد بلغ عدد طلابها في نفس السنة 60 طالبا، أما المدرسة الثالثة فقد أنشأ خارج مدينة الموصل في قرية باطناية، وكانت للبنين فقط وعدد طلابها سنة 1903م 20 طالبا³.

ب-مدارس الارساليات التنصيرية ولاية الموصل:

1أ-مدارس الارساليات الكاثوليكية:

-مدرسة الدومينيكان للآباء الايطاليين: تأسست عام 1840م على يد المبشرين الايطاليين، اشتمل منهاجها على العلوم الدينية، وبعد العام 1856م سلمت للفرنسيين.

¹ س ن م ع، 1321هـ/1903م، ص 684.

² جميل موسى النجار: التعليم في العراق أواخر العهد العثماني (1869-1918م)، ص 249.

³ س ن م ع، 1321هـ/1903م، ص 684.

- مدرسة الآباء الدومنيكان الرشدية المختلطة في مدينة الموصل: بدأت الإرسالية الدومنيكانية نشاطها بفتح عدد من المدارس في عام 1854م، من بينها هذه المدرسة¹، وهي مدرسة رشدية أما عدد طلابها فقد ارتفع إلى أكثر من خمسة أضعاف خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حيث كان سنة 1875م 122 طالبا وطالبة، ثم أصبح في سنة 1901م 630 طالبا وطالبة².
- مدرسة الآباء الدومنيكان الابتدائية المختلطة في مدينة الموصل: تأسست هذه للمدرسة سنة 1854م، وهي مدرسة ابتدائية مختلطة بلغ عدد طلابها وطالباتها 160 طالبة وطالبة سنة 1890م، ثم ارتفع إلى 381 طالبا و350 طالبة سنة 1903م³.
- معهد مار يوحنا الحبيب: هو معهد لاهوتي مختص في تكوين رجال الدين تأسس عام 1878م وضم في عام 1882م 29 طالبا⁴، ووصل العدد الى 53 عام 1888م.
- وإلى جانب هذه المدرسة قامت الإرسالية الدومنيكانية بتأسيس عدد آخر من المدارس الابتدائية في مركز الولاية، وفي أنحاء متفرقة منها:
- مدرسة البنات اليتيمات المسائية في مدينة الموصل أسست في سنة 1853م⁵: بلغ عدد طالباتها سنة 1882م 12 طالبة، ثم أصبح 15 طالبة سنة 1903م.
- المدرسة الابتدائية المختلطة في تكليف: بلغ عدد طلاب هذه المدرسة سنة 1903م 75 طالبا، ولم يزد عدد طالباتها في السنة نفسها على 15 طالبة.
- مدرسة القديس يعقوب الابتدائية في كرديا: عدد طلابها سنة 1903م 26 طالبا⁶.
- المدارس الابتدائية للبنين في كركوك وزاخو وعقرة وقرقوش أنشئوا سنة 1827م.
- مدرسة أخوات المحبة الابتدائية للبنات في مدينة الموصل: تأسست عام 1873م، وكان مجموع عدد طالباتها 234 طالبة عام 1882م منهن 30 طالبة مسلمة⁷.

¹ س ن م ع، 1317 هـ/1899م، ص 1417.

² س ن م ع، 1319 هـ/1901م، ص 919.

³ Cuinet, op. cit., tome 2, p781

⁴ سهيل فاشا: الموصل في مذكرات الرحالة الأجانب، ص 40.

⁵ رفائيل بابو اسحق: المرجع السابق، ص 144.

⁶ س ن م ع، 1321 هـ/1903م، ص 685.

⁷ جميل موسى النجار: التعليم في العراق خلال العهد العثماني الأخير (1869-1918م)، ص ص 280-281.

(2)-مدرستا البروتستانتية:

-مدرسة البروتستانت للبنين: أنشأت العام 1853م وعدد طلابها كان أكثر بقليل من أعداد مثلتها في بغداد، اذ تراوح عددهم في الفترة 1890-1903م بين 50 و 80 طالبا.

-مدرسة البروتستانت للبنات: وهي مدرسة ابتدائية¹ أعداد طالباتها التي تراوحت بين 37 و 40 طالبة في الفترة 1890-1903م، ومنهاج هذه المدارس مابق لمدارسهم ببغداد.

2-المدارس المسيحية في ولاية بغداد:

أ-المدارس الأهلية:

(1)-مدرسة الأرمن الأرثوذكس:

تعتبر هذه المدرسة من أقدم المدارس المسيحية في مدينة بغداد، اذ أنشئت حوالي عام 1790م كمدرسة ابتدائية ملحقة بكنيسة الأرمن الأرثوذكس،² ولكن انتظمت فيها الدراسة دون توقف منذ العام 1853م³، حين وسعت بناياتها، وخصصت الأموال من قبل أعيان طائفة الأرمن لضمان استمرارها في العمل. ونتيجة لذلك فقد تطورت المدرسة، وأصبحت الدراسة فيها منذ أوائل ثمانينيات القرن التاسع عشر بمستوى الدراسة الرشدية⁴، ومدتها أربع سنوات.

أما منهاجها فقد تكون عام 1882م من اللغة الأرمنية، اللغة التركية، اللغة الفارسية، اللغة العربية، اللغة الإنكليزية، اللغة الفرنسية، الصرف، النحو، الحساب، الجغرافية، التاريخ، الإملاء، الإنشاء، الخط، وقد أضيفت سنة 1905م إلى هذه المواد مادة الكيمياء⁵.

(2)-مدرسة السريان الكاثوليك المختلطة:

أسستها هذه الطائفة كمدرسة خاصة بها في بغداد سنة 1842م، واستمرت في عملها حتى أغلقت سنة 1878م حينما انضمت طائفة السريان الكاثوليك الى مدرسة الإتفاق الكاثوليكي الشرقية، وبعد توقف المدرسة الفتية سنة 1893م، استأنفت مدرسة السريان عملها في عام 1893-1894م باسم

¹ س ن م ع، 1321هـ/1903م، ص 684.

² Cuinet, op. cit., tome 3, p. 100.

³ رفائيل بابو اسحق: المرجع السابق، ص 144.

⁴ س ن م ع، 1316هـ/1898م، ص 970.

⁵ س و ب، 1323هـ/1905م، ص 112.

المدرسة الأفرامية الطائفية¹، وأجيزت من قبل الدولة في السنة نفسها، واعتبرت الدراسة فيها بمستوى الدراسة الرشدية².

3- مدرسة الكلدان الكاثوليك:

أنشأت طائفة الكلدان الكاثوليك مدرسة ملحقة بكنيستهم في بغداد سنة 1843م، ثم أصبحت رشدية في العام 1875م³. وتوقفت في العام 1878م بسبب مدرسة الاتفاق ثم عادت لتفتح أبوابها عام 1894م⁴، وقد تم توسيعها في العام 1897م⁵. أما عدد طلابها فكان العام سنة 1894م 103 طلاب، ارتفع ليصبح 183 طالبا سنة 1907م. كما أن عدد معلمي هذه المدرسة كان ثمانية معلمين في معظم تلك الفترة.

4- مدرسة الأرمن الأرثوذكس للبنات:

كانت أول مدرسة للبنات في بغداد، وأسست سنة 1853م، وكانت هذه المدرسة بمستوى المدارس الابتدائية، تقوم بالتدريس فيها حتى سنة 1898م معلمتان، وفي سنة 1899م أدخل تدريس اللغة الفرنسية ضمن مناهج الدراسة، وكان يقوم بتدريس هذه اللغة مدير مدرسة الأرمن للبنين⁶. وفي عام 1907م، أضيف درس علمي في (النقش والتطريز) إلى مواد الدراسة فيها، واستخدمت معلمة ثالثة لتدريسه، كما ارتفع عدد طالباتها في نفس العام إلى 70 طالبة بعد أن كان 45 طالبة سنة 1892م.

5- مدرسة الاتفاق الكاثوليكي الشرقية:

اتفقت الطوائف الكاثوليكية الثلاث الكلدانية والسريانية والأرمنية على تأسيس مدرسة مشتركة سنة 1878م⁷، وقد كانت بدايتها جيدة، وتقدمت في عملها خلال السنوات الأولى من تأسيسها، فكان عدد معلميها 12 معلما، وعدد طلابها في تلك السنة 221 طالبا سنة 1882م⁸. لكن شهدت مشاكل وصعوبات أدت إلى إغلاقها تماما عام 1893م⁹.

¹ جميل موسى النجار: التعليم في العراق خلال العهد العثماني الأخير (1869-1918م)، ص 240.

² س ن م ع، 1317هـ/1899م، ص 1071.

³ س ن م ع، 1316هـ/1898م، ص 970-971.

⁴ س و ب، 1312هـ/1894م، ص 174.

⁵ رفائيل بابو اسحق: المرجع السابق، ص 144.

⁶ س و ب، 1317هـ/1899م، ص 173.

⁷ عباس العزاوي: المصدر السابق، ج 8، ص 40.

⁸ س و ب، 1299هـ/1875م، ص 70.

⁹ رفائيل بابو اسحق: المرجع السابق، ص 143.

ب-مدارس الارساليات التنصيرية في بغداد:

أ)-مدارس الارساليات الكاثوليكية:

-مدرسة اللاتين للبنين (القديس يوسف): تأسست سنة 1734م¹، وكانت تضم المراحل الدراسية الثلاث: الابتدائية والرشدية والإعدادية، ومدة الدراسة فيها ثمان سنوات، وتوقفت شأنها شأن بقية مدارس اللاتين، عن العمل سنة 1906م²، بسبب سياسة التشدد التي اتبعتها الدولة العثمانية نحو المؤسسات والمصالح الأوروبية في تلك الفترة.

-مدرسة اللاتين الأولى للبنات: أنشئت سنة 1868م من قبل هنري ألتماير رئيس البعثة الكرملية في بغداد³، وهي أول مدرسة بنات تقوم بتأسيسها البعثات التبشيرية في ولايات العراق، عدد طالبات القسم الداخلي يتراوح بين 40 و 70 طالبة في الفترة 1890-1905م.

-مدرسة اللاتين للأطفال: أنشأ هذه المدرسة أيضا المونسنيور هنري ألتماير سنة 1875م، وضمت حوالي 400 طفل في كل سنة من السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر. -مدرسة اللاتين الثانية للبنات: تأسست سنة 1877م بتأسيس مدرسة أخرى للبنات في مدينة بغداد بعد أن وجدت أن هناك إقبالا متزايدا على مدرسة البنات الأولى⁴، وقد بلغ عدد طالباتها 300 طالبة في سنة 1898م، ثم ارتفع إلى 490 طالبة في عام 1905م⁵. -مدرسة اللاتين المختلطة للأطفال: تأسست عام 1875م من قبل هنري التايمر كذلك، وهي بمثابة روضة للأطفال الأقل من ست سنوات، ضمت بين (100 و 140) من الذكور وبين (164 و 300) من الاناث منذ تأسيسها حتى عام 1906م العام الذي توقفت فيه أغلب مدارس اللاتين عن النشاط.

ب)-مدرستا الارساليات البروتستانتية:

-مدرسة البروتستانت للبنين: أنشأت سنة 1896م⁶، وهي مدرسة رشدية بلغ عدد طلابها كان يتراوح بين 40 و 70 طالبا حتى سنة 1905م⁷.

¹ جميل موسى النجار: التعليم في العراق خلال العهد العثماني الأخير (1869-1918م)، ص 268.

² إن آخر ذكر لجميع مدارس اللاتين في (سالنامات) ولاية بغداد ورد في (سالنامه) 1323هـ، 1905م.

³ عبد الرزاق الهلالي: المرجع السابق، ص 202.

⁴ Cuinet, op. cit., tome 3, pp.103-10

⁵ أنظر: سالنامات ولاية بغداد الصادرة بين عامي 1891 و 1905، منها: س و ب، 1309هـ، ص 147. 1316هـ/1898م، ص 168. 1319هـ/1901م، ص 124. 1323هـ/1905م، ص 110.

⁶ س ن م ع، 1317هـ/1899م، ص 1071.

⁷ س و ب، 1316هـ/1898م، ص 170. 1317هـ/1899م، ص 250. 1323هـ/1905م، ص 113.

-مدرسة البروتستانت للبنات بعد سنتين من تأسيس مدرسة البنين قامت نفس الجمعية بتأسيس مدرسة للبنات بلغ عدد طالباتها بين 16 و 36 طالبة في الفترة 1898-1905¹م.

3-مدارس ولاية البصرة

اتفقت أغلب المصادر على خلو مدينة البصرة من المدارس الأهلية بسبب قلة عددهم هناك²، وحتى المدارس التي وجدت في العهد العثماني على قلتها كانت بمبادرات للارسلالات التبشيرية وفي هذا الصدد فقد أشارت سالنامه نظارة المعارف العمومية لعام 1903م إلى وجود مدرستين للارسلالات البروتستانتية ابتدائيتين للبنين والبنات في البصرة، وضمت مدرسة البنين 66 طالبا ومدرسة البنات 45 طالبة في نفس العام، ومدرستين في العمارة ضمت مدرسة البنين 44 طالب و 65 طالبة في مدرسة البنات. كما فتحت الارسلالات التبشيرية الفرنسية (الكاثوليكية) مدرستين هما مدرسة راهبات التقدم عام 1906م ومدرسة اللاتين للبنات بعدها بعام واحد³.

ثانيا-دور نصارى العراق في الصحافة والطباعة:

1-دورهم في مجال الطباعة:

رغم تأخر ظهور الطباعة في العراق مقارنة ببلاد الشام ومصر الا أن نصارى العراق كانوا أسبق من باقي مكونات المجتمع العراقي في هذا المجال فقد جلبوا أول مطبعة في عام 1856م⁴، والتي كان لها عظيم الأثر في نشر الثقافة⁵، وفي تنشيط المطبوع العربي الخاص بالمسيحيين بشكل خاص، وقد كانت كل المطابع المسيحية في العراق ابان العهد العثماني في الموصل أما بغداد فلم تكن بها أي مطبعة خاصة بهم طوال تلك الفترة، وفيما يلي نذكر أهم المطابع المسيحية خلال تلك الفترة:

أ- مطبعة الآباء الدومنيكان في الموصل: هي كما ذكرنا كانت أول مطبعة بالعراق أسسها الآباء الدومنيكان في محلة الأوس بمدينة الموصل عام 1856م، وكانت هذه المطبعة في بدايتها بدائية حجرية، تعمل بطريقة القوالب، وقد أثار عمل المطبعة تعجب ودهشة الأهالي آنذاك⁶. ولأن المطبعة الحجرية لا تفي بالغرض تم شراء مطبعة حديثة، وذلك بمساعدة القاصد الرسولي آنذاك المطران هنري المانتون الذي اشترى

¹ س و ب، 1316هـ 1898م، ص 170. 1317هـ/1899م، ص 250. 1323هـ/1905م، ص 113.

² فاضل بيات: المرجع السابق، ص 425.

³ جميل موسى النجار: التعليم في العراق خلال العهد العثماني الأخير (1869-1918م)، ص 268.

⁴ علي الوردي: المرجع السابق، ج 3، ص 276-277.

⁵ خليل صابات: تاريخ الطباعة في الشرق العربي، ط 1، دار المعارف، مصر، 1958م، ص 279.

⁶ بهنام سليم صباه: الآباء الدومنيكان في الموصل أخبارهم وخدماتهم (1750-2005م)، ط 1، الموصل، 2005م،

مطبعة ايطالية حديثة، فوصلها في أبريل 1860م، ثم نصبها مع أدواتها داخل الدير، أما المواد الأولية اللازمة للطباعة فكانت تستورد جميعها من أوروبا من ورق وحبر وكارتون.

وقد واجهت المطبعة صعوبات كثيرة خاصة تضيق السلطات العثمانية على عملها بسبب سياسة التتريك، ومحاولة الحد من الطباعة باللغة العربية¹، وفرضت عنها قيودا اضافة الى قلة مستلزمات الطبع من ورق وكارتون وحبر ورصاص في السوق المحلية، وقد كان لهذه العوامل دور في تأخير الطبع أحيانا ومنعه أحيانا أخرى. لكن مع بداية الحرب العالمية الأولى عام 1914م صادرتها السلطات التركية بدعوى تبعيتها لدولة معادية فرنسا، ولم تعد للعمل الا بعد انتهاء الحرب عام 1918م².

قامت هذه المطبعة أكثر من غيرها بطبع حوالي 293 كتاب متنوع منذ تأسيسها حتى اندلاع الحرب العالمية 1914م، منها باللغة العربية والكلدانية 151 كتاب، و99 كتاب باللغة السريانية، و33 كتاب باللغة الفرتسية واللاتينية، و10 كتب باللغة التركية³.

جدول 10: يبين عناوين وأسماء مؤلفين وسنة طبع بعض كتب مطبعة الآباء الدومنيكان⁴

عنوان الكتاب	اسم المؤلف	سنة الطبع
رياض درب الصليب	داود يوسف الموصللي	1861م
الالباب في حقائق الآداب	داود يوسف الموصللي	1863م
مبادئ التهجئة لتدريس الصبيان	داود يوسف الموصللي	1862م
فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء	لابن عريشاه	1869م
أحسن الأساليب لإنشاء الصكوك والمكاتيب	نعوم فتح الله سحرار	1878م
خلاصة في أصول النحو	داود يوسف الموصللي	1859م
ذخيرة الأذهان في تاريخ المشاركة والمغاربة السريان ج 1	بطرس نصري	1905م

¹ سهيل قاشا: مطبعة الآباء الدومنيكان في الموصل وتراثها الثقافي 1858-1914م، مجلة بين النهرين، العدد 17، بغداد، 1977م، ص 57.

² بهنام سليم حبابة: المرجع السابق، ص 90.

³ سهيل قاشا: مطبعة الآباء الدومنيكان في الموصل وتراثها الثقافي 1858-1914م، ص 70.

⁴ هيثم محي طالب الجبوري: النشاطات الثقافية للمكون المسيحي في العراق من أواخر القرن 19 حتى العام 1939م، مجلة جلمعة مركز بابل للدراسات الانسانية، المجلد 5، العدد 2، 2015م، ص 76.

ب-المطبعة الكلدانية في الموصل:

تأسست هذه المطبعة في سنة 1864م على يد الشماس روفائيل مازجي الآمدي¹، وأحضر عتاها من باريس وكانت المطبعة مجهزة بحروف كلدانية وعربية ولاتينية وفرنسية ومسبك للحروف، وكان عمالها قد تعلموا الطباعة في مطبعة الآباء الدومنيكان وأتقنوه، وكان أول عمل المطبعة أنها شرعت بطبع كتاب "المزامير"، وهو من الكتب الدينية، غير أن المطبعة توقفت بعد وفاة الشماس روفائيل في عام 1866م بوباء الكوليرا²، لتعود للعمل عام 1869م على يد المطران مار كوركيس عيد يشوع خياط ليكمل ما بدأه المازجي، وقد طبع مجموعة من الكتب المدرسية لفائدة الطلاب، وبعد وفاته سنة 1899م أهملت المطبعة وصار نشاطها محدود، إلا أنها نشرت بعض الكراريس والمقالات وغيرها، لكن تراجع نشاطها بعد وفاة مديرها العام 1899م بشكل ملحوظ، ثم توقفت كلياً خلال فترة الحرب العالمية الأولى، ولم تعاود نشاطها إلا في العام 1928م.

ج-مطبعة السريان اليعاقبة في الموصل:

شاركت طائفة السريان اليعاقبة في النشاط المطبعي حيث أسست الطائفة مطبعة خاصة بهم بمساعدة الانكليز في دير الزعفران شرقي الموصل في سنة 1887م، ولم تصدر تلك المطبعة مطبوعات كثير سوى بعض الكتب الدينية بالسريانية، ولقلة دراية رهبان الدير بالفن المطبعي اضطروا أن يبيعوها ثلاث سنوات إلى الحكومة التي نقلتها إلى ديار بكر³.

2-الدور المسيحي في الصحافة العراقية:

قبل ظهور الصحف والمجلات العراقية ننوه الى انخراط صحفيين مسيحيين في صحف وجرائد عراقية منذ ميلاد الصحافة في العراق عام 1869م بصدر جريدة الزوراء في بغداد، وقد كان للمسيحيين دور بارز في هذا المجال خاصة اصدار المجلات، والتي تنافست فيها الطوائف المسيحية للتعريف بتاريخها وحاضرها ونذكر فيما يلي نبرز أهم المجلات والجرائد المسيحية آنذاك حسب تسلسلها الزمني:

¹ رفايل بطي: تاريخ الطباعة العراقية، المطبعة الكلدانية، مجلة لغة العرب، مجلد 5، ج5، سبتمبر 1926م، ص ص 271-271.

² خليل صابات: المرجع السابق، ص283.

³ هيثم محيي طالب الجبوري: المرجع السابق، ص 76.

أ-مجلة إكليل الورود: كانت هذه المجلة امتداداً لعمل الآباء الدومنيكان في مدينة الموصل¹، وقد قاموا بتأسيسها في ديسمبر عام 1902م²، وقد كانت مجلة دينية شهرية، تصدر في عشرين صفحة تتغير في بعض الأحيان، لتصل أحياناً لـ 28 صفحة. وتعد أول مجلة تصدر في تاريخ العراق، صدر العدد الأول منها باللغة العربية، وكان اهتمامها منصباً في معظم موضوعاتها على الوردية³ ومريم العذراء وسيرة بعض القديسين وقد جاء في عددها الأول في مجال التعريف بها (مجلة دينية علمية شهرية أصحاب الامتياز الآباء الدومنيكان).

يذكر أن المقالات التي تحتويها لم تعرف بأسماء كتابها وربما يعود ذلك لاعتمادها على موضوعات مترجمة، وقد صدر منها منذ تأسيسها عام 1902م⁴، وحتى احتجاجها سنة 1909م 96 عدداً، ومن بين محرري المقالات المحجوبة أسماءهم نذكر: القس عبد الواحد جرجي، الأب هيانست الدومنيكي، الأب باسل بشوري، القس يوسف غنيمه، القس جبرائيل قرياقوزا، سليم حسون، أديب فرج الله كسبو، وغيرهم⁵.

صدرت المجلة باللغة العربية الى غاية منتصف سنة 1904م حين قرر الأب دوميني المسؤول عن مطبعة الآباء الدومنيكان إصدار المجلة باللغة الكلدانية، وذلك لانتشار هذه اللغة بين المسيحيين القاطنين في القرى والمدن المجاورة للموصل، وكانت مقالاتها تختلف عن الطبعة العربية وليس ترجمة لها، وقد تولى القس حنا قريو الذي أصبح فيما بعد مطراناً على العمادية مهمة الإشراف عليها⁶، وافتتح عددها الأول رسالة القاصد الرسولي مطران بغداد على اللاتين يوحنا درور الكرمل، ورسالة البطريرك الكلداني مار يوسف عمانوئيل الثاني بطريرك بابل على الكلدان، يرحبان بهذا الإصدار الجديد في طبعتها الكلدانية⁷.

¹ سالم شماس: **المجلات المسيحية في العراق**، مجلة الفكر المسيحي، العدد 127، السنة 13، بغداد، 1977م، ص 301.

² عبد الرزاق الحسني: **الصحافة العراقية في ربع قرن 1908-1933م**، مطبعة دار الجمهورية، بغداد، 1969م، ص 3.

³ الوردية المقدسة: هي مسبحة يستعملها النصارى متكونة من 150 خرزة مقسمة إلى ثلاثة أقسام كل قسم متكون من خمسين خرزة مقسمة إلى خمسة أقسام كل قسم عشرة خرزات تتقدمها خرزة واحدة هذه الخرزة يتلى عندها (صلاة أبانا الذي في السماوات) وأما الخرزات الأخرى فيتكون عندها السلام الملائكي (السلام لك يامريم)، ولقد ظهرت منذ القرن الثالث عشر الميلادي في أوروبا ثم تطورت تدريجياً حتى دخلت إلى بلادنا الشرقية.

⁴ علي الوردي: **المرجع السابق**، ج 3، ص 276-277.

⁵ حيدر جاسم عبد عبيس رويحي: **الآباء الدومنيكان في الموصل**، دراسة في نشاطاتهم الطبية والثقافية والاجتماعية 1750-1974، (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية التربية، جامعة الموصل، 2001م، ص 68.

⁶ سالم شماس: **المرجع السابق**، ص 301.

⁷ هيثم محيي طالب الجبوري: **المرجع السابق**، ص 64.

يذكر أن هذه المجلة أضافت نسخة أخرى باللغة الفرنسية ابتداء من يناير عام 1906م، وقد ورد في مقدمة عددها الأول أن هذه الطبعة جاءت تلبيةً لرغبة الكثيرين من الذين يتكلمون بالفرنسية " للمحافظة على المعلومات التي اكتسبوها في المدارس فتجعلهم على اتصال بالأخبار الدينية والأفكار اللاهوتية والفلسفية والمسائل التاريخية والسياسية والعلمية التي تطرأ في العالم وفي الأوساط العلمية وتطلب من القراء إتخافها بالمقالات"¹. واستمرت النسخة الفرنسية بالصدور حتى احتجاجها سنة 1910م². وقد تميزت النسخة الفرنسية عن النسختين العربية والكلدانية بكثرة أخبارها وتنوع موادها وتعدد كتابها ووفرة اقتباساتها الجيدة ولو أن السنة الأولى حافظت على كتمان أسماء محرريها تقليداً لشقيقتها، وصدر منها 400 عدد حتى احتجاجها سنة 1910م³.

ب-مجلة زهيرة بغداد:

تعتبر أول مجلة مسيحية تصدر ببغداد وأصدرها الآباء الدومينيكان حيث ظهر العدد الأول منها في 25 مارس 1905م⁴، وتعد ثاني مجلة مسيحية في العراق بعد اكليل الورد، وهي مجلة دينية استمرت بالصدور سنة واحدة ثم توقفت عن الصدور، ولم تظهر بعد ذلك اطلاقاً، وكانت تطبع بطريقة الجلاتين، وهي من القطع الصغيرة قليلة الصفحات⁵.

ج-مجلة العمل والإيمان:

هي ثاني مجلة مسيحية ببغداد والثالثة بالعراق، وهي مجلة شهرية تصدرها كلية القديس يوسف للآباء الكرمليين في بغداد، صدر عددها الأول في 8 أوت 1905م، واستمرت بالصدور حتى 8 جوان 1906م أي لمدة أقل من سنة، وكانت تصدر باللغة الفرنسية وعنوانها (Travail et foi) وتعني العمل والإيمان⁶، وكانت تطبع بطريقة الجلاتين أيضاً، وسبب ذلك يعود الى عدم وجود مطبعة مسيحية ببغداد قبل عام 1922م.

د-جريدة صدى بابل:

تعد جريدة صدى بابل أول جريدة عراقية قامت بترجمة الأدب الغربي ونشرته على صفحاتها، فكانت الرائدة في هذا المجال، وقد صدر عددها الأول من في 13 أوت 1909م، بأربع صفحات بالحجم المتوسط

¹ سالم شماس: المرجع السابق، ص 301.

² حيدر جاسم عبد عيس رويحي: المرجع السابق، ص 170.

³ بهنام سليم حبابه: المرجع السابق، ص 164.

⁴ علي الوردي: المرجع السابق، ج 3، ص 248.

⁵ عبد الرزاق الحسني: تاريخ الصحافة العراقية، ص ص 240-245.

⁶ علي الوردي: المرجع السابق، ج 3، ص 248.

وتشمل كل صفحة على ثلاثة أعمدة طويلة، وقد تولى إدارتها يوسف رزق الله غنيمه، أما المسؤول عنها فهو داود صليبا، وقد لعبت الجريدة دورا كبيرا في توعية المجتمع العراقي وحثه لتكوين المنظمات والجمعيات التي أغفلها زمناً طويلاً فقد كانت تعقد المقارنات الكثيرة على صفحاتها بين الشرق والغرب¹، وقد جاء بدبياجتها في عددها الأول (هذه جريدتنا صدى بابل نرفها إلى إخواننا الكرام ومواطنينا الفخام، بل نوقفها على قدم خدمتهم، في سبيل العلوم، والفنون والآداب، فضلاً عما تجلو لحضراتهم عرائس الأفكار منصة البيان... وستكون دليلاً يرشد إلى نهج الفضل والفضيلة في كل ناد، فتصبح جليس وألطف أنيس)². وقد استمرت جريدة صدى بابل تصدر بانتظام مدة ست سنوات متواصلة حتى احتجبت في 8 فبراير 1914م بعد إصدار حكومة الاتحاديين قراراً منعت فيه الحرية بسبب قيام الحرب العالمية الأولى.

هـ-مجلة لغة العرب:

صدر العدد الأول منها في جويلية 1911م جاء فيه (ان الغاية من إنشائها ان تعرف العراق وأهله ومشاهيره بمن جاورنا من سكان الديار الشرقية، وبمن نأى عنا من العلماء والباحثين والمستشرقين في الأقطار الغربية، في الوقت نفسه تعريف المثقفين العراقيين بالبحوث والدراسات التي تصدر في أوروبا وغيرها)³. أصدرها في بغداد الآباء الكرمليون⁴ لصاحبها انستانس ماري الكرمل، وهي مجلة أدبية علمية شهرية حيث تعد من أوائل ما عرفه العراقيون من الصحف، كما لها قاعدة من القراء في العراق وحتى في الأقطار العربية الأخرى، بل أنه قراء من كل دول العالم المختلفة، ويعود ذلك لمكانى وحرفية كتاب المقالات الذين كانوا من أبرز الشخصيات الثقافية في تلك الحقبة.

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى سارع الاتحاديون إلى نفي الأب انستانس الكرمل إلى مدينة قيصري في الأناضول، وإغلاق المجلة، بعد أن أتمت سنتها الثالثة، وصدر جزءان من السنة الرابعة، ولما عاد الكرمل من منفاه إلى العراق عام 1916م، لم تعاود المجلة الصدور الا في جويلية سنة 1926م، وهو الشهر نفسه الذي صدرت فيه لأول مرة.

ومما تميزت به هذه الصحيفة عن غيرها من الصحف كونها شكلت جسراً ثقافياً لكل ما ينشر في الغرب، ونقله لقرائها في العراق والبلاد العربية، كما حرصت على التمسك ما له صلة باللغة العربية، وبالتراث العراقي فتجد فيها مقالات عما يستعمله أهل الحرف والمهن في العراق من أدوات وآلات وعن

¹ هيثم محيي طالب الجبوري: المرجع السابق، ص 65.

² حارث يوسف غنيمه: السياسي الأديب يوسف غنيمه 1885-1950 من أركان النهضة العلمية في العراق الحديث، حياته- آثاره- عصره، ط1، دار الحرية، بغداد، 1990، ص 238-239.

³ كريم العزاوي: الأب انستانس الكرمل، مجلة مسارات، السنة 5، العدد 14، بغداد، 2010م، ص 52.

⁴ علي الوردي: المرجع السابق، ج3، ص 248.

البيئة العراقية، واهتمت بالتعريف بالأعيان والشخصيات العراقية، وبالحواضر العراقية القديمة والحديثة، إضافة الى عديد المواضيع المختلفة¹.

ثالثاً- دور المسيحيين في الفنون والآداب:

1- دورهم في نشأة المسرح العراقي:

انطلقت بداية التمثيل المسرحي في العراق الحديث في مدينة الموصل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بسبب قربها من الدولة العثمانية والشام، وكثرة الطوائف المسيحية فيها، وازدياد نشاطهم الفني والثقافي²، وتؤكد الدراسات المتخصصة بتاريخ المسرح العراقي، على ان الآباء المسيحيون، وقدامى المعلمين في المدارس الملحقة بالكنائس، كانوا من أوائل من ألفوا وترجموا الأعمال المسرحية الكوميديّة والدرامية باللغة العربية، ثم مثلوها على مساح الكنائس والمدارس، ومن ثم ادخلوا هذا الفن الجديد إلى العراق³.

وعليه يمكن القول أن نصارى العراق كانوا السابقين في مجال الفن المسرحي، ويعود الفضل في ذلك إلى أساليب الثقافة والتعليم، التي كانت تنشرها البعثات التبشيرية والجمعيات والمدارس المسيحية من تعلم للغات الأجنبية كالفرنسية والايطالية والانكليزية والألمانية، وكما أشرنا سلفاً أن هذه المدارس ترسل بعض طلابها المتفوقين إلى أوروبا للدراسة هناك ثم يعودون للتدريس في المدارس المسيحية⁴، ما مكنهم من الاحتكاك بالأوروبيين وتعلم هذا الفن ومن ثم نقله الى العراق، وكانت بدايات التمثيل المسرحي في المدارس كمدرسة المقاصد الرسولي، المدرسة الاكليدكية للآباء الدومنيكان، ومدرسة شمعون الصفا، وجميعها في الموصل، كما عرفت بغداد أيضاً وجود مدارس مسيحية كانت تمارس نشاطاً مسرحياً، مثل مدرسة الصنائع⁵.

لقد كانت عناية القساوسة النصارى بالمسرح، وعملهم على خلق حركة مسرحية في نطاق مدارسهم سببه الرئيس هو تقوية الروح الدينية والأخلاقية لدى الطلاب، فاستمدوا أحداث مسرحياتهم من العهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل) لغرس التعاليم المسيحية في النفوس⁶، وقد أشرف الآباء والرهبان الذين كانوا يذهبون للدراسة في روما وباريس في بعثات كنسية رسمية على هذا النشاط المسرحي، لكن

¹ هيثم محيي طالب الجبوري: المرجع السابق، ص 65.

² عمر محمد الطالب: المسرحية العربية في العراق، ج2، منشورات مكتبة الأندلس، النجف، 1971م، ص5.

³ سهيل قاشا: مسيحو العراق، ص345.

⁴ حيدر جاسم عبد عبيس الرويعي: المرجع السابق، ص180.

⁵ أحمد فياض المفرجي: الحياة المسرحية في العراق، بغداد، 1988م، ص17.

⁶ علي الوردي: المرجع السابق، ج3، ص255.

الفضل الأكبر في ظهور المسرح العراقي يعود لشخصين أحدهما أبدع في تأليف المسرحيات والآخر في ترجمتها وهما :

أ- **حنا حبش (1820-1882م):** ولد في قرقوش ودخل سلك الرهينة منذ طفولته وتدرج حتى أصبح قساً في الكنيسة الكلدانية في الموصل وزاخو، وقد أجمع المهتمون أن مسرحياته الثلاث المطبوعة في بيروت (كوميديا آدم وحواء) و(يوسف الحسن) و(كوميديا طوبيا) هي أولى المسرحيات العربية المكتوبة في العراق، والتي عثر عليها عام 1966م، وقد ختمت بختم بشير إلى سنة 1880م¹، وكانت هذه المسرحيات الدينية مترجمة أو مقتبسة من المسرحيات الدينية الفرنسية أو الانكليزية التي حملت الأسماء نفسها، وموضوعاتها استخرجها المؤلف من الكتاب المقدس²، وقد مثلت مسرحيات حنا حبش الثلاث البدايات الحقيقية أو حجر الأساس لتشييد صرح مسرحي عراقي، ثم توالى المسرحيات التي ألفها القساوسة العراقيون والمعلمون في المدارس التبشيرية منذ ذلك التاريخ، فظهرت مسرحية (نبوخذ نصر) سنة 1888م، التي ألفها الخوري هرمزو نرسو الكلداني المارديني، وطبعت في مطبعة الآباء الدومنيكان في بيروت سنة 1888م، ومثلت على مسرح المدرسة الأكليزية في الموصل سنة 1889م³.

ب- **نعوم فتح الله سحار:** اضافة الى ماكتبه المسيحيون من مسرحيات فقد اتجه بعضهم لاقتباس وترجمة المسرحيات الأوروبية خاصة الفرنسية والإنكليزية، وقد برع في هذا المجال الكاتب الكبير نعوم فتح الله سحار، وكانت باكورة أعماله (لطيف وخوشبا) عام 1893م⁴ عندما ترجم المسرحية الفرنسية (Fanfin at colos) للكاتب الفرنسي الكسندر ليوس بتراند (Alexnders Louis Betrand) الذي كان يكتبها تحت الاسم المستعار الشهير مدام دي بيفوار، وكان مضمون الرواية يدور حول مشكلة التمييز الاجتماعي أو الطبقي غير العادل، وكشفت عن تدمير الطبقة المستغلة وشروعها بالتمرد من أجل كرامتها⁵، وقد استعار سحار لها جواً عراقياً وشخصاً عراقياً وحواراً عامياً موصلياً، وسماها مسرحية (لطيف وخوشبا)، وكانت هذه المسرحية الرائدة حدثاً أدبياً مهماً في تاريخ المسرحية العربية في العراق، كما ترجم سحار مسرحيات أخرى عن الفرنسية منها مسرحية (الأمير الأسير) التي مثلت هذه المسرحية على مسرح الآباء الدومنيكان في الموصل سنة 1895م.

¹ أحمد فياض المبرجي: المرجع السابق، ص 15.

² عمر محمد الطالب: المرجع السابق، ص 9.

³ علي الوردي: المرجع السابق، ج3، ص 255.

⁴ علي الزبيدي: المسرحية العربية في العراق، ط1، ب د ن، 1967م، ص ص 56-57.

⁵ حيدر جاسم عبد عبيس الرويعي: المرجع السابق، ص 183.

بعد الخطوات الأولى للمسرح العراقي ظهر ما يعرف بالمسرح الغنائي الذي برع فيه اسكندر زغبى، إذ قدم مسرحيات شعبية غنائية أشبه بما يعرف عند الغربيين بالأوبريت، ويغلب عليه الزجل، ولكن العامة والركاكة كانتا حائلين قويين دون إدخاله في التراث الأدبي العراقي الحديث، وقد مثلت مسرحياته على مسارح المدارس المسيحية الأهلية في الموصل سنة 1895م، وقد فقد أكثر هذه المسرحيات ولم يبق منها إلا عدد من المسرحيات القصيرة، والتي منها: (بزونتي)، (البناء)، (بيالي وزوجها) وقد استخدم فيها جميعاً اللهجة الموصلية الدارجة، ومن مسرحيات زغبى المشهورة (الخردة فروشي) بائع الخردوات التي مثلت على مسرح الآباء الدومنيكان سنة 1905م. كما ظهرت في مطلع القرن العشرين مسرحيات للمعلم سليم حسون¹ إذ قدم مسرحيتا (استشهاد ترسيوس) عام 1904م، و(شعو) عام 1905م، اللتان قدمتا على مسرح مدرسة مار عبد الواحد في الموصل، وفيهما يصور المؤلف أيضاً كمسرحياته السابقة ما لاقاه دعاة المسيحية من اضطهاد على أيدي الرومان².

رغم التطور الكبير الذي عرفه المسرح في الموصل إلا أن بغداد تأخرت كثيراً إذ لم تشهد نشاطاً مسرحياً متميزاً إلا مع بداية القرن العشرين، حين كان طلاب مدرسة الكلدان ومعلموها في بغداد مركزاً للنشاط الفني المسرحي، فظهرت مسرحية (شهيد الدستور مدحت باشا) عام 1908م³، ومثلت على مسرح مدرسة السريان الكاثوليك، وهي مترجمة عن التركية وتدور أحداثها حول سجن مدحت باشا وقتله، وأيضاً قدمت المدرسة الكاثوليكية مسرحية (سليسترا) أو (الوطن) عام 1908م⁴، التي ترجمت عن التركية للشاعر نامق كمال ترجمها إلى العربية محي الدين خياط في بيروت وظهر عدد من المسرحيات الأخرى المترجمة عن الفرنسية أو الإنكليزية مثلت مثل مسرحية (الأسيران الصغيران) سنة 1912م و(الأقلون) مثلها شبان المحفل اللاتيني في السنة ذاتها على مسرح كنيسة اللاتين، ومسرحية (الغدر) سنة 1912م، ومسرحيتا (البرج الشمالي)، و(البنات الضائعة) اللتان مثلتا عام 1913م على مسرح مدرسة الكلدان وغيرها⁵.

¹ سليم حسون: من الشخصيات المسيحية البارزة ولد في الموصل عام 1871م مارس التعليم وقد تخرج على يده الكثير من التلاميذ الذين برزت شهرتهم فيما بعد، أمضى سليم حسون في التعليم أكثر من ربع قرن، كما أشرف على مجلة إكليل الورد، وله فيها قصائد ومقالات، توفي عام 1947م. أنظر: بهنام سليم حبابه: المرجع السابق، ص 81.

² عمر محمد الطالب: المرجع السابق، ص 26-27.

³ هيثم محيي طالب الجبوري: المرجع السابق، ص 62.

⁴ علي الوردي: المرجع السابق، ج 3، ص 256.

⁵ عمر محمد الطالب: المرجع السابق، ص 42.

2- دورهم في فن الموسيقى:

قام المسيحيون الشرقيون بادخال الموسيقى الى طقوسهم الدينية منذ القدم، حيث استخدموا اللحن أثناء آدائهم للصلوات داخل الكنائس، وكان ذلك لدفع الملل عن المصلين، اضافة الى محاولة خلق جو روحاني عند المصلين، وقد استعملوا عدة آلات موسيقية قديماً في أناشيدهم منها آلات اتخذوها من الكتاب المقدس ومنها آلات ابتكروها وتفردوا باستعمالها، مثل: القيثارة المفردة والكنارة المزدوجة والدف المربع وغيرها¹.

وقد كان للألحان الكنسية القديمة لكنيسة المشرق بشقيها الغربي (السرياني) والشرقي (الكلداني الآشوري)، والتي تعود إلى القرون المسيحية الأولى، والمحفظة في كتاب (كزّا- كنز الألحان) و(الأشحييم)، وغيرها من كتب صلوات الفرض، وللآباء والشمامسة المرتلين، الذين حفظوا هذه الألحان جيلاً بعد جيل، تأثير كبير في ظهور المقامات العراقية وعدد من الألحان الأخرى إما على نحو مباشر عبر التراتيل والأناشيد والمزامير السريانية أو غير مباشر عبر الألحان الفارسية والتركية.

ولذلك لا غرابة أن يهتم مسيحيو العراق بالموسيقى حيث يعتبر تواجدا تاريخياً لهم مع الموسيقى، وقد برز من المسيحيين العراقيين العديد من الملحنين والعازفين وأساتذة موسيقى اعتبروا من رواد الموسيقى العراقية ومؤسسي التربية الموسيقية العراقية إلى جانب اخوانهم من القوميات والأديان الأخرى، ومن الجدير بالذكر كان معظم هؤلاء الرواد أما شمامسة أو درسوا الموسيقى وتعلموا العزف في صغرهم في المدارس المسيحية الخاصة التي كانت منتشرة في العراق في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين². وفيما يلي نلقي الضوء على دور أبرز الفنانين المسيحيين الذين أسهموا في نشأة الموسيقى العراقية المعاصرة وتطورها بشقيها العربي والكردى وهم:

أ-حنا عواد (1862-1942): يرى أغلب المهتمين بفن الموسيقى في العراق أن حنا عواد أحد أهم أعلام الموسيقى العراقية ورائداً من رواد صناعة الآلات الموسيقية وتطويرها في العراق، فقد كان حنا عواد يقوم بتصليح الأعواد التي أصابها العطب لبعض الضباط الأتراك الذين كانوا يأتون إليه في الموصل قبل أن يعرفه العراقيون، ومن خلال ذلك تعلم سر هذه المهنة فصنع أول عود مماثل لتلك التي كان يصلحها وكان ذلك بحدود عام 1890م، ولذلك اعتبر حنا عواد أول من أدخل صناعة العود الحديث إلى العراق من دون أن يتلمذ على يد أستاذ، وقد أشاد بأعواد حنا عواد أهم الموسيقيين العراقيين والعرب أمثال

¹ حيدر جاسم عبد عبيس الرويعي: المرجع السابق، ص178.

² سعدي المالح: مسيحيو العراق ودورهم في نشأة الموسيقى العراقية وتطورها، مجلة المسارات، العدد 14، ص5، بغداد، 2010، ص69.

شهادة سعادة والشريف محي الدين حيدر ومنير بشير خصوصاً آخر عود صنعه وتفنن في اتقانه عام 1933م¹.

كما عرف عن حنا عواد قبل ذلك براعته في صنع العديد من الآلات الموسيقية الوترية الشرقية، والتي منها الآلة المسماة في الموصل (الجنبر)، الواسعة الانتشار وكثيرة الاستعمال في مدينة الموصل وما حولها من القرى في تلك الفترة، وتصنع هذه الآلة البسيطة في الأصل من طاسة تؤخذ من جوز النارجيل المجففة فصار يصنعه من أضلاع خشب على غرار ما يتبع في صناعة بدن العود، وأدى تطور صناعة هذه الآلة بهذا الشكل إلى تحسين صوتها، فضلاً عما اكتسبته الآلة نفسها من أناقة وجمال وأقبل حنا عواد أيضاً على صناعة آلة القانون الشهيرة، وأدخل عليها تحسينات كثيرة منها: استبدال خشب وجه القانون وبطنه اللذين كانا يصنعان من (الدلب) المعروف بالجنار بخشب (الجام) فأصبح بذلك صوت هذه الآلة جهورياً ورخيماً جداً، فضلاً عما نجم من هذا التحسين من خفة وزن الآلة مما سهل حملها ونقلها².

ب- اسكندر زعبي (1874-1912م): ينحدر اسكندر من أصول حلبية وقد ولد في مدينة الموصل، أصيب في صغره بمرض الجذري ففقد بصره، ولم يتمكن من الدراسة مثل أبناء جيله، ورغم ذلك فقد تحدى أوضاعه ونبتت موهبته في الغناء والموسيقى، فأصبح واحداً من أوائل الموسيقيين والمغنيين المسيحيين في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، كان ينظم الزجل على السجية ويلحنه بنفسه، ثم يرسله غناءً وإنشاداً على الأسماع، ويذكر أنه كان وحده بمثابة فرقة موسيقية³.

ونظراً لموهبته الفذة اختير معلماً للموسيقى في مدرسة الآباء الدومنيكان بالموصل لعدة سنوات حيث كان يدرّب التلاميذ على مختلف الآلات، وخاصة الاورغن الذي يستخدم في التراتيل الكنسية، وينسب إليه تلحين جميع التراتيل المجموعة في كتاب (الكنارة الصهيونية لعزة الإلهية)⁴، وقد ترك ألحاناً وأغاني لا زالت تنسب إليه الى حد الآن.

ج- حنا بطرس (1896-1950م): رغم أن هذا الفنان توهجت ابداعاته فيما تلى العهد العثماني إلا أن دوره البارز وتعلمه للموسيقى على يد عثمانين جعلنا نسلط الضوء عليه. وقد ولد حنا بطرس في مدينة الموصل، تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة تابعة إلى كنيسة الكلدان، تشبع بالأنغام الموسيقية الشرقية التي تجسدها الطقوس الكنائسية في التراتيل والأناشيد التي كان يتلقاها، وتخرج في المدرسة الإعدادية في العام 1914م، وبدأ دراسة الموسيقى على يد ضابط عثماني لمدة أربع سنوات وفي العام 1918م دخل موسيقى

¹ هيثم محيي طالب الجبوري: المرجع السابق، ص 72.

² سعيد المالح: المرجع السابق، ص 71.

³ هيثم محيي طالب الجبوري: المرجع السابق، ص 73.

⁴ بهنام سليم صبابه: المرجع السابق، ص 78-79.

الجيش العثماني ثم رقي إلى رتبة رئيس عرفاء لنبوغه في الموسيقى، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى سرح من الجيش وعين معلماً، وفي العام 1921م باشر عمله كمعلم للموسيقى في مدارس الموصل ومشرفاً عاماً للكشافة في مدارسها حيث شكل لأول مرة جوقاً موسيقياً خاصة بالحركة الكشفية¹، وفي سنة 1922م أدار أول جوق موسيقي في الموصل للجيش العراقي، ومنه انبثقت أول نواة صنف الموسيقى العسكرية في العراق، وفي العام 1925م تلقى علومه الموسيقية في النظريات والتحليل والتأليف والقيادة في كلية لندن الدولية للموسيقى ليتخرج منها في عام 1931م حاصلاً على دبلوم بدرجة امتياز فكان أول عراقي يحصل على مثل هذه الشهادة آنذاك، وأسس في 1936م المعهد الموسيقي بوزارة المعارف ببغداد، وكان أول مدير له.

أشهر ما لحن حنا بطرس النشيد الوطني المعروف "موطني موطني" كلمات إبراهيم طوقان والذي تقول كلماته "موطني موطني... الجمال والجلال... الحياة والنجاة... في روباك في روباك... الهناء والرجاء... والسناء والبهاء... في هواك في هواك..."، طما لحن أيضاً نشيد "الجهاد للوطن" ونادي الأوطان وعدد آخر من الأناشيد²، لذلك اعتبر الرائد الأول في مجال تلحين الأناشيد الوطنية.

3- دورهم في الأدب والترجمة والتاريخ والعلوم الأخرى:

كعهدهم عبر تاريخ العراق كان للمسيحيين في العهد العثماني دور بارز في مجال الأدب والتاريخ والجغرافيا والطب ومختلف العلوم الأخرى. واذ يصعب علينا بل يستحيل أن نلم بكل علماء تلك الفترة لكثرتهم اخترنا بعضهم الذين أثروا في الحياة العلمية بكتابتهم للاستدلال عن أدوارهم ومنهم:

أ-البطريك يوسف الثاني الكلداني (ت 1713م): ولد في قرية تلكيف، ويعد من العلماء الكبار الذين أصدروا العديد من المؤلفات منها: طب الخطاة ومصباح النور وسفر الصديقين، كما أصدر في التاريخ كتاب أخبار جميع المجاميع المسكونية وقوانينها، بالإضافة الى نظمه للعديد من القصائد الكلدانية والأناشيد الدينية التي تقرأ في الصلوات والأعياد والمناسبات. اضافة الى عدة مؤلفات دينية أهمها المرأة المحلية التي يتناول فيها مسائل عقائدية تظهر أنه على دراية كبيرة في علم اللاهوت.

ب- القس خدر الموصلي (ت 1755م): كان من أبرز علماء زمانه اذ برع في العلوم والآداب المختلفة، وأتقن اللغات العربية والآرامية والتركية والايطالية، هرب عام 1725م الى روما، ترك عديد المؤلفات القيمة خاصة المعاجم منها معدن الكنوز لكشف الرموز وهو معجم كلداني في أربع مجلدات

¹ سعدي المالح: المرجع السابق، ص72.

² هيثم محيي طالب الجبوري: المرجع السابق، ص 74.

ضخمة يحوي حوالي 1340 كلمة¹، وكذلك ألف معجم كلداني عربي صنّفه في إيطاليا عام 1737م، إضافة إلى كتاب رحلته إلى روما، كما خلف وراءه العديد من القصائد العربية والكلدانية التي تمدح مريم العذراء والكنيسة الكاثوليكية، كما ترجم كتاب مدخل العبادة للقديس فرانسيس دي سايس إلى اللغة العربية وترجم إلى الكلدانية كتاب التعليم المسيحي لبلومينوس وكتاب الاقتداء بالمسيح².

ج- اقليمس داود يوسف الموصلي (ت 1890م): ولد 1829م في العمادية قرب الموصل وتعلم بالموصل وواصل دراسته ببيروت ثم في روما حيث نال أربع فضية ونوط ذهبي لتفوقه على أقرانه في علم اللاهوت، وبعدها عاد إلى الموصل سنة 1855م فاشتغل بالتعليم، وانتخب مطرانا لطائفة السريان الكاثوليك، في دمشق سنة 1878م³. ألف في مسيرته العلمية حوالي ثمانون كتابا ورسالة بالعربية والسريانية والفرنسية والإيطالية وغيرها، طبع منها حوالي أربعين كتابا بعضها طبع في مطبعة الآباء الدومنيكان. فمن العربية التمرنة في النحو، جزآن، ونبتان في العروض والشعر، ومدخل الطلاب، وترويض الطلاب كلاهما في علم الحساب، وعلم الجغرافية، وإنشاء الرسائل، والتعليم المسيحي، وتنزيه الألباب في حدائق الآداب، وجامع الحجج الراهنة في إبطال دعاوي الموارنة، واللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية، والتصاريح العربية، ومختصر تاريخ السريان باللغة الفرنسية، وعلم الهندسة، وعلم الجبر. وقد عرف عنه أنه كان دأبا على العمل والتأليف طوال حياته، له عدة كتابات غير مطبوعة، ولجرجي خباط كتاب رنة العود في مراثي داود، جمع فيه ما قيل في رثائه، ولفيليب طرازي، كتاب القلادة النفيسة في فقيد العلم والكنيسة في سيرته.

د- توما أودو الكلداني (1855-1915م): ولد في قرية القوش بشمال العراق، وبعد تلقيه مبادئ العلوم واللغة السريانية ذهب إلى روما سنة 1869م حيث درس اللاهوت واللغات 11 سنة، ثم عاد ورسم كاهنا بالموصل ثم أرسل مسؤولا عن كنيسة حلب قبل أن ينتخب مطرانا على أبرشية أورميا بإيران حاليا، وقتل إبان الحرب العالمية الأولى سنة 1915م. كان بارعا في علم الفلسفة واللاهوت، حيث قام توما أودو بتأليف العديد من الكتب في اللغة السريانية، ومنها معجمه "كنز اللغة الآرامية" الذي يقع بمجلدين ضخمين ويحتوي على شرح باليونانية والعربية، وقد تم طبعه في مطبعة الآباء الدومنيكان بالموصل سنة 1897م. وكتاب "نحو اللغة السوادية" الذي يعني بنحو السريانية الشرقية. كما قام بترجمة كتب لاهوتية كاثوليكية من اللاتينية إلى السريانية، وترجم من العربية ككتاب كليلة ودمنة.

¹ رفائيل بابو اسحاق: المرجع السابق، ص 145.

² بطرس نصري: المصدر السابق، ج2، ص ص 238-239.

³ سليمان الصايغ: المصدر السابق، ج2، ص ص 270-271.

هذا، وقد اشتهر غير هؤلاء الكثير تعذر علينا ذكرهم جميعا منهم اسرائيل وكيوركيس القرقوشبان اللذان عاشا في القرن السابع عشر، ويوسف العينكاوي (ت 1792م)، وهرمز بن أنطوان الكلداني (ت 1900م)، وجرجيس عبد يشوع خياط (ت 1899م)، ونعوم فتح الله السحار الذي أخذنا عنه فكرة في دوره في المسرح العراقي¹.

أخيرا يتضح لنا أن دور نصارى العراق في المجال السياسي مقارنة بالمجالات الأخرى التي برعوا فيها يعد قليلا، ومما برعوا فيه الجانب الاداري خاصة ادارة الشؤون المالية، لكن رغم ذلك ينكم القول أ، دورهم السياسي يتناسب مع حجمهم السكاني. لكن مع تولي مدحت باشا حكم العراق أصبح لهم مشاركة فعالة في ادارة شؤون البلاد عن طريق ممثليهم في المجالس المحلية المختلفة.

لكن على الصعيد الاقتصادي من خلال اطلالتنا على دور ونفوذ النصارى نستنتج أن أدوارهم في المجال التجاري قد تعددت بين التجارة الداخلية و الاستيراد والتصدير، كما أن تجارتهم شملت كل البضائع والسلع دون استثناء، كما لاحظنا أيضا أنهم سيطروا الى جانب اليهود على هذا القطاع سيطرة مطلقة، لكن في الوقت الذي رفعت فيه تلك الأوضاع الاقتصادية من مكانة النصارى ومستواهم المعيشي، وأبرزتهم إلى ساحة العمل التجاري والاقتصادي في العراق فإنها دمرت في الوقت نفسه حياة الكثير من العائلات المسلمة²، خاصة الحرفيون والتجار منهم الذين عجزوا عن تطوير تقنيات إنتاج جديدة والمنافسة، فاختفت كثير من الحرف والصناعات من المدن العراقية بسبب عجزها عن مواكبة التطورات³.

أما عن الصعيدين الثقافي والاجتماعي نلاحظ أن الأقلية المسيحية كانت سباقة في المجال الثقافي سواء في التعليم الحديث وانشاء المدارس، أو في الطباعة والصحافة خاصة المجالات، أو كذلك في الفنون والآداب كالمسرح والموسيقى. كما لاحظنا أيضا أن هذه الأقلية شهدت نهضة كبيرة جدا ثقافية وعلمية خاصة في العهد الأخير للحكم العثماني، وكما ذكرنا كان للارسلالات التنصيرية الأوروبية دور كبير فيها. كما اتضح لنا أن تلك النهضة المسيحية أفادت المجتمع العراقي بكل طوائفه بعدد الايجابيات في شتى المجالات. لكن بالمقابل فانها كانت جسرا فكريا للأفكار الأوروبية التي كانت تسعى لها بلدان تلك الارسلالات، كما أنها وطدت علاقات نصارى العراق بالبلدان الأوروبية، فانعكس ذلك على مواقف الطوائف المسيحية من بعض قضايا الأمة العربية، وكانت سببا في صدامات مع العثمانيين ابان الحرب العالمية الأولى ومع الدولة العراقية لاحقا في ثلاثينات القرن الماضي.

¹ سليمان الصايغ: المصدر السابق، ج2، ص ص 272-273.

² دهام محمد العزاوي: مسيحيو العراق (مجنة الحاضر وقلق المستقبل)، ص 112.

³ حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 273.

الفصل الثالث

دور وتاريخ أقلية الصابئة والأيزيدية في العراق خلال العهد
العثماني (1517-1917م)

نظرا لأن هذا الفصل يضم أقليتين ليس كالفصلين السابقين الذي خصصنا كل فصل منهما لأقلية لوحدها، لذلك فهو مقسم إلى قسمين كل منهما يحتوي على أقلية وهما:

الأقلية الأولى: دور الصابئة المندائية في المجتمع العراقي خلال العهد العثماني:

المبحث الأول-التعريف بديانة الصابئة ومصادر تشريعها وأهم عقائدها:

أولا-التعريف بديانة الصابئة المندائيين:

يطلق اسم الصابئة المندائية على أتباع النبي يحيى عليه السلام، وهو آخر أنبيائهم كما يرجعون أصل ديانتهم إلى النبي آدم عليه السلام، أهم كتاب عندهم الكنزبا، لهم طقوسهم وعباداتهم الخاصة بهم، وأتباع هذه الديانة جماعات قليلة متفرقة في البطائح بالعراق والأهواز في إيران، وبعضهم في البلدان الأوروبية وأمريكا وبلدان أخرى، ويرى قسم من الباحثين أنهم نوعان صابئة حران وصابئة البطائح (المندائيون)¹، في حين يرى قسم آخر أنهم من أصل دين واحد، وسنأتي على التفصيل في هذا الموضوع لاحقا.

1- معنى "الصابئة لغة":

اختلف كتاب المعاجم اللغوية في تفسير كلمة الصابئة، فقد وردت الكلمة في عدة لغات بمعاني مختلفة أهمها اللغتين الآرامية والعربية ونبدأ بالآرامية لأنها أصل اللغة المندائية للصابئة، وقد جاءت معانيها في اللغتين كما يلي:

أ- اللغة الآرامية:

تعد اللغة المندائية فرع من فروع الآرامية حيث أن كلمة صابئ في اللغة الآرامية مشتقة من الفعل صبا، بمعنى (يغتسل، يتعمد)²، أما اشتقاق كلمة الصابئة من الفعل صبا في الآرامية يعنى الاغتسال والتعميد³. ولأن الكلمة ظهرت قديما في قاموس اللغة الآرامية قبل ظهورها في قواميس اللغات الأخرى، يعتقد كثير من الباحثين أنها الأقرب للحقيقة.

ج- في اللغة العربية:

وردت كلمة الصابئة في معاجم اللغة العربية بمعاني مختلفة لكنها متقاربة في جوهرها فقد ذكر ابن الجوزي معنى كلمة الصابئة في اللغة وهي (صبأ الرجل إذا مال وزاغ)⁴، وكانت العرب تسمي النبي محمد صلى الله عليه وسلم

¹ سامي بن عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 161.

² محمد عمر حمادة: تاريخ الصابئة المندائيين، ط1، دار فتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1992م، ص30.

³ يتكلم الصابئون الحاليون اللغة المندائية وهي لغة سامية قريبة من السريانية، ولكن حروفها غير السريانية ونحوها وصرفها مستقلان، أما لغة المعاملات والمخاطبة بين الناس فهي اللغة العربية في العراق. أنظر: عليان رشدي: الصابئون حرائين ومندائيين، ط1، مطبعة دار السلام، بغداد، 1977م، ص120.

⁴ ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ب ط، دار القلم، بيروت، ب ت ن، ص ص72-73.

الصابئي لأنه خرج من دين آبائه وأجداده، دين قريش، وجاء بدين جديد هو الإسلام. والقول صباً (بالهمز) أنها مأخوذة من قول العرب: (صبأ ناب البعير) إذا طلع حده وخرج، وكل خارج من دين إلى آخر كالمترد من أهل الإسلام عن دينه، وجمع الصابئي: صابئون، وصبأء، وصابئة، ونقول أصبا إلى الشيء يصبو إذا مال قلبه إليه، ونزع واشتاق وفعل الصبيان، وقد يقال صبا الرجل إذا عشق وهوى، ومن هذا المعنى قوله تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾¹.

كما جاءت في لسان العرب لابن منظور بأن معنى الصابئة لغةً هو صبأ صبأً، أي بمعنى خرج من دين إلى آخر، كما تصبأ النجوم من مطالعها². وهذا يعني أن كلمة الصابئة في المعنى اللغوي هو خروجهم من دين كانوا يعتنقوه إلى دين جديد. وقال بعض العلماء: وسمى القوم بذلك لأنهم مالوا عن كل دين إلى دين عبادة النجوم... أو مالوا عن سنن الحق وزاغوا عن نهج الأنبياء³. وهم بهذا ينزعون عنهم صفة التوحيد أو صفة الدين السماوي.

2- معنى الصابئة اصطلاحاً:

المقصود بها طائفة دينية قليلة العدد من حيث المنتسبين لها الذين أكثرهم من سكان الأهوار بين واسط والبصرة في العراق، كما يتواجدون في جنوب إيران، وعدة مناطق من العالم تتبع دينا قديماً، ويقولون عن أنفسهم أن دينهم أقدم الديانات السماوية أي أنهم يوحدون الله، ويقصدون الأجرام والنجوم والكواكب، والشمس، ومجاري المياه. ويطلق عليهم تسمية نصارى يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) لاتباعهم التعميد في ممارساتهم الدينية⁴، عرف عنهم تاريخياً الغموض والباطنية والانطواء وهو ما جعلهم عرضة للتهجم وسوء الفهم، معبدتهم يسمى المندي، ولهم طقوسهم الخاصة بهم في عباداتهم كالصلاة والصوم، وعاداتهم كالزواج والطلاق والتعميد والمعاملات⁵.

¹ سورة يوسف: الآية 33.

² ابن منظور: لسان العرب، ط3، ج1، مكتبة الرشيد، بغداد، 1994م، ص107.

³ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ب ط، دار القلم، بيروت، 1997م، ص473.

⁴ صادق شهيد الطائي: سر الماء. سر الفضة دراسة أنثروبولوجية لطائفة الصابئة في العراق، ط1، المجلس الأعلى للثقافة،

القاهرة، 2010م، ص125.

⁵ عزيز سباهي: أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية، منشورات دار المدى، دمشق، 2002، ص21.

3- الصابئة في القرآن الكريم:

قص الله علينا في كتابه قصص السابقين، وأديان الأمم الماضية، ومما أشار إليه القرآن في هذا الشأن ذكر الصابئين، وقد ذكرهم الله تعالى في ثلاث مواضع من كتابه العزيز وهي على النحو التالي: أولاً قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالصَّيِّئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾¹. ثم ثانياً قوله تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾². ثالثاً وأخيراً قوله تبارك وتعالى في سورة الحج ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالصَّيِّئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾³.

هذا، وقد اختلفت عبارات المفسرون في تفسير معنى الصابئة في القرآن الكريم إلى أقوال كثيرة جداً نذكر بعضها ومنها قول مجاهد⁴: ليسوا يهوداً ولا نصارى ولا دين لهم، وقال الحسن: قبيلة نحو الشام بين المجوس واليهود، ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم. كما ذكر أنهم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور، قاله أبو العالية والسدي، والربيع بن أنس، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، والضحاك، وإسحاق بن راهويه⁵. بالإضافة إلى ذلك فقد قيل عنهم أنهم الذين لم تبلغهم دعوة نبي، ذكره ابن كثير. لكن الرجح في تلك التفسيرات حسب اتفاق عدبد المفكرين والمفسرين أنهم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم باقون على فطرتهم، ودينهم منفصل ومستقل عن الديانات المعروفة سالفه الذكر⁶.

4- الصابئة في السنة النبوية:

وردت عدة أحاديث في السنة النبوية، فيها ذكر كلمة صابئ، وكانت هذه الكلمة عبارة عن صفة ذم يطلقها القرشيون كل من ترك دين آبائه، كما أطلقوها على سيدنا محمد ﷺ، ومن آمن بدعوته، تنكيلاً بهم لإيمانهم بدين النبي محمد ﷺ، وهذه الآثار كثيرة منها ما خص النبي محمد ﷺ، ومنها ما خص الصحابة الكرام نذكر منها مايلي:

¹ سورة البقرة: الآية 62.

² سورة المائدة: الآية 69.

³ سورة الحج: الآية 17.

⁴ مجاهد بن جبر: هو إمامٌ وفقيه وعالمٌ ثقة وكثير الحديث، وكان بارعاً في تفسير وقراءة القرآن الكريم والحديث النبوي، يعرف اختصاراً بمجاهد. أنظر: الموسوعة العُويبة الميسرة ويكيبيديا، 2018/09/09، 09:03.

⁵ تفسير الطبري: البيان في تأويل القرآن، ت: محمود أحمد، المطبعة الكبرى، بيروت، ج1، 1934م، ص ص 252-253.

وتفسير القرطبي: المصدر السابق، ج1، ص ص 475-476.

⁶ تفسير ابن كثير: 104/1.

أ- ما جاء فيها خاص بالنبي ﷺ:

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال «.. ثم سار النبي فاشتكى إليه الناس من العطش... قال لها انطلقي إذأ. قالت: إلى أين ؟ قال: إلى رسول الله. قالت: الذي يقال له الصابي. قال: هو الذي تعنين فانطلقي...»¹.

وعن ربيعة بن عباد الديلي قال: رأيت رسول الله بصر عيني بسوق ذي الحجاز يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا.. إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه ذا غديرتين يقول: إنه صابي كاذب»².

ب- ما جاء فيها خاص بالصحابة الكرام:

في قصة إسلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قالت قريش: « نريد هذا ابن الخطاب الذي صبا»³. وقصة إسلام أبي ذر - رضي الله عنه - حين أظهر الإسلام في المسجد وقريش فيه، فقالوا: « قوموا إلى هذا الصابي»⁴.

5- مسميات أخرى للصائبة المندائيين:

أ- المتدائيون: هو الاسم المفضل عندهم، ووردت كلمة مندائي في اللغة السومرية من أصل كلمة (مندا) من (ما- دا) السومرية، والتي تعني (مسكن أو أرض العبادة)، ولذلك نرى اليوم أن معبد المندائيون يطلق عليه كلمة (مندى) ثم تطورت الكلمة فظهرت بالأكدية على شكل (مندو) ومعناه القوم شديدي الإيمان⁵. وفي مواضع أخرى قيل أن كلمة مندا تعني العارف⁶، وهو ما ذكره أيضا الباحث أحمد لفته الفياض، بأن الصابئون يسمون أنفسهم مندائي المشتقة من الكلمة الآرامية (مدعا) ومعناها المعرفة ويسمون أصحابها (المندعيين)، وهم طائفة من القبائل الآرامية التي كانت تسكن فلسطين ثم هاجرت إلى العراق⁷.

¹ رواه البخاري في كتاب التيمم، باب الصعيد الطيب وضوء المسلم، حديث رقم 337.

² رواه أحمد في مسنده، 492/3.

³ رواه البخاري: باب إسلام عمر بن الخطاب، حديث رقم 3651، 3652.

⁴ رواه البخاري: قصة إسلام أبي ذر، حديث رقم 3648، 3328.

⁵ محمد نمر المديني: الصائبة المندائيون العقيدة والتاريخ، ط1، دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2009م، ص 23-24.

⁶ محمد عمر جمادة: المرجع السابق، ص 7.

⁷ أحمد لفته الفياض: المندائيون، مجلة سيمتا، المجلد الخامس، العدد 18، 2011م، ص 100.

ب-**المغتسلة:** سمي العرب المندائيين بالمغتسلة ارتباطا بممارسة هذه الجماعة آداب وطقوس الاغتسال، ويرون أنهم الصابئون أنفسهم الذين ورد ذكرهم في القرآن والكتب الإسلامية، وهم في الواقع قدامى المندائيين. إلا أن الذين يفرقون بين صابئة حران وصابئة العراق يرون أن المغتسلة هم صابئة البطايح صابئة ناحية ميسان تحديدا.

ج- **الناصرانيون:** أطلقت أيضا هذه التسمية على المندائيين، إلا أنهم أي المندائيون كانوا يطلقون هذه التسمية على الروحانيين (رجال الدين) والمؤمنين الحقيقيين (الثقة). وفي كتبهم الدينية أطلقت الكلمة على رجال الدين الذين يراعون تطبيق الاحكام والأوامر الدينية قبل غيرهم، والمعنى الحقيقي لهذه الكلمة هو " حافظ القوانين والأوامر الدينية ".

د- **أتباع يوحنا المعمدان:** في القرن السابع عشر أدى عدم فهم البحارة البرتغاليين للمعنى الصحيح لديانة هذه الطائفة إلى اعتبارهم مسيحيين منحرفين، وربما يعود هذا الالتباس إلى أن يحيى بن زكريا هو أول من عمد المسيح المذهب النصراني، ولأن أحد مبادئ الدين المندائي هو التعميد أيضا، إضافة إلى ذلك فإن قصص الصابئة المتعلقة بيحيى المعمدان كزعيم لهذا الدين، جمعت في كتاب يحمل عنوان دراشا أد يهيا، والتي تعني دراسات يحيى.

إضافة إلى تلك الأسماء هناك أسماء أخرى مثل الأخشيطيون من (كشطا)¹، أي أصحاب الحق أو أبناء العهد، وقد استمدت التسمية من كتابهم المقدس². وشلماي وهي تسمية آرامية تعني المسالمون. وأخيرا أبني نهورا وتعني أبناء النور، وهي تسمية استمدت من كتبهم الدينية كتاب دراشا أد يهيا.

ثانيا- مصادر التشريع لديانة الصابئة المندائيين:

تعد الكتب المقدسة هي المصادر الوحيدة لشرائع أديان العالم، ولا توجد اليوم أمة لا تستمد ديانتها من كتب تعتقد بصورها من مصدر سماوي، يرى الصابئة أن كتبهم المقدسة قد توارثوها بصورها الموجودة لديهم عن آدم أبي البشر، ومنه إلى إبراهيم الخليل، فموسى الكليم، فيحيى بن زكريا، الذي يسمونه (يوحنا المعمدان)، وهم يعترفون بأن معظم هذه الكتب قد أُلُف، بالرغم من حرصهم الشديد على الاحتفاظ بها. إلا أنهم في نفس الوقت لا يشكون بأن الصورة الموجودة منها مطابقة للصورة الأصلية المنزلة، وبعثقدون أن التطورات التاريخية لم تؤثر عليها، لا من حيث اللغة ولا من حيث الترتيب. والجدير بالذكر أن الصابئة

¹ رائد حسون بقال وعدي خماس: **الصابئة المندائيون نبذة تعريفية**، منشورات ديوان أوقاف المسيحيين والديانات الأخرى، بغداد، 2010م، ص19.

² الكنزاري، اليمين، الكتاب الثالث، التسبيح الأول، الخليفة، ص64.

يحرصون على منع الغير من الاطلاع على كتبهم المقدسة منعاً شديداً، لأنهم يرون أن في هذا الاطلاع أمراً يأتى به فاعله¹. وأهم الكتب التي بقيت ا في أيدي الصابئة هي على النحو التالي:

1- كتاب الكنزانيا: تعني الكتاب العظيم أو الكنز العظيم، ويقال له (سدرا آدم) أو صحف آدم، وقد يكتفون بقولهم (السدره) بوجه الإطلاق، فهم يعتقدون أنها صحف آدم نفسها. وتنحصر مباحثه في ذكر بدء الخليقة، وتعاليم آدم وابنه شيت وسام بن نوح، والتطورات التي حدثت للبشر²، وفي صفات الخالق، وفي الوعظ والإرشاد، وفي سنن الدين والمعتقد كما أن في الكتاب بحثاً عن الوفاة. ويختلف الصابئة في عهد كتابته، فمنهم من يقول أن تاريخه يرتقي إلى ما قبل النصرانية، ومنهم من ذهب إلى أنه من عهد يوحنا المعمدان، ومنهم من ذهب إلى غير ذلك، أي في العهد الساساني أو الاسلامي³.

2- كتاب دراشة إديها: ويقال له (سدراديهي) أي تعاليم يحي أو كتاب يحي ودروسه، وهو أحدث تاريخاً من الكتاب الأول، ويتضمن حياة نبي الله يحي من بدء ولادته العجيبة وتربيته في الجنة، ونزوله إلى الأرض ليلبغ رسالته إلى تاريخ وفاته، وصعوده إلى السماء. وهذا مخالف لما ورد في القرآن الكريم، كما يتضمن إرشاداته، وتعاليمه الدينية، ويقال أن الملاك هو الذي أوحى إلى يحي أن يضع له هذا الاسم⁴.

3- كتاب القلستا: أي كتاب عقد الزواج والنكاح، وهو كتاب خاص للبحث عن رسوم الزواج، وسننه، والاحتفالات التي تقام أثناء عقده، وعن كيفية تحليل النكاح الشرعي وإجراء الخطبة، وما إلى ذلك⁵.

4- كتاب سدره إندشماتا: أي (كتاب التعميد) ويعتقدون أنه أنزل على آدم أبي البشر، وأنه أساس الديانة الصابئية، ومنه تستمد بقية المعلومات، ويتناول طقس التعميد، وكيفيته، وكل ما يتعلق بالمعمودية، أي سر المعمودية المقدس حسب رأيهم⁶.

5- أسر ملواشة: وهو مخطوط لأغراض التنجيم والفلك، وفيه نظرتهم للكواكب والأجرام وسبب تقديسهم لها، وماذا تعني للمندائي، وأهميتها كمقدسات للديانة المندائية.

¹ الليدي دراوور: الصابئة المندائيون، ط2، تعريب نعيم بدوي وغضبان رومي، بغداد، 1987م، ص 53.

² عبد الرزاق الحسني: الصابئة قديما وحديثا، ط1، المطبعة الرحمانية، مصر، 1931م، ص 59.

³ سليم برنجي: الصابئة المندائيون دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيين، تعريب جابر أحمد، ص 178.

⁴ محمد عمر جمادة: المرجع السابق، ص 74.

⁵ الليدي دراوور: المصدر السابق، ص 65-66.

⁶ محمد نمر المدني: المرجع السابق، ص 23.

- 6- ألف ترسر شيالة 1200 سؤالاً: يتكون من 5 اجزاء ويتناول الأخطاء في أداء الطقوس الدينية التي يقع فيها المتعبد، وكيفية اصلاحها، وكيف تغفر، كما يتطرق إلى كل الشعائر وبفسرها للعامة.
- 7- انياني (العبادات): يتناول الصلاة وطريقة الوضوء أو الطهارة الصغرى (الرشامة)، وأنواع العبادات الأخرى مع بعض الأدعية التي يسمونها للمسحاة¹.
- 8- تفسير بغرة: ويتناول جسم الانسان ومكوناته، وكل جوانبه الداخلية، كما يتحدث عن الموت وسنن الجنائز وكيفية انتقال الأرواح، وعن المعاد، كما أن فيه نصوص عن الصلاة التي يقرأها الروحاني في حفلات التعميد².
- 9- كتاب الماريشابا: ويتناول الخلق، والتكوين ونشأة العالم.
- 10- دواوين قماهي (زرستا): وهي دواوين تحوي الأدعية والتعاويذ التي تحفظ الانسان من الشرور كالحسد، ودفع البلاء، وهو يتحدث عن الموت وسنن الجنائز وكيفية انتقال الأرواح، وعن المعاد، كما أن فيه نصوص عن الصلاة التي يقرأها الروحاني في حفلات التعميد.
- وقد نقله المستشرق الألماني (لايدز) إلى الألمانية عام 1930م³.
- وهناك عدة كتب أخرى تقل أهمية عما تقدم مثل (كتاب أسفر ملواشي، النياي، فماهاذ هيفل زبورا، تفسير بغره)⁴.

ثالثاً- الهيئة الكهنوتية (طبقة رجال الدين):

- 1- الحلاي: ويسمى أيضاً الشماس ومهامه السير في الجنائزات، واقامة سنن الذبح للعامة، لا يتزوج الا بكراً، واذا تزوج ثيباً سقطت مرتبته، ومنع من وظيفته الا اذا تعمد هو وزوجته 360 مرة في مياه النهر الجاري⁵.
- 2- الترميدة: اذا فقه الحلاي الكتابين المقدسين سدره انشماثا والنياني أي كتابي التعميد والأذكار فانه يتعمد بالارتقاس في الماء الموجود في المندي ويبقى سبعة أيام مستيقظاً لا تغمض له عين حتى لا يحتلم، فيترقى بعدها هذا الحلاي إلى رتبة ترميدة، ولا يعقد الا قران الأبكار فقط⁶.

¹ سليم برنجي: المرجع السابق، ص ص 184-185.

² الليدي دراوور: المصدر السابق، ص 55.

³ عبد الحميد عبادة: الصابئة الأقدمون، ط1، دار الحكمة، لندن، 2003م، ص ص 56-57.

⁴ علي محمد عبد الوهاب: الصابئة، ط1، دار ركابي، القاهرة، 1416هـ، ص 60.

⁵ عبد الرزاق الحسني: الصابئة قديماً وحديثاً، ص 77.

⁶ سليم برنجي: المرجع السابق، ص 217.

3- الأيسق: الترميزة الذي يختص في عقد قران الأرامل يتحول إلى أيسق، ولا يغادر مرتبته أبداً، أي أن رتبته أقل من الترميزة ولا يحق له العودة لرتبة ترميزة اذا خرج منها.

4- الكنزبرا: الترميزة الفاضل الذي لم يعقد على الثياب يمكن أن يترقى إلى رتبة الكنزبرا اذا حفظ كتاب الكنزريا فيصبح حينئذ مفسراً له، ويحق له ما لا يحق لغيره فاذا قتل أحد أفراد الطائفة لا يقتص منه لأنه وكيل الرئيس الالهي عليها¹.

5- الريش أمة: وتعني رئيس الأمة، وصاحب الكلمة النافذة فيها، ولا يوجد بين صابئة اليوم من بلغ هذه الدرجة لأنها تحتاج إلى علم وفير، وقدرة فائقة، لا تتوفر فيهم حالياً.

6- الرباني: وفق هذه الديانة لم يصل إلى هذه المرتبة سوى يحيى بن زكريا عليهما السلام، كما أنه لا يجوز تواجد شخصان من هذه المرتبة في وقت واحد، والرباني حسب عقيدة الصابئة يرتفع ليسكن عالم الأنوار، وينزل ليلبغ أبناء طائفته تعاليم الدين ثم يرتفع مرة أخرى إلى عالمه الرباني النوراني².

رابعاً- مبادئهم ومعتقداتهم الدينية:

تشابهت المصادر التي تحدثت عن مبادئ ديانة الصابئة ومعتقداتها، إذ تجمع على حقائق المبادئ والمعتقدات الثابتة لهذه الديانة القديمة³، وفيما يلي نذكر أهمها:

1- عقيدة التوحيد: بإله واحد هو خالق الكون لا تراه الحواس ولا تدركه، واحد أزلي أبدي لا أول لوجوده، ولا نهاية له، منزّه عن عالم المادة والطبيعة لا تناله الحواس، ولا يفضي إليه مخلوق، وأنه لم يلد ولم يولد⁴.

2- عقيدتهم في الآخرة: يؤمنون بالآخرة التي فيها ثواب وعقاب، فالأبرار يذهبون إلى عالم النور، والأشرار إلى عالم الظلام. كما يؤمنون أن الجسم فان، وأن النفس خالدة، وهي جزء من روح عليا تعود بعد الممات لتتحق بالملكوت الذي هبطت منه⁵.

3- عقيدتهم في الأنبياء: يرون في الأنبياء الذين يعترفون بهم رجال صالحون لهم مكانة خاصة لكنهم بشر مثلنا، وينسبون دينهم وكتابهم الكنزريا إلى سيدنا آدم، ثم انتقل إلى ابنه شيث. كما يرون أن

¹ محمد عمر جمادة: المرجع السابق، ص 91.

² محمد نمر المدني: المرجع السابق، ص 52.

³ الليدي دراوور: المصدر السابق، ص 1-2.

⁴ مانع بن حماد الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ط2، دار الندوة العالمية، الرياض، 1989م، ص 319.

⁵ محمد نمر المدني: المرجع السابق، ص 28.

النبي ادريس عرج إلى السماء، ومعتقدهم في يحي أن عهده كان منعرجا في ديانتهم فقد كان معلما عظيما يمارس التعميد¹، كما يرون أن المسيح كان صابئيا قبل أن يحرف كلمات النور، أما النبي محمد فلا يعترفون بنبوته ويسمونهم ملك العرب.

4- عقيدتهم في الملائكة (عالم الأنوار): لا يسمونهم ملائكة لكن حسب رؤيتهم فهي كالملائكة في الأديان الأخرى، اذ يؤمنون بعد الإله الواحد بـ 360 مخلوقا خلقوا ليفعلوا أفعال الإله، وهؤلاء الأشخاص ليسوا بألهة ولا ملائكة، ولا بشر عاديون (أي مرتبة بين المادية والروحانية)، يعملون كل شيء من رعد وبرق ومطر وشمس وليل ونهار... وهؤلاء يعرفون الغيب، ولكل منهم مملكته في عالم الأنوار. هؤلاء الأشخاص الـ 360 ليسوا مخلوقين كبقية الكائنات الحية، ولكن الله ناداهم بأسمائهم فخلقوا وتزوجوا بنساء من صنفهم، ويتناسلون بأن يلفظ أحدهم كلمة فتحمل أمراًته فوراً وتلد واحداً منهم².

5- عقيدتهم في النجوم والأجرام السماوية: يقدس الصابئة النجوم والكواكب اذ يعتبرونها المكان الذي تسكنه مخلوقات عالم الأنوار، كما يعتبرونها سفناً لعالم الفضاء، وقد ظهر هذا المعتقد في العديد من الرسومات التي تم اكتشافها في القرنين الأخيرين، وهذا الأمر الذي جعل الكثير من الناس يصفهم بعبدة النجوم والكواكب لتقديسهم لها³.

6- عقيدة التعميد: الطهارة في المياه الجارية هي الشيء المركزي في الدين وتسمى التعميد، وهو يقوم لديهم مقام الاعتراف وطلب الغفران لمواجهة الحياة مواجهة جديدة نقية خالصة لوجه الله وهي أيضاً علامة اعتناق الدين الصابئي⁴.

7- معتقدات أخرى لدى الصابئة: من بعض المعتقدات الأخرى نذكر أنهم ينفرون من اللون الأزرق النيلي ولا يلامسونه مطلقاً، كما أن الزواج فريضة عندهم اذ ليس للرجل غير المتزوج عندهم من جنة لا في الدنيا ولا في الآخرة، وللرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء على قدر ما تسمح له به ظروفه. بالإضافة إلى ذلك فهم يحرمون الختان⁵، ولا تؤكل الذبيحة عندهم إلا أن تذبح بيدي رجال الدين وبحضور الشهود، ويقوم الذابح بعد أن يتوضأ بغمسها في الماء الجاري ثلاث مرات ثم يقرأ عليها أذكارة دينية خاصة ثم يذبحها

¹ ناجية مراني: مفاهيم صابئية مندائية، ط2، شركة التامس للنشر والطباعة، بغداد، 1981م، ص 106.

² سامي عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 161.

³ الليدي داروور: على ضفاف دجلة والفرات، ط1، دار الورق للنشر، بغداد، 2008م، ص 225.

⁴ جان باتيست تافرنيه: رحلة الفرنسي تافرنيه الى العراق في القرن السابع عشر 1676م، تعريب: كوركيس عواد وبشير قرنيس، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2006م، ص 83.

⁵ عبد الفتاح الزهيري: الموجز في تاريخ الصابئة العرب البائدة، ط1، المكتبة الوطنية، بغداد، 1983م، ص 110.

مستقبلاً الشمال، ويستنزف دمها حتى آخر قطرة، ويحرم الذبح بعد غروب الشمس أو قبل شروقها إلا في عيد البنجة¹.

خامساً- فرق الصابئة وطقوسهم وعباداتهم:

1- فرق الصابئة:

اختلف العلماء في تقسيم فرق الصابئة منذ القدم، ولا زال الخلاف قائماً إلى يومنا هذا، فمنهم من قسمهم قسمين الصابئة الحرائية وصابئة البطائح، ومنهم من قسمهم إلى سبعة فرق مثل محمد عمر حمادة²، ومنهم من قسمهم إلى أربع فرق وهو التقسيم الذي أورده عبد الرزاق الحسني نقلاً عن الإمام أبو الحسن علي بن محمد المكنى بأبي علي سالم بن سالم التغلبي الفقيه الأصولي الملقب بسيف الدين الأحدي المتوفى عام 631هـ الذي ذكر في مخطوطه كتاب أبقار الأفكار³، وفيما يلي أهم الفرق الأربع حسب التقسيم الأخير:

أ- الفرقة الأولى (أصحاب الروحانيات): ويعتقد هؤلاء أن أصل وجود العالم يتقدس عن سمات الحدث، وهو أجل وأعلى من أن يتوصل إلى جلاله بالعبودية له، والخدمة من السفليات وذوات الأنفس المنغمسة في عالم الرذائل⁴، وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات بينه وبين السفليات، وهي أمور روحانية مقدسة عن المواد الجرمانية، والقوى الجسمانية، والحركات المكانية، والتغيرات الزمانية في جوار رب العالمين مجبورون على تقديسه وتمجيده وتعظيمه دائماً وأبداً⁵. كما زعموا أن الكواكب الفلكية هي هياكل هذه الروحانيات، وإن نسبة الروحانيات إليه في التقدير والتدوير نسبة الأنفس الإنسانية إلى أبدانها، وأن لكل روحاني هيكل يخصه، ولكل هيكل فلماً يكون فيه.

ب- الفرقة الثانية (أصحاب الهياكل):

قالوا إذا كان لا بد للإنسان من متوسط فلا بد أن يكون ذلك المتوسط بما نشاهده ونراه حتى يتقرب إليه، والروحانيات ليست كذلك، فلا بد من متوسط بينها وبين الإنسان، وأقرب ما إليها هياكلها فهي الآلهة والأرباب المعبودة، والله تعالى رب الأرباب، وإليها التوسل والتقرب، فإن التقرب إليها تقرب إلى الروحانيات التي هي كالأرواح بالنسبة إليها⁶.

¹ سليم برنجي: المرجع السابق، ص ص 235-236.

² للاطلاع على الفرق السبع أنظر: محمد عمر حمادة: المرجع السابق، ص ص 32-35.

³ عبد الرزاق الحسني: الصابئة قديماً وحديثاً، ص 16.

⁴ عبد الرزاق الحسني: الصابئة قديماً وحديثاً، ص 16.

⁵ الشهرستاني: المصدر السابق، ج 2، ص 64.

⁶ محمد عمر حمادة: المرجع السابق، ص 32.

ثم أخذوا في تعريف هذه الهياكل، وتعريف أحوالها بالنسبة إلى طبائعها، وبيوتها ومنازلها، ثم تقربوا إلى كل هيكل وسألوا بما يناسبه من الدعوات، والهياكل عندهم أحياء ناطقة ب حياة الروحانيات التي هي أرواحها ومتصرفة فيها¹.

ج- الفرقة الثالثة (أصحاب الأشخاص):

يعتقد هؤلاء أنه إذا كان لا بد من متوسط مرئي فالكواكب وإن كانت مرئية، إلا أنها قد ترى في وقت دون وقت، لطلوعها وأفولها، فدعت الحاجة إلى وجود أشخاص مشاهدة نصب أعيننا تكون لنا وسيلة إلى الهياكل التي هي وسيلة إلى الروحانيات، التي هي وسيلة إلى الله تعالى، فاتخذوا لذلك أصناماً مصورة على صور الهياكل السبع، ودعوه وسألوه بما يناسب ذلك الكوكب في الوقت والمكان².

د- الفرقة الرابعة (الحرانية أو الحرمانية):

هؤلاء يعتقدون أن الإله المعبود واحد في ذاته، وأنه أبدع أجرام الأفلاك وما فيها من كواكب، وجعل الكواكب مديرة بما في العالم السفلي. فالكواكب آباء أحياء ناطقة، والعناصر أمهات، وما تؤديه الآباء من الآثار إلى الأمهات تقبلها بأرحامها، فتحصل من ذلك المواليد وهي الكواكب والإله تعالى يظهر في الكواكب السبعة، ويتشخص بأشخاصها، من غير تعدد في ذاته³، وقد يظهر أيضاً في الأشخاص الأرضية الخيرة الفاضلة، وهي ما كان من المواليد، وزعموا أن الله تعالى يتعالى عن خلق الأشياء الخسيسة الدنيئة كالخشرات الأرضية ونحوها⁴.

وأخيراً يتضح لنا أن تسمية الصابئة أو الصابئين ليس خاص بطائفة معينة، وإنما هو اسم عام تندرج تحته عدة فرق، لكل فرقة معتقدها الخاص بها وإن كان جميعهم يؤمنون بوجود الله الخالق، ويقدمون الكواكب والأجرام السماوية والطبيعة بشكل عام⁵.

¹ الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص ص 107-108.

² يعتقد الباحثون أن هذه الفرقة من الصابئة هي التي بعث إليها الله النبي إبراهيم (ع) لأن القرآن يحدثنا على أن قومه كانوا قد حادوا عن عبادة الخالق، وعبدوا الأصنام.

³ الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص ص 112-113.

⁴ عبد الرزاق الحسني: الصابئة قديماً وحديثاً، ص 21

⁵ عبد الحميد عبادة: المرجع السابق، ص 51. علي محمد عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 52.

2- علاقة الصابئة المندائيون بصابئة حران:

انقسم الباحثون حول العلاقة بين الصابئة المنقرضة والمعروفة في التاريخ بصابئة حران، والصابئة المندائية الموجودة حاليا في جنوب العراق، ونظرا لقلّة المعلومات حول الطائفة الأولى التي لم يعد لها وجود أو حتى الطائفة الثانية الموجودة حاليا في جنوب العراق، وكل المعلومات المتوفرة حولهما كتبت من مؤرخين مسلمين أو نصارى غالبا ما كانت كتاباتهم تفتقد إلى الدقة. وقد أشارت الليدي دراوور في كتابها الصابئة المندائيون إلى هذا الالتباس الحاصل بالقول: «... بالنسبة للمؤرخين العرب فقد كانوا منذ أقدم الأزمان يعتمدون على الرواية، ولذا لا يمكن قبول بيناتهم أو تقاريرهم الا على هذه الصورة، كما يمكن أن يقال نفس الشيء حول مالدينا من معلومات عن الصابئين دونها الكاتب السرياني "برخوني"¹ فقد كان يدون معلوماته كمجادل يريد الخط من فئة مارقة، ولكن كتابه على كل حال يعطينا أدلة على نقض كل ما قرره عن الصابئين...»². لذلك بقيت العلاقة بين الطائفتين مثار جدل وخلاف حتى عند الصابئة أنفسهم.

أ- أسباب الاختلاف بين العلماء في العلاقة بينهما:

- التكتّم الكبير الذي اتسمت به ديانة الصابئة سواء الحرائية أو المندائية، والتي ترجع إلى أسباب دينية جعلت هذه الديانة وعقائدها محل سر لا يسمح للصابئي بأن ييوح بها إلى أتباع الديانات الأخرى، وبالتالي كان الباحثون غير ملمين بحقيقتها بل اجتهدوا اجتهدات لا تستوفي الشروط المنطقية للحكم الموضوعي على العلاقة بين الطائفتين³.

- السبب الثاني هو انقراض صابئة حران اذ لم يعد لها وجود منذ زمن، وبالتالي لا يوجد مراجع يمكن استقاء معلومات منها، تمكن الباحثين من الحكم عليها كديانة، وعلى علاقتها بالصابئة المندائية بالعراق، وهذا الأمر جعل المصدر الأساسي للمعلومات هو الآثار المادية غير الكافية لأخذ فكرة شاملة عنهم.

- ثالثا هو أن اللغة المندائية لغة مصادر التشريع لهذه الديانة التي عقدت على الباحثين الوصول إلى المقاصد الدقيقة لمحتوى هذه الكتب، اذ أن الأمر يعد صعبا حتى على المندائيين أنفسهم، فلا يوجد غير رجال الدين الذين يفهمونها، ولكنهم يتكتمون على عدة أمور لا يسمحون بإيصالها لغير المندائيين⁴.

¹ برخوني: مؤرخ سرياني عاش في القرن الثامن ميلادي كتب حكايات وأساطير عن الصابئة في كتابه شوليون عام 792م.

² الليدي دراوور: الصابئة المندائيون، ص 22.

³ ناجية مراني: المرجع السابق، ص 77.

⁴ صادق شهيد الطائي: المرجع السابق، ص 52.

- قلة أتباع هذه الديانة من حيث العدد والقوة ما جعلهم عرضة إلى تهجم أتباع الأديان الأخرى عن قصد أو عن سوء فهم، وعدم قدرتهم على الرد والدفاع عن أنفسهم، فالتصقت بهم عدة أوصاف عبر التاريخ كعبدة الكواكب، والدين الوثني وغيرها.

لهذه الأسباب بقي السؤال هل هناك علاقة بين صابئة حران وصابئة البطائح أم لا توجد أي صلة بينهما؟ خصوصا أن الكتابات التي ذكرناها سالفًا صارت مع مرور الزمن مصادر وحيدة عن تلك الأقوام، خاصة بعد انقراضها، ومع تقدم الأبحاث صار البحث الدقيق حولها أمرا معقدا يمر حتما بالاعتماد عن تلك الكتابات، وفيما يلي نذكر الموقفين وحجة كل منهما.

ب- الموقف الأول: يرى أنصار هذا الموقف أن هناك علاقة وثيقة بينهما وأن الفرقتين من أصل ديانة واحدة، ويستدلون على موقفهم بعدة حجج نذكر أهمها فيما يلي:

1) استخدام اللغة الآرامية: الصابئة في حران يجيدون اللغة الآرامية، وكانت لهجتهم أفصح اللهجات الآرامية، وهذا ينطبق على اللغة التي يتحدث بها المندائيون الآن، والتي كتبت بها كتبهم المقدسة وغيرها من أدبياتهم وأشعارهم، واللغة المندائية فرع من فروع اللغة الآرامية.

2) قداسة المياه الجارية: يقدسون المياه الجارية الحية، ويعتقدون بأنها محروسة من قبل الأرواح الخيرة النورانية. ان المندائية والمياه الجارية الحية والتي تعرف باليردنا، شيئا واحدا لا يقبل الفصل فكرا وتطبيقا. وان المياه الجارية الحية (اليردنا) مهمة في عملية الخلق والتكوين ومهمة في ولادة الانسان في طقس التعميد (مصبتا)¹.

3) الصلاة: لدى صابئة حران من الصلوات ثلاث، وهي الواجبة يوميا (صبحا، ظهرا، عصرا)، ولا تتم إلا بعد أداء الاغتسال أو الوضوء. وهذا يشابه ما لدى الصابئة المندائيون الآن بما يعرف ب(الرشاما والبراخا)، وهي الصلاة الواجبة والرسمية وفي نفس الأوقات ، كما أن قبلتهم واحدة فكلاهما يتجهون نحو الشمال، لاعتقادهم بأنها مركز علة الوجود².

4) المحرمات: تحرم الطائفتان أكل إناث البقر والضأن والحوامل من الحيوانات، وتحرم لبس اللون الأزرق والأسود، وفي الطائفتين أيضا لا يتم الزواج الا بولي وشهود، ولا يقرون مبدأ تعدد الزوجات، ولا يسمح بالطلاق أو هو محرم إلا في حالات خاصة جدا.

¹ محمد عبد الحميد: صابئة حران واخوان الصفا، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1998م، ص36.

² سليم برنجي: المرجع السابق، ص226.

أيضا كلا الطائفتان تحرمان اللطم والبكاء والحزن على الميت¹، لأن هذه الأفعال سوف تعيق الروح في معراجها عند الحرائين، ولأن هذه الأفعال تؤدي إلى عرقلة مسير النفس (نشمثا) إلى عوالم النور من قبل الأرواح الشريرة عند المندائية².

5) الطهارة: لدى الحرائين الوضوء في الماء الطاهر المطهر، ويتطهرون من الجنابة عند الاتصال الجنسي ومن لمس الميت، كما يعتزلون الطامث، نفس ما تنص عليه العادات والتقاليد المندائية. بالإضافة إلى الكثير من التشابه في الأفكار والفلسفة واللاهوت الديني، وفي النظرة اللاهوتية للرب العظيم ووجوده وكيونته.

وقع التباس لدى العديد من الباحثين فيما يخص الصابئة المندائيين، ذلك نتيجة لاستقرارهم لحقبة من الزمن قدرت بحوالي عشر سنوات بسبب فرارهم من الاضطهاد الذي وقع عليهم من قبل اليهود، ولاختلاطهم بالحرائين عبدة الكواكب والنجوم، أُخذ يُنسب إلى المندائيين بأنهم عبدة الكواكب والنجوم³.

ج- الموقف الثاني: يرى العديد من الباحثين أن صابئة البطائح لا علاقة لهم بالصابئة الحرائية لا من بعيد ولا من قريب، ولاتعدو هذه العلاقة الا تشابها في التسمية فقط، ويتبنى معظم الباحثين المعاصرين هذا الموقف من بينهم الليدي دراوور، وبعض المؤرخين الأوروبيين وحتى الباحثين المندائيين، وأدلتهم في ذلك هي:

1) الاختلاف في بناء المعابد:

مكان العبادة أو المندي عند المندائيين هو عبارة عن كوخ من القصب، يُقام على شاطئ نهر جارٍ أو نبع ماء جارٍ حي، وبابه متجه نحو الجنوب، ومحرا به نحو قبلتهم باتجاه الشمال، كم أن معابدهم خالية من أي تماثيل أو أصنام، وفيها يمارسون صلواتهم بعد تعميدهم بالماء الجاري وفيه يتم عقد الزواج ويقدمون فيه القرابين في الأعياد⁴. وقد ورد في الكنزاري ما نصه: «لا تسجدوا للشيطان ولا تعبدوا الأصنام والأوثان»⁵. وفي نص آخر من الكتاب نفسه جاء فيه: «أمسكوا ركبكم عن السجود للشيطان والأصنام الزيف»⁶. وأيضاً جاء: «من يقدم الضحايا والقرابين لمعابد الأصنام تعقد خطاه في جبل الظلام فلا يرى نور الله»⁷.

¹ محمد عمر حمادة: المرجع السابق، ص 148.

² الليدي دراوور: على ضفاف دجلة والفرات، ص 229.

³ محمد عبد الحميد: المرجع السابق، ص 7.

⁴ سليم برنجي: المرجع السابق، ص 226.

⁵ الكنزاري: اليمين، التسبيح الثاني، الوصايا، ص 11.

⁶ الكنزاري: اليمين، التسبيح الثاني، الوصايا، ص 14.

⁷ الكنزاري: اليمين، الكتاب السابع عشر، أنوش، ص 265.

أما معابد الصابئة الحرائية فقد كانت حجرية على الطراز المعماري للوثنية الرومانية بشكل دائري أو أسطوري، وأقاموا فيها هياكل وتمائيل للكواكب السبعة المقدسة لديهم. وقد ذكر عنهم الحارث بن سنان بن سنباط الحرائي بأن لهم هياكل على أسماء الجواهر العقلية أو الكواكب فمن ذلك هيكل العقل وهيكل النفس¹، وقد ذكر المسعودي (المتوفى 345هـ/956م) على أشكال تلك الهياكل قائلاً: « وهيكل زحل (مكعب) وهيكل المشتري (هرم)، وهيكل المريخ (مستطيل) وهيكل الشمس (مربع)، وهيكل عطارد (مثلث)، وهيكل الزهرة (مثلث في جوف مستطيل)، وهيكل القمر (مثن الشكل) »².

2) الاختلاف في طقوس الصلاة:

تسمى الصلاة عند المندائيين بالبراحة أي المباركة وتسبق الصلاة عندهم الرشامة أي الوضوء، حيث يتلو المندائي صلواته بتراتيل خاصة، وكانت صلاتهم خمس مرات يومياً ثلاث منها في النهار واثنان في الليل بدون ركعات وعدد غير محدد من السجود، ثم أصبحت في عهد النبي يحيى عليه السلام ثلاث مرات بأمر من الله. أما الصابئة الحرائيون فصلاتهم ثلاث مرات يومياً الصلاة الأولى قبل طلوع الشمس وهي ثمان ركعات وثلاث سجودات في كل ركعة، حيث يتلو أدعية تمجد الكواكب وتعظمها، والصلاة الثانية مع زوال الشمس وهي خمس ركعات وثلاث سجودات في كل ركعة، والثالثة مع غروب الشمس³.

إضافة إلى ما ذكرنا فقد استدلل الباحثون عن الفصل بين الطائفتين بأدلة أخرى كالاختلاف في طقوس التعميد، والاختلاف في نظرة كليهما لنشأة الخلق، وكذلك شكل القبور واتجاهها، إضافة إلى الاختلاف في عقيدة خلود النفس عند كل منهما⁴.

يتضح لنا من خلال طرح الموقفين أن كل منهما له حججه التي يبرر بها موقفه لكننا نلاحظ من خلال نظرة شاملة على الطائفتين أن نقاط التشابه والتلاقي بينهما أكثر بكثير من نقاط الاختلاف رغم إقرارنا بوجود اختلاف، ونعزو حسب اعتقادنا هذا الاختلاف إلى تباعد البيئتين اللتان عاشت فيهما كل طائفة، خاصة مع التأثيرات الخارجية كالفلسفات المختلفة التي انتشرت بكثرة في العهد العباسي، إضافة إلى تأثير الديانات الأخرى، وعليه نرجح الرأي القائل بأن الطائفتين من أصل دين واحد أكثر من الموقف الآخر.

¹ محمد عمر حمادة: المرجع السابق، ص 28.

² المسعودي: المصدر السابق، ج 465.

³ صادق شهيد الطائي: المرجع السابق، ص 125.

⁴ محمد عبد الحميد: المرجع السابق، ص 33-36.

3- الطقوس والعبادات عند الصابئة المندائيون:

مثل بقية أديان العالم فديانة الصابئة المندائية لها طقوسها وعباداتها التي تتميز بها عن الديانات الأخرى، فالصلاة والصوم والتعميد والصدقات تعد أهم أركان هذه الديانة، وفيما يلي نورد أهم العبادات والطقوس الصابئية:

أ- الصلاة (البراخا): الصلاة عند المتدينين رمز الخضوع والانقياد لآراء الشريعة، فالمصلي يؤدي بحركاته وأعماله، فروضا اعتقادية تدل عليها تلك الحركات والأعمال. وتعد الصلاة أقدم العبادات التي مارسها الانسان منذ الخليقة¹، فقد صلى البشر القديم والنحن أمام مظاهر الطبيعة حينما أربهته وأخافته وهو لا يزال حتى الآن ينحني تعظيما وإجلالا أمام ما يتصوره من القوى في هذا الكون. وقد تكون الصابئة من أشد الأمم محافظة على طقوسهم وعاداتهم، لذلك لا يستبعد البعض أن تكون صلاتهم هي أول وضع عرفه البشر للصلاة وهي تأدية فروض العبادة.

أما صلاتهم فهي تقتصر على الوقوف والركوع والجلوس على الأرض بدون سجود وتستغرق تلاوة الأذكار فيها ساعة وربع ساعة². وتبدأ الصلاة كما الأذان عند المسلمين، وهو عبارة عن أذكار مندائية تتلى بين الحاضرين بدون رفع صوت أو وقوف على محل شاهق كما يفعل المسلمون، ويتوجه المصلي عندهم إلى جهة الشمال رافعا يديه، وقليلًا من رأسه مع انحناء قليل بلباس خاص يدعى (الرسته)³، ثم يتلو سبع قراءات يمجدها فيها الرب ويدعوها بأسمائه الحسنى، ويستمد منه العفو، والشفاء من الأمراض، ورفع الكوارث عن قومه، وطلب الاتصال بعالم الأنوار (الكشط).

أما أوقات الصلاة فتكون على وفق ما هو مقرر في كتبهم المقدسة، فهي تؤدي ثلاث مرات في اليوم هي: قبيل الشروق، وعند الزوال، وقبيل الغروب، وتستحب أن تكون جماعة في أيام الآحاد والأعياد، وكما أشرنا سابقاً^h في صلاتهم وقوف وركوع وجلوس على الأرض من غير سجود، وتستغرق ساعة وربع الساعة⁴.

¹ عبد الرزاق الحسني: الصابئة قديما وحديثا، ص 39.

² محمد عمر حمادة: المرجع السابق، ص 100.

³ الرسته: اللباس الديني للصابئة المندائيين يلبسونه غي كل مناسباتهم الدينية. للمزيد أنظر: الليدي دراوور: الصابئة المندائيون، ص 61.

⁴ مانع بن حامد الجهني: المرجع السابق، ص 320.

وترى الصابئة أن فرض الصلاة كان أولاً على آدم أبي البشر بسبعة فروض يصلى منها خمسة في الأوقات التي يؤدي فيها المسلمون صلاتهم واثنان في غير هذه الأوقات، إلا أن شريعة آدم قد استمرت إلى أن جاء يحيى عليه السلام فنسخها بشريعته وجعل الصلاة ثلاثة فروض في ثلاثة أوقات كما هي اليوم عندهم¹.

ب- الطماشة (الطهارة): لا تصح الصلاة عند الصابئة بدون طهارة شأنها شأن بقية الأمم المتدينة، وكما تمنع الجنابة من إتيان الصلاة ومن تأدية الفروض الدينية عند معشر المسلمين، كذلك تمنع عندهم من تأدية الصلاة، أما غسل الجنابة فمشروط عندهم أن يكون بالماء الحي، وهو الماء غير المقطوع من مجراه الطبيعي²، فماء الحمام مثلاً في نظرهم، ليس بحي لا نقطاعه عن مجراه. أما كيفية الغسل فهي عبارة عن الارتماس في الماء الحي من دون تلاوة شيء، ولكن الغسل وحده لا يكفي عندهم فلا بد من الرشامة (الوضوء)³، وهو يجري عقب الغسل بأوضاع خاصة.

ج- الرشامة (الوضوء): يجلس المتوضئ على ضفة النهر، ويتلو الرخصة (النية) بلغتهم المندائية ثم يغسل يديه حتى المرفقين، ويعقبها بغسل وجهه ثم عورته ثم ركبتيه وكل ذلك ثلاثاً، ثم يمسح جبينه وأذنيه وأنفه، ويتلو في كل ذلك أدعية وتلاوات خاصة⁴. بعد ذلك يدخل رجله اليمنى في الماء ثم اليسرى ويتلو خلال ذلك هذا الدعاء (بشميهون أوهيي بولي أسوتا وزكوتا نهويلك يا أب ابوهن ملكامير ياويس بردنا ربا آدمياهي) ومعناه (السلام عليك أيها الماء الجاري من تحت عرش الرب الذي يحيي بك كل من في الأرض)⁵.

وكما المسلمين لديهم نواقض للرشامة أوالوضوء مثل رصف الأنف، أو خروج الدم من الفم، أو لمس لحم أجنبي أو خروج ريح.....الخ، كل هذه الأشياء تفسد الطهارة للصلاة وتوجب إعادتها، يذكر أن الرشامة (الوضوء) شرط وواجب عند كل صلاة⁶.

د- الصوم: لم تخل شريعة الصابئة المندائيين مثل الشرائع القديمة من ذكر الصوم وفرضه ومن تعيينه بمدة معلومة، مثلما حدث مع البابليين والمصريين القدماء وفي الحفريات الكلدانية، ما يؤكد أن الصوم عبادة عرفها البشر منذ القدم، وقد جاءت الأديان السماوية كاليهودية والنصرانية وأخيراً الإسلام ليؤكدوا جميعاً فرض الصوم على أتباعهم.

¹ محمد عمر حمادة: المرجع السابق، ص 101.

² سامي عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 165.

³ عبد الرزاق الحسني: الصابئة قديماً وحديثاً، ص 40.

⁴ سليم برنجي: المرجع السابق، ص ص 226-228.

⁵ ناجية مراني: المرجع السابق، ص ص 116-117.

⁶ محمد عمر حمادة: المرجع السابق، ص 100.

أما شريعة الصابئين، فنظرا لقدمها وانقطاع القائمين بها عن دراسة العلوم والفنون، تكاد تذهب فيها بعض الطقوس أو تتغير، فبينما نجد ابن النديم المؤرخ يذكر لنا فرض الصوم عند صابئة حرّان من الصابئين حيث يقول عليهم: «.. والمفترض عليهم من الصيام ثلاثون يوما أولها لثمان مضين من اجتماع آذار وتسعة آخر أولها لتسع باقين من اجتماع كانون الأول وسبعة أيام آخر أولها لثمان مضين من شباط وهي أعظمها، ولهم تنفل من صيامهم، وهي تسعة عشر وسبعة وعشرون يوما..»¹. ويختلف مفهوم الصيام عند الصابئة عنه عند المسلمين، فالصيام عندهم نوعين الصيام الكبير ويتمثل في صيام اليدين عن السرقة وأذى الناس، وصيام اللسان عن الكذب، وصيام العين عن النظر إلى ما حرم الله، وصيام القلب عن الباطل والفتن والنميمة... الخ، ويعنى صيام الجوارح والنفوس معا عن ما حرم الله سبحانه وتعالى².

والصيام الثاني هو الصيام الصغير ويعني امتناعهم عن الذبح وأكل اللحوم والسمك والبيض لمدة 36 يوما، وفي مصادر أخرى يقال 33 يوما، وفي أوقات محددة من أيام السنة على نحو ما هو عند النصارى. ويقول عبد الرزاق الحسني عن الصوم عند الصابئة (كل هذه المتناقضات إنما جاءت إليهم من تفرقهم وجهل علمائهم بما يحدث في الفنون وما يصل إليه البشر من الاكتشافات والعلوم)³.

هـ- الصدقة: تعد أحد أهم الفرائض في الديانة الصابئية، إذ أوصى المعلم يحيى إعطاء الصدقات في جميع المناسبات خاصة الأعياد الدينية، ويشترط فيها السر وعدم الإعلان عنها لأن التباهي والتفاخر بها إفساد لثوابها، كما يشترط في الصدقة عندهم أن تكون خالصة لله، وأن لا تكون تقربا لأي مخلوق كان⁴.

و- العماد (التعميد): يعتبر التعميد أهم ركن في ديانة الصابئة المندائية لذلك نجدهم يسكنون قرب مجاري الأنهار، حتى يسهل عليهم القيام بهذا الركن المقدس.

1) أنواعه:

- العام ويطلق عليه مصبوتا، ومن مستلزماته الماء الجاري، وقد سمح لهم رجال الدين الحاليون باستعمال أحواض الماء التي تقام داخل المندي مع أكليل الريحان أو "الآس" إشارة إلى الطيب كما يشترط الملابس الدينية مع ذكر هذا الدعاء "رسمي لا يكون بالنار ولا بالزيت ولا بالمسح رسمي بالماء العظيم ماء الله الحي".

- وهو العماد الشخصي ويسمى طماشة، وهذا العماد ذكرناه سابقا هو الاغتسال من النجاسات كالجنابة وغيرها.

¹ ابن النديم: المصدر السابق، ص 315.

² محمد نمر المديني: المرجع السابق، ص 28.

³ عبد الرزاق الحسني: الصابئة قديما وحديثا، ص 39.

⁴ ناجية مراني: المرجع السابق، ص 122-123.

- والنوع الثالث من العماد يسمى رشامة سبق وذكرناه أيضاً، هو الوضوء الذي يسبق الصلاة عند المندائيين، ويمارس ثلاث مرات يومياً وتغسل خلاله الأعضاء الخارجية¹.
والتعميد فهو أبرز معالم ديانة الصابئة المندائيين ولا يكون إلا في الماء الجاري، ولا تتم طقوسه إلا بالارتماس في الماء سواءً أكان الوقت صيفاً أم شتاءً، وقد أجاز لهم علماءهم مؤخراً الاغتسال في الحمامات، وكذلك في العيون النابعة لتحقيق الطهارة، ويجب أن يتم التعميد على أيدي رجال الدين.

(2) حالات التعميد: للتعميد حالات متعددة، وهي على النحو الآتي:

أ- **عماد الولادة**: يعمد المولود بعد 45 يوماً ليصبح طاهراً من دنس الولادة، ويتم ذلك بإدخال الوليد في الماء الجاري إلى ركبتيه مع الاتجاه إلى جهة نجم القطب².

ب- **عماد الزواج**: ويتم هذا التعميد يوم الأحد وبحضور ترميدة أو كنزيرا ويتم على ثلاث دفعات في الماء مع قراءة أدعية من كتاب الفلستا، ولباس خاص ثم يشرب العريس من قنينة ملئت بماء مأخوذ من النهر، ويدهن جنبيهما بدهن السمسم ويكون ذلك لكلا العروسين لكل منهما على حدى، وبعد انتهاء طقوس الزفاف في المندي بما فيها التعميد، يعمد الزوجين من جديد بعد سبعة أيام³.

ج- **عماد الجماعة**: ويكون في كل عيد (بنجة) من كل سنة كبيسة لمدة خمسة أيام ويشمل أبناء الطائفة جميعاً رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً وذلك بالارتماس بالماء الجاري ثلاث دفعات قبل تناول الطعام في كل يوم من أيام العيد، والمقصود منه التكفير عن الخطايا والذنوب المرتكبة في بحر السنة الماضية، وإلى جانب ما ذكر من أنواع التعميد هناك تعمد خاص بالأعياد وهي: تعمد أعياد الصابئة، وتعمد المحتضر ودفنه⁴.

4- أعياد الصابئة.

تقسم السنة عند الصابئة إلى 360 يوماً وإلى 12 شهراً في كل شهر ثلاثون يوماً، وأول السنة عندهم نيسان وتليه الشهور على الترتيب بأسماء تختلف قليلاً عن أسماء الشهور الرومية⁵.
وهو يقصدون يوم الأحد كالنصارى ويعطلون فيه أشغالهم لأنهم يعتقدون بنزول (موشيه) أحد الـ 320 قديس السماويين من عالم الأنوار (آلي دهورو) إلى الأرض لتعميد أهل (مشوني كسطه) ولذا فهم يسمون هذا اليوم باسم القديس السماوي، أما بقية أعيادهم الرسمية فهي:

¹ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج1، ص58.

² للمزيد أنظر: الليدي دراوور: الصابئة المندائيون، ص133.

³ عبد الفتاح الزهيري: المرجع السابق، ص ص222-223.

⁴ مانع بن حماد الجهني: المرجع السابق، ص322.

⁵ عبد الرزاق الحسني: الصابئة قديماً وحديثاً، ص56.

أ- العيد الكبير (دهوه ربا):

دهوه ربا تعني عيد ملك الأنوار، ويسمونه أيضاً عيد (نورو زربا) أي عيد اليوم الجديد، أما العامة فتسميه (عيد الكرصة) إذ كانوا يكرسون أي يعتكفون في بيوتهم 36 ساعة متتالية، ومدته أربعة أيام تبدأ باليوم السابع من شهر آب أغسطس (أوت) من كل سنة، وتنتهي باليوم العاشر منه، وفيه تنحر الخراف ويذبح الدجاج، ويصنع الخبز، ويوزع منه على الفقراء¹. ويزعم المندائيون أن الملاك الموكل بالماء قبل بدأ هذا العيد يصعد إلى السماء ليشرك أهلها فرحة هذا العيد، لذلك فهم يقومون قبل هذا العيد بتخزين المياه في بيوتهم لأن الأنهار في وقت العيد تكون ملوثة لغياب الملاك الموكل بحفظ المياه من ذلك التلوث، كما يعتقدون أن قوى الشر والظلام طليقة في تلك الأيام².

ب- العيد الصغير (رهوة حنية):

بالنسبة للمندائيين هو العيد الذي جمد فيه جبرائيل الأرض بعد أن كانت غازاً فهم يعتقدون أن الله أراد أن يخلق العالم فجعله من ماء أولاً ثم أمر جبريل فهبط إليه فجمده وجعله تربة كما هي. ومدة هذا العيد الشرعية يوم واحد يقع بعد عيدهم الكبير بمائة وثمانية عشر يوماً، ويقدم في القرابين عن أرواح الموتى، ويجري فيه التعميد³.

ج- عيد البنجة (دهوه برونايا):

يقع بعد العيد الصغير بأربعة أشهر، ويستمر خمسة أيام، ويكون حالياً في العشرة الأولى من نيسان أبريل، وفيه تفتح أبواب عالم الأنوار، وتظل مفتوحة آناء الليل وأطراف النهار فتجوز فيه الصلاة والذبح ليلاً في حين أنهما لا يجوزان في سائر أيام السنة إلا نهاراً، ويقبل الإله فيه الدعوات، وفيه يجري تعميد أبناء الطائفة رجالاً ونساء⁴.

د- عيد يحيي (دهوه ديمانة):

هو يوم واحد يلي عيد البنجة بستين يوماً أي يقع في الثامن أو التاسع من حزيران جوان، ويزعمون أن آدم عليه السلام قد عمّد في هذا اليوم بأمر من (ملكابا دهورا) فهو عيد مقدس يوجب التعميد على جميع الطائفة، وفيه أيضاً كانت ولادة النبي يحيى عليه السلام، وحيث أنه يقع في أول الصيف فهو أحسن المواسم لتعميد الأطفال لأول مرة⁵.

¹ سليم برنجي: المرجع السابق، ص 207.

² محمد عمر حمادة: المرجع السابق، ص 100.

³ علي محمد عبد الوهاب: المرجع السابق، ص 128.

⁴ الليدي دراوور: الصابنة المندائيون، ص ص 116-117.

⁵ عبد الرزاق الحسني: الصابنة قديما وحديثا، ص 57-58.

هـ - عيد شيشيان:

يأتي هذا العيد بعد العيد الكبير بخمسة أيام، وفيه يأخذ المندائيون غصنا من شجرة الغرب النهري (الخور النهري)، ويقرأ عليها رجال الدين التراتيل ليباركوه، ثم يضعون تلك الأغصان على أبواب بيوتهم¹.

و - العاشورية:

يصادف الأول من شهر سرطان المندائي (جويلية)، وتعد هذه المناسبة ذكرى حزينة عند الصابئة تقرأ فيها لوفاني (كالفاتحة عند المسلمين) لأن هذا اليوم الذي غرق فيه المصريون الذين لحقوا بني الله موسى عليه السلام (بني اليهود عند الصابئة)، لأنهم يعتبرون المصريين القدامى على دينهم². كما يقيمون مراسم الحزن على ضحايا طوفان سيدنا نوح عليه السلام ليتذكروا عاقبة الأعمال السيئة³.

في الأخير نستنتج أن ديانة الصابئة المندائية هي ديانة موحدة حسب أغلب الباحثين والدارسين بما فيهم عبد الرزاق الحسني، لها طقوسها وعبادتها الخاصة بها، كما نلاحظ تأثر هذه الديانة بالاسلام والنصرانية وذلك واضح في عدة طقوس دينية. كما نستنتج أيضا ان الباحثين لازالوا مختلفين في طبيعة العلاقة بين صابئة حران وصابئة البطائح رغم التشابه والتقارب الكبير بين الطائفتين.

¹ سليم برنجي: المرجع السابق، ص 207.

² الليدي دراوور: الصابئة المندائيون، ص 116.

³ سليم برنجي: المرجع السابق، ص 207.

المبحث الثاني: تاريخ الصابئة حتى عهد الحكم العثماني في العراق:

أولاً- جذور تواجد الصابئة بالعراق:

1- أصول الصابئة المندائيون:

لا يوجد اتفاق بين الباحثين حول أصول الصابئة المندائيون حيث انقسم أغلبهم صنفين الأول يرجع أصلهم إلى بلاد الرافدين معتمدين على عدة حجج بينما يرجع الصنف الثاني أصولهم إلى فلسطين ومنطقة البحر الميت، وكذلك له براهينهم ونذكرهما كالتالي:

أ- الأصل الشرقي للصابئة المندائيين:

اعتمد هؤلاء الباحثون على أدلة أثرية مندائية تمثلت في أواني فخارية عثر عليها في بدايات حملات التنقيب في المدن السومرية والبابلية تؤكد تواجد الصابئة في العراق منذ قديم الزمان، وقد وجدت مكتوبة بالخط المندائي تاريخها يعود إلى النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، حيث لم يكن فيها أي إشارة تدل على أن أصلهم من فلسطين¹.

والراجح في الأمر أن الصابئة كانوا على تواجد في بلاد الرافدين وبالتزامن كان لهم وجود في بلاد الشام فلسطين ومصر²، التي أثبت الباحثون أن لهم آثاراً مادية في تلك البلاد³. وعليه يتبنى الباحثون أن يكون المندائيون ومنشأهم بابلون من حيث المنشأ لكن بعضهم هاجر إلى بلاد الشام ومصر، كما دعم موقفهم التشابه بين الديانات البابلية وديانة الصابئة⁴، كتحريم حلق اللحى وشعر الرأس، وفي اللباس الديني الأبيض ويسمى في المندائية الرسته⁵.

ومن بين المؤيدين لهذا الموقف نذكر المستشرق الأكراني دانيال شوالسون (Chowolsohn) الذي اعتمد في دراساته على مصادر عربية وسريانية، والباحثة الانكليزية والأستاذة في جامعة كامبرج المتخصصة باللغة والديانة المندائية أريكا هنتر التي قالت: « ولني اختلف مع العلماء القائلين بأنها نشأت في فلسطين، وأقول بأن المندائية نشأت في العراق⁶ ». كما ذكر قبلها ياقوت الحموي أن الصابئة كانوا يسكنون بلدة

¹ محمد نمر المدني: المرجع السابق، ص 262.

² يعتقد المندائيين اليوم ان أجدادهم كانوا في مصر، وإنهم طاردوا مع فرعون اليهود الذين فروا مع النبي موسى عليه السلام، ثم غرقوا في البحر الأحمر، ويقيم المندائيون وجبة طقسية على أرواح أجدادهم الغرقى في ذكرى الحملة المصرية، ويطلقون على تلك الوجبة اسم العاشورية، ينظر: الليدي دراوور: الصابئة المندائيون، هامش المترجمان، ص 50.

³ محمد نمر المدني: المرجع السابق، ص 29.

⁴ Aprim F., M.j, Amadaean phylaclrcy, Iraq, 1938, P.5.

⁵ عزيز سباهي: المرجع السابق، ص 65-66.

⁶ مكلف مؤيد: الصابئة المندائيون في العهد الساساني، مجلة آفاق مندائية، العدد 17، جويلية 2011.

الطيب بوادي الرافدين¹، إضافة إلى عدة باحثين مندائيين رأوا بأن الصابئة المندائيون شعب آرامي قديم، ولغتهم آرامية سريانية شرقية تسمى اللغة المندائية وأصولهم من بلاد الرافدين.

ب-الأصل الغربي للصابئة المندائيين: أثبتت وثائق عثر عليها في بداية خمسينات القرن العشرين والمسماة مخطوطات البحر الميت أن أصل ومنشأ الصابئة المندائيون من منطقة البحر الميت فلسطين أو شرق الأردن، ويدعم هذا الموقف أن جميع الأماكن المقدسة المذكورة في الكتب الدينية كالكرمل والقدس تقع في فلسطين²، لكنهم هاجروا إلى العراق في أوقات اختلف حولها بين المتخصصين ومن الذين أيدوا هذا الرأي نجد عالم اللغات الألماني ماتسوخ (Macuch) حيث أكد على أن هجرة المندائيين من وادي الأردن إلى المرتفعات الميمنية³، حدثت خلال مدة حكم الملك الفرثي أردوان الثالث⁴ (12ق - 44م)، ويرى آخرون أنها حدثت في مرحلة حكم أردوان الرابع القصيرة (أربعة أشهر)، وهي غير مثبتة تاريخياً، وذكر المؤرخ الألماني رودولف (Rudolph) أن هجرة المندائيين جرت في زمن أردوان الخامس⁵ (200-226م).

وقبل انتهاء الحكم الفرثي في حدود القرن الأول الميلادي هاجر المندائيون من القدس، بعد الاضطهاد الذي تعرضوا له على أيدي اليهود وسلطتهم الزمنية في فلسطين قبل نحو ألفي سنة وبسببها هاجروا إلى مدينة حران⁶، ثم إلى بلاد العراق.

بينما ذهب قسم من الباحثين إلى أن الاضطهاد الذي تعرض له المندائيين وكان سبباً في هجرتهم لم يكن من قبل اليهود، بل من قبل عددٍ من المسيحيين المتعصبين، وقد تم تحت رعاية السلطة البيزنطية بعدما أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، على اعتبار أن المندائيين من المارقين عن الديانة المسيحية، وهو ما ظهر في مكتشفات نجع حمادي في مصر (1945-1946م)⁷، والتي عثر فيها على لفائف تتحدث عن عقيدة الطوائف التي عاشت في كهوف بالقرب من البحر الميت، حيث جاء في إحدى

¹ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص231.

² الليدي داروور: على ضفاف دجلة والفرات، ص225.

³ هي المناطق التي تشمل منابع نهر دياي من الأراضي والسهول والبطائح وخاصة مندلي والطيب في ميسان.

⁴ أحد ملوك الدولة الفرثية الفارسية، جسد المقاومة الوطنية ضد التأثير الهليني والروماني، وقد سمح للمسيحيين ببناء أول كنيسة لهم في العالم سميت تل كوخى بالقرب من عاصمة الفرثيين طيسفون بعدما استطاع أحد المبشرين المسيحيين يسمى مار ماري من شفاء أخيه من مرض عضال.

أنظر: Cross frank, The Ancicent library of Qumran, Baker book house, Michigan 1980.

⁵ هو آخر ملوك الدولة الفرثية من الارشاقيين، حارب كركلا روماسيان وانتصر عليها سنة 1216م، لكنه خسر وقتل في ثورة أردشير (مؤسس الدولة الساسانية)، سنة 226م، للمزيد ينظر:

Rndolph, kurt, Gnosis, Trans T.m, (san Francisco, Harperm world, 1938), P.92.

⁶ ديوان حران كويتا: تعريب نعيم بدوي، مكتبة موسوعة العيون المعرفية، بغداد، 2014م، ص3.

⁷ عزيز سيباهي: المرجع السابق، ص36.

المخطوطات، بأن يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) قد تنبأ بأن الذي سيأتي بعده سيحكم بعقوبة النار في اشارة إلى حكم المسيحيين¹.

2- التطور العقائدي لديانة الصابئة:

أ- الصابئة في الدور الأول: لا شك أن الديانة التي سادت العالم في العصور الأولى كانت هي (الديانة الطبيعية) أي عبادة المظاهر الطبيعية. وكان للأجرام السماوية بين تلك المظاهر المقام الأول والقدح المعلى، فكان البشر الأول رغم دخوله في دور الحضارة وتأسيسه أصول المدنية، لا يزال في ديانتته يمثل عصر ما قبل التاريخ.

وإذا اعتبرنا أن ديانة الصابئة هي عبادة الكواكب والنجوم فلا شك أنها أقدم ديانة عرفها البشر في عصر التاريخ، أما أصول هذه الديانة فهي الاعتقاد بتعدد القوى المدبرة لهذا الكون وبوجود قوة أعلى تهيمن على هذه القوى وتديرها، أما هذه الهياكل التي يقيمونها في الأرض وتلك المظاهر والطقوس كلها وسائط تقربهم من تلك الأجرام التي حلت فيها القوة².

هذه هي أصول ديانة الصابئة في دورها الأول وقد بقى على تطورها طيلة هذه العصور شيء من تلك الأصول يوجد في عبادة الصابئة الحاليين من تعظيمهم للكواكب والنجوم ولاسيما الكواكب السيارة السبع³.

ب- الصابئة في الدور الثاني: يذهب البعض إلى القول بأن الصابئة انتقلت من دورها الأول إلى دورها الثاني مباشرة ومن دون عملية تطور. والملاحظ عن الصابئة بعد مرور عصور طويلة، أصبحت تبني الهياكل وتسميها بأسماء الكواكب وتقيم في وسطها التماثيل وتبني على المرتفعات العالية الأوابد والرموز⁴. أما الأسباب التي دعت إلى هذا الانتقال فهي مما تساعد عليه عوامل التطور ويقتضيه تقدم البشر في الحضارة، فالفكر وسائر وجودات الإنسان الأخرى تتمشى في سوية واحدة وتتطور على نسق واحد.

ولا يزال الصابئة الحاليون يقدسون مظاهر الطبيعة ويرون في النار والشهب والرعد والبرق وسائر الظواهر الجوية رمزا يعبر عن إحدى تلك الكواكب، وقد تخيلوا لتلك الأجرام العلوية أشكالاً خاصة نحتوا على صورها الأوابد والتماثيل المقامة في الأماكن المرتفعة فكان لكل نجم صورة ولكل كوكب تمثال خاص

¹ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج1، ص 116.

² محمد عمر حمادة: المرجع السابق، ص32.

³ عبد الرزاق الحسني: الصابئة قديما وحديثا، ص ص 08-09.

⁴ الشهرستاني: المصدر السابق، ج2، ص ص 107-108.

يمثله في أدوار ظهوره وهكذا ظلت الأوباد والتمائيل الخالدة تعبر لنا عن تفكير البشر الأول في خالقه وتصوره للقوة المدبرة¹.

ج- الصابئة في الدور الثالث: بدأ هذا الدور باستقرار ديانة الصابئة ودخولها ضمن الكتب والأسفار واعتناء الكهنة بدراستها وتدريسها فكانت وكان فيها مجال واسع للنظر والبحث والفلسفة والتعليل شأن كل ديانة تستقر وتستمر. والذي يظهر من تتبع التاريخ، أن هذا الدور كان دور تعليل وتحليل لأصول الديانة، فتعاليم الصابئة في هذا الدور تأثرت نوعاً ما بهذا النوع من الفلسفة وكانت الأبحاث فيها تدور عن حقيقة التمثيل والقوة وعن قابلية الكواكب واستعدادها وعن التأثيرات الكونية وعلاقتها بهذه الكواكب وعن خواص الأسماء والحروف وعن مبدأ العالم ومنتهاه.

ويمكننا من دراسة تاريخ بعض الأديان أن نعرف الأدوار التي ظهر فيها بعض الأنبياء فزمن الخليل الذي جاء ذكره في القرآن الكريم، وطرق استدلاله ومحاجته، يبين بوضوح أنه جاء في زمن الفلسفة الدينية أي الدور الثالث للديانة الصابئية².

د- الصابئة في الدور الرابع: كان للانقلاب الذي حدث قبيل ميلاد المسيح عليه السلام، وما جاء بعده من التطورات الدينية، أثر بيّن في الديانات الأخرى، وكانت فكرة ظهوره مجدّد للغاية العامة، متغلغلة في نفوس أصحاب كل دين، فقد مال الصابئة إلى الاعتقاد بأن يوحنا المعمدان هو الرجل المجدد المنتظر فاعتقدوا به وعظموه ولا يزال الصابئة حتى الآن يذكرون له بعض التعاليم ويعتقدون بصفته المعلم والمجدد³. ومن الخطأ الاعتقاد بأن الصابئة قد انقرضت منذ ظهور المسيح عليه السلام، وأن المعتقدين بها قد اندمجوا في الديانة النصرانية، إذ لا يزال القسم الكبير من الصابئة الحاليين يعتقدون بأصول المعتقد الأول الذي يرمي إلى تقديس الكواكب وتأليه النجوم⁴.

¹ محمد عمر حمادة: المرجع السابق، ص 32.

² عبد الرزاق الحسني: الصابئة قديماً وحديثاً، ص ص 12-13.

³ عبد الفتاح الزهيري: المرجع السابق، ص 38.

⁴ عبد الرزاق الحسني: الصابئة قديماً وحديثاً، ص ص 14-15.

ثانياً- تاريخ صابئة العراق قبل الفتح الاسلامي:

1- تاريخهم قبل عهد سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام: يصف الصابئة المندائيون أنفسهم أنهم أقدم ديانة سماوية موحدة اذ يعود تاريخ ديانتهم إلى عهد سيدنا آدم عليه السلام وابنه شيث كما قال عنهم الباحثون، كما أن لهم حكاياتهم من كتبهم الدينية حول حادثة الطوفان¹، والنبي نوح عليه السلام الذي يعتقدون أنه بنى مدينة حران كأول مدينة تبنى بعد فناء الأرض في هذه الحادثة.

وبغض النظر عن الروايات المندائية فان الدراسات العلمية التي اعتمدت على بعض الآثار المادية كالأواني الفخارية المكتوبة باللغة المندائية، وبعض المخطوطات التي وجدت في مناطق متفرقة من مدن الحضارات القديمة على ضفاف الفرات شمال مدينة المسيب الواقعة بين بغداد وبابل أن هذه الديانة تمتد جذورها إلى 2000 سنة ق.م على الأقل، كما استدل هؤلاء الباحثون على التشابه والتقاطع الكبيرين بين المندائية وديانة سومر، فأثرت وتأثرت بأديان بلاد الرافدين آنذاك، ويذكر أن الصابئة كانوا أقلية وسط الأديان الوثنية، والدليل أنه عندما بعث أبو الأنبياء ابراهيم عليه السلام كانت هذه الديانة موجودة ولها أتباع لكنهم حادوا عن جادة الصواب حين عبدوا الأوثان وجسموا الكواكب والأجرام السماوية فبعث الله النبي ابراهيم ليردهم إلى الحق وعبادة الله تعالى².

أما نبي الله ادريس عليه السلام فقد ذكرت المصادر المختلفة أنه عاش في مصر رغم أن الاختلاف حول مولده لازال قائماً بين من يرى أنه ولد في العراق ثم هاجر إلى مصر وبين من يرى أنه ولد بمصر، لكنهم اتفقوا أن ادريس كان أول من دعى الناس إلى توحيد الله تعالى وأن كثير من المصريين آمنوا بدعوته، وعليه فان الصابئة كانوا متواجدين في مصر كما في بلاد الرافدين قبل مولد سيدنا ابراهيم عليه السلام، وكما ذكرنا تؤثر وتتأثر وهو ما ينعكس في شكل اختلافات بينها.

قال الله تعالى: ﴿وَأُذْكِرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۖ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۖ﴾^(٥٧) (٣). فإدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية، وهو خنوخ هذا.. وهو في عمود نسب رسول الله ﷺ على ما ذكره غير واحد من علماء النسب. وكان أول من أعطى النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام.

¹ سليم برنجي: المصدر السابق، ص ص 67-68.

² عبد الفتاح الزهيري: المرجع السابق، ص 38.

³ سورة مريم: الآيتان 56-57.

وذكر المؤرخون أنه أول من خط بالقلم، وقد أدرك من حياة آدم ثلاثمائة سنة وثمان سنين¹. وقد قالت طائفة من الناس إنه المشار إليه في حديث معاوية بن الحكم السلمي لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمال فقال: "إنه كان نبي يخط فمن وافق خطه فذاك"².

إدريس ولد ببابل وبها نشأ، ولما كبر آتاه الله النبوة فنهى المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث، فأطاعه أقلهم وخالفه جلهم، فنوى الرحلة عنهم وأمر من أطاع منهم بذلك، فخرجوا معه إلى مصر، وأقام إدريس ومن معه بمصر يدعو الخلق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله عز وجل. وتكلم الناس في أيامه باثنين وسبعين لساناً، وعلمه الله عز وجل منطقهم ليعلم كل فرقة منهم بلسانهم، ورسم لهم تمدن المدن، وجمع له طالبو العلم بكل مدينة، فعرفهم السياسة المدنية، وقرر لهم قواعدها، فبنت كل فرقة من الأمم مدناً في أرضها، فكانت عدة المدن التي أنشئت في زمانه مائة مدينة وثمانين، أصغرها الرها، وعلمهم العلوم، وهو أول من استخدم الحكمة وعلم النجوم، فإن الله عز وجل أفهمه أسرار الفلك وتركيبه واجتماع الكواكب فيه، وأفهمه عدد السنين والحساب.

وما يدل على أن الديانة الصابئية كانت موجودة بمصر هو أن الصابئة المندائيون في العراق يحيون عاشورية ذكرى غرق فرعون وأتباعه في البحر عندما كانوا يلاحقون سيدنا موسى عليه السلام بكثير من الحزن وتعد بالنسبة لهم يوماً حزيناً على أتباع ديانتهم الصابئية³.

هذا وفي معتقدات الصابئة أحاديث وحكايات طويلة عن النبي إدريس لا يسعنا ذكرها كحكاية أنه عرج على ملكوت الأرض وشاهد عدة أحداث يعتقدونها في ديانتهم ويؤمنون بها ولم نجد في القرآن أو باقي الكتب السماوية أو حتى الكتابات التاريخية ما يشبهها لذا نتحفظ على ذكرها لكن الصابئة توارثوها إلى اليوم. ويمكننا القول أن أتباع هذه الديانة تأرجحت أوضاعهم قبل عهد سيدنا إبراهيم بين الضيق والفرج بحسب ما عايشوه من ملوك الحضارات القديمة، فمنهم من احترم ديانتهم فكان رحيماً بهم، ومنهم من نكل بهم ونكل بكل من يخالف شريعته التي اتبعها وفرضها على رعيته.

¹ المسعودي: المصدر السابق، م 1، ص 43.

² أخرجه أحمد في مسنده: 5 / 447، 448.

³ الليدي دراوور: الصابئة المندائيون، ص 116.

2- تاريخ الصابئة المندائيين بعد بعث سيدنا ابراهيم إلى عهد سيدنا يحيى عليه السلام:

يذهب أغلب الباحثين إلى أن بعث سيدنا ابراهيم كان في حدود القرن التاسع عشر قبل الميلاد¹، وقد ولد بمدينة أور الأكادية (في عهد الحضارة الأكادية)، وقد وردت روايات متناقضة عن حياته وشخصيته في تراث المندائية بالرغم من وضوح الصورة لدى المسلمين عن كون سيدنا ابراهيم بعث لقوم يعبدون الأصنام والأجرام السماوية، لكن التفسير الأقرب للواقع هو أن الصابئة كانوا القوم الذين وحدوا الله تعالى لكن معاشيتهم لأديان يلاذ الرافدين الوثنية أدت بهم إلى تجسيم الأجرام السماوية والكواكب داخل معابدهم، فبعث الله النبي ابراهيم ليدعو الناس إلى عبادة الله الواحد والتخلي عن عبادة الأصنام والمجسمات².

يذكر أن سيدنا ابراهيم عليه السلام ولد ببابل ثم ارتحل هو ووزجته سارة وابن أخيه لوط قاصدين أرض الكنعانيين، وهي بلاد بيت المقدس، فأقاموا بجران وكانوا يعبدون الكواكب فقال الله تعالى: «وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»³

وهذه المناظرة بيان عن قوم قدسوا هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة التي لا تصلح للألوهية، ولا أن تعبد مع الله عز وجل لأنها مخلوقة ومسخرة، تطلع وتأفل أخرى، أما الله تعالى لا يغيب اطلاقاً ولا يغيب عنه شيء، وفي هذه القصة دليل على وجود من كانوا يعتقدون في الكواكب والأجرام السماوية⁴.

كما تذكر المصادر أن سيدنا ابراهيم كان له أتباع من الصابئة الأحناف في كل المناطق التي ارتحل لها كالحجاز والشام وغيرها، وهذا يدل على أن هذه الديانة كانت موجودة في مناطق كثيرة ومتباعدة لكنهم وحدوا الله تعالى وآمنوا بدعوته وهجروا الشرك والديانات التي كانوا يعبدونها قبل دعوة سيدنا ابراهيم.

وفي العهد البابلي الأخير تبنى شعوب المنطقة اللغة الآرامية لغة رسمية لأسباب كثيرة، واستخدمت بكثرة في بابل والقسم الأوسط من العراق القديم⁵، وكانت اللغة المهيمنة في القسم الجنوبي من بلاد ما بين

¹ أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، ص ٥٥.

² عبد الفتاح الزهيري: المرجع السابق، ص 46.

³ سورة الأنعام: الآيات 77-78-79-80.

⁴ الشهرستاني: المصدر السابق، ج 2، ص ص 111-112.

⁵ محمد نمر المدني: المرجع السابق، 340.

النهرين وفي ما يعرف الآن ببلاد خوزستان في إيران، وهي نفس اللغة التي يستخدمها الصابئة المندائيون اليوم في كتبهم ونصوصهم الدينية، وهذا يدل على تأثير الصابئة في هذه الفترة من تاريخ العراق القديم¹. ومع قيام الحكم الساساني أصبح المندائيون الكتبة والنساخ الرئيسيين للوثائق الرسمية بكل اللهجات السائدة، واهتموا باللغات فأصبحوا همزة الوصل بين الأقوام العربية والآرامية وبين الفرس الساسانيين وحتى الجيوش اليونانية حين غزت العراق في القرن الرابع ق.م، واتخذت من بابل عاصمة لها تحت قيادة الاسكندر المقدوني².

هذا، وقد أكدت الكتابات التاريخية أن أكثر سكان المدائن عاصمة الفرس الساسانيين الشتوية من الآراميين والمندائيين، ولهم فيها معابد كثيرة، وزاد عددهم في الفترة الساسانية خصوصاً شرق دجلة وضاف الكرخة، ويذكر أنهم تفوقوا في صناعة الذهب والفضة والأحجار الكريمة³، لكن القسم الأكبر منهم في هذه الفترة فقد عملوا بالفلاحة وزراعة الأرض حيث استوطنوا الأهوار وضاف الأنهار، وقاموا بتنظيم قنوات الري.

3- تاريخ الصابئة بعد ميلاد يحيى عليه السلام: يعتبر الصابئة المندائيون النبي يحيى بن زكريا عليهما السلام هو آخر معلميهما، وهو من وضع أسس هذه الديانة، ويعتبر كتاب تعاليم ومواعظ النبي يحيى (كدابا دراشا اد يهيا) ثاني أهم الكتب التشريعية عند الصابئة المندائيين بعد الكتاب الصابئي المقدس الذي يسمونه بكتاب الكنز العظيم المبارك كنزاً، ويحتوي هذا الكتاب على تعاليم وعظات وحكم ونبوءات النبي سام بن نوح والنبي يحيى بن زكريا عليهما السلام، و للنبي يحيى (المعلم) مكانة مميزة عند الصابئة المندائيين فهم يسيرون وفق معتقدتهم على خطاه المباركة وعلى نهجه القويم فهو معلم الشريعة الحققة⁴.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى اسم يحيى عليه السلام في القرآن الكريم في أربع آيات في كل من سور آل عمران والأنعام ومريم والأنبياء، وقد أثنى الله تبارك وتعالى عليه كثيراً، ووصفه بالبر والتقوى والصلاح والاستقامة، وأعطاه الله تعالى النبوة في صباه وجعله سيداً إذ قال عز وجل ﴿يَكِيحَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝١٢ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾⁵. ينتهي نسب النبي يحيى بن زكريا عليه السلام إلى يعقوب عليه السلام، وهو من أنبياء بني إسرائيل كأبيه زكريا عليهما السلام الذين بلغوا الناس ما أمرهم الله بتبليغه وجاهدوا في الله حق

¹ عبد الفتاح الزهيري: المرجع السابق، ص 49.

² أحمد سوسة: ملامح من التاريخ اليهودي القديم، ص 146.

³ صادق شهيد الطائي: المرجع السابق، ص 196.

⁴ محمد نمر المدني: المرجع السابق، 204.

⁵ سورة مريم: الآيات 12-13-14-15.

جهاده، وقد ولد نبي الله يحيى قبل مولد المسيح عليهما السلام بثلاثة أشهر، وقيل بثلاث سنين، وكان ابن خالته، وقد عاصره وعاش معه فترة طويلة، ورافق مراحل دعوته، قال الله عز وجل: ﴿يُزَكِّرُنَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾¹، قيل أي لم يسم أحد يحيى قبله، ووجه الفضيلة في ذلك أن الله تعالى تولى تسميته ولم يكل ذلك إلى أبويه فسماه باسم لم يسبق إليه.

يحكى عنه أنه كان حسن الصوت حسن الوجه مثل جميع الأنبياء والمرسلين، وكان عليه السلام قويا في طاعة الله منذ صباه، وقد نشأ نشأة صلاح وتقى وطهر ونقاء كسائر الأنبياء، فقد كان بعيدا عن مظاهر الترف والنعيم، وكان في شبابه يأوي إلى القفار والبراري، ويكتفي بما يسهله الله له من الرزق، وكان طعامه العشب، وكان عليه السلام كثير العبادة والتضرع والبكاء من خشية الله تعالى، وكان كثير العزلة عن الناس، يرد ماء الأنهار، وكان عيسى ابن مريم يلبس الصوف، ويحيى يلبس الوبر، ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم ولا عبد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه، فأين ما جئ عليهما الليل أويا، فإذا أرادا الافتراق أوصى بعضهما بعضا بطاعة الله تبارك وتعالى. ويعتقد الصابئة أنه جاء ليصحح عقيدتهم من الشوائب، ويضع الأسس الصحيحة لديانتهم، ويروون عنه أنه عمد السيد المسيح عليه السلام، كما تقول التعاليم المندائية أن المسيح حرف كلمات النور وادعى الألوهية².

بعد وفاة النبي يحيى عليه السلام شهد تاريخ الصابئة في القدس مجزرة قام بها اليهود ضد الصابئة راح ضحيتها أكثر من 360 رجل دين مندائي ففروا إلى الجبال، وتمت ملاحقتهم والقضاء عليهم فهاجر من بقي حيا منهم إلى حران، فاستوطن بعضهم تلك البلاد، وبعضهم تابع هجرته إلى بلاد العراق خاصة البطائح التي لازالوا يقطنونها حتى الآن، وفي هذه الفترة أكدت المصادر التاريخية أن التدوين توقف لفترة طويلة³.

كان العراق يتبع الدولة الساسانية الفارسية منذ القرن الثالث الميلادي، وكانت أحوال الصابئة في كثير من الأحيان تتبع مدى تعصب الملك الساساني لديانته التي هي ديانة الدولة، فان كان متفتحا على الاختلاف كانت أوضاعهم مستقرة وان كان متعصبا لاقوا كل أنواع التضييق التي تصل إلى الإبادة. تمتع المندائيون تحت حكم الملك ازدشير الأخير بحماية الدولة، ولكن الأمر تغير حين جاء إلى السلطة الملك الساساني بهرام الأول سنة 273م، حيث قام باعدام ماني مؤسس الديانة المانوية، وامتد الاضطهاد

¹ سورة مريم: الآية 7.

² محمد عمر حمادة: المرجع السابق، ص 32.

³ سليم برنجي: المرجع السابق، ص 89.

الساساني الديني ليشمل اتباع الديانات الأخرى الغير زرادشتية مثل المندائية والمناوية واليهودية والمسيحية والهندوسية والبوذية¹.

ثالثاً- تاريخ الصابئة منذ الفتح الاسلامي حتى بداية الوجود العثماني:

ذكرنا سابقا ان أوضاع طائفة الصابئة المندائيين لم تستقر اطلاقا قبل الفتح الاسلامي لكن مع انتصار المسلمين في معركة القادسية عام 636م بقيادة الصحابي سعد بن أبي وقاص، وتوغل الجيوش الاسلامية في أرض السواد دون مقاومة تذكر حتى وصلت إلى مشارف مدينة الطيب، وهناك تقدم وفد من المندائيين بزعامة رجل الدين أنش بن دنقا حيث رحبوا بالأمير الفاتح، وقدموا له نسخة من كتابهم الكنزانيا، وبدوره الأمير رحب بهم وأقرهم على دينهم، وأمنهم على أموالهم مقابل دفع الجزية أسوة بأهل الكتاب².

وقد أكدت الكتابات التاريخية أن الطائفة المندائية في عهود الحكم الاسلامي لبلاد العراق تمتعت بنوع من الاستقرار المادي والمعنوي بالنظر إلى ما سبقها من فترات سادت فيها الاضطرابات خاصة أن الخلفاء الراشدين عاملوهم على أنهم من أهل الكتاب، كما سار الخلفاء الأمويون على نهج سابقيهم وحافظوا على نفس القواعد في تعاملهم مع هذه الطائفة، مع استثناء ما حصل في عهد معاوية ابن أبي سفيان الذي كاد أن يرفع عنهم الجزية عندما أخبره البعض أنهم يصلون خمس مثل المسلمين وقبلتهم أيضاً كالمسلمين لكن أخبره آخرون أنهم ليسوا كذلك فأبقى عنهم الجزية³.

وتؤكد أغلب الدراسات التاريخية أن صابئة حران عوملوا من قبل الحكام المسلمين بنفس الطريقة خلال الفترة ذاتها، وبالرغم من تمتعهم بالاستقرار الا أنهم لم يلعبوا ادوارا بارزة في عصر صدر الاسلام لكن مع تأسيس الدولة العباسية عام 132هـ بدأ دور الصابئة يبرز ويتعاظم حتى بلغوا مناصب مرموقة في الدولة كرئيس ديوان رسائل الخليفة ورئيس الأطباء وغيرها، وقد ساعدتهم في ذلك اقامتهم ببغداد بالقرب من الخلفاء العباسيين، ووصلوا إلى درجات عالية من العلم كعلم الفلك والهندسة والطب والترجمة والأدب وغيرها.

وتجدر الإشارة أن الخليفة ابو جعفر المنصور عند توليه الخلافة استفتى الامام أبو حنيفة في أمر الصابئة فأجاب بأخذ الجزية منهم أسوة بأهل الكتاب، لكن لا تؤكل ذبائهم ولا تنكح نسائهم⁴، فعمل الخلفاء العباسيون على تلك القاعدة في تعاملهم معهم، لكن الاستثناء كان مع القاضي والفقيه أبي سعيد بن يزيد

¹ البير أبونا: تاريخ الكنيسة الشرقية، ج1، ص 30.

² سليم برنجي: المرجع السابق، ص 81.

³ أحمد عبد المنعم العدوي: المرجع السابق، ص 136-137.

⁴ أحمد عبد المنعم العدوي: المرجع السابق، ص 140.

الاصطخري(ت 328هـ) الذي أفتى باراقة دمائمهم في عهد القاهر بالله، وهم الخليفة بذلك لو لا أن جمعوا له أموالا كثيرة فعدل عن ذلك¹.

بعد ذلك كل من أفتى باراقة دمائمهم من قبل بعض الفقهاء المسلمين اعتمدوا على فتوى الاصطخري، لكن هذا كما ذكرنا كان استثناء والدليل أن الصابئة عاشوا أزهى عصورهم في جو من الازدهار العلمي والثقافي كان لهم دور كبير تذكره أغلب المصادر التاريخية فبرز منهم علماء عظام في مجالات متعددة نذكر منهم في تلك الفترة:

1- ثابت بن قرة بن مروان الحراني: ولد العام (221هـ/836م) وتوفي عام (288هـ/901م) وقد كان له الفضل في ابتداء علم التفاضل والتكامل، وأسهم معه في هذا الفضل المفكر العربي البوزجاني، وكان لهذا العلم تأثيره الملحوظ في تقدم الرياضيات والعلم الطبيعي في عصرنا الحاضر.

وتخبرنا كتب التاريخ أن ثابتاً وهو أشهر علماء الصابئة في العهد الإسلامي بدأ حياته في حران، حيث كان يمارس مهنة الصيرفة، ثم ارتحل إلى بغداد لخلاف بينه وبين علماء دينه²، وكان يحسن اللغة اليونانية والسريانية والعبرية، فضلاً عن العربية، كما كان يجيد النقل والترجمة إلى العربية، ومن حذاق المترجمين، وكانت له مكانة ممتازة بين من نقحوا وأصلحوا الترجمات العربية للكتب الرياضية والفلكية، كما يخبرنا المؤرخون أنه اشتغل بعلوم الأوائل فمهر بها وبرع، وكانت له معارف واسعة ونشاط هائل فيها، فاتخذه الأمير المعتضد (الذي أصبح خليفة فيما بعد) صديقاً له. وفي أثناء خلافته وصل ثابت بن قرة إلى أعلى المراتب في الدولة³.

وقد كتب عددًا من الرسائل الصغيرة في الفلك والهندسة، وكان له عليها تعليقات جيدة، ولم يقتصر نشاط ثابت على النقل والتأليف في الرياضيات والفلك، بل امتد إلى ميدان الطب أيضاً، فقد ترجم كتاب الأدوية المفردة لجالينوس، وإننا لندين له بكتاب (الذخيرة في الطب) الذي وضعه لابنه سنان. وقد ضاعت أكثر هذه المؤلفات والنقول في الحروب والانقلابات والحرائق، ولم يصل إلينا إلا القليل منها. وعامة فقد بلغت مؤلفاته ثلاثة وعشرين كتاباً، منها خمسة في الطب والباقي في الحساب والهندسة والفلك، هذا فضلاً عما كتب في طقوس الديانة الصابئية وتعاليمها.

¹ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج 1، ص ص 116-117.

² محمد عمر جمادة: المرجع السابق، ص 169.

³ عبد الفتاح الزهيري: المرجع السابق، ص ص 165-166.

لقد كانت الترجمات التي أنجزها ثابت بن قرة من الأهمية بمكان، بحيث سهلت على أولئك الدارسين الذين لا يعرفون اللغة اليونانية الاطلاع عليها والوقوف على ما وصل إليه علماء اليونان في كل مجال تطرق إليه في ترجماته.

2- سنان بن ثابت بن قرة: هو أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة الحراني نسبة إلى مدينة حران، هو طبيب رياضي فلكي¹، مؤرخ أديب، ولد في حران عام (266هـ - 880م)، وانتقل إلى بغداد حاضرة الثقافة والعلم في القرن الرابع الهجري، إذ كانت الحضارة العربية الإسلامية في أوج تألقها. ثم تابع سنان دراسته في الطب، وبرز فيه، ووضع براعته في خدمة الخلفاء العباسيين، وغدا طبيب الخليفة المقتدر بالله (295-320هـ/907-932م)، وفي عهده دخل سنان بن ثابت الإسلام، ثم خدم الخليفة القاهر بالله (320-322هـ/932-933م) ثم الخليفة الراضي بالله في بغداد (322-329هـ/933-940م). وقد عظمت منزلته عند الخلفاء وغدا رئيس أطباء بغداد، وأطلق المقتدر بالله يد سنان في تنظيم مهنة الطب وذلك إثر غلط وقع فيه طبيب في بغداد أدى إلى موت المريض، وأمره بإجراء امتحان لكل طبيب يريد ممارسة مهنة الطب، فقام بذلك، ووصل عدد الأطباء الذين امتحنهم نحو ثمانئة وستين طبيباً.

وكانت مؤلفات سنان كثيرة في مختلف العلوم، ولكن لم يبق منها إلا القليل النادر، ومعظمها في الرياضيات والفلك والتاريخ والأدب، منها ما يذكره ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» و«رسالة في الاستواء» و«رسالة في النجوم» و«رسالة في سهيل» و«سهيّل نجم أحمر اللون قريب من الأفق يظهر وكأنه دائم الخفقان والاضطراب»، و«رسالة في قسمة أيام الجمعة على الكواكب السبعة» و«رسالة في تاريخ ملوك السريان» و«رسالة في شرح مذهب الصابئة» و«رسالة في أخبار آبائه وأجداده وسلفه»، و«رسالة في كتاب السياسة لأفلاطون» وغيرها، توفي العام (331هـ - 943م).

3- أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الحراني الصابئي: ولد سنة (313هـ - 925م) في بغداد ونشأ فيها على دين الصابئة، عفيفاً في مذهبه حسن العشرة للمسلمين يصوم رمضان ويحفظ القرآن ويصرف آياته في رسائله، رغم أنه لم يسلم، وقد كانت بينه وبين الصاحب بن عباد والشريف الرضي مودة أكيدة ومراسلات كثيرة².

وفي سنة 960م تقلّد أبو إسحاق الصابئي ديوان الرسائل فكانت تصدر عنه مكاتبات إلى عضد الدولة تؤلمه. فلما مات عزّ الدولة أمير الأمراء واستولى عضد الدولة على بغداد 978م حبس أبا إسحاق

¹ ابن النديم: المصدر السابق، ص 298.

² رشيد الخيون: المرجع السابق، ج 1، ص 130.

الصابي فبقي أبو اسحاق في السجن حتى توفي عضد الدولة 983م، وخلفه ابنه صمصام الدولة فأطلق سراح أبي اسحاق، ومات في بغداد (384هـ-994م¹).

أخيرا نستنتج ان الصابئة قد تعرضوا إلى كثير من التنكيل منذ القرن الأول الميلادي، لكن تحسنت أوضاعهم بشكل ملحوظ ابان فترة الحكم الاسلامي، بحكم معاملة الحكام المسلمين لهم على أنهم من أهل الكتاب². ويمكن القول أن العصر الذهبي للصابئة كانت فترة حكم العباسيين والدليل تقلد رجال كثر منهم مناصب ذات أهمية وبلوغهم درجات عالية من العلم في مختلف المجالات أهلتهم للعب أدوار لم تكن متاحة لهم قبل تلك الفترة، مع استثناءات بسيطة في أوقات مختلفة.

رابعا- التوزيع السكاني للصابئة واحصائياتهم في العهد العثماني:

مثلما أشرنا في آخر المبحث السابق فان فترة الحكم الاسلامي التي اتسمت باستقرار نسبي في الأوضاع السياسية العامة كانت من أفضل الفترات بالنسبة لطائفة الصابئة المندائية مقارنة بالفترات السابقة وقد تحدثت بعض المصادر أن عددهم وصل إلى 40000 نسمة في العهد العباسي³، مع العلم أن تلك الفترة كان صابئة حران يتواجدون في عاصمة الخلافة العباسية بغداد كما أشرنا إلى ذلك. وقد كانوا في أيام الخلفاء العباسيين منتشرين في كثير من بلدان الشرق التي تقع على الأنهار، وكذلك منطقة حران، أما في فترة الحكم العثماني فقد أصبحوا محصورين في أماكن معينة من العراق وفي بلاد عربستان، ومعظم منازلهم بل كلها واقعة على شواطئ الأنهار لأن طقوسهم وعاداتهم الدينية لا تتم إلا بالإرتماس في الماء الجاري كما أسلفنا، وقد حدثت بهم عبر تاريخهم عدة حوادث أفنت الكثير منهم وقضت على عدد من كتبهم المقدسة⁴.

وتخبرنا المصادر التاريخية أن الدولة العثمانية قد تعاملت مع الأقليات كاليهود والنصارى بشكل فيه الكثير من التسامح والحرية على اعتبار أنهم من أهل الكتاب، ولم يختلف تعامل العثمانيين مع الصابئة كثيرا عن الأقليتين السابقتين مع الفارق المتمثل في حجم هذه الأقلية من حيث قلة عدد النفوس، ومن حيث الاعتراف الرسمي بها كطائفة. لكن ذلك لم يؤثر اطلاقا على حال الصابئة المندائيين، إذ لم تتعرض لهم الحكومة العثمانية قط، ولم يلقوا أي شكل من أشكال الاضطهاد باعتراف أبناء هذه الأقلية، رغم بعض الاستثناءات البسيطة التي سنأتي على ذكرها لاحقا، والتي لا يمكن اعتبارها ممنهجة بل كانت عفوية وتصرفات فردية من قبل بعض الأشخاص وان كانوا يتقلدون مناصب حكومية أحيانا.

¹ ابن كثير: المصدر السابق، ج11، ص 79.

² سليم برنجي: المرجع السابق، ص 81.

³ أحمد عبد المنعم العدوي: المرجع السابق، ص 125.

⁴ جون باتيست تافرنيه: المصدر السابق، ص ص 74-75.

أما التنظيم الاجتماعي لهذه الأقلية الدينية خلال فترة الحكم العثماني فقد كان تنظيمًا هرميًا دينيًا، وهذا بحكم تعاليم الديانة الصابئية التي تنص على احترام رجال الدين حسب رتبهم¹، كما أن طبيعة الصابئية المتمثلة في الميل إلى العزلة والانطواء للمحافظة على خصوصيتها وهويتها مما جعل الطائفة تظل منغلقة على نفسها. كما أن هذه الديانة تحرم الزواج من غير أبناء الطائفة فلا يحل للصابئي أن يتزوج بغير الصابئية، والعكس أيضًا، فأثر ذلك تأثيرًا واضحًا على تزايد عدد نفوسها، لكن ذلك بالمقابل ساعدها في المحافظة على تنظيمها الاجتماعي من جهة، والمحافظة على قيمها ومبادئها من جهة أخرى².

هذا، ويعد شرط الانتماء إلى دين الصابئية وما يتطلبه من مراسم تقبله، هو السبب الذي جعلهم محصورين في العدد آخذين في التناقص وقد لا يمر قرن عليهم إلا وهم منقرضون من الوجود، أضف إلى ذلك ما ذكرناه عن حالتهم الاجتماعية وعادات الزواج عندهم التي تمنعهم من التوسع والانتشار، حتى أن أغلب الدراسات والاحصائيات تشير إلى أنهم لم يتجاوزوا الـ 10000 نسمة منذ القرن الثامن عشر.

1- توزيعهم وانتشارهم في العراق خلال العهد العثماني:

عموماً تركز أتباع هذه الديانة في فترة الدراسة في منطقتين رئيسيتين هما منطقة خوزستان (عربستان) غرب إيران الحالية حيث يتواجد بها حوالي 20000 ألف نسمة مع بداية القرن العشرين ووصل عددهم في نهايته إلى 30000 نسمة منتشرين في عدة مدن كالأحواز ومحمرة وعبادان وميسان والخفاجية والفلاحية والبستين³.

أما المنطقة الثانية فهي بطائح العراق الواقعة في الجنوب، وتسمى أيضاً منطقة الأهوار وتعني منطقة المسطحات المائية المنخفضة جنوبي السهل الرسوبي العراقي بين نهري دجلة والفرات المحصورة في مثلث تمثل مدن الناصرية والعمارة والبصرة رؤوسه الثلاث. وقد انتشر الصابئية موزعين على مدن وقرى عديدة في هذه المنطقة، وقد رصدت المصادر في أواخر العهد العثماني أهم تلك المدن والقرى وهي: العمارة والعزير وقلعة صالح والشرش ونهر صالح وكرمة بني سعيد والجبايش والحمار وسوق الشيوخ والناصرية والبصرة والقرنة، مع وجود قليل جداً في الدليم وأربيل والسليمانية وكربلاء ثم بغداد مع بداية القرن العشرين⁴.

ويذكر أن الصابئية المندائيون في العراق ينتمون إلى عدة قبائل مختلفة تجمعها وحدة الدين⁵، فسكنت كل قبيلة منطقة أو مدينة معينة هناك، ولم تتغير خارطة انتشارهم طوال العهد العثماني، وبدأت في التغير في

¹ للمزيد حول التنظيم الديني والطبقة الكهنوتية أنظر: المبحث الأول من هذا الفصل.

² عماد عبد السلام رؤوف: المرجع السابق، ص 383-384.

³ صادق شهيد الطائي: المرجع السابق، ص 16.

⁴ الليدي دراور: الصابئية المندائيون، ص 32.

⁵ عبد الفتاح الزهيري: المرجع السابق، ص 194.

أواخره فقط، عندما بدأت هذه الأقلية في الخروج من عزلتها وانتقال بعض من عائلاتها إلى المدن العراقية وحتى خارجه، وقد ذكر السيد عبد الرزاق الحسني أهم تلك القبائل وأماكن سكناه لخصناها في الجدول التالي:

جدول رقم 11: يوضح أسماء قبائل الصابئة المندائيون ومناطق سكنها¹

اسم القبيلة	منطقة السكن
المنذوبة	العمارة
الخميسية	قلعة صالح والقرنة
أبو زهرون	المسيعية والحلفاية
المسودنية	ناحية المجرى الكبير
أبو كلمش	منطقة الكحلاء
الجحيلة	المدينة (بالتصغير) والشرش القرنة
الكيالين	البصرة وأطرافها
البنكانية	البصرة وأطرافها
الدهيسية	الناصرية
أبو سبتي	سوق الشيوخ
أبو مهنا	سوق الشيوخ
أبو عزاز	أطراف سوق الشيوخ
السيفية	سوق الشيوخ
البريجية	الجبايش

2- حركة الصابئة وهجراتهم في العهد العثماني:

نظرا لقلة عددهم وجد الباحثون صعوبة كبيرة في تتبع حركتهم داخليا وخارجيا لكن نجد اتفاقا بينهم حول هجرة بعض الصابئة داخليا وخارجيا، وأهم ما اتسمت به الهجرة الداخلية هو مغادرتهم من المناطق التقليدية التي سكنوها عبر تاريخهم الطويل نحو المدن الكبرى خاصة مدينتي بغداد والبصرة، حيث بدأت مع مطلع القرن العشرين واتسع نطاقها لاحقا، وكذلك الهجرة الخارجية نحو بلدان أخرى عربية وأوروبية، أما عن أسبابها فهي مختلفة نلخص أهمها فيما يلي:

أ- دوافع اقتصادية: تمثلت في رغبتهم في تحسين أوضاعهم خصوصا أنهم حرفيون مهرة وصاغة لا يشق لهم غبار، كما أن لهم سمعة وصيت في هذا المجال، وفي المدن يزداد دخلهم كلما ازداد زبائنهم²، كما أن الحياة الرفاهية انحصرت في المدن دون الأرياف.

¹ عبد الرزاق الحسني: الصابئة ماضيهم وحاضرهم، ط3، مطبعة العرفان، صيدا لبنان، 1963م، ص ص 125-126.

² صادق شهيد الطائي: المرجع السابق، ص 17.

ب- **دوافع اجتماعية وثقافية:** وتمثلت في تخلي أبناء هذه الطائفة عن أفكارهم التي توارثوها، وقبالهم على تعليم أبنائهم في المدارس الحكومية التي انتشرت مع ازدهار التعليم الحديث في العراق منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مع عدم وجود مدارس خاصة بهم مثل اليهود والنصارى الذين قاموا بفتح عديد المدارس في تلك الفترة¹.

ج- **التحرر من القيود الدينية:** التساهل في أمر المراسيم الدينية لأبناء هذه الأقلية التي طالما حافظت على موروثها الديني الذي يأمرهم بضرورة السكن بالقرب من الأنهار الجارية، نظرا لما للطهارة بالمياه الجارية من قدسية في الديانة الصابئية، الأمر الذي قد يبيح لهم السكن على غير مجاري المياه مثلما أكد ذلك بعض رجال الدين المندائيون².

وإذا كانت أهم اتجاهات الهجرة الداخلية باتجاه بغداد والبصرة فإن بعض الصابئة المندائيون أقدموا على الهجرة الخارجية أي خارج العراق باتجاه إيران شرقا كما اتجهوا أيضا إلى البلدان العربية المجاورة كسوريا فاستوطنوا دمشق وحلب، ومصر خاصة القاهرة والاسكندرية وكذلك مدينة بيروت بلبنان، وإضافة إلى تلك البلدان هاجر بعض الصابئة إلى بلدان غربية كأوروبا وأمريكا، ولعل القاسم المشترك بين كلتا المجموعتين هم التزامن في التوقيت حيث أن بداية كل منهما كانت أواخر القرن التاسع عشر وأخذت في الازدياد تدريجيا منذ مطلع القرن العشرين وازدادت بشكل كبير بعد الاحتلال البريطاني للعراق 1918م.

3- إحصائيات الصابئة المندائيين في العراق خلال العهد العثماني:

حسب ما اطلعنا عليه في مصادر عديدة أجمعت تقريبا على عدم وجود أي إحصائيات دقيقة حول أعداد الصابئة في فترة الحكم العثماني كباقي الأقليات، بحكم الأسباب التي سبق وأن ذكرناها المتعلقة بطبيعة هذه الأقلية³، فكانت أغلب هذه الإحصائيات عبارة عن تخمينات ومقاربات للعدد الحقيقي، لكن ما أشارت إليه كل الدراسات تقريبا بدون استثناء هو حقيقة واحدة مفادها أنهم في تناقص أي القرن الذي ينقضي تكون أعدادهم أكثر من القرن الذي يليه. ومن بين الكتاب والباحثين الذين أشاروا إلى أعداد نفوس هذه الأقلية نذكر جون باتيست تافرنيه الذي مر على مدينة البصرة عام 1652م وكتب قائلا: «... وهم لا يسكنون مدينة أو قرية لا يجري فيها نهر، وقد أكد لي غير واحد من رؤساء دينهم أن هؤلاء النصارى⁴ يبلغون في كل المواطن المذكورة أعلاه نحو خمسة وعشرين ألف عائلة، بينهم تجار، لكن معظمهم من أصحاب الحرف خاصة الصياغة، والنجارة والحداة، وعقيدتهم مشحونة بالخرافات والأوهام، ويسمبهم

¹ جميل موسى النجار: التعليم في العراق خلال العهد العثماني الأخير (1869-1918م)، ص 420.

² عبد الرزاق الحسني: صابئة قديما وحديثا، ص 62-63.

³ رشيد الخيون: المرجع السابق، ح 1، ص 136.

⁴ يعتقد الكاتب كباقي الأوروبيين في تلك الفترة أن الصابئة المندائيين نصارى منحرفين وأسموهم نصارى يوحنا المعمدان.

الفرس والعرب الصابئة، أي الشعب الذين تركوا دينهم واعتنقوا ديناً آخر، ويسمون أنفسهم في لغتهم الخاصة مندائية يحي أي أتباع يوحنا، الذي منه كما يؤكدون استمدوا عقيدتهم وعنه تلقوا كتبهم وتقاليدهم»¹.

كما ذكر الرحالة الانكليزي جيمس بيكنغهام أن عددهم عام 1816م قد بلغ 1000 عائلة ثلاثون منها في البصرة ومائة عائلة في القرنة إلى الشمال من البصرة عند ملتقى نهري دجلة والفرات، وكانت ثمة أسر أخرى في بلدة سوق الشيوخ². وذكر أيضاً المستشرق الألماني بيترمان أن عددهم العام 1830م يبلغ 500 عائلة أو يزيد قليلاً في المنتفق والقرنة وبعض مناطق الجنوب العراقي. أما الأب أنستاس ماري الكرملّي فقد ذكر في مقالاته عن الصابئة المندائيين أعوام 1900 و1902م « وقد أحصيت بنفسي عدد الصابئة بلدة بلدة ووجدت أنهم لا يزيدون عن 1800 نسمة، وهم يسيرون إلى الانقراض حثيثاً»³.

كما ذكر ألكسندر آداموف أن عددهم عام 1901م ينحصر بين 4000 و5000 نسمة⁴، وعن الوثائق العثمانية لم يأتي ذكر أعدادهم في العهد العثماني إلا في النشرة الرسمية العثمانية لعامي 1898 و1899م حيث أشارت إلى أن عددهم حوالي 3000 نسمة في مناطق البصرة والعمارة والناصرية فقط أي دون احتساب الصابئة الذين يسكنون خارج المناطق المذكورة⁵.

يمكننا القول ان الاحصائيات في فترة الدراسة كانت متفاوتة بشكل كبير لأنها لم تكن صادرة عن دوائر رسمية لذلك فان الاحصائيات التي صدرت بعد العهد العثماني تعد أقرب إلى الواقع منها احصائيات مديرية الأمن العام التي جاءت على النحو التالي: في احصاء العام 1947م قدر عددهم ب 6597 نسمة، وفي احصاء العام 1957م بلغوا 11425، أما العام 1965م فعددهم 14262، واحصاء عام 1977م وصل العدد إلى 15937.

أخيراً نستنتج أن العهود الإسلامية بشكل عام بما فيها فترة الحكم العثماني قد كانت حقبة تنفس فيها الصابئة الصعداء من جراء التنكيل الذي لحق بهم من قبل، إذ أن الحكومات العثمانية لم تلحق بالصابئة أي أذى يمكن أن نقارنه بما سبق، كما نستنتج أن الصابئة المندائيون كانوا قليلي العدد وظلوا في تناقص مستمر بسبب طبيعتهم المغلقة وحرصهم على نقاوة الدم، إضافة إلى ذلك نستنتج أن أواخر العهد العثماني كانت بداية للتغير التدريجي في خارطة انتشارهم وتوزعهم التي طالما التزموا بها عبر تاريخهم الطويل، وبدأوا يتحركون في اتجاهات مختلفة داخليا وخارجيا.

¹ جون باتيست تافرنيه: المصدر السابق، ص 75.

² جيمس بيكنغهام: المصدر السابق، ج2، ص 272.

³ أنظر: الملحق رقم 24 من كتاب جون باتيست تافرنيه: المصدر السابق، ص ص 117-118.

⁴ الكسندر آداموف: المصدر السابق، ص 246.

⁵ رشيد الخيون: المرجع السابق، ح1، ص 136.

المبحث الثالث- أدوار الصابئة وتفاعلهم السياسي في العراق:

أولاً- الصابئة المندائيون والسياسة:

1- موقف الصابئة المندائيون من الوجود العثماني:

لم تكن هناك في العراق طائفة أبعد من الصابئة المندائيين عن السياسة، فعبر تاريخها الممتد لآلاف السنين لم يشكل أبناء هذه الطائفة دولة أو دويلة أو سلطنة أو حتى إمارة، ولم يكن لهم ملك أو سلطان أو أمير أو قائد مشهور، بل كانت دائماً تحتكمي بظل أديان أسست دولاً قوية في حقبات زمنية مختلفة¹.

وقد كانت طائفة الصابئة المندائيين تميل إلى العزلة والانطواء والكتمان ما جعل مواقفها السياسية جد غامضة²، فكل الطوائف والمذاهب في العراق على قلتها أو كثرتها كانت على موقف من الوجود العثماني، سواء ايجابي مثل السنة في العراق أو سلبي رافض لهذا الوجود كالأيزيديين التي كانت على عداء شديد مع العثمانيين³، أو شيعة العراق الذين كان لهم موقف يميل إلى الصفويين في صراعهم مع العثمانيين، أو مواقف حذرة سرعان ما أصبحت رضاء على العثمانيين مثل اليهود والنصارى الذين توجسوا خيفة من العثمانيين لكن المعاملة الحسنة للسلطات العثمانية مع أهل الكتاب جعلهم يطمئنون على أنفسهم وممتلكاتهم بل زادت وضعيتهم تحسناً مع مرور الزمن.

أما طائفة الصابئة المندائيون فلا يوجد أي أدلة تاريخية تظهر موقفاً واضحاً من العثمانيين، بل أنهم حافظوا على خطهم التاريخي بعدم ابداء موقف صريح قد ينقلب عليهم، وهم طائفة قليلة العدد لا طاقة لهم بمواجهة التحديات التي قد تنجر عن موقفهم سواء كان هذا الموقف سلبياً وبالتالي يمكن أن يتعرضوا للاضطهاد وسوء المعاملة مثلما حصل مع الأيزيديين أو موقفاً إيجابياً مرحباً بالعثمانيين قد يثير حفيظة الرافضين للتواجد العثماني في العراق، وهو ما يكلفهم توتر العلاقة مع أطراف المجتمع العراقي التي لا تؤيد العثمانيين، وما قد ينعكس على مستقبلهم ومستقبل أبنائهم فيتم الانتقام منهم بسبب موقفهم المعلن، وهذا ما جعل موقفهم من تواجد العثمانيين يمكن تسميته بلا موقف أي لا مع ولا ضد، وبالتالي النأي بطائفتهم عن الخلاف الحاصل آنذاك.

¹ بشير عبد الواحد يوسف: الصابئة المندائيون بين الانصاف والاحفاف، ط1، دار شمس للنشر والاعلام، القاهرة، 2017 م، ص 191.

² رشيد الخيون: المرجع السابق، ج1، ص143.

³ سعد سلوم: الأيزيديون في العراق (الذاكرة، الهوية، الإبادة الجماعية)، ط1، مطبوعات مجلة مسارات، بغداد، 2016م، ص73.

2- موقف السلطات العثمانية من الصابئة المندائيين:

ان المتتبع لسياسة الدولة العثمانية اتجاه الطوائف الدينية في العراق يلاحظ بوضوح منهجها في التعامل مع أهل الكتاب وفق ما أمر به الدين الاسلامي أي حمايتهم وحماية ممتلكاتهم مقابل الجزية التي يدفعونها للدولة، كما يلاحظ أيضا الموقف المتشدد اتجاه طائفة الأيزيدية التي نظرت اليها الدولة العثمانية على أنها طائفة كافرة وجب قتالها بفتوى من مفتي الدولة¹، وهو ما حصل خلال كل القرون التي تواجد فيها العثمانيون في العراق، في حين أن موقف وسياسة العثمانيين اتجاه الصابئة المندائيين فيمكن تلخيصها في مايلي:

- لم تعترف السلطات الرسمية العثمانية بالصابئة المندائيين كطائفة مثل باقي الطوائف كاليهود وكثير من الطوائف النصرانية²، بل يمكن القول أن معاملتها اتسمت بعدم الاكتراث، وربما يعود ذلك لقلة عدد أفراد هذه الطائفة من جهة، وعدم وجود مطالبة أو ضغط للاعتراف بها وبحقوقها.
- لم تعادي السلطات العثمانية طائفة الصابئة المندائيين مثل ما حدث مع الأيزيديين، فلم تعاملهم بسوء، ولم تصدر في حقهم أي فتوى تهدر دمائهم، وعليه عاشت الطائفة في سلام لم يعكر صفو حياتهم أو ممارستهم لطقوسهم الدينية أي عائق، باستثناء ما حصل في العمارة أيام حكم محسن بن مهدي³.
- أكدت بعض الكتابات التاريخية أن السلطات العثمانية قد أخذت من طائفة الصابئة المندائيين البديل من الخدمة العسكرية⁴، وهذا يعني أن الدولة العثمانية تنظر لهذه الطائفة على أنهم أهل ذمة ينطبق عليهم ما ينطبق على غيرهم من الطوائف كاليهود والنصارى رغم عدم اعترافها بشكل رسمي بها كطائفة⁵.
- لم تتدخل السلطة العثمانية في طائفة الصابئة المندائيين، ولا في تسيير شؤونها وشؤون أبنائها اطلاقا إلا في حالات نادرة طلبوا فيها هم بأنفسهم تدخل السلطة مثلما حدث العام 1867م وحينها طلب

¹ سعد سلوم: المرجع السابق، ص 75.

² رشيد الخيون: المرجع السابق، ج 1، ص 143.

³ حدثت هذه المذبحة في عهد حاكم العمارة سلطان محسن بن المهدي الذي كان ابنه فياض حاكما لششت و التفصيل أنها حدثت عندما خرجت امرأة مندائية الى النهر في أول أيام السنة الجديدة في الوقت الذي يجب أن يكون فيه كل الصابئة في بيوتهم، فتعرض لها أعراب كانوا في أسطول راس هناك، فنشب قتال بين الصابئة والأعراب، أعلن بعدها القتال ضد كل الصابئة، فوقع مذبحة راح ضحيتها الكهان والرجال والنساء والأطفال وبقيت الطائفة بدون كهان لعدة سنوات. أنظر: الليدي براور: الصابئة المندائيون، ص 44.

⁴ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج 1، ص 138.

⁵ حارث يوسف غنيمه: الطوائف الدينية في القوانين العراقية، مجلة ما بين النهرين، العدد 68، 1989م.

مجموعة من شيوخ الطائفة وعلى رأسهم الشيخ داموق والشيخ دواوود في الكوت والعمارة تدخل السلطة العثمانية لنفي أحد شيوخهم المدعو يحيى، بسبب علاقاته المشبوهة بالدول الأجنبية وبريطانيا تحديداً¹.

3- أسباب ابتعاد الصابئة عن النشاط السياسي:

ان ما توفر حول اخبار طائفة الصابئة المندائيين في العراق تؤكد غياب أي دور سياسي لأي صابئي مندائي خلال فترة الحكم العثماني للعراق، وهذا الواقع غريب اذ أن طائفة دينية تنتمي لمجتمع معين، ولا يكون لها أي دور أمر يستوجب التوقف والتأمل، وهو ما يدفعنا للبحث عن أسباب هذا الوضع سواء كان من الطائفة ذاتها أو أن هناك أسباب تتجاوزهم جعلت ابتعادهم عن السياسة أمراً محتوماً، وفيما يلي نعدد أسباب هذا الحال:

أ- العامل الديني: عبر تاريخ طائفة الصابئة المندائيين في العراق فقد بسط رجال الدين سيطرتهم وهيمنتهم على شؤون المجتمع المندائي خاصة ما يتعلق بالتواصل مع الطوائف الأخرى، في كل المجالات تقريباً، وفي ميدان السياسة فقد أكدت عدة دراسات أن رجال الدين المندائيون يحرصون على عدم الولوج في العمل السياسي في العراق، والسبب أنه شاق ومكلف في الأرواح، كما أن تعاليم الدين المندائي لا تهتم بالسياسة ولا بالميراث ولا بالمال، لأنه دين زهد وتصوف، وحتى بعد الاعتراف بهم كطائفة في عهد الدولة العراقية الحديثة اقتصرت مشاركتهم السياسة في اصدار بيانات باسم المجلس الروحاني للطائفة، وغالباً ما كانت تسير السلطة وتختار ما يلائم هدفها الرئيسي، وهو تجنيب أبناء الطائفة تسلط الحكام والمحافظة على وجودها وكيانها².

ب- العامل الاجتماعي: تمثل هذا السبب في قلة عدد أبناء طائفة الصابئة المندائية مقارنة بكل الطوائف الأخرى، حيث أنها لم تمثل طوال فترة الحكم العثماني أي ثقل ديمغرافي، يمكن أن يجعلها معادلة مهمة للسلطة أو للمجتمع على حد سواء، وهذا ما جعلها في موقف ضعف بسبب عجزها عن حماية نفسها، ومن المعلوم أن تقلبات السياسة في العراق لم تسلم منها طوائف أقوى وأكثر عدداً من الصابئة، فتحتم عليها الالتزام بخط حيادي يحفظ لها كيانها، دون التصادم مع أي طرف، كما دأبت الطائفة على تأييد كل حاكم قوي قادر على حمايتها، ويحترم ديانتها وخصوصيتها، فلم تعارض يوماً السلطة العثمانية ولا ممثليها الولاة في أي أمر يمكن أن يرتد عليها وعلى مستقبل أبنائها.

¹ عبد العزيز سليمان نوار: تاريخ العراق الحديث، ص 319.

² رشيد الخيون: المرجع السابق، ج 1، ص 143.

ج- العامل الثقافي: ونقصد به التعليم والانفتاح على باقي أطراف المجتمع العراقي والاحتكاك بالسلطة فقد أكدت الكتابات التاريخية أن هذه الطائفة ظلت طوال فترة الحكم العثماني منغلقة ومنطوية على نفسها¹، ولم تسمح لأبنائها بالدراسة في المدارس التي انتشرت في العراق خلال القرن الثامن عشر، وظل الأطفال المندائيون يكتفون بالدراسة في مدارسهم الدينية المندائية محدودة المستوى والامكانيات، وتقتصر على دراسة الكتب الدينية المندائية واللغة الآرامية، فبقوا أبعد الطوائف العراقية عن مؤثرات الحضارة الأوروبية، وهذا ما جعل أبناء الطائفة يتخلفون عن نظرائهم النصارى واليهود والمسلمين الذين استطاعوا أن يجدوا لهم أدوارا في المجتمع العراقي، وتقلدوا مناصب عليا سياسية وإدارية، وعليه لم يكن أبناء هذه الطائفة قادرين على الوصول إلى مناصب هامة آنذاك.

د- العامل الجغرافي: حقيقة كل العوامل مهمة في ابتعاد طائفة الصابئة المندائيين عن السياسة لكن عاملا آخر لا يقل أهمية يتمثل في المنطقة الجغرافية التي اختاروا الإقامة فيها وهي بطائح العراق²، وهي بعيدة عن مراكز السلطة ودوائر القرار في فترة الحكم العثماني، سواء السلطة المركزية في الأستانة، أو عواصم الولايات بغداد والموصل والبصرة، ورغم أن الأخيرة تعد الأقرب لسكنائهم إلا أن الصابئة لم يسكنوا المدينة بل كانوا يقطنون الأقضية والقرى كالناصرية والعمارة وقلعة صالح³، فهم لم يكونوا من سكان كبرى المدن العراقية، وهذا لم يساعدهم في الاحتكاك بالسلطة وممثليها، أو الاقتراب منها فكيف يمكن لهم الحصول على مزايا أو مناصب أو نفوذ؟ مع العلم أن النصارى واليهود على سبيل الذكر فقد سكنوا المدن بغداد والموصل وهاجروا إلى البصرة فاقتربوا من السلطة واحتكوا بها ما مكّنهم من لعب أدوار سبق لنا ذكرها.

عموما فإن طائفة الصابئة المندائيين لم تلعب أي دور سياسي مهم أو غير مهم خلال فترة الحكم العثماني للأسباب سالفه الذكر، فهذه العوامل لم تساعد ولم تمكن أبناء هذه الطائفة من أخذ حظ ولو بمنصب إداري ذي أهمية يمكننا تسميته وذكره على أنه حدث سياسي ميز تاريخ هذه الطائفة في فترة دراستنا هذه.

ثانيا- أبرز ممثلي الصابئة المندائيين في الدوائر السياسية:

كما ذكرنا سلفا فإن المندائيون كانوا بعيدين عن السياسة، ولم يكن لأي منهم أي دور سياسي بشكل رسمي لكن ما يمكننا الإشارة إليه هو تمثيلهم السياسي أمام الدوائر الحكومية، خصوصا بعض الشخصيات التي كان لها دور بارز في حماية أبناء هذه الأقلية والدفاع عنها، وغالبا ما تكون هذه

¹ محمد نمر المدني: المرجع السابق، ص 146.

² صادق شهيد الطائي: المرجع السابق، ص 16.

³ عبد الفتاح الزهيري: المرجع السابق، ص 57.

الشخصيات هم أنفسهم رؤساء الطائفة دينياً، فوضهم المجتمع المنداشي لهذه المهمة، وفيما يلي نذكر على سبيل الذكر لا الحصر أبرزهم:

أ- المختار خوجة جالس: كان أول مختار لمدينة العمارة عند تعيينها مركزاً إدارياً عام 1917م، وقد ولد عام 1877م في لواء محافظة العمارة، وهو ثالث أبناء جالس باشا الذي حصل على لقب الباشوية أثناء سفره للسلطان العثماني باسطنبول، وكان خوجة يتقن اللغة التركية وسافر إلى اسطنبول لدراسة الحقوق ثم عاد إلى العمارة عرف عنه سداد الرأي والحكمة، وحببه الشديد لفعل الخير، وقد مارس عدة أنشطة تجارية والمقاولات أثناء الحرب العالمية الأولى فكون ثروة كبيرة أودعها في البنك العثماني، ومع هزيمة الدولة العثمانية أثناء الحرب أفلس البنك، وضاعت مدخرات الزبائن، ومن ضمنها مدخرات خوجة فأصيب بانحيار عصبي أقعده الفراش.

ومع قيام النظام الملكي في العراق العام 1921م¹ قام الملك فيصل بتعيين خوجة عضواً في المجلس التأسيسي في بغداد ممثلاً عن الطائف المندائية لكنه اعتذر بسبب ظروفه الصحية، ولم يتم تعويضه بشخص من طائفته، وبذلك ضاعت عن الطائفة فرصة المشاركة في الحكم آنذاك، وبقي مختاراً للعمارة إلى غاية وفاته عام 1927م².

ب- المختار دفتر بشارة السهيلي: يعد دفتر بشارة أول مختار مندائي لمحلة الصابئة بلواء المنتفق (مدينة الناصرية) إبان العهد العثماني، وكان همزة الوصل بين دوائر الحكم العثماني وأبناء الطائفة المندائية حيث يعرض كل مشاكلها واحتياجاتها، ويقدم التظلمات في حال تعرض أي مندائي لأي اعتداء، ومن مهامه اختيار أعضاء المجلس الاستشاري، واستمر في هذا المنصب من أواخر القرن التاسع عشر إلى غاية عام 1909م.

وتواصل دوره بعد العهد العثماني حين أعيد انتخابه في نفس المنصب مع انشاء مجالس بلدية في كل مناطق العراق عام 1919م فواصل جهوده في خدمة أبناء الطائفة خاصة في مكافحة داء الكوليرا الذي أصاب العراق آنذاك، كما شكل مع الشيخ دخيل عضو المجلس البلدي لمدينة الناصرية ثنائياً قدم خدمات جليلة لأبناء الطائفة المندائية في المنطقة أثناء تلك الحقبة العصيبة.

¹ عبد الرزاق الحسني: تاريخ العراق السياسي، ج1، ص 43.

² خالد ميران دفتر: شخصيات مندائية في التاريخ المعاصر، ط1، ب د ن، ب ب، ب ت، ص 164.

ج- الشيخ دجيل الشيخ عيدان:

ولد الشيخ دجيل عيدان في 14 أبريل عام 1881م بمدينة العمارة في محافظة نيسان جنوب العراق ينتمي إلى أسرة مندائية من رجال الدين مدينة العمارة في محافظة نيسان جنوب العراق ينتمي إلى أسرة مندائية من رجال الدين شغل الرئيس الروحي للطائفة المندائية في العراق وإيران بين عام 1917م حتى وفاته في 24 جوان 1964م وصل إلى درجة كنزيرا. كان يتحدث اللغتين العربية والمندائية بطلاقة حيث ألم بكل تفاصيل اللغة المندائية، ولم يتجاوز عمره 11 عاما، ثم أصبح ترميذة عام 1904م وكان عمرة 23 عاما فقط، وفي مدينة الناصرية شغل منصب عضو بلدي عام 1920م، والذي كان يمثل وجهاء المدينة لقد تعلم الشيخ دجيل القراءة والكتابة بدون الذهاب إلى المدرسة على يد الشيخ سام¹، كما افتتح دورات وصفوف لتعليم اللغة المندائية. من أهم أدواره أنه دافع عن الطائفة أمام المحاكم العراقية، وفند جميع ما كتبه المؤرخ عبد الرزاق الحسني² بحق الديانة المندائية، خاصة أنه ذكر على أنهم عبدة الكواكب والنجوم، وقد كسب الدعوة أمام المحكمة بعد أن دافع بالبرهان القاطع وترجمة نصوص مندائية من الكتب الدينية تؤيد أن الديانة المندائية موحدة وليسوا من عبدة الكواكب والنجوم.

كان الشيخ دجيل عالماً متديناً أديباً متكلماً وله سمعة طيبة وذو شخصية عظيمة كرس حياته لخدمة أبناء طائفته فغرس فيهم حب الوطن والتدين، وكان يزورهم باستمرار للاطلاع على أحوالهم قضايهم والاطمئنان عليهم، يستمع لانشغالاتهم ويسعد دوماً بالدفاع عنهم وعن القضايا التي تهم شؤون طائفته ومستقبلها³.

يمكننا أن نستنتج أن مفهوم الدور السياسي لدى طائفة الصابئة المندائيين لم يكن مستقلاً عن باقي المجالات حيث يتداخل الدور السياسي مع الاجتماعي والديني والثقافي بسبب اقتضار دورهم السياسي عموماً خلال هذه الفترة على زعماء الطائفة الذين انحصر دورهم على تمثيل الطائفة ومحاولة الدفاع عن أبنائها أمام الطوائف العراقية الأخرى أو أمام السلطات العثمانية، فبدلوا قصارى جهدهم في سبيل هذا الهدف أما الدور السياسي بمفهومه المعاصر وهو المشاركة في الحكم عن طريق مؤسساته التي تمثل الشعب فلم يكن موجوداً أثناء فترة الحكم العثماني نظراً للأسباب التي سبق ذكرها، وبدأ تمثيلهم مع التواجد

¹ بشير عبد الواحد يوسف: الصابئة المندائيون (سلسلة معارف موجزة)، دار شمس للنشر والاعلام، القاهرة، 2017م، ص210.

² عبد الرزاق الحسني: أحد أكبر المؤرخين العراقيين في القرن العشرين له مؤلفات كثيرة من بينها ديانة الصابئة ماضيها وحاضرها الذي تناول فيه هذه الديانة واتهمها بأنها وصنية يعبد أتباعها الكواكب والنجوم لكنه عاد واعترف بخطئه في إحدى مقالاته وأكد أنها ديانة موحدة.

³ بشير عبد الواحد يوسف: الصابئة المندائيون، ص 211.

البريطاني أي منذ عام 1917م، وحتى النشاط الجماعي لم يكن من أولويات أبناء الطائفة، وهذا ما يفسر تأخر ظهور أول جمعية عام 1933م تحت مسمى جمعية الصابئة ببغداد¹.

المبحث الرابع: الدور الاقتصادي للصابئة المندائيين:

يرتبط الاقتصاد في أي بلد بالجوانب الأخرى السياسية والاجتماعية ارتباطا وثيقا، والاقتصاد العراقي ليس استثناء فالقطاعات والنشاطات الاقتصادية الثلاث زراعة وصناعة وتجارة كانت تؤثر وتتأثر بالاهتزازات السياسية كما غلفها الطابع الاجتماعي القبلي والعشائري خاصة في مجال الزراعة حيث يمكننا القول أن الاقتصاد العراقي عموما كان اقتصادا بدائيا طوال فترة الحكم العثماني لكن نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدأ في التحول، وأخذ يرتبط بالاقتصاد العالمي، ويشهد انفتاحا كبيرا تمثل في تزايد حركة الاستيراد والتصدير التي انعكست بشكل واضح على الدخل العراقي نتيجة نشاط الشركات الأجنبية خاصة الأوروبية التي عملت في المدن العراقية، فأصبح العراق سوقا مهما للبضائع الأوروبية والآسيوية، كما زادت صادرات العراق من المنتجات الزراعية كالحنطة والشعير والتمور بشكل كبير².

ان هذا التحول في طبيعة الاقتصاد العراقي انعكس على طوائف المجتمع العراقي فكانت أكبر الطوائف المستفيدة كما ذكرنا سلفا هما النصارى واليهود لكن الطوائف الأخرى أيضا تأثرت به فطائفة الصابئة المندائيون التي طالما استوطنت مناطق محددة في جنوب العراق الناصرية والعمارة وقلعة صالح بدأت تشهد حركة هجرة متزايدة باتجاه المدن الكبيرة أواخر العهد العثماني نتيجة دوافع اقتصادية فكثر محلات الصياغة التي كان ملاكها من المندائيين في البصرة وخاصة بغداد، وتمتع هؤلاء الصاغة بسمعة طيبة استطاعوا بفضل اتقانهم لهذه الحرفة أن ينافسوا نظرائهم اليهود ومن باقي الطوائف الأخرى³.

ونلاحظ من خلال الكتابات التاريخية سواء لرحالة أجانب أو لكتاب عراقيين من طوائف أخرى أو من طائفة الصابئة المندائيين أن هذه الطائفة انحصرت دورها الاقتصادي في الصناعة والحرف التقليدية كالحدادة والنجارة والصياغة وغيرها، في حين غابت أدوارها تماما في قطاعي الزراعة والتجارة، ولم يمارسوا أنشطة ذات طابع فلاحي أو تجاري الا في أضيق الحدود وهو ما أكدته الكسندر آدموف والليدي دراوور وغيرهم من الباحثين لكننا حاولنا الغوص في أسباب عزوف هذه الطائفة على الزراعة والتجارة فيما يلي:

¹ خالد ميران دفتر: المرجع السابق، ص 137.

² الكسندر آدموف: المصدر السابق، ص 530.

³ بشير يوسف عبد الواحد: الصابئة المندائيون، ص 646.

أولاً- الصابئة المندائيون والزراعة:

كما ذكرت أغلب المصادر التاريخية فان الزراعة في العراق مثلت قطاعا حيويا للاقتصاد العراقي خلال فترة الحكم العثماني له، وتقريبا مع تطور الوسائل والامكانيات المستعملة في هذا القطاع أواخر هذا العهد، ومع التحولات التي أشرنا لها سلفا زادت الصادرات العراقية بشكل ملحوظ،¹ وتؤكد كل الكتابات أن أغلب أطراف المجتمع العراقي كانت لها أدوار مساهمة في القطاع عدا طائفة الصابئة المندائية التي كانت الأنشطة الزراعية آخر اهتماماتها، ولعل ذلك يعود إلى عدة أسباب أهمها:

- أن النشاط الزراعي يتطلب مقومات كثيرة لا يمتلكها الصابئة المندائيون ومنها الطابع الاجتماعي القبلي للملكية الأرضية في العراق حيث استولت القبائل الكبرى ذات المكانة والقوة والامتداد الديمغرافي في البلاد على أغلب الأراضي الزراعية، ولم يكن بالامكان منافستهم في ملكية الأراضي.

- الطابع المسالم للصابئة المندائيين حيث يتطلب العمل في هذا المجال على القوة التي تمكن أصحابها من حماية أراضيهم عن طريق القوة والدخول في نزاعات قبلية مع قبائل أخرى ان تطلب الأمر ذلك، وهو ما لا يتوفر لديهم فقلة عددهم وسلميتهم حتمت عليهم الابتعاد عن كل ما يدخلهم في صراعات تنعكس عنهم سلبا.

- تاريخيا لم تكن الزراعة من ضمن أولويات الأنشطة الاقتصادية للطائفة طوال تواجدها في العراق فالزهد والانطواء أبرز سماتهم فعملوا في أنشطة لا توجد بها منافسة مع الطوائف الأخرى فاعتمدت على النشاط الحرفي وأبدعت فيه وكان أبرز نشاط ارتبطت به الطائفة تاريخيا.

- الدخل المادي القليل الذي تدره الزراعة مقارنة بالأنشطة الاقتصادية الأخرى كالحرف التي مارسها الصابئة المندائيون اذ ذكرت المصادر التاريخية أن دخل الحرفي في مهنة الحدادة مثلا ضعف دخل الفلاح العراقي في بداية القرن العشرين.²

- اضافة إلى كل ذلك فان الزراعة كنشاط تتطلب مجهودا عضليا كبيرا أي بنية فيزيولوجية قادرة على تحدي قساوة الطبيعة بكل المشقات والصعاب، ومعنى ذلك أنها ليست في متناول الجميع بل يمارسها ذوي الأجساد القوية فقط.

¹ محمد حسن سليمان: المرجع السابق، ص 33.

² شاكر مصطفى سليم: دراسة أنثروبولوجية لقرية في الأهوار، ط1، مطبعة الرابطة، بغداد، 1956م، ص 168-169.

- السبب الآخر هو ما يتعلق بالطبيعة حيث أن المحاصيل الزراعية غير آمنة من الكوارث الطبيعة التي تضرب البلاد من حين لآخر كالفيضانات التي ضربت البلاد أعوام (1656-1786-1822-1892-1895م)¹ والجراد وغيرها فتأتي على الأخضر واليابس وخسائرها لا تحصى.

ان الأسباب التي ذكرناها مجتمعة جعلت طائفة الصابئة المندائية تتعد عن ممارسة الأنشطة الزراعية لكن دورهم فيها كان دورا كبيرا خاصة في المناطق التي استوطنوها أو القرية منها حيث كانوا يمارسون المهن والحرف التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالزراعة فتقريبا كل المعدات والأدوات الزراعية كالفأس والمسحاة والمناجل والسكاكين وغيرها كانت تصنعها أيادي الحرفيين المندائيين²، وبالتالي فان دورهم في هذا القطاع كبير ولاغنى عنه اذ شكل داعما مهما لهذا النشاط.

ثانيا- النشاط الصناعي والحرفي للصابئة المندائيين:

على النقيض من القطاع الزراعي الذي غاب فيه دور الأقلية الصابئية فان قطاع الصناعة والحرف والمهن شكل النشاط الاقتصادي الرئيسي لهم، ولم يكن ارتباطهم به وليد فترة الحكم العثماني للعراق بل كان عبر تاريخهم الطويل خصوصا الصياغة التي توارثوها أبا عن جد، ولم تكن الحرفة الوحيدة بل امتهنوا عدة حرف نذكر فيما يلي أهمها:

1- النجارة: امتهن الصابئة المندائيون النجارة منذ القدم والتي تعتمد على جلب الأخشاب من البصرة والمدن القريبة منهم، ومن ثم استعمالها في صناعة الأثاث المنزلي وكل ما تحتاجه البيوت العراقية مثل صناديق حفظ الملابس والأشياء الثمينة اضافة لصناعة الأسرة والكراسي، والطاولات وغيرها. وقد عرف عنهم اتقانهم الشديد لهذه الحرفة، ولمعظم أعمالهم وصناعاتهم لذا كان العراقيون يفضلون نجارة الصابئة عن غيرهم من النجارين من أطياف الشعب العراقي الأخرى³.

2- صناعة واصلاح الزوارق: تكاد هذه المهنة تكون حكرا على الصابئة المندائيين حيث ارتبطت بهم وارتبطوا بها، وكما هو معلوم عنهم أنهم يعيشون بالقرب من المياه ويقدمونها أي الأنهار، ولذلك كانت صناعة القوارب أهم حرفة في تاريخهم عبر الزمن⁴، اذ أن كتاب "دراشة أد يهيا" (مواعظ وتعاليم النبي يحي بن زكريا عليه السلام) مليء بالزوارق وأجواء الصيد في جنوب العراق ومما جاء فيه « أنا أمهر الصيادين وأفضلهم... رئيس الموانئ أنا... أعرف الأهوار حتى تلك الصغيرة منها والكائنة في الأعماق

¹ حنا بطاطو: المرجع السابق، ص 34.

² عبد الرزاق الحسيني: الصابئة ماضيهم وحاضرهم، ص ص 128-129.

³ صادق شهيد الطائي: المرجع السابق، ص 194.

⁴ الليدي دراور: الصابئة المندائيون، ص 83.

الداخلية... كما أعرف التلال وأكتشف المصائد والكمائن.. أطوف حول الأهوار وأصل إليها وأدخلها... أعبر المستنقعات بالعبارات والزوارق وسفينتي لا يعوقها عائق.....¹. ومن أنواع الزوارق التي يصنعونها نذكر:

أ- الطرادة: طولها يبلغ 6 أمتار وعرضها متر ونصف تقريبا وهي عريضة من الوسط تضيق تدريجيا باتجاه الجانبين تتسع لثمان أفراد.

ب- البركش: طوله كالطرادة تقريبا الا أنه أكثر عمقا وعرضا يسير بواسطة المردى والشرع والمجاديف، أو الجر بالحبال في المناطق الأقل عنقا.

ج- المشحوف: هو زورق رشيق مسلوب الشكل طويل يصل 7 أمتار وعرضه متر واحد في الوسط، وهو ذو مقدمة ومؤخرة مرتفعتين، يساعده شكله المسلوب في المرور في مضائق الأهوار المليئة بالقصب الكثيف ويدفع بالمجاديف أو المردى².

د- المخيط: وهو زورق صيد صغير طوله متران وعرضه متر واحد، يصنع من الخشب المنشور والمسامير، ويزفت من الخارج بالقير، يحمل شخص واحد³.

3- الحدادة: تكاد تكون هذه الحرفة حكرا عن الصابئة منذ أقدم العصور خصوصا في المناطق التي يقطنونها، وتعد هذه المهنة التي اختص بها رجال الصابئة دون النساء مهنة شاقة جدا إذ تعتمد اعتمادا كليا على القوة العضلية، كما تعتمد على وسائل بدائية ويدوية ومعدات بسيطة جدا، إذ أن الوقود المستعمل في عمليات تسخين المعادن وتشكيلها هو عبارة عن قطع من القصب التي يشتريها الحداد ويجولها إلى فحم في مكان بدائي، ويعود هذا إلى ندرة عدم وجود الوقود وحتى أواخر العهد العثماني كان نادرا ومكلفا للغاية، إلا أن المصادر أشارت إلى أن هذه المهنة كانت توفر دخلا معقولا قدر بضعف دخل الفلاح في منتصف القرن العشرين حيث بلغ 7 دنانير شهريا⁴.

أما عما ينتجه الحداد الصابئي من أدوات فهي كل المعدات الزراعية التي يحتاجها المجتمع العراقي في الزراعة كالمسحاة والفأس والمنجل وسكين تفشيق القصب (المشك)⁵ الذي حائك الحصر القصب في عملية تهيئته للحياكة. إضافة إلى معدات وأدوات تستعمل في حرف أخرى كالمسامير المستعملة في صناعة

¹ دراسة أد يهيا: مواظ وتعاليم يحي بن زكريا (ع)، تعريب عن المندائية أمين فجيل خطاب، ط1، بغداد، 2001م، ص 107-120.

² الليدي دراوور: الصابئة المندائيون، ص 83.

³ صادق شهيد الطائي: المرجع السابق، ص 195.

⁴ شاكر مصطفى سليم: المرجع السابق، ص 168-169.

⁵ صادق شهيد الطائي: المرجع السابق، ص 191.

وإصلاح الزوارق، كما يقوم الصابئة بصناعة رماح الصيد، وبإصلاح الأسلحة النارية بعد ظهورها وهي بنادق قديمة كثيرة العطل استعملها العراقيون في نزاعاتهم القبلية، وفي صيدهم وحماية أراضيهم الزراعية.

4- الصابئة المندائيون ومهنة الصباغة:

منذ قدم الزمان اتخذ الصابئة المندائيون فن الصباغة وصناعة المجوهرات مهنة لهم، فأحبوها وتوارثوها بين أجيالهم، وأصبحت مهنة الغالبية العظمى منهم¹، فانتشرت محلاتهم ومتاجرهم بشكل واسع في جميع المدن التي سكنوها، هذا الأمر جعل هذه المهنة مقترنة ومرتبطة بهم أكثر من باقي الطوائف، فخبراتهم في هذا المجال فاقت خبرات الآخرين، وحبهم لهذه المهنة وتعلقهم بها فاق تعلق الآخرين، إذ نادراً ما نجد مندائياً لا يعرف أسرار هذه المهنة حتى وإن لم يمتحنها، لذلك برزت قدراتهم ومواهبهم وإبداعاتهم في هذا المجال، ويمكن تلمس ذلك من خلال ما أنتجوه من روائع في هذا الفن الجميل والمميز.

أ- تاريخ فن الصباغة في العراق: الصباغة فن قدم ظهرت أولى ملامحه ونتاجاته على أيدي السومريين سكان وادي الرافدين القدماء حوالي 3500 قبل الميلاد² منذ تعرفهم على معدن الذهب، فظهرت على أيديهم أولى ملامح هذا الفن الجديد (الصباغة) بعد أن وضعوا له الأسس الأولى وجعلوه فناً مستقلاً، وابتكروا له كل مستلزمات العمل، ويمكن الاشارة كثيراً بجهود السومريين وبراعتهم باعتبارهم من وضع اللبنة الأولى لهذا الفن (الصباغة)، فقد بلغت نتاجاتهم في هذا المجال شأنًا متقدماً يثير الإعجاب، إذ تميزت بالدقة والتنوع والبراعة، أما مسألة التطعيم بالأحجار الكريمة والأحجار والأصداف فقد بلغوا فيه شأنًا كبيراً، كما عرفوا فن النقش والقبولية وصناعة الميناء الملونة وهو ما تؤكد الحفريات والاكتشافات الأثرية.

ب- أسباب اختيار الصابئة المندائيون لمهنة الصباغة وارتباطهم بها:

كانت ولا زالت الصباغة هي المهنة المحببة الأولى للصابئة، فهي المهنة التي تعلموها ومارسوها منذ زمن بعيد، وعرفوا أسرارها وأصولها، وأبدعوا فيها واتخذوا منها فناً وصناعة، حيث تميز الصابئة المندائيون بحرفيتهم العالية في مجال الصباغة، وبمقدرتهم على صنع مختلف النماذج والأشكال³، كما برعوا بالحفر والنقش، وبصناعة الميناء وتركيب الأحجار الكريمة، فارتبطت هذه المهنة الجميلة بهم بشكل واضح، وصارت مهنة الصباغة مرادفة عند الناس لكلمة الصابئة حيث أطلق عليهم تسمية صاغة الفضة العماريين⁴، حتى أن البعض يعتقد أن الصابئة أسبق من اليهود في تعلم الصباغة بسبب معاشتهم للسومريين السابقين في

¹ عبد الرزاق الحسني: الصابئة ماضيهم وحاضرهم، ص 129.

² أندريه بارو: سومر فنونها وحضارتها، تعريب الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، طبعة بغداد 1979م، ص 209.

³ الليدي دراور: الصابئة المندائيون، ص 82.

⁴ صادق شهيد الطائي: المرجع السابق، ص 196.

ابتكارها في نفس الرقعة الجغرافية جنوب العراق، وكذلك مجاورتهم واحتكاكهم مع الآشوريون والبابليين الذين طوروه كثيرا فيما بعد¹، وعن أهم أسباب ارتباطهم بها نذكر:

- تدر الصياغة رجا وفيرا مقارنة بعدة حرف ومهن أخرى، حيث يتعامل الصائغ مع ما قل وزنه وغلا ثمنه من المواد، فيسهل بذلك خزنه أو اخفائه والمحافظة عليه، كما أن الصائغ يتعامل مع شريحة من الناس هي الأكثر ثراء في كل فئات المجتمع، والقادرة على دفع أثمان المعادن النفيسة الغالية جدا².

- جانب ديني يتعلق بالحاجة لبعض المستلزمات الطقسية كانت تفرض على أبناء هذه الطائفة تعلم فن الصياغة لصنعها بأيديهم في كل وقت، وفي أي مكان يحلون به، فهم لا يسلمون أسرار دينهم إلى آخرين وليس من المستحب أن يصنع لهم الغرباء هذه الأشياء، ومثال ذلك صياغة خاتم رجال الدين المسمى (شوم ياور زيوا) المصنوع من الذهب الخالص، وهو واجب على كل رجل دين أن يضعه في يده اليمنى كذلك هنالك قطعة من الذهب تعلق على الدرفش (درافسا) الرمز الديني للصابئة، إضافة إلى خاتم السكندولا المعروف، والسلسلة الملحقة به.

- سعيهم التاريخي للحصول على الحماية بسبب قلة عددهم، وعدم قدرتهم على حماية أنفسهم، وقد رأوا أن التقرب إلى الملوك والحكام والسلاطين عن طريق العطايا والهدايا لمحاولة كسب عطفهم، وطلباً لحمايتهم ودرء شرهم، فكان هذا الأمر حافزا كبيرا لهم للاهتمام بهذه الحرفة تاريخيا، وتطوير امكانياتهم وخبراتهم بها، فذاع صيتهم واتخذوها وسيلة لكسب الرزق وتمسكوا بها وتوارثوها جيلا بعد جيل.

- التقاليد تاريخيا في جميع بلدان الشرق الأقصى والبلاد العربية حيث يتوارث الأبناء مهنتهم وحرفهم عن آبائهم وأجدادهم لأنهم يتعلمون منهم أصول تلك المهن والحرف منذ نعومة أظفارهم فيقتنونها عند الكبر، وهكذا كل جيل يسلم للجيل الذي يليه أسرار تلك المهن وفنونها، وفي هذا السياق تم توريث وتوارث الصياغة عند الصابئة المندائيين³.

- تعد الصياغة مهنة ترتبط بالفن والجمال والذوق الرفيع، وهي تتطلب مهارة ودقة ونظافة، وهذه المزايا في العمل اتصف بها المندائيون أكثر من غيرهم يليهم اليهود، كما أن الصياغة من المهن الراقية والجميلة وفيها تنوع وتحديد وتطوير باستمرار.

¹ أندريه بارو: المرجع السابق، ص ص 209-210.

² بشير عبد الواحد يوسف: الصابئة المندائيون، ص 651.

³ الليدي دراوير: الصابئة المندائيون، ص 82.

ج- دورهم في تطوير فن الصياغة:

عرف القرن التاسع عشر تطوراً كبيراً في فن الصياغة العراقية حيث وصل هذا الفن الجميل في العراق ذروته على أيدي الصاغة المندائيين فأبدعوا فيه، وتسيدوه نظراً لدورهم البارز في تطوير هذه الصناعة وهذا الفن خاصة في تطعيم الفضة بالمينا السوداء على يد الملا خضر¹ الذي يعد أول من أدخل هذا الفن إلى العراق، ثم تعلمه أبنائه وأبناء الطائفة المندائية، واشتهر بينهم الصائغ زهرون ملا خضر أول من أدخل الألوان للمينا، ونفر من عائلته مثل الصائغ المشهور حسني زهرون الذي أبدع في رسم صور (البورتريت) للأشخاص. كما برع آخرون في هذا المجال منهم عباس عمارة والشيخ عيسى الفياض الذي أصبح الصائغ الخاص للملك فيصل الأول.

لقد كان المندائيون ومازالوا الصاغة الوحيدون القادرون على صناعة هدايا الدولة العراقية التي تقدم لملوك ورؤساء الدول الأخرى، فقد صاغ زهرون الملا خضر للملكة اليزابيث والملك إدوارد عدة تحف وهدايا فضية موجودة في المتحف البريطاني، وصاغ حسني زهرون لتشرشل علبة سيكار من الفضة، وقد رسم على وجه العلبة صورة تشرشل رافعاً يديه²، كما قاموا ببراعتهم المعهودة بأكساء معظم قباب وأبواب وجدران المراكب المقدسة في العراق بالذهب والفضة.

¹ الملا خضر: هو خضر بن بدران بن قاجار آل زهرون، لقب بالملا لشدة ورعه، من مواليد البصرة ثم انتقل للعمارة عام 1831م هرباً من وباء الطاعون، ثم انتقل إلى وان التركية حيث مكث هناك ثلاث سنوات تعلم خلالها من الأرمن سر استخدام المينا السوداء وأتقنها وأبدع فيها، ثم عاد إلى العمارة لذلك يعد أول من أدخل هذا الفن إلى العراق. للمزيد أنظر: خالد ميران دفتر: المرجع السابق، ص 143.

² خالد ميران دفتر: المرجع السابق، ص 146.

المبحث الخامس: الدور الثقافي والاجتماعي للصائبة المندائيين:

صحيح أن الصائبة المندائيون أقلية قليلة العدد مقارنة بالأقليات الدينية الأخرى إلا أن هذا لا يعني أنها لم تؤثر أو لم تتأثر بل على العكس بالرغم من الانطواء الشديد والعزلة اللذان تبنتهما هذه الأقلية منهجاً لها عبر تاريخها إلا أن الالتزام به بدأ يتناقص تدريجياً منذ أواخر العهد العثماني، فالتأمل في المجتمع العراقي اليوم يجد منهم الأطباء والصيادلة، والمهندسين والمحامين، كما يجد أن أبنائهم منخرطين في المدارس والمعاهد والجامعات العراقية بصفة عادية، أي أنهم اندمجوا في الحياة العامة عكس ما كانوا عليه من قبل¹.

أولاً- الصائبة المندائيون والتعليم الحديث في العراق:

رغم التطور الكبير والقفزة النوعية التي حققها العراق في مجال التعليم الحديث منذ منتصف القرن التاسع عشر إلا أن أبناء أقلية الصائبة المندائيون لم يكن مسموحاً لأبنائهم الالتحاق بالمدارس والمعاهد حفاظاً على منهجها التاريخي، وحماية للأجيال المندائية من التأثيرات الخارجية، فكانوا أقل الطوائف العراقية مواكبة للتطور الكبير في مجال التعليم، وبالتالي أقل الطوائف استجابة لمؤثرات الحضارة الأوروبية بشكل عام وهذا نظراً للاعتبارات التي سبق وأن ذكرناها.

لكن أواخر العهد العثماني خاصة بداية القرن العشرين، وبالتزامن مع حركة وهجرة أبناء الطائفة إلى المدن العراقية، وبداية التحرر التدريجي من القيود الدينية، تغير الحال، وأصبح الصائبة المندائيون يقبلون على تعليم أولادهم في مختلف المدارس العراقية وهذا بهدف تثقيفهم من جهة وتاهيلهم للحصول على وظائف حكومية من جهة أخرى².

كما أن رجال الدين الصائبة أدركوا أن السماح لأبناء الطائفة بالدراسة وتحصيل العلم ضرورة حتمية لمواكبة التطور الذي شهده العالم في العصر الحديث، والتطور الذي شهده التعليم الحديث في العراق، وتيقنوا أن منعهم من ذلك سيجعلهم متخلفين عن غيرهم، فيكونون عبئاً على المجتمع، ويوسع الهوة بينهم وبين أتباع الديانات الأخرى بما فيها الأغلبية المسلمة وحتى نظرائهم من الأقليات الأخرى.

ومع كل هذا لم يكن للصائبة مدارس حديثة خاصة بهم مثل اليهود والنصارى³، بل كانت مدارسهم دينية تقليدية تقتصر مناهجها على تعليم تلاميذها العلوم الدينية فقط، ولا يتجاوز عددهم 15 أو 20 تلميذاً، ولعل قلة عددهم وعدم توفر مصادر تمويل لمشاريع من هذا النوع كانا عاملين رئيسيين في عدم

¹ عبد الرزاق الحسني: الصائبة ماضيهم وحاضرهم، ص 129.

² صادق شهيد الطائي: المرجع السابق، ص 199.

³ جميل موسى النجار: التعليم في العراق في العهد العثماني الأخير (1869-1918م)، ص 219.

تواجد مدارس حديثة للأقلية المندائية في العراق، لذلك سمحوا لأبنائهم بشكل تدريجي بمزاولة دراستهم في المدارس الحكومية والمدارس الأخرى.

ثانياً- تأثير وانتشار الألفاظ المندائية في المجتمع العراقي:

من الطبيعي جداً أن تتأثر الأقلية بالأغلبية وهذا ما يفسر تأثر الصابئة المندائيين بالمجتمع العراقي الذي تعيش فيه، سواء في العادات أو التقاليد أو اللغة وغيرها، وهو ما يجسده الواقع من حيث اتقان أبناء هذه الأقلية للغة العربية وتراجع اللغة المندائية التي تعد لغتهم الأصلية¹، والقديمة التي كتبت بها كل كتبهم الدينية²، لكن الغريب الذي يستدعي التوقف عنده هو حجم تأثير الأقلية في الأغلبية، ونقصد أن الكثير من الباحثين رصدوا العديد من الألفاظ العامية التي يستخدمها العراقيون، ويعود أصلها إلى اللغة المندائية، وأحياناً تستخدمها الشعوب العربية المجاورة، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على حجم تأثير لغة الصابئة أي اللغة المندائية في المجتمع، ومن أمثلة ذلك نذكر كلمة (طب) وتقال طب علينا الرجل أي دخل علينا، وهي من أصل مندائي (طبا) يستخدمها تقريباً كل الشعب العراقي خصوصاً المناطق الجنوبية³، وحتى الشعوب العربية الأخرى، ومنهم نحن الجزائريون نستخدمها خصوصاً في الصحراء لكننا نستخدمها للمفاجأة عندما يأتي شخص فجأة نقول طب علينا، أي لم نكن ننتظر قدومه.

ومن الألفاظ المندائية الأكثر تداولاً واستعمالاً نذكر أيضاً لفظة (أكو) التي يستخدمها العراقيون دون الشعوب الأخرى، وتعني موجود، ولفظة (ماكو) التي تعني غير موجود، وكلا اللفظين أكد الباحثون أنهما من أصل مندائي، والأصل فيها (أكا) لكن حرفت مع مرور الزمن لتتحول إلى (أكو) فالمندائيون يستبشرون بكلمة (أكا) باعتبارها فاتحة الشهادة المندائية التي هي: «أكا هيي أكا ماري أكا منداادهيي»⁴.

هذا، وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن تسمية منطقة ميسان أو دشت ميسان حسب كتب التاريخ الاسلامي، والتي تسمى ميسان في اللغة السريانية واللغة المندائية على أنها مندائية الأصل، ومكونة من جزأين الأول (مي) وتعني الماء، والثاني (شان) وتعني القصي أو البهي⁵، كما أن كلمة (موسى) هي نفسها الكلمة المندائية (مي سا)، وتعني الغارق في التراث الأدبي والديني المندائي.

¹ صادق شهيد الطائي: المرجع السابق، ص 211.

² الليدي دراور: الصابئة المندائيون، ص 51.

³ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج1، ص 43.

⁴ فاروق عبد الجبار عبد الامام: مصطلحات آرامية مندائية عربية مشتركة، ب ط، ب د ن، بغداد، ب ت، ص ص 22-

23.

⁵ عزيز سباهي: المرجع السابق، ص 174.

إضافة إلى الأمثلة التي ذكرنا فان ما رصده الباحثون حول تأثير اللغة المندائية في المجتمع العراقي واللغة العربية كبير جدا لا يتناسب اطلاقا مع حجم هذه الأقلية من حيث عدد السكان، وهذا دليل على أن هذه الديانة قديمة جدا، وأن التواصل الحضاري بينها وبين اللغات السامية الأخرى التي تعايشت معها تمتد جذوره عميقا في تاريخ العراق.

ثالثا- تأثير ودور الشعراء المندائيون في المجتمع العراقي الجنوبي:

أكدت عدة دراسات متخصصة في تاريخ وشؤون الصابئة المندائيين أنهم بالرغم من تأخر اندماجهم في التعليم الحديث الا أن ذلك لم يمنعهم من الابداع في مجال الشعر، وقد كان الشعراء المندائيون ينظمون قصائدهم باللهجة المحلية أو اللغة العامية، وقد كانوا يتناولون في أشعارهم مواضيع مختلفة مست كل جوانب الحياة للمنطقة الجنوبية (الأهوار) التي كانوا يسكنونها، كما أن أشعارهم انتشرت في تلك الأوساط وعمت كل المناطق، ولازال المندائيون يحفظون تلك القصائد ويتوارثونها إلى غاية يومنا هذا، ويعتبرونها من التراث الشعبي المندائي، ومن أبرز الشعراء المندائيون في تلك الفترة نذكر:

1- فدعم بن عيادة (1810-1885م): هو فدعم بن عيادة بن محسن بن ربح بن محراث بن دعبول بن هلال بن ضوي بن مندو، ولد عام 1810م بسوق الشيوخ بمحافظة الناصرية، تربى وترعرع فيها بين شيوخ المنتفق وكنفهم، الذين اهتموا بالشعر وأولوه عناية كبيرة وفرت بيئة خصبة تطور فيها هذا الفن الشعري بشكل كبير جدا¹، من أمثال الشيخ مزعل، والشيخ مشاري، والشيخ بندر، والشيخ عبد العالي، وقد كان فدعم بن عيادة أثيرا عندهم بسبب ذكائه وبديهته وحسه وموهبته الشعرية الفذة².

وقد كان لحب وشغف هؤلاء الشيوخ الكبارين بالأدب والشعر دور كبير في تطور الانتاج الشعري في تلك الفترة كما كان سببا لتقرب كل الشعراء منهم، وهم بدورهم أكرمواهم بالعطايا والهدايا نظير ابداعاتهم. أما الشاعر فدعم فمن تعلقه الشديد بهذه البيئة وارتباطه هؤلاء الشيوخ لم يقدر على مغادرة مسقط رأسه بالرغم من انتقال عائلته بكاملها، وتغيير محل اقامتها إلى العمارة بعد تأسيسها عام 1861م الا هو فقد فضل البقاء ولم ينتقل معهم حتى وفاته العام 1885م.

كان فدعم مولعا بالشعر منذ صغره حسن الانصات سريع الحفظ سريع الرد عرف عنه حبه للمساجلات الشعرية مع أقرانه من الشعراء الذين عاصروهم من أمثال حواس بن هلال، وكطوف القصاب، والشاعر دويج، والشاعر سليم بن فارس وغيرهم، وقد أوضحت قصائده سجلاته معهم كل على حدى.

¹ حميد حمد السعدون: امانة المنتفق وأثرها في تاريخ العراق والمنطقة الاقليمية (1536-1918م)، ط1، دار وائل للنشر، عمان، 1999م، ص 284.

² مؤيد مكلف سوادى: فدعم بن عيادة (من التراث الشعبي المندائي)، ط1، ب د ن، ب ب، ب ت، ص ص 5-6.

كما عرف عن شعره التنوع في المواضيع فقد كتب أشعارا في الغزل، كما نظم قصائد توثق الحياة البدوية والحياة العامة، كما كتب عن الفروسية، وعن بعض الحوادث التاريخية التي عاصرها¹.

2- سنيجر بن عامر الزهيري (1800-1881م): هو سنيجر بن عامر بن ناصر بن عزيز بن عبد الأحد بن سبتي بن معن بن زهرون الزهيري، ولد في العام 1880م بالعمارة، وترعرع هناك، وكان دائم التنقل بين البصرة والعمارة، ويعد سنيجر عالما وفيلسوبا في زمانه ذاع صيته في كل الأصقاع، عرف عنه شغفه اللا محدود للعلم والمعرفة، فتعلم القراءة والكتابة من تلقاء نفسه، وكان يجيد اللغتين العربية والمندائية، وكان رجل دين مندائي بدرجة ترميذا²، عرف عليه تدينه والتزامه بتعاليم ديانتته، وكان سمح الخلق، لذلك كان يحظى باحترام من الجميع خصوصا شيوخ امارة المنتفق الذين كانوا مشجعين ومحبين للعلم والأدب³.

كما عرف عنه حبه الشديد لاكتشاف الأديان وأسرار الحياة لذلك خالط حتى الهنود وال دراويش لزيادة معارفه، وقد كان مولعا بالشعر منذ صغره فأصبح شاعرا كبيرا تنوعت أشعاره بين مواضيع عديدة، أغلبها كان دينيا توجيهيا لأبناء طائفته، لذلك كانت قصائده تعكس الجدية التي اتسم بها في تفكيره، والحرص في أقواله، والابتعاد عن الهزل والدعابة، فقد كان بالنسبة للمندائيين وحتى المحيطين بهم يحمل رسالة دينية تربوية أخلاقية لأبناء طائفته فكانت أشعاره مفعمة بالحكمة والنصح وتحليل الأمور⁴.

هذا، وقد عرف عن سنيجر أنه لم يكن ميالا للدخول في سجالات مع الشعراء بالنظر إلى شخصيته الجادة عكس فدعم الذي كان مندجما في بيئته متأثرا بها فغلب على أشعاره الدعابة والهزل والسجلات الشعرية مع أقرانه، توفي سنيجر عام 1881م⁵ تاركا وراءه ارثا شعريا مندائيا لازال المندائيون يحفظونه ويفتخرون به جيلا بعد جيل.

أخيرا نستنتج أن الصابئة المندائيون كأقلية لم يكن لها دور كبير في المجال السياسي لأن رجال الدين المندائيون يبعدون أبناء طائفتهم عنها نظرا لما لها من مخاطر قد تهدد أوراخهم ومستقبلهم كطائفة دينية حافظت على وجودها آلاف السنين، كما أن قلة عددهم لم تساعدهم على لعب أدوار سياسية مهمة. كما نستنتج أن أدوار هذه الأقلية في النواحي الاقتصادية اقتصر على بعض المهن والحرف التي ارتبطت بهم عبر تاريخهم كالحداثة والنجارة وصناعة القوارب والمعدات الفلاحية والصياغة التي كان لهم دور كبير في تطويرها في العهد العثماني، في حين مشاركتهم في قطاعي الزراعة والتجارة كان جد محدود.

¹ مؤيد مكلف سوادى: المرجع السابق، ص 13.

² حسام هشام العيداني: سنيجر بن عامر، ط1، موسوعة العيون المعرفية، بغداد، 2012م، ص ص 2-4.

³ حميد حمد السعدون: المرجع السابق، ص 284.

⁴ مؤيد مكلف سوادى: المرجع السابق، ص 47.

⁵ حسام هشام العيداني: المرجع السابق، ص 2.

أما فيما يخص الحياة الثقافية والاجتماعية فإن طائفة الصابئة المندائيون على قلتها فقد تفاعلت داخل المجتمع خاصة في المناطق الجنوبية فأثرت وتأثرت، لكن التأثير الأكبر كان للغة المندائية التي رصد الباحثون المعاصرون أن تأثيرها كبير في اللهجة العامية العراقية.

كذلك لاحظنا خلال هذه الدراسة التحول الكبير لدى الصابئة المندائيون اتجاه التعليم الحديث في العراق أواخر العهد العثماني عكس ما كان سائدا لقرون عديدة من العزلة والانطواء ومنعهم لأطفالهم من الالتحاق بالمدارس، لذلك لا عجب أن منهم اليوم الدكتور والصيدي والمحامي والدبلوماسي وغير ذلك.

الأقلية الشانية: دور الأيزيدية في المجتمع العراقي خلال العهد العثماني

المبحث الأول: التعريف بالديانة الأيزيدية ومبادئها وعقائدها:

أولاً- التعريف بالديانة الأيزيدية:

هي ديانة اعتبرها كثير من الباحثين من بقايا الديانات القديمة في بلاد الرافدين يعتنقها جزء من الأكراد الذين ينتشرون في شمال الموصل¹، وجزء منهم في إيران وجنوب تركيا وحلب بسوريا، وأيضاً يتواجد بعضهم بأرمينيا ومناطق أخرى متفرقة. كما يرى قسم آخر من الباحثين أنها إحدى الفرق الإسلامية الضالة التي احتضمت أتباعها بجبال كردستان، يقولون هم عن أنفسهم أنهم يوحّدون الله الخالق، ويقول عنهم خصومهم أنهم مشركون وعبداء للشيطان، ولعل الغموض الكبير الذي يكتنف هذه الديانة أبقى الخلاف قائماً إلى يومنا الحالي.

اختلفت الآراء كثيراً حول هذه الديانة الأيزيدية اختلافاً جوهرياً حول طبيعتها، وتسميتها وأصولها التاريخية ويعود سبب هذا الاختلاف إلى عدة عوامل ساهمت في زيادة اللغظ حولها لعل أهمها:

- عدم وجود مراجع دينية كافية وشاملة تعرف بهذه الديانة، تزيل الغموض الذي يكتنفها، وتسد الطريق عن الأبحاث غير الموضوعية، وتبعد عنها الشائعات²، وتظهرها على حقيقتها مهما كانت، رغم امتلاكهم كتابين إلا أنهما لا يفيان بالغرض.

- طبيعة الأيزيديين أو أتباع هذه الديانة الذين يميلون إلى الانطواء والانعزال، فعالية هؤلاء يعيشون في الجبال بمنطقة كردستان، ومناطق ريفية بعيدة، كما أنهم التزموا الصمت، وعدم دفع الشائعات، والتهم التي ألحقت بهم عبر تاريخهم مثل وصفهم بعبداء للشيطان والطائفة الكافرة.... الخ³.

- طبيعة ومحتوى الأبحاث التي تناولت هذه الديانة والتي افتقدت إلى التدقيق والتمحيص والمقاربات العلمية، فذهبت أغلبها في طريق زيادة اللغظ والاختلاف أكثر من الافادة، كما اتصف جل هؤلاء الباحثين بالذاتية في تناولهم للموضوع، سواء كانوا من المستشرقين أو حتى من المسلمين⁴، إضافة إلى اعتمادهم على الروايات الشفهية، والتي كانت من مصادر غير أيزيدية أصلاً في بعض الأحيان.

¹ سعد سلوم: المرجع السابق، ص 19.

² رشيد الخيون: المرجع السابق، ج 1، ص 155.

³ توماس بوا: الأيزيديون وأصولهم الدينية ومعابدهم والأديرة المسيحية، ط 2، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، 2013م، ص 4.

⁴ أحمد تيمور باشا: الأيزيدية ومنشأ نحلته، ط 1، مؤسسة هندواي للطباعة والنشر، القاهرة، 2014م، ص 10.

-اختلاف أتباع الديانة الأيزيدية أنفسهم حول ذات المواضيع المختلف حولها (أصل الديانة- والتسمية- ونشأتها)، سواء أناس عاديون أو مثقفون وباحثون، وبالتالي بدل أن يكونوا عنصراً لازالة الخلاف والغموض صاروا جزءاً من المشكل.

يمكننا القول في هذا الصدد أن النقاط التي كانت مثار جدل بين الباحثين هي كثيرة لكن يمكن تلخيصها في ثلاثة عناصر أساسية هي:

1- الاختلاف حول أصل التسمية: لا يوجد اتفاق بين الباحثين حول تسميتهم الصحيحة، فهناك

من يرى ان الأيزيدية أصح، وهناك من يسميهم باليزيدية ولعل أبرز الآراء هي:

أ- تسمية الأيزيدية: ذهب قسم من الباحثين إلى أن الأيزيدية هي التسمية الحقيقية لهذه الطائفة، لكنهم اختلفوا بدورهم حول أصل التسمية ونسبتها، فذهب القسم الأول منهم كما تشير بعض المصادر المتوفرة إلى أن تسمية أيزيدية نسبة إلى الموطن الأصلي (الأساسي) للديانة الأيزيدية، وهو مدينة يزد القريبة من خراسان شرق إيران القريبة من الحدود الأفغانية، وحسبهم فإن إسم الأيزيدية مشتقة من مدينة يزد Yazd بإيران¹.

أما القسم الثاني فقد اتفق على أن تسمية الأيزيدية مشتقة من الكلمة ايزيد Ized بمعنى (الملك الإله) ويزاتا Yazata في الآفستا² تعني يستحق العبادة، ويزد Yazd باللغة البهلوية وياجتا Yajata في السنسكريتية، وبذلك يكون معنى أزيدي Azidi وإيزيدي Izidi وإيزيدي Izedi أو Izdi عباد الله³. ونجد اسم ايزيد في اسطورة ملك ايزدا Ezda ويزدان Yazdan جد من أجدادهم، كما أن يزداني Yazdani قد أطلقت على الأيزيديين الأولين .

ويعلل القس سليمان الصائغ تسميتهم بانتسابهم إلى إله كانوا يعبدونه إسمه " يزدا " أو " يزدان " مستنداً بذلك على ما جاء في تاريخ " كلدو آشور " نقلاً عن " توما المرجي " في القرن التاسع للميلاد، الذي ذكر في كتابه " الرؤساء " عن أهالي مدينة " مورغان " إنهم كانوا يعبدون صنماً إسمه " يزدا " ⁴. كما يقول عنهم إحسان نوري باشا عنهم: «واشتهرو باسم (ئيزدي)، والكورد أيضاً يطلقون عليهم هذه التسمية، إلا أن الشعوب المجاورة حرّفوها إلى (يزيدي) لأغراض سياسية».

¹ صديق الدمولوجي: اليزيدية، ط1، مطبعة الاتحاد، الموصل، 1949م، ص 161.

² الأفيستا: هو الكتاب المقدس والمصدر الوحيد للديانة الزرداشتية. أنظر: سامي بن عبد الله المغلوث: المرجع السابق، ص 603.

³ سعد سلوم: المرجع السابق، ص ص 19-20.

⁴ سليمان الصايغ: المرجع السابق، ج1، ص 295.

ويسمي شرف خان البدليسي الإيزيدية في كتابه (الشرفنامه) بـ (الإيزيدية اليزدانية)¹، ويذكر مؤرخ آخر أن الإيزيدية قديماً كانت تسمى بالزروانية نسبة إلى (زرادشت)، أما اشتهاار الإيزيدية باسم (إيزدي) وذلك لأن تسمية (يزدان) تطلق عندهم على الله تعالى وتفسير هذه الكلمة الخالق الرزاق. كما نذكر أن تسمية الإيزيدية وردت أيضاً في مصادر قديمة، فأورد المؤرخ اليوناني زينفون في كتابه رحلة العشرة آلاف (anabasis)، أنه كان هناك في حدود سنة 401 ق.م ثمة طائفة تستقر قرب مدينة نينوى وتدعى (بيزدي) وكان لهم شهرة بارزة في القتال².

بالإضافة إلى تسمية (إيزدي) فإن سكان المناطق المجاورة للإيزيديين يطلقون عليهم تسمية داسني³، ويبدو أن أغلبية الكورد المسلمين أيضاً يطلقون عليهم التسمية المذكورة⁴، وجاء في الموسوعة الإسلامية كانوا يدعون أن اسمهم في الأصل هو داستي.

ويرى قسطنطين زريق في مقدمة الكتاب الذي حققه لاسماعيل بيك جول (اليزيدية قديماً وحديثاً) أن أصل معنى الأيزيدية (أتباع الله) أو (أتباع الملائكة)، وخاصة أن اسم يزدان المشتق منه اسم الإيزيدية تعني (الله) و(إيزد) تعني خالق بالعبادة، وتطلق في دين الفرس القديم على الملائكة التي تتوسط بين الله والبشر وتنقل مشيئته إليهم⁵.

وبالنسبة للديانة الإيزيدية فقد وردت هذه التسميات بكثرة في نصوصها الدينية، فقد وردت كلمة (يزدان) بمعنى الخالق العظيم، فقد جاءت في عدة نصوص من بينها ما معناه أن يزدان هو صاحب الدنيا والآخرة، وهو يلي رغباتي وأمنياتي، وهو إلهي الوحيد⁶.

ب- تسمية اليزيدية: يرى أنصار هذا الرأي أن الأيزيدية هي فرقة إسلامية ضالة يعود تاريخها إلى أواخر القرن السابع الميلادي، وتنسب تسميتها إلى يزيد بن معاوية ثاني خلفاء الدولة الأموية (680-

¹ شرف خان البدليسي: شرف نامه، تحقيق وتعريب محمد علي عوني، ب ط، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، 1958م، ص 396-395.

² عدنان زيان فرحان: الكرد الأيزيديون في إقليم كردستان، ط1، مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية، السليمانية، 2004م، ص 7.

³ أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص 15.

⁴ محمد رؤوف توكلي: تاريخ تصوف دار كرستان، منشورات توكلي، طهران، 1378ش، ص 18.

⁵ اسماعيل بيك جول: اليزيدية قديماً وحديثاً، تحقيق وتقديم قسطنطين زريق، ط1، مطبعة الجامعة الأمريكية، بيروت، 1934م، ص ظ.

⁶ سعد سلوم: المرجع السابق، ص 20.

683 ميلادية)¹ الذي كان حواريا تلميذاً لرسول الله محمد بن عبد الله ﷺ، وعليه فهم الزيديون². وقد أوردوا عدة تفسير لدعم هذا الرأي، فمنهم من قال أن اعتقادهم بيزيد كان هدفه التخلص من اضطهاد السنة، ولرغبتهم في الانتساب إلى شخصية شريفة وممتازة. ويعتقد باحث آخر بأن الأيزيدية اختاروا اسم يزيد واليزيدية لمسايرة تعصب بعض الحكام المسلمين. كما يرى البعض أن اسم اليزيدية أطلقه عنهم مسلمون للإستهزاء والسخرية.

ويذهب باحثون آخرون مؤيدون بأن تسميتهم اليزيدية لكنهم يختلفون في أن التسمية نسبة إلى اسم يزيد لكنه يزيد بن أنيسة الخارجي وليس يزيد بن معاوية، وهم فرقة من الخوارج ذكرهم عدة كتاب مسلمين منهم السمعاني في كتابه الأنساب، وقد قال أنهم كانوا على مبدأ بأن الله يبعث رسولاً من العجم، وينزل عليه كتاباً كتب من قبل، وسيترك ديانة محمد ﷺ، ويتبع ديانة الصابئين المذكورة في القرآن³.

ويذهب قسم آخر ممن يرون أنها ييزيدية نسبة ليزيد بن معاوية، إذ يعتقدون أن اليزيدية الذين ذكرهم السمعاني المتوفي سنة (562هـ / 1166 م) هم نفسهم الأيزيدية الحالية⁴، ثم هاجر إلى نواحيهم الشيخ عدي بن مسافر الذي نظمهم وأصلح حالهم، وعلى رأيه أن اليزيدية أقدم عهداً من مجيئ الشيخ عدي. فيما يرى باحثون آخرون أن تاريخ ظهور الأيزيدية مرتبط فقط بظهور الشيخ عدي بن مسافر بينهم .

2- تسميات أخرى للأيزيدية: أطلقت عدة تسميات أخرى على الأيزيديين أهمها:

أ- الداسنية: ذكرها عدة مؤرخين بهذه التسمية نسبة إلى جبل داسن حيث يقول توفيق وهي إن زرادشت هو الذي سمى الأيزيديين بالداسنيين، وأيضاً في أدب الزرداشتيين فإنهم يسمون مازدا سنان أي عابدوا الإله مازدا، وكلمة ياسنا تعني عبادة النار عند الزرداشتيين⁵، وهناك من يعتقد أنها تشير إلى إله القمر (سين).

والأيزيديون في اعتقادهم بأن ملاك المعرفة وناقل الوحي (نورائيل) ولقبه فخر الدين يسمى ملاك سين ويسكن القمر، كما ذكرهم أحمد تيمور باشا بأنهم يسمون داسنية نسبة إلى بلدهم يزد⁶. كما يذكرهم

¹ عبد الكريم السمعاني: الأنساب، ج 13، ط العثمانية 1، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية، ب ب، 1977 م، ص ص 504-504.

² عباس العزاوي: تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم، ط1، مطبعة بغداد، بغداد، 1935م، ص ص 19-20.

³ عبد الكريم السمعاني: المصدر السابق، ص ص 504-505.

⁴ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج1، ص 159.

⁵ سهيل زكار: المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم، ط1، دار الكتاب العربي، دمشق، 1997م، ج1، ص ص 459-460.

⁶ أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص 15.

الأسناد طه الهاشمي « إن اليزيديين هم الداسنيين من الكرد المقيمين في جبل داسن »¹، ولا يزال اليزيديون إلى اليوم يُسمَّون دسنايا وداسني من قبل السريان وكذلك من قبل الأكراد، وهناك كتاب اسمه أخبار الدسناوية نقله الأب شموئيل جميل الكلداني (1847-1917م) من السريانية إلى الإيطالية سنة 1900م.

ب- الصالجية وعبد الشيطان: أطلق العثمانيون على اليزيديين اسم الصالجية من باب التهكم والسخرية، واللفظ يعني بالتركية ذو الشعر أو ذو الشعر الكثيف لأن اليزيدي لا يخلق شعره. كما أطلق باحثون وأناس من العامة تسمية عبدة الشيطان على اليزيديين منهم المؤرخ عبد الرزاق الحسني في كتابه اليزيدية قديما وحديثا²، وكثير من الناس ساروا في نفس هذا الدرب، ويعود السبب لتقديسهم الشيطان الذي يعتقدون أنه رئيس الملائكة ويسمونه ملاك طاووس، وفي معتقداته فهم يتضرعون اليه إلى درجة تأليهه..

ثانيا- مبادئ وعقائد الديانة اليزيدية وأوجه التشابه مع الديانات القديمة:

1- مبادئ وعقائد الديانة اليزيدية:

أ- معتقدتهم في الخالق: اليزيديون يؤمنون بوجود الله الخالق الأكبر للكون ويوحّدونه، لكن الله عند اليزيديين ليس كمعتقد باقي الأديان السماوية التي يحمل فيها الخالق صفة الخير فقط، أما الشر فهو من صفات النفس البشرية، بل الله في معتقد اليزيدية يجمع في ذاته الالهية ثنائية الخير والشر معا، وفي هذا تلتقي الديانة اليزيدية مع الديانتين الزرداشتية والمانوية³. كما يعتقدون أن الله فوض أمر تدبير الكون وإدارته إلى مساعده أو وكيله ومنفذ مشيئته طاووس ملك الذي يرتفع في أذهان اليزيدية إلى مرتبة الألوهية حتى أنهم يسبحونه ويقدسونه ويتضرعون إليه⁴.

ب- معتقدتهم في الشيطان: الشيطان نقطة خلاف بين الديانات السماوية، والديانة اليزيدية ففي معتقد اليزيدية عندما أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم سجد الجميع إلا واحدا يدعونه (طاووس ملك)، وهو الملاك المسمى عزازيل الذي خلقه الله من نور، ويرر (طاووس ملك) موقفه هذا بأنه لا يستطيع السجود سوى لخالقه الذي هو الله عند ذلك ثمن الله نوقف (طاووس ملك) ورفع شأنه، وجعله رئيسا لجميع ملائكته، وبالتالي لوجود ملاك ملعون من الأصل، ومن أساس عقيدتهم هو رفضه السجود لآدم، وماحدث ما هو إلا دليل على وجود الاختيار بين الخير والشر وفي هذا ميزة العقل⁵.

¹ طه الهاشمي: مفصل جغرافية العراق، ط1، مطبعة دار السلام، بغداد، 1930م، ص 109.

² عبد الرزاق الحسني: عبدة الشيطان أو اليزيدية، العدد 22، مجلة العصور، القاهرة، جوان 1929م، ص 712.

³ سعد سلوم: المرجع السابق، ص ص 31-32.

⁴ أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص ص 50-51.

⁵ سعيد الديوه جي: اليزيدية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003م، ص ص 116-117.

ج- معتقدتهم في الخليقة: حسب رواية مصحف رش فإن الله خلق من سره درة من أربع ألوان¹ الأصفر رمز الكرامة الإلهية، والأبيض رمز للنور الإلهي، والأحمر رمز للقوة الإلهية، والأخضر رمز للسلام، بعد ذلك خلق طائرا اسمه انغر، ووضع الدرة فوق ظهره لأربعين ألف سنة. بعد ذلك خلق سبع ملائكة وهم جبرائيل وشمخائيل وعزرائيل ونورائيل ودردائيل واسرافيل وميكائيل²، بعدها صاح الله فانفجرت الدرة وانتشرت قطعاً ومن هذه القطع كلف الله ملائكته فصنعوا النجوم والشمس والقمر ومن ثم شكل الجبال والبحار وغيرها.

أما سيدنا آدم في معتقدتهم فقد خلقه الله، وبقي جسده دون روح مدة سبعمائة سنة ثم نفخ فيه الروح، وأبقاه في الجنة، ومنعه من أكل القمح لكن ملك طاووس أمره بأكله فأنزله الله إلى الأرض، وبقي مائة عام وحده يبكي قبل أن يأمر الله بخلق حواء من ابط آدم الأيسر ليتكاثرا بأمره ليكثر نسل البشرية لما هو عليه الآن³.

د- معتقدتهم في الموت والتناسخ: مثل الهنود يعتقد الأيزيديون أن الروح تناسخ وتحل في جسد آخر⁴، سواء حيوان أو جماد، حيث أن الزاني تنزل روحه إلى خنزير، والكاذب تنزل روحه إلى جحش حمال ومتعب، والظالم تنزل روحه إلى كلب دنيء صغير، والشجاع تنزل روحه إلى أسد وهكذا⁵. وإذا مات ولد لا يعرف الخير والشر فيبقى أربعين يوما في جنة شداد بن عاد، وبعده ترجع روحه إلى البشر فإن كان ذكراً فتحل في ذكر، وإن كان أنثى فتحل في أنثى. ويعتقد الأيزيديون أن البعض ينتقل سبع مرات من جنس إلى جنس آخر أو من جلد آخر بالتزقي إلى أن يصير إلى الغزال أو الخروف، وبعدها يرتقي إلى فرس أصيل عند أحد الملوك أو الأمراء، وبعد ذلك يلبس الجسد الانساني ثانية.

ومن معتقداتهم أيضا عند موت أحدهم يجب أن يكون عنده شيخ يحضر له قليلاً من تراب الشيخ عادي يضعون منه قليلاً بكفه وعلى وجهه، يمسحونه به قبل دفنه، وبعد الدفن يضعون قليلاً من بعر الغنم على قبره خوفاً من أن تأتي الوحوش عليه. والكواجك يسهرون على قبر الميت، وبالأحلام والاكتشافات يعرفون أهل الميت ماذا صار بعد موته، وبأي صورة شبه ورجع لهذا العالم مرة ثانية.

¹ سعد سلوم: المرجع السابق، ص 30.

² رشيد الخيون: المرجع السابق، ج 1، ص 172.

³ محمد عبدو علي: الديانة الأيزيدية والأيزيديون في شمال غرب سوريا، ط 1، مؤسسة الطباعة، عفرين، 2008م، ص ص 17-18.

⁴ صديق الديمولوجي: المرجع السابق، ص ص 142-146.

⁵ عباس العزاوي: تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم، ص ص 139-140.

هـ - معتقدتهم في الشيخ عدي بن مسافر: هو الشيخ عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان بن الحكم، ولد في قرية بيت فار بمنطقة بعلبك في البقاع اللبناني¹، ثم هاجر من الشام إلى العراق مع أناس كثر هربا من ملاحقة العباسيين عاش في الصحاري والجبال قبل أن يصل إلى منطقة الهكارية بالموصل حيث استقر هناك، وعاش فيها بقية حياته في معبد لالش حتى توفي عام 555 هجرية وقيل 557 هـ².

هذا، ويختلف الأيزيديون باعتقادهم في الشيخ عدي فمنهم من يرى أنه كان مبجلا كالنبي، بل إنهم يعتبرونه فوق مقام النبي³، ومنهم من يعتقد أنه من اللاهوت، فيما يرى آخرون أنه وزير الله، وأمور الأرض والسماء تتحرك بتدبيره، ومنهم من يعتقد أن حكم السماء بيد الله وحكم الأرض بيد الشيخ عدي، أو أنه شريك معزز عند الله لا ترفض له رغبة، بل إنه الروح المقدسة والمنزهة للأنفس، وهو يحل على الأنبياء، ويوحى إليهم الحقائق الدينية، ويخبرهم بالغيب، والأنبياء عندهم لا انقطاع لهم.

وعن معتقد الأيزيدية في الشيخ عدي يمكننا تمييز ثلاث آراء مختلفة أولها فئة يألهون الشيخ، ويعتبرونه هو الله نفسه وهم المغالون، وثانيهم فئة ترى أنه شريك الله تعالى في الألوهية، فحكم السماء بيد الله وحكم الأرض بيد الشيخ عدي. أما الرأي الثالث وهو رأي أكثر اعتدالا من الرأيين السابقين الذي يرى أصحابه أن الشيخ عدي ليس الله، ولا شريكا له، لكنه عند الله بمنزلة الوزير الأكبر، لا يصدر من الله أمر إلا برأيه ومشورته .

وقد اعتبر الكثير من الباحثين أن الشيخ عدي مجدد وباعث الديانة الأيزيدية ومنظمها، فمعظم تعاليم عباداتهم في كتابي الجلوة ومصحف رش، وعاداتهم والمحرمات في ديانتهم هو من وضعها، لذلك يحتل هذا الشيخ مكانة خاصة عندهم إذ يعتقدونه (طاووس ملك) بهيئة بشر، لأن في المعتقدات الأيزيدية أن طاووس ملك ينزل إلى الأرض كل ألف عام بهيئة شيخ متصوف، وتقي ليعدهم عن طريق الخطيئة ويعيدهم إلى دينهم ومعتقداتهم.

و - المحرمات: مثل كل الديانات هناك ممنوعات ومحرمات في الديانة الأيزيدية لعل أهمها أنهم في المأكولات لا يأكلون الخس لأنه حسب زعمهم أن الشيخ عدي مر يوما على بستان فرآه مزروعا بالخس فسأل عنه فما أجابه بشيء فقال.. لا يجب لأحد أن يأكله... وإلى الآن محرم على كل أيزيدي حتى أن

¹ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، ب ط، دار صادر، بيروت، ج3، ص 255.183.

² أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص 19.

³ محمد عبدو علي: المرجع السابق، ص 15.

الأرض التي يزرع فيها الخس لا يدوسونها. كما أنهم لا يأكلون لحم الغزال لقولهم أن عيونه تشبه عيون الشيخ عدي، ولا يأكلون لحماً ميتاً¹.

أما في المعاملات والحياة اليومية فإنه لا يسمح للأيزيديين أن يلبسوا ثوباً أسوداً²، وإذا عمل ثوباً جديداً أو لباساً عليه أن يعمده بماء زمزم المبارك الموجود بحضرة الشيخ عدي، وإذا لم يفعل ذلك فقد كفر. كما لا يمشط الأيزيدي بمشط مسلم أو يهودي، ولا يحلق رأسه بموس هؤلاء، ولأجل الضرورة يلزم أن يغسله أولاً بماء الشيخ عدي.

ومن المحرمات عليهم أيضاً البصاق علناً، والتلفظ بإسم الشيطان أو اللعن مهما كان، كما يحرم عليهم الكذب والزنا والسرقة وغيرها من السلوكات المشينة التي تضر المجتمع، كما يحرم على الأيزيديين التبول واقفاً أو في الينابيع، كما يحرم عليهم أيضاً الزواج من أتباع الديانات الأخرى النساء والرجال على حد سواء³.

2- مظاهر التشابه بين الأيزيدية وديانات بلاد الرافدين القديمة:

وجد الباحثون من خلال دراساتهم للديانة الأيزيدية عدة روابط وقرائن وأدلة في عدة جوانب بين الديانات العراقية القديمة كالسومرية والبابلية والآشورية، وحتى الزرداشتية من جهة، وبين الديانة الأيزيدية من جهة أخرى⁴، لعل أبرز هذه القرائن هي:

أ- الطقوس والاحتفالات والأعياد: من بينها نجد عيد رأس السنة الذي يصادف يوم الأربعاء الأول من شهر أبريل، ويحمل نفس الاسم "سرصال" عند البابليين والأيزيديين على حد سواء⁵، وكذلك مهرجانات الربيع التي تسمى قديماً باحتفالات آلهة المدن، ويسمى عند الأيزيديين بالطوافات، ولكل قرية أيزيدية مهرجاناتها (يبدأ بعد عيد رأس السنة ويستمر إلى أواخر شهر حزيران)، إضافة لتقديس البابليين والأيزيديين ليوم الأربعاء من كل أسبوع.

ب- تحريم بعض الطقوس والعادات في أيام معينة: يحرم كلا الطرفين العمل، وغسل الملابس والجسم، وحلاقة الرأس وحرث الأرض يوم الأربعاء، كما يحرم الزواج في شهر أبريل عند الأيزيديين، وكذلك البابليين باعتباره شهر زواج الأنبياء والأولياء، وشهر زواج الآلهة والملوك عندهم.

¹ عباس العزاوي: تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم، ص 154.

² سعيد الديوه جي: اليزيدية، ص 160.

³ محمد عبده علي: المرجع السابق، ص 68.

⁴ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج 1، ص 160.

⁵ زهير كاظم عبود: الأيزيدية حقائق خفايا وأساطير، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005م، ص 83.

ج- الالتزام بالطبقات الدينية: وتمثل في إلزام الأيزيديين بمبدأ الوراثة في المراكز الدينية من جهة، ومن جهة أخرى كل فرد أيزيدي يتزوج من طبقته فقط¹، وهو نفس الشيء الذي يعتقده البابليون القدامى خاصة في توريث المراتب الدينية .

د- التشابه في بعض المعتقدات الدينية: كثيرة هي نقاط التشابه في العقائد بين الأيزيديين والبابليين القدامى مثل اجتماع ثنائية الخير والشر وثنائية النور والظلام في إله واحد²، إضافة إلى إرتباط الآلهة السومرية القديمة، وطاووس ملك الأيزيدي بقضايا التنجيم، والفلك اذ يمثل كوكب عطارد رمز الالهين آنو ونابو عند السومريين، وطاووس ملك عند الأيزيديين³.

كذلك ما تمثله الحية عند الأيزيدية حيث ترمز للخير والشر في آن واحد، كما تعبر عن الحكمة والدهاء، وهي رمز تفاؤل حيناً وشؤم أحياناً أخرى، وحامية لخزائن المال والحكم، ويجري الحديث عنها بنوع من التبجيل والاحترام والخوف معاً، وهي تقريبا نفس التصور لدى قدامى البابليين.

ثالثاً- مصادر تشريع الأيزيدية وطبقاتهم وعباداتهم:

1- كتبهم ومصادر تشريعهم:

تعتمد الديانة الأيزيدية على التراث الشفاهي الذي يتوارثه الأيزيديون جيلاً بعد جيل، وهذا لا يمنع أن لهم كتابين يستمدون منهما تعاليمهم وقوانينهم التي يسيرون بها حياتهم اليومية، وهذان الكتابان هما مصحف رش، وكتاب الجلوة لأرباب الخلوة⁴، لكن يدور حولهما لغط كبير نتناوله فيما يلي:

أ- مصحف رش: تؤكد الدراسات التاريخية أن هذا الكتاب كتب بعد وفاة الشيخ عدي بن مسافر بحوالي مائتي عام، وكلمة "رش" كردية تعني الأسود، أي المصحف الأسود، وعدد كلماته أقل من 750 كلمة، وهو من غير فصول، وفي مضمونه يتحدث عن خلق السماوات والأرض، وما يحتويه الكون من بحار وجبال وأشجار، ويتحدث الكتاب أيضاً عن خلق الملائكة وأعمالهم، والعرش، وخلق آدم وحواء⁵. كما يتحدث عن قصة إخراجهما من الجنة، وما كان من نزول الملك طاووس إلى الأرض، وإقامته ملوكاً للأيزيدية، ومقاومة اليهود والنصارى والمسلمين والعجم لأنهم يخالفونه، وفيه كذلك قصة إرسال الشيخ عدي بن مسافر من أرض الشام إلى لالش في شمال العراق .

¹ سعد سلوم: المرجع السابق، ص 24.

² صديق الدمولوجي: المرجع السابق، ص ص 150-151.

³ زهير كاظم عبود: التنقيب في التاريخ الأيزيدي القديم، ط1، دار سبيرز للطباعة والنشر، دهوك، 2006م، ص ص 8-9.

⁴ توماس بوا: المرجع السابق، ص 27.

⁵ سعد سلوم: المرجع السابق، ص 27.

ويتضمن الكتاب أيضا شرائعهم وما أحل لهم، وما حرم عليهم في الزواج والصوم والصلاة والحج والزكاة والزيارات والموت، وشرح أمر الطواف بسناجقهم في البلدان والقرى لجمع الصدقات والندور، وزيارتهم لقبر الشيخ عدي، وما يفعلونه في عيد رأس السنة (سرصال) من قطف الأنوار الحمراء، وذبح الذبائح، وإطعام الفقراء، وزيارة القبور.

هذا، ويروي الكتاب أن البشرية كافة من نسل آدم وحواء، أما نسل الأيزيدية وفيهم شيث ونوح وأنوش، الذين يعتقدون أنهم آباءهم الأولون، فمن نسل آدم وحده ولد الأيزيديون¹، وأن طوفانا أتى على الأيزيدية بعد طوفان نوح مضى عليه الآن سبعة آلاف سنة، وكان ينزل في كل ألف سنة إله من السماء يشرع لهم الشرائع ويسن لهم السنن .

كما يتضمن الكتاب مراتب الآلهة وأعمالهم فالأول هو الله الأعظم الفعال لما يريد، والمسيطر على الآلهة جميعا والمتحكم فيهم. ويأتي بعده رئيس الآلهة وأولهم وهو الملك طاووس، ويتلوها الآلهة الأخرى حتى يصل إلى يزيد والذي هو أحد الآلهة السبعة، وينظرهم أنه المشرع الأعظم، وهو الذي ينزل إلى الأرض .

ب- كتاب الجلولة: هو الكتاب الثاني للشرعية الأيزيدية مؤلف من خمسة فصول، عدد كلماته لا يتعدى 500 كلمة²، مقصور على نصائح الملك طاووس لأتباع الديانة يبين مدى قوته وأفعاله، وما يقدمه لأبناء طائفته³، وهو منسوب إلى الشيخ عدي بن مسافر، ويعتقدون أنه قدمه إلى أمين سره فخر الدين قبيل موته.

ويتحدث الكتاب عن صفات الله تعالى، القديم الوجود، وعن بقائه وقدرته ووعيده ووعدده، وذكر القول بتناسخ الأرواح، كما يتناول الكتاب موقف الأيزيدية من الديانات الأخرى خاصة الأديان السماوية (الإسلام، اليهودية، المسيحية)، فيشير إلى أن كتبها قد تم تحريفها، وهي حاليا مبدلة ومحرفة، إلا ما وافق منها كلام الأيزيدية، وما خالفه فمن تبديلهم وتحريفهم. وفيه كذلك حديث حول الحيوانات البرية والبحرية والفضائية، والتي تتحرك وتحيا تحت إمرته، وكل ما في دفائن الأرض واضح له، يرزق من يشاء، ويوصي الله في هذا الكتاب بأن يجلوه ويحترموه، وبأن يحفظوا شرائعه ويعلموا بها⁴.

¹ عباس العزاوي: تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم، ص 138.

² زهير كاظم عبود: الأيزيدية حقائق خفايا وأساطير، ص 112.

³ توماس بوا: المرجع السابق، ص 34.

⁴ أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص 11.

وبالرغم من ذهاب أغلب الباحثين إلى أن كتاب الجلوة قد ألفه الشيخ حسن شمس الدين (الملقب بتاج العارفين)، إلا أن اللغة التي كتب بها كتاب ليست كلغة مصحف رش إذ تعد ركيكة وتخللها ألفاظ عامية ومفككة وتعبير شعبية، مع العلم أن الشيخ حسن عرف عنه علمه وذكاءه وسعة إطلاعه، وإمامه بقواعد اللغة، مما أدى بالباحثين للتشكيك في أنه النسخة الأصلية للكتاب،¹ ورجحوا فرضية ضياع الأصل أثناء الحملات العسكرية على الأيزيدية وكتبهم ومقدساتهم، وأن النسخة الحالية للكتاب ليست سوى اجتهدا يقترب من النسخة الأصلية فقط، ويبقى الموضوع في حاجة إلى البحث والتدقيق.

2- طبقات ومراتب رجال الدين الأيزيدية: تقسم الرئاسة عندهم إلى قسمين دنيوية ودينية، من غير أن تتدخل رئاسة في مهام غيرها، وبانصياع الشعب لأوامر الرئاستين، وإيمانهم بأن هذه الطبقة نزلت من السماء لتحافظ على مجتمعهم الأيزيدي. ورجال الدين طبقات، ولا يجوز لأي طبقة أن تتخطى مقامها. ورجل الدين في الديانة اليزيدية ذو أهمية كبيرة، لأنه يشرف على كل مظاهر الحياة الدينية والاجتماعية، كما أن لكل أيزيدي شيخا ويرا على الأقل، ولكل فئة من رجال الدين مقام ووظيفة، ومراتبهم تأتي على النحو الآتي :

أ- مير(الأمير): هو رئيس الزمان والعالم والسياسة، ويدعى "مير" مختصرة من الكلمة العربية "أمير"²، وهو وكيل الشيخ عدي أوكله موضعه، ويشترط في المير أن يكون من نسل الملك يزيد، والطائفة كلها تنتسب إليه. ويلقب "مير شيخان"، ويقيم عادة في قصر الإمارة بمدينة عين سفني³ التي تبعد مسافة 45 كم إلى الشمال الشرقي من الموصل.⁴

ب- بابا شيخ: هو الزعيم الروحي والرئيس الديني الأعلى، ويكون من سلالة الشيخ فخر الدين الملعب بملك القمر، وأن يتصف بالتقى والإنصاف والعدل والاستقامة. وهو يمثل السلطة الدينية والحج المقدس، ويدعونه "بابي شيخ" أي الشيخ الكبير مقره عين سفني.

ج- الشيخ: مشايخ اليزيدية ثلاث فرق هي: الأدبانية، الشمسانية، القابانية، وقد حل فيهم جزء من الله حسب اعتقاد الأيزيديين، وهو الذي يمنحهم تغيير مجرى الأحداث، ويستطيعون أن يتصرفوا في شؤون العالم، يبلغ عددهم أربعون شيخا.

¹ سعيد الديوه جي: اليزيدية، ص 135.

² عباس العزاوي: تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم، ص 177.

³ عين سفني: بلدة عراقية تقع في قضاء شيخان شمال شرق الموصل، لها مكانة مقدسة لدى الأيزيديين لأنها مقر إقامة رجال الدين، كما تضم معبد لالش الذي يحج إليه الأيزيديون ويقدسونه.

⁴ سعد سلوم: المرجع السابق، ص 22.

د- البير: تعني كلمة " بير " بالكردية العجوز، وعندهم شيخ الطريقة أو رئيسها، ويجمعون الكلمة بقولهم " بيورة " أي الشيوخ، وتطلق هذه الصفة على من هم دون مرتبة الشيوخ. والبيورة أربعون بيراً من أسر متعددة، يشترط أن يكونوا جميعاً من سلالة بيرية، لأن وظيفتهم وراثية، منحتهم الشريعة الأيزيدية حق إجراء الزواج، وتوثيق العقود، وحق التحول في القرى والقصبات، وهم يعتقدون أن رحمة الله وغفرانه بأيدي هؤلاء البيورة¹.

هـ- الفقير: تطلق لفظة فقير عندهم على الزاهد والمتعبد، الذي عزف عن زخرف الدنيا في سبيل كسب نعيم الآخرة، يتميز بلباسه الخرق المكدسة.

و- القوال (المرتل): تطلق على المنشدين في المحافل الدينية أو في أيام الأعياد والأفراح، وغالباً ما يكون القوالون من الشعراء المحليين، يعتقد الأيزيديون أنهم رافقوا الشيخ عدي عبر بادية الشام، وظلوا معه على المحبة. وهو الذي منحهم حق إنشاد القصائد والمدائح النبوية، وخصهم بحفظ أسرار الشريعة والحوادث التاريخية².

ز- الكوجك: الكواجك طائفة كبيرة العدد لهم مكانة هامة، لأنهم يتنبؤون بالمستقبل، ويعالجون المرضى روحياً، وأغلبهم حجاج تركوا بلادهم ليعيشوا حول لاليش، ويعملوا كحطابين للزار، وهم موزعون بين سنجار وشيخان، ويتميزون بلباسهم الأبيض، وحزامهم الصوفي أسود اللون أو أحمر بحلقات مميزة³.

ح- المريدون: هم عامة الناس المطيعون لأوامر رؤسائهم الدينيين طاعة عمياء، وهم يعتقدون أن التدخل في الشؤون الدينية يذلهم ويخرجهم عن ملتهم. وعلى كل أيزيدي رجلاً كان أو امرأة أن يكون له شيخ وبير يقدم لهما صدقاته ونذوره ويتعلم منهما ويسترشد بهما، والمريدون يتزوجون فيما بينهم، ولا يجوز لهم الزواج بالطبقات الأخرى⁴.

3- الأعياد عند الأيزيديين: يحتفل الأيزيديون بعدة أعياد موسمية منها ما يشبه الديانات القديمة ومنها ما يشبه أعياد المسلمين، وفيما يلي نذكر أهم تلك الأعياد:

أ- عيد رأس السنة (السرسال): يحتفلون به في أول اربعاء من نيسان (أبريل)، وهو يوم خلق طاووس ملك فيه، ويوم قيامته، كما أن هذا اليوم له مكانة عظيمة لأن اليوم الذي ولد فيه شيث بن آدم جد الأيزيديين وفق معتقدتهم، وفيه تقدم الذبائح وتقام الأفراح⁵. وبعد أسبوع من عيد سرسال يأتي عيد

¹ محمد عبدو علي: المرجع السابق، ص 73.

² رشيد الخيون: المرجع السابق، ج 1، ص 181.

³ عباس العزاوي: تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم، ص 179.

⁴ توماس بوا: المرجع السابق، ص 78.

⁵ زهير كاظم عبود: التنقيب في التاريخ الأيزيدي القديم، ص 6.

ثان حيث يقضون أسبوعاً كاملاً بالتحضير له، وجرت العادة عندهم بأن لا يقومون بأي عمل مهما يكن يوم عيدهم فيشعلون الشموع، ويدعون ويتضرعون إلى الله كي يجيب مطالبهم، وفي هذا العيد بالذات يتعد الزوجان عن بعضهما البعض تماماً.

ب- عيد القران (الأضحى): يحتفل الأيزيديون بهذا العيد كالمسلمين، ويعتقدون أن سيدنا إبراهيم أول موحد، كما أن روايتهم عن الأضحى هي نفسها التي عند المسلمين، أي أن الله قدم كبشاً لافتداء سيدنا اسماعيل¹، لكن مع بعض الفروقات البسيطة في طريقة الاحتفال به والطقوس المرافقة لهذا الاحتفال².

ج- عيد أربعينية الصيف: يأتي هذا العيد بعد أربعين يوماً صيفاً، ويتم الاحتفال به في معبد لاليش، ويحج فيه الأيزيدية إلى المراقدة المقدسة عندهم، بوجود رجال الدين خاصة الكواجك، ويصومون خلاله ثلاثة أيام³.

د- عيد الجماعة (عيد التجمع): يدوم هذا العيد أسبوعاً كاملاً من 7 أكتوبر إلى 14 من نفس الشهر، ويسمونه أيضاً عيد الخريف. وفيه يجتمع الأيزيديون في معبد لاليش أما طقوسه فلا تختلف عن عيد أربعينية الصيف⁴.

هـ- عيد أربعينية الشتاء: هو عيد يأتي بعد أربعين يوماً في فصل الشتاء يعتقد الأيزيديون أن الشيخ عدي كان يصومها، لذلك يسمونه أيضاً عيد الشيخ آدي (عدي)، ويصوم رجال الدين الأيزيدية الأربعين يوماً، ويوم عيدهم بعد انتهاء الصيام يحتفلون به في معبد لاليش أيضاً.

و- عيد أيزيد: يأتي هذا العيد يوم الجمعة بعد صيام ثلاثة أيام هي الثلاثاء والأربعاء والخميس من شهر ديسمبر، يعتقد الأيزيديون أن الله أيزيد أمر سيدنا نوح بصيامه عندما كلفه ببناء السفينة، لذلك يربط الأيزيدية بين هذا العيد وحادثة الطوفان⁵.

ز- عيد بليندة: مدته 11 يوماً تبدأ في 25 ديسمبر، ويسمونه عيد الميلاد أو الولادة حيث يعتقدون أن الشيخ عدي ولد في هذا اليوم. كما يحتفل الأيزيديون بأعياد أخرى منها عيد خضر الياس وعيد المحبة، وعيد رمضان وغيرها من الأعياد الكثيرة.

¹ سعد سلوم: المرجع السابق، ص 34-35.

² سعيد الديوه جي: اليزيدية، ص 155.

³ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج 1، ص 177.

⁴ زهير كاظم عبود: الأيزيدية حقائق خفايا وأساطير، ص 170.

⁵ عباس العزاوي: تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم، ص 126.

4- المزارات والأضرحة المقدسة عند الأيزيدية: مثل باقي الأديان في العراق فان أيزيدية العراق

لهم مزارات مقدسة دفن فيها رموزهم الدينية يزورونها بانتظام لعل أهمها:

أ- **مرقد الشيخ عدي بن مسافر:** يعتبر أهم مزارات الأيزيدية على الإطلاق، ويقع المرقد بوادي لاليش بمنطقة الشيوخ الواقعة شمال شرق الموصل، ويذكر بعض الكتاب أنه قبل أن يصبح زاوية كان ديرا مسيحياً¹، ويعد هذا المرقد أكثر مكان مقدس للأيزيدية في العالم حيث يحجون إليه بانتظام، كما أن كل أعيادهم وطقوسهم الدينية تقام وتدور حول هذا المرقد².

ب- **المزارات الأخرى:** هناك عدة مزارات أخرى مقدسة لدى الأيزيديين ففي العراق يذكر الأستاذ عباس العزاوي مرقد الشيخ شرف الدين الواقع مقابل قرية علي دينه، ومرقد الشيخ شمس الواقع في بشنكير، ومرقد الشيخ أبو القاسم في بردحلي، ومرقد بير زكر في بلد سنجار³.

ولأيزيدية سوريا مزاراتهم أيضاً كبارسة خاتون والشيخ حميد الواقعان بجوار قرية قسطل علي جندو، والشيخ شرف الدين بقرية بافلون، والشيخ علي بقرية باصوفان، وشيخ سيدي بقرية فقيران، وشيخ ركاب بقرية شيخ الدير وغيرها⁴.

5- الطقوس والعبادات الأيزيدية:

أ- **الحج:** يذهب الأيزيديون للحج في معبد لالش كل عام مرة، وهناك يزورون قبر الشيخ آدي، وبقيّة مقامات شيوخهم المدفونين هناك، ويعتقد الأيزيديون أن معبد لالش هو مركز الأرض، والمكان الذي بدأت منه الخليقة الذي هبط فيه ملك طاووس على الأرض أول مرة. ويقع معبد لالش في منطقة الدهوك شمال العراق، ويعتبر الحج إليه من أهم المناسبات الدينية ويشمل النساء والرجال والأطفال يجتمعون فيه كل عام من جميع أنحاء العالم، وتكون تكاليف الطعام والشراب في الحج على نفقة أميرهم.

ب- **الصلاة عند الأيزيديين:** يؤدي الأيزيدي قلاق صلوات في اليوم هي صلاة الفجر وصلاة الشروق، وصلاة الغروب، ويتجه المصلي باتجاه الشمس قبلتهم، وتدور قبلتهم حيث تدور الشمس، لذلك سميت القبلة الدوارة⁵، ولكي يصلي الأيزيدي عليه أن يغسل وجهه ويديه كالوضوء عند المسلمين، ثم ينحني ويقبل الأرض، بعد ذلك يبدأ الصلاة تلاوة الدعاء حيث يردد لوحده (آمين.. آمين تبارك الدين الله أحسن الخالقين. سبحانك أيها الخالق أعطني الخير وأقلب عني الشر) أو (الهي لعظمتك ومقامك وملكوتك،

¹ سليمان الصايغ: المرجع السابق، ج1، ص ص 301-302.

² زهير كاظم عبود: الأيزيدية حقائق خفايا وأساطير، ص ص 60-61.

³ عباس العزاوي: تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم ص 148.

⁴ محمد عبود علي: المرجع السابق، ص ص 78-79.

⁵ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج1، ص 176.

يارب أنت الكريم الرحيم الإله، لك ملك الدنيا، يارب انك أنلي قدسم ومالك الانس والجن، ومالك الكرسي والعرش، يارب أنك رب السماء والأرض ورب الشمس والقمر).

ج- الصوم: للأيزيدية نوعان من الصوم الأول فرض على الأيزيديين البالغين جميعاً دون استثناء، وصوم خاص برجال الدين فقط دون غيرهم ومستحب عند العامة وهما:

-الصوم العام: هو صوم الأيزيديين جميعاً، وهو مرتان في العام وكل صوم يدوم ثلاثة أيام الصيام الأول يسمى صوم ايزيد يكون في شهر ديسمبر¹، والصوم الثاني ثلاثة أيام تبدأ في الثامن عشر من شهر فبراير، وتستمر فترة الصيام من الفجر وحتى المغرب حيث يتوقف الصائمون عن الطعام والشراب، وكل المفطرات مثلما عند المسلمين.

-الصوم الخاص: هو صوم مفروض على رجال الدين مثل صيام أربعينيات الصيف وصيام أربعينيات الشتاء وفي كل مرة يصومون أربعين يوماً تنتهي بالعيد²، لأن ذلك يعد اقتداءً بالشيخ عدي الذي كان يصوم في هاتين الفترتين³، أما عن العامة فهو مستحب وليس فرضاً.

¹ عباس العزاوي: تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم ص 141.

² محمد عبدو علي: المرجع السابق، ص 47.

³ سعيد الديوه جي: اليزيدية، ص 156.

المبحث الثاني: تاريخ الأيزيديين وأوضاعهم واحصائياتهم في العهد العثماني:

أولاً- أصل وجذور الأيزيديين: اختلفت الآراء حول أصول الأيزيديين بين الباحثين كما أن الأيزيديين لهم رأيهم حول جذورهم منذ بداية الخليقة فجاءت الآراء كالتالي:

1- أصل الأيزيديين ونشأة الخليقة وفق معتقداتهم:

من الموروث الديني المعتقد عند الأيزيدية أن الله عندما خلق آدم خلق حواء من تحت إبطه، ثم اختلفا أي آدم وحواء حول من منهما سيحمل الأطفال، ولمن سينسب المولود، فأدم كان يقول النسل مني، وهكذا حواء كانت تقول النسل مني¹. وعلى هذا حدث النزاع بينهما، وبعد البحث الدقيق صار الرأي والاتفاق بينهما على أن كل واحد منهما يلقي شهوته في جرة، وهكذا عملاً، وختماً الجرتين لمدة تسعة أشهر. وعند نهاية المدة المتفق عليها فتح آدم جرتة فخرج منها طفلان ذكر وأنثى وأسماهما شيث وهورية، ومنهما تناسلت الأمة الأيزيدية². وبعدها فتحت حواء جرتها وإذا فيها ديدان عفنة ومكروهة وحشرات نجسة، لذلك يعتقدون أنهم أبناء آدم وحده، وليسوا أبناء حواء مثل باقي البشرية جمعاء الذين ولدوا بعد زواج آدم بحواء، وحينها أنجبا طفلين ذكراً وأنثى، واسمهما قاين وقليومة، ومنهما تناسلت باقي الطوائف مثل النصارى واليهود والمسلمين وغيرهم³.

2- جذور وأصول الأيزيديين عند الباحثين:

لا يقف الاختلاف والجدال حول تسمية الأيزيديون فقط بل يمتد إن لم نقل قد بدأ بالاختلاف حول أصولهم التي ينحدرون منها، وفي ذلك الاختلاف ثلاث وجهات نظر مختلفة، وهي كالتالي:

أ- الأصل الكردي للأيزيدية: يرى قسم كبير يمثل أغلبية الباحثين والمتخصصين في الديانة الأيزيدية أن الأيزيديون ينتمون إلى الشعب الكردي الذي يمثل أحد أكبر الشعوب الشمالية الغربية الهندو أوروبية، وقد حاولت الدراسات الأوروبية مراراً أن تفسر أصلهم بأنهم أحفاد عدة شعوب قديمة من شعوب الهضاب الإيرانية الغربية والأرمنية والتي اختلفت في التاريخ⁴.

ويستدل أنصار هذا الموقف بحجج وشواهد تؤكد على الأصل الكوردي للأيزيديين أهمها اللغة التي يتكلمون بها وهي اللغة الكردية التي تشكل لغتهم القومية، والكتابان المقدسان لهذه الديانة (الجلوة) و(مصحف رش) قد كتبا باللغة الكردية وبأبجدية كوردية أصلية وقديمة⁵.

¹ عباس العزاوي: تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم، ص ص 124-125.

² صديق الدمولوجي: المرجع السابق، ص ص 4-5.

³ أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص 11.

⁴ عدنان زيان فرحان: المرجع السابق، ص 7.

⁵ زهير كاظم عبود: حقائق وخفايا وأساطير، ص ص 109-110.

ويذكر جلادة بدرخان حول الكورد الأيزيديين أنهم أكراد أصلاً بل عريقون في أصلهم الكوردي، ويقول كاتب كردي آخر في حق الإيزيدية « الأيزيديون أكراد مثلنا وقد حافظوا على دمائهم أكثر منا، إنهم يعدّون أنفسهم الأكراد الأقحاح... وفي ديانتهم التي وضعت أساساً باللغة الكردية يرد إسم الأكراد واللغة الكوردية »¹. وهم بالأصل من شعوب سلسلة جبال زاغروس التي وجدوا فيها منذ أكثر من 4500 سنة.

ب- الأصل العربي (الأموي) للأيزيدية: يذهب قسم آخر من الباحثين خصوصاً الذين يتبنون فكرة أن تسميتهم اليزيدية نسبة لإسم يزيد بن معاوية إلى أن الأيزيديون بعد هجرة عدي بن مسافر ومعه أناس كثيرون إلى جبال هكاري²، وإلتف حوله المريدون من سكان المنطقة اختلط الجنس الكردي بالجنس العربي الأموي الذي ينحدر من قريش، لكن مع مرور الأيام طغى الجنس العربي على غيره من الأجناس، ومن بقي من أتباع هذه الديانة أو أغلب أبناء الطائفة الأيزيدية كطائفة دينية هم من الجنس العربي، ويقول بعض شيوخ الأيزيدية إنهم ينتمون إلى ثلاثة أصول عربية هي القحطانية والعدنانية والشمسانية، ويذهب البعض إلى أن طائفة الشمسانية تنسب إلى عبد شمس بن عبد مناف القرشي جد معاوية بن أبي سفيان.

ويذكر أن المخالفين لهذا الرأي ممن يرون أنهم أكراد لا ينفون أن أمراء الطائفة الأيزيدية هم من العرب الأمويين³. وقد أطلقت دوائر القرار الحكومية في العراق في العقود الأخيرة من القرن العشرين تسمية طائفة الأمويين على الأيزيديين، مستغلة في ذلك نشاط الأمير بايزيد الأموي⁴ الذي سعى بكل ما يملك لاثبات نسب الأيزيدية إلى الأمويين، فأسس مكتب عام 1969م، كما طالب السلطات العراقية بالتعامل مع أبناء طائفته على أنهم أمويون.

ج- الأصل الفارسي للأيزيدية: ويختلف مع الموقفين السابقين قسم قليل من الباحثين الذين يرون أن الأيزيديين ينحدرون من أصول فارسية أي يعودون إلى الشعوب الهندو إيرانية القديمة، وهم أنفسهم من تبون فرضية تسمية الأيزيدية نسبة إلى بلاد يزد بفارس، وبالتالي هم فرس هاجروا من يزد إلى جبال كردستان، واستقروا بها منذ زمن بعيد. ويذكر أحمد تيمور باشا في مؤلفه حول الأيزيدية أنهم داسنيون هجروا حضارتهم القديمة يزد، وسكنوا داسن فقليل لهم اليزديون ثم حرفتهم العامة وقالت ييزيديون⁵.

¹ شاكر فتاح: المرجع السابق، ص 104.

² عباس العزاوي: تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم، ص 11-12.

³ نيبور: المصدر السابق، ص 92.

⁴ الأمير بايزيد الأموي: هو بايزيد اسماعيل جون بك أحد شيوخ الطائفة الأيزيدية في العراق عينته السلطة العراقية على رأس الطائفة دعماً لتوجهه القاضي بعروبة الأيزيديين، الذي يخدم مصالحها السياسية.

⁵ أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص 28.

كما يعتقد البعض عن طبقة الشمسانية الأيزيدية التي تعد من أهم الأسر الدينية لمشايع الأيزيدية التي ينتمي إليها بابا شيخ، وهو أعلى منصب ديني عندهم، أن موطن الأسرة الأصلي هو مدينة تبريز الإيرانية، ولأنها أتت مهاجرة من الشرق سميت "روج هلات" ومعناها "الشمسانيون". ويعد أصحاب وجهة النظر هذه حول أصلهم هم أنفسهم الذين يرون أن الأيزيدية نتاج للديانة الزرادشتية، التي انتشرت في إيران ومحيطها في القرون الخمس الأخيرة قبل الميلاد، ولذلك بقيت تسميتهم مرتبطة بيزد أي البلاد التي قدموا منها¹.

ومن خلال كل ما سبق يمكننا أخيراً الاستنتاج بأن الرأي القائل أن الإيزيديين ينتمون في أصلهم إلى العنصر الكوردي، هو الرأي الأصوب والأقرب للحقيقة بالنظر إلى الأدلة والحجج التي يتبناها أنصار هذا الموقف، كما أن الكرد الإيزيديين قد حافظوا على معتقداتهم الكوردي القديم، رغم تأثره بالديانات المحيطة عبر التاريخ².

3- تاريخ الأيزيدية قبل مجيء الشيخ عدي بن مسافر:

إن الأخبار التي تتحدث عن الأيزيديين في تلك الفترات قليلة وشحيحة جداً إذ تكتفي كلها بذكر لهم فقط دون تناول أوضاعهم وأحوالهم رغم طول الفترة، فأصبحت تلك المعلومات فقط مجرد دليل على قدم وجودهم قبل وصول الشيخ عدي إلى مناطقهم فقط ومن تلك المصادر نذكر موروثاتهم الدينية التي تتحدث عن عدد من ملوك المنطقة مثل نبوخذ نصر وأحشورش وشابور وأزدشير³، وبعض ملوك الآشوريين والسومريين وغيرهم، كما تتحدث ذات الموروثات عن وجود صلة وثيقة بين زرادشت الذي توفي في دولة ميديا شمال غرب إيران سنة 583 ق.م. تقريباً وبين الديانة الأيزيدية. وهناك من ربطهم بالمانوية نسبة إلى ماني (216-266م) مؤسس الديانة المانوية للتشابه في المعتقدات مثلما أشرنا له سابقاً.

كما أكد باحثون معاصرون اعتمدوا على الاكتشافات الأثرية الحديثة أن أغلب العقائد والطقوس والأعياد والعادات الأيزيدية مرتبطة لدرجة التطابق أحياناً بالعقائد السومرية والبابلية القديمة وخاصة الزرادشتية، لذلك ذهب قسم من الباحثين إلى أن تاريخهم يمتد لثلاثة آلاف سنة (ق.م)⁴.

¹ سعد سلوم: المرجع السابق، ص 19.

² خلف الجراد: الأيزيدية واليزيديون، ط1، دار الحوار للطباعة والنشر، اللاذقية، 1995م، ص 7.

³ اسماعيل بيك جون: الأيزيدية قديماً وحديثاً، ط1، المطبعة الجامعة الأمريكية، بيروت، 1934م، ص 76.

⁴ سعد سلوم: المرجع السابق، ص 30.

ومن المؤرخين الاغريق الذين ذكروا الأيزيديين نجد زينفون (429-354 ق.م.)، الذي تحدث عن وجود قوم من مثيري الشغب شكلوا له مشكلة قرب نهر الزاب الكبير يدعون بالبيزدين¹، كما توجد عدة مدن في المنطقة إسمها قريب جداً من تسميتهم مثل مدينة يزدم بالقرب من مدينة أربيل حدياب التي يقول الآثاري هنري لايارد بأن المؤرخ اليوناني توفانيس في القرن السابع الميلادي ذكر بأن الإمبراطور البيزنطي هرقل (575-641م) خيّم بالقرب منها، ويعتقد أن ديانة القوم الذين يسكنونها كانت الأيزيدية، وكذلك ساد نفس الاعتقاد حول مدينة يزد الفارسية أيضاً، وعليه قيل أن أصل تسميتهم من إحدى المدينتين.

أيضاً ذكرهم باحثون مسلمون في مواضع عديدة مثل ياقوت الحموي في معجمه إذ قال عن داسن أنه جبل عظيم في شمالي الموصل من جانب دجلة الشرقي فيه خلق كثير من طوائف الأكراد يقال لهم الداسنية²، وبهذا الاسم قامت إمارة داسن الكردية (919-1236م) التي كان مركزها مدينة دهوك.

أيضاً في عهد الخلافة الراشدة نجد رواية ارسال الخليفة عمر بن الخطاب عتبة بن فرقد لفتح الموصل في سنة (20هـ-640م) وحين وصلها قاتله أهل نينوى فأخذ حصنها الشرقي عنوة وعبر دجلة، وصالحه أهل الحصن الغربي في الموصل على الجزية، ثم فتح المرج وبانهدار وباعذرا وحبثون وداسن وجميع معاقل الأكراد وقردي وبازيدي وجميع أعمال الموصل فصارت للمسلمين.

وفي العصر العباسي تمكن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (754-775م) من صد وإيقاف انتفاضة الأيزيديين في جبل داسن في كردستان، أولئك الذين كانوا يحاولون الخروج عن دولة العباسيين.³

كما أمر الخليفة المعتصم (833-842 م) سنة 839 م عامله على الموصل عبد الله بن السيد بن أنس الأزدي لقتال رئيس الأكراد جعفر بن فهرجس الذي كان قد تبعه خلق كثير من الأكراد وغيرهم، فسار إليه وقاتله وأخرجه، فقصد جعفر جبل داسن، وتحصن في موضع عال كان الطريق إليه ضيقاً، فقصد عبد الله إلى هناك، وتوغل في تلك المضائق حتى وصل إليه وقاتله، فاستبسل جعفر ومن معه من الأكراد على عبد الله لمعرفةهم بتلك المواضع وقوتهم على القتال بها، فانهمز عبد الله وقتل أكثر من معه، فلما بلغ ذلك المعتصم أمر إيتاخ بالمسير إلى جعفر وقتاله، فتجهز وسار إلى الموصل وقصد جبل داسن وقتل جعفر وانتهت مقاومتهم.⁴

¹ يعقوب أفرام منصور: ما يتعلق بالعراق من كتاب الصعود لزيفون، مجلة المورد، العدد 2، أبريل 1975م، ص ص 30-31.

² ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص 432.

³ صديق زرار: إمارة الشيخان شنكال وكليس، مجلة روز، العدد 6، 1998م، ص ص 7-27.

⁴ خليل الجندي: موجز تاريخ الامارات الكردية، الحلقة الأولى، www.bahzani.net.

ثانياً- تاريخ الأيزيديين منذ مجيء الشيخ عدي بن مسافر:

1- تاريخ الأيزيدية في عهد الشيخ عدي بن مسافر:

توجه الشيخ عدي بن مسافر إلى المنطقة في حوالي سنة 505هـ / 1110 م لتبدأ بمجيء هذا الرجل المتزهد مرحلة تاريخية جديدة للكرد الأيزيديين حيث تمكن إلى حد ما من تغيير نمط حياة الكورد الأيزيديين من النواحي الدينية والسياسية، وبذلك اندمجت الامارة الداسنية بالامارة الكوردية الأيزيدية الجديدة التي عرفت في التاريخ بامارة الشيخان، وانتزع بعض المناطق منها من قبل الامارة البهدينانية في عهد اميرها حسن بن زين الدين وذلك في سنة 630هـ / 1236 م ومن جملة هذه المناطق مركز الامارة مدينة دهوك. ضمت امارة الشيخان المنطقة المحصورة بين نهري الزاب الكبير والخابور، ويرتكز بنائها الاجتماعي على أساس تجمع عشائري وديني وقومي اذ أن جميع سكانه باستثناء أقلية منهم، هم من الكورد الأيزيدية والكورد المسلمين، وتجمع أغليبيتهم حول الشيخ عدي بن مسافر الهكاري الذي كان رجلاً متزهداً وصاحب كرامات¹، ويذكر الأيزيديون بأنه تمكن من رؤية فكرة طاووس ملك وآمن بها.

وقد أدى تواجد الشيخ عدي والتفاف الناس حوله إلى تعاظم شأن الأيزيديين من الناحية السياسية والدينية²، وتحولت إلى ما يشبه امارة وراثية عرفت بامارة الشيخان حيث برزت الزعامة السياسية والروحية لقيادة الكورد الأيزيدية وأصبح لها ادوار تاريخية مهمة في تاريخ بلاد هكاري في أواخر العصر العباسي. وبالرغم من قلة المصادر التي تتحدث عن أوضاع امارة الشيخان ولا سيما السياسية أيام الشيخ عدي، إلا أن ما توفر من معلومات أكدت بأن امارة الشيخان قد نشطت في عهده حيث أظهر الداسنيون ولاءهم له، ورشحوه أميراً دينياً ودينوياً لهم، وأصبحت عين سفني مركزاً للامارة³. ومنذ ذلك الوقت تراجع دور العائلة الشمسانية التي كانت تقوم وتشرف على طقوس العبادات القديمة في ادارة شؤون الأيزيدية الروحية والدينوية، إلا أنها احتفظت بمنصب الرئيس الروحي للأيزيدية (بابا شيخ) الذي لا يزال ينتخب من العائلة الشمسانية وحدها دون غيرها.

تتحدث بعض الروايات التاريخية أن الاصلاحات الدينية الأيزيدية حدثت في عهد الشيخ عدي رغم عدم وجود أي أدلة تدعم هذا الرأي، في حين تشير مصادر أخرى على أنه كان رجلاً صاحب كرامات عكف على التزهد والعبادة ولا أحد يشكك في اسلامه⁴، ولاتذكر شيئاً عن أية اصلاحات في عهده، واستدللت عن رأيها بموقف الدولة العباسية والقوى المجاورة منهم والتي لم تقم بأية ردود فعل، كما أنها لم تبد

¹ أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص ص 17-18.

² ابن الأثير: المصدر السابق، ج 10، ص 190.

³ خليل الجندي: موجز تاريخ الامارات الكردية، الحلقة الأولى، www.bahzani.net.

⁴ رشيد الخيون: المرجع السابق، ج 1، ص 187.

أية مخاوف من قدومه، كما أن الشيخ عادي كان رجلاً متزهداً منشغلاً بالعبادة والتصوف¹، ولم يبد اهتماماً كثيراً بالأمور السياسية، وهذه المصادر تذهب إلى أن الإصلاحات التي أحدثت في الديانة الأيزيدية جاءت بعد وفاته وعلى الأرجح أنها تعود الى فترة الشيخ عدي الثاني بن أبي البركات صخر بن صخر بن مسافر الهكاري، وابنه الشيخ حسن بن عدي الثاني²، وما يؤكد لنا ذلك هو تحول الامارة الأيزيدية إلى امارة دينية سياسية مع تزايد حدود نفوذها، وصدور الكتابين المقدسين مصحف رش وكتاب الجلوة³، كما أن القوى المجاورة أبدت مخاوف جدية من ذلك، وحاولت تقويض سلطة هذه الامارة الأيزيدية الفتية.

2- تاريخهم بعد وفاة الشيخ عدي:

بعد وفاة الشيخ عدي بن مسافر غالبا العام 557هـ / 1162م في معبد لالش، ودفن هناك⁴، وأوصى الشيخ عدي قبل وفاته بأن يأخذ مكانه في الامارة ابن أخيه الشيخ ابو البركات صخر بن صخر بن مسافر الهكاري، ولا تذكر المصادر أية معلومات واضحة عن الامارة ايامه، إلى غاية وفاته في أواخر القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، ومن ثم خلفه الشيخ صخر ابنه الشيخ عادي الثاني في امارة الايزيدية في الشيخان، حيث نشطت الامارة في عهده حتى وصلت حدود مدينة الموصل، واستطاع الكورد الايزيديون في عصره مقاومة ومقارعة المغول وردهم على أعقابهم، وبعد فشل حصار المغول لقلعة أربيل انسحبت قواتهم صوب الموصل، وتمكنت في طريقها من القاء القبض على الشيخ عدي الثاني، حيث أرسل إلى السلطان المغولي، فأصدر بحقه حكم الاعدام، وقتل في حوالي سنة 619هـ / 1122م.

خلف الشيخ عدي الثاني بعد وفاته ابنه الشيخ حسن الذي ولد في معبد لالش سنة 519هـ / 1094م، وهو صاحب كتاب (الجلوة)⁵، وتمتع الكورد الأيزيديون في عصره بسلطة سياسية واسعة، واتسعت مناطق نفوذ امارة الشيخان في عهده بشكل واضح حتى حدود الموصل أكثر من مرة، الأمر الذي أدى بأتابك الموصل بدر الدين لؤلؤ (615-656هـ / 1218-125م) وهو آخر من حكم الموصل من الأتابكة، باستدعائه ومن ثم قتله غدراً في قلعة الموصل سنة 644هـ / 1246م، خوفاً من تزايد نفوذ الكورد الايزيديين، لانهم وبأدنى إشارة منه كانوا سيستولون على الموصل.

¹ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج2، ص 342.

² أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص 22.

³ صديق الدمولوجي: المرجع السابق، ص ص 84-85.

⁴ ابن خلكان: المصدر السابق، ج3، ص 255.

⁵ صديق الدمولوجي: اليزيدية، ص ص 84-85.

تولى إمارة الأيزيدية بعد مقتل الشيخ حسن ابنه شرف الدين الذي ذكره ابن العبري في حوادث 655 هـ / 1257 م كزعيم كردي، وكان شرف الدين من القادة البارزين لعز الدين السلجوقي الذي أرسل إليه مملوكاً في سنة 655 هـ / 1257 م وهي السنة التي ذكرها ابن العبري، يحثه على جمع قوة من الكرد الأيزيدية وذلك للوقوف بوجه المغول، وأصبح فعلاً قائد قوات نواحي ملاطية وخربوت¹، وفي طريقه للاتصال بعز الدين السلجوقي أدركه المغول وقتلوه مع جميع مرافقيه²، وكانت علاقات شرف الدين سيئة مع اتابك الموصل بدر الدين لؤلؤ الذي أرسل حملة إلى معبد لالش نبش فيها قبر الشيخ عدي واحرق عظامه، وقتل وأسر كل من وقع في أسره من الكورد الأيزيدية أثناء هذه الحملة، والتي تشير المصادر إلى أنها وقعت سنة 652 هـ / 1254 م.

ظلت الامارة الدينية والسياسية للأيزيديين في الشيخان إلى ما بعد العصر المغولي والجلائري، لكن ذكرها سواء حول نشاطها السياسي أو ما تعرضوا له من حملات تنكيل في الكتابات التاريخية كان قليلاً مثل ما ذكره القلقشندي (ت821هـ/1418م): الداسنية كانوا أوفر عدداً وعدة وجمعاً ومدداً ثم تشتت شملهم وتفرق جمعهم، وعادت عدتهم في بلد الموصل لاتزيد على ألف رجل وكان لهم أمير يقال له علاء الدين كورك بن ابراهيم في بلد العقر، كما يذكر المقرئ أن رجلاً من العجم من المذهب الشافعي ويعرف بجلال الدين الحلواني، الذي قام بدعوة إلى حربهم وقتلهم سنة 817 هـ / 1414م، فاستجاب له عدد من الأمراء الكرد المسلمين وزحف جحافل قواتهم باتجاه جبال داسن الهكارية وما حولها، وقتلوا أعداد كثيرة منهم وأسروا منهم الكثير، ثم ذهبوا بالأسرى إلى معبد لالش وأقاموا أمام أعينهم بنش قبر الشيخ عدي وأخرجوا عظامه وأحرقوها، وقالوا للأسرى الداسنيين: انظروا كيف أحرقنا من ادعيتهم فيه ما ادعيتهم، ولم يقدر أن يدفعنا عنه³.

ثالثاً- الأيزيديون أوضاعهم واحصائياتهم وانتشاهم في العراق ابان العهد العثماني:

يعتبر أغلب المؤرخون حقبة العهد العثماني من أصعب الفترات التي مرت على الأقلية الأيزيدية، حيث لم يمر القرن الأول حتى ساءت أوضاعهم وتدهورت بشكل كبير بسبب فتوى تكفيرهم وبالتالي أهدرت دماؤهم، وعليه فقد هرب الأيزيديون إلى الجبال واعتصموا بها خوفاً من بطش القوات العثمانية التي سيرت عديد الحملات من أجل اجبارهم على ترك هذه الديانة، ومع تعنتهم وتمسكهم بها فقد لاقوا كل أنواع الاضطهاد والقتل والتنكيل، كما قامت القوات العثمانية بسبي نسائهم ونهب ممتلكاتهم، ويعد هذا الوضع

¹ أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص 27.

² ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 247.

³ تقي الدين المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1972، ج4، ص294.

المعقد الذي عاشته هذه الأقلية أهم سبب جعلهم يعيشون في عزلة تامة عن المجتمع، وجعلهم يتخلفون عن ركب الحضارة شتى أنواعها، كما غير توزيعهم السكاني مقارنة بما كانوا عليه سابقا، وتناقصت أعدادهم بشكل أنذر بانقراضهم نهائيا.

1- توزيعهم الجغرافي وعشائرعهم وقراهم في العهد العثماني:

عرف عن الأيزيديين عبر تاريخهم أنهم استوطنوا الجبال، واعتصموا بها هربا من الاضطهاد الذي كانوا يتعرضون له من قبل الأقوام الأخرى¹، فلم تلاقي أقلية في العراق من الصعاب والتحديات من أجل البقاء مثلما تعرضت له الأقلية الأيزيدية، ولعل ذلك يعود إلى قلة عددهم من جهة ومن جهة أخرى إلى تمسكهم الشديد بدينهم ومعتقداتهم، لذلك كانوا يسكنون الجبال والمناطق الوعرة التي غالبا ما كانت عاملا مهما في مساعدتهم على مقاومة مضطهديهم²، وقد توزعوا جغرافيا خلال العهد العثماني على عدة بلدان منها:

أ- تواجدهم وتوزيعهم خارج العراق: انتشر الأيزيديون شمال العراق (تركيا الحالية) في المناطق الجنوبية الشرقية مثل عابدين، ونصيبين، وويران شهر التابع للواء ماردين، وفي حصن كيف، وديار بكر، والجزيرة، وميفارقين، وبشيرين، ورضوان، وفي سعرت، وصاصون، والدير، وكنج، وقلب، وبطمان، وبديس، وهكاري³، وقد كان تواجدهم معتبرا في هذه المنطقة، لكنهم تناقصوا تدريجيا بسبب اضطهاد وملاحقات العثمانيين.

كما تواجدوا أيضا في الشام خصوصا الشمال والشمال الشرقي مثل قضاء القامشلي، ومنطقة حلب حول كليس، وفي منطقة عفرين المعروفة باسم جبل الأكراد (كورد داغ)، والتي تقع في الشمال الغربي من سوريا. كما تواجدوا أيضا في منطقة الجراح سيما قرى وقصبات ترسبي، وفي قرى آل رش، واوتلجا، وتل خانون، وديرجيح.

كما تواجد الكرد الأيزيديون في بلاد القفقاس جورجيا وأرمينيا منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث استقروا بأرمينيا بشكل أساسي في بريفان ونواحيها بعدد من القرى التابعة لها، أما في جورجيا فيتواجدون في سينك والكساندرابول ونواحيهما⁴.

¹ سعد سلوم: المرجع السابق، ص ص 17-18.

² محفوظ العباسي: امارة بهديتان العباسية، ط1، مطبعة الجمهورية، الموصل، 1969م، ص 221.

³ صديق الدمولوجي: اليزيدية، ص ص 246-248.

⁴ عدنان زيان فرجان: المرجع السابق، ص 12.

ب- تواجدهم وتوزعهم داخل العراق: توزع الأيزيديون في بداية العهد العثماني على رقعة جغرافية تمتد من نهر الزاب الأعلى إلى نهر خابور الحسنية بما في هذه المنطقة الواسعة من ناحية السورجية وعشائر السبعة ومنطقة الشيخان وجبل مقلوب وناحية السلفانية حتى نهر دجلة، وكانت قصبة دهوك نفسها مأهولة بهم¹. لكن انحسرت الرقعة التي يسكنونها منذ موقعة أمير راوندوز العام 1832م، فتمركزوا بشكل رئيسي في منطقتين رئيسيتين متصلتين جغرافياً، هما منطقة الشيخان، والمنطقة المحيطة بجبل سنجار إذ انتشروا بالمنطقتين في عدة نواحي وقرى لذلك اعتبرهما الباحثون المعقل الرئيسي للأيزيدية²، والموطن الأصلي والتاريخي لهم.

1- انتشارهم وقراهم في منطقة الشيخان والموصل:

أ- عشائرهم في منطقة الشيخان: تتواجد في هذه المنطقة مراكزهم الدينية والسياسية الرئيسية حيث تضم مراقد كبار شيوخهم لاسيما الشيخ عادي³، وباعدري قاعدة أميرهم وبحزاني وبعشيقية وعين سفني وما حولها. ويؤكد الرحالة البريطاني بيكنغهام أنه من الشائع كون المكان المقدس للكرديين يقع في جبال كردستان الجنوبية شرقي دجلة، أما عن أهم العشائر العربية والكردية في هذه المنطقة فهي موضحة في الجدول التالي:

جدول رقم 12: يوضح أسماء عشائر الأيزيدية في منطقة الشيخان في العهد العثماني

أسماء العشائر الكردية	أسماء العشائر العربية
باستكي	الشهوان
بيدوسي	الحيالون
ترك	الهبابات
هكاري	الححيش
خيسكي	عبيدي
ووسكي	طازي
دنا ⁴	المسقورة ⁵
روينشتي	/
كزي	/

¹ صديق الدمولوجي: اليزيدية، ص 242.

² سعد سلوم: المرجع السابق، ص 21.

³ س و م، 1312هـ/1895، صر 440.

⁴ عباس العزاوي: تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم، ص 107-108.

⁵ سعيد الديوه جي: اليزيدية، ص 199-200.

/	ماموس
/	صرافي
/	حتاري
/	بلسين ¹

(ب)- أهم القرى الأيزيدية في أنحاء الشيخان والموصل: تعد هذه المنطقة الممتدة بين الشيخان والموصل معقل الأيزيدية حيث يتواجد شيوخهم، وأماكنهم المقدسة كمعبد لالش وأضرحة الرواد من شيوخهم وأبرزهم الشيخ عدي بن مسافر لذلك انتشروا في عدة بلدات وقرى هناك نذكر أهمها فيما يلي: بعشيقه، عين سفنى، باعدرا، بحزاني، بوزان، ومهد(معت)، محمودان، حترا، تفتيان، وبيبان، جراحية، بابيرا، مام شيقان، صوركا، زينيات، جمبركات، خانك، دهكان، ركابة، سبنا، شيخ خضري، شاريا، دوغات. اضافة إلى قرى شيخان كبريتستك، كابارة، وجكانة، خربة صالح، قصر يزدين، سميل، باقصرا، جردانة، مقبل، كندالا، دوشقان، ملاجا برة، نصيرية، الممان، مشرف. ويذكر أن بعض القرى التي سكنها أيزيديون لكنهم هاجروها في أواخر العهد العثماني لأسباب أمنية وسياسية فرارا من الحملات والتضييق مثل: شيخ شبلي، مموزين، شيخ خالك، شيخ بزني، محمد رشان(مام رشا)².

(1)- انتشارهم وقراهم في سنجار:

(أ)- عشائريهم في سنجار: تتركز الأيزيديون في المنطقة المحيطة بجبل سنجار(يعد 120 كلم عن الموصل)³ حيث تعتبر من المناطق والمواقع الرئيسية المهمة التي سكنوها، وشكلوا فيها غالبية السكان، ويرجع تاريخ استقرارهم في هذه المنطقة إلى ما قبل قيام الدولة الآشورية⁴، والأيزيديون في سنجار مثل الشيخان تتكون من عشائر عربية هي ذاتها التي سبق ذكرها في الجدول السابق، وعشائر كردية مقسمة إلى قسمين رئيسيين تنفرع منهما عدة قبائل كما يوضحه الجدول التالي:

¹ صديق الدملوجي: البزيرية، ص 246-248.

² عباس العزاوي: تاريخ البزيرية وأصل عقيدتهم، ص 108.

³ سعد سلوم: المرجع السابق، ص 21.

⁴ عدنان زيان فرجان: المرجع السابق، ص 13.

جدول رقم 13: يوضح أسماء عشائر سنجار (الجوانا والخورك) خلال العهد العثماني

الجوانا	الخورك
المبابات	قيران
ملاكي	سموقة
ملا خضر	هكان
فلكان	الدخية
مهر كان	جلكا
ملا عيسى	جلكان
آدي دلة	فقراء ¹
ملا علي فرا	موساته
هسكالية	جفريه
ملا خالتي	الحليفيه
مسقورة	هويديه
/	مندكان
/	رشكان
/	شرقيان ²

(ب) - القرى الأيزيدية في منطقة سنجار: كثيرة هي القرى التي ينتشر بها الأيزيديون في هذه المنطقة نذكرها فيما يلي: باشوك، باجس، بارة، بردحلي، بكران، بهل، تل قصب، أديكا، وردية، بشنكير، كنده كيللي مهر كان، كري عربة، نكري، يوسفان، مجنونية، عال دينة، عين فتحي، قويس، كرسى، كولكان، قرتاغ، ماميس، زيروان، سنوي، راشكفتة، رمبوسية، جلعان، حاتمى، الخان، ديلوخان، جفريه، جدالة وغيرها³. وكما هو ملاحظ فإن أغلب العشائر الأيزيدية سميت على أسماء قراها والمناطق التي ينحدرون منها. ومن الأماكن الأخرى التي تواجد بها الأيزيديون بداية العهد العثماني نذكر منطقتي زاخو ودهوك، وبعض القرى على نهر الزاب الأعلى كقرتي كلك وعبد العزيز⁴، وغيره من المناطق وذلك قبل انحسارهم بسبب الأوضاع السياسية.

¹ صديق الديمولوجي: البيزيدية، ص 224.

² عباس العزاوي: تاريخ البيزيدية وأصل عقيدتهم، ص ص 95-97.

³ أنستاس الكرملي: البيزيدية، مجلة المشرق، العدد 18، 15 سبتمبر 1899م، بيروت. ص 54.

⁴ نيبور: المصدر السابق، ص 94.

2- احصائياتهم في العهد العثماني:

وجد الباحثون في شؤون الأقلية الأيزيدية خاصة ابان العهد العثماني صعوبات كبيرة في الوصول إلى احصائيات دقيقة أو على الأقل موضوعية، ومقاربة للواقع بسبب طبيعة المجتمع الأيزيدي من جهة، ومن جهة أخرى الأوضاع المعقدة التي مرت بها هذه الأقلية التي عاشت مطاردة من قبل العثمانيين طيلة أكثر من ثلاثة قرون، لذلك فقد غاب أي ذكر لاحصائياتهم عن أغلب المصادر والدراسات التي تناولت تاريخهم وعقائدهم، ومنها مقالات المؤرخ عبد الرزاق الحسني، وخليل الجندي، وحتى زهير كاظم عبود، وسعد سلوم. وحتى الرحالة الذين زاروا العراق خلال هذه الفترة فقد تحدثوا عنهم دون أن يقدموا احصائيات أمثال نيور وبيكنغهام وغيرهم، بالاضافة إلى أن سالنمات ولايات العراق أوردت احصائيتين فقط، لذلك جاءت أعدادهم حسب ما توفر لنا من معلومات كالتالي:

ذكر صديق الديمولوجي أن عددهم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر هجري بلغ مليون نسمة لكنهم تناقصوا بسبب الحروب، كما أورد الأب أنستاس الكرمللي في سلسلة مقالاته في جريدة المقتطف المصرية أن عددهم مطلع القرن الثامن عشر بلغ زهاء 250000 مئتان وخمسون ألف نسمة، لكنهم تناقصوا في منتصف هذا القرن إلى 50000 خمسين ألف نسمة جراء الحملات التي شنت عليهم، وبعد مرور قرن كامل أي منتصف القرن التاسع عشر ذكر أن عددهم العام 1843م بقي نفسه أي 50000 ألف¹. كما ذكر سعيد الديوه جي ومحفوظ العباسي في كتابيهما أن عددهم في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري بلغ مئة ألف نسمة ثم تناقصوا تدريجيا بسبب الحروب والاضطرابات التي لاحقتهم². كما يذكر سعيد الديوه جي أن عددهم بلغ في منتصف القرن العشرين أي بعد انتهاء الحكم العثماني بلغ حوالي 100000 ألف في كل المناطق التي تواجدوا بها، أما في العراق فقد كانوا حوالي 60000 ألف لكنه أشار إلى أنهم في تناقص مستمر³، وفيما يلي نورد بعض الاحصائيات في الجدول التالي:

¹ أنستاس الكرمللي: اليزيدية، العدد 18، مجلة المشرق، بيروت، 15 سبتمبر 1899م. ص 54.

² محفوظ العباسي: المرجع السابق، ص 221.

³ سعيد الديوه جي: اليزيدية، ص 199.

جدول رقم 14: يوضح أعداد الأيزيديين في العراق خلال العهد العثماني

السنة	عدددهم
1710-1700م	250000
1750م	¹ 50000
1818م	16000
1843م	² 50000
1890م	14900
1901	14400

أما السالنامات العثمانية للولايات العراقية كما أشرنا سلفاً فقد ذكرت أعدادهم في مناسبتين لسنتي 1875م و1894م فقط نوردتها في الجدول التالي:

جدول رقم 15: يوضح أعداد الأيزيديين في العراق حسب السالنامات العثمانية

السنة	العدد
1292هـ/1875م	³ 1000
1312هـ/1894م	⁴ 5358

نلاحظ أن الإحصائيات جاءت متباعدة جداً ومتناقضة، وهذا ما أشرنا له سلفاً لأن إحصائيات السالنامات العثمانية أرقامها قليلة جداً وغير واقعية، كما أن أرقام صديق الديمولوجي الذي أوصل عددهم إلى مليون نسمة مبالغ فيه، وعليه يمكننا القول أن إحصائيات أنستاس الكرمللي وسعيد الديوه جي الأقرب إلى الواقع، وجاءت وسطية ومقبولة إلى حد ما.

¹ أنستاس الكرمللي: اليزيدية، مجلة المشرق، العدد 18، 15 سبتمبر 1899م، بيروت. ص 54.

² دلشاد نعمان فرحان: معاناة الكورد الأيزيديين في ظل الحكومات العراقية المتعاقبة (1921-2003م)، ط1، مطبعة جامعة دهوك، دهوك، 2008، ص 27.

³ س و ب، 1292هـ/1875م، ص 133.

⁴ س و ب، 1312هـ/1894م، ص 335.

المبحث الثالث- تفاعلهم وأدوارهم السياسية في العراق خلال العهد العثماني:

أولاً- علاقة أيزيدية العراق بالسلطة العثمانية:

1- موقفهم من التواجد العثماني في العراق: مع بداية القرن السادس عشر شهد العراق تحولات كبرى تمثلت في صراع القوتين المتناميتين الدولة الصفوية والدولة العثمانية، وبدأ انعكاس هذه التحولات منذ تولي الشاه اسماعيل الصفوي (1501-1524م) سدة الحكم¹، فقد تطلع إلى ضم مناطق الأكراد الذين عرف عنهم الشجاعة، فقاد حروباً متتالية على تلك المناطق دامت حوالي 5 سنوات (1504-1509م) ارتكبت فيها الجيوش الصفوية إبادة جماعية، ومذابح شنيعة ضد الأكراد عموماً، والأيزيديون خصوصاً بسبب مقاومتهم الشديدة وعدم استسلامهم، ورغم سيطرة الصفويين على مناطق الكرد الأيزيديين في الموصل وسنجار منذ العام 1507م²، إلا أن مقاومتهم لم تخمد وتواصلت بعد ذلك لعدة سنوات.

لكن الصدام الصفوي العثماني الأول الذي حدث عام 1514م في معركة جاليندران³، قسم الكرد المسلمين إلى سنة مؤيدين للعثمانيين وشيعة مؤيدين للصفويين في حين بقي الأيزيديون على الحياد من هذا الصراع خوفاً من أي عواقب قد تعود عليهم بسبب موقفهم.

وبعدما استطاعت القوات العثمانية حسم المعركة لصالحها، تحول الصراع بين الطرفين إلى العراق والمناطق الكردية حيث تحالفت القوات الكردية مع العثمانيين، وتمكنوا من انزال الهزيمة بالقوات الصفوية في معركة قره غين دده (قوج حصار) في مارس 1516م، ومن ثم تمت سيطرة العثمانيين على منطقة سنجار لتكتمل سيطرتهم على مناطق الأكراد بأكملها⁴.

يذكر أن العثمانيين مع بداية تواجدهم في المنطقة عقدوا العديد من المعاهدات مع الأمراء الأكراد، وكانت إمارة داسني الكيان السياسي للكرد الأيزيديون من ضمن الامارات الكردية التي دخلت تحت سيطرتهم، وقد كانت نظرة الأيزيديين للعثمانيين في هذه الفترة على أنهم منقذون ومخلصون لهم من تعصب الصفويين، وممارساتهم القمعية اتجاه مخالف المذهب الشيعي الاثنا عشري، حتى المسلمين من الأكراد السنة⁵، الأمر الذي جعل موقف الأقلية الأيزيدية مرحباً ومباركاً للتواجد العثماني بالعراق خلال بداياته، بل

¹ Ghulam Sarwar, Op.Cit, p. 36

² شرف خان البديسي: المصدر السابق، ص 350.

³ sykes, Op.Cit, vol 2, p. 244.

⁴ إبراهيم بيك حليم: المرجع السابق، ص 81.

⁵ شرف خان البديسي: المصدر السابق، ص 281.

بقي موقفهم كذلك لغاية منتصف القرن السادس عشر¹، قبل تبدل الأمور لاحقا وهو ما سنأتي على ذكره لاحقا.

2- موقف السلطة العثمانية من الأقلية الأيزيدية بالعراق في بداية الحكم العثماني:

اعتمدت الدولة العثمانية في تعاملها مع الامارات الكردية على عاملين أساسيين أولهما هو اغراقهم بالعطايا والاقطاعات لضمان ولائهم، وقد كان السلاطين العثمانيين يوزعون العطايا والاقطاعات في كل انتصار يحققونه على الصفويين²، والعامل الثاني تمثل في احترام الدولة العثمانية للأعراف والتقاليد السائدة في المناطق الكردية، وعدم تغيير الأنظمة السائدة عندهم، واكتفائها بولائهم مع شبه استقلال في تسيير اماراتهم، لذلك عمدت إلى عقد المعاهدات والاتفاقيات مع الأمراء الأكراد، ومن بينهم امارة داسني. ورغم أن المصادر التاريخية لم تشر إلى أي اعتراف رسمي للعثمانيين بالأيزيديين كمجموعة دينية إلا أن المؤشرات التاريخية تشير إلى أن امارة داسني كانت تحظى برعاية السلطان العثماني، كما أن الدولة العثمانية بتجاوزها لاطار الاختلاف الديني، والاختلاف العرقي في القرن السادس عشر، استطاعت كسب ثقة الأكراد، وتمكنت من بناء جسور التواصل مع هذه الامارات، واستمرت هذه السياسة لأكثر من قرن قبل أن تتبدل منذ القرن السابع عشر.

ومن الأدلة التاريخية على موقف السلطات العثمانية الايجابي من الأيزيديين ومارتهم، وحسن تعاملها معهم هو قوة ونفوذ امارة داسني في القرن السادس عشر حيث كانت تضم منطقة الشيخان ودهوك والسليمانية والمرج وعقرة، وتياري حتى طور عابدين³، أي أنها ضمت كل المناطق بين الزابين الأعلى والأسفل لذلك عرفت دهوك تاريخيا بأنها عاصمة داسن السفلى.

3- العوامل المتحكمة في العلاقة بين السلطة العثمانية والأيزيدية:

مرت العلاقات العثمانية الايزيديين بعدة مراحل تأرجحت بين الود والعداء الذي طبع أغلب الفترات⁴، فمع بداية التواجد العثماني بالعراق منذ العقد الثاني من القرن السادس عشر كانت العلاقات جد مميزة، ومكنت للأيزيديين في المنطقة. لكن نهاية الحكم العثماني في العراق انتهت بسلسلة من الحملات والحروب كادت تقضي على تواجد اليزيديين تماما، لذلك فإن العلاقة كانت تتحكم بها عد عوامل لعل أبرزها:

¹ صديق الديمولوجي: المرجع السابق، ص 455.

² سعدي عثمان هروي: كوردستان والدولة العثمانية (1514-1851م)، ط1، مطبعة الخاني، دهوك، ص 117.

³ محفوظ العباسي: المرجع السابق، ص 221.

⁴ سعدي عثمان هروي: المرجع السابق، ص ص 117-118.

-تغير السلاطين ومعها تتغير السياسات اتجاه الأيزيدية فمن سلطان لآخر تتغير معاملتهم والسياسات العثمانية اتجاههم لكن أغلب السلاطين كانوا معادين للأكراد الأيزيدية.

-الفتوى الشهيرة للمفتي أبو السعود العمادي (1491-1585م) التي قضت بواجب قتال الأيزيدية وجواز بيعهم في الأسواق ما لم يسلموا ويتخلوا عن ديانتهم، فكانت هذه الفتوى غطاء دينيا فتح الباب أمام السلاطين لتبدأ عديد الحملات العسكرية ضدهم¹.

-تدهور الأوضاع الاقتصادية في مناطق كثيرة في كردستان جراء الحروب والحملات التي شهدتها المنطقة من الصفويين والعثمانيين على حد سواء، مما دفعهم إلى السلب والنهب لسد حاجياتهم، فكانت حجة أخرى للسلطات العثمانية حتى تشن ضدهم الحملات العسكرية².

-طبيعة الأوضاع السياسية الاقليمية خاصة الصراع الصفوي العثماني الذي ألقى بضالاه على العلاقة بين العثمانيين والأيزيدية فكلما وقف الأيزيديون إلى جانب العثمانيين تحسنت العلاقة وبعد زوال الخطر الصفوي تتأزم العلاقة من جديد.

ثانيا- مراحل تطور علاقة الايزيديين مع السلطات العثمانية:

1- المرحلة الأولى: تبدأ من العام 1516م إلى غاية منتصف القرن السادس عشر، وقد اتسمت هذه المرحلة بالعلاقات الحسنة والمميزة بين الطرفين، وقد كان عهد السلطان سليمان القانوني (1520-1566م) منذ توليه الحكم عام 1520م عهدا ذهبيا للأيزيديين، حيث مكن السلطان سليمان للأيزيديين في مناطق الأكراد حتى استطاع أمير داسني حسين بيك الحصول على ثقة السلطان، فأصدر الأخير أمرا سلطانيا في مارس 1534م عين من خلاله حسين بيك سنجق بيك على الموصل، أثناء حملته على بغداد في نفس العام³. وكان السلطان يهدف للاستفادة منه كشخصية محلية قوية لمواجهة القوى الكردية المتذبذبة الولاء له في تلك الفترة. كما يذكر شرف خان البدليسي أن السلطان سليمان أوكل أيضا إمارة أربيل في نفس العام (1534م)، ثم أضاف إمارة سوران إلى أربيل، وبذلك أصبح حاكما على ثلاث امارات في نفس الفترة⁴.

¹ سعد سلوم: المرجع السابق، ص 75.

² سعدي عثمان هروي: المرجع السابق، ص ص 115-116.

³ عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، ج4، ص 54.

⁴ محفوظ العباسي: المرجع السابق، ص 222.

وظل الأمير الأيزيدي والأيزديون يحكمون باسم الدولة كل هذه المناطق لفترة طويلة قبل أن ينقلب السلطان سليمان على الأمير الداسني، فاستدعاه للحضور إلى الأستانة، ومن ثم أصدر بحقه حكم الاعدام منتصف القرن السادس عشر بتهمة سوء الإدارة، وعدم محافظته على ما أقطعه إياه السلطان، لتدخل العلاقة بين الأيزيديين والعثمانيين مرحلة أخرى¹.

ويمكننا القول أن أبرز انعكاسات العلاقة الودية بين الطرفين هو تحالف الأيزيديين مع العثمانيين في حربهم مع الصفويين، فقد تمكنت الإمارات الكردية والجيش العثماني من دحر الصفويين عن العراق عام 1516م، وكذلك لعبت هذه العلاقة دوراً كبيراً في الاستقرار الذي عاشته المناطق الكردية طيلة هذه الفترة مقارنة مع سابقتها.

2- المرحلة الثانية: تبدأ من حيث انتهت الأولى وتمتد إلى غاية أواخر عهد السلطان مراد الرابع (1623-1640م) وتميزت هذه المرحلة بالتوتر الشديد والعداء بين الطرفين، ويعود ذلك لعاملين أساسيين اجتماعاً مع العامل الأول تمثل في اعدام الأمير الداسني حسين بيك²، الذي أحدث ثورة وهيجانا لدى الأيزيديين على الدولة العثمانية، ومن ثم تمردوا عن الدولة³، وامتنعوا عن دفع الضرائب المستحقة عليهم. فيما تمثل العامل الثاني في اصدار مفتي الدولة العثمانية أبو السعود العمادي الفتوى الشهيرة بتكفير الأيزيديين واهدار دمهم، واعتبار أموالهم غنائم، ونسائهم سبايا، إلا من ترك دينه وأشهر اسلامه، وهو ما فتح الباب لبداية الحملات العثمانية ضدهم⁴.

أما عن أبرز انعكاسات هذا التوتر على الطرفين فقد تمثل في حملات عسكرية عثمانية على مناطق الأيزيديين وقتل فيها الآلاف منهم، وسييت نسائهم ودمرت ديارهم وأهمها نذكر حملة القائد العثماني نصوح باشا عام 1607م لكن جيشه تكبد هزيمة راح ضحيتها حوالي 7000 جندي عثماني، وحملة عام 1638م بقيادة والي ديار بكر أحمد باشا الذي قال عنها « قتل منهم ما يقارب 10000 رجل وأسرت الكثيرين منهم، وبعد الحصول على غنائم وفيرة رجعت إلى ديار بكر »⁵. كما ساهم توتر العلاقة بين

¹ صديق الدمولوجي: المرجع السابق، ص 455.

² شرف خان البديسي: المصدر السابق، ص 281.

³ عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، ج4، ص 54.

⁴ سعدي عثمان هروي: المرجع السابق، ص ص 122-123.

⁵ أوليا جلبي: رحلة أوليا جلبي في كوردستان عام 1655م، تعريب رشيد أفندي، ط1، مطبعة خاني، دهوك، 2008م، ص 88.

الطرفين في اضعاف العثمانيين في حربهم مع الشاه عباس الصفوي (1588-1623م) الذي غزت جيوشه بلاد العراق مرة ثانية حتى وصلوا إلى بغداد عام 1623م¹.

3- المرحلة الثالثة: تعد أقصر المراحل ولأنها كانت بين فترتين متوترتين في العلاقة بين الطرفين تناولناها كمرحلة مستقلة عما قبلها وما بعدها، وقد بدأت بعد آخر حملة على الأيزيديين في عهد السلطان مراد الرابع عام 1638م²، وانتهت عام 1651م، وفيها عاد الدنيء للعلاقة بين العثمانيين والأيزيديين بسبب وقوفهم مع الجيش العثماني أثناء حملته لاستعادة بغداد من الصفويين، ولعل المحازر التي ارتكبتها القوات الصفوية في مناطق الأيزيدية خاصة سنجار كانت سببا مباشرا في تحالفهم مع العثمانيين، فأكرمتهم السلطة العثمانية عن موقفهم، وتحسنت العلاقة بين الطرفين، ومنحت أميرهم ميرزا الداسني إيالة الموصل بدرجة باشا عام 1649م³، وقربته من دوائر القرار وكانت له علاقة مميزة مع الصدر الأعظم قره مراد باشا الذي رشحه للمنصب المذكور.

بعد ذلك تغيرت الأحوال وتغيرت معها العلاقة بين الطرفين بعدما عزل الصدر الأعظم قره مراد باشا من منصبه، ففقد الأمير ميرزا الداسني حليفه في القصر السلطاني، وتحرك المسلمون في الموصل لعزله من منصبه، ونجحوا في ذلك إذ استدعي إلى الأستانة، وجرد من مهامه، وأعدم عام 1651م⁴، لتنتهي العلاقات الودية تماما بين الطرفين ليصبح الأيزيديون منبوذون خلال ما تبقى من العهد العثماني في العراق⁵.

4- المرحلة الرابعة: بدأت هذه المرحلة من عام 1651م وامتدت إلى غاية انتهاء العهد العثماني في العراق عام 1917م، وتميزت بتجريد العثمانيين للحملة تلو الأخرى على الأيزيديين وعلى امتداد المناطق التي يسكنوها، ويمكن القول أن هذه المرحلة كانت لغة الدم والقتل هي اللغة التي تخاطب بها الطرفان لأكثر من قرنين ونصف، وقد عانى الأيزيديون خلالها معاناة شديدة فقدوا فيها أرواحا كثيرة مما تسبب في تناقص أعداد نفوسهم تناقصا كبيرا حتى كادوا ينقرضوا تماما⁶، ورغم ما أبدوه من مقاومة شرسة، إلا أن موازين القوى لم تكن متكافئة أبدا، وفيما يلي نذكر أهم هذه الحملات:

¹ ستيفن همنسلي لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص 77.

² أوليا جلي: المصدر السابق، ص 88.

³ صديق الدمولوجي: المرجع السابق، ص 455.

⁴ محفوظ العباسي: المرجع السابق، ص 222.

⁵ نيبور: المصدر السابق، ص 93.

⁶ سعيد الديوه جي: اليزيدية، ص 199.

حملة حسن باشا عام 1715م، وحملة أحمد باشا عام 1733م، وحملة سليمان باشا عام 1752م، ثم جاءت حملات الجليليين على إمارة شيخان كحملة عبد الباقي الجليلي عامي 1784 و 1785م، وذهب ضحية هذه الحملات المتواصلة على الكرد أبناء الديانة الإيزيدية أكثر من عشرة آلاف قتيل من الإيزيديين، ولم تسلم شنكال من حرب الإبادة والحملات المستمرة عليها.

وفي القرن التاسع عشر كانت هناك حملة علي باشا عام 1802م¹، وحملة سليمان باشا الصغير عام 1809م²، وحملة أرنجه بيرق عام 1835م، وحملة رشيد باشا كريدلي أوغلو ما بين 1845-1846م، وحملة طيار باشا عام 1846-1847م، وحملة أيوب بك 1891م، ثم حملة الفريق عمر وهي باشا عام 1892م وجاءت بعدها حملة بكر باشا عام 1894م وثانيهما حملة جزيرة بوتان على قرى الإيزيديين وحملة محمد باشا السوراني (ميري كورد) عام 1832-1834م ثم جاءت حملة بدرخان بك عام 1844م بدعم من الباب العالي للقضاء على الإيزيديين مقابل الاعتراف به على إمارة (بوتان) حملات خلال القرن العشرين بما فيها حملة تشريد الإيزيديين من قبل الاتحاد والترقي ابان الحرب العالمية الثانية.

ثالثاً- أبرز الشخصيات الأيزيدية التي لعبت أدواراً سياسية بارزة في العهد العثماني:

يذكر المؤرخون عدة شخصيات من أتباع الديانة الأيزيدية كان لها دور بارز سياسياً منهم من حكم الامارة الأيزيدية ومنهم من حكم ايلات أخرى كالموصل وسوران وغيرها، نذكر منهم:

1- حسين بك الداسني: يعد من أشهر الأمراء الأيزيدية لما عرف عنه من شجاعة ودهاء وقدرة على تدبير الأمور، هو حسين بيك بن الأمير حسن بك قبل توليه إمارة الشيخان تولى حكم الموصل بعد استيلاء والده عليها لفترة من الزمن، ثم تولى إمارة الشيخان بعد وفاة والده عام 1534م³، وقد اشتهر من قبل المجاورين بالداسني، وزادت ثقة الدولة العثمانية به حتى أصبح محسوداً بين أقرانه من أمراء كوردستان، واستطاع أن يكسب ود رجال الدولة العثمانية، وذلك عندما كان سليمان القانوني في زيارة للموصل قادماً من تبريز سنة 1534م، فرحب به الأمير حسين بك وقدم له حسن الضيافة وأكرمه بالهدايا، ووقف إلى جانبه في حربه مع الصفويين لاستعادة بغداد في نفس السنة، فأعجب به السلطان وأحبه وقربه⁴، وأناط به إمارة اربل بالإضافة إلى إمارة الموصل⁵، وجميع معاقل الكورد في بهدينان، ومن ثم لقب بأمير الأمراء، فبلغت

¹ ستيفن همنسلي لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص 269.

² سعدي عثمان هروي: المرجع السابق، ص ص 117-118.

³ محفوظ العباسي: المرجع السابق، ص 222.

⁴ شرف خان البديسي: المصدر السابق، ج، ص ص 278-279.

⁵ عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، ج4، ص 54.

الامارة في عهده ذروة أجماعها (51)، حيث أصبح حسين بك الداسني أميراً على ثلاث امارات في آن واحد امارة الشيخان، امارة الموصل و امارة اربل والسوران¹.

لم يرق لكرد امارة سوران حكم حسين بك الداسني الذي اعتبروه دخيلاً عليهم فاجتمع أولاد عزالدين شير، وكذلك سيف الدين بن مير حسين، وهو من أحفاد سلالة السورانيين وكان مقيماً في (صوما قلق)، والذي ما ان سمع أنباء انتقال حكم سوران إلى أيدي حسين بك الداسني، حتى بادر لقتاله، ووقعت بينه وبين الأمير الداسني عدة معارك، وفي المعركة الأخيرة لم يستطع الأمير سيف الدين أن يصمد فولى هارباً والتجأ إلى أمير أردلان بيكه بيك طالباً العون والمساعدة ، الا أن الأخير لم يعره اهتماماً خوفاً من بطش السلطان العثماني²، فاضطر الأمير سيف الدين للعودة يائساً إلى أراضى سوران.

وبعد فشله التجأ سيف الدين هذه المرة إلى استخدام طريقة أخرى لاستعادة امارة السوران وأربل من أيدي الداسنيين، فقام بجمع المسلمين وحرصهم على قتال حسين بك معتمداً على اختلاف العقائد الدينية، ويبدو أن أهالي أربل وسوران لم يرق لهم حكم الداسني أيضاً، حيث اتفقوا مع سيف الدين سراً، وكونوا جيشاً من المحاربين الأشداء لمحاربة حسين بك الداسني، وتحينوا فرصة سفره لامارة الشيخان، وشنوا حملة كبيرة على أربل ، ورغم محاولة الأمير الداسني بالعودة على جناح السرعة، ووقوع قتال شديد بين لطرفين، الا أنه فشل في الانتصار عليهم ولاذ بالفرار، وقد قتل في هذه المعركة 500 مقاتل داسني³. حاول حسين بك الداسني استعادة سلطته على أربل والسوران عدة مرات، ولكن دون جدوى، فوصلت أخبار هزائمه الباب العالي، فاستدعي إلى الاستانة وعزل ثم حكم عليه بالموت فقتل هناك⁴، بحجة عدم محافظته على ما أقطع له السلطان من البلاد.

2- ميرزا بك الداسني: منذ وفاة الأمير حسين بك الداسني لم يبرز أي قائد أو أمير أيزيدي قوي قادر على استعادة مكانة الداسنيين أيام مجدها إلى أن برز الأمير ميرزا بك الداسني الملقب بـ (يزيدي ميرزا)⁵، والذي بفضل استعادت الامارة الايزيدية في الشيخان عافيتها بعد فترة من الضعف والانحلال والاضطراب في العلاقات مع الدولة العثمانية، حيث تسلم زمام أمور الداسنية ورعاها وهو في قصر الامارة في بعشيقه شمال الموصل، وأصبح فيما بعد قائداً للجيش البهديناني في عهد أميرها مراد خان بك الذي كان صديقاً حميماً له قبل توليه امارة الموصل، فقد اشترك في الحملة الكبرى على بغداد في عهد السلطان مراد

¹ صديق الدمولوجي: المرجع السابق، ص 455.

² عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، ج4، ص 54.

³ شرف خان البديسي: المصدر السابق، ج، ص ص 278-279.

⁴ عباس العزاوي: تاريخ العراق بين احتلالين، ج4، ص 54.

⁵ سعدي عثمان هروي: المرجع السابق، ص 119.

الرابع (1623-1640م)، وبرز فيها بعد أن نجح في هجومه على خيمة قائد الجيش الصفوي وقتله، وقد نظم مراد خان بك أمير إمارة بهدينان جيشاً لايالة كوردستان كان أكثرية رجاله من الكرد الأيزيدية وسلم قيادته إلى ميرزا بك الداسني، واعتمد عليه في صراعه مع والي شهرزور وأردلان المؤيد القوي للشاه الصفوي وهو خان أحمد خان، حيث تمكنت قوات ايالة كوردستان من الاستلاء على بغداد، وطردها أتباع الشاه الصفوي منها والتي كانت قد استولت عليها منذ سنة 1623م¹.

لقد برزت مقدرة ميرزا بك الداسني في الحملة التي قادها السلطان العثماني مراد الرابع على بغداد، حيث تمكنوا من طرد الصفويين منها سنة 1639م، فرافق الأمير الداسني السلطان إلى ديار بكر، فمنحه الأخير لقب بك تكريماً لجهوده، ومن ثم تولى منصب ولاية الموصل سنة 1650م²، وحسب رأي المؤرخين فان تولي أحد الأيزيديين الحكم في الموصل يدل على ما كان لأمرائهم من القوة والنفوذ في ذلك العهد، وعزل ميرزا بك من منصب ولاية الموصل سنة 1651م³ بعد حكم دام حوالي سنة وثلاثة أشهر، وقتل في السنة التي عزل فيها.

في الأخير نستنتج أن الأيزيدية في العراق وان لم يكن لهم دور بارز في الأستانة عاصمة الدولة العثمانية الا أن ذلك لم يمنعهم من تولي وظائف سامية في العراق، كما أن السلطة العثمانية اعتمدت على بعض الشخصيات الأيزيدية في حكم الايالات العراقية تكريماً لهم على مواقفهم ووقوفهم مع العثمانيين في صراعاتهم مع الصفويين.

كما يمكننا أن نستنتج أن العلاقة بين الأيزيديين والسلطة العثمانية كانت تتبدل باستمرار بين الود والعداء لكن العداء والحرب كان السمة الأبرز خلال أغلب فترات الحكم العثماني خصوصاً بعد صدور الغطاء الديني المتمثل في فتوى تكفير هذه الأقلية لتكون حجة وذريعة لحملات عسكرية بدأت منذ القرن السادس عشر، لكنها ازدادت بشكل كبير بعد انتهاء القرن السابع عشر وحصدت كثير من الأرواح، وخلفت اضطراباً كبيراً في مناطقهم.

¹ ستيفن همنسلي لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص 77.

² سعدي عثمان هروي: المرجع السابق، ص 119.

³ هناك من الباحثين من يرى أن فترة توليه حكم ايالة الموصل بين عامي 1950 و1951م، وهناك مصادر تاريخية ترى أن فترة توليه بين عامي 1949 و 1950م.

المبحث الرابع- دورهم وتفاعلهم في النشاط الاقتصادي:

اعتبر المؤرخون النشاط الزراعي النشاط الاقتصادي الرئيسي للأقلية الأيزيدية في العراق، وذلك يعود لعدة أسباب أهمها العوامل الطبيعية كالطابع السهلي للأقاليم الأيزيدية والمناخ الملائم والهواء النقي، إضافة إلى توفر شبكة هيدروغرافية كبيرة وفرت موارد مائية متنوعة كماء المطار والعيون الكثيرة إضافة إلى الآبار¹. إضافة إلى عامل آخر تمثل في العزلة التي عاشتها هذه الأقلية بسبب الأوضاع السياسية والأمنية، حيث كانت عرضة إلى حملات عسكرية من العثمانيين والصفويين، دفع بها إلى الاحتماء بالمناطق الجبلية التي لا تتوفر بها أي أنشطة اقتصادية سوى الزراعة، كما أن العامل التاريخي الذي يتمثل في مزاوله الزراعة بالنسبة للأكراد عموماً ومنهم الأيزيدية²، جعلهم يحافظون على هذه المهنة التي توارثوها جيلاً بعد جيل، لذلك قسمنا المبحث إلى قسمين خصصنا الأول للنشاط الزراعي، والثاني للأنشطة الاقتصادية الأخرى للأيزيدية وفيما يلي نذكر أهم أنشطتهم الاقتصادية:

أولاً- النشاط الزراعي وتربية المواشي في مناطق الأيزيديين:

1- الزراعة والمنتجات الزراعية للأيزيدية:

أ- منطقة الشيخان: تمثل الزراعة النشاط الاقتصادي الرئيسي والأمثل لسكان منطقة الشيخان من الأيزيديين³، وقد شكلت سالنات ولاية الموصل، وكذلك كتابات الرحالة الأجانب المصدر الأساسي للمعلومات حول أنشطتهم ومنتجاتهم الزراعية هناك، فقد ذكر الرحالة البريطاني بكنغهام أن أيزيدية الشيخان يستقرون في قرى وبلدات ويمارسون الزراعة، لذلك تكون المتاجرة والصناعة أيضاً ملائمة لحاجياتهم⁴، ويذكر أن المزارع الأيزيدي يتمتع بقوة البنية الجسدية التي تمكنه من القيام بأعماله مهما كانت شاقة، كما أنه لا يتصف بالكسل مطلقاً، ويستخدم الأيزيدية في الحراثة الحيوانات خاصة الأبقار، ويزرعون التبغ والقطن والأعشاب، كما تذكر المصادر أن أهم منتجاتهم الزراعية تتمثل في الحنطة والشعير والذرة والحمص والعدس والخروع والقطن، كما تذكر أغلب المصادر أنهم اشتهروا حتى نهاية القرن التاسع عشر بزراعة التوت وشغل الحرير. ويصف الكرمللي الحياة الاقتصادية في القرية الأيزيدية بالشيخان بقوله أنها تشتمل على بيوت لا يتجاوز عددها 60 بيتاً، وفيها المزارع والبساتين التي تكثر فيها أنواع الفواكه⁵.

¹ أوليا جلي: المصدر السابق، ص 86.

² ستيفن همنسلي لونكريك، العراق الحديث، ج 1، ص 30.

³ سهيل قاشا: الموصل في القرن التاسع عشر (1834-1909م)، ص 180.

⁴ بكنغهام: المصدر السابق، ج 1، ص 21.

⁵ أنستاس الكرمللي: المرجع السابق، ص 51.

بالإضافة إلى كتابات الرحالة فقد أوردت الوثائق العثمانية معلومات مهمة حول النشاط الزراعي للأيزيديين منها سالنامه ولاية الموصل لسنة 1325هـ/1907م التي جاء فيها أن قرى الايزيدية في الشيخان، ولاسيما بعشيقه وبحزاني وعين سفي وباعدري وبيرستك وشيخ عادي مشهورة بزراعة الزيتون نظرا للظروف الملائمة لزراعة هذه الشجرة وازدهار انتاجها، فضلا عن الزيتون فإن هذه القرى تشتهر بزراعة أشجار التين والليمون والحمضيات والفواكه الصيفية، وتشير السالنامات أيضا إلى أن قريتي بعشيقه وبحزاني هما من أهم القرى في انتاج الزيتون وزراعته في ولاية الموصل¹، كما ذكرت بأن أهم المحاصيل الزراعية المنتجة في منطقة الشيخان هي الحنطة، الشعير، الحمص، العدس، الذرة، التين، الزيتون، والجدير بالذكر أن زراعة الزيتون تكتسب أهمية خاصة لدى أيزيدية الشيخان نظرا لاستخدام زيتته في بعض الشعائر الدينية².

وهكذا فإن منتوجاتهم ومحاصيلهم من الزراعة وتربية الحيوانات كانت كثيرة، ومنها العفص والسمن والجن والصوف والجلود³، واشتهرت بعض المناطق الايزيدية في الشيخان بانتاج الزيتون المخلل والراشي والاستفادة من الصوف لانتاج المنسوجات وخاصة مع وجود حرفة الحياكة اليدوية. وكان أيزيدية الشيخان بشكل عام يقايضون منتوجاتهم الحيوانية والنباتية بما يحتاجونه من اللباس والحاجات الأخرى، وهناك من يقول أنهم يعتمدون في معيشتهم على الإكتفاء الذاتي حيث لا يشترون المنتجات الأجنبية إلا قليلا جدا باستثناء الأدوات المستخدمة لأغراض الزراعة، مع أن الخارج من مناطقهم من المحاصيل والمنتجات هي أضعاف أضعافه.

ب- منطقة سنجار: جسدت الزراعة النشاط الاقتصادي الرئيسي لسكان منطقة سنجار منذ أقدم العصور مثلما لاحظنا في منطقة الشيخان وهو ما أشارت اليه كل المصادر التاريخية⁴، وذلك بحكم أنها امتلكت مساحات واسعة من السهول والمدرجات الجبلية الخصبة، بحكم موقعها في سفح جبل خصب هو جبل سنجار، كما تميزت سنجار أيضا بتربتها الخصبة ومياهها الغزيرة وأراضيها الزراعية الواسعة⁵. ويعد موقعها الجغرافي الممتاز، وقيامها على منحدر خصب تحيط به الصحراء أهم ميزة أهلتها لأن تنتج أرضها جميع أنواع الفواكه، وهو الأمر الذي أكدته الرحالة الأجانب بالاشارة إلى خصوبة جبل سنجار، وملائمته

¹ س، و، م: 1325هـ/1907م، ص ص 102-104.

² شاكر خصباك: العراق الشمالي، ط1، مطبعة شفيق، بغداد، 1973هـ، ص 187.

³ نايف عبد نايف النجم: ريف الموصل في كتابات الرحالة الجانبي في القرن التاسع عشر، العدد 5، المجلد 18، مجلة جامعة تكريت للعلوم، تكريت، 2011م، ص 247.

⁴ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص 262.

⁵ صديق الدمولوجي: المرجع السابق، 472.

لزراعة مختلف أنواع الفواكه¹، ومن هؤلاء نجد الرحالة التركي أوليا جلبي الذي ذكر أن خصوبة جبل سنجار وملائمته للزراعة سيما أنه غني بالعيون والينابيع². كما ذكر الرحالة بدج أن أجواء بلد سنجار أيام رحلته في أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر بقوله «مظهر بليدة أو بلدة سنجار على ما يسميها البلدانيون العرب، وشنكار، على ما يسميها الأكرد، مونق جميل ذو رواء. وفي المنطقة التي تكتنفها بساتين غناء عدة، وعلى حافة مجرى الماء المنحدر من التلال إليها قطع مزروعة كبيرة، وهذا المجرى يصب في نهر الثرثار في خاتمة المطاف»³. وكان أهالي القرية في منطقة سنجار يزرعون من حولها أشجار التين والزيتون وغيرها، كما يذكر الكرمللي بأنه يكثر في جبل سنجار أشجار البلوط واللوز والحبة الخضراء وغيرها وهم يزرعون المحاصيل في السهل كذلك، أي عكس منطقة الشيخان⁴.

وفي سالنمات ولاية الموصل العثمانية معلومات مهمة عن الحالة الاقتصادية في منطقة سنجار ولاسيما ما يتعلق بالإنتاج الزراعي، حيث تذكر أن هواءه في غاية اللطافة وأراضيه خصبة كثيرة الأنبات⁵، وما ساعد على ذلك هو وفرة مياه العيون والكهاريز فيها، حيث تنبع من جبل سنجار حسب تقديرات أوليا جلبي ما يقارب السبعين إلى الثمانين عين ماء، وتخرق مياه هذه العيون أغلب مناطق سنجار من قرى وبلدات لتسقي مزارعها وبساتينها، ولاسيما مدينة سنجار ذاتها حيث تشقها شقين ليستفاد منها سكانها في سقي مزروعاتهم وأشجارهم ومحاصيلهم، وأشارت سالنمات ولاية الموصل لسنة 1312هـ/ 1894م إلى وجود 400 عين ماء في منطقة سنجار، وذكرت أسماء بعض هذه العيون المشهورة في هذه المنطقة ومنها عين سينو، عين الشبايط وعين الحصان وعين عبرة⁶، بالإضافة إلى هذه العيون ذكرت الرحالة البريطانية بلنت أسماء ينابيع وعيون أخرى في منطقة سنجار ومنها: بارة، سكينية، جدالة، القيارة، البعد والشنقال، الصلاحية وخرصي⁷، كما كان المزارعون في سنجار يعتمدون على مياه الأمطار أيضا ولاسيما في فصل الشتاء، وفضلا عن مياه العيون والينابيع والأمطار اعتمد سكان سنجار على مياه الأكهاريز في زراعتهم كذلك، واشتهرت سنجار بكثرة كهاريزها، وذلك بسبب وفرة المياه الجوفية الموجودة

¹ بكنغهام: المصدر السابق، ج 1، ص 18.

² أوليا جلبي: المصدر السابق، ص 86.

³ عدنان زيان فرحان: المرجع السابق، ص ص 190-191.

⁴ أنستاس الكرمللي: المرجع السابق، ص ص 51-52.

⁵ س، و، م: 1330هـ/1912م، ص 222.

⁶ س، و، م: 1312هـ/1894م، ص ص 292-293.

⁷ عدنان زيان فرحان: المرجع السابق، ص ص 188-189.

أسفل جبل سنجار، وفي سالنات ولاية الموصل إشارات عديدة إلى وجود الكهاري في منطقة سنجار¹، لذلك فإن المحاصيل كانت وفيرة وبخاصة أن الأرض في الكثير من الحالات لم تكن بحاجة إلى سقاية اصطناعية².

ان هذه المميزات الطبيعية التي تميزت بها منطقة سنجار من حيث وفرة الثروة المائية، وخصوبة الأرض جعلتها صالحة لزراعة مختلف أنواع المحاصيل الزراعية، وساهمت بدور فعال في إنعاش الحياة الاقتصادية فيها في مختلف المجالات، وفي هذا الصدد أوردت الوثائق العثمانية احصائيات في عام 1312هـ/1894م تحدثت عن وجود 2300 بستان و 22821 مزرعة و 11 مرعى فضلا عن 26 مطحنة في منطقة سنجار وحدها³ وقد أشارت سالنات ولاية الموصل وكذلك كتابات الرحالة الأجانب إلى المنتجات الزراعية وهي الحنطة، الشعير، العدس الحمص، السماق، السمسم، القطن، الرز، الماش، الذرة، والكثير من أنواع الفواكه⁴، كالتين الذي اشتهرت به سنجار، العنب، التوت، التفاح، الرمان، الجوز، الإحاص، الخوخ، المشمش، بالإضافة إلى البلوط، الزيتون والشمع⁵، وتعتبر فاكهة التين من أبرز المنتجات في منطقة سنجار وتتميز بالجودة واللذة وحلاوة المذاق والنفع، وتشتهر عدة قرى في زراعة التين ولاسيما قرية بردحلي وتينها من أشهر الأنواع المعروفة في الجبل، بالإضافة إلى تين قريتي راش وكروسي ذات الجودة العالية، وتشير الرحالة البريطانية بلنت إلى أن أهالي سنجار يزرعون بساتين الفاكهة كالتين والرمان والعنب والفواكه الأخرى⁶. وجاء في دائرة المعارف أن منطقة سنجار واسعة وخصبة، يعيش سكانها من الكرد الأيزيديين على زراعة الحبوب والمغروسات المختلفة وعندهم أحسن الفواكه على اختلاف أنواعها⁷، وقد أشار الرحالة التركي أوليا جلبي إلى منتجات وفواكه أيزيدية سنجار المشهورة أيضا، فيذكر أن خبزهم هو من حبوب الذرة البيضاء، وينتجون عسلا في غاية البياض ولذة الطعم، ولديهم أشجار كثيرة من الجوز والكروم والتين⁸.

¹ س، و، م: 1308هـ/1890م، ص 16. س، و، م: 1310هـ/1892م، ص 171. س، و، م: 1312هـ/1894م، س، و، م: ص 219. 1325هـ/1907م، ص 200.

² عدنان زيان فرحان: المرجع السابق، ص ص 188-189.

³ س، و، م: 1312هـ/1894م، ص 293. س، و، م: 1325هـ/1907م، ص 200.

⁴ بكنغهام: المصدر السابق، ج 1، ص 18.

⁵ أنستاس الكرملي: المرجع السابق، ص ص 51-52.

⁶ عدنان زيان فرحان: المرجع السابق، ص ص 187-188.

⁷ بطرس البستاني: دائرة المعارف، ج 10، ص 108.

⁸ أوليا جلبي: المصدر السابق، ص 92.

أما عن أبرز التحديات التي واجهت الزراعة الأيزيدية في الشيخان وسنجار في العهد العثماني فتمثلت في عدم استقرار الأوضاع السياسية والأمنية بسبب الحملات العثمانية وكذلك حملات الصفويين، إضافة إلى الضرائب المترتبة عنهم، والتي في كثير من الأحيان تتجاوز طاقتهم، وفي حال لم يدفعوها تكون حجة لحملات أكثر عنفاً¹، كما أن الجفاف الذي يصيب المنطقة بين فترة وأخرى يأتي على المحاصيل الزراعية ويؤثر تأثيراً بالغاً على أبرز نشاط اقتصادي لهم. لكن وبالرغم من ذلك إلا أن المناطق الأيزيدية شكلت مورداً رئيسياً للموصل وماردين والمناطق المجاورة بالمنتجات الزراعية والحيوانية، وبذلك يمكن القول أنها لعبت دوراً مهماً في اقتصاد المنطقة بالرغم من كل التحديات.

2- تربية المواشي عند الأيزيدية: كان أيزيدو سنجار إلى جانب الزراعة يهتمون كذلك بتربية الماشية²، وكانت مجموعة عشائر الخلكان القاطنة في الجهات الشمالية والغربية من جبل سنجار تختص بتربية الماشية، وكانت عشيرة السموقة تملك مواشي كثيرة، وأيضاً عشيرة المسكان التي كانت تعيش حياة البداوة، وترحل بأغنامها الكثيرة في موسم الشتاء والربيع إلى أراضي الجزيرة وذلك للرعي³، ويتبين من عمليات السلب والنهب التي رافقت الحملات العسكرية العثمانية على أيزيدية سنجار، مدى ضخامة الثروة الحيوانية في منطقة سنجار، ويتبين أيضاً أنهم كانوا يمتلكون أنواعاً مختلفة من الماشية وتحديد الأغنام التي عرفت بأعدادها الهائلة بالإضافة إلى الأبقار والجمال والخيول والبغال والحمير وغيرها، وبحسب ما جاء في سالتنامات ولاية الموصل العثمانية عن أغنام سنجار أنها كانت مشهورة بولادتها مرتين سنوياً في أكثر السنوات⁴.

وبالإضافة إلى عشائر سنجار فإن بعض العشائر الأيزيدية في الشيخان أيضاً كانت تمتهن الرعي وتربية الحيوانات، وجاء في إحدى المصادر أن هذه العشائر ليست لها مهنة إلا تربية الغنم والماعز والبقر والجاموس والانتفاع من لبنها وصوفها، كما تعني بتربية الحمير والخيول والابل، لذلك فإن البغال كانت كثيرة عندها بخلاف الإبل والخيول العربية، ويظهر من الإشارات التاريخية أن عشائر الشيخان الرحالة كانت تلجأ في فصل الصيف بقطعان مواشيتها التي لا تحصى إلى المناطق الجبلية، وذلك لارتداد مواقع الغيث ومواطن الكلاء ويتخذون خيامهم من الشعر والوبر بأشكال مختلفة⁵، وقد ذكرت بعض المصادر في مطلع القرن التاسع عشر تؤكد أن عشائر الشيخان الرحالة كانت تنزل للرعي في المناطق الجبلية ونصيبين، وكانت أعداد

¹ بكنغهام: المصدر السابق، ج1، ص 19.

² س، و، م: 1312هـ/1894م، ص 291. س، و، م: 1325هـ/1907م، ص 225.

³ صديق الدمولوجي، المرجع السابق، ص 226-227.

⁴ س، و، م: 1308هـ/1890م، ص 109. س، و، م: 1310هـ/1892م، ص 424.

⁵ الكرمل: المرجع السابق، ص 48.

حيواناتهم ومواشيهم ولاسيما الأغنام تقدر بالآلاف¹، ومن بين أهم عشائر الشيخان المشهورة بتربية الأغنام الماشية هي عشيرة (هويري) الرحالة².

ثانياً- الأنشطة الاقتصادية الأخرى في مناطق الأيزيدية:

1- الصناعة المحلية: عرفت مناطق الأيزيدية لاسيما سنجار عدة صناعات محلية بسيطة اعتمدت اعتماداً كاملاً على المنتجات الزراعية والحيوانية، أولها الصناعات الغذائية الزيوت والشحوم، والزبيب والسكر والمربيات، وصناعات المنتجات الحيوانية كالأجبان والألبان، إضافة إلى أن بعض المنتجات الزراعية ساهمت في إيجاد صناعات نسيجية قطنية وكتانية³.

ومن الصناعات الحرفية التي عرفت مناطقهم نجد الحرف المنتشرة حتى قبل العهد العثماني كصناعة الأحذية والنجارة والحدادة، ولا زالت بقايا تطور تلك الصناعات موجودة حالياً في سنجار وغيرها كالأبواب والنوافذ والأسرة التي صنعت في تلك الحقبة شاهدة على ما وصل إليه الحرفيون الأيزيديون رغم عدم استقرار الأوضاع السياسية والأمنية.

كما عرفت مناطق الأيزيديين بعض الصناعات الفنية كالنقش والنحت والتطريز وقد قال عنها أدي شير « ان هذه الصناعات انتشرت في كلدو آشور، واستمرت في العهود التالية، وأن صناعاتها جعلت لأصحابها شهرة تغني عن وصفهم في كل جهات العالم »⁴. كما نذكر أن صناعة الأكلاك التي كانت تستعمل في النقل النهري كانت محلية الصنع أي يصنعها الأيزيديون ببراعة واتقان كبيرين.

بالإضافة إلى ذلك فإن الأضرحة والأبنية الموجودة في مناطق الأيزيدية سواء الواقعة في منطقة سنجار أو في منطقة الشيخان تدل على أن البناء عندهم بلغ درجة فنية رائدة سواء في المواد المستخدمة أو في اللمسة الفنية للبناء آنذاك حيث تفننوا في تزيينها وزخرفتها. وقد دلت تلك الأبنية والأضرحة أيضاً على غنى مناطقهم بمقالع الحجر المتنوعة بها حجر الحلان والرخام الأسمر، وهو ما يفسر كثرة استعمال الرخام والحصى في عمليات البناء.

¹ عدنان زيان فرحان: المرجع السابق، ص 193.

² شاكر خصباك: المرجع السابق، ص 187.

³ حسن شمساني: مدينة سنجار من الفتح الإسلامي إلى الفتح العثماني، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983م، ص228.

⁴ أدي شير: تاريخ كلدو آشور، ط 2007م، ب د ن، 2007م، ص 20.

2- التجارة في مناطق الأيزيديين: تجمع أغلب المصادر ان التجارة تراجعت في العهد العثماني مقارنة بالعهود التي سبقتها في مناطق الأيزيديين، ورغم وجود الأسواق الا أنها بشكل عام كانت أقل من المناطق العراقية الأخرى وذلك يعود حتما للاضطراب الأمني الذي عرفتته مناطقهم ابان العهد العثماني، كما تخبرنا المصادر أن التجارة كانت أبعد الأنشطة الاقتصادية عن الأيزيدية، بحكم ما تتطلبه من قدرة وحرية على التنقل بين المناطق لتبادل السلع والبضائع، وهو الأمر الذي لم يكن متاحا بالنسبة للأيزيديين الذين كانوا يتعرضون لمضايقات من أتباع الأديان الأخرى¹، كما أنهم ملاحقون دوما من قبل السلطات العثمانية، لكن ذلك لم يمنعهم من المتاجرة داخل مناطقهم وهي تجارة محدودة تركز أساسا على المقايضة، وأحيانا على البيع والشراء بواسطة النقود، أما البضائع فقد اقتصرت أغلبها على المنتجات الزراعية، والحيوانات، وبعض الحاجيات اليومية الأخرى.

وقد أورد بعض الرحالة بعض المكايل والموازين التي استخدمها سكان منطقة سنجار على سبيل الذكر لا الحصر حتى قبل العهد العثماني، لكنها بقيت مستمرة في معاملاتهم التجارية طوال العهد العثماني مثل المكوك (خمسة عشر رطلا)، والمد (ربع المكوك)، والكارا (مائتان وأربعون رطلا) والقفبر (ربع الكارة أي ستون رطلا)².

3- النقل النهري بواسطة الأكلاك: امتهنت جماعات من الأيزيديين القاطنين في القرى الواقعة على الزاب الكبير العمل في النقل، حيث يقومون بمساعدة القوافل التجارية في عبور بضاعتها بين جانبي النهر بواسطة أكلاك قد صنعوها محلي³، وقد ذكرهم عديد الرحالة منهم كلوديوس جيمس ريج الذي أشار في رحلته إلى العراق سنة 1820م، إلى أن أيزيدي قرى الزاب الكبير كانوا يعملون أيضا في حراسة القوافل التجارية لاسيما تلك التي يرافقها الرحالة الأجانب⁴. وأيضاً يروي الرحالة الفرنسي أوليفيه تفاصيل رحلته في احدي هذه الأكلاك حيث يقول « وعند عبور الزاب اهتم جماعة من الأيزيديين الذين لقيناهم بانزال حمولة خيولنا، ورفع سراجها وبرادعها، وكان بعضهم مزود بقرية منفوخة، يتناول حصانا من زمامه، ويجعله يسبح، وهو يملك الزمام بيد، والقرية بالأخرى، وكان بطن الحصان وفخذه تستريح عليها، وقد كان تقدم الجياد بقوة السيقان والأرجل⁵، فكان التيار يجرفها كثيرا، ولكنها وصلت جميعا دون أن يحدث أي حادث، أما

¹ نيبور: المصدر السابق، ص 93.

² حسن شميساني: المرجع السابق، ص 231.

³ عدنان زيان فرحان: المرجع السابق، ص ص 193-194.

⁴ كلوديوس جيمس ريج: رحلة ريج المقيم البريطاني في العراق عام 1820م، تعريب بهاء الدين نوري، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2008م، ص 248.

⁵ أوليفيه: رحلة أوليفيه الى العراق، تعريب يوسف حي، ط1، المجمع العلمي العراقي، بغداد، 2008 م، ص 59.

أمتعتنا فقد وضعوها على أكلاك من اثنين وثلاثين قرية مربوطة إلى بعضها ومثبتة تحت أحشاب الصنصاف... وقد جلسنا فوقها. وكان التجذيف بمجذاف ذي مسند على شكل مقبض، ولم يكن ليوصلنا إلى الطرف الآخر بالتأكيد لو لم يجزنا حصان يقوده يزيدى كان يمسك يميننا الذؤابة واللجام، ويسراه قريته، لذا كان يطوف فوق الماء»¹.

إضافة إلى ريج وأوليفيه فقد ذكر أيضا الرحالة الألماني نيبور أن العثمانيين وبقية المسلمين والنصارى واليهود أصحاب القوافل مجبرون على ائتمان هؤلاء الأيزيديين على أرواحهم وبضاعتهم في اجتيازهم للزاب الكبير، لأن النهر في زيادة كبيرة يصعب معها اجتيازه على ظهور الخيل، كما أنه ليس هناك واسطة لعبور النهر سوى أكلاك الكرد الأيزيدية من أهالي قرية عبد العزيز على الضفة اليمنى، على أن هذه الأكلاك حسب قول نيبور ليست من المتانة بحيث تقوى على مقاومة تيار النهر الجارف ويطمئن لها المسافر، فهي أردأ واسطة للنقل رآها نيبور عبر رحلته، ويتكون الكلك من 32 قرية منفوخة من جلد الشاه وتوضع أربع منها في الطول، وثمان منها في العرض وكلها مرتبطة بجبل واحد، وتحمل فوقها قطعة من الخشب².

وفي وصفه لطبيعة الحياة الاقتصادية للقرى الأيزيدية على طريقي الزاب الكبير يذكر أوليفيه بأن عدة قرى أيزيدية كانت على طريقي الزاب الكبير من بينها قرية كلك وعبد العزيز، وكان لكل منها آغا، ويقومون بزراعة الأرض ولهم أيضا قطعان ماشية كثيرة، وكثير منهم كما تبين لا عمل له سوى القيام بتأمين عبور قوافل كثيرة على أكلاكهم، وتأتي هذه القوافل من العمادية والجزيرة والموصل إلى أربيل وكركوك وشهرزور أو بغداد، أو القوافل الوافدة من المدن الأخيرة إلى الأولى³.

¹ أوليفيه: المصدر السابق، ص 59.

² نيبور: المصدر السابق، ص 94.

³ أوليفيه: المصدر السابق، ص 61-62.

المبحث الخامس: تفاعلهم ودورهم في الحياة الاجتماعية والثقافية:

أولاً- التعليم والأيزيدية في العهد العثماني:

مثل ماذكرنا سلفاً حول أقلية الصابئة المندائيين فإن الأقلية الأيزيدية أيضاً كانت أبعد ماتكون عن الثقافة والتعليم خلال العهد العثماني¹، وكانت تعيش في حال من الجهل والامية، في غياب اصلاحات اجتماعية لرفع الغبن الذي عم كل مظاهر الحياة في المناطق الأيزيدية، لذلك لا يوجد أي أثر ثقافي، ولا أي دور فعال لهذه الأقلية، رغم أن مناطقهم لعبت أدوراً تاريخية بارزة في ازدهار العلوم والحركة الفكرية والعلمية، قبل الفتح الاسلامي عندما كانت المسيحية هي الديانة الأكثر انتشاراً في هذه المناطق، وانتشرت معها الأديرة والكنائس في منطقتي الشيوخان وسنجار². وأيضاً بعد الفتح الاسلامي فقد شهدت مناطقهم انتشاراً واسعاً للمدارس الاسلامية، والعلماء المسلمين وكذلك القضاة، والفضل في ذلك يعود للعباسيين والأتابكة والأيوبيين الذين اهتموا بالعلم والعلوم فحرصوا كل الحرص على فتح المدارس وتوفير كل الحاجيات لقيامها بمهامها على أكمل وجه، لكن العهد العثماني شهد تراجعاً ملموساً في دور هذه المناطق لأسباب مختلفة أهمها على الاطلاق غياب الاهتمام بالتعليم ومواكبة التطور الحضاري خلال تلك الحقبة التاريخية.

ويرى عدة باحثين أن اضطراب الأوضاع السياسية والأمنية في المنطقة ابتداءً من القرن السابع الهجري انعكس على الحياة الثقافية في مناطق الأيزيدية، فأهملت المدارس التي كانت موجودة وأصابها الخراب، منذ غزو المغول للعراق عام 1258م³، ومن ثم غزو تيمورلنك 1405م. ومنذ ذلك الحين لم تشر أي مصادر تاريخية لتواجد مدارس في مناطق الأيزيدية خصوصاً سنجار، ولا لأي نشاط ثقافي أو علمي، فدخل سكانها في عصر مظلم سماته الأبرز الجهل والامية، والابتعاد عن كل مظاهر الحضارة والتمدن.

1- أسباب تحريم الأيزيدية للتعليم:

يذكر أن الأيزيدية خلال العهد العثماني لم يكن لهم أي اهتمام بالجوانب الثقافية عموماً والتعليم خصوصاً، ولم يقوموا بإنشاء أي مدارس في مناطقهم، وذلك يعود لعدة عوامل أهمها:

- تحريم الديانة الأيزيدية للتعليم تحريماً صريحاً إذ تعد مسألة القراءة والكتابة من الممنوعات⁴، إلا لفئة واحدة منهم وهي طبقة بيش امام، ويذكر اسماعيل بك جول أن قوانين الطائفة تقول « أن الأيزيدي الذي

¹ صديق الدمولوجي: المرجع السابق، ص 317.

² حسن شميساني: المرجع السابق، ص 283.

³ ابن خلدون: المصدر السابق، ج3، ص 651.

⁴ سعيد الديوه جي: الأيزيدية، ص ص 46-47.

يعلم ولده القراءة والكتابة فهو كافر، والشيخ ناصر رئيس طائفة اليزيدية لم يكن يعرف القراءة والكتابة»¹. وتستثنى فئة بيش امام التي مسموح لها تعلم القراءة والكتابة من أجل قراءة الكتب الدينية والاحتفاظ بها.

- طبيعة الأيزيديين كمجتمع بدائي زراعي لا يلتفت لأمر الحياة الأخرى البتة، خاصة أمور السياسة والتعليم، وهو ما أشار له كونييه بقوله « وفي سنجار، كما غيرها من الأماكن الأيزيدية، لا توجد بها أي مدرسة، لأن الأيزيديون لا يهتمون بالعلم، ولا نجد بينهم من يحسن القراءة والكتابة»².

- الأوضاع السياسية والأمنية المضطربة التي دفعت الأقلية الأيزيدية إلى الاحتفاء بالجلال والابتعاد عن كل مظاهر الحضارة والثقافة قسراً للحفاظ على حياتهم فانغلقت هذه الأقلية عن نفسها شيئاً فشيئاً، وابتعدت عن كل التأثيرات والتطورات التي شهدتها العراق في العهد العثماني ومنها التعليم الحديث.

- غياب سياسة تعليمية واضحة المعالم من قبل السلطات العثمانية في العراق عموماً، حتى بالنسبة لباقي طوائف العراق مثلما أشرنا له سلفاً، فكانت كل المبادرات في هذا المجال ناتجة عن المجتمع العراقي، فما بالك بالأقلية الأيزيدية التي طالما نظرت إليها السلطات العثمانية بعين الريبة والعداء، وصنفتهم أقلية كافرة ومرتدة.

- السياسات المتبعة من قبل السلطات العثمانية المتمثلة في ارغام الأيزيدية على اعتناق الاسلام، وترك ديانتهم الأيزيدية، والتي كانت تتبعها دوماً بانشاء بعض المدارس لتعليم أصول الديانة الاسلامية، وترسيخها في أوساطهم، وهو الأمر الذي عقد الأمور أكثر، وزاد من تخوفهم وتوجسهم من التعليم، ومن هذه المدارس التي نظروا إليها على أنها مؤسسات تضليلية هدفها الرئيسي ابعادهم عن دينهم.

2- السياسة التعليمية العثمانية في مناطق الأيزيدية أواخر القرن التاسع عشر:

في اطار منهجها الذي اعتمدته السلطات العثمانية في تعاملها مع الأيزيدية، والمتمثل في حملات عسكرية متتالية على مناطقهم لاجبارهم على اعتناق الاسلام، لجأت بعد حملات وهي باشا³ على مناطق الشيخان وسنجار واجباره لـ 80 قرية على دخول الاسلام، إلى عقد مجلس ادارة الموصل اجتماعاً في 8 أوت 1892م⁴، لبحث السبل الكفيلة لعدم ارتدادهم إلى ديانتهم، ولحولة ترسيخ الاسلام في هذه المناطق، فقرر المجلس وضع خطة متكاملة تتمثل في انشاء المساجد، وكذلك فتح مدارس اسلامية في القرى

¹ اسماعيل بك جول: المصدر السابق، ص 10.

² Cuinet, op.cit., tome 2, p. 839.

³ عمر وهي باشا: هو رجل دولة عثماني أرسلته السلطات العثمانية عام 1890م لتولي اية الموصل من أجل القيام باصلاحات، أولها اصلاح الجيش وثانيها اصلاح نظام جمع الضرائب، والأمر الثالث هو حل مشكلة الأيزيدية التي فشلت كل المحاولات السابقة في انهاءها.

⁴ صديق الدمولوجي: المرجع السابق، ص 317.

الأيزيدية، وتم تعيين القرى والأماكن التي ستقام بها هذه المؤسسات ومن أهمها: بعشيقة، وبخزاني، وباعذرا، وعين سفني، وختارة كبير، وكري بجن، والمدرسة الرئيسية التي تم افتتاحها كانت في مرقد الشيخ عدي بلال¹، إضافة إلى عدة قرى أخرى بمنطقة سنجار.

كما اهتم قرار مجلس إدارة ولاية الموصل لأول مرة بكل الجوانب التي من شأنها ضمان نجاح الخطة، فوفرت ميزانية مالية لكل مدرسة أو مسجد، وعينت المعلمين والبوابين وحددت مبلغ 20000 قرش لكل مدرسة، فخصصت مبلغ 1000 قرش كراتب للمدرس، و100 قرش منحة للطلاب المتدرس، ويعد قرار تخصيص منحة للطلبة كأول مرة يتم العمل بها، محاولة جادة لترغيبهم في الاقبال على الدراسة في هذه المدارس، كما تم تخصيص 300 قرش للبواب.

بعد رفع التوصية المتفق عليها في مجلس ولاية الموصل إلى السلطات العثمانية بالأستانة، تمت الموافقة الرسمية على كل المقترحات من المجلس الخصوصي في الباب العالي، واعتبرها المجلس خطوة اصلاحية جادة لترسيخ الدين الاسلامي وتثبيته في مناطق الأيزيدية، وأشعر المجلس الخزينة العمومية لصرف المبلغ لانجاز هذه المدارس والمساجد من أموال وزارة المعارف العثمانية².

انطلقت السلطات العثمانية في تجسيد المشروع فقامت ببناء المساجد والمدارس بمنطقة الشيخان في القرى سابقة الذكر، لكن تعذر تنفيذ المشروع في منطقة سنجار وقرائها بسبب رفض أهالي تلك المنطقة للمشروع برمته بل ومقاومتهم له بكل السبل، فلم تتمكن السلطات من اكمال خططها، واكتفت بما انجزته في منطقة الشيخان.

رغم افتتاح هذه المساجد والمدارس عقب انتهاء الأشغال بها، وارسال المعلمين للتدريس بها الا أن الأهالي من الأيزيدية قاموا بطردهم وهددوهم بالقتل ان عادوا، وكان رد فعل عمر وهي باشا ارسال حملة عسكرية بقيادة ابنه فقتلت ونهبت وسبت النساء وأحرقت بعض القرى³، إلى تلك المناطق أنها لم تستمر طويلا في عملها بسبب عدة عوامل أهمها أن اسلام أهالي مناطق الشيخان لم يكن عن قناعة بل كان خوفا من بطش السلطات العثمانية، إضافة إلى أن انهاء مهام وهي باشا على رأس ايالة الموصل⁴، وهو صاحب المشروع وراعيه على أرض الواقع كان كفيلا بالقضاء على هذا المشروع، فقام الأيزيديون في تلك المناطق

¹ اسماعيل بك جول: المصدر السابق، ص 26.

² صديق الدمولوجي: المرجع السابق، ص 317.

³ عباس العزاوي: موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين، ج 8، ص 144.

⁴ سليمان الصايغ: المصدر السابق، ج 1، ص 319.

بطرده المسلمين العاملين في هذه المساجد والمدارس، وهددوهم بالقتل اذا عادوا إلى تلك المناطق¹، فعادت الأوضاع لما كانت عليه قبل مجيء وهيي باشا وكأن شيئاً لم يكن.

ثانياً- نتائج وانعكاسات تدهور الأوضاع الثقافية والتعليم على الأقلية الأيزيدية:

يعد التعليم أحد أهم معايير التقدم في البلدان، ومقياساً حقيقياً لدرجة التحضر في مجتمعاتها، لذلك فإن عدم الاهتمام بهذا القطاع الحيوي يقود حتماً إلى نتائج سلبية تمس كل جوانب الحياة، وإلى ركود وتأخر لا يقتصر على مجال معين بل كل مجالات الحياة العامة دون استثناء، والأيزيدية خلال العهد العثماني مثلما ذكرنا سلفاً فقد عجزوا تماماً على التعليم فلم تكن لهم مدارس خاصة بهم، ولم ينخرطوا في المدارس الإسلامية ما انعكس على حياتهم العامة في عدة مظاهر أهمها:

1- على الصعيد السياسي:

أدى عزوف الأيزيدية عن التعليم إلى غياب أطارات وكوادر إدارية وسياسية من الأيزيديين، فكل المصادر التاريخية تجمع أن الأيزيديين كانوا غائبين تماماً على الصعيد السياسي، ولم يشاركوا مطلقاً في الحياة السياسية قبل انتهاء العهد العثماني، وبالتالي عدم تواجد أي ممثل لهم من شأنه الدفاع عن حقوق هذه الأقلية خصوصاً أنها عانت أكثر من غيرها من كل أنواع التضييق والمعاناة²، ولا غرابة أن لا يتواجد الأيزيدية في المجالس المحلية أو في دوائر القرار الحكومية رغم الإصلاحات التي قامت بها السلطات العثمانية لغياب الكفاءات من المثقفين والمتعلمين الأيزيدية.

2- على الصعيد الاجتماعي:

عانت الأقلية الأيزيدية من العزلة طوال العهد العثماني بسبب التخلف والجهل الذي انتشر كالنار في الهشيم، فكل الأقليات الأخرى تلمست طريق الاندماج في المجتمع عبر الاهتمام بتعليم أبنائها، والاختلاط بأطياف المجتمع العراقي إلا الأقلية الأيزيدية بقيت على منهجها وعزلتها، وهذا الحال كلفها التأخر والتخلف عن باقي طوائف المجتمع العراقي، وما زاد الطين بلة تحريم الأيزيدية للزواج من أتباع الأديان الأخرى³، فكان سبباً آخر زاد من عزلتها، ولم يمكنها من الخروج من دائرتها المغلقة، وقد أدت هذه الأسباب إلى حقيقة واقعية مفادها أن هذه الأقلية لم تندمج بالمجتمع وبقيت منبوذة ومعزولة، كرست نظرة المجتمع السلبية والمليئة بالاحتقار لأبناء هذه الأقلية .

¹ علي الوردي: المرجع السابق، ج3، ص 53.

² سعد سلوم: المرجع السابق، ص 12.

³ صديق الدملوجي: المرجع السابق، ص

3- على الصعيد الثقافي:

الملاحظ عن الواقع الثقافي للأقلية الأيزيدية أنه كان مترددا جدا، لأن الأدلة التاريخية تؤكد غياب الأيزيدية عن كل الجوانب الثقافية حيث لم تتواجد أي بصمات لهم سواء في الطباعة والصحافة المجال الذي شهد نهضة ملموسة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ساهمت بها الأقليتان اليهودية والمسيحية بشكل كبير، ولا في مجال الموسيقى والمسرح والفنون الأخرى بالتوازي مع النهضة في مجال الطباعة والصحافة، إضافة إلى غياب أي دور لهم في الأدب والشعر، كما أنهم لم يشاركوا في حركة التأليف، ولم تكن لهم أي إصدارات علمية، سواء كتب أو مجلات أو غيرها، والأمر يعتبر طبيعيا بسبب تحريمهم للتعليم وبالتالي انعدام المدارس¹، والمعلوم أنه الطريق الوحيد لتكوين المثقفين القادرين على المساهمة في الحياة الثقافية، واللاحق بركب التطور والحضارة.

4- على الصعيد الديني:

بسبب بعدهم عن التعليم وتخطيهم في الأمية والجهل، عجز أبناء هذه الأقلية عن الدفاع عن ديانتهم ومعتقداتهم، فألصقت بهم كل التهم الممكنة، فوصفوا بعبدة الشيطان، والمرتدين عن الاسلام، والوثنيين، دون أي رد فعل والسبب عدم قدرتهم عن دفع تلك التهم بسبب جهلهم، إذ لم يكونوا قادرين على الكتابة والتأليف والدفاع عما يرونه ظلما من قبل الآخرين من جهة، ومن جهة أخرى وهي أكثر وطأة أنهم أو الكثير منهم يجهلون حقيقة ديانتهم ولا يعرفون عنها الا القليل، فكيف يمكنهم الدفاع عن شيء يجهلون حيثياته، وبالتالي كانت الكتابات عن اليزيدية من قبل الباحثين والكتاب كلها تصب في خانة الاجتهاد الذي أثر سلبا على وضع الأقلية الأيزيدية بشكل عام، و على نظرة المجتمع لهذه الأقلية.

أخيرا، ومن خلال هذه الاطلالة عن الديانة الأيزيدية نستنتج أنها على الأرجح من بقايا الديانات القديمة في بلاد الرافدين لها عباداتها وطقوسها ومصادر تشريع خاصة بها، وهو ما أثبتته أغلب الدراسات الحديثة، لكن مجيء الشيخ عدي إلى منطقة الهكارية كان منعرجا حاسما في تاريخها، فإما أن يكون قد أدخلهم الاسلام ورغبه فيه بحكم ما ذكر عن سيرته كشيخ متدين وزاهد، لكنهم ارتدوا عن الاسلام إلى دينهم القديم بعد وفاته أو لاحقا. أو أنهم لم يسلموا بل تأثروا فقط بالديانة والثقافة الاسلاميتين لذلك نجد عدة أدلة تؤكد تأثير الثقافة الاسلامية في ديانتهم مثل تسمية الجبل الواقع بمعبد لالش بجبل عرفات، وتسمية المياه التي تنبع من داخل المعبد بماء زمزم، إضافة إلى احتفالهم مع المسلمين ببعض المناسبات كدخول شهر رمضان واحتفالهم بعيد الأضحى الذي يحتفل به المسلمين وفي نفس التاريخ، لكن لا أدلة

¹ سعيد الديوه جي: اليزيدية، ص ص 46-47.

عن اتباعهم الدين الاسلامي فهم لا يقرؤون القرآن، ولا يحجون إلى بيت الله الحرام، ولا يتبعون الشريعة الاسلامية في أي من العبادات الدينية.

كما تبين لدينا بما لا يدع مجالا للشك الاختلافات الكبيرة بين الباحثين حول طبيعة هذه الديانة، وكذا تسميتها وأصل أتباعها، لذلك جاءت الدراسات الحديثة التي اعتمدت على الأدلة الموضوعية والعلمية لتزيل كثير من اللبس حول الموضوعات التي كانت مثار تباين واختلاف لعدة قرون، وصنفتها ضمن الديانات القديمة، وأكدت على تأثرها بعدة ديانات منها الديانات القديمة في بلاد الرافدين، ومنها الديانات السماوية خاصة الاسلام.

أيضا نستنتج أن طبيعة الأيزيديون الذين يعتمدون على ما يسمى علم الصدر واتباع التقية لاختفاء هويتهم الدينية، وعدم الدفاع عن أنفسهم كانت أبرز العوامل التي زادت الطين بلة، ففسحوا بذلك المجال لكل من أراد أن يدلي بدلو، حيث تعرضوا لكثير من الافتراءات والادعاءات على مر العصور، وهو ما انعكس على الأجيال الأيزيدية المتعاقبة التي بدل ان تعرف أصولها وعقائدها من آبائهم ومشايخهم، أصبحوا يستقون معلوماتهم من هذه الكتابات، فصاروا بدورهم جزء من المشكلة عوض أن يفكوا طلاسمها. أما عن أوضاعهم في العهد العثماني فقد كانت صعبة وسيئة في أغلب الفترات بسبب الحملات العثمانية المتعاقبة على مناطقهم، لذلك عانت الأقلية الأيزيدية أكثر من غيرها من انعدام الأمن والفقر وتردي الأوضاع المعيشية، اضافة إلى الجهل والأمية، وهذا ما ساهم في انحسار أدوارهم في المجتمع تماما خاصة في المجال السياسي اذ لم تكن لهم أي مشاركات في دوائر الحكم، وما زاد الوضع تعقيدا تحريم الديانة الأيزيدية للعمل السياسي والتعليم.

في حين تواجد الأيزيديون في المجال الاقتصادي خاصة الزراعة في مناطق شمال العراق في منطقة سنجار ومنطقة الشيخان اللتان اشتهرنا بعدة زراعات وبأراضيها الخصبة وينايعهم الكثيرة وبفضل وفرة منتجاتها أصبحت ممولا رئيسيا لأسواق الموصل وغيرها بالخضر والفواكه بالاضافة إلى المنتجات الحيوانية كالألبن والجلود وغيرها.

الخاتمة

الخاتمة

في الأخير نستنتج من هذه الدراسة عدة نقاط واستنتاجات تخص الأقليات الدينية وتفاعلها في المجتمع العراقي، وأدوارها في مجالات الحياة العامة أهمها:

1- أن تركز وانتشار الأقليات الدينية في العراق خلال العهد العثماني كان متباينا من أقلية لأخرى، فالأقلية الأيزيدية كانت مع بداية العهد العثماني تتمركز في المنطقة الواقعة شمال الموصل في منطقتي الشيوخان وسنجان حيث تتواجد كل أضرحتهم ومقدساتهم، ورغم حالة الاضطراب وعدم الاستقرار إلا أنهم بقوا هناك حتى نهاية العهد العثماني. أما الصابئة المندائيون فقد استقروا بالبطائح جنوب العراق وانتشروا في عدة قرى هناك بسبب تواجد الأنهار التي لها رمزية دينية كبيرة عندهم، لكن أواخر العهد العثماني شهد تحركهم نحو البصرة وبغداد، فازدادت أعدادهم في بغداد بشكل ملحوظ بسبب طبيعة نشاطهم الاقتصادي المتمثل في الصياغة. أما اليهود والنصارى فقد كانت المناطق الشمالية الموطن التاريخي لهم حتى بداية العهد العثماني، لكن مع التحولات الاقتصادية التي شهدتها العراق والانفتاح على العالم تحركوا باتجاه المدن الداخلية خاصة بغداد ومحيطها وبدرجة أقل مدينة البصرة، وكانت مدينة بغداد أكثر مدينة جذبا لأبناء الطائفتين خصوصا في القرن التاسع عشر، وانتشروا في عدة أحياء بغدادية.

2- أما فيما يخص أوضاعهم خلال فترة الدراسة فيمكننا القول وبشكل عام أنها مقبولة وحسنة، وهذا بشهادة الرحالة الأجانب الذين زاروا العراق خلال تلك الفترة، وإذا استثنينا الأقلية الأيزيدية التي كانت مستهدفة وملاحقة طوال فترة الحكم العثماني، فإن باقي الأقليات كانت أوضاعها حسنة خاصة الأقليتين اليهودية والنصرانية اللتان كانت معاملة السلطات العثمانية لهم على أنهم من أهل الذمة، وعليه كانتا تخضعان لما يسمى نظام الملل الذي يمنح الأقليات حرية تسيير شؤونها بنفسها في اطار مبادئها الدينية، ومع صدور الاصلاحات العثمانية في القرن التاسع عشر تحسنت أوضاعهم أكثر وتمت مساواتهم بالمسلمين، ورفعت عنهم الجزية. أما الصابئة وان لم تلقى معاملة كالنصارى واليهود الا أنها لم تتعرض لأي نوع من أنواع التضييق والاساءة من قبل السلطات العثمانية، وبالتالي فقط الأقلية الأيزيدية من عانت من التضييق وسوء المعاملة ويعود ذلك الى كون العثمانيين ينظرون الى أتباع هذه الديانة على أنهم مرتدون عن الدين الاسلامي.

3- أما عن تفاعل ودور الأقليات السياسي في العراق فكان حسب الوزن الديمغرافي لكل أقلية فكانت الأقليتين اليهودية والنصرانية أكثر ففتين مساهمة في الحياة السياسية مقارنة بالأيزيدية والصابئة، فقد استفادوا من الإصلاحات العثمانية، فأصبحوا ممثلين في المجالس المحلية للولايات والبلديات منذ منتصف القرن التاسع عشر بل أصبح لهم ممثلين في مجلس المبعوثان العثماني في الأستانة، كما رفعت عنهم الجزية وقبلت منهم البدل العسكرية. في حين لم تكن أقلية الصابئة المندائيين متواجدة في الحياة السياسية إطلاقاً، وذلك يعود لقلة عددهم من جهة ولرفض رجال الدين الخوض في هذا المجال لما له من تبعات عليهم، في حين نجد أن الأقلية الأيزيدية لم تغب فقط عن الحياة السياسية بل كانت مستهدفة طوال فترة الحكم العثماني، وكانت عرضة للهجمات العسكرية المتتالية من قبل الولاة العثمانيين في العراق، ومن قبل السلطات المركزية في الأستانة على حد سواء.

4- أما أدوارهم في الجوانب الاقتصادية فكانت مختلفة بسبب ارتباطها بالجوانب الأمنية والسياسية، فكانت الأقلية الأيزيدية الملاحقة والمستهدفة من قبل السلطات تمتنع الزراعة وتربية المواشي فقط في المناطق التي كانت تتواجد بها، لكنها كانت أحد الممولين الرئيسيين لأسواق الموصل وغيرها من الأسواق العراقية بعدة منتجات زراعية وحيوانية أهمها الحبوب كالحنطة والشعير، وبعض الخضروات والفواكه التي تتميز بها مناطقهم إضافة إلى الجلود والأصواف المختلفة. في حين اقتصرت أقلية الصابئة المندائية في بعض الحرف كصناعة الزوارق المختلفة التي اشتهرت بها البلدات العراقية خاصة الجنوبية، وكذلك الصياغة المهنية الرئيسية لأبناء هذه الأقلية، فقد كانوا أسياد هذه المهنة بدون منازع، وقد طوروها بشكل ملفت فتفننوا في منتوجاتهم وأبدعوا فيها أيما ابداع، وأضافوا العديد من المواد والطرق الحديثة لهذه المهنة، ومع انتقالهم إلى بغداد أصبحوا قبلة كل الزبائن البغداديين وحتى الأجانب.

أما الأقليتين اليهودية والنصرانية فقد كانت أنشطتهم الاقتصادية متشابهة تقريباً، وكانت متعددة ومتنوعة مقارنة بالصابئة والأيزيدية، فقد كانت الأقليتان تمارسان النشاط الزراعي مع بداية العهد العثماني لكن مع بداية هجراتهما الداخلية والخارجية بدأت أنشطتهم تتسع وتنوع فاتجه أبناء الطائفتان إلى قطاع التجارة الذي ازدهر بشكل كبير مع بداية القرن التاسع عشر، فنجحوا فيه وجمعوا ثروات طائلة، ويعود السبب في ذلك إلى انفتاح الأسواق العراقية أمام البضائع الأوروبية والهندية، وفتح عدة شركات أوروبية فروعاً لها في البصرة وبغداد، مع تفضيل هذه الشركات التعامل مع اليهود والنصارى على المسلمين، وقد درت عليهم التجارة أرباحاً طائلة مكنتهم من السيطرة على الاقتصاد

العراقي فأصبحوا من ملاك الأراضي والعقارات والمصانع، وقد أضر ذلك الانفتاح الاقتصاد الصناعي المحلية فتدهورت وتلاشت بعض الحرف تماما من الوجود. اضافة الى ذلك فقد كان اليهود والنصارى ينفردون بالنشاط المصرفي دون باقي العراقيين بسبب تحريم الدين الاسلامي للربا، فقد كان اليهود يسيطرون تماما على هذا النشاط وبدرجة أقل النصارى.

5- فيما يخص تفاعل الأقليات الدينية وأدوارهم الاجتماعية والثقافية فان الأقليتين اليهودية والنصرانية كانتا أكثر تفاعلا ولهما أدوارا أكبر مقارنة بالأيزيدية والصابئة، حيث شهد العهد العثماني الأخير نهضة تعليمية في العراق عموما خصوصا لدى اليهود والنصارى بفضل نشاط جمعية الأليانس العالمية بالنسبة للأقلية اليهودية اذ قامت بفتح العديد من المدارس في المدن العراقية كبغداد والموصل وبدرجة أقل في البصرة. كذلك انتشرت المدارس النصرانية في المدن العراقية بفضل نشاط الارساليات التبشيرية خاصة الارساليات الكاثوليكية والبروتستانتية، وبازدهار التعليم الحديث في أوساط الأقليتين انعكس ذلك على باقي المجالات كحركة التأليف التي نشطت بشكل ملحوظ، والصحافة والطباعة حيث ساهم اليهود والنصارى في تطور النشاط الطباعي، فظهرت العديد من الصحف والمجلات اليهودية والنصرانية خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كما كانت الأقلية النصرانية سباقة في مجال النشاط المسرحي في العراق حيث كانت بداية ظهور هذا الفن في الكنائس، وكانت الأقلية اليهودية أولى فئات المجتمع التي تأثرت به، ونقلته الى مدارسها. أيضا كانت الأقليتين اليهودية والنصرانية مساهمتين بشكل كبير في تطور الموسيقى العراقية خاصة مع بداية القرن العشرين بالتزامن مع انتشار الملاحى الليلية في بغداد خاصة قبل انتشارها في باقي المدن العراقية

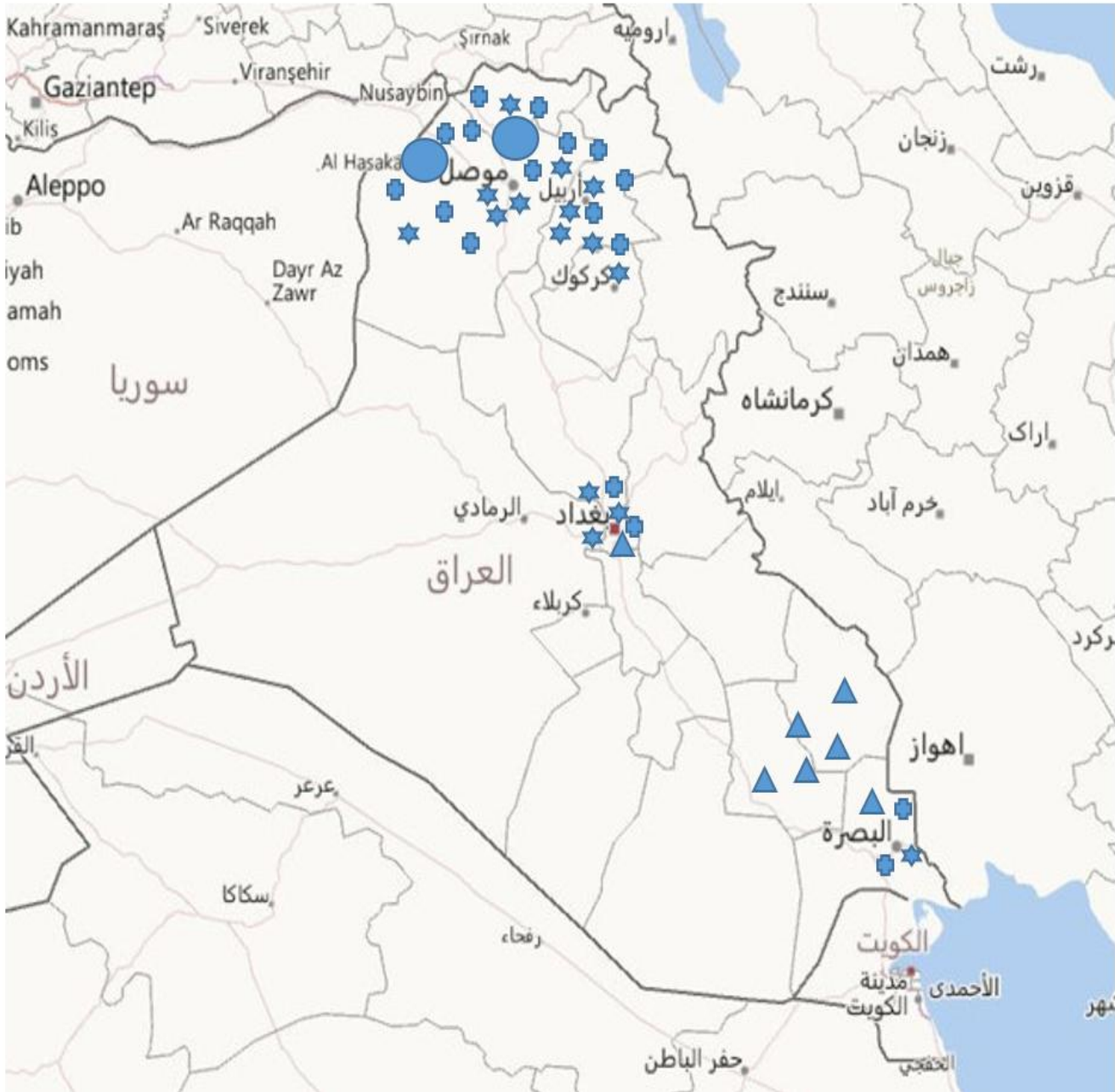
أما الأقليتين الأيزيدية والصابئة المندائيون فان رفضهم مواكبة التطور الذي شهدته العراق لأسباب دينية خاصة فيما يخص مجال التعليم الحديث كان سببا رئيسيا في بعدهم عن الأنشطة الثقافية بشكل عام فلم تكن لهم مساهمات لا في مجال الطباعة والصحافة، ولا في مجال التأليف، ولا حتى في مجال المسرح والموسيقى، عدا بعض الاستثناءات القليلة جدا.

وتبقى عدة اشكاليات مطروحة بعد هذه الدراسة أهمها أولا أدوار الأقليات الدينية بعد انتهاء العهد العثماني في العهد الملكي والجمهوري، ثم الاشكالية الثانية هي هجرة الأقلية اليهودية من العراق منتصف القرن العشرين أسبابها وحيثياتها ونتائجها عليهم وعلى المجتمع العراقي .

الملاحق

الملحق رقم 01: مخطط من اعداد الطالب يوضح توزيع الأقليات الدينية في العراق خلال العهد

العثماني



التوزيع السكاني للأقلية النصرانية

☆ التوزيع السكاني للأقلية اليهودية

● التوزيع السكاني للأقلية الأيزيدية

▲ التوزيع السكاني لأقلية الصائبة المندائيين

الملحق رقم 02: مرقد كوهين يوشع أحد المزارات المقدسة ليهود العراق خلال العهد العثماني



مرقد كوهين يوشع في جانب الكرخ

يوسف رزق الله غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص204.

الملحق رقم 03: أبرز الشخصيات السياسية للأقلية اليهودية في العراق خلال العهد العثماني

صورة مناحيم صالح دانيال (1848-1940م)

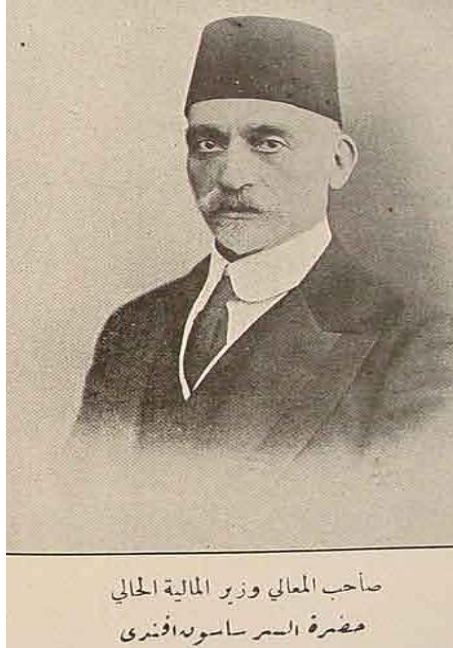
(أول عضو من الأقليات الدينية في العراق في مجلس المبعوثان العثماني 1876م)



مضرة مناحيم افنري صالح دانيال
رئيس عائلة آل دانيال الشهيرة في بغداد

يوسف رزق الله غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 178.

صورة ساسون حسقييل (1860-1932م) عضو مجلس المبعوثان عام 1908م



صاحب المعالي وزير المالية الحالي
مضرة السراسون افنري

يوسف رزق الله غنيمة: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص 186.

الملحق رقم 04: جدول يتضمن أعداد الطلبة الملتحقين بمدارس الأليانس الاسرائيلي في العراق في الفترة الممتدة بين (1865-1915م)

السنة	بغداد	الموصل	البصرة	الحلة	العمارة	خانقين	كركوك	المجموع
1865	45	-	-	-	-	-	-	45
1870	120	-	-	-	-	-	-	120
1875	250	-	-	-	-	-	-	250
1880	325	-	-	-	-	-	-	325
1885	400	-	-	-	-	-	-	400
1890	470	-	-	-	-	-	-	470
1895	605	-	-	-	-	-	-	605
1900	751	-	-	-	-	-	-	751
1905	800	-	-	-	-	-	-	800
1910	1129	120	350	150	50	-	-	1799
1915	1570	165	910	170	67	30	45	2857

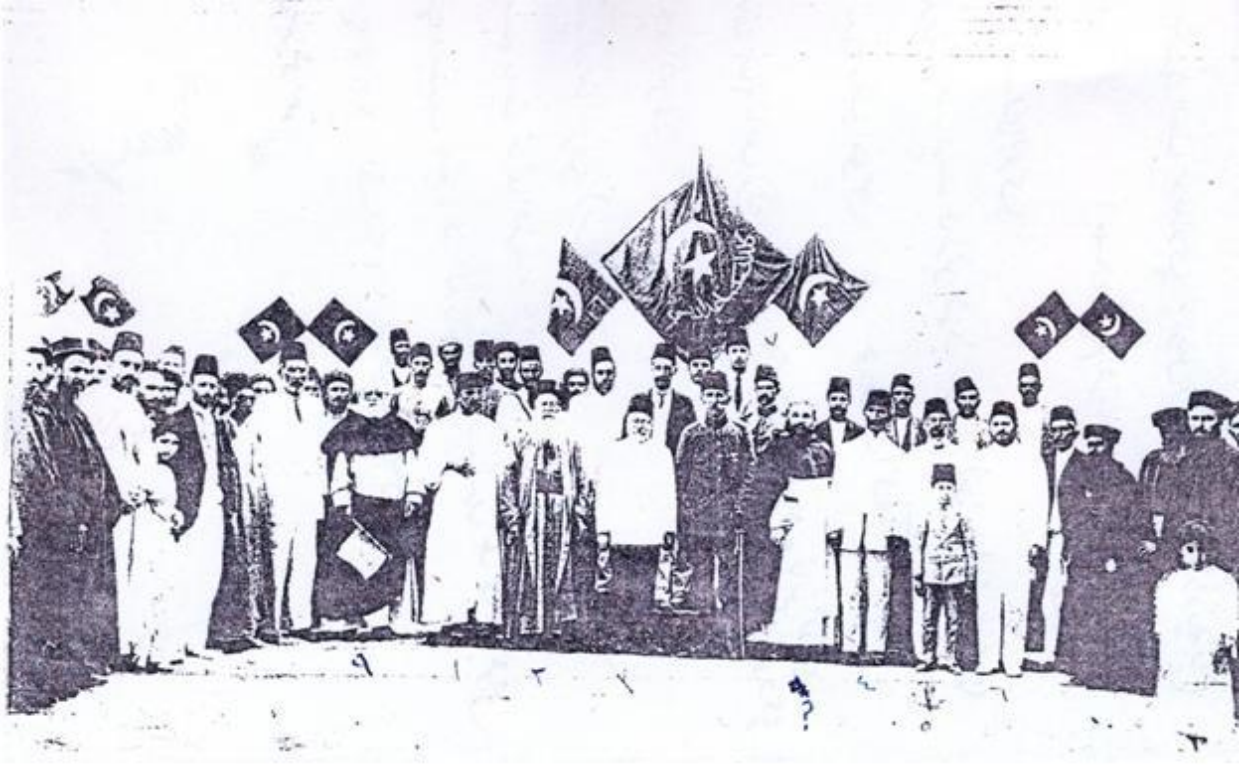
علي عبد القادر عبد الواحد العبيدي: المرجع السابق، ص 182 .

الملحق رقم 05: صورة يوسف رزق الله غنيمه (1885-1950م) السياسي والمؤرخ المسيحي من أبرز الشخصيات المسيحية أواخر العهد العثماني وبداية الدولة الحديثة



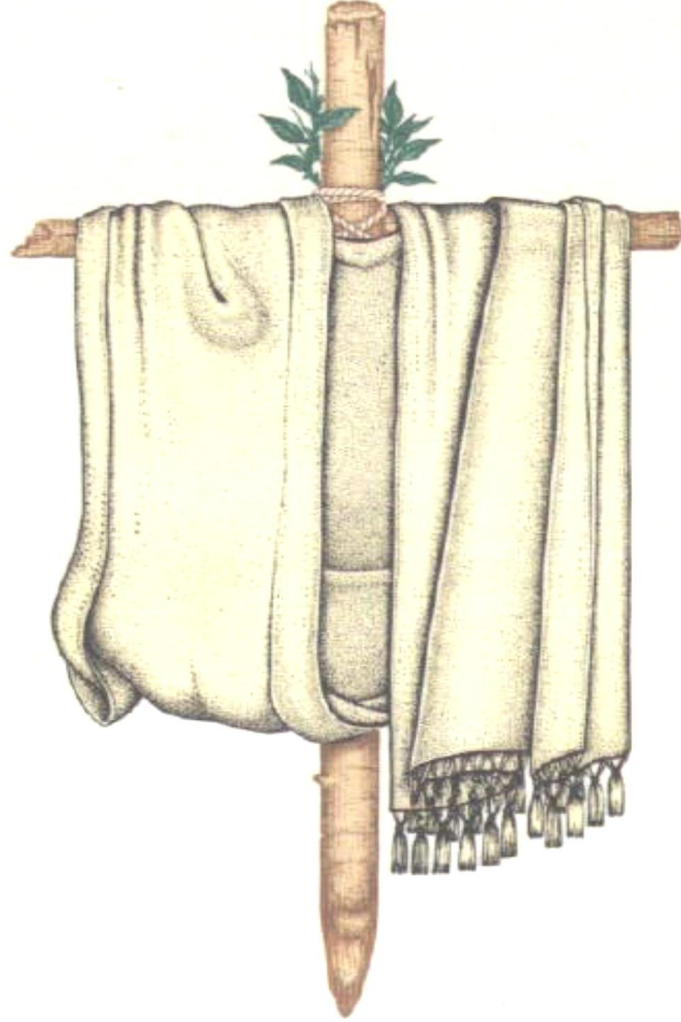
الموسوعة العربية الميسرة 08-04/2020 التوقيت 11:05

الملحق رقم 06: صورة تذكارية من حفل توزيع الجوائز بمدرسة شمعون الصفا النصرانية بالموصل
عام 1913م



مدونة الدكتور ابراهيم العلاف: <http://www.allafblogspot.com.blogspot.com/>

الملحق رقم 07: الرمز الديني للصابئة المندائيين



محمد نمر المدني: المرجع السابق، ص 138.

الملحق رقم 08: صورة توضح طقس التعميد في المياه الجارية لدى الصابئة المندائيين



محمد نمر المديني: المرجع السابق، ص 185.

الملحق رقم 09: قطع أثرية توضح مدى تطور فن الصياغة لدى الصابئة المندائيين في العراق
خلال العهد العثماني



خالد ميران دفتري: المرجع السابق، ص ص 154-157.

الملحق رقم 10: أبرز الشخصيات المندائية في العراق خلال العهد العثماني
صورة زهرون الملا خضر



خالد ميران دفتر: المرجع السابق، ص 144.
صورة خوجة جالس



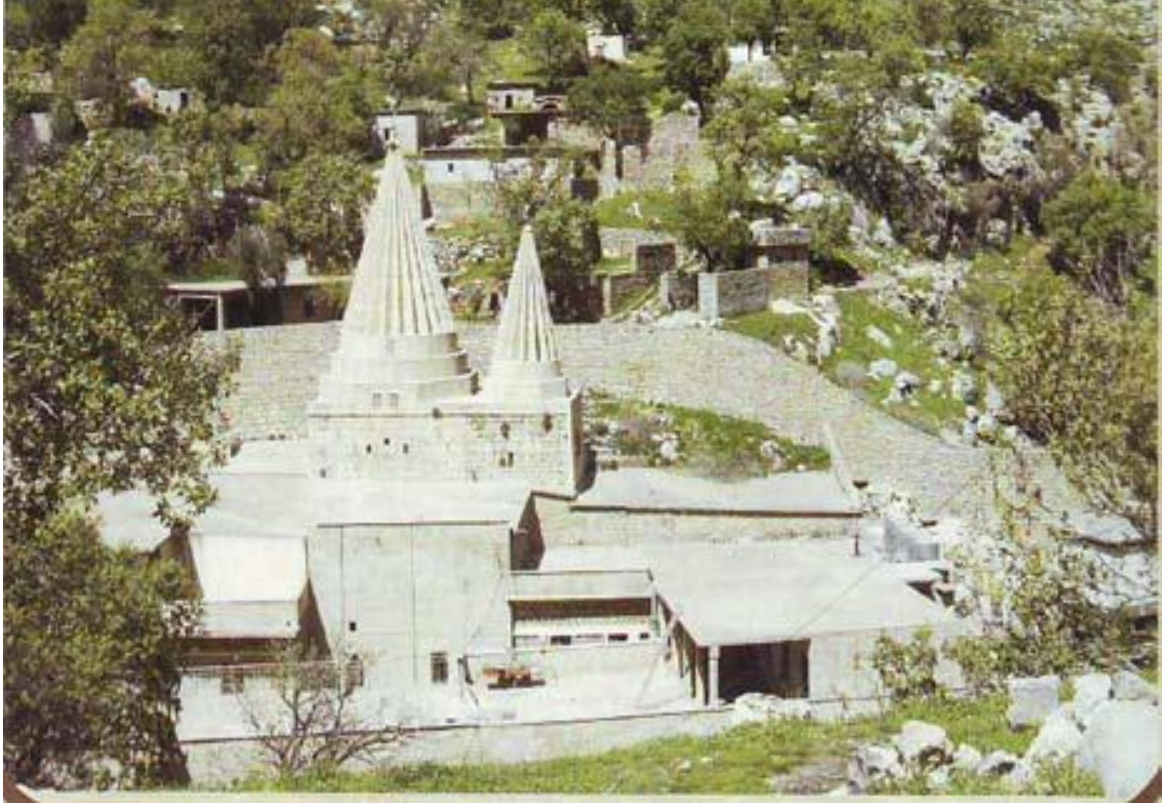
خالد ميران دفتر: المرجع السابق، ص 157.

الملحق رقم 11: صورة لطاووس ملك الرمز الديني للأيزيدية



جبل سنجار: طاووس ملك <http://sinjar-mount.blogspot.com/>

الملحق رقم 12: صورة لمعبد لالش بمنطقة الشيوخان



سعد سلوم: المرجع السابق، ص 18.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم

2. الأنجيل (أنجيل لوقا، أنجيل يوحنا، أنجيل متى، أنجيل مرقس)

3. التوراة

الوثائق الأرشيفية:

1. سالنامات نظارة المعارف العثمانية للفترة الممتدة بين (1898-1906م) .

2. سالنامات ولاية بغداد للفترة الممتدة بين (1875-1913م) .

3. سالنامات ولاية البصرة للفترة الممتدة بين (1890-1901م) .

4. سالنامات ولاية الموصل للفترة الممتدة بين (1890-1912م)

قائمة المصادر باللغة العربية:

1. الابشيهي شهاب الدين بن محمد: المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، ط1، دار القلم للطباعة، دمشق، ب ت.

2. ابن الأثير أبو الحسن علي: الكامل في التاريخ، ج7، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م

3. ابن الجوزي عبد الرحمن: تلبيس إبليس، ب ط، دار القلم، بيروت، ب ت ن.

4. ابن النديم: ابن النديم: الفهرست، <http://www.al-mostafa.com>، <http://www.al-mostafa.com>

5. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق احسان عباس، ب ط، دار صادر، بيروت، ج3.

6. ابن كثير أبو الفدا الحافظ: البداية والنهاية، ج9، ب ط، مكتبة المعارف، بيروت، 1990م .

7. _____: تفسير القرآن العظيم، ط1، الدار العلمية، بيروت، 1975م، ج1

8. ابن منظور أبي الفضل: لسان العرب، ط3، ج1، مكتبة الرشيد، بغداد، 1994م.

9. آداموف ألكسندر: ولاية البصرة ماضيها وحاضرها، ج1، ط1، مطبعة الوراق لنشر المحدودة، لندن، 2009م .

10. أشر جون: مشاهدات جون أشر في العراق، ت: جعفر الحياط، مجلة سومر، م 21، ج 1-2، بغداد، 1965م.

11. أوليا جلبي: رحلة أوليا جلبي في كردستان عام 1655م، تعريب رشيد أفندي، ط1، مطبعة خاني، دهوك، 2008م.

12. أوليفيه: رحلة أوليفيه الى العراق، تعريب يوسف حي، ط1، المجمع العلمي العراقي، بغداد، 2008م.
13. بارو أندريه: سومر فنونها وحضارتها، تعريب الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، طبعة بغداد 1979م.
14. البدليسي شرف خان: شرف نامه، تحقيق وتعريب محمد علي عوني، ب ط، وزارة التربية والتعليم، القاهرة، 1958م.
15. برنجي سليم: الصابئة المندائيون دراسة في تاريخ ومعتقدات القوم المنسيين، تعريب جابر أحمد.
16. بروكلمان كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ط5، تعريب نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1973م.
17. بصري مير: أعلام الأدب في العراق الحديث، ط1، دار الحكمة، لندن، 1994م، ج1.
18. بطاطو حنا: العراق "الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام الجمهورية"، تعريب عفيف الرزاز، ج1، ط2، دار الأبحاث العربية، بيروت، 1995.
19. البغدادي أحمد المنشي: رحلة المنشي البغدادي، تعريب عباس العزاوي، ب ط، شركة التجارة والطباعة، بغداد، 1948م.
20. البلاذري أحمد أبو الحسن: فتوح البلدان، ب ط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م.
21. بن الحكم أبو محمد بن عبد الله: سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الامام مالك بن أنس وأصحابه، تحقيق أحمد عبيد، ط2، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ب ت.
22. بن خلدون عبد الرحمان: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج 2، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
23. بن داود سلمان: سنن أبي داود، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، ط2، دار الفكر، بيروت، 2005م.
24. بوا توماس: اليزيديون وأصول الدينية ومعابدهم والأديرة المسيحية، ط2، المركز الأكاديمي للأبحاث، بيروت، 2013م.
25. بيكنغهام جيمس: رحلتي الى العراق 1816م، تعريب سليم طه التكريتي، ب ط، مطبعة أسعد، بغداد، 1968م، ج1.

26. تافرنيه جان باتيست: رحلة الفرنسي تافرنيه الى العراق في القرن السابع عشر 1676م، تعريب: كوركيس عواد وبشير قرنيس، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2006م.
27. تيمور باشا أحمد: اليزيدية ومنشأ نحلته، ط1، مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر، القاهرة، 2014م.
28. جاكسون: مشاهدات بريطاني عن العراق 1797م، تعريب خالد فاروق عمر، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2000م.
29. الجوزية ابن القيم: هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى. (ص 171 النصارى)
30. جول اسماعيل بيك: اليزيدية قديما وحديثا، تحقيق وتقديم قسطنطين رزق، ط1، مطبعة الجامعة الأمريكية، بيروت، 1934م.
31. حلیم ابراهيم بيك: التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1988م. المصدر السابق.
32. الحموي شهاب الدين ياقوت: معجم البلدان، ب ط، دار صادر، بيروت، 1977م.
33. دراشة أد يهيا: مواعظ وتعاليم يحيى بن زكريا (ع)، تعريب عن المندائية أمين فحيل خطاب، ط1، بغداد، 2001م.
34. دراوور الليدي: الصابئة المندائيون، ط2، تعريب نعيم بدوي وغضبان رومي، بغداد، 1987م.
35. _____: في بلاد الرافدين/صور وخواطر، تعريب فؤاد جميل، ط1، مطبعة شفيق، بغداد، 1961.
36. ديوان حران كويتا: تعريب نعيم بدوي، مكتبة موسوعة العيون المعرفية، بغداد، 2014م.
37. ديورانت ول وايرل: قصة الحضارة (الشرق الأدنى)، تعريب محمد بدران، ج2، م1، ب ط، دار الكتب، بيروت، 1971م.
38. الذهبي أبي عبد الله شمس الدين محمد: سير أعلام النبلاء، ج2، ب ط، بيت الأفكار الدولية، بيروت، 2004م.
39. ريج كلوديوس جيمس رحلة ريج المقيم البريطاني في العراق عام 1820م، تعريب بهاء الدين نوري، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2008م.
40. ريموند ولستيد جيمس: رحلتي الى بغداد في عهد الوالي داوود باشا، تعريب سليم طه التكريتي، ط1، مكتبة النهضة العربية، بغداد، 1984م.

41. زكار سهيل: المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم، ط1، دار الكتاب العربي، دمشق، 1997م.
42. السمعاني عبد الكريم: الأنساب، ج 13، ط العثمانية 1، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية، ب، 1977 م.
43. سون الميحر: رحلة متنكر الى بلاد ما بين النهرين وكردستان، ب ط، مطبعة التامس، بغداد، 1971م، ج2.
44. الشهرستاني أبي الفتح محمد: الملل والنحل، ب ط، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت.
45. الصايغ سليمان: تاريخ الموصل، ج1، ط1، المطبعة السلفية، مصر، 1923م.
46. _____: تاريخ الموصل، ج2، ط1، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1928م.
47. الطبري ابن جرير: البيان في تأويل القرآن، ت: محمود أحمد، المطبعة الكبرى، بيروت، ج1، 1934م.
48. _____: تاريخ الأمم والملوك، ج1، تحقيق أبو صيب الكرمي، دار الأفكار الدولية، ب ط، بيت الأفكار الدولية.
49. _____: تفسير الطبري، ج1، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994م.
50. الظاهري ابن حزم: الفصل في الملل والنحل، ج1، مكتبة السلام العالمية. (190 الصابئة).
51. عيساوي شارل: التاريخ الاقتصادي للهِلال الخصيب (1800-1914م)، تعريب رؤوف عباس حامد، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1990.
52. غنيمة يوسف رزق الله: نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ط1، مطبعة الفرات، بغداد، 1924م.
53. فريزر جيمس بيلي: رحلة فريزر الى بغداد سنة 1834م تعريب جعفر الخياط، ط1، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2006م.
54. القرطبي أبي بكر : الجامع لأحكام القرآن، ب ط، دار القلم، بيروت، 1997م.
55. القرمانلي أحمد بن يوسف: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، ج3، دراسة وتحقيق أحمد حطيط وفهمي سعد، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1992م.
56. كوتلوف ل: ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق، تعريب عبد الواحد كرم، ط2، مكتبة اليقظة العربية، بيروت، 1975.

57. لسترنج كي: بلدان الخلافة الاسلامية، تعريب بشير فرنسيس كوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ب ت.
 58. لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، تعريب عفيفة البستاني، ط7، دار الفارابي، بيروت، 1971.
 59. لونكيرك ستيفن همنسلي: تاريخ العراق في أربعة قرون تعريب جعفر خياط، ط4، مطبعة بغداد، 1958م.
 60. المسعودي أبي الحسن علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3، ط1، المطبعة العصرية، بيروت، 2005م.
 61. نصري بطرس: ذخيرة الأذهان في تاريخ المشاركة والمغاربة السريان، ط1، دار الآباء الدومينيكان، الموصل، 1905م.
 62. نيبور كارستن: رحلة نيبور الى العراق في القرن الثامن عشر، تعريب محمود حسين الأمين، ب ط، وزارة الثقافة والارشاد، بغداد، 1965م.
 63. المقرئ تقي الدين: السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1972، ج4.
- قائمة المراجع باللغة العربية:**
1. ابراهيم حسن حسن: تاريخ الاسلام، ج2، ط14، دار الجيل، بيروت، 1996م.
 2. أبو عبيد القاسم بن سلام: الأموال، تحقيق محمد حامد الفقيهي، ب ط، دار الطباعة، القاهرة، 1353هـ .
 3. أبو يوسف يوسف: الأقباط والقومية العربية، دراسة إستطلاعية، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1987م.
 4. أبونا ألبير: تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية (منذ مجيء الاسلام الى نهاية العصر العباسي)، ط2، دار المشرق، بيروت، 2002م، ج2
 5. أحمد أمين سليم: تاريخ العراق - إيران - آسيا الصغرى، ب ط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000م.
 6. أحمد ياغي اسماعيل وشاكر محمود: تاريخ العالم الاسلامي الحديث والمعاصر، ط1، دار الميرخ للنشر، الرياض، 1995م.
 7. ادريس محمد جلاء: مؤثرات عربية واسلامية في الأدب الاسرائيلي المعاصر، ط1، دار الثقافة العربية، القاهرة، 2009م.

8. الأسعد جودت: الشخصية اليهودية عبر التاريخ، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1985 .
9. اصطيغان كاجه جي صباح: الصناعة في تاريخ وادي الرافدين، ط1، دار الفرات، بغداد، 2002م
10. الامام محمد رفعت: القضية الأرمنية في الدولة العثمانية 1878-1923م، ط1، دار نوبار للطباعة، القاهرة، 2002م
11. ايريك براور: يهود كردستان، تعريب، شاخوان كركوكي وعبد الرزاق بوتاني، ط1، مطبعة وزارة التربية، أربيل، 2002م.
12. بابو اسحاق رافائيل: تاريخ نصارى العراق (منذ انتشار المسيحية في الأقطار العراقية الى أيامنا)، ط1، مطبعة المنصور، بغداد، 1948م
13. بالحاج صالح سلوى: العربية المسيحية تطوراتها (من نشأتها الى القرن الرابع هجري العاشر ميلادي)، ط1، دار الطليعة، بيروت، 1997م
14. بدر شلباية محمد محمود: المسيحيون العرب ودورهم في الحركة الوطنية الفلسطينية 1917-1948م، دار أمجد للنشر والتوزيع، عمان، 2015م
15. بدر وآخرون: المسيحية عبر تاريخها في المشرق، ط1، مجلس كنائس الشرق الأوسط، بيروت، 2002م
16. البدوي أحمد عبد المنعم: الصابئة منذ ظهور الاسلام حتى سقوط الدولة العباسية، ط1، دار رؤية للنشر، القاهرة، 2012م.
17. بروكلمان كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ط5، تعريب نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1973م.
18. بزي ميخائيل ججي: بلدة تليكيف ماضيها وحاضرها، ط1، مطبعة الجمهورية، الموصل، 1969م
19. البستاني بطرس: دائرة المعارف، ج 10 (ص 344 الايزيدية).
20. البستاني سليمان: عبرة وذكرى، الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، تحقيق خالدة زيادة، ط1، بيروت، 1978م
21. بغدادي عبد السلام إبراهيم: الوحدة الوطنية ومشكلة الأقليات في إفريقيا، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1993م.

22. بقال رائد حسون خماس وعدي: الصابئة المندائيون نبذة تعريفية، منشورات ديوان أوقاف المسيحيين والديانات الأخرى، بغداد، 2010م.
23. بن طلال الحسن: المسيحية في العالم العربي، ط1، مكتبة عمان، الأردن، 1995م.
24. بني المرجح موفق: صحوة الرجل المريض، ط1، مؤسسة صقر الخليج للطباعة والنشر، الكويت، 1984م.
25. بيات فاضل: المؤسسات التعليمية في المشرق العربي، ط1، د د ن، د ت.
26. توكلي محمد رؤوف: تاريخ تصوف دار كرستان، منشورات رات توكلي، طهران، 1378ش.
27. ثريا شاهين: دور الكنية في هدم الدولة العثمانية، ط1، دار المنايرة، جدة، 1997.
28. الجاحظ أبو عثمان: البخلاء، ب ط، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1998م.
29. الجراد خلف: اليزيدية واليزيديون، ط1، دار الحوار للطباعة والنشر، اللاذقية، 1995م.
30. جمعة بديع محمد: الشاه عباس الكبير، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م.
31. الجميل سيار: البنية التاريخية للعراق الحديث الموصل أنموذجا، ط1، دار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1999م.
32. الجهني مانع بن حماد: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ط2، دار الندوة العالمية، الرياض، 1989م.
33. حبيب كمال السعيد: الأقليات والسياسة في الخيرة الإسلامية من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانية (622-1908م) (1هـ-1325هـ)، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2002.
34. حداد مهنا يوسف: الرؤية العربية لليهودية، ط1، منشورات ذات السلاسل، الكويت، 1989م.
35. حدة حسن: الجذور اليهودية، ط1، دار العربي للطباعة والنشر، عمان، ب ت.
36. حسن جعفر هادي: اليهود الحسيديم (تاريخهم، نشأتهم، تاريخهم، عقائدهم، تقاليدهم)، ط1، دار الفلم، دمشق، 1994م.
37. حسن محمد سلمان: التطور الاقتصادي في العراق "التجارة الخارجية والتطور الاقتصادي 1864-1958"، ج1، بيروت، 1965.
38. الحسيني عبد الرزاق: الصابئة قديما وحديثا، ط1، المطبعة الرحمانية، مصر، 1931م، ص 59.
39. _____: الصابئة ماضيهم وحاضرهم، ط3، مطبعة العرفان، صيدا لبنان، 1963م.

40. _____: الصحافة العراقية في ربع قرن 1908-1933م، مطبعة دار الجمهورية، بغداد، 1969م
41. _____: اليزيديون أو عبدة الشيطان، مطبعة الوفاق، صيدا، 1961.
42. _____: تاريخ العراق السياسي الحديث، ط7، دار الرافدين، بيروت، 2008م.
43. حمادة محمد عمر: تاريخ الصابئة المندائيين، ط1، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1992م.
44. خصبك جعفر حسين: العراق في عهد المغول الايلخاني، ط1، مطبعة العاني، بغداد، 1968م، ص 79-80.
45. الخلف سعود بن عبد العزيز: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ط1، مكتبة أضواء السلف، الرياض، 1997م.
46. الخياط جعفر: صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة، ط1، منشورات وزارة الاعلام، بغداد، 1971م، ج1.
47. خياطة نهاد: المذاهب والفرق المسيحية قبل الاسلام، ط1، دار الأوائل، ب ت.
48. خيون رشيد: الأديان والمذاهب بالعراق، ط1، مركز المسبار للدراسات والبحوث، دبي، 2016، ج1.
49. درويش هدى: العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية، ط1، دار القلم، دمشق، 2002م، ج1
50. الدمولوجي صديق: اليزيدية، ط1، مطبعة الاتحاد، الموصل، 1949م. (ص353 اليزيدية رقم الصفحة غير مذكور)
51. الديوه جي سعيد: اليزيدية، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003م.
52. رحيم عبد الرزاق: العبادات في الأديان السماوية، ط1، الأوائل للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2001م
53. رزوق أسعد: التلمود والصهيونية، ط1، قسم أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، 1970م.
54. رشدي عليان: الصابئون حرايين ومندائيين، ط1، مطبعة دار السلام، بغداد، 1977م.
55. روهلنج أوغست: الكنز المرصود في قواعد التلمود، تعريب يوسف حنا نصر الله، ط2، دار الكتب، بيروت، 1968م.

56. رؤوف عماد عبد السلام: الحياة الاجتماعية في العراق في عهد المماليك (1749-1831م)، ط1، مطبعة القاهرة، ب ت
57. زاهر رفقي: قصة الأديان دراسة تاريخية، ط1، مركز الحكمة، القاهرة، ب ت
58. الزبيدي علي: المسرحية العربية في العراق، ط1، ب د ن، 1967م
59. الزهيري عبد الفتاح: الموجز في تاريخ الصابئة العرب البائدة، ط1، المكتبة الوطنية، بغداد، 1983م.
60. زيان فرحان عدنان: الكرد الأيزيديون في اقليم كردستان، ط1، مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية، السليمانية، 2004م.
61. زيد سعيد عبد الحكيم: نصارى العرب وأقباط مصر، ط1، مكتبة وهبة، القاهرة، 2008م
62. الساموك سعدون وعليان رشدي: تاريخ الديانتين اليهودية والمسيحية، ط1، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1988م، .
63. سباهي عزيز: أصول الصابئة المندائيين ومعتقداتهم الدينية، منشورات دار المدى، دمشق، 2002.
64. السعدون حميد حمد: امارة المنتفق وأثرها في تاريخ العراق والمنطقة الاقليمية (1536-1918م)، ط1، دار وائل للنشر، عمان، 1999م.
65. سعدي عبد الله ايناس: تاريخ العراق الحديث 1258-1918، ب، ط، دار عدنان للنشر، بغداد، ب ت .
66. السعدي غازي: الأعياد والمناسبات والطقوس عند اليهود، ط 1، دار الجيل للنشر، عمان، 1994م
67. سغفان كامل: اليهود تاريخ وعقيدة، ط 1، دار الاعتصام، الاسكندرية، 1981م.
68. سعودي محمد عبد الغني: الجغرافية والمشكلات الدولية، ط1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1968م.
69. سليمان نوار عبد العزيز: تاريخ الشعوب الاسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة. 1988 ن .
70. سوادى مؤيد مكلف: فدعم بن عيادة(من التراث الشعبي المندائي)، ط1، ب د ن، ب ب، ب ت.
71. سوريال عطية عزيز: تاريخ الكنيسة الشرقية، تعريب اسحاق عبيد، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2005م

72. سوسة أحمد: أبحاث في اليهودية والصهيونية، ب ط، دار الأمل للنشر والتوزيع، اريد الأردن، 2003م
73. _____: العرب واليهود في التاريخ، ط2، دار العربي للنشر والاعلان، بيروت، ب ت.
74. _____: مفصل العرب واليهود في التاريخ، ط 5، دار الحرية للطباعة، بغداد، ب ت.
75. _____: ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ط2، مركز دراسات البحوث العربية، بيروت، 2001م
76. السويدان طارق: فلسطين التاريخ المصور (دراسة تاريخية متسلسلة منذ بدء التاريخ وحتى أحداث الساعة بالصور)، ط2، مجموعة الإبداع الفكري، الكويت، 2004م.
77. شاكر محمود: التاريخ الاسلامي بلاد العراق، ط 1، المكتب الاسلامي، عمان، 1992م.
78. الشامي صلاح الدين: الدولة دراسة في الجغرافيا السياسية، ب ط، منشأة المعارف، القاهرة، 2001م.
79. شبلاق عباس: هجرة أو تهجير ملايسات وظروف هجرة يهود العراق، ط1، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 2015م.
80. شلي رؤوف: أضواء على المسيحية، دط، المكتبة العصرية، بيروت، دت.
81. شميساني حسن: مدينة سنجار من الفتح الاسلامي الى الفتح العثماني، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983م.
82. الشناوي عبد العزيز: الدولة العثمانية مفتري عليها، ج1، ط1، مطبعة جامعة القاهرة، 1980.
83. شنتياني إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، تعريب محمد علاء الدين منصور، ط1، دار الثقافة، القاهرة، 1989م.
84. شير أدي: تاريخ كلدو آشور، ط 2007م، ب د ن، 2007م.
85. صالح محمد العابد: النظام الإداري في العراق في العهد العثماني (موسوعة حضارة العراق)، ط1، منشورات وزارة الاعلام، بغداد، 1985م.
86. صباه بهنام سليم: الآباء الدومينيكان في الموصل أخبارهم وخدماتهم (1750-2005م)، ط1، الموصل، 2005م
87. الطالب عمر محمد: المسرحية العربية في العراق، ج2، منشورات مكتبة الأندلس، النجف، 1971م

88. الطائي صادق شهيد: سر الماء. سر الفضة دراسة أنثروبولوجية لطائفة الصابئة في العراق، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2010م.
89. طعيمة صابر: التاريخ اليهودي العام، ط1، دار الجيل بيروت، 1975م.
90. طقوش محمد سهيل: تاريخ الدولة الصفوية في إيران، دار النفائس، بيروت، 2009م.
91. ظاظا حسن: أبحاث في الفكر الديني اليهودي، ط1، دار القلم، دمشق، 1987م.
92. العاني رشدي محمود: الحقيقة التاريخية لعلاقة يهود الخزر والدونمة ببني إسرائيل، شركة الرشد للطباعة والنشر، القاهرة، 2003م.
93. العاني نوري عبد الحميد: العراق في العهد الجلائري (1337-1411م)، منشورات دائرة الشؤون الثقافية، بغداد، 1986م.
94. عبادة عبد الحميد: الصابئة الأقدمون، ط1، دار الحكمة، لندن، 2003م.
95. عباس نصار عبد العظيم: بلديات العراق في العهد العثماني 1534 . 1918م، ط1، المكتبة الحيدرية، بغداد، 2005م.
96. العباسي محفوظ: امارة بهدينان العباسية، ط1، مطبعة الجمهورية، الموصل، 1969م.
97. عبد الامام فاروق عبد الجبار: مصطلحات آرامية مندائية عربية مشتركة، ب ط، ب د ن، بغداد، ب ت.
98. عبد الحميد محمد: صابئة حران واخوان الصفا، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1998م.
99. عبد المنعم مسعد نيفين: الأقليات والإستقرار السياسي في الوطن العربي، ط1، مركز البحوث والدراسات السياسية، مكتبة النهضة العربية، القاهرة، 1988.
100. عبد الناصر شوقي: بروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم التلمود، ط2، مطابع دار التعاون للطبع والنشر، ب.ت.
101. عبد الوهاب علي محمد: الصابئة، ط1، دار ركابي، القاهرة، 1416هـ.
102. عبود زهير كاظم: التنقيب في التاريخ الأيزيدي القديم، ط1، دار سبيرز للطباعة والنشر، دهوك، 2006م.
103. عبود زهير كاظم: الأيزيدية حقائق خفايا وأساطير، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2005م.

104. عرفات فتاح عبد الحميد: النصرانية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها، ط1، دار عمار للنشر، عمان 2000م
105. الغزاوي دهام محمد: الأقليات والأمن القومي العربي، دراسة في البعد الداخلي والإقليمي والدولي، ط1، دار وائل للنشر والتوزيع، الأردن، 2003م.
106. الغزاوي دهام محمد: مسيحيو العراق (محنة الحاضر وقلق المستقبل)، الدار العربية للعلوم، الدوحة، 2012م
107. الغزاوي عباس: اليزيدية، ط2، مطبعة النهضة، بغداد، 1964.
108. _____: تاريخ العراق بين احتلالين، ج4، ب ط، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ب ت.
109. _____: تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم، ط1، مطبعة بغداد، 1935م.
110. _____: موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين، ط 1، مطبعة بغداد الحديثة، بغداد، 1936م.
111. عصفور محمد أبو المحاسن: تاريخ الشرق الأدنى القديم، ب ط، مطبعة المصري، القاهرة، 1968.
112. العلاف عبد الكريم: بغداد القديمة، ط1، مطبعة المعارف، بغداد، 1960م.
113. علي محمد عبدو: الديانة الأيزيدية والأيزيديون في شمال غرب سوريا، ط1، مؤسسة الطباعة، عفرين، 2008م
114. عمارة محمد: الإسلام والأقليات الماضي.. والحاضر.. والمستقبل، ط1، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2003.
115. العودات حسين: العرب النصارى، ط1، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، 1992م.
116. العيداني حسام هشام: سنيجر بن عامر، ط1، موسوعة العيون المعرفية، بغداد، 2012م.
117. غادة حمدي عبد السلام: اليهود في العراق (1856-1920م)، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2008م.
118. الغالي سلوى سعد: العلاقات العثمانية الأمريكية (1831-1918م) (1246-1337هـ)، ط1، مطبعة مدبولي، القاهرة، 2002م.
119. غنيمة حارث يوسف: السياسي الأديب يوسف غنيمة 1885-1950 من أركان النهضة العلمية في العراق الحديث، حياته- آثاره- عصره، ط1، دار الحرية، بغداد، 1990م

120. غنيمه يوسف رزق الله: تجارة العراق قديما وحديثا، ط1، مطبعة العراق، بغداد، 1922م.
121. فتاح شاكرك: اليزيديون والديانة اليزيدية، ط1، بيروت، 1997.
122. فرحان دلشاد نعمان: معاناة الكورد الأيزيديين في ظل الحكومات العراقية المتعاقبة (1921-2003م)، ط1، مطبعة جامعة دهوك، دهوك، 2008.
123. فرحان عدنان زيان: الكرد الأيزيديون في كردستان، ط1، مركز كردستان للدراسات الاستراتيجية، السليمانية، 2004م.
124. فياض داود: أصول المسيحية كما يصورها الإسلام، دط، مكتبة المعارف، دت
125. قسطنطين بيتروفيتش ماتيف بارمتي: الآشوريون والمسألة الآشورية في العصر الحديث، تعريب ح.د.أ، ط1، دار الأهالي للطباعة والنشر، دمشق 2000م.
126. القفاري ناصر والعقل ناصر: الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، ط1، دار الصميعي، الرياض، 1413هـ، 1992
127. كاجه جي صباح اصطيفان: الصناعة في تاريخ وادي الرافدين، ط1، دار الفرات، بغداد، 2002م.
128. كاظم نورس علاء موسى: حكم المماليك في العراق 1750-1831م، ط1، منشورات وزارة الاعلام، بغداد، 1975م.
129. كورية يعقوب يوسف: يهود العراق تاريخهم أحوالهم وهجرتهم، ط1، دار الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1998م.
130. الكيالي عبد الوهاب: موسوعة السياسة، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1993م، ج3، ص 745.
131. لايبس أير.م.: تاريخ المجتمعات الإسلامية، تعريب فاضل جتكر، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 2011م.
132. لعروق محمد الهادي وبوريمة سمير: أطلس الجزائر والعالم، ب ط، دار الهدى، عين مليلة، 1998م.
133. محمد رفعت الامام: القضية الأرمنية في الدولة العثمانية 1878-1923م، ط1، دار نوبار للطباعة، القاهرة، 2002.
134. المدني محمد نمر: الصابئة المندائيون العقيدة والتاريخ، ط1، دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2009م

135. مراني ناجية: مفاهيم صابئية مندائية، ط2، شركة التاييس للنشر والطباعة، بغداد، 1981م.
136. مسعد بولس حنا: همجية التعاليم الصهيونية، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1969م.
137. المسيري عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ط1، دار الشروق، القاهرة، م1، 1999م، ص102
138. المشاط عبد المنعم: الأمن القومي العربي أبعاده ومتطلباته، ط1، معهد البحوث والدراسات العربية، بيروت، 1995.
139. مصطفى احمد عبد الرحيم: أصول التاريخ العثماني، ط3، دار الشروق، القاهرة، 2003م.
140. مصطفى سليم شاكرو: دراسة أنثروبولوجية لقرية في الأهوار، ط1، مطبعة الرابطة، بغداد، 1956م.
141. المطيعي حميد: موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، ج1، بغداد، وزارة الثقافة والاعلام، دار الشؤون العامة، 1995م
142. المعاضيدي عصام جمعة أحمد: الصحافة اليهودية في العراق، ط1، الدار الدولية للاستثمارات، القاهرة.
143. معروف خلدون ناجي: الأقلية اليهودية في العراق 1921-1952م، ط1، سلسلة دراسات فلسطينية-(7)، 1975م، ج1.
144. المغلوث سامي عبد الله: أطلس الأديان(تاريخ-عقائد-انتشار)، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 2007م
145. المفرجي أحمد فياض: الحياة المسرحية في العراق، بغداد، 1988م
146. مقلد إسماعيل صبري: العلاقات السياسية الدولية: دراسة في الأصول والنظريات، ط4، منشورات ذات السلاسل، الكويت، 1985م.
147. موريس فييه جان: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ط1، دار المشرق، بيروت، 1990م
148. ميران دفتر خالد: شخصيات مندائية في التاريخ المعاصر، ط1، ب د ن، ب ب، ب ت.
149. النتشه رفيق شاكرو: السلطان عبد الحميد وفلسطين، ط5، القاهرة، 1990م
150. النجار جميل موسى: الإدارة العثمانية في بغداد من ولاية مدحت باشا الى نهاية الحكم العثماني(1869-1917م)، ط1، مطبعة مذبولي، القاهرة، 1991م.
151. _____: التعليم الحديث في العراق(1869-1918م)، ط1، منشورات الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2001م.

152. نصري بطرس: ذخيرة الأذهان في تاريخ المشاركة والمغاربة السريان، ط1، دار الآباء الدومينيكان، الموصل، 1905م، م2
153. النعيمي أحمد نوري: أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية اتجاه فلسطين، ب ط، مطبعة الجامعة، بغداد، 1982م.
154. النعيمي أحمد نوري: اليهود والدولة العثمانية، ط1، دار الفكر، بيروت، 1997م.
155. نوار عبد العزيز سليمان: تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا، ط1، دار الكاتب العربي للنشر، القاهرة، 1968.
156. نورس علاء موسى ومجموعة من الأساتذة: حضارة العراق (العصور الحديثة)، ج10، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1958م.
157. نوري باشا إحسان: تاريخ ريشه، نزادي كرد، مهلباد، 1361ش.
158. الهاشمي طه: مفصل جغرافية العراق، ط1، مطبعة دار السلام، بغداد، 1930م.
159. هروي سعدي عثمان: كوردستان والدولة العثمانية (1514-1851م)، ط1، مطبعة الخاني، دهوك.
160. الهلالي عبد الرزاق: تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني (1638-1917م)، ط1، شركة الطبع والنشر الأهلية، بغداد، 1959م.
161. وافي علي عبد الواحد: اليهودية واليهود، ط1، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1970م.
162. الوردي علي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ط1، المكتبة الوطنية، بغداد، 1972م، ج3.
163. يوسف بشير عبد الواحد: الصابئة المندائيون (سلسلة معارف موجزة)، ط1، دار شمس للنشر والاعلام، القاهرة، 2017م.
164. يوسف بشير عبد الواحد: الصابئة المندائيون بين الانصاف والاجحاف، ط1، دار شمس للنشر والاعلام، القاهرة، 2017م.

قائمة المصادر والمراجع بالغات الأجنبية:

1. Abraham Leon Sachar ، 'A history of the jewifs' ، New York ، 1939 .
2. Bernard Lewis، 'The jewifs of islam'، New Jzrsey، 1984 .
3. Vital Ghiniet، 'La Turque d'Assie' ،tome 3 ،Prism 1894 .

4. Aprim F.، M.j، **Amandaeen phylaclrcy**، Iraq، 1938.
5. Cross frank، **The Ancicent library of Qumran**، Baker book house، Michigan 1980 .
6. Ghulam Sarwar، **Hitory of shah Ismail** ،Aligart ،university muslim ،1939.
7. Hayyim Kohen، **A history of the jewifs in Bagdad 1860-1972**، Jerusalem ،1972 .
8. Joseph yacoub.les **minorites dans le monde**.
9. Michael smith and others. **Perspectives on world politics**. (London: the open university croom helm. 1981).
10. Rndolph، kurt، Gnosis، **Trans T.m**، (san Francisco، Harperm world، 1938).
11. Stanford Shaw and Ezel Kural Shaw ،**History of Ottoman Empire and Modern Turkey** ،vol1 ،New York، 1978.
12. Sykes ،p. **History of Persia** ،Vol 2، Cambridge، London ،1915
13. Walter Laqueur، **A history of zionism**، London ،1972.

الأطروحات والبحوث الجامعية:

1. الثقفي محمد أحمد محمد : زواج السلاطين العثمانيين من الأجنيات وأثره في اضعاف الدولة العثمانية (رسالة ماجستير في التاريخ الحديث بجامعة أم القرى) (1431-1432هـ).
2. الجبوري نايف عبد نايف نجم: موقف نصارى الشام من الاصلاحات العثمانية (1893-1914م) أطروحة دكتوراه غير منشورة، مقدمة لكلية الآداب، جامعة الموصل، 2007م.
3. الجبوري نصير محمود شاكر: السياسة الخارجية العراقية في ضوء مقررات مجلس الوزراء "1958-1963"، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة تكريت، 2005م.
4. رويحي حيدر جاسم عبد عبيس: الآباء الدومنيكان في الموصل، دراسة في نشاطاتهم الطبية والثقافية والاجتماعية 1750-1974، (رسالة ماجستير غير منشورة)، كلية التربية، جامعة الموصل، 2001م.
5. عبد العزيز لمى وعبد الكريم مصطفى: الخدمات العامة في العراق 1869-1918، اطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، 2003.
6. عموش عبد الحكيم: تحليل أبعاد ظاهرة نزاعات الأقليات، دراسة نموذج الأقلية الكردية (مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلاقات الدولية)، معهد العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة الجزائر، 1994.

7. العيدي جمال فورار: مشكلة حماية الأقليات في ضوء القانون الدولي، (رسالة لنيل شهادة الماجستير في القانون الدولي والعلاقات الدولية)، جامعة الجزائر، 2001.
8. ماجد بن صالح المضيان: أثر أهل الذمة الفكري في الدولة العثمانية 1520-1924م، (رسالة ماجستير غير منشورة بجامعة أم القرى)، 1994-1995م.
9. محمد عصام إبراهيم: طائفة الكلدان في العراق (دراسة انثروبولوجية)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2007م.
10. محمود نور نعمة: الفئة المثقفة العراقية دراسة تاريخية في تكوينها وتطورها الفكري والسياسي (1869-1914)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 2008.
11. المضيان ماجد بن صالح: أثر أهل الذمة الفكري في الدولة العثمانية 1520-1924م، (رسالة ماجستير غير منشورة بجامعة أم القرى)، 1994-1995م.
12. نجم الجبوري نايف عبد نايف: موقف نصارى الشام من الإصلاحات العثمانية (1893-1914م) أطروحة دكتوراه غير منشورة، مقدمة لكلية الآداب، جامعة الموصل، 2007م.

مقالات المجلات والدوريات:

1. بطي رفائيل: تاريخ الطباعة العراقية، المطبعة الكلدانية، مجلة لغة العرب، مجلد 5، ج 5، سبتمبر 1926م.
2. جاد عماد: المتغيرات السكانية والصراعات السياسية، مجلة السياسة الدولية، مركز الدراسات الإستراتيجية الأهرام، القاهرة، العدد 119، 1995.
3. الجبوري هيثم محي طالب: النشاطات الثقافية للمكون المسيحي في العراق من أواخر القرن 19 حتى العام 1939م، مجلة جامعة مركز بابل للدراسات الانسانية، المجلد 5، العدد 2، 2015م.
4. سلوم سعد: الأيزيديون في العراق (الذاكرة، الهوية، الإبادة الجماعية)، ط 1، مطبوعات مجلة مسارات، بغداد، 2016م.
5. شامي صادق: المسيحية والخمر، مجلة الفكر المسيحي، السنة الخامسة والعشرون، العدد 242، فبراير 1989م.
6. شماس سالم: المجلات المسيحية في العراق، مجلة الفكر المسيحي، العدد 127، السنة 13، بغداد، 1977م.

7. الصانع بان غانم أحمد: سياسة بريطانيا تجاه النصارى واليهود في الدولة العثمانية (1839-1914م) دراسة تاريخية، د.، مجلة التربية والعلم، م 19، ع 04، 2012.
8. صديق زرار: إمارة الشيخان شنكال وكليس، مجلة روز، العدد 6، 1998م.
9. العزاوي كريم: الأب انستانس الكرمل، مجلة مسارات، السنة 5، العدد 14، بغداد، 2010م.
10. علي لطيف مازن: دور السينما في بغداد تاريخ فني كبير، صحيفة الحوار المتمدن، العدد 1992، 30 أبريل 2007م .
11. الغبرا شفيق: الإثنية المسيسية، الأدبيات والحقائق، مجلة العلوم الإجتماعية، الكويت، العدد 3، 1988.
12. غنيمة حارث يوسف: الطوائف الدينية في القوانين العراقية، مجلة ما بين النهرين، العدد 68، 1989م .
13. الفياض أحمد لفته: المندائيون، مجلة سيمتا، المجلد الخامس، العدد 18، 2011م.
14. قاشا سهيل: مطبعة الآباء الدومنيكان في الموصل وتراثها الثقافي 1858-1914م، مجلة بين النهرين، العدد 17، بغداد، 1977م.
15. قلادة وليم سليمان: حوار علمي حول الأقليات والإستقرار السياسي في الوطن العربي، مجلة السياسة الدولية، مركز الدراسات الإستراتيجية الأهرام، القاهرة، العدد 92، 2003.
16. المالح سعدي: مسيحيو العراق ودورهم في نشأة الموسيقى العراقية وتطورها، مجلة المسارات، العدد 14، س 5، بغداد، 2010م.
17. مظهر أحمد كمال: الإطار الزمني لتاريخ العراق الحديث والمعاصر، مجلة الحكمة، العدد 5، 1988.
18. مؤيد مكلف: الصابئة المندائيون في العهد الساساني، مجلة آفاق مندائية، العدد 17، جويلية 2011.
19. نايف عبد نايف النجم: ريف الموصل في كتابات الرحالة الجانغ في القرن التاسع عشر، العدد 5، المجلد 18، مجلة جامعة تكريت للعلوم، تكريت، 2011م
20. يعقوب أفرام منصور: ما يتعلق بالعراق من كتاب الصعود لزيفون، مجلة المورد، العدد 2، أبريل 1975م.

مقالات المجلات والمواقع الالكترونية:

1. الجندي خليل: موجز تاريخ الامارات الكردية، الحلقة الأولى، www.bahzani.net.
2. الحسني عبد الكريم: بغداد أيام الزمن الجميل، مجلة الكاردينيا، العدد 18.
<https://www.algardenia.com/>
3. المرّاني ناجية غافل: أضواء على الصابئة المندائيين، اتحاد الجمعيات المندائية في المهجر،
<https://www.mandaeanunion.org/ar/>
4. مكلف تحسين مهدي: الموطن الأصلي لديانة الصابئة المندائيين، اتحاد الجمعيات المندائية في
المهجر،
<https://www.mandaeanunion.org/ar/>

الفهارس

- فهرس الأعلام
- الشعوب الديانات والقبائل
- فهرس أسماء الأماكن والبلدان
- فهرس الأشكال
- فهرس الجداول
- فهرس الملاحق
- فهرس المحتويات

فهرس الأعلام

- 168 - 162 - 71 - 69 - 57 - 56 ادم
 273 - 269 - 261 - 259 - 258 - 254 إبراهيم
 318 - 314 - 313 - 294 - 280 - 279 330 - 320 - 285 - 280 - 279 - 278
 325 - 321 إبراهيم الأول 205
 304 - 146 ادوارد 278 - 257 - 55 - 54 إبراهيم الخليل
 54 آرام 105 إبراهيم باشا
 105 اورخان بن عثمان 248 إبراهيم طوقان
 80 اردشير 129 - 90 إبراهيم عدس
 180 اردشير الأول 110 - 106 إبراهيم كاسترو
 276 اردوان الثالث ابن أبي أصيبعة 286
 276 اردوان الخامس ابن الجوزي 254
 276 اردوان الرابع ابن العبري 331
 16 آرساس ابن سلام 81
 174 أرطبان ابن عريشاه 239
 113 أرغون ابن منظور 255
 54 أرفكشاد ابو اسحاق إبراهيم 286
 57 أرميا أبو السعود العمادي 341
 342 ارنجه بيرق ابو القاسم 323
 283 ازدشير أبو جعفر المنصور 83 - 328
 72 - 57 استير أبو سليمان 66
 115 - 114 - 111 - 102 - 55 إسحاق أبو عبد الله البريدي 84
 286 - 256 - 145 - 131 - 126 - 119 أبي حنيفة النعمان 185
 86 إسحاق زرقاني أبي سعيد بن يزيد 284
 66 - 65 - 63 - 58 - 57 - 56 - 55 إسرائيل اتابك عماد الدين 84
 130 - 101 - 76 - 73 - 71 - 68 - 67 - إحصان نوري باشا 310
 251 - 163 - 154 - 153 - 152 - 144 أحشورش 327
 282 احمد باشا 25 - 341 - 342
 181 أسطاسا احمد تيمور باشا 312 - 327
 186 اسعد بن جاني أحمد يوسف يوسف 45
 282 - 177 - 79 - 16 الإسكندر الأخطل 184
 249 اسكندر زعيي إدريس 261 - 279 - 280 -
 321 - 315 - 62 - 21 - 20 - 19 إسماعيل

بارتولد 182	إسماعيل الأول 19 - 20 - 21
بارسة خاتون 323	إسماعيل أصفوي 26 - 188 - 338
بارمتي 216	إسماعيل بيك 311 - 354
باروخ 58 - 126	الأشتر مالك بن الحارث 17
باسل بشوري 241	أشعيا 57 - 59 - 67
باش قادين 205	أشور 12 - 14 - 15 - 16 - 54 - 76 - 310
بايزيد 106	351 -
بايزيد الأموي 326	أفراط 174
بترمان 199	أقلمس داود يوسف الموصللي 251
البخاري 185	أكليمنس 170
بدج 348	آل الجليلي 230
بدرخان بك 343	آل المشعشع 20
بدر الدين لؤلؤ 330 - 331	آل دانيال 111 - 118 - 129
برتلمائوس 174	آل ساسون 129
بركوبا 175	آل شعشوع 129
بشنكير 323 - 335	آل مرادي 227
بطرس 159 - 170 - 173 - 174 - 248 -	آل مراديان 227
249	آل هوفيال 227
بطرس نصري 198 - 239	ألبرت ساسون 139 - 140
بعل شم طوب 66	الأمين 83 - 90 - 185
بكر باشا 343	انستاس ماري الكرمللي 290 - 334
بلاسرو 43	أنور شاول 144 - 146
البلاذري 81	أنوش 318
بلوكي 146	أوليا جبلي 345
بنيامين 99 - 102 - 174	أوليفيه 352
بنيامين الثاني 97 - 98 - 99	ابتاخ 329
بهرام 182	أريكا هنتر 275
بهرام الأول 181 - 283	أيشوعابة 183
بهرام الثاني 181	ايلي خضوري 144
بوتان 343	أيوب 57
بولس 155 - 156 - 157 - 158 - 159 -	أيوب بك 342
170 - 171	بابر بك بيرناك 20
بيؤون 228	بايية عمانوئيل 198
بيترمان 291	بادجر 98 - 198

جيمس بيكنغهام 290	بيتون دي تورنيفور 225
الحاج حسين باشا الجليلي 211	بيكه بيك 343
حاحام باشي 99 - 208	بيكنغهام 291 98 - 198 - 199 - 391 - 333
الحارث بن سنان 267	336 -
حالت أفندي 110 - 113	تجالات بلاشر الثالث 76
حبقوق 57	تشرشل 304
الحجاج بن يوسف 83	توفانيس 328
حجي 57	توفيق السويدي 144
حزقيال 101	توفيق وهيبي 312
حسقيال الياهو 131	توما 174
حسقيل مناحيم 136	توما المرجي 310
حسن الجلائري 18	توما أودو الكلداني 250
حسن الطويل 18	تيطوس 72
حسن باشا 25 - 342	تيمورلنك 18 - 92 - 104 - 188 - 354
حسن بك لالا 20	ثابت بن قره 285
حسن بن عدي 330	ثيود سيوس 179
حسن شمس الدين 319	جائر 54
الحسين 17 - 91 - 115 - 186	الجاحظ 186
حسين بك 343 - 344	جاكسون 219 - 225
حسين عبد الله 145	جالس باشا 296
حليمة خاتون 205	جالينوس 186 - 285
حمورابي 12 - 15	جيران 119 - 126
حنا بطاطو 91 - 119 - 125	جبريل 273
حنا بطرس 248 - 249	جبريل بن بختيشوع 186
حنا جقماقجيان 210 - 212	جرجس بن جبريل 186
حنا عواد 247 - 248	جرير 184
حنا قريو 241	جعفر العسكري 115
حنين بن اسحق 18	جعفر بن فهرجس 328
حواء 245 - 314 - 318 - 325	جلال الدين الحلواني 331
الحواريين 158	جمال باشا 146
حواس بن هلال 307	جوزية 60
حول 19 - 27 - 34 - 54 - 62 - 74 - 94	جوزيف باركلي 62
- 97 - 98 - 117 - 135 - 148 - 154 -	جون آشر 228
- 155 - 160 - 164 - 177 - 185 - 192 -	جون باتيست تافرنيه 290

ديورانت 184	197 – 204 – 210 – 211 – 224 – 245-
ذو نواس 176	246 – 264 – 265 – 275 – 279 – 289 –
راحيل شمعون 141	290 – 293 – 300 – 306 – 309 – 310 –
الراشد بن المسترشد 84	319 – 321 – 322 – 325 – 326 – 327 –
الراضي بالله 286	328 – 329 – 331 – 332 – 346 – 347 –
راعوث 57	354 – 359
رجب باشا 111	حسين بك 20
رستم باشا 106	خالد بن الوليد 183
رشيد الخيون 198	خدر الموصلي 249
رشيد باشا الكوزلكي 35	خديجة خاتون 207
رشيد باشا كريدلي أوغلو 342	خضوري 90 – 119 – 144
رشيد الصفار 136	خضوري زلخة 132
رفقة نورئيل 141	خضوري نسيم 126
روبين حسقيل هلاي 126	خليل الجندي 336
الروح القدس 70 – 160 – 161 – 10 – 172	خورم سلطان 205
رودولف 276	دافيد بن داوود 129
روسو 87 – 88	دانون 144
روكسيلانة 106 – 205	دانيال 57 – 90 – 111 – 112 – 116 – 118
ريج 114 – 352 – 353	– 119 – 129 – 142 – 197
زرادشت 180 – 310 – 312 – 327 –	دانيال شوالسون 275
زكريا 57 – 186 – 255 – 258 – 261 – 282	داودصليبا 243
– 300 – 301	داوود 147
زكريا الصائغ 212	داوود أكرم 147
زكية جورج 147	داوود الكويني 147
زهير بن المسيب 83	داوود باشا 89 – 110
زهير كاظم عيود 336	داوود ساسون 129
زوريا بيل بن شلائيل 79	داوود يوسف الموصلي
زيد بن عبد الرحمن 82	داوود يوسفاني 213
زيغا 208	دقوز خاتون 187
زينفون 310	دوفال 98 – 199
سارة 101 – 281	الدوق تكسوس 109
سارة 101 – 281	دويج 307
ساسون حسقيل 115 – 129 – 144	ديفيد بيت 121
ساسون حسقيل 115 – 129 – 144	الدينوري 177

سام 54 - 282 - 297	سليمان باشا 88 - 342
سبع 56 - 109 - 148 - 149 - 168 - 170	سليمان باشا الصغير 342
312 - 172 - 218 - 263 - 268 - 276 - 312	سليمة باشا 147
313 -	سمعان بطرس 173
ستانيسلاف تشيرنيشكو 44	السمعاني 312
ستراك بوغوصيان 212	سنحاريب 76
ستيفن لونكريك 89	سنيجر بن عامر الزهيري 307
سراييون سيفيان 214	سهيل قاشا 181
سركيس 219	سون 191
سعد ابن أبي وقاص 178	سيروب اسكندريان 214
سعد سلوم 336	سيف الدين بن مير حسين 343
سعديا بن يوسف 84	شابور 182 - 327
سعيد الديوه جي 336 - 337	شابور الأول 175 - 180 - 181
سعيد باشا 88 - 110 - 113 - 131	شابور الثاني 181 - 182
السلطان مراد الرابع 21 - 106 - 114 - 193 -	شالح 54
344 - 341 - 205	الشاه إسماعيل 19 - 20 - 21 - 26 - 338
سليمان بن عبد الملك 82	الشاه عباس الصفوي 341
سلمان اشكنازي 109	شبابي شوه 88
سلمان عنبر 135	شهادة سعادة 248
سليم إسحاق 145	شداد بن عاد 314
سليم الأول 21 - 26 - 106	شرف الدين 323 - 331
سليم الثاني 106 - 109 - 110	شرف خان البدليسي 310 - 340
سليم بن فارس 307	الشريف محي الدين 248
سليم حسون 241 - 246	شعوي إبراهيم 148
سليم داوود 147	شفائي عبد الأحد 87
سليم زبلي 147	شفيق عدس 129
سليم عزرا موشي 126	الشماس روفائيل 233 - 240
سليمات القانوني 21 - 25 - 87 - 107 - 123 - 205 -	شماعي 60
345 - 342 - 207	شماي 60
سليمان آغا 115	شموئيل بن شمعون 102
سليمان البستاني 213	شوع إسحاق 126
سليمان الصائغ 310	شيث 261 - 279 - 280 - 318 - 321 -
سليمان القانوني 21 - 25 - 86 - 106 - 122	325
343 - 340 - 205 - 203 -	الشيخ أبو القاسم 323

طهماسب 21	الشيخ آدي 323
طوبيا 58 - 245	الشيخ سام 297
طورخان سلطنة 205	الشيخ بندر 307
طيار باشا 342	الشيخ حميد 323
الطيب سعد الدولة 84 - 113 - 149	الشيخ داخيل عيدان
طيّطس 175	الشيخ داموق 393
الظاهر عمر 94	الشيخ دواوود 293
عابر 54	شيخ سيدي 323
عاموس 57	الشيخ شرف الدين 323
عباس العزاوي 323	الشيخ عادي 314 - 330 - 333
عباس الثاني 88 - 105 - 122	الشيخ عبد العالي 307
عبد الباقي الجليلي 342	الشيخ علي 323
عبد الرحمن الباجة 112	الشيخ مزعل 307
عبد الرزاق آل شيخ 112	الشيخ مشاري 307
عبد الرزاق الحسيني 162 - 170 - 274 - 288 -	الشيخ ناصر 355
297 - 312 - 336	شيخان 193 - 320 - 321 - 322 - 329 -
عبد القادر الكيلاني 101	331-333-334-335-339-342-343-
عبد الله بن السيد بن انس 328	344-346-347-348-349-350-351-
عبد الله سوميخ 138 - 140	354 - 355 - 356 - 359
عبد المجيد 87 - 208	شيراران 181
عبد الواحد جرجي 241	صادق أفندي 114 - 115
عبد شمس 326	صالح الكويتي 147
عبد يشوع 178 - 251	صالح ساسون 131
عبيديا 101	صالح شميل 148
عتبة بن فرقد 328	صخر بن الصخر 330
عدي الثاني 330	الصدر الأعظم 106 - 205 - 206 - 207 -
عدي بن مسافر 312 - 315 - 318 - 319 -	342
322 - 326 - 327 - 329 - 330 - 334-	صدقا 77
عز الدين السلجوقي 331	صفنيا 57
عزرا 57 - 59 - 73 - 102 - 110 - 113 -	صليبا القطريب 147
119 - 126 - 131 - 136 - 137	صموئيل 57
عزرا دنكور 137 - 145	الضحاك بن قيس 17
عزرا هارون 147	طاهر 83
عفيفة إسكندر 147	طه الهاشمي 312

عقيا 62	فيليب طرازي 250
علاء الدولة 19	قادين 205
علاء الدين 18	القاسمي 55
علاء الدين كورك 331	القاهر بالله 284 – 285
علي ابن أبي طالب 81 – 17	قايين 325
علي باشا 342	قجامفجيان 201
عمانويل الثاني 241	القديس يوسف 237 – 242
عمر بن الخطاب 17 – 81 – 83 – 184 – 257	قرة مراد باشا 342
328 –	قسطنطين 156 – 160 – 169 – 181
عمر بن عبد العزيز 82 – 184	قسطنطين زريق 311
عمر وهي باشا 342 – 356	القضاء 17 – 18 – 20 – 28 – 30 – 57 – 61
عمران بن حصين 357	– 99 – 109 – 112 – 115 – 183 – 190 –
عمر بن علاء 53	356 – 283 – 212
عنان بن داود 65	القلقشندي 331
عويدا 57 – 99	قليومة 325
عوص 54	قنديرة 181
عيسى بن موسى 83	قورش 57
عيلام 54	قورش الأخميني 16
الفتح بن خاقان 186	قورلس 179
فخر الدين 312	قوسم 205
فدعم بن عيادة 306 – 307	كرتير 181
فرانشيسكو كويوتورتي 44	كرجي إبراهيم 126
الفرزدق 184	كرجي عزرا موشي 126
فرعون 280	الكرملي 241 – 243 – 291 – 336 – 337 –
فرنسو الأول 205	348 – 346
فرنسوا الأول 203	كريستيان رسام 228
فرنسيس دي سايس 253	كسرى 175 – 177 – 182
فرهاد باشا 27	الكسندر اداموف 97 – 131 – 199 – 212 –
فوسكان مارديكيان 213	298 – 291
فياض المشعشي 20	الاكسندر المقدوني 16 – 282
فيصل 129 – 296	الكسندر ليوس بتراند 245
فيصل الأول 129 – 304	كطوف القصاب 307
فيصل بن الحسين 115	كلوديوس جيمس 352
فيليب ساسون 129	كنعان 54 – 68 – 154

محمد 25 - 80 - 84 - 115 - 160 - 183 -	كوخي 174 - 177 - 180
184 - 186 - 254 - 256 - 261 - 263 -	كورش 16 - 78
311 - 312 - 334	كونيه 355
محمد أبو زهرة 162	كينادوس 208
محمد آغا 115	كيوركيس القرقوشبان 251
محمد الثاني 190	لاوى 139
محمد الرابع 205	لورا خضوري 144
محمد الفاتح 105 - 208	لوط 21
محمد القبانجي 148	لوقا 158 - 163 - 172
محمد باشا السوراني 343	لويس ساكو 175
محمد بن احمد المنشي 200	الليدي دراوور 265 - 267 - 298
محمد بهجت الأثري 144	ليلو نامه 149
محمد خدابنده 188	مار إبراهيم 178
محمد رشيد الكوزلكلي 111 - 118	مار أجاي 173
محمد سلمان حسن 130	مار أخيلأوس 178
محمد علي فاضل 213	مار أدري 173 - 178
محمد مصرف أفندي 115	مار توما 173 - 232 - 233
محمود الثاني 108 - 110 - 113 - 115	مار شمعون 181
المختار خوجة جالس 295	مار عبد الأحد 246
المختار دفتر بشارة السهيلي 296	مار كوركيس 240
مخيريق 80	مار ماري 173 - 174 - 178
مدام دي بيفوار 245	مار يوحنا الحبيب 234
مدحت باشا 23 - 31 - 32 - 33 - 34 - 35 -	مار يوسف 232 - 233 - 241
89 - 112 - 127 - 135 - 138 - 209 -	مارتن لوثر 167
211 - 212 - 214 - 246 - 251	ماركس 138 - 140 - 143
مراد الثاني 105 - 205	مازن لطيف 146
مراد الرابع 21 - 106 - 114 - 193 - 205 -	ماسويه 186
341 - 344	ماش 54 - 248
مراد بن يعقوب 19	المأمون 17 - 83 - 185 - 186 - 223
مراد خان 344	المتقي 83
مردخاي موشي 145	المتوكل 83 - 186
مرقس 158	متى 154 - 158 - 163 - 168 - 171 -
مركوريان 214	المثنى 183
	محفوظ العباسي 336

منير بشير 248	مرتم 68 - 152 - 153 - 160 - 164 - 165
موسى 54 - 55 - 56 - 57 - 58 - 59 - 61	167 - 169 - 241 - 250 - 282 - 283
64 - 65 - 68 - 71 - 73 - 83 - 99 -	المستعصم 18 - 187
119 - 153 - 154 - 157 - 170 - 274 -	مسعود بن محمد 84
280 - 306 - 314	مسعودة بميلية 147
موسى الكليم 258	المسعودي 186 - 267
موسى شكر 228	المسيح 64 - 65 - 69 - 70 - 79 - 88 -
موشي إبراهيم 126	152 - 153 - 154 - 155 - 156 - 157 -
موشي لاوى 139	158 - 159 - 160 - 161 - 162 - 163 -
ميخا 57	164 - 165 - 166 - 167 - 168 - 169 -
مير بصرى 144 - 145 - 146	170 - 171 - 172 - 178 - 250 - 258 -
مير راحيم أبراهام 137	261 - 278 - 282 - 283
ميرزا الداسني 342	مصطفى 106
ميرزا بك 344 - 345	معاوية ابن أبي سفيان 284
ناحوم 57 - 119	معاوية بن الحكم السلمي 277
ناحوم الأفقوشي 101	المعتصم 328
نادر شاه 114 - 122 - 198 - 201 - 210 -	المعتضد 84 - 285
211 - 212	معروف الرصافي 115
نادر شاه الأفشاري 22	معروف الكرخي 100
نادر شاه 113 - 121 - 196 - 199 - 208 -	معن بن عدنان 176
209 - 210	المقتدر بالله 286
الناسي يوسف 109	المقتفي بن المستظهر 85
ناظم باشا 111	المقريري 331
نافع الجابري 213	المكابين 58 - 59
نامق كمال 246	ملاحي 57
نبوبولاسر 16	الملك ادوارد 304
نبوخذ نصر 16 - 53 - 72 - 76 - 77 - 78 -	الملكة إليزابيث 304
79 - 117 - 245 - 327	ملكشاه رستم 20
النجاشي 176	مناحيم دانيال 90 - 112 - 116 - 118 - 129 -
نجم الدين مسعود 20	142 -
نحميا 57	المنذر بن النعمان 182
نرجس شوقي 147	منشي 126 - 129
نرسي 181	المنصور 82 - 83 - 185 - 223 - 284 - 328 -
نسطور الحكيم 164	منصور بك 20

ياقوت الحموي 328 – 275	نسيم 141 – 136 – 126 – 110
الياهو عزرا دنكور 137	نصوح باشا 341
الياهو عويد 99	نعوم فتح الله سحرار 245 – 239
يحي 261 – 259 – 258 – 255 – 254 –	نوح 318 – 282 – 279 – 274 – 259 – 99
268 – 277 – 273 – 271 – 270 – 269 –	322 –
300 – 294 – 291 – 283 – 282 –	نوريانو 105
يزدجرد 182	نوري السعيد 148
يزيد بن معاوية 326 – 312 – 311	نيبور 336 – 224 – 220 – 201 – 191 – 78
يسوع 175 – 171 – 163	353 –
اليشاع شوحيط 137	نيفين عبد المنعم 45
يشوع 178 – 68 – 60 – 58 – 57	هارون 147 – 56
يشوع خياط 251 – 240	هارون الرشيد 186 – 185 – 83
يعقوب 102 – 99 – 56 – 54 – 53 – 19 –	هارون صالح 142
114 – 145 – 159 – 165 – 175 – 219 –	هاشم الرجب 148
282 – 234	هرثمة 83
يعقوب ألبرادعي 165	هرقل 328 – 182
يعقوب حسقيل ساسون 132	هرمز 181
يعقوب لعماري 147	هرمز الثاني 181
يعقوب مراد نوح 99	هرمز بن أنطوان الكلداني 251
يهو ياقيم 76	هرمز نرسو الكلداني 245
يهو ياكين 79 – 77 – 76	هشام ابن عبد الملك 185
يهودا 255 – 148 – 147 – 102 – 68 – 53 –	هنري التماير 237
يهوديت 58	هنري المانتون 238
يهودا 119 – 79 – 78 – 76 – 62 – 60 – 53 –	هنري لايارد 328
159 – 137 –	هورية 325
يوحنا 162 – 159 – 158 – 157	هوشع 57
يوحنا المعمدان 277 – 259 – 258 – 255 –	هولاكو 187 – 18
278	هيانست الدومنيكي 241
يوحنا بن ماسوية 186	ويلسون 147
يوحنا دور الكرمللي 241	الوليد بن عبد الملك 184
يوحنا هاركنوس 64	وليم سليمان 45
يوحنان 60	وهبي باشا 357 – 356 – 355 – 342
يوسف 99 – 84 – 83 – 81 – 56 – 45 –	الياس الحلبي 212
109 – 175 – 148 – 138 – 136 – 112 –	يافث 54

– 241 – 239 – 237 – 233 – 232 – 227

255 – 250 – 245 – 242

يوسف البرتغالي 99 – 109

يوسف الثاني 249

يوسف العينكاوي 251

يوسف القديس 239

يوسف بتو 148

يوسف رزق 88 – 144 – 188 – 213 – 243

يوسف غنيمة 241 –

يوسف كيغورك 212

يوسي الجليلي 101

يوشع 68 – 100

يوشع كوهين 100

يونس 57 – 101

الشعوب الديانات والقبائل

الأكراد 14-28-36-37-120-123-192	الأتابكة 331-354
216-218-309-313-326-328-	الأتراك 87-89-99-112-189-193-250
332-338-339-340-346-348	الأحباش 178
الأكليزية 245	الآرامية 13-53-55-58-62-145
الألمان 50	178-180-185-249-250-254-
الألمانية 167-244-260	257-266-281-282
الاليسانس 138-139-140-141-142-	الأرثودوكس 164-168-172-197-199-
143-144-147-150	203-236
الأمم المتحدة 44	الأرمن 196-197-198-199-201-206-
الأمويون 284-326	208-213-220-224-225-226-
الإنجيل 152-153-155-156-157-158-	227-228-229-230-235-236
158-159-167-169-194-244	الإسرائيليين 55-73
الإنكليز 240	الإسلام 49-80-81-83-88-102-155-
الانكليزية 129-137-139-140-144-200-	176-183-184-185-187-188-194-
214-225-227-235-236-244-254-	209-255-257-270-274-284-
246	286-319-355-358-359
الأوروبيية 22-33-86-93-108-109-117-	الآشورية 15-16-76-77-173-194-
123-124-127-129-130-168-	317-336-315-335
192-200-203-204-207-209-219-	الأشوريون 14-15-76-220
229-237-245-251-254-295-298-	الإغريق 12-79-328
305-325	الإغريقية 13-186
الأوروبيين 88-97-148-224-244-267	افارسياب 27
الأوزبك 49	الأقباط 194-201
الإيرانيين 19-88	الأكاديين 15
الأيزيدية 292-293-309-310-311-312-	الأكاسرة 180-182
313-315-316-317-318-319-320	
322-323-325-326-327-328-329-	
330-331-332-334-335-336-338-	
339-340-342-343-344-345-346-	
347-350-351-353-354-355-356-	
357-358-359-	
الإيطالية 217-244-249-250-313	
الإيطاليين 233	

144-145-152-153-157-170	الابلخانية 18-24
137-139-140-144-145-152	الابلخانيين 18
153-157-170-244	الأيوبيين 354
جاليندران 21-26-122-338	البابلية 13-14-15-16-77-173-175
الجلالثرية 18	178-276-317-328-275-316
الجلالثريون 188	البابليين 16-77-78-79-87-89-101
الجليلية 211-212-228	270-303-316-317
الحرانية 263-264-265-267	البارثيين 16
الحرانيين 266-267	البرامكة 17-186
الحشاشين 187	البرتغالية 227
الخوارج 312	البرتغاليين 258
الداسنيين 312-331-344	البروتستانت 56-58-167-199-235-237
الداسينية 311-311-311-327-328-328	238-239-
330-330	البريطانيين 213
الدوستانية 68-69	البشتون 49
السدومنيكان 234-238-240-241-244	بكر بن وائل 182
245-246-248-239	بلاد ما بين النهرين 12-14-15-16-134
الدوغة 69	281
الروس 203	بني المهلب 17
الروم 208-219-65-163-166-176	بني تغلب 185
194	البهدياتية 329
الرومان 12-59-156-175-181-246	البهدينان 344-37
الرومانية 156-161-179-180-181	البوذية 13-283
267-276	البيزنطية 161-180-182-183-186-207
الزرداشتية 80-185-310-312-313-316	276
327	التار 84-86
الزنوج 191-49	التركمان 14-18-37
الساسانية 80-175-176-179-180-183	التركية 13-135-189-200-214-235
282-283-284	239-246-247-249-296-304-313
الساسانيين 80-180-282-283-17	تغلب 168-177-182-185
السامريين 56-68	تميم 182
السرمان 173-196-197-198-199-208	التوراة 53-54-55-56-57-59-60-62
209-215-231-232-235-240-246	63-64-65-66-68-69-72-75
313-286-250	76-90-95-106-137-139-140

العثمانيون 94 -105 -205 -206 -207 -208	السريانية 161 -174 -178 -183 -184 -185
-190 -293 -313 -12 -21 -23 -24 -27	-186 -194 -231 -236 -240 -247
42	250 -251 -255 -285 -306 -313 13
العدنانية 326	السلاجقة 17
العراقية 97 -102 -103 -111 -113 -115	السلوقيين 79
-116 -117 -122 -123 -124 -125	السنة 57 -70 -71 -74 -75 -85 -91 -97
-127 -128 -129 -130 -131 -132	-101 -152 -185 -186 -196 -232
-133 -135 -137 -144 -146 -148	-233 -234 -236 -242 -243 -246
-149 -181 -200 -201 -203 -214	-256 -271 -272 -273 -292 -312
-223 -224 -228 -230 -232 -245	-316 -318 -321 -331 -337 -343
-248 -252 -253 -288 -294 -295	345
-297 -298 -300 -303 -304 -305	السنهادر 70
-308 -316 -326 -337 -345 -351 -12	السوران 37 -343 -344
-19 -22 -24 -28 -30 -31 -32 -33 -34	السومرية 13 -14 -15 -173 -275 -328
-37 -38 -58 -89 -91 -92 -93 -94	316 -317
العراقيين 113 -115 -125 -126 -128	السومريين 302 -317 -327
-129 -132 -138 -139 -140 -148 -173	الشماسية 247
-190 -200 -201 -227 -229 -243 -247	الشيعة 20 -91 -185 -187
-248 -14 -33 -34 -88 -89 -93 -94	الصفوية 18 -19 -20 -21 -22 -25 -26
العرب 174 -178 -180 -183 -184 -185	-27 -105 -189 -338 -342
-188 -214 -244 -249 -255 -256	الصفويين 19 -21 -27 -28 -105 -114
-258 -262 -266 -291 -327 -349 -12	-211 -292 -338 -339 -340 -341
-13 -14 -15 -17 -27 -30 -36 -53	-342 -343 -344 -345 -346 -350
-80 -81 -83 -87 -120 -136 -137 -147	الطورانيين 187
العربية 13 -14 -15 -20 -21 -25 -33	العباسيون 17 -186 -284
-36 -39 -42 -66 -71 -74 -80 -83 -84	العباسيين 83 -186 -189 -190 -284 -285
-89 -105 -118 -123 -134 -135 -136	-286 -287 -315 -328 17
-137 -141 -144 -145 -146 -148 -149	عبد القيس 182
-176 -178 -179 -182 -184 -185	العبرانية 55 -58 -68 -71
-186 -190 -213 -224 -227 -233 -235	العبرانيون 54
-239 -241 -242 -243 -244 -245 -246	العبرية 53 -56 -58 -59 -61 -62 -64 -65
-249 -250 -251 -252 -255 -282	-66 -68 -69 -70 -71 -72 -74 -84 -135
-286 -291 -297 -304 -306 -307	-137 -139 -140 -141 -144 -145 55
308 -321 -334	

الكلدان 199-200-208-209-210-215	العلويين 45
229-231-232-233-241-246	العموريين 15
248-250-78-173-194-196-197	العيلاميين 15
198	الفارسية 175-179-180-181-182
الكلدانيون 72-74-78	183-184-227-235-247-283
الكلدانية 226-239-240-241-242-245	328-13
249-250-270-16-193-197-209	الفرثية 178-180
214-236-74-78-218	الفرثيين 80-179-276
الكنزاري 258-261-284	الفرس 179-182-183-184-187-189
الكنعانيين 54-281	282-291-311-12-16-17-37
الكوستانية 69	57-79-80
اللاتين 194-237-238-239-241-246	الفرنسية 199-200-201-214-235-236
اللادين 50	238-242-244-245-246-250-24
اللخمييين 17	90-93-141-144
المارانوس 69	الفرنسيين 136
الماشورية 56	الفلاشا 69
المانوية 283-313-327	القرامطة 187
المجوس 179-256	القرآن 255-257-259-278-282-286
المجوسية 13-53	312-359-41-42-55-65-101
المسيحيين 84	102-152-153-154-185-187
المسيحية 55-179-119-147-152-155	القرة قوينلو 188
156-157-158-185-159-160-163	قريش 255-257-326
164-165-169-173-175-177-178	القوش 198-232-233-250-101
179-180-181-182-184-185	الكاثوليك 199-203-208-209-227
187-188-191-192-193-194-199	228-232-235-236-246-250-56
200-203-204-205-206-207-208	58-164-165-166-171-172-194
209-210-211-215-216-217-218	196-197-198
219-221-222-223-224-225-226	الكاشيين 15-16
228-229-231-233-235-238	الکرد 120-313-327-331-333-338
240-244-246-247-251-253	342-344-349-353
276-283-309-319-354-358	الكرديّة 23-216-91-226-320-326
المصريين 270-274-279-77	328-333-334-338-339-340-341
المعتزلة 185	الكرمليين 198-242

168-169-170-171-172-173-176	المغول 330-331-354-12-18-84-86
177-178-179-181-182	92-113-189
النصرانية 279-294-53-86-107-110	الملكانية 164-165
124-152-152-155-156-157	الملكيين 208
159-160-161-165-166-168-173	المماليك 20-22-23-24-212-89
174-176-177-178-179-181	المندائية 58-254-259-264-265-266
186-190-191-194-208-209-211	268-270-271-274-275-276
212-259-270-274-278-293	279-280-281-283-284-287-294
هجر 182	295-296-297-298-299-300-304
الهندوسية 283-68	305-306-307-308
الهنديّة 92-118-119-128-156-201	المنـدائيون 126-254-257-258-264
227	265-266-268-272-273-275-276
الهنود 308-315	279-280-282-283-288-289
الهنود الأحمر 49	290-291-292-294-295-298
الوهايين 22	299-300-302-303-304-305
اليعاقبة 165-196-197-198-199-209	306-307-308-36
231-233-240	الموسويون 55
اليهود 252-256-267-274-275-276	الناصرانيون 258
281-283-287-290-292-293-295	النساطرة 164-179-189-197-198-199
296-298-302-303-305-318-320	120
325-353-16-37-53-54-55	النسـطورية 182-185-187-197-209
56-58-59-60-61-62-63-64-65	164-165
66-68-69-70-71-72-73-75	النصارى 183-184-185-186-188-189
76-77-78-79-80-81-82-83	190-191-193-194-195-196
84-85-86-87-88-89-90-91	197-198-199-200-203-206-209
92-93-94-95-96-97-98-99	210-211-212-215-216-219
101-102-104-105-106-107	220-221-222-223-225-226
108-109-110-111-112-113	227-228-229-230-241-244-251
114-117-118-120-121-122	253-256-271-272-273-287-290
123-124-125-126-127-128	292-293-295-298-305-318
129-130-131-132-134-135	325-353-36-37-53-56-57-58
136-138-139-140-142-143	63-72-81-84-86-89-105-107
144-145-146-147-148-149	108-153-154-155-156-157-158
150-152-153-154-155-156-158	159-161-162-163-164-165

-188 -185-184-175 -168 -164 -162
-227-226 -222-219 -215 -208 -189
اليهودية 229 -270 -283 -319 -358 -13
-62 -59 -58 -56 -55 -53 -51 -36
-78 -76 -75 -72 -69 -68 -66 -65-64
- 101 -100 -99 -91 -90 -89 -80
-112 -111 -109 -107 -105 -104
-121 -119 -117 -116 -114 -113
-134 -132 -131 -129 -126 -125
-140 -139 -138 -137 -136 -135
-154-150 -149 -147 -145 -144 -142
191-190 -176-175 -157-156
اليونانيون 178

أسماء الأماكن والبلدان

أبو غريب 25	انطاكيا 164-175-179-181
أبو كلمك 25	اترجوت 106
أترجوت 106	الإحساء 12
الإحساء 12	الأحواز 175
الأحواز 175	أدي شير 351
أدي شير 351	أذربيجان 27
أذربيجان 27	اريل 98-120
اريل 98-120	اردمان 25
اردمان 25	الأردن 56
الأردن 56	أرمينيا 224
أرمينيا 224	أريحا 54-77
أريحا 54-77	اسبانيا 87-109
اسبانيا 87-109	أستانة 110
أستانة 110	الأستانة 111-112-113-115-116
الأستانة 111-112-113-115-116	إسرائيل 55-58-63-65-66-71-76
إسرائيل 55-58-63-65-66-71-76	130 - 144
130 - 144	اسطنبول 226
اسطنبول 226	الإسكندرية 290
الإسكندرية 290	آسيا 179-180-343
آسيا 179-180-343	أسيا الصغرى 79
أسيا الصغرى 79	آشور 76
آشور 76	الأعظمية 86-90-124-129
الأعظمية 86-90-124-129	افتخار 28
افتخار 28	افريقيا 50
افريقيا 50	أفسس 179
أفسس 179	ألمانيا 86-167-168
ألمانيا 86-167-168	أمريكا 168
أمريكا 168	الأناضول 243
الأناضول 243	الأنبار 13
الأنبار 13	انجلترا 129-168
انجلترا 129-168	الأندلس 164
الأندلس 164	
	الباسك 50
الباسك 50	باشقلا 121
باشقلا 121	باشية 26
باشية 26	باصوفان 323
باصوفان 323	باعدي 333-347
باعدي 333-347	باعذرا 328-334-356
باعذرا 328-334-356	بافلون 323
بافلون 323	باقصرا 334
باقصرا 334	باخذار 328
باخذار 328	البحر الميت 275-276
البحر الميت 275-276	البحرين 178-182
البحرين 178-182	بحراني 333-334-347-356
بحراني 333-334-347-356	البختاري 25
البختاري 25	

تبريز 93	بدره وحاسان 25
تدمر 178	بريطانيا 114-123-127-128-132-149
تركيا 166-212	بريفان 333
تشيكوسلوفاكيا 50	البسيتين 288
تفتيان 334	بشيرين 332
تكرت 25	البصرة 12
تل أبيب 68	بصرى 178
تل خانون 332	البطائح 254-263-265-267-274-283-
تل كبار 121	بطمان 332
تل كيف 193	بعشيقه 333
تلعفر 195	بعقوبة 25
تلكيف 198-217-221-222-233-234-	بعلبك 314
تياري 339	بغداد 340
جبال طوروس 13	بلاد الرافدين 275-276-279-309-316-358-
جبال هكاري 326	359-
الجبايش 288	بلاد فارس 18
جبل الزيتون 71	بلاد ما بين النهرين 134-191
جبل بيخير 218	البندقية 109
جبل حرزيم 68-69	البهائية 36
جبل راوندوز 13	بمدينان 36
جبل سنجار 14	بودابست 106
جبل صهيون 169	بودين 106
جبل عرفات 359	بوزان 335
جبل عيبال 68	بومباي 33
جبل نبو 56	بومبيدوثا 80
جديدة 58	بيان 335
الجراح 184	بيت اسكندر 227
جراحية 334	بيت لحم 169
جرهوية 26	بيت ماري 185
جردانة 334	بيرستك 345
الجزيرة 332-350-353	بيروت 132-136
الجزيرة العربية 14	بيزنطة 164-183
جكانة 334	بيكنغهام 198-199
جمبركات 334	تاز خرماتي 28

داودية 217	جورجيا 333
دجلة 173-178-225-229	حائط البراق 75
دجيل وزيد 26	حائط المبكى 75
دكه 25	حاجي قره 25
دلتاوة 25	حارثية 25
دمشق 17-176-190-191-200-213	حبتون 328
215-250-290	الحبشة 164-176
دهكان 335	حترا 287
دهوك 14-26-91-341-96-121-143	حران 55
195-198-317-323-328-329-333	حصن كيف 332
336-337-339	الحضر 38
دوشقان 334	حكاري 27
دوغات 334	حلب 33
الدولوميت 50	الحلة 89
ديار بكر 332-340-345-19-21-177	الحمدانية 119
341-344	حمير 176
ديالى 276	حنا بطاطو 91
دير الزور 12	الحويزة 20
الدير 332	الحي 27
دير بيجيك 332	الحيرة 177-178-182-183
الديلمالديوانية 90-92-98-118-119	الخابور 218-329
راشدية 185	خالص 26
رانية 96	خانقين 119-142
راوندوز 197-334-13-96-196	خانك 334
ريلة 77	ختارة كبير 356
رضوان 333-26	خراسان 25-165-310
رضوانية 26	خرية صالح 334
الرقه 25-26	خربوت 331
روزي 63	خرم آباد 20
روما 70-166-167-170-175-179-198	خلقيدونية 161
206-244-249-250	الخليج العربي 12
ريكان 121	الخليل 54-101
الزاب الكبير 328-329-352-353	خوزستان 282-288
	داسن 312-313-327-328-329-331-339

سوريا 32-45-165-191-290-309-314	زاخو 336-26-96-121143-175-195
332-323	198-218-234-245-337
سوق الشيوخ 288-289-291-307	زكيه 27
سومر 279-302	زنك أباد 25
السويد 137-201	زيبار 26-96
السويس 229-30-33-93-125-127	زيباري 26
117-128	زنيات 335
سويسرا 168	ساقيز 106
سيناء 178-57	سالنامه 348-25-26-28-91-94-194
سينك 333	199-197-212-237-238-347
شاريا 334	ساليق 174-177-178-182
الشام 25-33-68-105-164-178-182	سامراء 90-93-98
-315-281-275-256-244-238-200	سامره 25
332-318	سبأ 26-28-32-37-39-42-43-44
شامية 26-118-119	50-49
الشبك 36	سبنا 337
الشرش 288-289	سدوم 73
شرش 27	السعدون 90
الشرق الأقصى 303-93-127-129	سمرت 212-332
شروان 20-21	سكوب 105
شمال إفريقيا 125	سلانيك 106
شنكال 342-328	السليمانية 142-193-196-197-199-232
شهرزور 344-353-12-25-26-27-28	233-13-14-96-98
112	السماءة 27
شوان 28	سميل 334
شوحو 121	سنجار 96-195-321-323-333-335
شيخ حضري 334	338-342-347-348-349-350-351
شيخ عادي 347-315-330-333	352-354-355-356-359
الشيخان 322-328-329-330-331-33	سندور 121
-347-346-344-343-339-335-334	سنغافورة 127-93-94
-359-356-355-354-351-350-348	السنك 90-129
صاصون 332	سهل السندي 218
الصالحية 195	سوران 340-343-344-36
صحراء لوط 21	السوران 343-344-36

عين سفني 320-329-333-347-356	صدر سويب 27
الغرب 13	صغار 127
فارس 66-164-174-178-181-182-201-	صفد 94
220	صقلية 164
الفرات 173-180-229-279-288-	صلاحية 96
13-14-19-23-32-27-54-117-	صوركا 334
134	الصين 88-168-180
فرنسا 198-201-203-204-225-229-	طبرية 94-109-58
239-50-109-123-138-139-140-	طهماسية 26
144	طور عابدين 339
فريجيا 79	طورباية
فقيران 323	الطيب 276-284
الفلاحية 120-288-308	عابدين 332
فلسطين 130-136-139-140-150-	عانة 87-92
165-169-170-175-257-275-276-	عبادان 288
16-55-57-58-59-62-66-68-76-	العراق 254-255-257-264-265-275-
77-78-79-94-105-109-119	276-279-280-282-283-284-287-
القادرية 36-101	288-289-290-291-292-293-
القادسية 178-184-284-36-	294-295-296-297-298-299-300-
القامشلي 332	302-303-304-305-306-308-315-
القاهرة 115-132-148-190-191-200-	318-322-323-326-332-333-336-
290	337-338-339-341-342-345-346-
قبان 27	352-355-35
قبرص 109	عريستان 287-288
القدس 154-160-161-162-164-166-	العزير 288-102
169-171-172-175-176-277-	عفرين 332-314
284-58-70-75-94	عقرة 339-26-91-96-195-198-234
قرقوش 234-245-211	العمادية 353-27-91-96-126-121-
قره 338-25-26	195-197-217-241-250
قره تبه 26	العمارة 89-90-98-102-139-143-193-
قرل رباط 25	197-238-288-289-291-293-294-
القسطنطينية 105-160-165-207-208-	295-296-297-298-307-304-
قصر يزدین 334	عمراین 25
قطاريا	عنه 25-26

كوت الإمارة 98	قطيسفون 174-175-177-178-179-180-
كورنثوس 171	182
كوسنحق 195-96	القطيف 12
الكوفة 177-178-197-199-17-27-82	القفقاس 332
الكويت 12-42-47-54	قلب 332
كيش 15	قلعة صالح 288-289-295-298-89
لارسا 15	قلقاتلو 28
لالش 315-318-320-323-330-331-	القوش 101-198-232-233-250
334-336-358-	القوقاز 21
لبنان 290	كابارة 334
لرستان 25	كاظمين 25
لندن 128-129-132-133-139-140-	كبريتستك 334
229-249	الكرادة 90-223
ليديا 79	كريلاء 90-91-92-98-186-288-13-
مار يوسف 232-333-241	17-19-20-26-37-90
ماردين 332-350-12	الكرخ 35-146
مام شيقان 334	کردستان 36-38-92-95-102-117-
مانشستر 229	120-121-122-123-134-150-
المجر 86-106	189-191-193-199-216-224-309-
محاويل 25-119	311-327-340-20
محرزي 27	كركوك 133-142-143-175-193-195-
محمة 288	197-230-232-333-234-235-353-
محمودان 334	13-14-25-27-28-96-98
محمودية 25	كرمان 21
المحيط الهندي 129	كرمليس 218-232-233
المدائن 125-174-175-177-178-180-	كرمنشاه 128
197-282-17	كشكر 174-177-178
المرج 328-339	كفري 25-96
مرو 336-181	الكفل 101-118
منزوري 26	كلعنبر 96
المسيب 83-119	كنج 332
مشرف 334-29	كندا 49-201
المشرق 83-86-161-169-174-175-	كندالا 334
177-178-179-194-197-231-247	كنعان 54-68-154

الناصره 152-169	مصر 238-15-56-69-71-76-77
الناصرية 288-289-291-295-296-297	105-106-110-125-200-201-202
298-307	معمورية 96
نجران 177-184	المغرب 324-83-145
النحف 13-19-37-90-91-92-134	مقبل 334
النويج 168	ملاجا برة 334
نصيبين 332-350-26-102	ملاطية 331
نحر دعا 80	المان 334
النوبة 164	المملكة الأردنية 13
نينوى 57-173-174-177-193-311	المملكة العربية السعودية 13
328-12	المنتفق 90-98-291-296-307-308
هاشمية 25	منصورية 25
هركي 121	مهد 334-12
هضبة أرمينيا 13	مهروود 25
هكاري 326-329-330-332-334	مورغان 310
الهكارية 315-331-358	الموصل 83-84-85-88-90-94-95
الهلل الخصب 14-15-54-76	96-97-98-101-112-113-119
الهند 57-88-93-94-127-128-132-180	120-125-126-133-134-139
200-201-219-225-228-229	142-143-164-174-177-189-191
الهندية 92-201-227-92-118-119	192-193-194-195-196-197
128-156	198-199-201-204-209-210-211
هولندا 168	212-213-216-217-219-220-221
هويرا 121	222-223-225-226-228-229-295
واكد 12	231-232-233-234-238-240-241
الوس 25	244-245-246-247-248-249-250
وطيسفون 177	309-315-320-322-328-329-330
الولايات المتحدة 201-204	331-333-334-335-338-340-342
اليابان 168	343-344-345-346-347-348-349
يزدم 329	350-353-355-356-359
يشوع 178-240-57-58-60-68	ميافارقين 332
اليمامة 182	ميزة 347
اليمن 80-176	ميسان 257-288-306-174
اليونان 48-166-206-209-285	ميشان 174-177-306
	نابلس 68

فهرس الأشكال

الرقم	العنوان	الصفحة
01	منحنى بيناني يبين أعداد يهود بغداد من خلال السالنامات العثمانية (1875-1903م)	95
02	منحنى بياني يوضح تزايد عدد الطلاب في مدرسة الأليانس ببغداد منذ تأسيسها	141
03	أعمدة بيانية توضح توزيع السكان النصارى في ولاية الموصل وأفضيتها لعام 1875م	196

فهرس الجداول

الرقم	العنوان	الصفحة
01	جدول يبين تزايد السكان اليهود في بغداد(1794-1902م)	91
02	جدول يبين توزيع السكان اليهود في بعض المدن العراقية(1875-1903م)	92
03	جدول يبين توزيع السكان اليهود في ولاية الموصل وأقضيته(1892-1907م)	96
04	جدول يوضح عدد السكان اليهود في البصرة(1875-1896ن)	97
05	جدول يبين الأراضي التي تم بيعها غامي 1917 و1918م	120
06	جدول يبين أعداد طلاب مدرسة الأليانس للبنين ببغداد(1864-1911م)	140
07	جدول يبين المؤلفات والمطبوعات اليهودية في الفترة(1891-1905م)	145
08	جدول يبين أعداد نصارى الموصل وأقضيته حسب الطوائف لعام 1892م	196
09	جدول يبين عدد وتوزيع نصارى بغداد حسب الطوائف (1892-1900م)	197
10	جدول يبين عناوين وأسماء مؤلفين وسنة طبع بعض كتب مطبعى الآباء الدومينيكان	240
11	جدول يبين أسماء قبائل الصابئة المندائيون ومناطق سكنها	289
12	جدول يبين أسماء عشائر الأيزيدية ومناطق سكنهم خلال العهد العثماني	333
13	جدول يوضح أسماء عشائر سنجار (الخوركنا والجوان) خلال العهد العثماني	335
14	جدول يوضح أعداد الأيزيديين في العراق خلال العهد العثماني	337
15	جدول يوضح أعداد الأيزيديين في العراق حسب السالنامات العثمانية	337

فهرس الملاحق

الرقم	العنوان	الصفحة
01	خريطة من اعداد الطالب توضح توزيع الأقليات الدينية في العراق خلال العهد العثماني	365
02	مرقد كوهين يوشع أحد المزارات المقدسة ليهود العراق خلال العهد العثماني	366
03	أبرز الشخصيات السياسية للأقلية اليهودية في العراق خلال العهد العثماني	367
04	جدول يتضمن أعداد الطلبة المتحقين بمدارس الأليانس الاسرائيلي في العراق في الفترة الممتدة بين (1865-1915م)	368
05	صورة يوسف رزق الله غنية السياسي والمؤرخ المسيحي من أبرز الشخصيات المسيحية أواخر العهد العثماني وبداية الدولة الحديثة	369
06	صورة تذكارية من حفل توزيع الجوائز بمدرسة شمعون الصفا بالموصل عام 1913م	370
07	الرمز الديني للصابئة المندائيين	371
08	صورة توضح طقس التعميد في المياه الجارية لدى الصابئة المندائيين	372
09	قطع أثرية توضح مدى تطور فن الصياغة لدى الصابئة المندائيين في العراق خلال العهد العثماني	373
10	أبرز الشخصيات المندائية في العراق خلال العهد العثماني	374
11	صورة لطاووس ملك الرمز الديني للأيزيدية	375
12	صورة لمعبد لالش بمنطقة الشيوخان	376

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوعات
	الآية
	الإهداء
	الملخص
	قائمة المختصرات
1	مقدمة
	الفصل التمهيدي
	التعريف بالعراق وبمفهوم الأقليات ابان العهد العثماني (1517-1917م)
12	المبحث الأول: تاريخ العراق قبل العهد العثماني
12	أولاً: لمحة جغرافية عن بلاد العراق
14	ثانياً: لمحة تاريخية عن العراق قبل القرن السادس عشر
22	المبحث الثاني: أوضاع العراق سياسياً وإدارياً ابان الحكم العثماني (1534 - 1917م)
24	أولاً: تقسيم الايالات العراقية في العهد العثماني
28	ثانياً: المناصب الإدارية السياسية والإدارية
30	المبحث الثالث: أوضاع العراق الاقتصادية خلال العهد العثماني 30
30	أولاً: الزراعة
32	ثانياً: التجارة
34	ثالثاً: الصناعة
36	المبحث الرابع: الأوضاع الاجتماعية في العراق خلال العهد العثماني
36	أولاً: خصائص المجتمع العراقي
37	ثانياً: التقسيم الطبقي للمجتمع العراقي
41	المبحث الخامس: مصطلح الأقليات في العراق والدولة العثمانية
41	أولاً: تحديد مفهوم الأقلية
47	ثانياً: علاقة مفهوم الأقلية ببعض المصطلحات المرتبطة به
49	ثالثاً: تصنيف الأقليات

الفصل الأول:	
تاريخ ودور الأقلية اليهودية في العراق خلال العهد العثماني (1517-1917م)	
53	المبحث الأول: التعريف بالديانة اليهودية ومصادر تشريعها
53	أولاً: التعريف بالديانة اليهودية
55	ثانياً: مصادر التشريع في الديانة اليهودية
64	ثالثاً: الفرق اليهودية
69	رابعاً: الأعياد اليهودية
72	خامساً: العبادات عند اليهود
76	المبحث الثاني: تاريخ يهود العراق قبل العهد العثماني
76	أولاً: تاريخ يهود العراق قبل الفتح الاسلامي
80	ثانياً: تاريخ يهود العراق بعد الفتح الاسلامي
86	المبحث الثالث: أوضاع يهود العراق واحصائياتهم ومواقع انتشارهم في العهد العثماني
86	أولاً: أوضاعهم العامة
89	ثانياً: احصائيات يهود العراق وتوزيعهم وحركتهم
99	ثالثاً: تنظيم المجتمع اليهودي ومزاراتهم في العراق
104	المبحث الرابع: الدور السياسي للأقلية اليهودية في العراق:
104	أولاً: موقفهم من الوجود العثماني:
105	ثانياً: علاقة السلطة العثمانية بالأقليات اليهودية
107	ثالثاً: العوامل المساعدة على توسيع دور ونفوذ اليهود في الدولة
109	رابعاً: أدوار اليهود السياسية في الدولة العثمانية
110	خامساً: علاقات يهود العراق بالولاة العثمانيين
113	سادساً: دور اليهود في الحياة السياسية العراقية خلال العهد العثماني
114	سابعاً: نماذج لشخصيات يهودية عراقية في المجال السياسي
117	المبحث الخامس: دور يهود العراق في الحياة الاقتصادية
117	أولاً: دور يهود العراق في الزراعة
123	ثانياً: دور يهود العراق في مجال الصناعة
127	ثالثاً: دور اليهود في المجال التجاري
131	رابعاً: دور اليهود في النشاط المصرفي (الصيرفي)

134	المبحث السادس: تفاعل ودور اليهود ثقافيا واجتماعيا في العراق
135	أولا: دور اليهود في الصحافة والطباعة العراقية خلال العهد العثماني
138	ثانيا: التعليم اليهودي في العراق خلال العهد العثماني
144	ثالثا: دورهم في حركة التأليف والترجمة والأدب
146	رابعا: دورهم في الفنون
الفصل الثاني تاريخ ودور الأقلية النصرانية في العراق خلال العهد العثماني (1517-1917م)	
152	المبحث الأول: التعريف بالنصرانية (نشأتها وعقائدها وفرقها وعباداتها)
152	أولا: تعريف النصرانية والسيد المسيح ﷺ
155	ثانيا: تاريخ نشأة وتطور الديانة النصرانية
157	ثالثا: مصادر التشريع وعقائد النصرانية
164	رابعا: فرق النصارى
168	خامسا: العبادات
171	سادسا: الشعائر عند النصارى
174	المبحث الثاني: تاريخ النصرانية في العراق قبل الوجود العثماني
174	أولا: تاريخ نصارى العراق قبل الوجود العثماني
184	ثانيا: نصارى العراق بعد الفتح الاسلامي
191	المبحث الثالث: أوضاع نصارى العراق في عهد الحكم العثماني
191	أولا: أوضاعهم العامة في العهد العثماني
204	المبحث الرابع: دور النصارى السياسي والإداري في العراق والدولة العثمانية
204	أولا: الأدوار السياسية والإدارية للنصارى في أعلى هرم السلطة العثمانية
208	ثانيا: علاقة نصارى العراق مع العثمانيين
213	ثالثا: شخصيات وأدوار نصارى العراق السياسية والإدارية والعسكرية
216	المبحث الخامس: الأنشطة الاقتصادية لنصارى خلال العهد العثماني
216	أولا: النشاط الزراعي
220	ثانيا: النشاط الصناعي للأقلية المسيحية في العراق
226	ثالثا: النشاط التجاري للمسيحيين

232	المبحث السادس: الدور الثقافي والاجتماعي لنصارى العراق
232	أولاً: المدارس والتعليم عند الطوائف المسيحية
239	ثانياً: دور نصارى العراق في الصحافة والطباعة
245	ثالثاً: دور المسيحيين في الفنون والآداب
الفصل الثالث	
تاريخ ودور الأقليات الأخرى في العراق خلال العهد العثماني (1517-1917م)	
254	الأقلية الأولى: دور الصابئة المندائية في المجتمع العراقي خلال العهد العثماني
254	المبحث الأول: التعريف بديانة الصابئة ومصادر تشريعها وأهم عقائدها
254	أولاً: التعريف بديانة الصابئة المندائيين
258	ثانياً: مصادر التشريع لديانة الصابئة المندائيين
260	ثالثاً: الهيئة الكهنوتية (طبقة رجال الدين)
261	رابعاً: مبادئهم ومعتقداتهم الدينية
263	خامساً: فرق الصابئة وطقوسهم وعباداتهم
275	المبحث الثاني: تاريخ الصابئة حتى عهد الحكم العثماني في العراق
275	أولاً: جذور تواجد الصابئة بالعراق
279	ثانياً: تاريخ صابئة العراق قبل الفتح الإسلامي
284	ثالثاً: تاريخ الصابئة منذ الفتح الإسلامي حتى بداية الوجود العثماني
287	رابعاً: التوزيع السكاني للصابئة واحصائياتهم في العهد العثماني
292	المبحث الثالث: أدوار الصابئة وتفاعلهم السياسي في العراق
292	أولاً: الصابئة المندائيون والسياسة
295	ثانياً: أبرز ممثلي الصابئة المندائيين في الدوائر السياسية
298	المبحث الرابع: الدور الاقتصادي للصابئة المندائيين
299	أولاً: الصابئة المندائيون والزراعة
300	ثانياً: النشاط الصناعي والحرفي للصابئة المندائيين
305	المبحث الخامس: الدور الثقافي والاجتماعي للصابئة المندائيين
305	أولاً: الصابئة المندائيون والتعليم الحديث في العراق

306	ثانيا: تأثير وانتشار الألفاظ المندائية في المجتمع العراقي
307	ثالثا: تأثير ودور الشعراء المندائيون في المجتمع العراقي الجنوبي
310	الأقلية الثانية: دور الأيزيدية في المجتمع العراقي خلال العهد العثماني
310	المبحث الأول: التعريف بالديانة الأيزيدية وعقائدها
310	أولا: التعريف بالديانة الأيزيدية
314	ثانيا: مبادئ وعقائد الديانة الأيزيدية وأوجه التشابه مع الديانات القديمة
318	ثالثا: مصادر تشريع الأيزيدية وطبقاتهم وعبادتهم
325	المبحث الثاني: تاريخ الأيزيديين وأوضاعهم واحصائياتهم في العهد العثماني
325	أولا: أصل وجذور الأيزيديين
329	ثانيا: تاريخ الأيزيديين منذ مجيء الشيخ عدي بن مسافر
332	ثالثا: الأيزيديون أوضاعهم واحصائياتهم وانتشارهم في العراق إبان العهد العثماني
338	المبحث الثالث: تفاعلهم وأدوارهم السياسية في العراق خلال العهد العثماني
338	أولا: علاقة أيزيدية العراق بالسلطة العثمانية
340	ثانيا: مراحل تطور علاقة الأيزيديين مع السلطات العثمانية
343	ثالثا: أبرز الشخصيات الأيزيدية التي لعبت أدوارا سياسية بارزة في العهد العثماني
346	المبحث الرابع: دورهم وتفاعلهم في النشاط الاقتصادي
346	أولا: النشاط الزراعي وتربية المواشي في مناطق الأيزيديين
351	ثانيا: الأنشطة الاقتصادية الأخرى في مناطق الأيزيدية
354	المبحث الخامس: تفاعلهم في الحياة الاجتماعية والثقافية
354	أولا: التعليم والأيزيدية في العهد العثماني
357	ثانيا: نتائج وانعكاسات تدهور الأوضاع الثقافية والتعليم على الأقلية الأيزيدية
360	الخاتمة
364	الملاحق
377	قائمة المصادر والمراجع
الفهارس	
399	فهرس الأعلام
410	فهرس الشعوب والديانات والقبائل

415	فهرس الأماكن والبلدان

422	فهرس الأشكال
423	فهرس الجداول
424	فهرس الملاحق
425	فهرس الموضوعات